الأدب في

عصر العباسيين

(منذ قيام الدولة حتى نهاية القرن الثالث)

أ.د. محمد زغلول سلام

الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية
جلال حزي وشركاه

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه
٤٤ ش سعد زغلول الاسكندرية تليفون /فاكس : ٤٨٣٣٣٠٣



مقدمــــة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين

وبعد فهذه محاولة لدراسة مرحلة فى تاريخ الأدب العربى تشمل من عمر الدولة العباسية ما يقرب من قرنين منذ بداية الدولة وحتى آخر القرن الثالث . وتقع هذه الدراسة فى دائرة التاريخ الأدبى الذى اختلفت مدارسه ومناهجه منذ اختطها المستشرقون فى أخريات القرن الماضى ومطالع هذا القرن ، فكانت لهم انجازات غنية عن التعريف .

وأعقبهم دارسون من العرب ، فى مقدمتهم جورجى زيدان ، ومصطفى صادق الرافعى والدكتور طه حسين والدكتور شوقى ضيف . وإن اختلفت توجهاتهم واهتماماتهم .

وظهرت فى الآونة الأخيرة نداءات لا ترى فى التأريخ للأدب وفق العصور السياسية مؤشراً صحيحاً لتطوير الأنواع الأدبية ، ولا تعطى تصوراً واضحاً عن الظواهر المختلفة وتعددها ، ونموها فى بيئات ، وانتقالها إلى بيئات أخرى لا تجد فيها مجالاً كما وجدت فى البيئات التى نمت وترعرعت فيها .

والتفتت تلك النداءات إلى ما يؤثر فى الأدب من عناصر المكان والجنس والزمان ، وما لها من دور فعّال فى ظهور ألوان جديدة ، وضعف أخرى وتغير ملامح بما تعطيه تلك البيئات من مخزون تراثى متعدد ومتنوع ، وما يكسبه الجنس البشرى بمكوناته الفطرية ، ومواهب خلقية ، فضلاً عن أثر العصر والزمن .

من هنا كانت محاولات فى التأريخ للأدب رفق البيئات التى نشأ فيها على امتداد رقعة الدولة العربية الإسلامية من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب .

وبما اهتدى هؤلاء بما صنعه الثعالبى فى يتيمة الدهر ، وأعقبه الباخرزى فى الدمية ، والعماد الأصبهانى فى الخريدة .

والواقع أن الأثر الإقليمى قوى بعد القرن الرابع — أى فى العصر الذى أرخ له الثعالبى حيث أخذت سيطرة العباسيين تضعف على الأقطار البعيدة عن مركز

الدولة فى بغداد والعراق ، مما أغرى بعض الأمراء وحكام الأقاليم الأقوياء بالاستقلال بالسلطة ، جنبا إلى جنب مع بعض المناوئين والمطالبين بالخلافة دون العباسيين كالفاطميين وبعض أئمة العلويين ، والخوارج فى بلاد المغرب ومصر واليمن والبحرين وعمان .

ودراستنا هذه تعرض للمرحلة الأولى من قيام الدولة العباسية ، مرحلة كبار الخلفاء ، حين كانت الدولة فى أول قوتها وقدرتها السياسية والإدارية . وكان لها من كبار الرجال وعظماء القادة ، ما مكن لها من السيطرة والقيادة .

وبلغت الدولة فى هذه المرحلة الأولى من القوة والغنى ما مكنها من بلوغ هذا الشأو الكبير من الحضارة ، وازدهار الآداب والعلوم والفنون ، مما ظلّ دعامة قوية للبناء المتتابع لحضارة العرب والمسلمين على مدى العصور التالية .

وانصب اهتمامنا فى التأريخ لأدب هذه المرحلة على تتبع آثار المكان ، والأقليم فى تهيئة المناخ المناسب لقيام اتجاهات ، وتبنّى ملامح بعينها ، تكون روافد تصب فى تيار الفكر والأدب .

واشرنا إلى المراكز الثقافية التى كان لها دور كبير فى بناء الثقافة والأدب فى هذه المرحلة ، وكان لها علاماتها الواضحة ، أعنى من بينها البصرة والكوفة وبغداد .

وأشرت فى الدراسة إلى أهمية القيادة الثقافية ، والتوجه الذى شجع عليه الخفاء العباسيون بما أبدوه من اهتمامات بالغة بالأدب شعره ونثره لما عرفوا من دوره الحيوى فى التمكن للدولة ، وارساء دعائم بقائها وقوتها فكان لذلك تشجيعهم للشعراء وسخائهم بالمال الوفير لشراء ألسنتهم وتسخيرها فى سبيل حشد التأييد للدولة .

كذلك كان كبار رجال الدولة يقلدون الخلفاء فى تشجيع الشعراء والأدباء العلماء كسباً للجاه ، وابتغاء حسن السيرة ، وأرضاء لما فى أنفسهم من التطلعات للمعرفة .

ومن هنا كان حتماً علينا أن نشير إلى الدروب والمسالك التى سلكها الخلفاء وكبار رجال الدولة لتشجيع الأدباء والعلماء ، ومن بينها عقد المجالس الأدبية والعلمية ، واستقدام الكتب والمؤلفات من فارس وبيزنطة والهند ، والحض على ترجمتها إلى العربية .

وكان اهتمامنا بالإتجاهات الفكرية والمذهبية واضحاً لآثارها الخطيرة على توجهات الأدباء وألوانهم وأساليبهم ومضامينهم ، التى لا يفهم قولهم دون الإحاطة بها . كما كان أهتمامنا بالعنصر الذاتى للمبدعين من أفراد الشعراء والكتاب لأنه لا يمكن فى رأينا إهماله ، لما له من دور فعال فى انتاج الأديب . ومن هنا كان عرضنا لحيوات الأدباء والشعراء وثقافاتهم ومذاهبهم العقلية والعقدية والفنية .

ولعل العنصر الواضح فى هذه الدراسة هو الاهتمام بالنصوص اهتماماً كبيراً فهى الشاهد المناطق على العصر ، وهى التى تكشف عن نفسها بنفسها ، وتعطى الصورة البيئة دون حجاب من تفسير أو تدخل من رؤية ذاتية أو خاصة لباحث أو دارس .

وبعد فلعل هذه المحاولة تجد مثل ما بذل فيها من ترحيب ورضى . والله بعد هذا هو الموفق والمستعان .

مصر الجديدة
فى أول اكتوبر سنة ١٩٩٣

محمد زغلول سلام

الباب الأول

البيئة وعناصر تشكيل الأدب

الفصل الأول
المكان والأحداث السياسية

ورثت الدولة العباسية بلاد الإمبراطورية الأموية التى امتدت عبر مناطق وسط آسيا من حدود الهند والصين شرقاً إلى سواحل البحر المتوسط وفى شمال أفريقيا من مصر شرقاً إلى المحيط الأطلسى مع بلاد الأندلس فى جزيرة الأندلس ومعظم جزر البحر المتوسط .

هذه الإمبراطورية الواسعة التى تتعدد معالمها الجغرافية ، وتختلف طبيعتها ومناخها اختلافات متباينة شديدة التباين ، كما يختلف سكانها وحضاراتها والسنة أهلها اختلافات متباينة ، شديدة التباين كذلك .

بحار وبحيرات وأنهار وسهول ووديان ، وجبال ، وصحراوات ممتدة ، مناطق غنية بزراعاتها ، معتدلة فى مناخها تجرى أنهارها وتتدفق عيونها ، وسهول واسعة منبسطة ، وجبال عالية تعلو قممها الثلوج ، معظم أيام السنة ، وتجللها شتاء ، وتلال وكثبان عارية من النبات ، وخضرة دائمة ، وأشجار وبساتين ورمال ممتدة وفياف مترامية ، تتناثر فيها شجيرات هنا وهناك ، وتتخللها مرتفعات ، وأجبل متغيرة الألوان .

على هذه الأقاليم الواسعة المتباينة من قارتى آسيا وأفريقيا وأوروبا بسط العرب المسلمون سلطانهم أيام الأمويين ، وورثها عنهم العباسيون . وكانت هذه البلاد وتلك الأقاليم مهداً لحضارات عريقة ، قديمة قدم التاريخ ، نشأت فى وديان الأنهار الكبرى ، فى وادى النيل بمصر ، ووادى الرافدين دجلة والفرات بالعراق ، وسهول سوريا ولبنان وفلسطين ، وعلى سواحل الخليج العربى ، وفى جنوب الجزيرة بأرض عمان واليمن ، وعلى القرن الأفريقى ببلاد الحبشة ، وفى بلاد فارس ، والهند .

وتنقلت شعوب هذه المناطق فى هجرات متتابعة من مناطق أقل خصباً إلى مناطق اكثر خصباً كهجرات الساميين من أرض جزيرة العرب إلى الشمال إلى

سوريا ، ووادى الرافدين ، أو هاجمت شعوبٌ منها شعوباً أخرى ، وأغارت عليها طمعا فى الثراء وقد أغرتها حضاراتها الزاهرة ، وتقدمها ، وما تنعم فيه من رفاهية العيش .

وشهدت المنطقة غارات ، وهجمات شعوب من الشمال من الجبليين ، ومن الشرق ومن الغرب على أرض النيل ، ودجلة والفرات كما شهدت غزوات مضادة من الجنوب إلى الشمال من فراعين مصر ودول الساميين والرعاة الذين سكنوا الجزيرة العربية فى الجنوب والشمال من دول عاد وثمود والبابليين والآكادين والنبط ، والحميريين وجابت أرض هذه المنطقة جيوشٌ شرقت وأخرى غرَّبت ، وثالثة اتجهت شمالاً ، أو توغلت جنوباً . قادها قادةٌ عظام سجَّل لهم التاريخ صفحات طويلة من المجد ، وتحدثت بسيرهم شعوب المنطقة ، وظلت أعمال بطولاتهم تروى فى المأثورات والأساطير ، فرعون والأسكندر ذو القرنين وقياصرة الرومان ، وأكاسرة الفرس .

كما نشأ الأنبياء وظهرت الرسالات ، وطاف الرُّسل وتنقلوا منذ ابراهيم الخليل ورحلته الشهيرة من بلاد الفرات ، ومشرقاً إلى أرض كنعان ، فمصر والحجاز ، وترك بكل هذه البلاد أصداء ، وآثاراً ، فانتسب إليه أهلها وقدسوه ، ورفعوه إلى مرتبة جدهمك الأكبر مبعوث الإله الأعظم ومبلغ رسالاته ، وأب أنبيائه .

وتبعه يعقوب واسماعيل ويوسف ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، وكان للشرق هُداتُه ، وباعثو دياناته ، وَرادةُ شعوبه بوذا وكونفوشيوس وزرادشت .

وفى المنطقة الوسطى ملتقى القارات كان مدار هذه الأحداث ، وتلاق المشرق بالمغرب ، وتلاقحت الديانات والعقائد ، وتناسلت الحضارات ، ونتجت الأفكار والفلسفات .

كذلك كانت هذه المنطقة الوسطى مجالاً للنشاط التجارى ، ودُرُوباً ، ومعابر للتجارة عبر طرقها التجارية التليدة ، طريق الحرير الشمالى من أرض الصين عبر بلاد فارس والعراق فبلاد الشام فسواحل البحر المتوسط .

والطريق الأوسط من جنوب فارس والخليج عبر صحراء الشام فسواحل البحر المتوسط فمصر وأوروبا والطريق الجنوبى عبر بحار الجنوب بحر العرب بحراً أو البحر الأحمر شمالاً ، أو براً من عمان واليمن والحجاز شمالاً إلى الشام ومصر .

وكانت طرق التجارة ، وقوافلها التى تجوب هذه البلاد شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً تحمل معها تراث البلاد التى تمر بها ، وتمزج بينها وتبلغها حيث تستقر قوافلها ويروجونها مع بضاعتهم .

كانت منطقة الجزيرة العربية من شمالها أرض الهلال الخصيب حتى جنوبها فى اليمن السعيد مهداً للديانات الثلاث الكبرى اليهودية والمسيحية والإسلام ، لم يكوّن اليهود دولة ولا امبراطورية ، وجُلُّ تراثهم يعتمد على التجارة ، وأنهم وسطاء بين القوى العظمى ، وحين تكونت دولتهم أو دويلاتهم عبر العصور وعلى فترات لم تدم طويلا ، لم يخرجوا عن حدود أرض فلسطين . وكانت القوى العظمى تبطش بهم إذا ما اختلفت معهم أو أثاروا لها المتاعب . هكذا بطش بهم الفراعنة ، والآشوريون ، فنفوهم إلى بابل ، والرومان اكثر من مرة فبددوا شملهم وفرقوهم فى البلاد ولم تقم لدولتهم قائمة وكونوا فى الجزيرة وعلى طريق التجارة الحجازى مستعمرات تجارية فى وادى القرى ، وبعض مدن تهامة حتى أرض اليمن فى نجران وغيرها ، وأرادوا أن يسيطروا على هذا الطريق الحيوى ، كما كانت لهم بعض جيوب وسط نجد وفى أرض العراق لعلها من بقايا الأسر البابلى .

وتحالفوا مع بعض القوى فى اليمن وآزروا ملوكهم ضد النفوذ الرومانى الحبشى المسيحى فكانت وقعة الاخدود ضد النصارى فى نجران ، وهب لنصرتهم نصارى الأحباش نيابة عن بيزنطة خشية تغلغل النفوذ الفارسى فى الجنوب ، وقد كان اليهود الحلفاء التقليديين للفرس .

ظل اليهود إذا بنفوذهم التجارى ووساطتهم بين القوى العظمى ، وبتراثهم الدينى والثقافى عنصراً مؤثراً فى أرض الجزيرة بإنتشارهم فى هذه المستعمرات والجيوب المتفرقة هنا وهناك . وترددت أنباؤهم فى الأخبار المروية ، والسير ، وفى آداب القوم وأشعارهم ، وكانوا يتباهون بما يملكون من هذا التراث

العقدى والثقافى وبأنهم أصحاب الكتاب وأن غيرهم من العرب أميون ليس لديهم كتاب (التوراة) وهو كنزهم الثقافى ، وبأنهم الفرقة المميزة ، يتعالون بمعرفتهم .

وترى فى شعر العرب قبل الإسلام الذى اشتهر بالعصر الجاهلى ، آثاراً على معرفة اليهود وإتقانهم الكتابة ، وربما كان لفظ « الجاهلية » الذى شاع فى العصر الإسلامى موافقا للفظ الأمية الذى نقله القرآن الكريم بما عُرف به اليهود العرب فى هذا العصر نفسه . وللفظ دلالة متقاربة ، ويعنى الجهل عدم البصيرة ، وعدم المعرفة ، وعدم التحضر ، وعدم التمسك بالقيم الإنسانية والشرائع المنزلة مما يهذب من طبع البشر ، ويحدد علاقاتهم ليسود بينهم السلام .

وكانت رسالة الإسلام الأولى هو هذا السلام الإنسانى فى تهذيب نفس الإنسان وتقويم سلوكه ، وضبط علاقاته مع الآخرين . لهذا اعتبر عقائد العرب وسلوكهم وضروب تعاملهم جهلاً وجاهلية .

وكانت النصرانية فى حماية دولة عظمى فى المنطقة هى دولة الروم (بيزنطة) وكان نفوذها يمتد إلى الشام ومصر والحبشة وبلاد الهلال الخصيب شمالىّ العراق وأرض أرمينيا وهى منطقة الإحتكاك والصدام المستمر بين الفرس والروم .

لقد كان العرب فى غرب الجزيرة نصارى ، ووثنيين ويهود يخضعون إلى حد كبير للنفوذ البيزنطى ، بل أنهم يتحركون فى دائرة هذا النفوذ ، وترتبط مصالحهم إلى حد بعيد بدولة الروم والدولتين النصرانيتين الكبيرتين الخاضعتين لهما وهما مصر والحبشة .

كما أن الشام تحت النفوذ البيزنطى مباشرة عن طريق أمراء من العرب الغساسنة النصارى .

وكانت دولة الحيرة وأمراؤها المناذرة نصرانية مع خضوعها للنفوذ الفارسى وكانت كثير من قبائل الشام وأطراف العراق العربية تدين بالنصرانية . كاياد والعباديين وتغلب ، وبعض بطون طىّ .

بل إن النصرانية تغلغلت كذلك فى بعض مناطق نجد والحجاز ، وكان لها جيوب فى حواضرها وقراها .

وحملت النصرانية معها تراثها الفكرى والحضارى ، فأثرت آثاراً متباينة فى العرب تتفاوت بتفاوت الالتحام والتجنُّب أو القرب أو البعد من المؤثرات المباشرة ، وكان للتراث الفارسى ،— وهى القوة العظمى الثانية فى المنطقة فى القرون الثلاثة السابقة على الإسلام — أثره على العرب ، ويتفاوت هذا الأثر فى قربه أو بعده عن مركز هذه القوة . ذلك أن شرق الجزيرة من بلاد البحرين وساحل الخليج وشرق نجد وشماله كانت أكثر تعرضاً لذلك الأثر .

ذلك أن قبائل تلك الأماكن كانت خاضعة خضوعاً مباشراً أو غير مباشر للنفوذ الفارسى ، فقد كان اللخميون ورعاياهم من عملاء الفرس ، كذلك كانت قبائل تميم وأسد ، وطىّ ، وذبيان على اختلاف درجاتهم قرباً وبعداً ، طاعة وتمرداً .

وحاول الفرس مناجزة الروم فى مناطق التلاحم أو الصدام وهى المناطق الحاجزة بين نفوذ كل من الدولتين ، وتسكنها قبائل عربية تنقل ولاؤها بين القوتين العُظميين .

وكانت قبائل شرق الجزيرة تدور فى فلك القوة الفارسية تثيرها تلك القوة على قبائل غرب الجزيرة لتحّد من أثر الروم ، وتقلم من أظافرها فى وسط الجزيرة .

وبعث الإسلام وسط هذه البيئة التى تتصارع فيها القوى والثقافات وكانت قريش القبيلة الرائدة ، مكانة ، وعزة ، وثراءً ، والمهيمنة على الكعبة قبلة كثير من عرب ما قبل الإسلام ، ومناط عبادتهم ، كما كانت المهيمنة على التجارة فكانت مؤهلة بحكم موقعها ، ومكانتها لأن تكون حاملة الدعوة الإسلامية إلى الناس . إلى عرب الجزيرة أولاً ، ثم إلى الناس كافة شرقاً وغرباً .

وهكذا كان ، وجاء الإسلام يبعث النبى محمد ﷺ ونزول القرآن ، والموقف واضح فيه من القوتين الروم والفرس . فهو أكثر ميلاً إلى الروم ، وأشد عداوة للفرس ، وهكذا كانت ضربة الإسلام الأولى موجهة إلى فارس ،

ثم إلى الروم ، وكانت حرب الروم فى بدايتها أقل ضراوة ، لأنهم كانوا حلفاء الأمس ، وأهل كتاب .

وربما كان هذا الموقف الإسلامى من الدولتين ما دعا إلى هذا التوغل السريع فى بلاد الفرس والمشرق ، وتدفق العرب بكثافة فى أول العهود الإسلامية إلى تلك البلاد واستيطانها ، بينما جاء تدفقهم الى ممتلكات الروم بالمغرب وشمال أفريقيا فى زمن متأخر إلى حد ما ، وكان فتح بيت المقدس ، ومصر يميل إلى المسالمة والمعاملة الحسنة أكثر من العنف والتصفية بالنسبة للفرس .

وهكذا كان هذا الموروث التاريخى والتراث عاملاً موجهاً للعلاقات العربية الفارسية طوال العصر الأموى وبداية العصر العباسى .

لقد كان وضع قريش متميزا قبل الإسلام ، وبعد الإسلام زاد هذا الوضع تميزاً بالنبوة والخلافة الراشدة ، فقد كانوا جميعاً من قريش وقد أثر هذا التميز الذى استثمرته قريش فى الحفاظ على القيادة ، والإصرار على أن تكون الخلافة أو الإمامة فيها ، أثر هذا الوضع بالضرورة على مواقف القبائل العربية التى كانت منافسة ، والتى رأت بعد وفاة النبى ﷺ أن تنازع قريش الخلافة ، كما حدث بالنسبة للأنصار الأوس والخزرج ، أو تنازعها المكانة الدينية بادعاء نبوات ظهرت فيها ، وارتدت بها عن الإسلام كتميم وبعض قبائل الشرق كحنيفة وغيرها .

ولكن أمكن قهر كل هذه التحركات المعارضة تحت راية الإسلام ، وبقيادة قريش أيضاً ، وقادتها المظفرين ، وعلى رأسهم خالد بن الوليد قائد جيش قريش فى معركة أحد قبل إسلامه ، وقائد أحد الفيالق الإسلامية فى فتح مكة .

وكان تولّى معاوية الخلافة بعد على بن أبى طالب رضى الله عنه تكريساً لنفوذ قريش ، وتمكينا لرئاسها وأصبحت الخلافة ، والرئاسة الدينية والزمنية مرتبطتين بقريش فلابد وأن يكون الخليفة أو الإمام قرشياً بحكم الجماعة الإسلامية التى أيّدها الأمويون بنفوذهم وغلبتهم على بقية الفرق الإسلامية ، والخوارج بصورة خاصة ، وهم الفرقة التى لم تشترط فى الخليفة انتماءه لقريش ، بل كان شرطهم فيه التقوى والتمسك بالمبادىء والقيم الإسلامية حتى لو كان عبداً حبشياً .

ويلاحظ أن جمهرة كبيرة من مؤيدى الخوارج وأتباعهم كانوا من القبائل المنافسة لقريش سواء قبل الإسلام أو بعده .

تبنى القرشيون ، والأمويون خاصة سياسة العصبية للعرب والعروبة فى دائرة الإسلام أو من خلال العقيدة الإسلامية ، مع أن القرآن نصّ على المساواة بين الشعوب والقبائل ، إلاّ أن هذا النصّ ظل معطّلا بصورة واضحة ، مما دفع إلى التذمّر وقيام كثير من الثورات ، والحركات المعارضة ، وأثارت الدعوة القرشية والعصبية العربية ثائرة الشعوب ، التى فتح المسلمون العرب أرضها ، وبخاصة الفرس . وكان للوضع بين العرب والفرس قبل الإسلام انعكاساته وردود أفعاله على العلاقة العربية الفارسية ، بعد الإسلام ، فقد شعر الفرس بأنهم أهل الحضارة والتفوق ، وقد أصبحوا رعية من الدرجة الثانية فى دولة الإسلام الأموية ، وأن الارستقراطية القرشية بالذات بحكم العداوة التقليدية القديمة وسلسلة الأحداث المتعاقبة فى معارك المسلمين بقيادات قرشية فى القادسية ونينوى وغيرها ، وما تلا ذلك من هزيمة آخر ملوك الفرس يزدجرد ، واقتسام ثروته وأمواله وبناته ، بين سادات القرشيين ، وإذلال الفرس حتى يدخلوا الإسلام ، وحتى من أسلم منهم يظل مواطناً من الدرجة الثانية بعد العربى . وطوال عصر الأمويين لم تخمد نار هذه الفتنة الفارسية ، وعنها نشأ الصراع العرق الذى عرف فى التاريخ العربى والإسلامى بالشعوبية أو حركة الموالى . ذلك الصراع الذى أثّر فى مصير الدولة العربية الإسلامية وتوجهاتها الحضارية آثارا بالغة .

لقد أرست الدولة الأموية سياسة التعصب لقريش والعرب ، وأغضبت بعض الشعوب الإسلامية التى اعتنقت الإسلام وأصبحوا من الموالى ، وفى مقدمتهم الفرس ، كما أغضبت عناصر عربيةً أخرى ساءها أن تنفرد قريش بالحكم دون غيرها من العرب كما أغضبت عناصر قرشيةً أيضا ساءها أن ينفرد بنو عبد شمس دون سائر قريش بالخلافة ، وأن يجعلوها ملكاً وراثياً فى أبنائهم .

وكان موضوع الخلافة هذا ، كموضوع العصبية العربية القرشية مثاراً للنزاع والصراع بين الفصائل العربية والإسلامية طوال العصر الأمويّ ، وامتد إلى أزمان طويلة فى عصر العباسيين .

والتحمت قضية الموالى ومشكلتهم ، وقضية الخلافة وأحقية من يليها معاً فى الدعوة العلوية العباسية التى زعزعت حكم الأمويين ، وانتهت خلافتهم بانتصار جيوش أبى مسلم الخراسانى على مروان بن محمد فى موقعة الزاب سنة ١٣٢ هـ وتولى أبى العباس السفاح أول خليفة عباسى .

سبق قيام الدولة العباسية الدعوة السرّية للعلويةً ولهم باعتبارهم هاشميين وكانت تلك الدعوة وسيلة جديدة للاستيلاء على الحكم بتأليب الناس ، واكتساب الأعوان والأنصار سرًا حتى إذا ما وثقوا من قوتهم أعلنوا عن أنفسهم ، فجيّشوا الجيوش وخاضوا المعارك وانتصروا ، واحتازوا الخلافة والحكم .

وانتشرت الدعوة العلوية العباسية بانتشار الدعاة بين القبائل العربية أولاً من المدينة وعلى أرض الحجاز ، ثم بين قبائل العراق ممن يدينون للعلوية بالعراق ، وتمركز دعاتُهم بالكوفة ، ومنها أرسلوا بالنقباء إلى جميع أنحاء العراق وفارس . وقويت الدعوة بخراسان خاصة ، واستجاب لها الناس .

وكان لانتشار الدعوة العلوية العباسية عدة أسباب :

منها قسوة الأمويين فى حرب العلوية والهاشمية ، وتعقبهم أياهم فى كل مكان والتخلص منهم بالقتل . وكانت حادثة مقتل الحسين بن على مثلاً صارخاً على تلك القسوة الدموية ، واستغل العلوية والعباسية هذا الحادث أكبر استغلال فى التمهيد لدعوتهم بتأليب الناس على بنى أمية مخاطبين حسّهم الدينى والإنسانى ، وتعاطفهم مع آل البيت ، وقد وجد هذا الوضع العلوىّ تعاطفا عند الشعوب المضطهَدة ، ولدى المستضعفين المقهورين من الرعيّة .

كذلك لعب الدعاة على أحقية العلويين بالخلافة ، وبأنهم ظلموا ، واغتصبوا حقّهم فيها . ولعب الدعاة على العصبية القبلية كما لعب الأمويون من قبل ، واستمالوا من القبائل من كان يضمر الكراهية للأمويين وقريش عامة .

وساعد على ضعف المواجهة من الأمويين للدعوة العباسية تصدع الجبهة الأموية بما كان من الصراع داخل البيت الأموى نفسه .

وكانت صور الصراع بين العرب والعرب تعكس دموية البداوة ، وثأرية

الأنتقام ، مما يدلُّ على أن الأثر الإسلاميّ فى تهذيب جهالة العرب ، لم يبلغ غايته ، فلم تسلم له النفوس قيادها رغم مرور قرن من الزمان على قيام الدعوة .

وانتهى هذا الصراع الدموى بين الأموية والعلوية العباسية إلى قيام دولة العباسيين ، واغتصاب العباسيين للملك والخلافة وحدهم دون رفقائهم العلويين الذين قامت الدعوة على أنصارهم ، ومحورها استرداد حقهم فى الخلافة التى اغتصب من على وابنائه ظلماً دون حق .

وأدّى الصراع الأموى العلوى العباسى إلى ردود فعل واسعة بين المسلمين ، فقد رأت جماعات منهم أن مبادىء الإسلام وقيمه وشرائعه التى تحمل روح العدل والإخاء والمساواة ونصرة الضعيف ، والمسالمة بين المسلمين ، ومشاركة غنيهم لفقيرهم فى الثروة ، ومعاونة قويهم لضعيفهم فى الحق . كل هذه القيم الرفيعة رأوها أُهدرت وأُحرقت فى أتون المعارك ، فقد قاتل المسلم أخاه المسلم ، ودسَّ له وخانه ، واغتصب حقّه ، ولم يرع قويّهم حق الضعيف فأهانه ، وشرّده وأذله ونكّل به .

كانت فتنة أوقد نيرانها التحكيم بين علىّ ومعاوية ، وأجج لهيبها دهاء عمرو بن العاص ، وسياسة معاوية فى اجتياز الملك له ولأبنائه وعشيرته .

وكان من اصداء هذه الفتنة انقسام الأمة فكريًّا حول موضوع الخلافة ، وأحقية من يشغلها ، وشرعية توليه إياها . وراجع جماعة من العلماء مواقفهم منها ، وتساءلوا حول مسئوليات المقتتلين عليها ، والمدعين بتكفير بعضهم بعضاً مع أنهم من السابقين إلى الإسلام ، وبعضهم من المبشرين بالجّنة .

وتساءلوا عن الحقّ وسط تلك الشبُه المثارة من كل طرف ، فكلٌّ يدّعى الحق لنفسه ، ولا يفتقر إلى دليل من نصّ فى كتاب الله ، أوحديث لرسوله ﷺ .

ويثور بين العلماء الجدل حول قضية الحكم وشرعية الخلافة ، والبيعة ، وصحة إجماع الأمة ، وما هو مفهوم الإجماع وحدوده . وصحة البيعة ، ومتى تصحّ وقد سُلِب المبايعون من أهل الحلّ والعقد حرية الرأى بضروب من القهر والضغط المادىّ والمعنوى .

الحقيقة أن تجربة الحكم والصراع حول الخلافة بين طوائف الأمة الإسلامية حتى قيام الدولة العباسية أثارت كثيراً من التساؤلات وأدت إلى اجتهادات ومناقشات حول الخلافة والإمامة . بين من يرى البيعة تفويضاً من الناس المحكومين للخليفة لتولّى أمورهم ، والحفاظ عليهم وحمايتهم وحماية الإسلام من أعدائه ، وأن يكفل الخليفة لرعيته العّدل ، وعدم الجور ، والأمن والأمان ، وتسهيل سبل الرزق، وله عليهم بعد هذا حق الطاعة ، وأن يأخذ الخارج على الجماعة بالشدة حتى يسلك سبيل الرشد ، ويتبع النظام العام ، ولا يحيد عن الجادة .

ورأى العلويون أن يأخذوا بالأمامة ، وهى تتضمن التفويض الإلهى فيمَن يتولى أمر المسلمين وبالوصية من الإمام إلى من يليه دون أخذ البيعة . وضمنوا حق الوراثة بهذا التفويض بإعتبار النبى ﷺ مفوضاً من الخالق فى إمامة الرعية وهدايتها ، وقد انتقل هذا الحقّ بالوراثة عن طريق ابنته فاطمة إلى أبنائها من على بن أبى طالب ، وبالوصيَّة من النبى ﷺ إلى على ثم من على إلى أبنائه .. وهكذا ..

وضم العباسيون فى شرعية الخلافة بالنسبة إليهم المعنيين معاً ، معنى البيعة من المحكومين ، والوراثة الشرعية عن النبىّ صاحب الدعوة الأولى . وكان هذا الموقف من الخلافة مناط النزاع بين العلويين والعباسيين ، كلٌ يدّعى الحقّ لنفسه حسب رؤيته .

ومهما يكن من أمر هذا الجدل السياسى حول الخلافة فإن العباسيين قد أمسكوا بزمام الأمور ، ولم يتركوا لابناء عمومتهم العلويين فرصة مشاركتهم . بل لقد تعقبوهم وحاولوا تصفيتهم، كلما قام منهم من يطالب بحقه حروب وقتل .

أبو العباس عبد الله السفاح : (١٣٢ـ١٣٦ هـ) :

تولى أول خليفة من بنى العباس ، وهو أبو عبد الله السفاح سنة ١٣٢ هـ وكان تنصيبه بالكوفة ، ودخل قصر الإمارة حيث تمت مراسم البيعة[1] .

وارتقى المنبر ، وخطب خطبة البيعة ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه . وذكر عظيم منته ، وفضل النبى ﷺ ، ومن قام بالولاية والوراثة حتى انتهت إليه ، ووعد الناس خيراً ثم سكت .

ومن بعده تكلّم عمُّه داودُ بن علىّ وهو على المنبر دون السفاح فقال : « إنه والله ما كانَ بينكم وبين رسول الله ﷺ خليفةٌ إلا علىّ عليه السلام ، وأمير المؤمنين هذا الذى خلفى . ثم نزلاً » .

فكأنهما لم يعترفا بخلفاء الأمويين ، واسقطوهم من تاريخ الدولة . لأنهم كما هو مبين ووفق نظريتهم تولوها عن غير حق ، وسلبوها لأنفسهم بالتحكيم دهاء وتدبيرا .

وكان الخليفة العباسى الأول أبو العباس إذا جلس فى مجلسه فى أول أمره يظهر لجلوسه وندمائه ، ثم احتجبَ عنهم وذلك بعد سنة خلت من ملكه . فكان يجلس من وراء ستارة على سنة ملوك الفرس .

وكان طبيعياً أن يأخذ الخليفة العباسىّ بنظم الملك الفارسى وطقوس الأكاسرة وقد جاءوا على أسنة رماح الفرس ، كما كان معاوية وخلفاؤه يأخذون برسوم الروم ويتبعون نظم قياصرتهم لأنهم أحاطوا أنفسهم بمستشارين وفنيين هضموا حضارة الروم فى أرض الشام مئات السنين . بل واستعانوا بالروم فى بناء قصورهم ومساجدهم .

وهكذا انتقل الأثر الحضارى من الروم إلى الفرس مع انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين . واستمع الخليفة العباسى الأول لنصائح مستشاريه بأن يقتدى بملوك الفرس ، فيتخذ مثل مجالسهم ، ويلبس ثيابهم ويحيط نفسه بالأبهة والجاه والرهبة ليوقع الهيبة فى نفوس الرعية ممن يدخل عليه .

وقيل إنهم زينوا لهذا الخليفة الأول اتخاذ الجوارى من النساء .

(١) مروج الذهب ٣ / ٣١٠ .

قال المسعودى : « وكان السفاح يعجب بالمحادثة ، ومفاخرات العرب من نزار واليمن والمذاكرة بذلك »[1] . وهى سنة عربية لازمة مع اتخاذ ذلك المظهر الفارسى .

أبو جعفر المنصور (١٣٦ـــ١٥٨ هـ) :

ثانى خلفائهم ، ومؤسس دولتهم الحقيقى . وكان شخصية فذّة فى السياسة والدهاء ، والحزم مع القسوة والرغبة فى الإنفراد بالرأى .

بويع بالخلافة وعمره إحدى وأربعون سنة وتوفى سنة ١٥٨ وعمره ثلاث وستون وكانت مدة خلافته اثنتين وعشرين سنة .

وعقب توليه الخلافة عمل على تصفية منافسيه ومعارضيه، ومن يخشاهم من ذوى النفوذ وبدأ بأبى مسلم الخراسانى قائد الخرسانية والعباسية المظفر والذى مكنه من أعمامه وشيعته من العباسيين ممن أراد أن يسلبه الخلافة .

وكان المنصور قد استعان بأبى مسلم فى تصفية جيوب الأمويين، وكما كان أداته فى حرب مناوئيه من العباسيين مثل عبد الله بن على بالشام .

وأحس المنصور من أبى مسلم قوة تهدد سلطانه فخادعه ودعاه ، ثم قضى عليه وبمجلسه فى أول عام من ولايته سنة ١٣٦ هـ .

وأغضب اغتيال أبى مسلم أنصاره من الخراسانية ، فتحركوا ضد المنصور لكنه استطاع اخماد حركتهم .

وبعد فراغه من أبى مسلم تعقب العلويين ، وكانوا يقضّون مضجعه ، لمطالبتهم بالخلافة من دونه . ويروى المسعودى خطبة لأبى جعفر المنصور بعد قضائه على جماعة من العلويين يخاطب الخراسانية :

« يا أهل خراسان : أنتم شيعتنا وأنصارنا ، وأهل دعوتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا خيراً منا ، إن ولد ابن أبى طالب تركناهم والذى لا إله إلا هو والخلافة ، فلم نعرض لهم لا بقليل ، ولا بكثير . فقام فيها على ابن أبى طالب

---

(١) مروج الذهب ٣ /٢٢٩ .

رضى الله عنه فما أفلح ، وحكّم الحكمين ، فاختلفت عليه الأمة وافترقت الكلمة ، ثم وثبت عليه شيعته حتى مات على فراشه ، ثم قام من بعده الحسن بن على رضى الله عنه ، فوالله ما كان برجل . عرضت عليه الأموال فقبلها ، ودسّ إليه معاوية إنّى جاعِلُكَ وليَّ عهدى فخلعه وانسلخ له عما كان فيه ، وسلّمه إليه ، وأقبل على النساء يتزوج اليوم واحدة ، ويطلّق غداً أخرى . فلم يزل كذلك حتى مات على فراشه .

ثم قام من بعده الحسين بن على رضى الله عنه فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة وأهل الشقاق والنفاق ، والإغراق فى الفتن أهل هذه المِذرة السوء — وأشار إلى الكوفة — فوالله ما هى لى بحرب فأحاربها ، ولا هى لى بسلم فأسالمها . فرّق الله بينى وبينها — فخذلوه وأبرأوا أنفسهم منه ، فأسلموه حتى قُتل .

ثم قام من بعده زيد بن على فخدعه أهل الكوفة وغرّوه . فلما أظهروه وأخرجوه أسلموه .. فنمّ على خروجه ، فقتل وصلب بالكناسة .

ثم وثب بنو أمية علينا فابتزونا شرفنا ، وأذهبوا عزّنا . والله ما كان لهم عندنا بِرّةً فيطلبونها . وما كان ذلك كلّه إلا فيهم وبسبب خروجهم ، فنفونا عن البلاد ، فصرنا مرة بالطائف ، ومرة بالشام ، ومرة بالسَّراةِ حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصاراً ، فأحيى الله شرفنا ، وعزّنا بكم يا أهل خراسان ، ودفع بحقكم أهل الباطل ، وأظهر لنا حقنا ، وأصار إلينا أمرنا وميراثنا من نبيِّنا ﷺ ، فقرَّ الحق فى قراره ، وأظهر الله مناره وأظهر أنصاره (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) والحمد لله رب العالمين »[1] .

وهكذا استتب للمنصور الأمر بعد قضائه على منافسيه وأعدائه ، ومن خشى على سلطانه منهم .

وكان المنصور كما قلنا أكثر بنى العباس حزماً وشدة وبأساً ، ويقظة ، وثباتًا . وكان وقته مقسما بين النظر فى أمور الدولة والعبادة والراحة بين أهل بيته .

---

(١) مروج الذهب ٣ / .

وكان جادًّا فى مجالسه ، وربما ذلك لأنه تولى الخلافة رجلاً ناضجاً ، ولأنه قد حنكته التجارب وصقلته الشدائد فى معارك العباسيين فى مرحلة التمهيد للدولة ، كذلك لما اتسمت به شخصيته من الجد وعدم الميل إلى اللهو والعبث .

وكان يهتم باختيار عماله ورجال دولته . روى أنه قال : « إنَّ المُلْكَ لا يستقيم إلا بأربعة رجال : الأول قاض لا تأخذه فى الله لومة لائم ، والثانى صاحب شركة ينتصِفُ للضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية ، والرابع صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة » .

كذلك عرف المنصور بحسن تدبيره للمال حتى لا ينفقه فى غير جهته ، مما جعل خزائنه تمتلىء بالأموال . فترك لابنه المهدى زخراً وخزانة عامرة ينفق منها عن سعة .

وخلف المنصور الدولة مُستَقِرَّةَ الآساس ، فتولى ابنه المهدى ، وقد تمكنت دعائم الدولة ، ولم يحتج إلى هذا الجهد البالغ الذى بذله أبوه المنصور فى حرب المنافسين والمعارضين ، ولم يبلغ درجته فى الشدة والقسوة والحكم القهرى الاستبدادى ، بل عامل الرعية بقدر من الرفق ، وسمح لهم بقدر من الحرية ، والتنعم بآثار النعمة والرخاء التى أدّت إليها خلافة المنصور .

محمد المهدى (١٥٨ــ١٦٩ هـ) :

وكان من خلقه الحياء ، والعفو والحلم ، والعدل بين الناس ، وكره الظلم واعتاد الجلوس للنظر فى المظالم ، وبين يديه القضاة يحكمون بين الناس . وكان كأبيه المنصور لا يشرب الخمر ، وإن كان يستمع أحيانا إلى الغناء .

وخالف والده فى سخائه بالمال ، إذ كان المنصور شحيحاً به ، لا ينفق منه إلا فى حاجة ، ولا يضع الدرهم والدينار إلا فى موضعه ، حتى وصف بالبخل .

وكان المهدى عربياً فصيح اللسان ، تلقى علوم اللغة والأدب ، وتأدب على المفضل الضبّى الراوية المشهور . وكان ميالاً إلى أهل السنة ، لا يرى مخالفة ما يروونه عن رسول الله ﷺ ، وربما كان ذلك تحولاً منه عن الخط الذى بدأت

به الدولة بتأثير التحالف مع العلويين ، فقد كان العباسيون مع العلويين فى أثناء الدعوة ، وفى بدء الدولة إذ كان دعاتهم يقعون فى الشيخين أبى بكر وعمر ، ويقدمون عليهما علياً فى الرتبة إلا أن التحول إلى عقيدة السنة واحترام الشيخين وتأخير رتبة على بعد عثمان حدث فى مراحل متأخرة بعد الإنفصال العقيدى فى الفكر بين العلويين والعباسيين وبعد مراحل متتابعة من الصراع على الخلافة بين الفريقين .

وكان المهدى سخياً ينفق ببذخ فى غير إسراف ، ويتحبب إلى الرعية بحسن المعاملة ، وانفاق المال عن سعة . يقول المسعودى : « وكان المهدى محببا إلى الخاص والعام لأنه افتتح أمره بالنظر فى المظالم ، والكفّ عن القتل ، وأمّن الخائف ، وأنصف المظلوم ، وبسط يده بالعطاء ، فأذهب جميع ما خلفه المنصور »[1] .

ودامت خلافتُه أحدى عشرة سنة كانت فى معظمها سلاماً وأمناً من الرعية على أنفسها ، ورغداً ونعمةً وبحبوحة مهدت لأيام الرشيد .

وهادن المهدى العلويين والطالبيين عامة. وأخمد ثورة المقنّع الخراسانى للثأر لأبى مسلم . وتوغلت جيوشه فى بلاد الهند ، كما بعث بأخيه هارون الرشيد على رأس جيش إلى حدود الروم فتوغل فى بلادهم حتى بلغ خليج القسطنطينية . واضطر ملك الروم إلى مهادنته ، وكسب وده بمال جزل ، وعادَ مظفراً غانما . ويقول فى ذلك مروان ابن أبى حفصة :

أطفت بقسطنطينية الروم مُسنداً	إليها القنا حتى اكتسى الذلّ سورُها
وحاربتها حتى أتتك ملوكها	بجزيتها والحربُ تغلى قدورُها

وشدّد المهدى على الزنادقة والمارقين ممن خرجوا على حدود الدين وأباحوا لأنفسهم ما حرّمه ، وعاقب من سلك من الشعراء مسلكاً لا يليق فى العقيدة والحياة . واستمع فى هؤلاء إلى أقوال الشيوخ ورجال الدين المتنسكين المتمسكين باسباب عقيدتهم والمناصبين لأولئك المتحررين فى القول والفعل من أمثال بشار وحماد عجرد ومطيع ابن اياس وغيرهم . وكان يعاقب على شرب

---

(١) مروج الذهب ٣ /٣٨٢ .

الخمر فضلاً عن السماح به فى العلن على عكس من جاء بعده من الخلفاء أمثال موسى الهادى والرشيد والأمين .

وانقضت أيام المهدى وتلاهُ ابنه موسى الهادى .

موسى الهادى (سنة ١٧٠ هـ) :

تولى بعد أبيه المهدى ، وكانت فترة خلافته قصيرة ، ولم يتميز حكمه بإنجاز هام وكان فى أخلاقه شِدة كما روى أبو الفرج «شكس الأخلاق، صعب المزاج ، من توقّاه وعرف أخلاقه أعطاه ما أمّل ، ومن فتح فاه أو اتفق له أن يفتحه بغير ما يهواه أقصاه واطرحه . وكان لا يحتجب عن ندمائه ، ولا عن المغنين. وكان يكثر جوائزهم وصلاتهم ويواترها » .

وذكر المسعودى أنه كان سريع الغضب ، مندفعاً ، ليس لديه توسط وكانت أمه الخيزران فى أوائل حكمه ذات نفوذ ، تجلس للناس ، وتقضى حاجاتهم وضاق موسى الهادى بتدخلها فى شئون الحكم ، وبأنها تعارضه فيما يتخذه من القرارات ، وتقرب إليها بعض أرباب السيف والقلم من القادة والأدباء والكتاب والعلماء ، فطلب إليها أن تمتنع وأن تكف عن التدخل فى شئون الحكم . وأمرها بعدم الاتصال بأحد من رجال الدولة ، كما هدد هؤلاء بالعقاب إذا ما اتصلوا بأمه لقضاء حاجاتهم .

ومع ما اتصف به الهادى من حدّة فى أخلاقه ، فقد روى أنه كان محباً للأدب والأدباء ، يجزل عطاء الشعراء . ويحب أن يدخل إليه الناس فينظر شكواهم . وأمر حاجبه بأن لا يمنع أحداً عن لقائه .

كما يروى المسعودى أنه أول من شرب النبيذ من الخلفاء العباسيين وكان يسمع الغناء . وحاول قبيل وفاته أن ينقل ولاية العهد من أخيه هارون إلى ابنه إلاّ أن الموت عاجله ، وحالَ دون تحقيق رغبته .

هارون الرشيد (١٧٠ هـ — ١٩٣ هـ) :

بويع بمدينة السلام ، وظلت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وستة أشهر وكان عمره يوم تولى إحدى وعشرين سنة ومات وهو ابن أربعة وأربعين . واستوزر يحيى بن خالد البرمكى . وكان وزيراً لأبيه وأخيه ، وكان له فضل فى نصح

أخيه الهادى بعدم الإقدام على عزل هارون عن ولاية العهد . لهذا حفظ هارون هذا الجميل ليحيى . وكان يقول له : يا أبت أجلستنى هذا المجلس ببركتك ويمنك وحسن تدبيرك . وقد قلدتك الأمر ، ودفع خاتمه إليه .

وكانت أيام هارون الرشيد أيام نعمة وازدهار حضارى بصفة عامة . فقد كان خليفة معتدلاً فى مزاجه محباً للآداب والفنون مقرباً للأدباء والعلماء والشعراء مقبلاً على الموسيقيين والمغنيين ، رافعاً من مراتبهم . وكان من أحب جلسائه وندمائه وأقربهم إليه إسحاق بن ابراهيم الموصلى . وقال فيه اسحاق :

ألم تر أن الشمس كانت سقيمةً	فلما ولى هارون أشرق نورها
بُيمنِ أمينِ الله هارون ذى الندى	فهارون واليها ويحيى وزيرها

وكان الرشيد يجمع بين الحزم وبعد الهمة ، والميل إلى التمتع بملاذ الحياة ونعيمها فقد قاد الجيوش إلى بلاد الروم ، ووسع من ممتلكاته وزادت هيبة الدولة فى عهده ، كما قوى اقتصادها ، واحكمت ادارة شئونها بفضل وزرائه من البرامكة وبخاصة يحيى بن خالد والفضل بن يحيى .

وكانت زوجُه زبيدة من السيدات ذوات النفوذ فى قصر الخلافة . وكان الرشيد يحترم رأيها فقد كانت عباسية من أبناء عمومته . وكان لها يدٌ فى تقريب العرب والانتصار لهم فى بلاط الرشيد ، وتتخذ من أحد وزرائه العرب وهو الفضل ابن الربيع رجلها فى تنفيذ خططها ، وبخاصة فى تغيير قلب الرشيد ضد البرامكة وتحريضه على جعل ولاية العهد فى ابنها الأمين ثم للمأمون من بعده . مع كراهة الرشيد لهذا الأمر لعدم اقتناعه بكفاءة الأمين .

وروى المسعودى أن الرشيد قال : « بنو هاشم مائلون إلى محمد بأهوائهم وفيه ما فيه من الانقياد لهواه ، والتصرف مع طويته ، والتبذير لما حوته يده ومشاركة النساء والإماء فى رأيه .

وعبد الله (المأمون) المرضىُّ الطريقة ، الأصيل الرأى ، الموثوق به فى الأمر العظيم ، فإن ملت إلى عبد الله أسخطت بنى هاشم ، وإن أفردت محمداً بالأمر لم آمن تخليطه على الرعيّة » .

وهكذا كان تحريض الرشيد على اختيار خليفته صورة من صور الصراع بين

النفوذ الفارسي والعربي في بلاط الخلافة . كما كانت نكبة البرامكة صورة أخرى اكثر دموية لهذا الصراع .

واختلفوا في الأسباب التى أدت بالرشيد إلى غضبته على البرامكة وايقاعه بهم مما عدّ وصمة في خلافته على الرّغم مما تم على أيديهم من انجازات ، وما قاموا به من دور عظيم في إرساء دعائم خلافة الرشيد وتوطيد سلطانه .

قالوا إنه كان لاحتيازهم الأموال ، وأنهم أطلقوا رجلاً من آل أبى طالب كان بأيديهم . أو لسبب ما كان بين جعفر بن يحيى وأخت الرشيد . إلى غير ذلك من الدوافع .

ومهما يكن من أمرها ومن أسبابها ودوافعها فقد كانت مظهراً من مظاهر الصراع على النفوذ والسلطة بين العرب والفرس . وكان تولى الأمين بعد موت الرشيد في طوس سنة ١٩٣ هـ قمة الانتصار الوقتى للعرب على الفرس في احتياز الأمر وتملك خيوط السلطة ، وأبعاد الفرس عنها مؤقتا . فقد حلّ الفضل بن الربيع الوزير العربى محلّ البرامكة ، وعمل على التمكين للنفوذ العربى في أخريات عهد الرشيد وطوال عهد الأمين حتى وقع في هذا الخطأ الذى قلب خططه رأساً على عقب . لقد اختلفت الأخبار في شخصية الرشيد بين العدل والتقى، واللهو والدموية، قيل إنه كان يُصلّى في اليوم مائة ركعة، ويعجب الإنسان كيف كان يتم له ذلك وبقليل من الحساب نجد أنه لو أقام اليوم كله لا يأكل ولا يشرب ما اكمل المائة ركعة فضلاً عن الفرائض ، ولكنها رغبة كثير من الرواة في المبالغة ، وبسبب تلك المبالغة اضطربت صور التاريخ واضطربت ملامح شخصياته ، فلا يستطيع الإنسان أن يصل إلى الحقيقة إلا بصعوبة بالغة ، وقد لا يتبينها تماماً ، وليس بين يديه ما يمكن أن يطمئن إليه كل الأطمئنان .

محمد الأمين (١٩٣ــ١٩٨ هـ) :

بويع محمد الأمين بعد وفاة أبيه وكان القائم على بيعته الفضل بن الربيع وكانت أمه زبيدة ابنة جعفر بن أبى جعفر المنصور عباسية خليفية . وكانت أم المأمون فارسية أم ولد .

يقول المسعودى : « وكان محمد فى نهاية الشدة والقوة والبطش والبهاء والجمال ، إلا أنه كان عاجز الرأى ، ضعيف التدبير ، غير مفكر فى أمره » .

إذاً فقد كان بالأمين طيش وخفة ، يركب رأسه فيما يعتقده أو يراه ، ولا يقبل مشورة . وربما ورث بعض هذا الطبع عن جده لأمه ، ولأبيه أبى جعفر المنصور والذى ورث عمه الهادى بعض هذا الخلق .

إلاّ أن الأمين لم يكن فى دهاء المنصور وحسن سياسته وتدبيره .

وكان الأمين مسرفاً فى ملاذه على عكس جده الأقرب المهدى وجده الأعلى المنصور وربما ورث عن أبيه الرشيد بعض هذا الطبع فى الميل إلى متع الحسّ ، والرغبة فى مظاهر الترف والإقبال على أطايب المطاعم والمشارب ، وحب الغناء والملاهى .

وكان مجلسه يجمع المغنيين والملهين والشعراء والندماء أمثال اسحاق بن ابراهيم وأبى نواس الحسن بن هانى الذى اختص به ولازمه ، وشاركه استهتاره وتهتكه .

وجاء فى وصف القلقشندى للأمين[1] :

« كان أبيض الوجه سميناً طويلاً ، جميل الوجه ، سبطاً ، أنزع (أى منحسر شعر جانبى الجبهة) ، شديداً فى بدنه ، سمحاً بالمال ، قبيح السيرة ، ضعيف الرأى ، سفاكاً للدماء ، منهمكاً فى اللذات واللهو » .

وقال : « لما ولى الخلافة انهمك فى اللهو ، واشتدت عنايته به حتى طلب الملاهى (المغنّين والمغنيات ، وكل من يلهى) من جميع البلاد ، وضمهم إليه ، وأجرى عليهم الأرزاق ، واحتجب عن إخوته ، وأهل بيته ، وقسم الأموال والجواهر فى خواصه . واستوزر الفضل بن الربيع وزير أبيه الرشيد ، ثم أغرى الفضل بن الربيع الأمين بخلع أخيه وتنصيب ابنه موسى لولاية العهد . وكان ذلك سببا فيما حدث بين الأخوين من حروب انتهت إلى مقتل الأمين » .

وهكذا انتهت خلافة الأمين بهذا الصراع الدموى بين الأخوين الذى راح ضحيته كثير من الأبرياء ، وأججه النزاع والتنافس بين رجال الحكم من

(١) مآثر الخلافة للقلقشندى (١ /٢٠٥) .

العرب والفرس . وخرجت بغداد من فتنة الأخوين وقد دمّرت معالم حضارتها الزاهرة التى أسسها أبو جعفر ، وأرسى قواعدها الخلفاء المهدى والهادى ، وزادها بهاء ورونقا هارون الرشيد ، لتصبح أم العواصم ، وقبلة العالمين ، ومنافسة للقسطنطينية عاصمة الروم الزاهرة .

حاصرت جيوش المأمون بقيادة القائدين الكبيرين طاهر بن الحسن وهرثمة بن أعين بغدادَ عاماً كاملاً ، نصب فيه المنجنيقات ، وألقيت النيران ، ودارت المعارك فى الشوارع من شارع إلى شارع ، ومن بيت إلى بيت ، حتى سقطت ، وكان للعيارين وعامة بغداد دور بطولى صوره المسعودى بصورة دقيقة معبرة ، مع ما قيل من الشعر فى تلك المأساة الدامية(١) .

وقتل الأمين بعد أن هرب من قصوره ، قتلة شنعاء ، وقطعت رأسه وسلمت إلى أخيه المأمون ، وألقى بجسده مكانه فى « خصّ » على شاطىء دجلة .

ويسجل أحد الشعراء المأساة شاكياً من قتل الناس ولا ذنب لهم فى الخلاف بين الأخوين فيقول :

إن صار ذا الأمر إلى واحدٍ	صار إلى القتـل على كل حالْ
ما بالُنا نقتلُ من أجلهـم	سبحانك اللهـمَّ ياذا الجلالْ !

ولكن هكذا حال الدولة والممالك يصرع الكبار ويحترق بنارهم الصغار الفقراء .

المأمون (عبد الله بن هارون) (١٩٨ ــ ٢١٨ هـ) :

قال القلقشندى(٢) : « أمه أم ولد ، كان أبيض أعين (واسع العينين) أقنى طويل اللحية ، دقيقها ، قد وخطه الشيب فى أخريات عهده ، ضيق الجبين ، بخده خالٌ أسود . كامل الفضل ، مشاركاً فى علوم كثيرة ، جواداً عظيم العفو ، حسن التدبير وهو الذى نقل كتب الحكمة من اليونانية إلى العربية ، اعتناء بها . وكان يحب العلويين ويقوم بنصرتهم » .

(١) راجع مروج الذهب ٣ /٤٨٦ــ٥٠٤ .
(٢) مآثر الخلافة ١ /٢٠٦ .

وقد لخص شخصية المأمون وسلوكه فى هذه العبارات الموجزة . والتاريخ يسجل تفصيل ما أوجز ، فيما قام به من أفعال بين الناس ، فى سياستهم وتدبير أمور الحكم والخلافة ، وفى تقويم معارفهم ، والدفع بالفكر والعلم العربى الإسلامىّ إلى التقدم والتنوير بانفتاحه على الثقافات المتعددة ، وتزويده بالمعرفة الشاملة وإعماله العقل وتشجيع الأخذ به فى جوانب العقيدة ، والعلم ، والحياة .

وأول ما يلقى الضوء على عقل المأمون وحكمته هذا الكلام الصادر منه إلى أحد الرعية الذى وجه إليه يسأله عمَّن أجلسه هذا المجلس أى الخلافة ، وأحقيته فى ذلك . فكان جوابه[1] :

« لم أجلس هذا المجلس باجتماع منهم ولا بمغالبة لهم، وإنما كان يتولى أمر المسلمين سلطان قبلى أحمده المسلمون إما على رضى ، وإما على كرُه ، فعقد لى ولآخر (يعني الأمين) ولاية هذا الأمر بعده فى أعناق من حضره من المسلمين ، فأخذ على من حضر بيت الله الحرام من الحاج البيعة لى ولآخر معى ، فأعطوه ذلك إما طائعين ، وإما كارهين ، فمضى الذى عُقد له على هذه السبيل التى مضى عليها . فلما صار الأمر إلى علمت أنى أحتاج إلى اجتماع كلمة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها على الرِّضا .

ثم نظرتُ فرأيتُ أنى متى تخليت عن المسلمين اضطرب حبل الإسلام ، ومرج عهده ، وانتقضت أطرافه ،وغلب الهَرجُ والفتنةُ ، ووقع التنازعُ ، فتعطلت أحكام الله سبحانه وتعالى ، ولم يحجَّ أحدٌ بيته ، ولم يجاهد فى سبيله . ولم يكن لهم سلطانٌ يجمعهم ويسوسهم، وانقطعت السُّبُل ، ولم يؤخذ لمظلوم من ظالم ، فقمت بهذا الأمر حياطة للمسلمين ، ومجاهداً لعدّوهم ، وضابطاً لسبلهم ، وآخذاً على أيديهم إلى أن يجتمع المسلمون على رجلٍ تتفقُ كلمته على الرضا به ، فأسلمُ الأمر إليه ، وأكون كرجل من المسلمين » .

ووقائع التاريخ تثبت أنه أراد أو حاول تنفيذ هذا القول ، عندما رأى إجماع كثير من الرعية على على بن موسى الرضى فاستخلفه من بعده ، لولا ثورة العباسيين يؤيدهم أصحاب النفوذ من الهاشميين والعرب .

---

(١) أورده المسعودى فى مروج الذهب ٤ /٢٣ .

ومضت سنوات حكم المأمون فى طريق الإصلاح ما استطاع ، وقيادة الأمة الإسلامية على إختلاف أعراقها إلى آفاق جديدة من الأزدهار الحضارى والثقافى والفكرى. ولم تخل سنوات هذا الحكم من نزاعات وصراعات على النفوذ والسلطان ولم يَخْلُ منها عهد ملك من الملوك وإن تفاوتت ضراوتها ، واختلفت آثارها .

وأول هذه الصراعات فى عهد المأمون هذا الصراع المستمر بين العرب والفرس وبين العلويين والعباسيين يؤججه القادة من الجانبين .

وكان الفضل بن سهل وزير المأمون والمستولى على كثير من أمره ، فارسى الأصل ، يميل إلى بنى قومه ، وحدثت بينه وبين أحد قادة العرب هرثمة بن أعين الذى مَكّن للمأمون ، وأخمد ثورات العلويين فى الكوفة والبصرة والحجاز بعد مشاركته فى إسقاط الأمين ودخول بغداد .

وانتهى الصراع بين الفضل والقائد العربى بأن دسَّ له الفضل عند المأمون واستطاع الإيقاع به والتخلص منه .

كذلك كانت قضية « خلق القرآن » من القضايا الحيَّة التى لم تقتصر آثارها على الجوانب النظرية والفكرية فى العقيدة، بل كان لها ردود فعل، وتداعيات سياسية وأجتماعية كثيرة ، سنجمل الحديث عنها فيما يلى من الحديث عن الحياة الثقافية فى العصر .

وقام المأمون بهذه النهضة الثقافية التى خلدت اسمه وعصره بين عظماء التاريخ الذين أناروا لأممهم طرقَ التقدم ، وفتحوا بصائرهم وعقولهم على آفاق المعرفة الشاملة والإنسانية بما دعا إليه وأكده من ضرورة التلاحم مع ثقافات الأمم الأخرى والأخذ بمنجزاتها ، وعدم الإنغلاق على العلوم العربية والإسلامية التقليدية والمتوارثة . فدعا إلى الأخذ بعلوم العقل إلى جانب علوم النقل ، ودعا إلى الإجتهاد والنظر ، وعدم الإكتفاء بالمأثور والمنقول من أقوال السلف .

وبنى دار الحكمة وجمع فيها كتب العلوم من الطب والفلك والفلسفة وعلوم الطبيعة والسياسة والحيوان والنبات وغير ذلك ، وبعث بالعلماء إلى عواصم الثقافة كالقسطنطينية لنقل كتب العلوم إلى بغداد ، ودعا بالتراجمة من المسلمين وغير المسلمين ممن يتقنون اللغات واللغة العربية لنقل الكتب وذخائر

الفكر العالمى إلى العربية ، وقرب هؤلاء وأجزل العطاء لهم ، وعقد المجالس للحوار والمناظرة .

وهذا فى رأينا من أخطر ما قدمه المأمون للثقافة العربية والفكر الإسلامى . كذلك كان تقديمه للآخذين بمنهج العقل من المتكلمين والمعتزلة دليلاً على هذا النضج والرغبة الصادقة فى تنوير الأمة والأخذ بيدها فى دروب التقدم ، على عكس ما قد رأى البعض من بذر بذور الفتنة ، وتشجيع المارقين على الخروج على الدين أو العقيدة .

وقام المأمون بعديد من الرحلات والحملات زار فى أحداها مصر على رأس قوة للعمل على استتباب أمنها ، وإخماد أطماع العابثين بها . كان ذلك سنة ٢١٦ هـ . وفى هذه الأثناء وقف على آثارها وعجائبها وأولها الأهرام ، ودفعه طموحه إلى المعرفة أن يفتح الهرم الأكبر ليقف على ما يخبئه هذا الصرح الهائل من أسرار ألا أنه لم يفلح إلا فى ثقبه ذلك الثقب أو الباب الذى بقى إلى الآن علامة على تلك المحاولة الفاشلة .

وخرج المأمون من مصر سنة ٢١٧ هـ فى غزاة ببلاد الروم ، وظل فى هذه الغزوة عاماً حتى سنة ٢١٨ هـ حيث توفى وخلفه أخوه المعتصم .

المعتصم محمد بن هارون الرشيد (٢١٨ــ٢٢٩ هـ) :

تولى الخلافة وهو فى الثامنة والثلاثين رجلاً راشداً مكتمل الخبرة ، لمشاركة أخيه المأمون فى كثير من مهام الدولة ، وقيادته لبعض الجيوش لتدعيم أركانها ، وقهر الثائرين والخارجين عليها .

وهو أول من أضيف إلى لقبه اسم الله فقيل المعتصم بالله على غير ما كان متبعا فى ألقاب سابقيه من الخلفاء .

وكان المعتصم أبيض اللون مشرباً بحمرة ، وأمه أم ولد تركية ، أصهب اللحية حسن الجسم مربوعاً طويل اللحية ، شجاعاً شديد البدن ، يشبه أخاه الأمين فى قوة بنائه .

قال القلقشندى[1] : ولم يكن على قدر من العلم :

وهو لم يبلغ مبلغ أخيه المأمون فى الإهتمام بالنظر ، وتقريب العلماء ، وعقد مجالسهم ومحاورتهم ، وتشجيعهم على البحث والترجمة والتأليف ، إلا أنه حاول تقليده ، فى تشجيع العلم والأدب والفن .

واستمع إلى نصيحته فى الموقف من قضية خلق القرآن ، فحمل الناس على القول بها ، واحضر الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة فى بغداد سنة ٢١٩ هـ وامتحنه بالقول بخلق القرآن ، وكان يقوم بذلك وزيره محمد بن عبد الملك الزيات ، المعتزلىّ الرأى والعقيدة . فامتنع ابن حنبل عن القول بخلق القرآن فضربه المعتصم حتى تقطع جلده وقيده ، وحبسه .

وكان المعتصم محبًّا للعمارة ، فبنى مدينة سامرًّا لجند الترك ، وبنى بها القصور الفارهة ، وجمّلها ، وعمل على عمران أرض الخلافة التى يحيى بها العالم ، وعليها يزكو الخراج كما يقول المسعودى .

فتكثر الأموال وتعيش البهائم ، وترخص الأسعار ، ويكثر الكسب ، ويتسع المعاش وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك الزيات : إذا وجدت موضعاً إذا أنفقت فيه عشرة دراهم جاءنى بعد سنة أحد عشر درهما فلا تؤامرنى فيه .

بمعنى آخر فإنه كان مهتماً بالتنمية الأقتصادية فى شتى المجالات وبخاصة فى مجالى الزراعة والعمران المدنى .

وكان محبًّا للفنون وضروب الموسيقى والغناء ، ممارساً لرياضات الملوك كالصيد والطرد .

وكان فى اخلاقه كما قلنا بأسٌ وشدة ، ساعده عليها قوة بناء جسمه ، وشجاعة قلبه . ومع ذلك فإنه يروى تعاطفه مع عامة الناس ، يرقّ قلبه لهم ، ويضاحكهم ولا يتكبر عليهم .

وأخذ عليه استكثاره من جند الأتراك ، واهتمامه بهم ، وحرصه على جمال هيأتهم وبهاء ملابسهم ، فقد كان يرى فيهم مكملين لأبهة الخلافة ، وكان معجباً بشجاعتهم وفروسيتهم .

قال المؤرخون : « استكثر منهم حتى غلبوا على العرب وغيرهم بالجيش . وكثروا فى بغداد وكانوا يتراكضون على دوابهم فى طرق بغداد ، وشوارعها ،

فيصدمون الرجل والمرأة والصبى فيأخذهم الناس فينكسونهم عن دوابهم فيجرحون بعضهم . فشكا الأتراك ذلك إلى المعتصم وتأذت العامة منهم ، فاختط لهم سامرا » .

وكان المعتصم يلبس جنده الأتراك أنواع الملابس الفاخرة من الديباج والمناطق المذهبة ، وأبانهم عن سائر جنده » .

ومن أشهر الأحداث السياسية الخطيرة فى عهده ثورة بابك الخرمى والمازيار فى المشرق. بطبرستان سنة ٢٢٥ هـ. وبعث إليهما بقائده عبد الله بن طاهر والى خراسان . فتمكن من هزيمة المازيار ، واكتشف بعد القبض عليه تآمره مع الأفشين على الخروج على الدولة .

وكان الأفشين من أكبر قادة الترك ، وأكثرهم تقدماً عند المعتصم . شاركه فى عدة حروب وغزوات من بينها حربه مع الروم سنة ٢٢٣ هـ وفيها حدثت وقعة عمورية المشهورة والتى أنشد فيها أبو تمام الشاعر قصيدته البائية :

السيف أصدق أنباءً من الكتب — فى حده الحد بين الجد واللعب

ولما اكتشف المعتصم خيانة الأفشين وتآمره أمر بالقبض عليه وحبسه حتى مات فى سجنه ، وأخرج ميتا فصلب بباب العامة وأضرمت فيه النار .

كذلك كان المعتصم عاقب المازيار وبابك بالقتل والصلب .

وكانت محاكمة الأفشين بمجلس المعتصم ، وتولى سؤاله محمد بن عبد الملك الزيات . ومنها ثبتت إدانته وأنه تآمر مع المازيار وهو أحد أبناء الدهاقين على الارتداد إلى دين الفرس القديم ، وإقامة دولة لهم بالمشرق .

وحدثت فى الجبهة الغربية وعلى الحدود مع الروم مناوشات وغارات متبادلة وهى أمور استمرت طوال عهد الدولة الإسلامية منذ عصر الأمويين وطوال عصور العباسيين وحتى استيلاء محمد الفاتح العثمانى على القسطنطينية .

وكان المسلمون لا يفتأون يقومون بغارات من الثغور فيما عرف بالمصائف أو الصوائف . جمع صائفة أى حملات الجهاد الصيفية التى يقوم بها المجاهدون بثغور الإسلام لكسر شوكة الأعداء ، والحد من خطورتهم على الدولة .

وكانت وقعة عمورية بسبب رد الروم على تلك الغارات على الثغور الرومية ، وفيها نَكَّلَتْ بعض حملات الروم بالثغور الإسلامية مما دعى إلى الإستغاثة بالخليفة لردع المغيرين . فقام المعتصم على رأس جيش كثيف ليدمر ثغور الروم ويتوغل فى أرضهم ويخرب عمورية ، فيضطر ملكهم إلى طلب الصلح .

وانقضت سنوات خلافة المعتصم ، وكانت فى مجملها سنوات رخاء لولا ما شابها من بعض الثورات والمعارك التى أشدنا إليها .

ويتوفى المعتصم بعد حكم موفق مزدهر وتولى بعده ابنه الواثق .

الواثق بالله (٢٢٧–٢٣٢ هـ) :

وأمه أم ولد رومية اسمها « قراطيس » . وكان أبيض مشرباً بحمرة حسن الجسم فى عينه اليسرى نكتة بيضاء على حد قول القلقشندى[1] .

وزر له وزير والده المعتصم وهو محمد بن عبد الملك ، وسار على مذهب أبيه وعمه المأمون فى الأخذ بقول المعتزلة ، ومناصرة قضية القول بخلق القرآن ، وامتحان الناس فيها . وكان يعاقب كل من امتنع عن القول بخلق القرآن أو القول برؤية الله فى الدار الآخرة . ويبالغ فى إكرام العلويين على قاعدة المأمون .

وفى عهده ثارت بعض قبائل عرب الجزيرة فى نجد ، وحول المدينة ومكة . ومنهم بنو سليم ، وبنو مرة ، وفزارة ، وبنو هلال من عامر بن صعصعة وبنو نمير باليمامة من تميم . وجماعات من تميم بمراة وذلك فى سنوات من سنة ٢٢٠ هـ إلى سنة ٢٣٢ هـ أى فى آخر حكمه .

وربما كانت ثورتهم بسبب غلبة العناصر غير العربية ، والأتراك خاصة على الحكم والخلافة العربيين . وكان هذا الشعور بدأ يجتاح بعض قبائل العرب فى أرض الجزيرة من نجد والحجاز والبحرين ، وبعض بوادى الشام حميَّة ، ورفضاً لغلبة الفرس والترك وانحسار العرب وتراجعهم عن اتخاذ القرار ، والامساك بمقاليد الأمور فى الدولة .

---

(١) مآثر الخلافة ص ١ /٢٠٧ .

وأنهض إليهم بالحجاز ونجد جيشاً بقيادة أحد الاتراك هو بغا الكبير فهزمته قبائل ضبة ونمير أول الأمر ، ثم ما لبث أن عزز قواته وأعاد الكرة فقضى على تمردهم . واستقرت الأمور فى تلك النواحى مؤقتا . لكن الجذوة ظلت متقدة تحت رماد الهدوء الظاهرى لاعتقاد العرب بأن هؤلاء الترك الذين ملّكوا عليهم عبيدٌ ، علوج . كما كانوا يسمونهم ، وتجرى بذلك صفتهم على ألسنتهم .

ومضت سنىّ حكم الواثق سريعاً فمات وتولى بعده أخوه جعفر الملقب بالمتوكل .

المتوكّل على الله جعفر بن المعتصم (٢٣٢ــ٢٤٧ هـ) :

أمه أم ولد تركية ، وكان أسمر اللون مربوعاً خفيف العارضين . وحدث أن تنازع كبار رجال الدولة بعد وفاة الواثق فيمن يلى الخلافة بين ابنه محمد وأخيه المتوكل حتى تم الأمر للمتوكل . ويبدو أن محمد بن عبد الملك الزيات وزير الواثق والمعتصم والرجل الخطير فى الدولة كان مع من يقدمون ابن الواثق على عمه فاكتتم هذا الموقف المتوكل فى نفسه حتى أمكنته الفرصة من محمد بن عبد الملك فأوقع به، وأدخله التنور الذى أعده ابن عبد الملك لأعدائه .

وهكذا تدور الدوائر على الباغى دائما ، فلله سبحانه موازينه بالقسطاس ليعمر العالم وتستمر الحياة .

وكان للقاضى أحمد بن أبى دؤاد العدو التقليدى لابن الزيات الفضل فى تغليب رأى القائلين بتنصيب المتوكل ، فحفظها له جعفر بعد تمكنه من الأمر ، فقر به وآثره ، واعتمد عليه فى تسيير أمور الحكم .

كما اتخذ من الفتح بن خاقان وزيراً آثره بادارة الشئون المالية ، وسياسة الدولة واعداد الجيوش .

وحصد المتوكل ما زرع والده المعتصم من الإكثار من جند الترك والاعتماد عليهم ، وكان يُقدِّرُ النفع ، لكن كانت النتيجة إضرارا بالدولة ، وإقلالاً من شأن الدولة، وتطاولاً على هيبة الخلافة واحترامها. فلم يكُن هؤلاء الجند المرتزقة يحملون فى أعماقهم ولاءً للعباسيين ولا للعرب عصب الخلافة ، فلازاحوهم وتصدروا هم . وعبثوا بمصائر الخلافة كما شاءَ لهم هواهم .

وعلى الرغم من هذه المتاعب التى كان يثيرها الأتراك من حين لآخر ، وما يحدثونه من قلاقل إلاّ أن عصر المتوكل ظلّ أمتداداً لعصور الرشيد والمأمون والمعتصم من حيث الرخاء واهتمام الخليفة بعمران البلاد ، وبناء القصور الفخمة ، والإهتمام بمظاهر الخلافة وأبهتها .

قال المسعودى[1] : « وكانت أيام المتوكل فى حُسْنها ، ونضارتها ، ورفاهية العيش فيها ، وحمد الخاص والعام لها ، ورضاهم عنها أيام سرَّاء لا ضرَّاء ، كما قال بعضهم : كانت خلافة المتوكل أحسن من أمن السبيل ، ورخص السعر ، وأمانىِّ الحب ، وأيام الشباب . قال : وقد قيل إنه لم تكن النفقاتُ فى عصر من الأعصار ولا وقت من الأوقات مثلها فى أيام المتوكل .

وأنفق على قصريه الهارونىِّ ، والجوسق الجعفرى أكثر من مائة ألف ألف درهم ويقال إنه كان له أربعة آلاف سرِّية ، ومات وفى بيوت المال أربعة آلاف ألف دينار وسبعة آلاف ألف درهم . ولا يعلم أحد فى صناعته فى جدّ ولا هزل إلا وقد حظى فى دولته ، وسعد بأيامه ، ووصل إليه نصيبٌ وافرٌ من ماله » .

قال المسعودى : « وكانت أيام المتوكل أحسن أيام ، وأنضرها من استقامة الملك وشمول الناس بالأمن والعدل » .

إلاّ أن المتوكل نفسه كان يختلف فى تكوينه وطباعه عن أسلافه من الخلفاء العظام . فقد كان به خفةٌ تشبه خفةَ الأمين ، يكثر من الهزل فى مجلسه ولم يكن أحدٌ من الخلفاء ممن سلف من بنى العباس ظهر فى مجلسه اللعب والضحك والهزل مما قد استفاض فى الناس ذكره إلا المتوكل ، فإنه السابق إلى ذلك والمحدث له .

فقد كان يشرب الخمر على قول المسعودى ، ويعمل فيه الشراب حتى يبلغ السكر ويتخذ من بعض المجَّان والعابثين مضحكين له ومؤنسين كأبى العنبس الذى كان مضحكه الخاص ، وكان يلزم مجلسه لأدخال السرور على قلبه ، ويلجأ إلى ذلك بتقليد بعض من يدخل على الخليفة من الرجال والشعراء . وقصته مع الشاعر البحترى معروفة ، فقد قام بتقليده بحركات وأقوال هزلية

(١) مروج الذهب ٤ /١٤٠ .

ساخرة حتى أضحك المتوكل فاستلقى على قفاه من شدة الضحك كما يروى أبو الفرج .

ولم يكن مثل من كانت هذه شخصيته وطباعه ليفرغ للعلم الجاد ، ولا التقرب للعلماء، ولا يجهد نفسه فى النظر وعقد مجالسة على ما كان يفعل عمه المأمون ولا والده المعتصم ، ولا أخوه الواثق . فافضى به الأمر إلى تعقب القائلين بالرأى ، والمتكلمين والفلاسفة ، وأسلم قياده الشيوخ والفقهاء ليريح نفسه ، ويرضى عامة رعيته .

قال المسعودى[1] : « ولما أفضت الخلافة إلى المتوكل أمر بترك النظر والمباحثة والجدال ، والترك لما كان عليه الناس فى أيام المأمون والمعتصم والواثق ، وأمر الناس بالتسليم والتقليد ، وأمر شيوخ المحدثين بالتحديث ، وإظهار السنة والجماعة » .

وهكذا حدثت الرّدة الفكرية ، والتوقف العقلى الذى ساعد عليه قلةعلم الحاكم وعدم اهتمامه بالمعرفة ، وتنمية الفكر ، وانشغاله بأموره الخاصة ومشاغله الترفية والترفيهية دون هذه الأعباء الجسام التى لا ينهض بها إلا أولو العزم والطموح من الحكام .

وأسلم أمره فى أمور العلم والثقافة لمثل القاضى أحمد بن أبى دؤاد أول الأمر ثم استولى عليه وزيره الفتح بن خاقان حتى قتلا معاً على يد أحد الخدم من الأتراك بوحى وايعاز من كبار قادته وقيل بالاتفاق مع ابنه المستعين بالله .

وعادى العلويّة ، وأمر بهدم قبر الحسين وقبر الإمام على سنة ٢٣٦ .

ولم تستقر أمور الدولة مع ذلك بإخماد قضية خلق القرآن وتعقب أصحابها . ذلك أن عنصراً محركاً من عناصر الفتنة الفاعلة ، والمؤثرة كان يعمل فى دأب ومثابرة على الإمساك بخيوط الدولة وتحريكها من وراء ستار ، وقد وجدوا من الخليفة غفلة وانصرافاً عن مهامه الخليفية إلى شئونه الخاصة وملاذه الحسّية ليغرق فيها إلى أذنيه .

وكان جند الأتراك كما قلنا هم القوة الجديدة التى خلفت الفرس فى عراك

---

(١) مروج الذهب ٤ /٩٨ .

السلطة وقد أثاروا كثيرا من المتاعب فى عصر المتوكل . منها تحركهم فى آخر عهده وقبيل مقتله ومطالبتهم بمطالب مالية ونفوذ مما أدى إلى مقتله وتقلد ابنه المنتصر بعده . ومن ثم كان الخلفاء من بعده لعبة فى أيدى الاتراك يولون من يرتضون ويعزلون من لا ينفذ مطالبهم أو لا يخضع لأوامرهم . وجاء المنتصر بالله ومعه شبهة التآمر مع قادة الترك للتخلص من أبيه .

وكان القائمون الفعليون بالأمر هم أولئك القادة من وصيف إلى بغا الكبير وبغَا الصغير حتى قال الشاعر :

خليفة فى قفص	بين وصيف وَبَغا
يقول ما قالا له	كما يقول البَبَّغا

وهكذا انتهى المتوكل غيله بسيف الترك فى مجلسه وعلى كرسيّه ومعه الفتح ابن خاقان .

المنتصر بالله (٢٤٤ـــ٢٤٨ هـ)

وجاء ابنه الأكبر المنتصر بالله (وهو الخليفة الحادى عشر) قالوا ، وكان سبب تآمره مع الأتراك بجشيته أن يعدل والده عن ولايته إلى أخيه المعتز بالله . فدبر ما دبر .

قالوا : وكان المنتصر واسع الاحتمال ، راسخ العقل ، كثير المعروف ، راغبا فى الخير سخيا ، أديبا عفيفا . وكان يأخذ نفسه بمكارم الأخلاق وكثرة الإنصاف وحسن المعاشرة .

وفى عهده أمّن آل أبى طالب بعد أن أصابهم ما أصابهم أيام أبيه .

وتعاقب الخلفاء بعده ، من المستعين إلى المعتز إلى المهتدى من سنة ٢٤٤ هـ إلى سنة ٢٥٥ هـ ثلاثة خلفاء فى أحدى عشرةسنة، وكان المهتدى الرابع عشر من خلفاء العباسيين ، ولم يلبث فى الخلافة غير سنة واحدة .

وجاء بعد هؤلاء الثلاثة المستضعفين من الأتراك أحدهم ، يسحب من رجله ويرغم على التنازل ، والآخر يقتل ، والثالث يشهر به ويقتل قتله خسيسة . حتى ولى المعتمد على الله ، الذى انصرف إلى لذاته وترك أمور الخلافة والحكم لأخيه طلحة ولى عهده ولقب بالموفق فكان هو الخليفة الحقيقى

وكان المعتمد محجوراً عليه لا يملك التصرف فى أمر . ويروى أنه قال[1] :

أليس من العجائب أن مثلى يَرى ما قَلّ ممتنعًا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء فى يديه

وكان فى عصر المعتمد والموفق ابتداء ظهور القرامطة ، واستولى ابن طولون على مصر ، وقامت ثورة الزنج واستولوا على مناطق واسعة بجنوب العراق بعد أن داهموا البصرة واجتازوها . وكان بدء السامانيين فى أقصى المشرق وإنما أغرى الناس فى الأطراف بالثورة ، واقتطاع اجزاء من أرض الدولة والاستقلال بها عن بغداد ضعف الخلفاء ، وتذبذبُ السلطة المركزية ببغداد ، ووقوع الخلفاء أسرى فى أيدى قادة الأتراك يتلاعبون بمصائرهم كيف شاءوا .

وكان هذا كله بسبب غياب العنصر العربى عن مسرح الأحداث ، وفقدان العصبية والحمية للدولة ، وعدم استقرار عصبية الدين الإسلامى محلّ عصبية الدم . فلم تتمكن هذه العصبية الدينية من النفوس حتى تقوم عليها أسسُ دولة متماسكة الأركان .

وقد كان للنزاع العرقى والطائفى أثره البالغ فى إضعاف الدولة . ولم يستطع الدين أن يحل محلّ العرق والدّم ووحدة الجنس والأرض ، بل تغلبت الانتماءات العرقية والإقليمية على الانتماء الدينى ، فأدى هذا كله إلى تمزق الكيان الموحّد .

وذلك عكس ما كان عليه الحال فى بدء نشوء الدولة ، ومن قبل فى عصر الأمويين لقيام العصبية العربية جامعاً لشمل الدولة على ما كان يشوبها من انحرافات أدت إلى نزاعات متفرقة سرعان ما أمكن التغلب عليها ، ولم تؤد إلى هذا التشرذم والتفرق والضعف الذى شهدته الدولة فى النصف الثانى من القرن الثالث .

وقد كان إحساس العرب بالقهر والابتعاد عن السلطة فى دولة الإسلام التى أسسوها وبنوها على أسنة رماحهم ، مما أدى إلى هذه الثورات العربية القبلية فى أطراف متفرقة بالوطن العربى ، وإلى قيام دعاة لاستعادة كرامة العروبة من بينهم شعراء كأبى الطيب الذى تركزت فيه هذه الدعوة ، وكشف فى شعره عن مدى ما يكنه من الحسرة للتدهور والتراجع العربى . فقد عاش صباه آخر

(١) مآثر الإنافة للقلقشندى ١ /٢٥٤ .

القرن الثالث وأول القرن الرابع يشهد ما شهد ويسمع ما سمع وليثور على تلك الأوضاع بحمية العربى الثائر لكرامته .

كان آخر خلفاء هذا النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى هو المقتدر أبو الفضل جعفر المعتضد ، وهو الثامن عشر من خلفاء العباسيين . تولى سنة ٢٩٥ هـ وسنه يومئذ ثلاث عشرةسنة ، وبقى حتى قتل سنة ٣٢٠ هـ . وكان مقتله بسبب النزاع بينه وبين مؤنس الخادم أحد القادة الأتراك ، ومن كان له النفوذ والسطوة كغيره من أبناء جنسه فى زمن هذه الجماعة المستضعفة من خلفاء العباسيين بعد المتوكل .

انقضى إذاً القرن الثالث الهجرى ، ونصفه الأول يشغله كبار الخلفاء ممن كانت لهم القوة والمبادرة والقيادة السياسية والدينية والفكرية وانتهى القرن بعد منتصفه بجماعة من الخلفاء معظمهم لم يكن لهم حول ولا قوة. ولم يكن لهم بالضرورة تأثير فى سير الأحداث ، ولا تشكيلها ، كما لم يكن لهم دور كبير فى التوجيه الفكرى والثقافى ، فقد انتقلت هذه الأمور إلى غيرهم من القادة والوزراء وكبار رجال الدولة ، وكبار العلماء والموجهين الدينيين ، وأصحاب الدعاوى من الإمامة والمهدية وما إليها ، ممن قادوا حركات مؤثرة ، اجتاحت مناطق عديدة فى الدولة من مشرقها إلى مغربها . ونذكر منها على سبيل المثال حركة الزنج أو ثورة الزنج فى خلافة المعتمد وأخيه الموفق ، وثورة القرامطة والفاطميين فى أخريات القرن وأوائل القرن الرابع .

ثورة الزنج بالبصرة وجنوب العراق سنة ٢٥٥ هـ :

كان خروج داعيتهم على بن محمد ، فدعا إلى نفسه وجمع من حوله الزنج الذين كانوا يسكنون السباخ فى جهة البصرة . وادعى أنه من نسل العلويين من أبناء زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب .

وكان هذا الدعىّ يدعى أنه يوحى إليه ، وأنزله بعض أتباعه منزلة النبىّ وكان فى أول أمره ، ينتقل فى بادية شرق الجزيرة بين البحرين والأحساء ويتبعه جماعة من بنى تميم ، وكان يقول : « أوتيت آياتٍ من آياتِ إمامتى ظاهرة للناس ، منها أنى لقنت سوراً من القرآن ، فجرى بها لسانى فى ساعة وحفظتها فى دفعة واحدة »[1] ، وقال إن من آياتى أنى فكرت فى الموضع الذى أقصده

(١) الكامل لأبن الأثير ٦ /٢٠٦ .

حيث نبت لى البلاد ، فأظلتنى غمامة ، وخوطبتُ منها فقيل لى : اقصد البصرة » .

وترك البصرة ، وظل يخاطب عامتها ، وعبيدها بهذه الأمور الساذجة التى تروج بين أمثال هؤلاء من الفقراء المطحونين الضعفاء ، والذين لا يملكون من العلم ما يفرقون به بين الحق والباطل ، وتتعلق قلوبهم وآمالهم بكل من يلوّح لهم بالنجاة ، ويبرق لهم ببوارق الآمال . فعقول أمثالهم معلقة بالغيب يرتجون فيه حالاً أحسن ، ويمنُّونَ أنفسهم بخيالات وأوهام تعوضهم عما هم فيه من شقاء الحياة ، وبؤس المعاناة . ويرون فيمن يقدم لهم مثل تلك الأوهام والآمال مبعوثا من السماء رحمةً بهم لينقذهم من جَورٍ مفروض وظلم محيط .

وهكذا أمكن لهذا الدّعى أن يستدرج هؤلاء العبيد من الزنج ممن كانوا يعملون فى بساتين البصرة . وكان يغرى الناس بالجهاد مستعيناً بآيات من القرآن تجذب الناس إلى القتال رغبة فى حسن ثواب الآخرة ، فجعل شعاره قوله تعالى ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ وما زال كما قال ابن الأثير يدعو غلمان البصرة فيقبلون إليه للخلاص من الرق والتعب ، فاجتمع عنده منهم خلق كثير ، فخطبهم ووعدهم أن يقودهم ويملّكهم الأموال ، وحلف لهم بالأيمان أن لا يغدر بهم ولا يخذلهم ، ولا يدع شيئاً من الإحسان إلاّ أتى به إليهم فأتاه مواليهم وبذلوا له كل عبد خمسة دنانير ليسلّم إليه عبده ، فبطح أصحابهم ، وأمر كل من عنده من العبيد فضربوا مواليهم ، كل سيد خمسمائة سوط ! »[1] .

واستشرى صاحب الزنج وكثر أتباعه من السودان فزحف بهم على المناطق المحيطة بالبصرة ، وقطع الطرق واستولى على السفن بدجلة ، وحصّل الأموال ، وكوّن ما يشبه الدولة المستقلة بجنوب العراق ، هددت السلطة المركزية فى بغداد ، فنهض الموفق أبو أحمد طلحة على رأس جيش كبير لحربهم ، ألاّ أنه لم يتمكن من هزيمتهم واستشرى أمرهم ، فنهض إليهم موسى بن بغا ومسرور البلخى من قواد المعتمد ، وعاد الموفق مرة أخرى إلى حرب الزنج سنة ٢٦١ هـ ، وسنة ٢٦٢ هـ وظلت الحروب والمعارك متصلة ، وأمر الزنج يقوى ، وجيوش الخلافة لا تتمكن من هزيمتهم فيومًا لهم ويوما عليهم حتى

(١) ابن الأثير ، الكامل ٦ /٢٠٨ .

كانت سنة ٢٦٧ هـ فسار الموفق إليهم مرة أخرى وواقعهم فى عدة مواقع تقهقروا أمامه فيها حتى بلغ مدينتهم فحاصرها وطال الحصار ، ودخلت سنة ٢٦٨ هـ وظل فيها الحصار مفروضاً على الزنج وهم يقاومون مقاومة شرسة ، وجرح الموفق من سهم أصابه إلا أنه واصل القتال وحاصر صاحب الزنج فى قصره وأحرقه ، فهرب صاحب الزنج وتواصلت المعارك حتى سنة ٢٧٠ هـ وفيها قتل صاحب الزنج وانتهى أمره ، وقضى على الثورة .

وهكذا استمرت ثورة الزنج ١٦ خمسة عشر عاماً حدثت بها أحداثٌ داميةٌ ، بلغت من العنف والوحشية مبلغاً ، وزعزعت من أركان الخلافة ، وأصابتها بالوهن لولا تعاضُد الترك والخلفاء ، وبقية من أمراء الولايات خوفاً على أنفسهم حتى تم الأمر بانقضاء أمر الزنج . وكان الانتصار عليهم من أعظم أعمال الموفق ، إذ بهذا الانتصار أنقذ الخلافة العباسية من انهيار محقق .

وإذا كان التاريخ يعيد نفسه ، فإن هناك بعض أوجه الشبه بين ثورة الزنج هذه وثورة العبيد فى دولة الرومان القديمة ، والتى هددت روما وآذنت بِثلّ عروش قياصرتها .

وهذا يؤكد أن مسيرة التاريخ وأحداثه تقوم على عدة عوامل ودوافع ، متى ما تشابهت مقدماتها تشابهت كذلك نتائجها ومُحصّلاتها . ومن هنا كان التاريخ مدرسة للإنسانية ، ولقادة الدول والشعوب ، لمن شاء منهم أن يعتبر .

وواكب ثورة الزنج عدة ثورات كانت أقل منها خطراً إلاّ أنها أقضت مضاجع الخلافة؛منها ثورة الصَّفّارىّ فى المشرق ، وابن سرايا الخارجى أو الشارى فى شمال العراق بالموصل وما حولها وأخيرا ثورات القرامطة فى البحرين ، وجنوب العراق والكوفة وبادية الشام .

كما أن ثورات العلويين لم تهدأ . والعجيب فى الأمر أن معظم تلك الثورات والكبرى منها كثورة الزنج والقرامطة كانت تنتمى إلى العلويين بصورة أو بأخرى ، فإمّا أن يكون قائدها علويًّا أو منتسبا إلى العلويين أو مدّعياً النسبة .

فكأن الإنتماء إلى الإمام علىّ وأحد أبنائه كان يشكل قاعدة الأساس لدعوة الناس إلى طاعة الداعية ، والسير وراءه ، ولهذا بالضرورة أسبابه ذلك أن سيرة العلويين كانت تمثل فى أذهان العامة الظلم والإضطهاد ، والحرمان من

الحقوق ، وهو الأمر الذى يتجاوب مع أحوالهم فى الدولة ، فكان جانب كبير من الرعيّة وبخاصة الطبقات الكادحة تحس بهذا الظلم من الحكام والسادة . فتعاطفت قلوب الفئتين جميعاً ، كما أنّ انتساب العلويين إلى بيت النبوة كان له أثره فى اجتذاب الناس إليهم لتخليصهم من عنف الحكام واستبدادهم ، واحتيازهم الأموال ، وتمتعهم بالحياة من دونهم .

وهناك عوائل أخرى ساعدت على ذلك ، منها روح التذمر ، وعدم الرضا التى سادت بعض القبائل العربية القوية فى جزيرة الفرات والشام والبحرين ونجد والحجاز لأن السلطة والنفوذ قد سحبت منهم وأخذت من أيديهم ليملك بها الفرس والترك من بعدهم ، ولم يعد للعرب هذا الدور الإيجابى الذى كان لهم طوال دولة الأمويين وأول دولة العباسيين وآلت الأمور كما جاء على لسان بعض شعرائهم وسادتهم إلى الخدم ، فأطلق عليها دولة الخدم والموالى .

وقد استغل دعاة العلوية هذا الشعار ليثيروا حميَّة العرب ، وليكسبوهم إلى جانبهم ونلاحظ أن القوة الكبرى التى كانت تدعم هذه الثورات كانت ممثلة فى كثير من الأحيان فى القبائل العربية التى انضمت إليها سواء أكانت فى ثورة الزنج أو ثورات القرامطة أو الخوارج بأرض الجزيرة الفراتية بشمال العراق . فضلاً عن ثورات القبائل العربية نفسها التى أشرنا إليها .

وهكذا انتهى القرن الثالث ، وانتهت معه فى حقيقة الأمر قوة الخلافة العباسية وهيبتها ، كما انتهى فى الواقع وجودها الحقيقى المؤثر ، وظلت فى السنوات التالية حتى سقوطها فى القرن السابع رمزاً تستخدمه العناصر الإسلامية أو القوى الإسلامية المختلفة، وتحتمى خلفه، وتتوسل به إلى الشرعية فى الحكم ، من بويهين وَدَيْلَم،أو ترك سلاجقة ، إذ أن وجود الخلافة فى الحقيقة كرمز للشرعية فقط هو الذى أبقى عليها كقناع أمام الناس ، والسلطان الفعلى هو السلطان البويهى طوال القرنين الرابع والخامس ، والسلطان السلجوق طوال القرن السادس وحتى سقوط الخلافة بعد منتصف السابع بقليل .

كبار القادة والوزراء
ممن كان لهم شأن فى تحريك الأحداث

وأول هؤلاء القادة دون منازع هو أبو مسلم الخراسانى الذى قامت على أكتافه دولة العباسيين ، وكان يميل بهواه إلى العلويين ، وكان له من الفضل فى محاربة أعداء الدولة هو وشيَعتُهُ من الخراسانية ما شهدت به كتب التاريخ وشهد به العباسيون وأبو جعفر المنصور نفسه . وقد استخدمه المنصور فى القضاء على معارضيه ، ولما أمن أراد التخلص منه حتى لا يبقى فى الدولة من يناطحه . أو يدلّ بجاهه وقوته ، وبخاصة بعد أن أحسّ بفتور العلاقة بينهما ، فاستدعاه إليه مظهراً رغبته فى رأب الصدع بينهما ، ودخل أبو مسلم على المنصور ، وكان قد أعدّ للغدر به ، فنالته السيوف وجُنْدِلَ تحت قدميه . وبهذا تخلص من مناوىء قوى بالخدعة ، ولم يكن عند المنصور ، ما يحول دون استخدام ما يراه من الوسيلة للوصول إلى غرضه على مبدأ الغاية تبرر الوسيلة ، حتى وإن كانت تلك الوسيلة معارضة لمبادىء الإسلام الذى يدين به، فلا مانع أن يغتال مسلماً غدراً مادام يريد أن يؤمن نفسه وسلطانه ، وهو خليفة المسلمين وإمامهم ، والمنفذ لشرع الله فيهم .

كان أبو مسلم فارسياً ، وكان قادة العرب يرون فيه منافساً ، ومزاحماً ، وكانوا يحقدون عليه، لما وفق إليه من الإنتصارات، وما بلغه من المجد حتى صار الرجل الثانى بعد الخليفة .

ومع هذا فقد شارك أبا مسلم الفارسى الأصل جماعة من القادة العرب فى عصر المنصور لعل ابرزهم عيسى بن موسى ، وهو عباسىٌّ، وكان ينفس على المنصورمكانته. وشارك عيسى فى توطيد ملك المنصور بقيادته لجيش بعث به إلى حرب محمد بن عبد الله الحسنى المشهور بالنفس الزكية بالمدينة فانتصر عليه ، وقتله ، وعاود الشخوص إلى البصرة للقضاء على ابراهيم بن عبد الله الحسنى ، فتم له ذلك .

ومن القادة المشهورين ، والسادة البارزين الممدحين من الشعراء بسماحته وكرم أخلاقه وصريح عروبته معن بن زائدة الشيبانى . وكان المنصور غضب عليه أول الأمر إلاّ أن معناً دافع عن المنصور وفداه بنفسه فى وقعة الهاشمية حين

تألب عليه أنصار أبي مسلم فانقذه معن بشجاعة وفدائية . واستعان به المنصور فى حرب الخارجين عليه ، فوفق فيما انتدب له وصار من رجال دولة المنصور الممدحين وتولى له اليَمن ، وأشهر من مدحه بقصائد ذائعة ، واختص به الشاعر النجدى العربى مروان بن أبى حفصة .

وكان لمعن فى تشجيع الشعر والشعراء مثل ما كان له فى القتال، والظفر بالأعداء وله شعر جيد يدور معظمه فى موضوع الإقدام . وقتل بمدينة بُست وهو والٍ على سجستان سنة ١٥٨ هـ . وقال مروان فى مقتله مرثية[١] :

مضى لسبيله معنٌ وأبقى	مكارم لن تبيدَ ولن تُنَالَا
كان الشمس يوم أصيب معنٌ	من الإظلام ملبسة جلالا

ومن القادة المشهورين عمر بن العلاء كان ممن وجهه المنصور إلى كثير من البلاد وله يدٌ طولى فى ردْع الخارجين حتى إن بشاراً نوه بمكانته وردعه لأعداء الخلافة فى مدحه للخليفة حين قال :

فقل للخليفة إن جئته	نصيحاً ولا خير فى المتهم
إذا أيقظتك حروب العدى	فنبّه لها عُمْرا ثم نَمْ
فتىً لا ينامُ على دمنةٍ	ولا يشرب الماءَ إلاَّ بَدمْ

ومن كبار رجال دولة المهدى المذكورين يعقوب بن داود ، وقد اعتمد عليه المهدى فى تدبير دولته ، وعلت منزلته عنده ، وعظم شأنه حتى قال بشار :

بنى أمية هُبُّوا طال نومكم	إن الخليفة يعقوبُ بن داودِ
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا	خليفة الله بين الرقّ والعودِ

وغضب عليه المهدى بآخرة ، وحبسه وقيل إن ذلك كان بسبب ميله للعلويين! وكانت وفاته سنة ١٨٧ هـ أو سنة ١٨٢ هـ .

أسرةُ البرامكة :

تنسب إلى جدها برمك ، وهو من مجوس بلخ ، وكان برمك وبنوه خداماً لأحد المعابد المجوسية بالمدينة ، وعند بدء الدعوة العباسية بخراسان لباها خالد

(١) وفيات الأعيان ٥ /٢٤٩ .

بن برمك ، وكان من أكبر دعاتها . وخدم العباسيين فكافأه أبو العباس السفاح بأن استوزره ، لكنه لم يجعله وزيراً بالمعنى المعروف بعد ذلك . وجاء أبو جعفر المنصور فولاه فارس . ثم طالبه أبو جعفر بمالٍ من أموال الخراج فأداها إليه . ثم عين من بعدها على الموصل ، وكانت له هيبة دون رهبة أو قسوة ، وظل على الموصل حتى توفى أبو جعفر . وتوفى خالد فى أوائل خلافة المهدى سنة ١٦٣ هـ .

وجاء من بعده ابنه يحيى بن خالد. وقيل إنه كان واحِدَ الدُّنيا علماً وأدباً وفضلاً ونبلاً وجوداً . واختاره المنصور فى حياة أبيه لولاية أذربيجان سنة ١٥٨ هـ وظل بها حتى نهاية حكم المنصور ، واختاره المهدى ليكون كاتبه ووزيراً لابنه هارون . فلازمه يدبّر أمره ، وكان هارون لا يناديه إلا بأبى . وخرج معه فى غزوة الصائفة سنة ١٦٣ هـ فدبر له أمر العسكر ونفقاته وصحبه فى هذه الغزوة الربيع بن يونس حاجب المهدى . وحدث بينهما منافسة للحظوة عند هارون فقد كان يشاورهما ويعمل برأيهما . وولى هارون أمر المغرب حتى افريقية ولازمه يحيى وزيراً ومدبّرا وكاتبا .

ثم عهد المهدى لولديه موسى الهادى وهارون من بعده ، وأراد موسى بتدبير من الربيع بن يونس أن يولى ابنه جعفر ويخلع أخاه هارون ، فسعى يحيى ليقنع الهادى بعدم الإقدام على ذلك ، ويحفز هارون على عدم القبول به .

ويبدو أن الصراع بين الربيع بن يونس الحاجب ويحيى بن خالد الكاتب كان فى حقيقته وجهاً للصراع بين العرب والفرس فى القربى من السلطة للتمكن من صاحب القرار فى الدولة . وهكذا تم الأمر لهارون الرشيد بسعى من يحيى بن خالد ، فحفظها له الرشيد ورفع من قدره هو وأولاده بعد توليه الخلافة . وقيل إن الرشيد قال ليحيى بعد أن قلده وزارته وزارة تفويض : « قلدتك أمر الرعيّة وأخرجته من عنقى إليك . فأحكم فى ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ، واعزل من رأيت ، وامْضِ الأمور على ما ترى » ، ودفع إليه بخاتمه .

وكان يحيى جديراً بهذا التفويض والاّ ما تنازل له الرشيد عن سلطاته على تلك الصورة التى لاشك أحدثت ردود فعل ومضاعفات كثيرة، منها استياء بعض

العباسيين ومن والاهم من العرب ممن لا يحبون البرامكة ، مثل الفضل بن الربيع ، وزبيدة زوج الرشيد . ومنها استبداد البرامكة بالخلافة وأموالها مما دفع بالناس إلى قصدهم والتردد على عتباتهم ، ورفع مكانتهم . وهذا ما تمناه هؤلاء للإمساك بخيوط السلطة حتى بلغ السبل الزبى كما يقال فى الأمثال . ولم يعد للرشيد معهم سلطانٌ فاقتلع جذورهم من الأساس حتى لا تضيع الخلافة العباسية تماماً فى أيدى الفرس أو هكذا أوحى إلى الرشيدممن دسوا للبرامكة عنده .

ومع هذا فقد كان البرامكة من الكفاءة والذكاء والقدرة على الإدارة والقيادة والتحبب إلى الرعية على قدر عظيم . حتى أحبهم الناس وقصدهم الشعراء وكالوا لهم المديح .

كان ليحيى أربعة أولاد صاروا من السادة الغرّ المشهورين والذين أثروا فى تاريخ هذه المرحلة من حكم الرشيد ، وقدموا للحضارة العباسية من حيث الإدارة والسياسة ، والتنمية الأقتصادية وزيادة ثروة بيت مال الخلافة ، مما جعل عهد الرشيد عهد ازدهار وفخار فى كل جوانب الحياة .

كان أولاد يحيى الفضل وجعفر ومحمد وموسى ، وكلهم نجبٌ ، أدُّوا للرشيد خدمات عظيمة ، فقد قاد الفضل الجيوش ، وأحسن السياسة ، وتولى خراسان وثغورها فأحسن السيرة ، وبنى بها الرباطات والمساجد ، وغزا ما وراء النهر ، واتخذ من العجم جندا خراسانية سماهم العباسية ، وبلغت عدتهم خمسمائة ألف ، وكان هؤلاء عون المأمون فى الإنتصار على الأمين .

وكان الفضل من اكثر البرامكة همة وكرماً .

وأما جعفر ثانى أبناء يحيى فقد كان كذلك كأخيه الأكبر فى علو الهمة وارتفاع المنزلة عند الرشيد . وكان سمح الأخلاق طلق الوجه ، بلغت سمعة جوده الآفاق وتغنى به الشعراء . كل هذا إلى علو كعبه فى الفصاحة ، وطلاقة اللسان . وكان الرشيد يأنس إلى مجالسته .

تولى للرشيد مصر سنة ١٧٦ هـ ، وقاد حملة لاخماد ثورة بالشام سنة ١٨٠ هـ ، فوفق فى بلوغ غايته وأمن الشام . وقال منصور النمرى فى ذلك :

لقد أوقدتْ بالشام نيرانُ فتنةٍ　　فهذا أوان الشام تُخمَدُ نارُها
إذا جاش موج البحر من آل برمك　　عليها خبت شهبانُها وشرارها
رماها أمير المؤمنين بجعفر　　وفيه تلافى صدعها وانجبارها

ثم تولى خراسان ، وخلع عنها فتولاها هرثمة بن أعين من كبار قادة الرشيد والمأمون .

وكان الابن الثالث موسى بن يحيى من القادة الشجعان ، وإن لم يبلغ ما بلغه أخواه من الشهرة . شارك فى كثير من المعارك ، كما كان عوناً لأخيه جعفر فى القضاء على ثورة الشام التى أشرنا إليها . وشخص إلى خراسان فأحبه أهلها . واتهمه أمير خراسان يومئذ عند الرشيد بأنه يعمل على الوثوب بأهل خراسان على الخلافة ، فغضب عليه فترة ثم عفا عنه .

وكان محمد آخرهم فكان يماثل أخوته همة وخلقاً ، وسماحة إلاّ أنه لم يبلغ من المجد مبلغهم ، فلم تسلط عليه أضواء التاريخ ، ولا لهجتْ به السنة الشعراء .

ومع ما بلغه البرامكة من مجد ، وما قاموا به من أدوار فى شتى مجالات الحياة العباسية طوال عهْدَىْ المهدى والرشيد ، فقد انتهى الأمر بنكبتهم تلك النكبة العارمة التى أطاحت بهم ، لكنها لم تطح بذكراهم ، وبما تركوه من آثار جليلة تشهد عليهم .

آل الفضل بن الربيع :

والأسرة الثانية من الأسر العريقة « آل الربيع » ومؤسسها الربيع حاجب المنصور ، وذكرنا طرفا من أخباره مع برمك ويحيى ابنه ، وما كان بينهما من منافسة ، وورثه ابنه الفضل بن الربيع الذى كان مقرباً من المهدى والهادى ، فلما ملك البرامكة على الرشيد أمره ، سعى الفضل مع بعض أعوانه للإيقاع بالبرامكة ، بالفضل ثم بجعفر حتى ثار عليهم الرشيد ، ونكبهم .

وانفرد الفضل بن الربيع بعدها بالرشيد ، واستولى على ابنه الأمين من بعده ولم يكن له نفوذ فى عهد المأمون لادراكه تحريض الأمين على خلعه فظل خاملاً فى عهد المأمون حتى وفاته . ومدحه جماعة من الشعراء على رأسهم أبو نواس الحسن بن هانئ .

آل سهل :

وهم الأسرة الفارسية الثانية ذات النفوذ والأثر الملحوظ فى هذه المرحلة من القرنين الثانى والثالث من عصر العباسيين ، ورأس هذه الأسرة سهل بن هارون، وهو سرخسى فارسى الأصل عمل قَهرماناً ليحيى بن برمك، وولى ولده الحسن بن سهل والفضل بن سهل للمأمون الوزارة ، ونهضا بأعبائها ، وغلب الفضل على المأمون ، فأغتيل على يد أحد أعوانه سنة ٢٠٢ هـ .

وقصده جماعة من الشعراء ومدحوه ، منهم مسلم بن الوليد ودعبل الخزاعى وابراهيم بن العباس الصولى .

ويقال إن الذى أشار على الرشيد بإختيار الفضل لملازمة ابنه المأمون هو يحيى بن خالد . وهذا طبيعى لرغبتهم فى توارث الفرس النفوذ فى جنب الخلفاء .

وقيل إن الفضل كان يتشيَّع أو يميل إلى العلويين ، ومن هنا كان قصد دعبل الخزاعى المعروف بتشيعه له ومدحه .

وتولى الحسن بن سهل الوزارة بعد مقتل أخيه الفضل ، وحظى عند المأمون ، فتزوج الخليفة من ابنته بوران ، وانفق الحسن فى زواجها من المأمون نفقات كثيرة دلت على مدى ثراء الحسن واسرة آل سهل .

وكان الحسن كأخيه الفضل عالى الهمة مقبلاً على الشعراء ، كثير البذل لهم .

وكان الحسن كاتبا بليغاً . ووجهه المأمون لقتال عمه إبراهيم بن المهدى عندما ثار عليه وخلعه ونصب نفسه للخلافة عقب إعلان المأمون تولية عهده لعلى بن موسى الرضا العلوى . واستطاع الحسن بن سهل هزيمة ابراهيم المهدى . وتمكن المأمون من السلطة ودخل بغداد مظفرا .

وعرف الحسن بن سهل ببلاغة توقيعاته وإيجازها ، وحسن بيان رسائله . فمن توقيعه قوله : « قد أمرنا لك بشىء هو دون قدرك إلى استحقاق ، وفوق الكفاية مع الاقتصار » .

ومن أقواله البليغة : « عجبتُ لمن يرجو من فوقه كيف يحرم من دونه » ، وتوفى الحسن بن سهل سنة ٢٣٦ هـ . وكان من كتابه أحمد بن أبي خالد وأحمد بن يوسف .

آل طاهر بن الحسين :

ومؤسسها هو طاهر بن الحسين بن مصعب ، من أهل فارس ، جده اسمه ماهان . كان من مقدمى رجالات المأمون ، وكبار قادته . قاد جيشه إلى بغداد لحرب الأمين ، وتمكن من قتله وتولى المأمون بعده .

وكان شجاعاً أديباً ، وممدَّحا من شعراء العصر ، لقب بذى اليمينين . ولاه المأمون الموصل وبعض بلاد المشرق . وخراسان ، وتوفى سنة ٢٠٧ هـ بمدينة مرو .

وكان له من الأبناء طلحة وعبد الله ، وبلغ ابنه عبد الله مبلغ أبيه فى الرفعة والتقدم فى الدولة ، واعتمد عليه المأمون فى شئون الخلافة . ولاه الدينور ، وأمره بالخروج من خراسان لمحاربة بابك الخرمى والقضاء على حركته ، فتمكن منه ، وكشف ما كان بين المازيار والأفشين قائد المعتصم من مؤامرة للنهوض بالبلاد التى تملكها المازيار فى ثورته قبل القضاء عليه ، فكان أن أمر المعتصم بصلب المازيار ، وسجن الأفشين حتى الموت ثم صلبه وحرقه إلى جانب المازيار .

وكان مقصداً للشعراء ، وعلى رأس من مدحه إمام شعراء العصر أبو تمام حبيب بن أوس . ومن مدائحه فيه قصيدته البائية الرائعة :

وركب كأطراف الأسنة عرَّسوا	على مثلها والليل تسطو غياهبُهْ
لأمر عليهم أن تتم صدوره	وليس عليهم أن تتم عواقبُهْ

وروى ابن خلكان أن عبد الله بن طاهر كان أديباً ظريفاً جيد الغناء ، وقد نسب إليه أبو الفرج فى الأغانى أصواتا كثيرة[1] . وله شعر مليحٌ ورسائل طريفة ، فمن شعره :

(١) وفيات الأعيان ٣ /٨٥ طبعة إحسان عباس .

نحنُ قومٌ تُلِينُنا الحدق النُّجْـ ـلُ ، على أننا نُلينُ الحديدا
طوعَ أيدى الظباء تقتادنا العيـ ـنُ ، ونقتادُ بالطِّعانِ الأسودا
نملِكُ الصيدَ ، ثم تملكنا البيـ ـضُ المصُوناتُ أعيناً وخدودا
تتقى سُخْطنا الأسود ونخشى سخطَ الخِشْفِ حين يبدى الصدودا
فترانا يوم الكريهة أحْرَا راً ، وفى السِّلم للغوانى عبيدا

وكان أحد الأجواد الأسخياء .

تولى الشام مدة ، وتولى مصر زمناً . وقال فيه أحد الشعراء بمصر :

يقوْلُ أناسٌ إنّ مصر بعيدةٌ وما بعدتْ مصرٌ وفيها ابن طاهر
وأبعد من مصرٍ رجال تراهمُ بحضرتنا معروفهم غير ظَاهِرِ
عن الخير موتى ما تبالى أزُرْتَهُمْ على طمع أم زرت أهل المقابرِ

وكان دخوله مصر سنة ٢١١ هـ .

وذكر الوزير أبو القاسم المغربى فى أدب الخواص أن البطيخ المسمّى (العبد لاوى) منسوب إلى عبد الله بن طاهر . وهو غير معروف فى غير مصر من البلاد ، ولعله نسب إليه — كما يقول ابن خلكان — لأنه كان يستطيبه ، أو أنه أول من زرعه بها .

وتوفى عبد الله بن طاهر سنة ٢٢٨ هـ بمصر وقيل سنة ٢٣٠ هـ .

وأما ابنه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، فقد تولى شرطة بغداد . وإليه انتهت رياسة أهله . وكان أديباً مصنفاً . له من الكتب « الإشارة فى أخبار الشعراء » وكتاب « رسالة فى السياسة الملوكية » ، وكتاب مراسلات مع عبد الله بن المعتز ، وكتاب « البراعة والفصاحة » . وكان مترسلاً شاعراً لطيفاً حسن المقاصد على حد قول ابن خلكان[1] . جيّد السبك ، رقيق الحاشية . روى له ابن رشيق ابياتا فى العمدة .

ومن شعره المروى قوله :

أبى دهرُنـا إسْعَافَنَا فى نفوسنـا وأسعفنا فيمن نحبُّ ونكرم
فقـلـت له : نعمـاك فينـا أتمهُّـا ودع أمرنا ، إن المهمّ المقدَّم

(١) وفيات الأعيان ٣ / ١٢٠ .

وتوفى عبيد الله سنة ٣٠٠ هـ .

وكان له أخوة آخرون تولوا مناصب فى الدولة ولم يشتهروا شهرة عبيد الله .

أبو دلف العجلى :

القاسم بن عيسى العجلى من بكر بن وائل من ربيعة . قائد عربى مشهور من قواد المأمون والمعتصم . وكان قائداً شجاعاً كريما ممدَّحاً ، ذا وقائع مشهورة وصنائع مأثورة . أخذ عنه الأدباء والفضلاءُ . وله صنعة فى الغناء . وله كتب منها « كتاب الصيد والبزاة » . وكتاب « السلاح » ، وكتاب « النزه » ، وكتاب « سياسة الملوك » .

وقصده الشعراء ، أبو تمام ، وعلى بن جبله المعروف بالعكوّك ، وبكر بن النطّاح وكان يميل إلى العلوية . وتوفى سنة ٢٢٥ هـ ببغداد .

وآل وهب

كانوا نصارى من قرية من أعمال واسط ، ثم أسلموا . وخدموا فى الدواوين حتى آلت بهم الحال إلى الوزارة . وأول من تولى منهم الوزارة سليمان بن وهب . للخليفة المهتدى بالله . وكان كما ذكر صاحب الفخرى : أحد كتاب الدنيا ورؤسائها فضلاً ، وأدباً وكتابة فى الدرج والدستور . وهو أحد عقلاء العالم وذوى الرأى منهم . وكان أول أمره يعمل كاتباً لأحد كتاب المأمون . وأعجب به المأمون ، وقدمه وهو آنئذٍ صبّى . وحبسه الواثق زمناً فى أموال اقتضاها منه . وأفرج عنه بعد وفاة الواثق .

ومن شعره(١) :

نوائبُ الناس أدّبتنى ... وإنما يوعظ الأديبُ

قد ذقْتُ حلواً وذقْتُ مرًّا ... كذاك عيش الفَتَى ضُروبُ

ما مرّ بؤسٌ ولا نعيمٌ ... إلا ولى منهما نصيبُ

ولسليمان ديوان رسائل .

(١) الفخرى : ص ١٨٤ .

وأخوه الحسن بن وهب كان كاتباً شاعراً كذلك ، وله ديوان رسائل . وكان قد مدحه أبو تمام . ولمّا مات أبو تمام رثاه الحسن بن وهب .

كلّ شعبٍ كنتم به آل وهبٍ	فهو شِعْبِى وشعبُ كلّ أديب
إن قلبى لكُمْ لَكالْكبِدِ الحَرَّ	ى ، وقلبى لغيركم كالقُلوبِ

وكان بنو وهب عامة من رؤساء الناس وحذاقهم فى عصر العباسيين فى النصف الأول من القرن الثالث . وكانت دولتهم فيه ناضرةً ، وأيامهم مشرقة ، والأدبُ فى زمانهم قائم المواسم ، والكرم واضح المعالم[1] .

توفى سليمان سنة ٢٧٢ هـ ، فى حبس الموفق أيام المعتمد .

وتولى الوزارة ابنه عبد الله بن سليمان بن وهب ، وزر للمعتمد . وكان من كبار الوزراء . ومشايخ الكتاب . وكان بارعاً فى صناعته ، حاذقاً ، ماهراً ، لبيباً جليلاً . ومدحه أحد الشعراء بقوله :

إذا أبو أحمد جادت لنا يده	لم يحمد الأجودان البحر والمطرُ
وإن مضى رأيه أو حدّ عزمَتهُ	تأخر الماضيان : السيفُ والقدرُ
وإن أضاءتْ لنا أضواءُ غُرّته	تضاءَلَ النيرّان : الشمسُ والقمرُ
من لم يبت حذراً من حدّ صولتـــه	لم يدر ما المزعجـان الخوف والحذرُ
يَنالُ بالظنّ ما يَعْيىَ العيبان به	والشاهدانِ عليه العينُ والأثرُ

ومات عبيد الله سنة ٢٨٨ هـ .

ومنهم القاسم بن عبيد الله بن وهب ، وكان من دُهَاةِ العالم كما يقول ابن طباطبا[2] . ومن أفاضل الوزراء . وكان شهماً فاضلاً لبيباً ، محصّلاً ، كريماً مهيباً ، جبّاراً . وقال : وكان يطعن فى دينه . وهو الذى قتل ابن الرومى بالسمّ وكان ابن الرومى منقطِعاً إلى آل وهب يمدحهم ، وكانوا يقصرون فى حقه فى بعض الأوقات ، فهجاهم .

وزر للمعتضد ، وظل بالوزارة حتى مات ، وشغلها أول عهد المكتفى وكان قد أخذ له البيعة ، فأقرّه المكتفى على الوزارة ، ولقبه ألقابا . وجلّ أمر القاسم فى عهده ، وعظم شأنه . وتوفى فى وزارته .

(١) الفخرى : ص ١٨٤ .
(٢) الفخرى : ص ١٨٩ .

الفصل الثانى
البيئة والمجتمع

تختلف البيئات فى العصر العباسى ، باختلاف مواقع المدن الكبرى التى أثرت فى حياة الناس ، وتوجيه النشاط الحضارى . من مدنٍ قديمة تنتمى إلى حضاراتٍ سابقة على العصر الإسلامى ، أو مدنٍ محدثة ، أنشئت فى بدايات الفتح الإسلامىّ للعراق وفارس كالبصرة ، أو انشئت فى عصر العباسيين كبغداد وسامرًّا .

ومواقع هذه المدن تتحكم تحكماً ظاهراً فى توجيه أنشطة أهلها وأمزجتهم. منها ما يقع على النهر مباشرة ، أو يبتعد عنه قليلاً ، ومنها ما هو قريب من البحر ويعتبر مرفأً يحمل إليه أنواعاً من التجارة ومعها أشياء أخرى من حضارات الأمم البعيدة فى الشرق كالهند والصين .

ومنها ما يقبع فى الداخل تظاهره الصحراء وتحيطه الأديرة النصرانية كالكوفة ومنها ما هو قريب من الجزيرة وعلى حافة البادية ، يرتاده الأعراب من حين إلى حين كالبصرة . ومنها ما هو بعيد عن الصحراء قريبٌ إلى فارس مثل بغداد وسامرًّا ، منها ما هو جبلىٌّ أو قريب إلى مناطق الجبال فى الشمال كالموصل وهكذا تختلف البيئات باختلاف المواقع . ومن ثم تختلف أنشطة السكان وفقاً لطبيعة المكان من زراعة وصناعة وتجارة ، ورعى .

بغداد :

وتعتبر بغداد عاصمة أبى جعفر المنصور ، ممثلاً لبيئة العباسيين ، ومكثفاً لصور الحياة والمجتمع فى هذا العصر . وقد بناها المنصور على نهر دجلة ، وبدأ بالحىّ الذى سكنه وأسرته وأصبح من بعد حىَّ الخلفاء ، والطبقة العالية الرفيعة الثرية المترفة ككل العواصم ، وأعنى حىَّ الرصافة الذى ضم قصور الخلفاء والأمراء والوزراء وسادة القوم وأثرياءهم ، وكان بها بيوت البرامكة ، وغيرهم ، وكانت شوارعها مسرحاً لابناء هؤلاء وجواريهم وحاشيتهم ، وتسبح على مياه دجلة فى مقابل الرصافة سفنهم من زوارق وشوانى وغيرها من أشكال تعددت أسماؤها .

وكان الكرخ الحيّ الشعبي التجاريّ ، تسكنه الطبقة الوسطى من أصحاب الوظائف والتجار ، وأصحاب الحرف ، توجد به الدكاكين على اختلاف أنشطتها ، ودور اللهو التي تعمر بالقيان المغنيات ، وبيوت الخمر التي يقوم عليها الذّميون من نصارى ويهود .

حياة الترف واللهو :

كان لكثرة الأموال التي تدفقت على العاصمة بغداد ، وغيرها من الأمصار الكبرى كالبصرة والكوفة أثرها على حياة الترف التي عاشها الخلفاء وطبقة الأسرة العباسية وقد تزايد عددهم حتى بلغوا عدة آلاف في عصر المأمون — فقد انفقوا من الأموال بغير حساب ، وكان يجرى على أسرة العباسيين رواتبُ تمكنهم من حياة الرفاهية والنعيم ، فكانت لهم القصور إلى جانب قصور الخلفاء ، ولهم الجواري ، والخدم والغلمان . ويلبسون من الملابس أفخرها ، ويقتنون من الرياش أغلاه وأثمنه . حتى عادت قصور العباسيين ، وما تحويه من أبهة وفخامة حديث الناس ، تمتلئ بها الكتب ، وتصور روعتها الأشعار والقصص .

وكان لما ينفقه الخلفاء عن سعة على من حولهم من الوزراء والأتباع والشعراء والمغنين ، والمغنيات أثره في نمو هذه الطبقة الارستقراطية التي تنعم بالخيرات وتسكن أحياء الأغنياء والمترفين ، كحيّ المهدية ، والرصافة .

وتعمر هذه الأحياء بالبساتين والحدائق ، وتسير في طرقاتها الخيول الفارهة المحلاة بمختلف الحلى ، والبغال المطهمة ، يقودها الغلمان ، والخدم ، ويركبها السادة في ملابسهم الغالية ، وعمائمهم وقلانسهم الموشّاه .

وكانت تتهادى في طرق تلك الأحياء الجواري في أبهى زينتهن سافرات غير محجبات ، يفتنَّ المارة بجمالهن ، وبهاء زينتهنّ .

والناس بعد أسرة العباسيين طبقات . قال يحيى البرمكيّ :

« الناسُ أربع طبقات : ملوك قدمهم الاستحقاق ، ووزراء فضلتهم الفطنة والرأى ، وعلية أنهضهم اليسارُ ، وأوساطٌ ألحقهم بهم التأدّب . والنّاسُ بعد زَبدٌ جُفَاءٌ ، وسيلٌ وغثاءٌ ، ولكَعٌ ولكاعٌ ، وربيطة اتضاع ، همُّ أحدهم طعامُه ونومه » .

ومع أن هذا التقسيم لطبقات المجتمع صدر عن وجهة نظر أحد ابناء الطبقة العليا فى المجتمع إلاَّ أنه يصدق إلى حد كبير فى رصد تلك الطبقات ، وإن كانت النظرة المتعالية تسبغ على قوله ضرباً من التحيز لأبناء طبقته ومن قاربها ، والتحامل على غيرها من الطبقات الدّنيا التى اعتبر أصحابها زبداً وجفاءاً ، وسيلاً وغثاءاً ، ولكعاً ولكاعاً ، ورييطة اتضاع .

وهذا حكم جائرٌ لأنه إن قصد بهذا سواد الناس من الصناع والحرفيين والزرَّاع والعمَّال المكارين ، فقد أساء الحكم لأن هؤلاء يقومون بدور فعّال فى المجتمع ، ولا يقوم المجتمع الراقى نفسه إلاَّ على أكتاف هؤلاء الفعلة والحرفيين والزراع والصنّاع ، بل والعبيد والخدم .

فمن الذى يبنى القصور ويزيّنها ، ومن يخدم الأرض ويفلحها ، ومن يأتى بأفخر الثياب التى ينعم بها الأغنياء من أقصى الأرض ، ومن يعد الطعام ويهىء المقام غير هؤلاء ؟.

لكنَّ الناس مع هذا متفاوتون فى المقدرة والرزق ، ولعلَّ يحيى يرفع من قدر ذوى الرياسة والجاه ، ومن يملكون السياسة والعقول المدبرة ، والعلم والذكاء ، فمواهب النفس والعقل عنده أسمى من قدرات الجسد. والأعمال التى تقتضى الفكر أرفع مما تعتمد على الجوارح والعضلات .

ولا تخلو نظرة يحيى من التسليم بخلقة الله وفطرته فى الكون ، بأن جعل الناس طبقات لخير الحياة وعمار الدنيا ، فهذه سنة الحياة ، كما أرادها مُدبِّرها ، تفاوت فى الملكات والقدرات ، والحظوظ ، والمكاسب والأرزاق . وكلّ من عند الله .

ومهما تكن النظرة إلى طبقات الناس ، فإن لكلّ دوره فى الحياة ومسيرة الحضارة . ولاشك أن دور الخلفاء العباسيين ومن لاط بهم من الطبقة العليا كان دوراً فعالاً موجهاً لمسيرة الحضارة ، ولما شهده العصر من ازدهار فى كل جوانبها .

ومن هنا كان ما يُبدعه الملوك والأشراف أو سراة الناس من وسائل العيش كالقصور ، وألوان الحياة فيها يمثل مستوى الحضارة التى بلغها العصر وكذلك كانت بغداد فى عصر العباسيين بما فيها من مظاهر العيش وأبنية ممارساته تمثل الغاية التى بلغتها الحضارة العباسية .

وكان سراة العباسيين يحيطون بحي الخلفاء بالرُّصافة ، فقد بنى فيه المنصور قصره المعروف بالخلد عند تأسيس بغداد ، كما أن حي الرصافة نفسه على ما يروى بناه لابنه المهدى . وامتاز قصر المنصور وسط بغداد بقبته الخضراء التى تعلو مجلسه . وكان على رأس القبة تمثال فارس بيده رمح .

وقيل إن المنصور أنفق على بناء مدينته هذه بقصورها ثمانية ملايين دينار .

قال ياقوت : « ولما أتم بناءها حشر إليها المنصور العلماء من كلّ بلدٍ ، وإقليم ، فأمَّها الناسُ أفواجاً ، ولم تزل تتعاظم ، ويزداد عمرانُها حتى صارت أم الدنيا ، وسيدة البلاد ، ومهد الحضارة الإسلامية فى عهد الدولة العباسية » .

قال الخطيب البغدادى : « لم يكن لبغداد فى الدنيا نظير فى جلالة قدرها ، وفخامة أمرها ، وكثرة علمائها وأعلامها ، وتمُّيز خواصّها وعوامّها ، وعظم أقطارها ، وسعة أطرارها ، وكثرة دورها ومنازلها ، ودروبها وشوارعها ومحالّها وأسواقها ، وسككها ، وأزقتها ومساجدها ، وحماماتها وطرقها ، وخاناتها ، وطيب هوائها ، وعذوبة مائها ، وبرد ظلالها وأفيائها ، واعتدال صيفها وشتائها ، وصحة ربيعها وخريفها ، وزيادة ما حصر من عدد سكانها . وأكثر ما كانت عمارةً ، وأهلاً فى أيام الرشيد ، إذ الدنيا قارَّةُ المضَاجِع ، دارَّةُ المراضيع ، خصيبة المَوَاقع ، مُورَدةُ المشارع » .

هكذا كانت بغداد بعد أن بناها المنصور ، وقد جمعت بين طبقات الناس ، رفيعهم ووضيعهم ، سراتهم وعامتهم ، وكان سكانها على هذه الكثرة التى أخبر بها الخطيب خليطا من الأجناس ، من عرب وفرس وروم ، ونبط ، وترك ، فأما العربُ فكان معظمهم يمثلون الطبقة الرفيعة من الحكام ، وكبار رجال الدولة ، ومن يفد إلى العاصمة من الأطراف فيستقر بها أو يعبر عبوراً ثم يعود إلى وطنه طالت مدته أم قصرت . وأما الفرس فكانوا يمثلون الكثرة بعد العرب ، بعضهم من السادة وزراء وكتابا ، وقادة جند وأصحاب جاه ووجاهة ، وبعضهم من التجار ، وأصحاب الضياع ، وكان منهم من الأوساط الذين يحترفون بعض الحرف ، ومنهم من الموالى ، أو المخلطين .

وبعضهم من العامة الذين يحترفون بعض الصناعات الصغيرة . مع النبط

وغيرهم من العوام الذين يشكلون السواد الأعظم من العمال ، والأكرة ، والمكدين ، والعيارين والشطار .

وكان سكن هذه الطبقة من صغار التجار ، وأوساط الناس ، وعامتهم من الحرفيين والعمال بضاحية الكرخ . وعمرت هذه الضاحية ، وأزداد تعدادها بهم ، وكونوا جمهرة وقوة ضاغطة ، كان لها دورها البارز فى حرب الأمين والمأمون عند حصار طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين لبغداد عاماً كاملاً ، فكان المدافعون عن المدينة فى معظمهم من هؤلاء العيارين والعوام .

كانت الكرخ إذا مسرح الحركة الشعبية ، بكل ألوانها وتناقضاتها ، فى بيعها وشرائها ، لهوها وعبثها ، نسكها وعربدتها . بنيت بها المساجد ، وأماكن العبادة وانتشرت فيها دكاكين البيع والشراء ، ودكاكين الخمر ، وبيوت القيان .

وبين أسواقها سوق للرقيق ، تعرض فيها الجوارى والغلمان المجتلبة من كل مكان بين روم وصقالبة وترك وسودان .

وكانت الشرطة تجوبُ أسواقها وشوارعها بأمر صاحب الشرطة لردْع المخالفين وضبط الخطرين المعربدين ، وتطبيق أحكام الشرع فيمن يخرج عليه ، أو يتجاوز حدوده، كذلك كان يجوبها رجال المحتسب لمراقبة الأسواق ، ومحاسبة كل مخالف أو مستغل ومطفف ، وللتأكد من نظافة وسلامة كل ما يقدم للناس من المآكل والمشارب .

وكانت أحياء الخاصة فى بغداد تزدهر بقصورها وحدائقها الغناء ، ومنها ما يطلُّ على دجلة ولها المراسى ترسو عليها أنواع المراكب والحرَّاقات والزوارق يتخذون لها صور الحيوان والطَّير فى رءوسها ومقدماتها . وقد يعقدون بها مجالس للسمر والشراب والغناء ، وتمخر بهم فى ليالى بغداد على أمواه دجلة تنيرها القناديل والشموع .

وتزدان دجلة فى الأعياد والمواسم ، بمختلف ألوان الزينة تحملها تلك المراكب والشوانى .

وتجوب شوارع بغداد مواكب السادة من القواد والوزراء وكبار الكتاب

ورجال الدولة ، وكانت مراكب أصحاب السيف الخيول المطهمة المزينة بأنواع الزينة . تحرسها كوكبة من الغلمان والأتباع عليهم الثياب المزركشة . وقد أكثر الناس فى عصر المعتصم من اقتناء الأتراك والروم لصباحة وجوههم ، وألبسوهم فاخر الثياب ، المزركشة بمناطق الذهب والفضة ، وذات الألوان الزاهية البهجة .

وكانت مراكب أصحاب القلم غالباً من البغال المزينة .

ولم تكن الكرخ ، وغيرها من أحياء بغداد الشعبية تخلو من مظاهر الأبهة والترف . فقد اتخذ منها بعض القادة سكناً ، ويذكر منها طيرنابدا وقطيعة الربيع .

يقول المقدسى : « أعمر موضع ببغداد قطيعة الربيع والكرخ فى الجانب الغربى » وكان بالكرخ متنزهات ، ومطارح كثيرة للهو . يقول على بن الجهم :

سقى الله باب الكرخ من مُتَنَزَّهٍ ... إلى قصرِ وضَّاحٍ فبركةِ زَلْزَلِ
مساحبُ أذيال القيانِ ومسرحِ الـ ... حسانِ ، ومثوىً كلِّ خرقٍ معدلِ
لو ان امرأ القيس بن حجْرٍ يحلُّها ... لأقصرَ عن ذكرِ الدَّخولِ فحومَلِ

وسكن الكرخ من سادة القوم المشهورين أبو دلف العجلى قائد المأمون العربى الجواد الممدّح من الشعراء وعلى رأسهم أبو تمام .

وتعدد فى أحياء بغداد الراقية والشعبية مظاهر الحياة اللاهية ، والجادة وصور النشاط الحيوى لكسب العيش من بيع وشراء ، فتنتشر دكاكين الخمارين من أهل الذمة يهود ونصارى ، وبيوت القيان ، ودكاكين الباعة ، وصناع الطعام من الخبازين ، وصنّاع الزلابية والرقاق مما عرض له الشعراء فى العصر .

البصـرة :

قيلَ أن البصرة اختطت سنة ١٦ هـ ، ومعظم بيوتها آنئذٍ من القصب ثم أصبحت من الطين ، وكذلك كان مسجدها أول الأمر حتى أعيد بناؤه بالآجُرِّ والجصّى ، كذلك بدأ الناس يبنون بيوتهم وقصورهم ، من الآجر وبدأ بذلك

قصر الإمارة الذى كان قريباً من المسجد الجامع ، ثم انتقل إلى موقع المربد سوق البصرة غربى المدينة .

وكان المربد فى متسع من الأرض ، أصبح حياً شعبياً تجارياً منذ عصر الأمويين واختلف إليه الشعراء ، فعقدوا به مجالسهم وتناشدوا الشعر على ما تحفل به كتب الأدب . وكان الفرزدق وجرير وذو الرمة من فرسان المربد المبرزين . اجتمع إليهم من أهل البصرة جماعة مثل بشار بن برد ، وأخذوا عنهم .

وكان لموقع البصرة قرب البادية ، ولأنها مدينة عربية إسلامية أثرها الواضح العروبة ، إذ يفد إليها العرب والأعراب من أقطار الجزيرة من ساحل الخليج ونجد والحجاز .

وهى على الطريق لحاج العراق ، ولهذا ظلتْ البصرة على صلة دائمة بأحداث الجزيرة ، وتتأثر تأثراً بالغاً بما يدور فى أنحائها ، أو يشغبُ فى اطرافها من نجدها وحجازها .

وكان لهذا أيضاً أثره فى وفود بطونٍ كثيرة من القبائل العربية يمنية ومضرية ربيعية وقيسية ، واستقرارها بأحيائها المختلفة ، كما اجمعت بحكم موقعها أيضاً جماعات من الغرباء الوافدين عبر البحار من أمم الشرق من الهند والسند والصين فضلاً عن الفرس ، والنبط أبناء البلاد الأصليين فى هذا الموقع .

وقد عرف موقع البصرة منذ القدم بأنه أرض الهند ، على شط العرب وقرب مصبّ دجلة . لأن بضاعة أهل الهند وتجارتهم تفد على السفن من الخليج وشط العرب إلى هذا المكان .

ويوُّجد قرب البصرة موقع لمدينة قديمة ، لعلها معرقة فى القدم ، إذ أن هذا المكان فى جنوب العراق كان موطناً لحضارة ضاربة فى أعماق التاريخ هى حضارة سُومر أو السومارين ، لعلها تركت بعض آثارها فى السكّان الأصليين أو النبط على اختلاف القول فى جنسهم وانتمائهم .

وقرب المكان كثير من المستنقات يكثر بها القصب . الذى اتخذ منه بناة البصرة بيوتهم أول الأمر .

وأول من بنى سوراً حول المدينة هوأبو جعفر المنصور .

وأهم مكان فى البصرة هو المِرَبد ، وكان سوقاً واسعة « يؤمها البدو لبيع مواشيهم وإناخة قوافلهم . وكانت مجالاً ، ومضماراً للشعراء والخطباء ، يتبارون فيه ، كما كان المربد مكان الالتقاء بين العلماء ورواة الشعر من بدو الجزيرة ، وبين اللغويين والأعراب .

وفى هذا المربد تخرج كثير من أدباء البصرة وشعرائها وعلمائها ، كما وفد إليه فحول شعراء العرب أيام الأمويين من أمثال الفرزدق وجرير والأخطل ، واستمع إليهم بشار وغيره من شعراء البصرة أواخر عصر الأمويين ، وأخذوا عنهم وحفظوا قصائدهم وحاولوا الاقتداء بهم .

وكان قرب البصرة قرية قديمة تسمى الأُبُلَّة ، أصبحت فيما بعد إحدى ضواحى المدينة . وذكرت الأبلة باعتبارها مدينة منذ أيام الاسكندر ، فأصل اسمها يونانىٌّ .

وسكن البصرة منذ بدء تأسيسها جماعاتٌ متعددة من القبائل العربية ، وأجتمع جماعة من السادة ، والصحابة والتابعين ، ورؤساء القبائل الذين كونوا بها من نسلهم بعد ذلك طبقة الارستقراطية البصرية .

وحفرت الأنهر والقنوات ، لسقى المدينة ، وبساتينها من نهر دجلة وشط العرب فصارت تحيطها المياه ، والزروع ، وغابات النخيل الشجرة العربية المحببة ، وأصبح النخيل مصدراً أساسياً لثروة البصرة بما يبيعه أهلها من التمور .

ومن شمال البصرة تمتد بين البصرة وواسط مستنقعات الأهوار ، والبطائح كان يسكنها الزطُّ وهم جماعة من أهل السِّند ، وأجناس مختلفة مختلطة أشبه بالنَّور ، أو جماعات الغجر الذين يسكنون أطراف بعض المدن الكبرى ، ولا يعرف لهم أصل محدود .

كذلك كان يسكن بأطراف البصرة جماعات من الأكرة وعبيد الأرض من الزنوج يحملون السباخ لبساتين النخيل ، ويعنون بالزراعات المختلفة ، وكان سراة المدينة يملكون من هؤلاء العبيد من الزنج أعداداً تتفاوت بِتَفَـاوُتِ أقدارهم من الغنى والجاه .

وكانت السفن ترسو على الشواطىء الشمالية الشرقية للبصرة ، على نهر دجلة أو الأبله وتجلب الميرة ، والبضائع من كل مكان بالعراق ، وبلاد الهند والشرق والجنوب .

وكان سكان البصرة يحتفظون بالسباخ الذى تحتاج إليه بساتينهم جَنُوبيُّها حتى إذا هبت ريح الجنوب حملت إليها روائح كريهة . قال الشاعر :

نحن فى البصرة فى لو نٍ من العيش ظَرِيف
نحن ما هبَّتْ شمالٌ بين جناتٍ وَرِيف
فإذا هَبَّت جنــــوبٌ فكأنَّـــا فى كنيـــف

وكانت ريح الشمال ريحاً طيبة ، تحمل إليهم الروائح العطرة ، وتلطف جو المدينة . على أن جوها يغلب عليه الحرارة والرطوبة معظم أيام السنة ، وتشتد صَيفاً . ويتقلب هواؤها من حين لآخر ، لهذا سميت الرَّعناء . قال الفرزدق :

لولا أبو مالك المرجو نائله ما كانت البصرةُ الرعناءُلى وطنا

وماء البصرة تغلب عليه الملوحة ، « وكان الولاة والاشراف بالبصرة يستعذبون ماء دجلة ويحتفرون الصهاريج ، يحتجزون فيها الماء العذب ، من النهر وأحيانا من المطر . ويشرب عامة أهلها من نهر الأُبُلَّة .

وعرفت البصرة بعد انشائها وتوسع عمرانها بالتجارة إلى جانب إهتمام أهلها بالزراعة،وكانت السفن ترد إليها ، أو إلى مدينة سيراف على الشاطىء الشرق المقابل حيث كانت أكثر ملاءمة لرسو السُّفن .

واجتمع بالبصرة خليط من البشر ، منهم أهل البلاد الأصليون من الآراميين الذين أطلق عليهم العرب اسم النبط ، وكان معظمهم لا يجيد النطق بالعربية الفصحى كما روى الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين . وكان هؤلاء النبط يعملون فى الأغلب بالزراعة وما يتصل بها من فلاحة البساتين . كما عملوا هم والزط فى البحار ، بحارةً ، وعرفوا بالبحريين .

وكان العرب يمثلون الغالبية السائدة فى سكان البصرة ، وينتمون إلى قبائل متعددة مضرية ويمنية ، ومن مضر قبائل قريش وقيس عيلان ، وتميم ، وكنانة ومزينة وأسد ومن ربيعة بكر وائل ، ومن اليمنية عبد القيس والأزد .

ومثلت تميم غالبية عرب البصرة ، وظهر من بينهم جماعة من القادة والعلماء والشعراء . وربما كانت تميم عاملاً مؤثراً فى غلبة الاتجاه السنّى على أهلها .

وكان من أشهر بيوتات البصرة الارستقراطية بيت بنى المهلب من أبناء المهلب بن أبى صفرة أحد رجالات العصر الأموى وقياداته المشهورين ، وبيت مسلم بن عمرو الباهلى ، من قيس عيلان، وبيت بنى مسمع من بكر بن وائل ، وبيت آل الجارود من عبد قيس . وأثرى بعض هؤلاء ثراء فاحشاً .

وكان من قبائل قيس بالبصرة بنو عقيل العامريون ، ومن مواليهم بشار بن برد الشاعر الذى يفخر بولائه هذا فيقول :

إننى من بنى عقيل بن كعبٍ موضع السيف من طلا الأعناقِ

واعتبر بشار شاعر قيس كلّها .

إذ يعاتبه شاعر قيسى آخر من البصرة هو محمد بن حازم الباهلى بقوله :

إتّق الله أنت شاعر قيس لا تكن وصمةً على الشعراءِ

ووجد إلى جانب العرب جماعة من الموالى من أصل فارسى ، ممن اعتنقوا الإسلام كما وجد بعضهم ممن بقى على دينه ، وإن تظاهر بالإسلام . وربما كان أمثال بشار من ابناء الموالى الفرس الذين سكنوا البصرة وانتسبوا بالولاء للقبائل العربية .

وكان بالبصرة جالية غير قليلة من أهل السند من الأحرار المهاجرين من بلادهم وكان بعضهم الآخر من الرقيق ، واختلط بهم جماعات من أهل جزر المحيط الهندى .

ورغم قلة العنصر الرومى نسبيا بالبصرة إلا أن الثقافة اليونانية كان لها أثر واضح فى أدبائها وعلمائها .

وكان لما مرَّ بالبصرة من أحداث بعد وقعة الجمل آثاره البالغة فى انقسام أهلها إلى فرق ثلاث عثمانية وعلوية ومرجئة ، أو متوقفين وخرج منهم بعد ذلك الخوارج والمعتزلة . وكان لبنى تميم دور فعّال فى أحداث البصرة ، كما كان للأزد المنافسين دور مقابل لدور تميم ومعارضٌ له . وتذبذب ولاء

البصريين بين العثمانية والأموية والعباسية والعلوية . بل قلّ اختلف ولاؤهم باختلاف شيعهم وقبائلهم ، وما كان بينها من ولاءات سياسية تتعدد بتعدد الحكّام والظروف . فلم يكن للبصرة اتجاه محدد بعينه ، كما كان للكوفة مثلاً فى علويتها . فقد كانت فى مرحلة من مراحل الدولة الأموية معارضة لها ، ثم عادت فوالتها وعادت العباسيين ، ثم ناصرت العلويين حتى غلبها العباسيون على أمرها .

وشهد مجتمع البصرة صوراً متباينة للإتجاهات السلوكية والعقدية ، فبينما نرى بها جماعة ينهجون منهج التزمت والنسك كالحسن البصرى وواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ، إذ نرى جماعة يعارضونهم ، وينتهجون منهج التحرر السلوكى والعقدى من أمثال جماعة الخلعاء والمجان أمثال بشار بن برد ، ووالبة بن الحباب ، وحماد عجرد ، ويحيى بن زياد .

وتأثرت لغة البصرة بلغات وألسنة سكانها متعددى الأجناس والألسنة وإن كان اللسان الفارسى أكثرها أثراً فى العربية ، فقد كان الفرس والموالى يتحدثون بالفارسية أحياناً ، أو يجمعون بين اللسانين العربى والفارسى ، ولهذا شاعت بعض التعبيرات والألفاظ الفارسية فى أهل البصرة ، كما تركت لغات النبط وغيرهم بعض الألفاظ فى لغة عوّامها .

واهتم علماءُ اللغة بالبصرة بجمع اللغة وتدوينها ، وكان قربها من البادية مما سهّل للعلماء استقبال بدو الجزيرة ممن يفدون إلى المدينة للبيع والشراء ، أو لعرض ما يحفظون ويروون من غريب اللغة والشعر على العلماء والرواة الذين يحفلون بما يعرض عليهم ، وقد يلجأ كثير من أولئك الأعراب إلى الإختراع والكذب ليغْرِبُوا ، وينفقوا عند أولئك العلماء الذى كان لديهم ولعٌ بكل غريب . وربما كان ذلك من أسباب وجود كثير من المنْحول والحوشىّ والغريب غير المستعمل من ألفاظ اللغة التى جمعها العلماء فى تلك المراحل الأولى من الجمع ، والتى دفعت مجموعة تالية منهم إلى عملية غربلة لتخليص ما يروونه كذلك ، والابقاء على المنتخل ، أو المنتقى الذى شهدت باستعماله نصوص الأدب ، والكلام الموثوق الذى لا يتسرب إليه الشك أو التحريف .

فضلاً عن أن علماء البصرة استخدموا المنطق والقياس لضبط اللغة ، ولم يسلموا للعرب بكل ما سمعوه منهم على عكس ما فعله علماء الكوفة .

وكان لشيوع علوم اليونان بينهم ، وما عرفوه من مناهج العقل والتجريب والمنطق أثر فى نشأة هذا القياس ، وغلبته على أعمال سيبويه اللغوية ، وهو فارسى الأصل ذو ثقافة يونانية إلى ثقافته الفارسية ، والعربية .

ونقلت بعض ثقافات اليونان والفرس على أيدى نقلة معروفين بالبصرة كابن المقفع الذى نقل كثيرامن التراث الفارسى .

وكان طلاب العلم ، ومريدوه يؤمون مجالسه فى مساجد البصرة ، وبخاصة مسجدها الجامع ، وكان العلماء يتحلقون بها ، وسمى هؤلاء بالمسجديين . واختلفت تخصصاتهم أو ما يجمعونه ويتقنونه من ضروب المعرفة ، بين علوم القرآن والحديث والفقه والأخبار والتاريخ والسير والقصص ، وعلوم اللغة والنحو ، والشعر والأدب .

وقد يجمع بعض العلماء أكثر من علم من هذه العلوم ، أو يتوقف بعضهم عند واحد منها لا يُتقن غيره .

واشتهرت البصرة بتباين الجماعات الفكرية فيها ، وكثرة الجدل والمناظرة والخصومات بين أصحاب الحديث والمتكلمين ، أو بين الآخذين بمنهج النقل والحفظ والسماع ، ومعارضين من الآخذين بمناهج العقل والواقع والتجريب والرأى .

« وأخذ المتكلمون يهاجمون المحدثين ما وجدوا المناسبة لذلك ، فيرمونهم بالجهالة ويلقبونهم بالحُشْوِيَّة »[1] . ويشير الجاحظ إلى بعض هؤلاء المحدثين فيقول :

« وليس هؤلاء ممن يفهم تأويل الحديث ، وأى ضرب منها يكون مردوداً ، وأى ضرب منها يكون متأولاً . وأى ضرب منها يقال إن ذلك إنما يكون حكاية عن بعض القبائل . ولذلك أقول : لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام ، واختطفت ، واستُرِقتْ ، ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون »[2] .

(١) الحاجرى ــ الجاحظ ص ٤٨ .
(٢) كتاب الحيوان ٤ /٢٨٩ .

وقاد الاتجاه إلى الأخذ بمقاييس العقل والفكر والتجريب إلى الشك فى الموروث وإلى دفع الناس لعدم الإيمان بالمنقول ، أو بما هو متداول معروف دون إعمال النظر ، ومن هنا ظهرت فى المجتمع البصرى جماعات من المتشككين . دعى بعضهم بالدهريين أحياناً ، والذين لا يؤمنون بديانات ولا بعث ، ويقولون إنما نحيى ونموت وما يهلكنا إلاَّ الدهر ، وبعضهم يخلط بهذا الفكر أفكاراً مأخوذة عن عقائد وديانات قديمة ، وأجتمع الناس فى زمنهم على تسمية كل هؤلاء بالزنادقة .

الكـــوفة :

تقع الكوفة قرب مدينة بابل القديمة ، فى إقليم الحيرة ، إمارة المناذرة العربية قبل الإسلام ، وفى وسط الأديرة النسطورية ، فى بيئة رسخت فيها النصرانية ، وكانت عقائد النساطرة عنصراً مؤثراً فى الأقليم ، وتوجهاته الفكرية والعقدية .

وكان لوضع الكوفة باعتبارها مدينة داخلية ، ليست ثغراً ، ولا مرفأ على ساحل البحر أثرها كذلك فى عزلتها الفكرية والحضارية ، ولعب الموقع دوراً مؤثراً فى هذا الانطواء على النفس ، والميل إلى التأمل ، والتمسك بالتقاليد ، والمحافظة، والميل إلى الغيبيات أكثر من التفاعل مع واقع الحياة ، وحركتها الدائبة .

وتختلف الكوفة فى هذا اختلافاً بيناً مع البصرة .

وهكـذا غلب على أهـل الكوفـة الطابـع الباطنـى ، وربما أثـر التـــراث البـــابلى القـــديم ، وبخاصة فى عقائده ، وأساطيره وغيبياته على وجدان الناس من الكوفيين ، فتوارثته الأجيال. ونعلم أن قوام البابليين فى معتقدهم الإيمان بالسحر والقوى الغيبية المتمثلة فى الآلهة وأشباههم مما تمثله الأساطير التى عثر عليها ، ومدوناتهم التى كشف عنها .

ويختلف التركيب السكانى لأهل الكوفة عن أهل البصرة ، فمن جهة الأعراق العربية كان اليمنيون فى الكوفة كثرة ، على عكس الحال فى البصرة التى غلب عليها الربعيون من أصول بكرية وتغلبية ، ونزارية مضرية ، واكثرهم من تميم ، وعقيل من عامر بن صعصعة وبطون أخرى قيسية .

اختلط هؤلاء بأهل البلاد الأصليين من النبط أو الآراميين الذين يحترفون الزراعة ، وبعض الحرف الصغيرة ، والخدمات الأخرى .

وغلبة اليمنية أو كثرتهم فى الكوفة ، مع تحوّل الانتماء اليمنى فى أخريات العصر الأموى إلى العلوية ، عصبية ضد القيسية خاصة والمضرية عامة الذين ناصروا الأمويين ، ووقفوا من العباسية موقف العداء والمواجهة . وظل كذلك حتى بدايات العصر العباسى . هذا الموقف من يمنية الكوفة ، مع الاتجاه الذى أشرنا إليه بحكم العامل المكانى ، والميراث الثقافى أدى بغلبة الباطنية والميل إلى العلوية والتشيع .

ولا تنسى أن الإمام علىّ بن أبى طالب قد اتخذ من الكوفة عاصمة له ، ومركزاً لخلافته زمنا .

من هنا ظلت الكوفة على ولائها للعلويين ، وتأصلت فيها الجذور الشيعية ، حتى قصدها الحسين بن على ، ومن بعده الامام زيد . وأصبحت مقراً للعتبات المقدمة ، أو مقام الأئمة ولقد وجد بالبصرة تشيّع ، لكنه اختلف عن تشيع الكوفة ، فقد غلب على البصرة مذهب الزيدية ، بينما غلب على الكوفة مذهب الإمامية ، والفاطمية الاسماعيلية .

روى أن الأحنف البصرى فاخر أحد الكوفيين . قال الكوفى : « جعل الأحنف يفاخرنا ذات يوم بالبصرة ، ونفاخره بالكوفة .

فقلنا : الكوفة أغذى وأقرأ ، وأفسحُ ، وأطيبُ .

وقال له رجلٌ : واللّه ما أشبّهُ الكوفة إلاّ بشابةٍ صبيحة الوجه ، كريمة الحسب ولا مالَ لها ، فإذا ذُكرت ذُكرتْ حاجتُها ، فكفَّ عنها طالبها ، وما أشبّهُ البصرة إلاَّ بعجوز ذاتِ عوارض موسرة ، فإذا ذكرتْ ذكر يَسارُها ، وذُكرتْ عوارضُها ، فكفَّ عنها طالبها .

فقال الأحنف : أما البصرةُ فإنَّ أسفلها قصبٌ ، وأوسطها خشَبٌ ، وأعلاها رُطبٌ . نحن أكثر ساجاً وعاجاً وديباجاً . ونحن أكثرُ قنداً ونقداً . والله ما آتى البصرة إلاَّ طائعاً ، ولا أخرج منها إلا كارها .

قال : فقام إليه شابٌ من بكر بن وائل فقال : يا أبا بحرّ ، بم بلغت فى الناس ما بلغت فوالله ما أنت بأجملهم ، ولا بأشرفهم ، ولا بأشجعهم ؟!

فقال : يا ابن أخى أنا بخلاف ما أنت فيه .

أجْنَاسُ البَشَرْ ـــ الصِّراعُ العُنصُرِى

مشكلة الموالى والشعوبية :

بعد الفتح الاسلامى للأمصار فى المشرق والمغرب اختلط العرب بالأجناس الأخرى من فرس ، وترك ، وسودان ، ومصريين ، وبربر ، وصقالبة ، ونبط ، وأرمن ، شعوب آسيوية ، وأخرى عبرية ، سوحامية ، وزنجية ، وآرية . إفريقية ، وأوروبية متحضرة ، وبادية .

وكانت العراق وحواضرها الثلاث بغداد والبصرة والكوفة تجمع عناصر متعددة من تلك الأجناس باعتبارها مركز السلطة ، وقطب الأنشطة السياسية والحضارية توافد إليها جماعات من أصول مختلفة بالتجارة ، والرقيق ، والهجرة وراء الكسب والشهرة والمجد .

وتمازجت دماء تلك الأجناس والعناصر البشرية ، واختلطت أفكارها ، وتقاليدها وعاداتها ، وعرفت كل فئة من تلك العناصر بمجموعة من الخصائص السلوكية والذوقية اشتهرت بها وتفوقت فيها ، وكان لها من مَوْرُوثها طبائع خاصة .

وتحدث أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فى بعض رسائله عن خصائص بعض تلك الأجناس من الفرس والترك والزنج ، وأهل الهند والسند .

وكان أكثر العناصر البشرية نشاطا بطبيعة الحال العنصران العربى والفارسى وبخاصة فى هذه المرحلة المبكرة من عصر العباسيين حتى عصر المعتصم ، فقد بدأ كما أشرنا يكثر من الأتراك حتى ضايقوا الناس فى بغداد ، واضطر أن يبنى لهم مدينة سامرا ، ومنذ ذلك الحين بدأ القادة الأتراك يسيطرون على مجريات الأمور فى الدولة ، وحين كتب الجاحظ رسالته عن فضائل الترك كان أمر الأتراك وتأثيرهم واضحاً فى المجتمع عصر المتوكل .

ويشير الجاحظ إلى مهارة الأتراك العسكرية ، وبخاصة فى الفروسية والضرب بالنبل .

وأما الزنج فقد بدأت الأحداث بهم فى الربع الأخير من القرن الثالث ، وكانوا قد تكاثروا بالبصرة ، حتى كونوا قوة هددت الدولة على ما بينا ، وأشار الجاحظ إلى بعض خصائص الزنج من حبّهم للرقص والغناء .

وكان لهذه العناصر أثرها فى نشأة مشكلة الموالى ، وظهور اتجاه الشعوبية كرد فعل للعصبية العربية .

فقد شعّر المولدون أو الموالى باحتقار العرب لهم . فأحسوا فى نفوسهم بالضيق ، وشعروا أنهم لا يقلون عن العرب استحقاقا ، ورعاية من الناس والدولة ، فهم أكفاء للعرب لا يقلون عنهم من حيث الثقافة والاستعداد والحضارة والتاريخ القديم . بل لعلهم يفوقونهم فى التاريخ القديم .

ومن هنا نشأت مشكلة الشعوبية التى أثرت تأثيرا كبيرا فى الأدب والعلم ، والحياة . وظلت أصداؤها تتجاوب فى أنحاء الأمة الإسلامية مدة مديدة من الزمن .

الشـــعوبية :

والأصل فى الشعوبية المساواة بين شعوب الأمة الإسلامية فى الحقوق والواجبات . وتطور مفهوم الكلمة بتقدم الزمن وأصبحت الشعوبية تعنى العداوة للعرب . وكان أكثر الناس مناصبة لهم بالعداء الفرس ، وأكثرهم تعريضا بهم ، واظهارا له عامتهم . يقول ابن قتيبة :

« ولم أر فى هذه الشعوبية أرسخ عداوة ولا أشد نصبا للعرب من السفلة والحشوة وأوباش النبط وأبناء أكرة القرى ، فأما أشراف العجم وذوو الاخطار منهم ، وأهل الديانة فيعرفون ما لهم وما عليهم ويرون الشرف نسبا ثابتا » .

ويقول : « وان ممن ذهب مذهب الشعوبية أقواما تحَلّوا بحلية الآداب ، فجالسوا الاشراف ، وأقواما اتسموا بميسم الكتابة فقربوا من السلطان ، فدخلتهم الانفة لآدابهم والغضاضة لافتقارهم من لؤم مغارسهم وخبث عناصرهم » .

وبدأ العداء للعرب بين الفرس منذ أخريات العصر الأموى ، ولكن الأمويين قابلوه بقوة لتعصبهم للعرب ، ولذلك كره الشعوبيون الحكم الأموى وعملوا ضده . فأعانوا العباسيين وانخرطوا فى سلك دعوتهم .

وممن يذكر من شعراء الشعوبية فى عصر بنى أمية اسماعيل ابن يسار . دخل مرة على هشام بن عبد الملك فأنشده قصيدة يفخر فيها بعصبيته ، ويمجد تاريخ الفرس وملوكهم يقول فيها :

انى وجَدِّكَ ما عودى بذى خور	عند الحفاظ ولا حوضى بمهدوم
أصلى كريم ومجدى لا يقاس به	ولى لِسَانٌ كحد السيف مسموم
أحمى به مجد أقوام ذوى حسب	من كل قرم بتاج الملك معموم
جحاجح سادة بلج مرزابة	جرد عتاق مساميح مطاعيم
من مثل كسرى وسابور الجنود معا	والهرمزان لفخر أو لتعظيم

فغضب هشام وقال : أعلى تفخر بأعلاج قومك ؟ . غطوه فى الماء . فغطوه فى البركة حتى كادت تخرج نفسه . ثم أمر باخراجه ونفاه إلى الحجاز من وقته .

وفى مطلع الدولة العباسية انتشرت حركة الشعوبية ، ونطق بلسانها جماعة من العلماء والأدباء والشعراء بينهم بشار بن برد . وكان ديك الجن من الشعراء المتعصبين على العرب . ذكر أبو الفرج فى الأغانى أنه كان يقول : « ما للعرب علينا فضل » .

واتهم أبو عبيدة معمر بن المثنى العالم الراوية المشهور بالشعوبية ، وبأنه ألف الكتب فى مثالب العرب ورجالهم .

وأدت هذه الحركة إلى أن يدافع العرب عن أنفسهم فقاوموا وألفوا كذلك الكتب التى تتحدث عن مآثرهم كما نظم شعراؤهم فى فضائلهم ومثالب الفرس وغيرهم من الشعوب .

وكانت نتيجة هذا كله زاد من الكتب والقصائد بقى لنا وأمثلة كثيرة من المفاخرات والمناظرات حفظتها كتب الأدب والأخبار .

الزندقة :

وإذا كانت الشعوبية نتيجة لكثرة العناصر غير العربية وخاصة الفارسية فى المجتمع العربى فان هذا أيضا ، كان من آثاره تلك الحركة الفكرية والإجتماعية التى عرفت بالزندقة وكان من رجالها وروادها الأوائل جماعة من الموالى الفرس ومن الشعوبية غالبا .

والزندقة هذه كلمة قد ترجع فى أصولها إلى الفارسية ، ولكنها كانت تعنى غالبا معانى كثيرة ، فهناك زندقة فكرية ، وزندقة دينية ، وزندقة اجتماعية .

فأما الزندقة الفكرية فهى الاعتقاد ببعض عقائد الفرس القدماء ، وإن كانت لا تعنى بالضرورة الخروج عن الإسلام إلى الالحاد والتوقف عن العبادات .

وأما الزندقة الدينية فهى معاداة الدين الإسلامى ، والتهجم على القرآن ، وتعظيم الديانات الفارسية القديمة ومحاولة التحدث عن فضائلها . وما إلى ذلك ، كالحديث عن النار والطين وفضل النار على الطين .. وقد تكون الزندقة هنا كذلك الاعتقاد فى المانوية أو الزرادشية أو المزدكية .

وأما الزندقة الاجتماعية فهى الخروج عن حدود الإسلام والمجتمع الإسلامى والأخلاق الإسلامية ، والاسراف فى ذلك والتجاهر بالاثم ، أو التحرر وعدم التحرج فى ارتكاب بعض المحرمات ، والتهتك ، أو إظهار الاستهتار بالقيم والمقدسات .

ووجد بين الأدباء والشعراء من وسموا بالزندقة الفكرية أمثال ابن المقفع وصالح بن عبد القدوس .

ومنهم من رمى بالزندقة الاجتماعية أمثال عصبة المجان التى كانت تضم والبة بن الحباب والحسين بن الضحاك ، ومطيع بن اياس ، ويحيى بن زياد وأبا نواس .

واشتهر هؤلاء بالظرف ، وضرب بهم المثل فيه حتى قال شاعرهم :

« تيه مغن وظرف زنديق »

وأتيح لهؤلاء وهؤلاء فرصة الحرية التى نعم بها الناس أيام الدولة العباسية ، وخاصة بعد أبى جعفر المنصور أى فى أيام المهدى والرشيد والأمين والمأمون . فأسرفوا فى استغلال هذه الحرية ، وجاهروا بالمعصية حتى قال بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته   وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

وقال سلم الخاسر :

من راقب الناس مات غما   وفاز باللذة الجسور

ونادى أبو نواس بالجهر فى شرب الخمر وترك التستر :

ألا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سرا إذا أمكن الجهر

وكان من آثار هذا التحرر فى القول والعمل فى المجتمع العباسى ميل الناس إلى المتعة وخاصة لما أشاعته الحضارة المادية المزدهرة بينهم من الرغبة فى الحياة والإقبال عليها والعب من لذاتها .

وأصبح الناس يقبلون على الدنيا ويدينون « بالابيقورية » أو مذهب الاستمتاع بالحياة الدنيا لأنها فترة قصيرة ونزهة عارضة من الحماقة ألا يغتنمها الإنسان قبل فوات الأوان . وهى ليست جديرة بأن تقضى فى طلب المستحيل أو الممتنع .

وتفنن الناس فى ضروب الإستمتاع أو التلذذ ، فى المأكل والمشرب والملبس والمشرب فى السماع والغناء ، والإستمتاع بالخمر والنساء ، وبالخدم والجوارى وكل ما تتيحه الحضارة .

الجوارى والحياة :

أثرت الجوارى فى المجتمع العباسى آثارا متعددة ، فقد ساعدت على ما سرى فى المجتمع من روح العبث وإن كانت قد دفعت الشعراء إلى لون من الشعر لم يكن معهودا من قبل هو ذلك الغزل الظريف ، أو الغزل الرقيق الذى تحس فيه بروح الحضارة والرفاهية . وكانت الجوارى تشيع فى المجتمع حب الجمال فى صوره المختلفة ، بما يلتزمنه من التجمل فى الملبس والزينة ، وبما يحرضن عليه من الاهتمام بالزهر والطيب ، وكذلك رققن طباع الناس فى المعاملة وآداب السلوك فى الشراب والطعام .

وتأثر الأدب بالجوارى آثارا عدة فقد كن وحيا للشعراء ، كانوا يتعشقون المغنيات وينظمون الشعر الجميل فيهن . كان بشار يعشق جارية تغنى ويطرب لغنائها وصوتها فيصل صوتها إلى قلبه قبل أن يجلس إليها .

قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم الاذن تعشق قبل العين أحيانا

وتعشّق أبو العتاهية عتبة ، وكانت ملهمته فى كثير من شعره .

وكان الجوارى أنفسهن أديبات يعرفن الأخبار والأسمار ويحفظن الشعر ويروينه ، بل كان منهن من ينظمنه مثل عريب جارية المأمون . وكانت من أعظم جوارى العصر .

وأثرت الجوارى فى الحياة العامة فى مدن العراق والأمصار الإسلامية الأخرى بما يحترفن من ضروب اللهو والغناء والموسيقى .

وقد كانت المدن العباسية لا تخلو من بيوت للقيان يختلف إليها الناس من محبى السّماع والموسيقى واللهو والشراب .

وكان كثير من الجوارى يتمتعن بقدر من الظرف والأدب وحفظ الشعر وقوله ، وحسن المسامرة ، فكانت منهن أديبات معررفات وشاعرات مذكورات ، رويت أخبارهنّ مع بعض شعراء العصر . ولعل من أشهرهنّ جنان ، وعنان ، وكانتا ممن يجالسن الشعراء فى مجالس اللهو والشراب ، ويناظرنهم ، ويجاذبنهم الحديث والشعر . وكثيرا ما نسمع عنهن فى أخبار أبى نواس والحسين الخليع .

وكنّ لهذا من مظاهر الحياة الأدبية ، ومؤثراً ، وحافزاً ، وموضوعاً ، لشعر كثير وأدب منثور من طرائف وأخبار ورسائل وأحاديث .

وقد كانت الجوارى والغلمان زينة قصور الخلافة ، وعلية القوم ، وكن يكسبن الحياة البهجة ، بظرفهن وجمالهن ، وغنائهن .

وتحفل كتب الأدب بالحديث عن الجوارى والغلمان ، وأزيائهن وأحاديثهن ، وظرفهن ، وكانت الجوارى والغلمان من لوازم القصور ، ومجالس اللهو والسمر ، واختلفت جنسياتهن ، وعلمن ، وثقفن ، ولقن قول الشعر والغناء . وكانت الواحدة منهن تقوم بما تملك من قدرات فى حفظ الشعر والغناء وحسن الحديث والمسامرة .

وكان منهن الهنديات والسنديات والمكيات والمدنيّات، والسودانيات ، والحبشيات والتركيات والروميات ، والأرمنيات . وأشار الجاحظ فى رسالة الجوارى والغلمان إلى ميزة كل جنس منهن . وما يتفوقن فيه .

وتكاثر أهل السراء بما يملكون من الجوارى والغلمان . ويروى أن المتوكل

جمع فى قصره أربعة آلاف سرية من أجناس مختلفة . ودخل أحمد بن صدقة على المأمون فى يوم الشعانين وبين يديه عشرون وصيفة جلبا ، روميات ، مزنرات قد تزين بالديباج الرومى وعلقن فى أعناقهم صلبان الذهب ، وفى أيديهن الخوص والزيتون ، فقال له المأمون : ويلك يا أحمد ! . قد قلت فى هؤلاء أبياتا فغننى فيها ثم أنشد :

ظبـــاءٌ كالدنانـــير ملاحٌ فى المقاصـــير
جلاهـــنَّ الشـــعانيـن علينـا فى الزنانـير
وقد زرفـــنَّ أصـداغاً كأذنـاب الزرازيـــر
وأقبلـــنَ بأوســـاطٍ كأوســـاطِ الزنابـــير

وأشاعت الجوارى جواً من الأناقة ، ودماثة السلوك ، ورقة الذوق وعشق الجمال بين الناس ، فعرف الناس مما دخل عليهم من صور الحضارة الفارسية آداباً لمجالس الشراب والغناء ، حيث يجلس القوم فى وقار دون صخب يتبادلون التحيات ، وتدور عليهم الجوارى بأكواب الشراب وأباريقه ، ويقدمن أنواع الزهر والريحان مع الكاسات ، أو يضعنه على الآذان .

واشتهر بدماثة السلوك من يدعون الظرفاء ، ومن سماتهم أناقة اللباس وجمال المظهر ، ونظافة الهندام ، وحسن المعشر ، ورقة الحديث ، وحسن معاملة النساء .

مظاهر التخنث والمجون :

وللحضارة ورفاهية العيش ما ذكرنا من جوانب بهجة ، ولها سلبياتها على سلوك بعض الأفراد من الشباب ممن لا يعدلون فى سلوكهم فيتطرفون ويتمادون إلى هذا الجانب أو ذاك ، فمنهم من تطرف فى الأخذ بأسباب التحرر من قيود المجتمع والأخلاق السائدة وضوابط الدين وحدوده ، وأشرنافى حديثنا عن الزندقة إلى جوانب من هذا التطرف . وهناك جوانب أخرى تتصل بحياة اللهو ومخالطة الجوارى والغلمان ، كالتخنث ، وهـو التساهل فى مظاهر الرجولة ، والميل إلى الليونة والتشبه بالنساء فى الحديث والسلوك وفى اللباس أحيانا . وكان حديث بعض المؤرخين والأدباء عن هؤلاء ومنهم بعض الشعراء كأبى العتاهية فى شبابه ، فقد كان ممن « يحمل زاملة المخنين » .

وقريب إلى هذا التخنث المجون ، والاباحة ، والعربدة الاخلاقية والسلوكية والخروج على الوقار والأعراف السائدة . والعبث أحيانا بالمحرمات والمقدسات .

وتروى كتب الأدب كالأغانى وبعض كتب الجاحظ ، والثعالبى والراغب أخباراً عن هؤلاء المخنثين والمجاَن من شعراء البصرة وبغداد وشواعرها أو ظرفائها وظريفاتها مما يعَفُ القلم عن ذكرها . وننتقى بأمثلة مما لا يخدش الحياء ، أو يقتحم الذوق .

ومما روى من استهتار بعض مجان الشعراء بشعائر الدين ما قيل عن بشار إنه كان يجالس أحد أصدقائه بالبصرة فقال له الصديق : ويحك يا أبا معاذ ، قد نسبنا الناس إلى الزندقة فهل لك إلى أن تحج بنا حجة تنفى ذلك عنا ؟ .

قال : نعم ما رأيت ، فاشتريا بعيراً ومحملاً ومركباً ، فملا مرًا بمكان يقال له زرارة قال الصديق : ويحك يا أبا معاذ ثلاثمائة فرسخ متى نقطعها ، بل بنا إلى زرارة نتنعم فيها فإذا قفل الحجيج عارضناهم بالقادسية ، وجززنا رءوسنا فلا يشكُّ الناسُ إنا جئنا من الحج . فقال بشار : نعم ما رأيت .

فمالا إلى زرارة وما زالا يشربان الخمر حتى نزل الحاج القادسية راجعين فأخذا بعيراً ومحملاً ، وجزًا رءوسهما ، وأقبلا فتلاقهما الناس يهنونهما فقال صديقه :

ألم ترنى وبشاراً حججنا ... وكان الحج من حيز التجارة
خرجنا طالِبَىْ سفرٍ بعيدٍ ... فمال بنا الطريق إلى زرارة
فآب الناس قد حجُّوا وبرُّوا ... وأبنا موقرين من الخسارة

ومن هذا القبيل من يروى عن عصبة المجان بالبصرة الذين أجتمعوا على أن تؤمهم فى الصلاة جارية ماجنٌ من عصبتهم هى عنان .. وكان لهم معها حديثٌ عابث . كذلك يروى أن جماعة من عصبة المجان هذه اجتمعوا وحضرتهم الصلاة وكان معهم من يدعى يحيى فقام ليؤمهم ، فنسى الحمدَ لله وقرأ قل هو الله أحد ثم أرتج عليه فى نصفها ، وكان مع المأمومين أبو نواس فقال :

أكثر يحيـــى غلطـــا ... فى قُلْ هو الله أحد

وقال آخر :

قام طويلاً ساهياً حتى إذا أعيى سَجَدْ

وقال الآخر :

يزحَرُ فى محرابِه زحير حُبْلَى بِوَلَدْ

وقال الرابع :

كأنما لسانُه شُدَّ بحبلٍ من مَسَدْ

ومثل هذا العبث كثيرا ما كان يحدث من تلك الجماعة مجتمعة ، أو منهم أفراداً وما يروى عن أبى نواس من هذا الضرب كثير ، وعن استاذيه فى العبث والمجون والبه بن الحباب وحماد عجرد .

الزهد والنسك :

وعلى عكس الظاهرة السابقة من التهتك والعبث والخلاعة والمجون كانت تعايشها فى المجتمع ظاهرة مضادة تتمثل فى الزهادة فى الحياة ، والرغبة فى التخلى عن مباهجها والرغبة فى التعبد والتنسُّكِ ، ولبس الصوف ، وحرمان النفس من الزينة .

وكان من رواد هذا الاتجاه بالبصرة واصل من عطاء ، ومالك بن دينار وغيرهما ، وكان طبيعيا أن يتعارض موقف هؤلاء مع موقف الخلعاء والمجّان من شعراء البصرة فقد وقف واصل بن بشار موقفاً متشدداً ، ونهاهُ عن عبثه ، وعما يقول من الشعر الماجن الذى يغرى به أحداث البصرة من شبابها وشاباتها ، فأمر بطرده وأغرى به .

كذلك كان موقف مالك بن دينار من الشاعر ، فكثيرا ما نصحه بالعدول عما هو فيه من الغواية ومحاولة إفساد الناشئه بما يصنعه من شعرٍ ماجن يغرى بالتهتك والاستهتار من مثل قوله يصف شعره :

بأنه « شعر تسجد الثَّيبُ والإماء له سجود الغواةِ لِلْوَثَنِ »

أو قوله :

لا يؤيسَنك من مُحجَّبةٍ قولٌ تغلّظه وإن جَرَحا

عُسْر النساءِ إلى مياسرةٍ وَالصَّعْبُ يسهُلُ بعد مَا جمحا

وزكّى هذا الاتجاه بالبصرة كتابات بعض الكتاب ، ولعلّ ابن المقفع فى بعض ما كتب كان يصدر عن زهادة ، ومعارضة للتكالب على الدنيا . وقفّى على آثاره سهل بن هارون فى رسالته عن البخل ، وبعض رسائله الأخرى . وربما جاءهم هذا الاتجاه ، وتأثروا فيه بثقافات هندية أو هلينية من برهميّة ورواقية .

وظهر هذا الاتجاه عند بعض شعراء العصر كمحمود الورّاق ، وأبى العتاهية .

بل إن شاعراً كأبى نواس أعرض فى بعض شعره عن المجانة والتهتك إلى هذا الطريق من الزهادة والنسك والتبتّل ، ولا ندرى مدى صحة ما يروى له فى ذلك . ولعله إن صح كان فى أخريات حياته بعد أن زالت عنه سورة الشباب ، ولم يعد يحسّ تعطيه الدنيا من ملاذّ بمتع ، فأقلع وانصرف مضطراً لا راغباً .

الملاهى والفنون

كان للثراء العريض وتدفق الأموالى على العاصمة بغداد وغيرها من الحواضر العباسية أثره على الحياة المترفة التى عاشها الأغنياء والطبقة العليا فى مجتمع العباسيين .

وكان للرغبة فى التنعم بمعطيات الحياة وملاذها أثره فى تلهف الناس على الحصول على المال بطريق مشروع وغير مشروع . وسلك بعضهم إلى ذلك سبلاً متعددة .

وكان للشعراء دون غيرهم طريق المديح ، والتكسب بالشعر للحصول على المال . وبلغ المقدمون منهم من الثراء مبلغا عظيما ، فحصل الأموال وبنى القصور واقتنى الجوارى والعبيد ، واشترى الضياع والاقطاع .

وأغدق الخلفاء والوزراء والقواد على الشعراء مما حصّلوا من المال لقاء المديح والذكر الحسن ، وتنافسوا فى ذلك تنافساً غريباً ، حتى كانت الهبات التى يهبون مما لا يصدق من آلاف الدراهم والدنانير ، أو الاقطاعات والضياع .

وحرص الخلفاء وعلية القوم على أن يوفّروا لأنفسهم حياة مترفة منعمة فابتنوا القصور الفارهة التى زينوها بمختلف الزينة ، وموهوها بنقوش الذهب والفضة . وفرشوها بالرياش الثمينة ، والتحف والغالية مما أبدع صناع العصر ومهرة مبدعيه .

وقد وصفوا ماتخذه الخلفاء فى دورهم من ضروب الزينة ، وبهاء الصنعة قالوا عن قصر السلام والخلد : « فلما أقبلنا على دور الخلافة جزنا باب السور الكبير ، وسلكنا ممراً مفروشاً بالحصباء الحمراء ، تحيط به حدائق القصر ، وجنانٌ قد اتخذ فيها أحواضٌ يتصعَّدُ منها الماء ، وعنيها عمدٌ من الرُّخام تقلُّ قباباً مُغشاةً بالرسوم المرسومة بماء الذهب . ورأينا فى طرف هذه الجنان صناعاً يرفعون قصراً سَمَّاهُ أبو جعفر قصر الخلد ، وأضافه إلى قصر السلام الذى كان يسكنه » .

وانتهينا إلى باب القصر ، وهو معقودٌ تحت القُبَّة التى كانت تزيّنُ فى الأعياد وتبدو شاهقَة ، وهى من مآثربنى العباس . وكانوا يجملون قصورهم بالعمد من الرخام ، ويجعلون لها أبوابًا بمسامير من الفضة والذهب .

وكان المجلس فى قصر الخلد الذى جعله المنصور للمهدى مفروشاً بالرُّخام المجزَّع وبين كل رخامة قضيبٌ من الذهب يشدُّ بعضها إلى بعض .

وفرشت أرضه بالديباج والبسط الطبرية عليها أبيات فى المديح . وبها كراسىّ مرصعة بأصداف اللؤلؤ .

ومن مبالغتهم فى الفرش ما يحكى عن زبيدة زوج الرشيد من اصطناعها بساطا من الديباج جمع صورة كل حيوانٍ من جميع الأجناس ، وصورة كل طائرٍ من الذهب المرصّع بالجوهر ، وأعينها يواقيت وجواهر . يقال إنها انفقت عليه نحواً من ألف ألف دينار .

وبنى المتوكل قصرين عظيمين ، أحدهما الجعفرى الذى أبدع البحترى فى وصفه ووصف قصر الكامل :

ذعر الحمام وقد ترنّم فوقه	من منظر خطر المزلة هائل
رُفعَتْ لمخْتَرِقِ الرّياح سُموكُهُ	وزهت عجائب حَسنهِ المتخايَل
وكأنَّ حيطان الزّجاجَ بجوّهِ	لجّ يمُجْنَ على جنوبَ السّاحِلِ
وكأنَّ تفويف الرّخام إذا التقى	تأليفـه بالمنظـــر المتقابـــل
حُبُكَ الغمام رُصِفْن بينُ منمّرٍ	ومُسَيَّرٍ ، ومقاربٍ ومُشاكلِ
لَبسَتْ من الذّهب الصَّقيل سقُوفهُ	نُوراً يضىء على الظلام الحَافِلِ
فترى العُيونَ يجُلْنَ فى ذى رونَقٍ	مُتلَهِّبِ العالِى ، أنيَق السافِلِ

وكانت للخلفاء وعلية القوم ملاهيهم ، وملاعبهم وأهمها الصّيد وكانوا يخرجون إليه فى رحلات يعدُّونها ، ويعدُّون لها من البزاة والصقور وكلاب الصيد المدربة ، والخيل ، والسهّام والنبالَ .

وكان المهدى والرشيد من المولعين بالصيد .

يروى أن المهدى ركب للصيد ومعه ابن عمه الأمير سليمان ، وأبو دلامة الشاعر وكان خروجه من القصر آخر الليل ، وفى طرف الأفق شفقٌ من الفجر ، وكان يحوطه فرسانٌ من الحرس متنكبون قسيَّهم متقلدون بسيوفهم ، يتبعهم قطعة من الجنود وطائفة من الغلمان يحملون المؤنة على الخزائن الخفيفة وبينهم عدد من الوصفاء فى أخف كسوةٍ وأجمل لباس ، وكانَ مسيرُهُ محاذياً

للنهر ارتياداً للخضرة التى تجنح إليها الطيورُ وتسرح فيها المها والغزلانُ ، حتى إذا انجلى النهارُ ، وقدرَمَى شيئاً من الطير تقدم إلى من بين يديه من الفرسان أن يضربوا حلقةً فى أرض مطمئنة ممرعةٍ ثم يضيقونها رويداً رُوَيداً إلى أن يؤخذ الصيد بين جموعهم من كلِّ جهةٍ ، فلما أحاطوا بذلك الموضع وقع فى حلقتهم غزالٌ قد تفر ومرَّ ، وكان الخليفة قد نشط للصيد وخفَّ له فى ذلك اليوم فمال وهو وابن عمه إليه ورشقاه بالسهام ، فأصابه سهم فى صدره وأصاب سهم ابن عمه بعض الكلاب فصرعه ، فلما جلسا للاستراحة حُمِلَ إليهما ذلك الغزالُ ، فوجد فى صدره سهمُ الخليفة ، فارتجل أبو دُلامة مازحاً :

قد رَمَى المهدِىُّ ظبياً شَكَّ بالسهم فـؤادهْ
وعلـيُّ بن سـليمـا نَ رمَى كلباً فصـادَهْ
فهنيئا لهما كل امرِ ىءٍ يأكـل زادَهْ

وكانت رياضة الصيد معروفة عند ملوك الفرس وبعض ملوك كندة فى الجاهلية كذلك عرفت عند العرب بالجزيرة ، وذكرها الشعراء فى أشعارهم .

وشاركَ الخلفاء سراةُ القوم فى هذه الرياضة ، واتخذوا لأنفسهم ما يستطيعون ، واعدُّوا لها كلٌّ على قدر ثرائه وجاهه .

كما عرف من ملاهيهم سباق الخيول ، وكانوا يقتنون الكريم منها ويهتمون به لذلك السياق ، وكان الأمين مولعاً بلعب الاكرة والصولجان ، والرمى بالنشّاب فى الميدان ، ويتخذ الديكة للمهارشة والمقاتلة ، كما يتخذ الكباش للنطاح فيما بينها .

كذلك اهتم بعض الخلفاء وشاركهم الناس فى لعب الشطرنج ، وبرع بعض رجالهم فيه حتى نسبُوا إليه . وعرفوا بالشطرنجيين .

واهتم الأدباء كتاباً وشعراء بملاهى الملوك والناس فذكروها ، وصفاً أو ألفوا فيها للتعريف بها وبأصولها . فممن وصف حيوان الصيد أبو نواس كذلك وصف الديكة التى للمهارشة .

وألف الناشىء كتاباً فى المصايد والمطارد . كما ألف غيره فى الشطرنج . وآداب الصيد وتربية البزاة وطيور الصيد وكلابه .

هذا وقد ازدهرت فنون الرسم والتصوير ، والنحت والصياغة ، وتأثروا بموروث الفرس فى هذا كله حتى غلبت الطرز الفارسية على فنون العرب والمسلمين فى هذا العصر ، وتأثرت أحيانا بالطرز الهندية والرومية البيزنطية .

الأعياد والمواسم :

ومن أشهر الأعياد والمواسم ، أعياد المسلمين ، عيد الأضحى وعيد الفطر كما احتفل العباسيون بأعياد الفرس ، وأشهرها عيد النوروز ، فى أول السنة الفارسية ويأتى فى الربيع ، وكان أهل بغداد وكثير من مدن العراق يحتفلون به احتفالات بهجة ، ويتبادلون الهدايا ، وكان الخليفة فى بغداد يفرّق على الناس أشياء منها تماثيل مصنوعة من عنبر ، ويتهادون الورد الأحمر . وكان الخليفة المتوكل يحب الورد ، ويكثر منه فى هذا اليوم .

ويحكى أن الخليفة المتوكل كان يجمع المهرجين وأهل السماجات ، يلبسون الأقنعة ، ويظهرون بين يديه فينثر عليهم الدراهم ، فيقتربون منه ويتزاحمون للقطها . حتى أنه يحكى أن إسحاقا الموصلى دخل عليه فى يوم نوروز ، وأصحاب السماجات بين يديه وقد قربوا منه حتى جذبوا رداءه ، فغضب اسحاق وخرج ، فأمر المتوكل بردّه ، فقال له : أتجلس فى مجلس يتذلك فيه هؤلاء الكلاب حتى يجذبوا ذيلك وكل واحدٍ منهم متنكر بصورة منكرةٍ ، فما يؤمن من أن يكون فيهم عدوٌ فيثب عليك .

وكانت عادة العوام فى هذا العيد أن يرشوا بعضهم بالماء الملوّن ، وقد يعمدون فى بعض الأقاليم إلى أن ينتخبوا رجلاً يسمونه أمير النوروز ، يطلى وجهه بالدقيق أو الجير ويركب فى الشوارع على حمار ، وعليه ثوب أحمر أو أصفر ويسير معه جمع كبير فيتسلط على الناس فى طلب رسم رتبة وفى يده دفتر المحتسب ، فمن لم يدفع الرّسم يرش بالماء ممزوجا بالأقذار .

وكان العامة يضربون بعضهم بعضاً بالجلود والأنطاع ، ويتصافعون .

وكان الخاصة ، ومن يحرصون على عدم الافتضاح بتعرضهم للعوام يرشونهم بالماء يلزمون بيوتهم لا يغادرونها ذلك اليوم .

ومن أعياد الفرس المهرجان ، وقد احتفل به العباسيون فى أول أشهر الشتاء

وكان الناس يتهادون فيه كما يتهادون فى النوروز ، ويخلع على القادة والسادة من كبار رجال الدولة الخلع والفراء من ملابس الشتاء . ويغير فيه العامة الفرش والآلات وأدوات المنزل وكثيرا من الثياب .

ويحتفل عِلْيَةُ القوم أيضا بيوم المهرجان فى قصورهم بالطرب والغناء من جوقات القيان والمغنين ، ويمدون الاسمطه الحافلة بأنواع الطعام والشراب .

واحتفل العباسيون بأعياد النصارى كذلك ، عيد الشعانين ، وعيد الشهيد وبأعياد بعض الأديرة القريبة من بغداد كعيد دير الثعالب .

وكان يوم الشعانين يأتى يوم الأحد ، ويحتفل له العامة ، فتظهر الوصائف من قصر الخلافة ببغداد متزينات فى ثياب جميلة غالية ، وفى أعناقهنَّ من الذهب وبأيديهنَّ قلوب النخل وأغصان الزيتون .

وفى عيد دير الثعالب فى آخر سبت من أيلول لا يتخلف عن الاحتفال أحد من النصارى والمسلمين ، فيخرجون إلى مكان الدير وهو أعمر موضع ببغداد ببساتينه ورياضه .

وكان من عادة بعض الخلفاء أن يصحبوا الشعراء للذهاب إلى أديرة النصارى فى أعيادهم حيث يقضون أوقاتا من اللهو والقصف والشراب ، ويسجلون هذا فى أشعارهم .

الموسيقى والغناء

واحتفى العباسيون خاصتهم وعامتهم بالموسيقى والغناء احتفاءاً بالغاً . فأما الخاصة من الخلفاء والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة فقد خصصوا من أوقاتهم لسماع الغناء جانبا ، بعد الفراغ من أعمالهم ومهامهم فى النهار ، يقضون جانبا من الليل فى السمر والسماع ، والجلوس إلى جواريهم وحريم القصر .

جاء ذلك فى قول يحيى بن خالد البرمكى :

انصب نهاراً فى طلاب العلا ... واصبر على فقد لقاء الحبيبْ
حتى إذا الليل بدا مقبلا ... واستترت فيه وجوه العيوبْ
فبادر الليل بما تشتهى ... فإنما الليل نهار الأريبْ

كم من فتىً تحسبه ناسكاً   يستقبل الليل بأمرٍ عجيبْ
ألقى عليه الليل أستاره   فبَاتَ فى لهوٍ وعيشٍ خصيبْ
ولـذة الأحمــق مكشـوفـةٌ   يسعى بها كلُّ عدوٍّ رقيبْ

ومن مظاهر اهتمامهم بالغناء تنافسهم فى اقتناء الجوارى المغنيات ، والتباهى بما يملكون منهن .

وعرف من بين خلفاء العباسيين من شغف بالسماع كالرشيد والأمين والمأمون والواثق والمتوكل .

ويقال أن الأمين اشترى جارية مغنية اسمها بَذْل بعشرين ألف درهم ، واشترى المأمون عريب المغنية الشاعرة بمائة ألف ، وكذلك فعل المعتصم فى غيرها .

وكان الواثق محباً للموسيقى والغناء ، ويتقن الفنين ، فيحسن الضَّرْبَ على العود ، وغيره من آلات الموسيقى . واشترى مغنية أسمها قلم أعجبه غناؤها بعشرة آلاف دينار .

وكان الرشيد لا يطيق مفارقة اسحاق الموصلى ، وكذلك كان أبوه مع إبراهيم الموصلى روى أبو الفرج عن اسحاق قال : بينا أنا ذات ليلة عند الرشيد أغنيه إذ طرب لغنائى وقال لا تبرح ، ولم أزل أغنيه حتى نام . فأمسكتُ ، ووضعت العود فى حجرى ، وجلست مكانى .

وقال إبراهيم الموصلى: جمع الرشيد ذات يوم المغنين ، فلم يبق أحدٌ من الرؤساء إلا حضر ، وكنت فيهم ، وحضر معنا مسكينٌ المدنىّ ، ويعرف بأبى صدقة ، وكان يوقّعُ بالقضيب ، مطبوعاً حاذقاً ، طيب العشرة ، مليح النادرة ، فاقترح الرشيد وقد عمل فيه النبيذ صوتاً فأمَر صاحبُ الستارة تجامع أن يغنيه ففعل ، فلم يطَربْ له ثم فعل ذلك بجماعة ممن حضر ، فلم يحَرِّك منه أحد . فقال صاحب الستارة لمسكين المدنى : يأمرك أمير المؤمنين إن كنت تحسنُ هذا الصوت فغنِّه .

قال إبراهيم : فاندفع فغنّاه ، فأمسكنا جميعا معجبين من جراءة مثله على الغناء بحضرتنا فى صوت قد قصّرنا فيه عن مُرادِ الخليفة .

قال إبراهيم : فلما فرغ منه سمعت الرشيد يقول وقد رفع صوته : يا مسكين ، أعِده فأعادهُ بقوة ونشاط ، واجتماع قلب ، فأحسن فيه كلّ الإحسان . فقال الرشيد : أحسنت والله يا مسكين ، وأجملت . ورفعت الستارة بيننا وبينه .

كذلك كان المأمون يستمع الغناء . روى أبو الفرج[1] أن المأمون سمع فى أحد مجالسه الغناء من ابن صدقة ، « وشاهد رقص الوصائف أثناء الغناءِ ، فشرب على رقصهنّ وغنائه وأكثر من شربه حتى تغشّاهُ السُّكرُ » .

وروى أبو الفرج عن اسحاق أنه لمّا قدم المأمون العراق من خراسان أقام بعد قدومه عشرين شهراً لم يسمع حرفاً من الأغانى — لعله تحرج من دعايته ضد الأمين بأنه كان يلهو ويسمع الغناء — ثم كان أول من تغنّى بحضرته أبو عيسى الرشيد ، ثم واظب على السماع مستتراً ، متشبهاً فى أول أمره بالرشيد ، وأقام على ذلك أربع حجج ، ثم ظهر للندماء والمغنين ، وكان حين أحبَّ السماع سأل عنّى فجرِّحت بحضرته ، وقال الطاعنُ علىّ : ما يقول أمير المؤمنين فى رجل يتيه على الخلافة !!؟ .

وقال أبو الفتوح إن المأمون حضر مجلس غناء به اسحاق الموصلىّ وروى عن اسحاق قال : دعانى المأمون وعنده إبراهيم المهدىُّ ، وفى مجلسه عشرون جارية قد أجلسَ عشراً عن يمينه ، وعشراً عن يساره ، ومعهن العيدان يضربن بها .

ولم يقتصر الخلفاء على سماع الغناء ، بل كان منهم من يصنع الشعْر ويلحنه ويغنيه ، كالواثق وإبراهيم بن المهدى ، ومنهم من يصنع الشد ليتغنى به كالرشيد والمأمون ، وكان الواثق يستشير فيما يصنع اسحاقاً الموصلى ، وربما أصلح فيه الشىء بعد الشىء .

وكانت مجالس الغناء فى قصور الخلفاء بهجة للأنفس ، ونزهة للأعين ، وروضة للآذان وأنساً .

فكانت تعقد مجالس الغناء فتتزين الجوارى المغنيات بأبهى زىّ ، من ثياب

---

(١) الأغانى ١٩ /١٣٨ .

مُصبغةٍ وموشّاةٍ ، عاقدات على الرءوس العمائم تتدلى منها السنابل الذهبية .

وصف أحد الشعراء مجلساً للواثق فقال إنه ادخل إلى دار مفروشة الصحن ملبسة الحيطان بالوشى المصنوع بالذهب ، ثم أفضِيَ إلى رواق أرضه وحيطانه ملبسة بمثل ذلك . وإذا بالواثق فى صدره على سرير مرصع بالجوهر ، وعليه ثيابٌ منسوجةٌ بالذهب ، وإلى جانبه فريدة المغنية عليها مثل ثيابه ، وفى حجرها عود .

وغالباً ما كان الخلفاء يستمعون إلى الغناء من وراء ستار يفصل بينهم وبين المغنين ومن يحضر المجلس ، وكان بعضهم يرفع الستار ويخالط الجمع إذا كانت الكَلفة مرفوعة بين المغنى والخليفة كما كان يحدث لاسحاق مع الرشيد وغيره .

وقد تجلس المغنيات أو يقفن وراء ستار يغنين ، وقد يسفرن . وكان لكل مغنية من مغنيات القصر نوبة فى أحد أيام الأسبوع .

واتبع سادة القوم وعليتهم ما كان عليه الخلفاء من عادة فى مجالس الغناء .

ويزداد حبـــهم سماع الغناء فى الأعياد والمواسم كالنيروز والمهرجان ، فيحتفلون لذلك وتتخذ الجوارى أجمل زينة ليدخلن على النفوس المسرة ، فى مناسبة تبتهج فيها الأنفس وتسعد .

وصوَّر كثير من شعراء العصر مشاهد الغناء والموسيقى فى لوحات شعرية رائعة كابن الرومى الذى برع فى هذا ، ونونيته فى يوم المهرجان ، وتصوير جوق المغنيات شاهد حىٌّ على ما نقول .

واهتم النَّاسُ ، وأصحاب بيوت القيان خاصة بتخريج جواريهن فى الغناء وتدريبهن عليه على أيدى مشهورى الموسيقيين والمغنين كابراهيم الموصلى وابنه اسحاق .

يقول الجاحظ فى رسالة القيان : « وتروى الحاذقة منهنَّ أربعة آلاف صوت فصاعداً ، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات . وعدد ما يدخل فى ذلك من الشعر إذا ضرب بعضه فى بعض عشرة آلاف بيت » .

قال أبو الفرج[1] : « لم يكن الناسُ يعلّمون الجارية الحسناءَ الغناءَ وإنما كانوا

(١) الأغانى ٥ /١٨٥ .

يعلّمونه الصُّفْرَ والسودَ ، وأول من علَّم الجوارى المثَمَّنات إبراهيم فإنه بلغ بالقيان كل مبلغ ، ورفع من أقدارهن . قال فيه أحد الشعراء :

مالإبراهيـــم فى العِلـــم بهذا الشّأنِ ثانـــي
إنما عَصْرُ أبى إســحا قَ زيـــنٌ للزمـــانِ
جنة الدنيا أبو إسحا قَ فى كلِّ مــكـــانْ
فإذا غنّى أبو إســحا قَ أجــابتـه المثــانى
منـه يجنَى ثمــرُ اللهـــو وريحــانِ الجنــانِ

وقال آخر فيه لأنه أغلى ثمن القيان بما درَّبهن وأحســن تدريبهنَّ فارتفعت اقدارهن :

لا جَزَى الله الموصِلّيَ أبا إسحاقَ عنّا خيراً ، ولا إحسَانَا
جاءنا مرسلاً بوحي من الشـيطان أغْلَى علينا القيـانا
من غناءٍ كأنه سكرات الحـبِّ يُصْبي القلوبَ والآذانا »

وكان إبراهيم يعلم جوارى سراة القوم الغناءَ والضَّربَ ، فكنَّ يُقِمْنَ عنده وديعةً ، وكأنه قد جعل من منزله معهداً موسيقيا لتخريج المغنين والمغنيات . حتى إذا أتم تعليمهنَّ أعدنَ إلى مواليهنَّ .

ويروى أبو الفرج أن بيته ضمَّ يوماً ثمانين جاريةً من هاتيك الجوارى ما منهنَّ واحدةٌ إلا ويجرى عليها من الطعام والكسوة والطيب مثل ما يجرى على أخص جواريه ، فإذا رُدَّت الواحدة منهنَّ إلى مولاها وصلَها وكساها .

وكان يبقى لنفسه بعض الجوارى ممن يلمس فيهنَّ الموهبة ، فيعلمهنَّ الضربَ والغناء ، ويبيعهنَّ للخلفاء وسادة القوم بثمنٍ غالٍ . وقد اشترى الرشيد واحدة منهنَّ بستةٍ وثلاثين ألف دينار . على حد رواية أبى الفرج .

ومما يروى عن انتشار المغنيات المتقنات فى بيوتات بغداد ما ذكره المسعودى عن إبراهيم المهدى قال[٢] : « حكى إبراهيم المهدى أنه دخل بيتاً واستمع إلى جارية تغنى .. قال : خرجت علينا جاريةٌ تتثنَّى كأنها غصنُ بان ،

---

(٢) مروج الذهب ٤ /١٣ .

فسلّمت غير خجلة ، وهيئت لها وسادة ، وأتى بعودٍ فوضع فى حجرها ، فجستّه ، فتبينتُ الحِذقَ فى جَسِّها ، ثم اندفعت تُغنّى :

توهّمها طَرفٌ فآلم خدَّها	فصارَ مكانُ الوهم من نَظَرى إثْرُ
وصافحها كفىّ فآلم كفَّها	فمِنْ لمسِ كفّى فى أناملِهَا عَقْرُ
ومرّت بقلبى خاطراً فجرحْتها	ولَمْ أرَ شيْئاً قطُّ يجرحُه الفِكرُ

فهيّجَتْ والله علىَّ بلابلى ، وطربت لحسن غنائها وحذقِها ، ثم إنها مضت تغنىّ :

أشرتُ إليها هل عَلِمت مَودَّتى	فردَّت بَطرف العين: إنى على العَهْدِ
فحدتُ عن الإظهارِ عمداً بسرِّها	وحادت عن الإظهارَ أيضاً على عمدِ

فصحت : السلامة !! . وجاءنى من الطرب مالا أملك معه التنفسَ ولا الصّبْر . واندفعت تغَنّى :

أليسَ عجيباً أن بيتاً يَضُمُّنى	وإيَّاك لا نَخْلو ، ولا نَتكلَّمُ
سِوَى أعينٍ تشكو الهوَى بجفونهَا	وترجيعَ أحشاءِ على النارِ تُضْرَمُ
إشارةُ أفواهٍ ، وغمزُ حواجبٍ	وتكسير أجفانٍ ، وكفٌّ يَسلِّمُ

فحسدتُها على حذقها ومعرفتها بالغناء ، وإصابتها معنى الشعر ، وأنها لم تخرج عن الفنّ الذى ابتدأتْه » .

واشتهر جماعة من كبار الموسيقين والمغنين فى هذا العصر ، وكان منهم من يأخذ بالتراث الفارسى ، ومن يمزج بين العربى والفارسى ، ومن يدخل الغناء الرومى والموسيقى الرومية فى عمله .

وتنافس فى هذا المجال إبراهيم بن المهدى واسحاق الموصلى .

روى أبو الفرج أن اسحاق وابراهيم بن المهدى اجتمعا فى حضرة المعتصم ، فقال اسحاق لابراهيم : ما تقول فيمن يزعم أن ابن سريج ، وابن محرز ، ومعبداً ، ومالكاً ، وابن عائشة لم يكونوا يحسنون تمام الصنعة ، ولا استيفاء الغناء ، ويعجزون عما به يكمل ويتم ويحسن . وأنه أقدر على الصنعة منهم ؟! .

قال : أقول إنه جاهل أحمق . قال : فأنت تزعم أنه قد كانت بقيت عليهم

أشياء لم يهتدوا إليها ، ولم يحسنوها ، فتنبهت عليها أنت ، وتممتها وحسَّنتها بجندرتك[1] » ! . فضحك المعتصم ، وبقى إبراهيم واجماً مُطرِقاً .

ومن ذكرهم اسحاق من مشهورى المغنين بالحجاز ، ويعتبرون من التقليديين الآخذين بتقاليد الغناء العربى القديم مع بعض التطوير .

ويبدو أن إبراهيم بن المهدى كان أميل إلى التجديد فى الموسيقى والغناء ، بحيث يوافق الحضارة الجديدة ، فقد أدخل ما اسماه الموصلىّ بالجندرة ، وهى هذا التصرف والميل إلى خفيف الغناء ، ورقة الألحان ، ويعبّر عن ذلك بأنه تحريك للألحان دون التزمت بالتزام القواعد التقليدية فيها .

وكان اسحاق على عكس ذلك متمكنا من علم الموسيقى والغناء ، متمسكاً بالأصول الموسيقية ، لا يرغب فى الخروج على قواعدها وأصولها المتوارثة ، ولا أن يشذ أحدٌ بأن يحرّك كما يقول إبراهيم بن المهدى الألحان ، أو يجدد فى المقدمات أو يلعب فى الألحان على حد تعبيره للتطريب . وكان هذا اللعب لا يعجب إسحاق .

وكان إبراهيم بن المهدى قد فعل هذا التحريك أو اللعب فى اللحن للتطريب فى أحد أصوات الموصلى ، فكتب إليه إسحاق غاضباً :

« إذا أَردت يا هذا أن تلعبَ ، فالعبْ فى غناءِ نفسِك ، لا فى غناءِ الناس والعب فى صنعتك كما تشتهى ، مبتدئاً باللهو واللعب ، غير مُشَارِكٍ فى جدِّ الناسِ بلعبك ، ومفسِدٍ له بما لا تَعلَمُه . يا أبا إسحاق — أيدك الله — ليس هذا الصوتُ مما يتهيَّأُ لك أن تُمخْرِقَ فيه وتقول : جَندَرْتُه — أى أصلحته — .

قال أبو الفرج : وكان إبراهيم يقول إنه يُجنْدِرُ صنْعةَ القُدماءِ ويحسِّنُها .

ويصف أحدُ العلماء صنعة إسحاق وغناءه فيقول[2] : « كانت صنعتُه محكمة الأصول ونغمتُه عجيبة الترتيب ، وقسمتُه معدَّلة الأوزان .. وكان يتصرفُ فى جميع بسطِ الإيقاعات . وقد كان يذهبُ مذهبَ الأوائل ويسلك

---

(١) يبدو من سياق الحديث أن الجندرة تطوير الألحان والتصرّف فيها عن أصلها مما يشبه فى عصرنا التوزيع الجديد للألحان لتوافق بعض الآلات التى لم توضع لها فى الأصل .

(٢) الأغانى ٥/٣٨١ — ٣٨٢ .

سبيلهم ، ويقتحم طرقهم ، فيبنى على الرسم فيصنعه ، ويحتذى على المثال فيحكيه ، فتأتى صنعتُه قويّة وثيقة ، يجمع فيها حالتين : القوة والطبع ، وسهولة المسلك ، وجمعاً بين كثرة النغم وترتيبها فى الصياح والإسجاح ، فهى بصنعة الأوائِل أشبه منها بصنعة المتوسطينَ من الطبقات . وكان حسن الطبع فى صياحه ، حسن التلطيف لتنزيله . من الصّياح إلى الإسْجَاح على ترتيب ، بنغم يشاكِله ، حتى تعتدلَ وتتزنَ أعجاز الشعر فى القسمة بصدوره ، وكذلك أصواتُه كلُّها . (أي الحانة كلها) . وأكثرها يبتدىء الصوت فَصيحُ فيه — وذلك مذهبه فى جُلِّ غِنائِه حتّى كان كثيرٌ من المغنين يلقبونه الملسوع ، لأنه يبدأ بالصياح فى أحسنِ نغمة فتح بها أحدٌ فاهُ ، ثمّ يردُّ نغمتَهُ فيرجُحها ترجيحاً ، وينزِّلها تنزيلاً ، حتّى يحطّها من تلك الشدّة إلى ما يوازيها من اللّين ، ثم يعود فيفعل مثل ذلك ، فيخرج من شدّة إلى لين ، ومن لين إلى شدة » .

وضَعْ هذا الوصف لغناءِ الموصلى جنباً إلى جنب مع شعر ابن الرومى فى غناءِ وحيد . تخرج بصورة قريبة عن غناء المغنين فى عصر العباسيين فى هذا القرن الثالث الحافل بضروب الإبداع فى الفن والأدب والفكر ، وكلّ مكتسبات الحضارة العربية الإسلامية .

ذلك الإبداع الذى كان حافزه هذا التساهل وتلك المرونة ، فى جوّ من حرِّية الرأى ، وانطلاقة العقل من عقال الجمود ، والإرتباط بقيود من السّلفية المغلقة . والانفتاح على الثقافات ، والاقتباس من مكتسبات النشاط الإنسانى وحضارات الشعوب فى المشرق والمغرب .

وكان من أشهر تلاميذ إبراهيم الموصلى ، مخارِق ، وكان أحسن صوتاً ، وأطرى حلقاً من إسحاق ، وإن كان إسحاق أدقّ واتقن صنعة .

وكان إسحاق بارعاً فى العزف على العود يقول أبو الفرج[1] : « كان إسحاقُ أعلم أهل زمانه بالغناء ، وانقدهم فى جميع فنونه ، وأضربهم بالعود ، وبأكثر آلاتِ الغناء ، وأجودهم صنعة . وقد تشبّه بالقديم ، وزاد فى بعض ما صنعه عليه ، وعارض ابن سُريج ، ومعبد فانتصف منهما » .

(١) الأغانى ٥ /٣٨٧ .

وبلغ عدد الألحان التى صنعها أربعمائة صوت ، واعتبر أبو الفرج ذلك قليلاً ، قياساً إلى من صنعوا الآلاف . وقال إنه يدقق فى صنعته وكأنه ينقر فى صخرة .

واجتمع جماعة من كبار الموسيقيين فى مجلس الواثق من بينهم زلزل ومُلاحظ فامتحنهما إسحاق فتقدم زلزل على ملاحظ ، وأمسك إسحاق بالعود فتفوق عليهما .

واعجب به الواثق فقال له : لا والله ما رأيت مثلك ولا سمعت .

وكان يصحب إسحاق فى العود جماعةٌ ممن اشتهروا بآلاتهم والمهارة فى العزف عليها أو النفخ فيها .

فكان معاصره برصوما الزامر ، وزلزل الضارب .

وأشهر آلات الموسيقى فى العصر ، العود والطبل ، والدفُّ أو الرقّ والصنجُ ، والمعزف ، والناى ، والطنبور **والصُّفّارة** .

وكان غناء الفرس بآلاتهم كالعيدان والصنوج ، وهى لهم ، ولهم النغم والإيقاعات والمقاطع .

وللروم الأرغل ، (أو الأورج بلغة عصرنا الآن) وهو على ستة عشر وتراً والنُّورا أو الربابُ ، والقيثارة ، والأرغن ، وله منافخ من الجلود والحديد .

الرقـــص :

ذكر المسعودى[1] : أنواعه ، فروى « أن أهل الأقاليم والبلدان مختلفون فى رقصهم من أهل خراسان وغيرهم . فجملة الإيقاع فى الرقص ثمانية أجناس الخفيف ، والهزج ، والرَّمَل ، وخفيف الرَّمل ، وخفيف الثقيل الثانى وثقيله ، وخفيف الثقيل الأول وثقيله .

والراقص يحتاج إلى أشياء فى طباعه ، وأشياء فى خلقته ، وأشياء فى عمله ؛ فأما ما يحتاج إليه فى طباعه ، فخفة الروح ، وحسن الطبع على الإيقاع وأن يكون طائبه إلى التدبير فى رقصه والتصرف فيه .

---

(١) مروج الذهب ٤ /٢٥٤ .

وأما ما يحتاج إليه فى خلقته فطول العنق ، والسوالف ، وحسن الدلّ والشمائل والتمايل فى الأعطاف ، ورقة الخصر ، والخفةُ ، وحسنُ أقسام الخلْقِ ، وواقع المناطق ، واستدارة الثياب مِن أسافلها ، ومخارج النَّفَسِ ، والإزاحة والصَبر على طول الغاية ، ولطافةُ الأقْدامِ ، ولين الأصابع ، وامكان ليِّها فى نقلها .

وفيما يتصرف فيه من أنواع الرقص ، من الإبل ، ورقص الكُرة ، وغيره ولين المفاصل ، وسرعة الانتقال والدّوران ، ولين الأعطاف .

وأما ما يحتاج إليه فى عمله ، فكثرة التصرف فى ألوان الرقص ، وإحكام كلِّ حدٍّ من حدوده ، وحسن الاستدارة ، وثبات القدمين على مدارهما واستواء ما تعمل يمنى الرجل ويسراها ، حتى يكونا فى ذلك واحداً » .

ونلاحظ تشابه أسماء ضروب الايقاع بين أوزان الشعر ، والموسيقى والرقص . وقد روى ابن خرداذبه للمعتمد أن منزلة الإيقاع من الغناء ، بمنزلة العروض من الشعر ، وقد أوضحوا الإيقاع ووسموه بسماتٍ ، ولقبوه بألقاب وهو أربعة أجناسٍ : ثقيل الأول . وخفيفه ، وثقيل الثانى وخفيفه ، والرملُ الأول ، وخفيفه ، والهزج وخفيفه .

ولا أجدُ فى خِتام حديثنا عن الموسيقى والغناء فى هذا العصر ومكانتهما فى النفوس أبلغ ولا أجمع من قول المسعودى :

« والغناءُ يرقُّ الذهن ويلينُ العريكة ، ويبهجُ النفس ، ويسرُّها ويُشجِّعُ القلبَ ، ويُسَخِّي البخيل . وهو والنبيذُ يعاونان على الحزنِ الهادمِ للبدن ، ويحدثان له نشاطاً ، ويفرِّجان الكربَ .

والغناءُ على الانفراد يفعل ذلك . وفضل الغناء على المنطق ، كفضل المنطق على الخَرس ، والبُرءِ على السُّقْمِ » .

الشراب ومجالسه :

تعتبر ظاهرة شرب الخمر ، أو النبيذ فى العصر من الظواهر الاجتماعية الجديرة بالتسجيل لآثارها فى الحياة والناس ، وانعكاسها على آداب العصر وعلى شعره بصفة خاصة .

ولا يعنينا هنا بحث تحريم الشراب ، وما جاء فى نص القرآن الكريم من آيات تقطع بالتحريم ، وما دار من أقوال الفقهاء حول التحريم ووجوب النص على الحدّ ، أو تلازم الذنب مع العقوبة ، وتناسب هذامع تلك كغيره مما نص عليه حداً فى الكتاب والسُّنة .

ولا يعنينا حديث الفقهاء وجدل العلماء حول فروق ما بين النبيذ والخمر أو بين ما هو مسكر فى كثيره ، ومسكر فى قليله ، وما ذكروا من تحريم أو تحليل فينسبون إلى أبى حنيفة وصحبه من فقهاء العراق تحليل النبيذ وتحريم الخمر استناداً إلى بعض الأحاديث والأخبار مما نجده فى كتب العصر وبعض كتب الفقه . ولا يهمنا هنا من المتخفف الميسّر ، ومن المتشدّد المعسّر .

وإنما يهمنا ما هو واقع جارٍ ، متناقل فى الأخبار ، متواتر فى كتب التاريخ والأدب مسجّل فى دواوين الشعراء . من أثر الشراب من نبيذ أو خمر فى حياة الناس ، من خلفاء وسادة ، وعامة .

ويقولون إن بعض أوائل خلفاء بنى العباسى تحرّجوا من شرب النبيذ أو الخمر حتى صدرت فتوى بعض فقهاء العراق ، وترددت على ألسنة الأدباء والشعراء ، بل وبعض العلماء ، فوجدنا المهدىّ لا يشرب النبيذ ، وإنما قد يسمح بشربه ، ويأتى بعده الهادى فيشربه ويسمح بشربه ثم الرشيد فيسرف فى الشراب على التزامه بحدود الدين . وتمضى عجلة التاريخ فنجد من الخلفاء من يتساهل فى الشراب وبعضهم من يتحفظ ، وينسك ويزهد فى الشراب وغيره من متع الدنيا وملاذها .

كذلك كان الحال عند الناس ، منهم المحلُّ ومنهم المحرِّم ، ولكلٍّ حجته وسنده قد يقال فيمن أحل خفة فى الدين ورقة ، وفيمن حرَّم التزام وتقوى . والناس فى مواقفهم من أوامر الدين ونواهيه ، وفهمهم لنصوصه واتباعهم لما

يفهمون مختلفون غير مجتمعين ، وللنفوس بعد هذا أهواؤها ، وللمجتمع سلطانه ، وأهواء النفوس قد تخضع لسلطان المجتمع فى ظاهر لكنها تخالفه فى باطن . وقد يجهر المجاهرون ، ولا يبالون بردع نهى من دين أو سلطان .

وهكذا كان الحال فى المجتمع العباسى ، وكان الموقف من الشراب ، مع الأخذ فى الاعتبار أن سلطة الخلافة العباسيّة لم تشدّد فى هذا الأمر ، وعاقبت على الجهر ، ولم تعاقب على الستر . منعت المسلمين من بيع الخمر وشربه علانية . ولم تمنع غيرهم من أهل الذمة نصارى ويهود من اتخاذ الدكاكين لبيع الخمر ، ولا النصارى فى الأديرة وأماكنهم الخاصة من تداولها .

لقد عرفت الخمر من قديم الزمان قدم الحضارة الإنسانية. عُرفت فى مصر القديمة وفى بابل وفارس وعند الروم والعرب الجاهلين ، ولا تكاد أمة فى قديمها وحديثها لاتعرف الخمر ، ولا تشربه وتبيعُه، وتستمتعَ به .

القرآن ذكر فى حلم يوسف عليه السلام (إنى أرانى أعصر خمرا) والمصريون الذين عاش بينهم يوسف آنذاك كانوا يعصرون العنب ويصنعون منه الخمر .

وقد يكون انتشار الشراب فى عصر العباسيين بسبب الأثر الفارسى والتساهل الدينى إلى حد ما ، والرغبة فى الاستمتاع بمكتسبات الحضارة ولذاتها فى وقت ازدهرت فيه الحياة ، وتدفقت الأموال ، وعاش الناس فى بحبوحة ، ينشدون اللذات أنّى وجدتْ ، ومنها بل على رأسها لذة الشراب .

واقع اهتمامهم بالشراب، والخمر اهتموا بمجالسها ، وآنيتها من أباريق ، وكؤوس وطقوس فى تقديمها ، وتناولها ، وبالفُـرش التى يجلس عليها الندماء ، والمكان الذى يجلسون فيه ، والساق أو الساقية وما يشترط فيه أو فيها من صباحة الوجه ، وجمال المظهر ، وأناقة الهندام ، ولطف الحديث ، وظرف اللسان . واهتمامهم بالنّقل مما يقدم مع الخمر ، وما يلزمها من الريحان والطيب .

لقد كان للخمر ومجالسها وما يتعلق بها أثر بالغ فى حياة العصر ، وكانت مظهراً من مظاهر النشاط الانسانى الحضارى والفنى ، لها انعكاساتها على سائر

فنون العصر وآدابه ، ولا نكاد نجد كتاباً فى الأدب إلا ما ندر يخلو من باب أو أبواب فيها ذكر الشراب من قريب أو بعيد وفيها حديث عن الشعر الذى قيل فى الشراب ومجالسه .

كان القول فى الخمر صفة للظرفاء والمتظرّفين ، والأدباء والمتأدبين ، وربما قال فيها من لم يُعاقِرها أو يقربها تشبهاً بغيره ، واقتناعاً بأنها كانت موضوعاً يفرض نفسه على شاعر العصر ، كما فرض موضوع النسيب والغزل نفسه على الشعر دون أن يكون كل الشعراء من المحبين الغزلين .

وغالباً ما يصحب الشراب مجالس الغناء ، أو يصحب مجالس الشراب الغناء ، فهما يتلازمان كثيراً فى العصر ، لأنهما جامعا المسّرةِ ، وبخاصة إذا صحبتهما المرأة ساقية ، أو مغنية ، أو مؤانسة نديمة .

وتكاد تكون من مظاهر الفرح والاغتباط فى الأعياد والمواسم غير الاسلامية ، من أعياد النوروز ، وأعياد النصارى كالشعانين والميلاد وغيرها . وقد يذهب المسلمونَ . ولا نستثنى بعض الخلفاء وعلية القوم من التوجه إلى الأديرة للتمتع بتناولها من أيدى الرهبان والراهبات .

الفصل الثالث
الثقافة والعلوم

كان للحياة الإجتماعية والمناخ العام للعصر بما فيه من تقلبات سياسية ، وتيارات حضارية متداخلة بين الأمة العربية والإسلامية فى الأقاليم العربية اللسان ، والأخرى ذات الألسنة ، والثقافات القديمة المتعددة آثارها فى الجو الثقافى العام وتنوع أشكاله ومعطياته فى هذا العصر .

وقد نشأ ما عرف عند العلماء بفرعى الثقافة أو العلوم ؛ الثقافة العربية الإسلامية وعلوم الأوائل ، أو العلوم الدخيلة الوافدة . وتشمل الثقافة العربية الاسلامية ، علوم القرآن والحديث واللغة والشعر والتاريخ . وأما علوم الأوائل أو الدخيلة فتشمل الفلسفة والمنطق والفلك والحساب والعلوم الطبيعية والطب . كما تشمل بعض الفنون كعلم الموسيقى والتصوير .. وما إلى ذلك .

وعرفنا كيف شاركت الأمصار الاسلامية كالبصرة والكوفة والموصل ودمشق فضلاً عن مكة والمدينة فى ازدهار الثقافات الإسلامية والعربية ، وشارك بعضها كذلك فى المزج بين الثقافات على ما قدمنا منن حديث عن البصرة والكوفة .

وقد حرص أبو جعفر المنصور بعد بناء بغداد على دعوة علماء البصرة والكوفة إلى بغداد ، فكان منهم الفقهاء ، والمفسرون ، ورُواةُ الحديث ، والنحويون واللغويون ورواة الشعر .

وتوافد على قصور الخلفاء جماعاتٌ من العلماء مختلفى الانتماءات الفكرية ، والاتجاهات العلمية ، وعقدوا لهم المجالس واستمعوا إلى أحاديثهم ومواعظهم ، وتحملوا ما قد يَنِدُّ من بعضهم من أقوال يغلظونها . كالذى يروى عن عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة ، وكان من جلساء المنصور المقربين ، وكان كثيرا ما يغلظ القول للخليفة ، كما كان يفعل مثله سفيان الثورى مع المهدى .

كذلك كان الرشيد يحب الجلوس إلى العلماء ويستمع إلى توجيهاتهم ومواعظهم ، وكثيرا ما تأثر لها وأخذ بها . وتراجع عما كان ينوى فعله لرأى

من عالم جليل ، أو نصيحة يقدمها بين يديه عارفٌ حكيم . ومثلهم فعل المأمون والمعتصم والواثق .. ومن خلفهم .

ولا يستطيع أحد نكران دور الخلفاء وبعض الوزراء وعلية القوم فى توجيه الثقافة والعلوم والآداب وتنشيطها بما يَعقِدون من تلك المجالس فى قصورهم ، وما يغدقون من الأموال والهبات فى سبيل ذلك .

قد يكون هدَفُهم فى بعض ما يغدقون ، وغايتهم من تقريب من يقربون لأهواء تتصل بالملك والخلافة وتدعيم شرعيتها ، أو سعياً وراء السلطان ، باعتبارها من مكملات جاهه ، لكن النفع الذى تم من وراء هذا كله كان كبيراً ، والأثر الذى عاد على الثقافة والأدب كان عظيما .

وكان من الوجوه اللامعة فى مجلس الرشيد الأصمعى ، وإبراهيم الموصلى وابنه إسحاق الموصلى والعتابى .

وعلى أن مجالس المأمون والواثق لعبت دوراً مميزاً فى توجيه الثقافة والفكر فى القرن الثالث الهجرى ؛ فقد جمعت تلك المجالس نخبةً من كبار العلماء والفقهاء والأدباء ممن تركوا آثاراً باهرة فى تاريخ الفكر والأدب .

نذكر من هؤلاء على سبيل المثال ثمامة بن أشرس من مقدمى المعتزلة ، ويحيى بن أكثم من الفقهاء والمحدثين . وكان كما قال الطبرى على مذهب العامة . ومع أنَّ المأمون كان يستشيره أحياناً ، إلاَّ أنه لم يأخذ دائماً بآرائه لاختلاف ما بينهما فى العقيدة ، فقد كان المأمون أميل إلى الأخذ بمنهج العقل ، ويرى رأى المعتزلة . ويشجع على الترجمة والتعرف على علوم الفرس واليونان ، ويرى عدم التوقف عند علوم السلف ، ولا الاكتفاء بالسَّماع والنقل دون الاجتهاد والنظر .

وكان يحيى بن أكثم محدِّثاً أصولياً يمالىء عوامَّ الفقهاء على سعة عقله وذكائه . ويروى أن المأمون كان يشك فى سلوك يحيى بن أكثم شكه فى فكره ، والدليل على ذلك ما نقل من أنه أوصى لأخيه المعتصم قبل وفاته بأن لا يتخذه وزيراً ولا مستشاراً قائلاً « إن يحيى بن أكثم نكبَةٌ فى معاملة الناس وخبث سيرته حتى أبان اللهُ ذلك منه فى صمتٍ منى ، فصرتُ إلى مفارقته ، قالياً له ؛ غير راضٍ بما صنع فى أموال الله وصدقاته ، لا جزاه الله عن الإسلام خيرا » .

ويفهم مما يروى من أخبار يحيى بن أكثم أنه كان يتظاهر بعقيدة العَوام ، وينافق المأمون ، فيشرب المأمون أمامه ، ويشاركه طعامه ، والنبيذ أمام المأمون ، ولا يتكلم مع اعتقاده بأنه حرام ، وإعلانه بتجريمه فى غير حضرة الخليفة .

وكان يحيى يقول بالحديث ، ويحتج به تقرباً إلى العوام ، ويعلم منه المأمون هذه الخلّة فى التلوّن أو الظهور بغير ما يعلنه للناس ، فيتجنبه فى أخريات حياته . ويسخط عليه فى سنة ٢١٥ والمأمون آنذاك بمصر ، وكان يحيى مرافقاً له ، فبعث به إلى العراق مغضوباً عليه .

وكان المأمون كما قلت يجمع جلة العلماء فى مجالسه ويدعوهم إلى المناظرة والحوار فى قضايا الفكر والثقافة والعقيدة . ويروى المسعودى واحداً من تلك المجالس دار فيه الحوار بين ثمامة بن أشرس المعتزلى ، ويحيى بن أكثم الفقيه المحدّث .

قال : « ذكر ثُمامَةُ بن أشرس قال : كنا يوماً عند المأمون فدخل يحيى بن أكثم ، وكان قد ثقل عليه موضعى منه ؛ فتذاكرنا شيئاً من الفقه ، فقال يحيى فى مسألة دارت :

— هذا قول عمر بن الخطّاب ، وعبد الله بن مسعود ، وابن عمر ، وجابر .

قلت (ثمامة) . — أخطأوا كلُّهم ، وأغفلوا وجه الدّلالة .

فاستعظم منّى ذلك يحيى وأكبره وقال :

— يا أمير المؤمنين : إن هذا يخطِّىءُ أُصحاب رسول الله ﷺ كلَّهم .

فقال المأمون — سبحان الله ! أكذا يا ثُمامة ؟ .

قلت (ثمامة) — يا أمير المؤمنين إن هذا لا يبالى ما قال ، ولا شنَّعَ به .

ثم أقبلتُ عليه فقلت — ألست تزعمُ أنَّ الحق فى واحد عند الله عز وجل ؟

قال — نعم .

قلتُ — فزعمت أن تسعةً أخطأوا ، وأصاب العاشر ، وقلتُ أنا أخطأ العاشر ، فما أنكرت ؟ .

قال : فنظر المأمون إلىّ وتبسّم ، وقال — لم يعلم أبو محمد أنك تجيب هذا الجواب .

قال يحيى — وكيف ذلك .

قلتَ — ألست تقول إن الحقّ فى واحد ؟.

قال — بلى .

قلت — فهل بَخِلَ الله عز وجلّ بهذا الحقّ من قائلٍ يقول به من أصحاب رسول الله ﷺ ؟.

قال — لا .

قلت — أفليس من يخالفه ولم يقل به فقد أخطأ عندك الحق ؟

قال — نعم .

قلت — فقد دخلتَ فيما عبتَ ، وقلتَ بما أنكرت ، وبه شنّعت ، وأنا أوضح دلالة منك ، لأنى خطأتهم فى الظاهر ، وكلّ مصيب عند الله الحق وإنما خطأتهم عند الخلاف ، وأدتنى الدلالة إلى قول بعضهم ، فخطّأتُ من خالفنى ، وأنت خطّأت من خالفك فى الظاهر وعند الله عز وجل !! .

هذه صورة من صور الحوار والمناظرة بين قطبين متقابلين من أقطاب الفكر الاسلامى فى مجلس المأمون .

ويروى المسعودى حكاية أخرى عن مجلس من تلك المجالس على لسان يحيى بن أكثم[1] . قال : « وكان يحيى بن أكثم يقول : كان المأمون يجلس للمناظرة فى الفقه يوم الثلاثاء ، فإذا حضر الفقهاء ، ومن يناظرهم من سائر أهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة ، وقيل لهم انزعوا أخفافكم ، ثم أُحضرت الموائد ، وقيل لهم : أصيبوا من الطعام والشراب ، وجدّدوا الوضوء ، ومن خُفُّه ضيّق فلينزعه ، ومن ثقلت قلنسوتُه فليخلعْها .

فإذا فرغوا أُتُوا بالمجامر ، وطُيّبوا ، ثم خرجوا ، واستدناهم حتى يَدْنُوا منه ويناظِرهم أحسن مناظرة وأنصَفَها ، وأبعدَها من مناظرةِ المتجبِّرين . فلا يزالُونَ كذلك ، ثم تنصبُ الموائد ثانية ، فيطعُمونَ وينصرفون .

(1) مروج الذهب ٤ /٢٢ .

ومما رُوِىَ عن مجالس الواثق العلمية قال المسعودى[1] : « وللواثق أخبارٌ حسانٌ مما كان فى أيامه من الأحداث ، وما كان يجرى من المباحثة فى مجلسه الذى عقده للنظر بين الفقهاء والمتكلمين فى أنواع العلوم من العقليات والسمعيات فى جميع الفروع والأصول » .

ويقول[2] : « وكان الواثق بالله محباً للنظر ، مكرماً لأهله ، مبغضاً للتقليد وأهله محباً للإشراف على علوم الناس وآرائهم ممن تقدّم وتأخر من الفلاسفة وغيرهم من الشرّعيين .

قال : حضَر ذاتَ يوم جماعةٌ من الفلاسفة والمَتطبّبين ، فجرى بحضرته أنواعٌ من علومهم فى الطبيعيات ، وما بعد ذلك من الإلهياتَ . فقال لهم الواثق : قد أحببت أن أعلم كيفية إدراك معرفة الطب ومأخذ أصوله ، أذلك من الحِسِّ أم من القياس ، والسُّنّةِ ، أم يُدرك بمدارك العقل ، أم علمُ ذلك طَرِيقُهُ يُعلَمُ عندكم من جهة السمع ، كما يذهب إليه جماعةٌ من أهل الشريعة ؟.

وقد كانَ ابن بختيشوع ، وابن ماسَوِيه ، وميخائيل فيمن حَضَر . وقيل حنين بن إسحاق ، وسَلْمَويه فيمن حَضَرَ فى هذا المجلس أيضاً .

فقال منهم قائل : زعَمتْ طوَائِفُ من الأطباءِ وكثيرٌ من مُتقدّميهم أنّ الطريق الذى يُدْرَكُ به الطب هو التجربةُ فقط . وحدُّوهُ بأنه عِلْمٌ بتكرُّر الحسّ على محسُوس واحدٍ فى أحوالٍ مُتغايرة ، فيوجَدُ بالحسِّ فى آخر الأحوال كما يوجَدُ فى أوّلها . والحافظ لذلك هو المجرّب » .

هذا جانب من مجلس طويل للواثق .

كذلك كان للوزراء مجالسُ للنظر ، ومنهم الوزير يحيى بن خالد البرمكى . قال المسعودى[3] : وقد كان يحيى بن خالد ذا علمٍ ومعرفةٍ ، وبحثٍ ونظر . وله مجلسٌ يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل الآراء والنّحل ، فقال لهم يحيى وقد اجتمعوا عنده :

---

(١) مروج الذهب ٤ /٩٧ .
(٢) المصدر نفسه ٤ /٩٠ — ٩٤ .

— قد أكثرتم الكلام فى الكمونِ والظّهور ، والقدم والحدوث ، والإثبات والنفى ، والحركة والسكون ، والمَماسَّة ، والمباينة ، والوجود والعدم ، والجزءُ والطفرة ، والأجسامُ والأعراض ، والتعديل والتجريح ، ونفى الصفاتِ وإثباتها والاستطاعة والأفعال ، والكميّة والكيفية والمضاف . والإمامةُ أنصٌّ هي أم اختيار ؟... وسائر ما توردونه من الكلام فى الأصول والفروع ، فقولوا الآن فى العشق على غير منازِعه ، وليورِدْ كلٌّ منكم ما سنَحَ له فيه ، وخطر إيراده بباله » .

وكانت مجالسه تجمع بين متكلمى الشيعة والخوارج والمعتزله .

ونُلاحظُ فى هذه الموضوعات أنها تجمع قضايا العصر الفكرية والعقدية والسياسية والاجتماعية والعلمية مما كانت تدور فيه المناظرات والمحاورات فى مجالس الخلفاء وغيرهم ، ومجالس العلماء ، وحفلت به كتب العصر ، ومن اهتم بجمعها من كتب الفرق والنحل ، وكتب الأدب والتاريخ والمحاضرات والأمالى .

ونلاحظ أن صاحب المجلس يحيى بن خالد طَالبَ الحضور بعد أن خاضوا فى كل قضية من قضايا العقيدة والفكر ، مما يجهد الذهن ويشقُّ على النفس دعاهم فى ختام المجلس إلى أن يخرجوا من جاد الكلام إلى شئ يدخل الراحة إلى القلوب فيتنسموا نسيم النشوة والانتشاء . فيعاودوا النشاط .

ولعلَّ ذلك النظام كان سنةً مُتّبعةً ، فى مجالس العلم العربى الاسلاميّ منذ ذلك الحين وإلى قرونٍ عديدة بعد .

وعلى رأس القضايا التى طُرحت فى مجالس العلم التى أشرنا إليها قضية « خلق القرآن » تلك التى شغلت علماءَ المسلمين وأئمتهم من أهل السنة والمعتزله قرناً من الزمان .

يقول القلقشندى[1] : « وفى سنة ٢١٢ هـ أظهر المأمون القول بخلق القرآن ، وتفضيل على بن أبى طالب على سائر الصحابة ، وأنه أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ ، ودعا الناس إلى القول بذلك ، وكانت محنة عظيمة على العلماء (يقصد علماء السنة والسلفيين) .

(١) مآثر الخلافة ١/٢١٣ .

ونلاحظ ربط القلقشندى بين التشيع والاعتزال ، وهذا أمر نادى به بعض الباحثين وذكرته المصادر ، كما أن المصادر ذكرت أن العباسيين فى أول دعوتهم كانوا يميلون إلى التشيع بحكم تحالفهم مع العلوية ، وكان المعتزلة يناصرونهم . من هنا كان الارتباط بين المعتزلة وأئمتهم منذ واصل وعمرو بن عبيد وثمامة بالخلفاء المنصور والمهدى والأمين على ما قدمنا فى مناسبات سابقة .

قال القلقشندى — وهو شافعي — « وكانت مقاصد المأمون كلُّها جميلة خلا ما نحا إليه من القول بخلق القرآن ، والتشيّع ، وبث علوم الفلسفة بين المسلمين » .

وكان المأمون قد أرسل رسالة وهو بمصر يأمر عامله على بغداد بأخذ العامة بالقول بخلق القرآن سنة ٢١٨ هـ بيّن فيها ما عليه الجمهور من حُشْوَةِ الرَّعية ، وسفلة العامة من الجهالة بالله حتى ساووا بينه وبين ما أنزل من القرآن ، فأطبقوا على أنه قديم مع النصوص الدالَّة على خلاف ذلك . ثم قال : « ثم هم الذين جادلوا بالباطل ، فدعوا إلى قولهم ، ونَسَبوا أنفسهم إلى السُّنّة ، وفى كلّ فصلٍ من كتاب الله نصٌّ من تلاوته مُبْطِلٌ لقولهم ، ومكذِّبٌ دعواهم ، يَردُّ عليهم قولهم ونحلتهم ، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة ، وأن من سِوَاهُم أهل الباطِل والكفر والفُرقة ، فاستطالوا بذلك على الناس ، وغرُّوا بهم الجهَّالَ حتى مال قومٌ من أهلِ السَّمتِ الكاذب ، والتخشُّع لغير الله ، والتَّقشُّف لغير الدين إلى موافقتهم عليه ، ومواطأتهم على سَيِّءَ آرائهم ، تزيُّناً بذلك عِنْدهمَ ، وتصنُّعاً للرياسةِ والعدالة فيهم ، فتركوا الحقَّ إلى باطلهم ، واتخذوا دونَ الله وَليجةً إلى ضَلالتهم » .

وأشار المأمون فى رسالته إلى إسحاق عامل بغداد إلى نقائص كلّ شيخ من هؤلاء الذين يدعون السير على طريق السُّنة ، والأخذ بمنهج الحديث والأثر ، واتباع السَّلَف ، مُتَّهِماً إياهم بالتكالب على الدنيا والتَّعصّب لا اقتناعاً ، بل ابتغاء جاه ومكانة عند العَوام ، أو أن يروّجوا لأنفسهم للرياسة كما جاء على لسانه[1] .

---

(١) راجع محاضرات الشيخ الخضرى عن العصر العباسى ص ٢٣٥ — ٢٤١ .

ويقول الخضرى[1] : « إن الذين تهادنوا مع المأمون فى مسألة خلق القرآن أهمل المحدّثون أمرهم وأنزلوا رتبتهم، وعدُّوا ذلك عيباً من عيوبهم. وقد كاد شيخُ المحدّثين البخارى يصيبُه أثرٌ من آثار هذه النكبة ، فإنّ فريقاً من العلماءِ رأى أن يفصل بين لفظ القرآن ومعناه ، فكان يقول : لفظ القرآن مخلوقٌ ومعناه قديم . وكانَ البخاريُّ ممن يقول بذلك ، فاضطهده محمد بن يحيى الذُّهليُّ إمام المحدِّثين بنيسابور حتى خرج البخاريُّ منها خوفاً من العامة أن تبطشَ به » .

وأوصى المأمون أخاه المعتصم بالتشدد فى مسألة خلق القرآن وأخذ العلماء بالقول به ، فسار على رأى سلفه . وكذلك فعل الواثق ، وسلك مسلك والده وعمه من القول بالعدل[2] أى برأى المعتزلة .

ويُذكر أن العامة فى بغداد ثاروا أيام الواثق بتحريض من بعض شيوخ السُّنة لقوله بخلق القرآن ، وتجمع العامة يضربون طبولهم للوثوب ، ولكنهم قُبضُوا ، وأودعوا السّجنَ وذهبت حركتهم سُدًى . وقتل الواثق زعيمهم وصلبه ، وعلق عليه ورقة تقول : « هذا رأسُ الكافرِ المشرك الضَّالِّ فلان ممن قتله الله على يدى عبد الله هارون الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين بعد أن أقام عليه الحجة فى خلق القرآن ، ونفى التشبيه » .

وكان من جلة العلماء ممن يروْن رأى أهل السنة والمحدثين ، وكانوا يدارون فى عهد الواثق أحمد بن أبى دؤاد . وكان يعادى محمدَ بن عبد الملك الزيات لهذا الخلاف المذهبى والفكرى . لأن ابن الزيات كان يقول بالعدل ، ويعتقد آراء المعتزلة ، ويوافق الواثق فى قضية خلق القرآن ويناظر من يقولون بعكس ذلك ويقيم عليهم الحجة . فكان ابن أبى دؤاد يحقد عليه لرأيه ومكانته من الخليفة .

وقد تفرع عن المعتزلة الجهمية ، وهم أتباع جهم بن صفوان ، رجُلٌ قام فى خراسان أواخر عهد الأمويين ، وادعى دعوته هناك ، ولم يلبث أن قتل .

ومن أقوال جهم أن الإيمان هو المعرفة بالله فقط ، والكفر الجهل بالله فقط وأنه لا فعل لأحَدٍ فى الحقيقة إلا لله وحده ، وأنه هو الفاعلُ ، وأن الناس إنما

---

(١) المحاضرات ص ٢٤١ .

(٢) مروج الذهب ٤ /٧٥ .

تنسبُ إليهم أفعالهم على المجاز . قيل وكان جهم ينتحل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وهو يختلف مع المعتزلة فى هذا القول بالجبر .

وحاول أهل السنة من العلماء بعد أن تحوَّل الخلفاء فى عهد المتوكل عن القول بآراء المعتزلة أن يقفوا من المعتزلة موقف هؤلاء منهم أيام المأمون والمعتصم والواثق ، وأن يتعقبوهم بالقتل والحبْس والتصفية ، وأظهر شاهد على ذلك ما فعله أحمد بن أبى دؤاد من تحريض للمتوكل على ابن الزيات حتى أمر بوضعه فى التنور حتى مات معذَّباً ، وكاد أنْ يلْحق به صديقه الجاحظ لولا أن هرب من بغداد ، وسئل عن سبب هروبه ، فقال خفت أن أكون ثانى اثنين إذ هما فى التّنور . ثم عاد فتقدم إلى ابن أبى دؤاد طالباً العفو فعفا عنه ، وأبقى على حياته لأدبه ، وقوة عارضته ، وربما عَدل الجاحظ فى بعض آرائه المتشددة فى الاعتزال أو خفف منها حتى يعايش الاتجاه الجديد ، وأظنُّ ذلك كان واضحاً فى بعض كتبه المتأخرة كالبيان والتبيين . وفى رسالته العثمانية حتى ظنَّ الناس أنه عثمانى .

وكان بعض الشعراء المعاصرين للمأمون والمعتصم كالعّتابى ، وكان قد بلغ من السنّ مبلغه من المعتزلة ، وكثيرا ما سخر من المحدّثين .

وعلى أية حال فإن قضيَّة « خلق القرآن » بلورت الخلاف بين الاتجاهين المتعارضين فى الفكر الإسلامى ، وأخذت شكلاً حاداً من الجانبين ، وتعَدَّتْ حدودَ الجدل والمناظرة والحوار إلى ألوان من القهر والمواجهة ، والتصفية الجسدية مما أضرَّ بالقضية نفسها ، وتوجهاتها الفكرية ، مما عاد على الفكر الإسلامى بردود فعلٍ سلبية ، وأوقعته فى دوامة من الصراع حتى انتهى به الأمر إلى هذا التراجع والارتداد الذى شهدته العصور التالية ، والتى غربت فيها شمس الفكر فى ظلام الجهالة والتقليد .

ومع هذا الموقف المأساوى الذى انتهى إليه الصراع المذهبى بين المعتزلة وأهل السنة والمحدّثين فقد أفاد العلمُ فوائد جمَّةً بظهور حصيلة قيمة من كتب الجانبين لأئمتهم تدفع بحججهم وتبطل حجج الآخرين . وعلى رأس الأدباء العلماء الذين كان لهم جهدٌ ، وكتب عظيمة أثرت فى أجيال المفكرين

والمتأدبين من المسلمين الجاحظ ممثلاً للمعتزلة ، وابن قتيبة عن أصحاب الحديث وأهل السّنة . وسيأتى الحديث عنهما وعن كتبهما بعد .

ولا بأس هنا من أن نشير إلى جماعة من قادة الفكر فى الجانبين ، فمن المعتزلة كان واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ، والنظّام ، وبشر بن المعتمر ، وثمامة بن أشرس ، وأبو الهذيل العلاّف ومحمد بن عبد الملك الزيات .

وكان محمد بن الهذيل أبو الهُذَيْل العلاف (ت سنة ٢٢٧ هـ) من أئمة المعتزلة بالبصرة زمن الرشيدوالمأمون، وجاء إلى بغداد أيام الرشيد ، وجالس يحيى بن خالد البرمكى ، وكذلك فعل زميله النظام وكان أبو الهذيل يذهب إلى نفى التجسيم والتشبيه ، وعارض المجسمة والمشبهة ، ومنهم هشام بن الحكم الكوفى .

وشاركه فى معارضة التشبيه والتجسيم عالم السنة القاضى ابن قتيبة فردَّ كثيراً من ضعيف الأحاديث مما يتجلّى فيه التجسيم والتشبيه فى كتابه تأويل مختلف الحديث . كما خصَّ بالردّ على الجهمية والمشبهة كتاباً بهذا الاسم .

ومن أئمة أهل المذاهب فى العصر الإمام الشافعى أبو عبد الله بن إدريس (ت سنة ٢٠٤ هـ) بمصر فى عصر المأمون وكانت سنه أربعاً وخمسين سنة . كذلك كان الإمام أحمد بن حنبل (ت سنة ٢٤١ هـ) ، وله دور مشهور وموقف صلبٌ حبس لأجله وعذب فى محنة خلق القرآن .

وممن ذكرنا من علماء السنة كذلك يحيى بن أكثم بن عمرو بن أبى رباح ، وكان من أهل خراسان من مدينة مرو ، وأصله تميمى ، جالس المأمون زمنا ثم غضب عليه كما قلنا سنة ٢١٥ وهما بمصر ، فانهضه إلى العراق وكان قد كتب الحديث وتفقه لبعض علماء البصرة . وحدثت بينه وأحمد بن أبى دؤاد مناظرات[1] .

وواكب القرنين الثانى والثالث جماعة من العلماء فى علوم القرآن والتفسير والحديث منهم أبو عمرو بن العلاء ، والحسن البصرى ، وأنس بن مالك ،

---

(١) راجع مروج الذهب ٤ /٢٧ .

وقتادة بن دعامة ، ومحمد بن سيرين ، والقاضى إياس بن معاوية ، ويونس بن عبيد ، وحمد بن زيد .

وجلّهم من البصرة . وبلغ عدد المحدثين بها عدداً كبيراً كما ذكر ابن سعد فى طبقاته وكان للتشيع مكانة فى بعض فترات العصر ، ومدة خلافة بعض الخلفاء ممن تعاطفوا معهم ، أو تساهلوا . وتقلصت تلك المكانة فى عهد المتشددين ممن انتصروا لمذهب أهل السنة ، وتعصبوا للعباسية .

وكان المأمون ممن تساهل مع الشيعة وسمح لعلمائهم بالحديث ولشعرائهم بالقول مصرحين بآرائهم ومواقفهم العقدية والسياسية . كذلك كان المعتصم والواثق . وأما المنصور والأمين والمتوكل فكانوا من المتشددين ضد الشيعة . وكان أكثرهم تشدُّداً المتوكل الذى تعقبهم بالقتل والتشريد ، وهدم قبر الحسين ، ونبشه . وكان كثير من عوام بغداد ضد الشيعة تأثراً بالسنة واتباع ابن حنبل .

ومن أشهر شعراء الشيعة دعبل بن على الخزاعى .

وعرف فى العصر اتجاه الزُّهد ، ونشأ فى البصرة بعض الزهاد والنسّاك مثل عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء ، ومالك بن دينار . وكان مالك من عباد البصرة المتحنثين ، لم يتزوج ، وظل حياته عزوفا عن النساء . وكان كثير الحزن . يقول : إذا لم يكن فى القلب حزنٌ خرب ، كما إذا لم يكن فى البيت ساكنٌ خرب » .

وربما اطلع مالك على التوراة ، والإنجيل ، أو تأثر بما جاء فيهما فى سلوكه ومواعظه إضافة إلى كتاب الله القرآن الكريم ، كما يبدو أنه خالط بعض رهبان النصارى وتأثر بأقوالهم .

ولم يكن الزهد فى هذا العصر مجرد انصراف عن نعيم الحياة وملاذها ، بل كانت وراءه نزعات فكرية ومواقف عقيدية . وقد أشار بروكلمان إلى أنه بجانب التقوى الدينية التقليدية التى عرفها قدامى المسلمين « نشأ تحت ضغط المشاكل السياسية والاجتماعية للقرنين الأولين للهجرة اتجاه فكرى ، كان يبحث عن طريق دراسة متعمقة للقرآن عن علاقة شخصية بالله »[1] .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية . الجزء الرابع . طبع دار المعارف ص ٥٤ .

ومن هنا اتجه الزهد إلى التصوف بمعناه المعروف . وقد تدعّم هذا الاتجاه فى الكوفة أولاً لأنهم أى الزهاد كانوا يظهرون زهدهم فى الحياة بارتداء لباس أبيض من الصوف وربما رمز بعضهم بهذا اللباس إلى معارضتهم للعباسية باتخاذهم السواد فى أول الأمر ، ثم صار عادة ومظهر الزّهاد بعد ذلك حتى إن أبا العتاهية الشاعر اتخذ هذا اللباس بعد أن تزهد .

ويرى بروكلمن كغيره من المستشرقين أن التصوف فى هذا العصر وخاصة فى القرن الثالث لم يكن بمنأى تماماً عن التأثيرات الأجنبية ، وخاصة بنصارى السريان الذين انتشرت كنائسهم ودياراتهم فى تلك البيئة كما عرفنا .

ومن شعراء الزهد محمود الوراق ، وأبو العتاهية على ما سنرى بعدُ فى حديثنا عن الشعراء .

ويعارض هذا الاتجاه فى مظهره ، اتجاه المتمسكين بمذهب السلف فى مضمونه ، أو إذا أحببنا القول اتجاه الأصوليين عامة والمتشددين فى الدين بما فيهم بعض المتكلمين والمعتزلة . ويعارضه اتجاه الزنادقة والمتأثرين ببعض ما جاء فى الديانات الفارسية .

وكانت الحيرة الدينية قد لزمت بعض العلماء والمفكرين ، ومن شابت العقيدة الاسلامية عندهم شوائب من ديانات الفرس ، والبراهمة الهنود وبعض الفلسفات .

وقد انتشرت فى البصرة على وجه الخصوص آراء أصحاب الديانات الثنوية ممن يرون بوجود إلهين إله للنور وآخر للظلمة ، أو من يعتقدون بآراء زرادشت ومزدك ومانى وبعض الدهر يين من الفلاسفة .

ويقول الخضرى[1] : « والزندقة على ما يظن كانت عندهم عنواناً على ترك الدين والمجازفة فى التعبير عنه » .

وذكر الطبرى أن ممن قتل المهدى للزندقة بشار بن برد ، وصالح بن عبد القدوس ، وممن قتله الهادى برذان بن باذان الكاتب . وقد أخذ عليه قوله عندما

(١) محاضرات فى التاريخ .

رأى الناس يطوفون بالكعبة مهرولين : ما أشبههم إلا بالبقر يدوسون في البَيْدَر ــ الجرن .

ويروى أن المهدى اعتبر المانوية وعقائدها زندقة إذ نصح الهادى بتعقب أصحاب مانى لأنهم يدعون الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ، ثم يخرجوهم إلى تحريم اللحم ومسّ الماء الطَّهور ، وترك قتل الهوام تحرُّجاً وتحوُّباً ثم يخرجوهم من هذه إلى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم يبيحون بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول قال المهدى : فإذا صادفك أحدهم فارفع فيه الخشب ، وجرد فيه السيف ، وتقرب بأمره إلى الله لا شريك له .

ونقل عن ثمامة بن أشرس أنه قال : بلغ المأمون خبر عشرة من الزنادقة ممن يذهب إلى قول مانى ، ويقول بالنور والظلمة من أهل البصرة ، فأمر بحملهم إليه بعد أن سُمُّوا واحداً واحداً . وجعل المأمون يسألهم فى عقيدتهم ويعرض عليهم صورة مانى ، ويختبرهم بأن يأمرهم بأن يتفلوا عليها ويتبرءوا منه ، وبأن يأمرهم بذبح طائر ماء وهو الدرّاج فمن أجابه إلى ذلك نجا ومن تخلف عنه قتله .

وقيل إن المانوية مزجت بين ديانة زرادشت والمسيحية ، ولذلك فهم لا ينكرون المسيح ، ولا يطعنون فيه ، وقد جاء ذلك على لسان الجاحظ فى تقده لهجاء أبان عبد الحميد وإتهامه بالمانوية .

وإذا فقد كانت الزندقة يوماً ما مرادفةً للمانوية ، وإن توسَّع فيها بعضهم وعمُّوا بها كلَّ الديانات الفارسية القديمة والدهرية والهندية .

وأشهر من ألصقت به عقيدة الزندقة عبد الله بن المقفع الكاتب ، وأبان ابن عبد الحميد ، وصالح بن عبد القدوس ، وحماد عجرد وبشار من الشعراء .

وذكر أن ابن المقفع ترجَمَ بعض كتب الزندقة ككتاب مزدك ، وبعض كتب المانوية . ونقل ابن خلكان أن الخليفة ــ لعله المنصور ــ قال : ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع[1] .

---

(١) راجع كتاب « التيارات المذهبية » للدكتور أحمد الحوفى طبع الدار القومية .

كما ترجم أبان كتاب مزدك وكتاباً لوذا .

وكان من المشهورين بالخروج والمعارضين للاسلام وكتابه الكريم ابن الراوندى أبو الحسن أحمد بن يحيى بن إسحاق (ت سنة ٢٠٥ هـ) . فقد قيل إنه صنف مائة وأربعة عشر كتاباً فى الزندقة وتوفى فى عصر المأمون وعمره نحو أربعين سنة .

وقد كان لهذه الاتجاهات الخارجة على الأصول الدينية الإسلامية الثابتة آثارها فى آداب العصر ؛ شعره ونثره سلباً أو إيجاباً . فقد تناقلتها الكتب وعرضت للآراء والرجال بالشرح والرد والتعقيب والتجريح ، كما ظهرت آثارها فى الشعر بأنماط ودرجات متباينة .

وقد أثرى النشاط الثقافى والعلمى زيادة على هذا التعدد المذهبى والتوجه الفكرى ما نقل من الكتب عن الأمم المختلفة من فرس ويونان وهنود. واشهر النقلة والمترجمين سرجيس بن إلياس الرومى ، ويحيى أو يوحنا البطريق وإسحاق بن حنين ، ومتى بن يونس ، وثابت بن قرة الحرانى ، ويعقوب الكندى .

وكانت الهلينية أو الثقافة اليونانية قد استقرت فى بعض المراكز بفارس والعراق وسوريا، فى حند يسابور وحرّان وأنطاكية .

وكثرت الترجمة وازدهرت فى عصر المأمون لا هتمامه بالثقافات الأجنبية وضرورة نقل علوم الأمم الأخرى ، وبخاصة علم اليونان ، وترجمت فى عصره والعصور التالية عشرات بل مئات الكتب مما أفادت منها الثقافة الإسلامية ، واثمرت ثمرات يانعات فى تقدم العلوم العقلية والطبيعية والهندسية والفلك والرياضيات بل وساعدت كثيراً فى تطور وازدهار العلوم الشرعية بتوسيع الرؤية ، وإنارة البصيرة .

ولعب علم التاريخ دوراً هاماً فى تزويد العقل العربى الإسلامى بزاد ثرّ ومثمر فى التعرف على الأمم السابقة من فرس ويونان ورومان ومصريين وعرب قدماء . مما ساعد على فهم وتفسير كثير من قصص القرآن ، وأخبار الأمم الغابرة فيه وأحوال الأنبياء ، واستخراج العبر والمواعظ مما أصاب الأمم السابقة

من علوّ وانحدار ، وما جرى للأنبياء والرسل والصالحين والمصلحين من مواقف وما نقل عنهم من أقوال .

وكان تاريخ السيرة أو سيرة النبى ﷺ فى مقدمة ما ألف فى هذا العلم ، وجمع ابن اسحاق سفراً كبيراً ، ضمنه كثيراً من الحقائق إلى بعض المرويات التى وقف أمامها العلماء موقف الانتقاد والتقويم ، كفعل محمد بن سلام الجمحى وغيره . وهذبها ابن هشام .

وتنوعت كتب التاريخ بما يدور حول سير بعض الشخصيات الهامة ، وما يتصل بتاريخ المدن ، وتاريخ الأمم ، والتاريخ العام ، واشتهر من المؤرخين ابن الكلبى وأبو عبيدة ، والزبير بن بكار ، والمدائنى .
كذلك كان علم الجغرافيا أو البلدان .

ومن العلوم التى ظهرت آثارها وبدأت تأخذ مكانها فى الفكر الاسلامى علم الفسلفة على يد فيلسوف العرب ، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندى الذى عاصر المأمون ببغداد ويعد واحداً من أكبر المفكرين والحكماء . وترجم للمأمون والمعتصم عدة كتب عن اليونانية . واتصل بالمعتزلة فاضطهد أيام المتوكل وتوفى بعد سنة ٢٥٦ هـ .

اللغة والأدب :

استوجبت معرفة تفسير القرآن ، وتفهم معانيه معرفة اللغة ، وبخاصة ممن دخلوا الاسلام من الشعوب غير العربية واستعربوا . من هنا أقبل الفرس وغيرهم على تعلم اللغة العربية .

وكان الاهتمام بلغة القرآن دافعاً إلى الحفاظ على اللغة العربية فى صورتها التى نزل بها الكتاب الكريم ، ونهض العلماء إلى جمع اللغة وتنقيتها أو تحرى صحتها وفصاحتها عن طريق الرحلة إلى مواطنها المعزولة فى بادية العرب ولدى القبائل المعروفة بفصاحتها .

وهكذا جمع العلماء محصولاً لغوياً لم يخل من خلط وانتحال ، احتاج إلى كثير من الجهد لغربلته وتخليصه من الشوائب .

وبدأت حركة التأليف اللغوى للنهوض بهذا الدور فوجدت مجموعات لغوية تدور حول موضوعات بعينها ، ثم انتهت إلى بدايات تأليف المعاجم التى تتقصى المعانى والدلالات للألفاظ . وكان من أولها كتاب العين المنسوب للخليل بن أحمد الفراهيدى .

وزامن هذا الاهتمام بجمع لغة القرآن أو اللغة الفصحى تفشى لغاتِ بعض الأمم كالنبط والفرس والروم والقبط فى لغات الناس ، وتداخلت مع لغة الكلام ألفاظ غريبة غير عربية الأصول ، وكثر عدد هذه المفردات الأعجمية فى لغة الحديث اليومى ، وتسللت إلى لغة الكتاب والأدباء ولغة الشعر والشعراء .

ولم يكن هذا الت[illegible]ل الجديد فى مفردات الألفاظ ومعانيها وحدها ، بل تعداها إلى التراكيب والإعراب ، فتفشى اللحن ، واضطراب التراكيب . وظهرت آثار هذا كله فى أساليب بعض الكتاب والمؤلفين ، وأساليب الشعراء المحدثين والمولدين منهم خاصة .

وبدأت دراسات ضبط الإعراب ، وتقويم التراكيب والأساليب بنشأة علم النحو .

ويلخص ابن خلدون أثر القرآن فى نشأة النحو بقوله[1] : فلما جاء

(١) المقدمة . طبعة عبد الرحمن محمد ص ٥٠٢ .

الإسلام وفارق العرب الحجاز لطلب الملك الذى كان فى أيدى الأمم والدول ، وخالطوا العجم تغيرت الملكة بما ألقى إليها السَّمْعُ من المخالفات التى للمستغربين ، والسمع أبو الملكات اللسانية فقدت بما ألقى إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع ، وخشى أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً ويطول بها العهد فينغلق القرآن والحديث على المفهوم ، فاستنبطوا مجارى كلامهم قوانين لتلك الملكة » .

وظهرت فى النحو مدرستان تنتميان إلى المدينتين الكبيرتين البصرة والكوفة إحداهما هى مدرسة أو مذهب البصريين ويقوم على القياس ويعتمد المنطق فى أحكام القياس ، وعلى رأسه سيبويه ، والآخر مذهب الكوفيى ويقوم على السماع والتسليم بما ينطق به العرب ما دام صحيًحا حتى ولو لم يخضع للقياس وعلى رأسهم الكسائى .

وبعد انتقال كثير من علماء المذهبين أو المدرستين إلى بغداد نشأ اتجاه ثالث توفيقى عماده الأخذ بكل من الجانبين وعرف بمذهب البغداديين .

ولا شكَّ أن هذا النشاط اللغوى أثَّر فى اتجاهات أخرى ، كاتجاه جمع الشعر القديم للاستشهاد به أو للتأديب وتقويم اللسان ، وقد كان بعض العلماء ينصحون الشعراء المولدين بحفظ كثير من الشعر ، ومنه ما عرف عن نصح خلف الأحمر لتلميذه أبى نواس الحسن بن هانىء بحفظ الشعر القديم ونسيانه ومحاولة بناء شعر على نسقه . كذلك ما روى واشتهر عن بشار بن برد من حفظ آلاف الأبيات ، وافتخاره بذلك حَتَى قوى أداؤه وبلغ ما بلغه من متانة الأسلوب وقوة التعبير .

وحرص بعض رواد الأدب واللغة على جمع كثير من النماذج الممتازة وعرضها وبيان جوانبها اللغوية والبيانية فيما ألفوه من الكتب المعنية بهذا الجانب والتى اعتبرت من بعد من عدة الأديب كالبيان والتبيين ، وعيون الأخبار وأدب الكتاب ، والكامل .

كما جمعت مختارات من شعر القدماء والمحدثين ليقف عليها الناشئة فى الأدب والشعر ويتأدبوا بها ، وليأخذوا بما فيها من المعانى والحكم وصنعة الكلام .

ومن هذه المجموعات : المفضليات ، والأصمعيات ، وحماسة أبى تمام ، وحماسة البحترى .

ويضاف إليها جمهرة القرشى ، والنوادر لأبى زيد والأمالى لأبى على القالى فيما بعد .

الباب الثاني
الكتابة
ومشاهير الكتاب

الفصل الأول

الكتابـــــة

عرفت الكتابة من قديم عند العرب ، فقد كان للرسول كتابه ، وعلى أيديهم تمت رسائله ﷺ إلى الملوك ، وكذلك كان للصحابة رضوان الله عليهم كتابهم وهلمّ جراً . ولم تعرف الكتابة التأليفية إلا فى عصر التدوين وأخريات القرن الأول .

وكما أن كتابة الرسائل ظلت ارتجالية حتى وضع لها إبراهيم الكاتب آخر العصر الأموى فى بداية القرن الثانى أصولها ودستورها فى رسالته المشهورة إلى الكتاب .

وفى هذا القرن الثانى فى أخرياته كتب بشر بن المعتمد صحيفته التى أوردها الجاحظ . ووجهها إلى الكتاب . يقول فيها[1] :

« خذ من نفسك ساعة نشاطِك وفراغ بالِك ، واجابتها إياك ، فإن قليل تلك الساعة اكرم جوهراً ، وأشرفُ حسناً ، وأحسن فى الأسماع ، وأحلى فى الصدور . وأسلمُ من فاحش الخطأ ، وأجلبُ لكلّ عَينٍ وغُرّة ، من لفظ شريف ، ومعنًى بديع . وأعلم أن ذلك أجدَى عليك مما يعطيك يومُك الأطولُ بالكدّ والمطاولةِ ، والمجاهدة ، وبالتكلُّف والمعَاوَدةِ . ومهما أخطأك لم يُخطئك أن يكون مقبولاً قَصداً ، وخفيفاً على اللسانَ سهلاً . وكما خرجَ من يُنبوعه ، ونجم من معدنِه . وإيّاك والتّوعُّر ، فإنّ التوّعُّر يسْلِمُكَ إلى التعقيد ، والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك ، ويشينُ ألفاظك . ومنن أراغَ معنًى كريماً ، فليلتمس له لفظاً كريماً ، فإنّ حق المعنى الشريف اللفظُ الشريف . ومن حقهما أن تصونهما عمّا يفسدهما ويُهجّنُهما » .

ويقول : « فكن فى ثلاث منازل ، فإن أُولى الثلاث أن يكون لفظُك رشيقاً عَذْباً ، وفخماً سهلاً ، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً ، وقريباً معروفا ؛ إما عند الخاصة إن كنتَ للخاصة قصدت ، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت .

والمعنى ليس يَشرفُ بأن يكون من مَعانى الخاصة ، وكذلك ليس يَّتضِعُ بأن يكون من معانى العامة ؛ وإنما مدار الشرف على الصواب واحراز المنفعةِ ، مع

(١) البيان والتبيين ١ /١٧٥ .

موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال . وكذلك اللفظ العاميُّ والخاصيّ . وإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك ، وبلاغة قلمك ، ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك إلى أن تُفْهِمَ العامةَ معاني الخاصة ، وتكسُوَها الألفاظَ الواسطة التى لا تلطُف على الدهماء ، ولا تجفُو عن الأكفاء فأنت البليغ التام » .

ثم يتحدث عن المنزلتين الثانية والثالثة ، وهما إعادة المحاولة إذا لم يجد الكاتب نفسه مهيأ لأن يأتى بما هو مناسب . فإذا فشل كانت الثالثة وهى ترك هذا الأمر لأنه يكون عندئذ غير مهىء له .

ويقول : « ينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى ، ويوازنَ بينها وبين أقدار المستمعين ، وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكلّ طبقة من ذلك كلاماً ، ولكل حالة من ذلك مقاما ، حتى يقسِّمَ أقدار المعانى على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات ، فإن كان الخطيبُ متكلّما تجنّب ألفاظ المتكلمين ، كما إنه إن عزَ عن شيءٍ من صناعة الكلام ، واصفاً أو مجيباً أو سائلاً ، كانَ أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين ، إذ كانوا لتلك العبارات أفهم ، وإلى تلك الألفاظ أميل وإليها أحنُّ وبها أشغف ، ولأن كبار المتكلمين ورؤساء التطارين كانوا فوق أكثر الخطباءِ وأبلغ من كثير من البلغاء ، وهمن تخيَّروا تلك الألفاظ لتلك المعانى ، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماءَ ، وهم اصطلحوا على تسميةِ ما لم يكن له فى لغة العرب اسم ، فصاروا فى ذلك سلفاً لكلّ خلف ، وقدوةً لكل تابع . ولذلك قالوا : الوصف والجوهر ، وأيس وليس . وفرّقوا بين البُطلان والتلاشى ، وذكروا الهُذَيَّة والهُوَيَّة . وأشباه ذلك .

وكما وضع الخليل بن أحمد لأوزان القصيد وقصارِ الأرجازِ ألقاباً لم تكن العربُ تتعارف تلك الأعاريض بتلك الألقاب ، وتلك الأوزانَ بتلك الأسماء وكما ذكر الطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل ، وأشباه ذلك ، وكما ذكر الأسبابَ والأوتادَ ، والخزم والزحاف . وقد ذكرتْ العربُ فى أشعارها السِّنادَ والإقواءَ والإكفاءَ ... وكما سمَّى النحويون فذكروا الحال والظروف ، وما أشبه ذلك . لأنهم لو لم يضعوا هذه العلامات لم يستطيعوا تعريف القرويين وأبناء البلدين علم العروض والنحو . وكذلك أصحاب الحساب » .

هذا جزء أجملناه من رسالة بشر تعبّر عما أراد توجيه ناشئة الخطباء

والكتاب من الأخذ بأسباب البلاغة من الاستعداد والتهيؤ وامتلاك أدوات التعبير والعدل بين المعانى والألفاظ ، ومراعاة ظروف كل خطاب ومن يوجه إليه من المخاطبين حتى يستطيع أن يُفهم وأن يُبلغ من أراد من الخطاب . ومعلوم أن بشراً يضع فى اعتباره ناشئة الخطباء والكتاب من دعاة المعتزلة والآخذين بأسباب البيان منهم . وفى الرسالة عناصر كثيرة مما أخذ به الكتاب فى العَصْر ، وراعوه فيما دبّجوا من القول .

وذكر ما ينبغى أن يتوفر فى الخذاب بالكتاب أو الرسالة من مراعاة للموضوع والمتلقى من حيث المعانى والألفاظ بحيث تتناسب ، وتتلاءم ولا تشذ فتخرج عن المقصود ، ولا تم البلاغ أو الإيصال للمتلقى من سامع أو قارىء .

ومن تمام هذا التناسب مراعاة المقام ، وقد وسّع دائرته ، فلم يجعلها مناسبة القول ، ولا الموضوع ، بل راعى مستوى السامع والقارىء أو المتلقى بحيث يسهل فهم ما يوجه إليه من الخطاب .

وأشار إلى ما نجم من جديد اللفظ ومصطلح اللغة من دخول بعض الثقافات الوافدة ، وظهور لغة لكل جماعة من حملة تلك العلوم من المتكلمين . ولم ير شرف المعنى ولا شرف اللفظ قاصرين على الفهم التقليدى لهذين التعبيرين ، بل رآه فى حسن السياق ، والوضوح وسهولة التبليغ أو الدلالة .

ولم ير مانعاً من استخدام بعض ألفاظ البلديين والعوام ما دامت تؤدى المعنى المراد بحيث يسهل الفهم ، ويتيسر البلاغ . كما أنه رأى وجوب استخدام المصطلح المتعارف عليه فى كل علم للغرض نفسه .

ومعلوم أن كثيرا من الكتاب فى العصر أولعوا بهذا المصطلح الناجم فى اللغة لغة الخطاب والحديث أو لغة الكتابة . وقد أخذ عليهم العلماء التقليديون هذا الاتجاه الذى اعتبروه ضعفاً وتساهلاً فى اللغة ، وانحرافاً عن الفصحى ولغة القرآن .

وبمراجعة مقدمة أدب الكتاب لابن قتيبة نجده يحمل حملةً قوية على هذا الاتجاه من بعض الكتاب إلى الأخذ بالعلوم الوافدة من المنطق والفلسفة واستخدام مصطلحاتها والتباهى بها فى كتاباتهم للإدلال بثقافتهم ومعرفتهم لتلك العلوم وتهاونهم فى مقابل ذلك باللغة الفصحى لغة القرآن الكريم والحديث

الشريف ونزك استخدامهم لآى القرآن والحديث ، والتشدق بأقوال الحكماء والمناطقة .

هذان نمطان إذاً من الكتابة يكشف عنهما هذان العالمان الجليلان ، وقد عرضنا لرسالة بشر ، ونمثل لكلام ابن قتيبة من مقدمة أدب الكاتب أو أدب الكتاب كما يسمى أحيانا .

يقول : « فأبعد غايات كاتبنا فى كتابته أن يكون حسن الخط ، نوع الحروف . وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتا فى مدح قينة أو وصف كأس ، وأرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئاً من تقويم الكواكب وينظر فى شيء من الفلسفة وجدّ المنطق ، ثم يعترض على كتاب الله بالطّعن ، وهو لا يعرف معناه ، وعلى حديث رسول الله ﷺ بالتكذيب ، وهو لا يدرى من نقله . قد رَضِىَ عوضاً عن الله ومما عنده بأن يقال فلانٌ لطيف ، وفلانٌ دقيق النظر . يذهب إلى أن لطف النظر قد أخرجه من جملة الناس ، وبلغ به علم ما جهلوه ، فهو يدعوهم الرّعاع ، والغثاء ، والغثر ، وهو لعمر الله بهذه الصفات أولى وهى به أليق ، لأنه جهل وظنّ أن قد علم ، فهاتان جهالتان ..

.. ولو أن هذا المعجب بنفسه الزارى على الاسلام برأيه نظر من جهة النظر لأحياهُ الله بنور الهُدى وبُلَج اليقين ، ولكنه طال عليه أن ينظر فى علم الكتاب ، وفى أخبار الرسول ﷺ ، وصحابته ، وفى علوم العرب ولغاتها وآدابها ، فنصب لذلك وعاداه ، وانحرف عنه إلى علم قد سلمه له ولأمثاله المسلمون ، وقل فيه المناظرون ، له ترجمةٌ تروق بلا معنى ، واسم يهول بلا جسم ، فإذا سمع [illegible]مر والحدث الغرُّ قوله الكون والفساد ، وسمع الكيان والأسماء المفردة ، والكيفية والكمية ، والزمان والدليل ، والأخبار المؤلفة ، راعه ما سمع ، وظن أن تحت هذه الألقاب كلّ فائدة ، فإذا طالها لم يخرج منها بطائل ، إنما هو الجوهر يقوم بنفسه والعرض لا يقوم بنفسه ، ورأس الخطُّ النقطة ، والنقطة لا تنقسم .. ويقول : ولو ان مؤلف حدا المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام فى الدين والفقه والفرائض والنحو لعدّ نفسه من البكم ، أو يسمع كلام رسول الله ﷺ وصحابته لأيقن أن للعرب الحكمة وفصل الخطاب .

وبعد هذه النظرة المتعالية ، والسخرية من الثقافات الوافدة شأن كثيرين غيره من شيوخ السلف الذين يرون أن العلم هو علمهم وكلّ علم غيره

منقوصٌ ، وأن اللغة هي لغتهم وكل لغة غيرها قاصرة — أقول بعد هذا الحديث يقول فيما يتعلق بأصول الكتابة ، ومراعاة الكاتب لمقام المكتوب إليه !

ونستحب له أيضاً أن يترك ألفاظه فى كتبه فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه ، وأن لا يعطى خسيس الناس رفيع الكلام ، ولا رفيع الناس وضيع الكلام فإنى رأيت الكتاب قد تركوا تفقُّد هذا من أنفسهم ، وخلطوا فيه » .

ويدخل إلى عرض أمثلة فى فروق بين الأساليب فى لغة العرب وهى فروق دقيقة لا يعرفها إلاَّ من تأهل فى علم العربية وعلت معرفته .

وهذان السمطان اللذان أشرنا إليهما فى الكتابة والنابعان من اتجاهين ثقافيين متعارضين إنما ينطبقان على الكتابة الانشائية خاصة ، وعلى كتّاب الرسائل الديوانية بصفة أخص .

ولم تقتصر الكتابة على الرسائل الديوانية ، بل اتسعت دائرتها لتشمل الرسائل العامة فى موضوعات متعددة .

ومن هذه الرسائل ذات الأهمية الرسائل السياسية التى تثبت حقاً أو تدافع عن مذهب كالرسالتين المتبادلتين بين أبى جعفر المنصور إلى محمد بن عبد الله النفس الزكية بالمدينة المنورة يدعوه إلى الطاعة . ويعرض فيها حق بنى العباس دون العلويين فى الخلافة :

« بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله .

أما بعدُ ، « فإنما جزاءُ الذين يُحارِبونَ اللَّهَ ورسُولَهُ ، ويَسْعَوْنَ فى الأرضِ فَسَاداً ، أنْ يُقَتَّلوُا أو يُصَلَّبوا ، أو تُقَطَّعَ أيديهم وأرْجُلُهم من خِلاَفٍ ، أو يُنْفَوا من الأرض ، ذَلِكَ لهُم خزىٌ من الدُّنْيا ، ولهُم فى الآخِرَةِ عَذابٌ عظيم ، إلاَّ الذينَ تابُوا من قبل أن تَقْدِرُوا عليهم ، فاعْلَمُوا أن اللَّه غفورٌ رحيم » .

ولك عَهْد الله وميثاقه ، وحقُّ نبيِّه محمد ﷺ ، إن تُبتَ من قبْل أن أقْدِرَ عليك أن أُؤَمِّنَك على نَفسِكَ وولَدِكِ ، وإخوتكِ ، ومن بايَعَك وجمَيعِ شِيَعتِك ، وأنْ أعْطِيَكَ مائة ألفِ ألفَ درهم ، وأن أُنزِلَكَ من البلادِ حيث شِئْت ، وأقضي لك ما شئت من الحاجَات ، وأن أطْلِق من فى سِجْنى منَ أهلِ

بيتك وشيَعتِك وأنصارك ، ثم لا أُتْبِعُ أحداً مِنكُمْ بمكروه ، فإن شئت أن تتوثق بنفسك فوجّهْ إلى من يأخذ لك من الميثاق والعهد والأمانِ ما أحبَبْتَ . والسلام » .

رسالة أبى جعفر تبدأ بالوعيد من كتاب الله لمن خرج على وليّ الأمر أو خرج على طاعة الله ، وينصب المنصور نفسه ولياً للأمر بحكم الغلبة والقهر لا بحكم البيعة الشرعية وإجماع أهل الرأى من المسلمين بدليل هذه المعارضة القوية من قطاع كبير من الأمة . والتى كان مركزها المدينة وبعض أمصار العراق وفارس والشام .

ومحمد بن عبد الله يرى أحقيته فى الأمر بحكم أن مقاومة الأمويين كانت تقوم على أساس الدعوة للعلويين ، بحكم اغتصاب معاوية لحق علىّ فى الخلافة ، وظلم الأمويين وتقتليهم لأبناء على لمطالبتهم بهذا الحق . وإنما انضم إليهم العباسيون وليسوا أصحاب حق فلما انتصروا اغتصبوا الخلافة دونهم .

والمنصور يلوّح بالوعيد ، ويُبرِقُ بالوَعْد ، ويغرى بالمال ، والعفو لعلَّ الهَوى يميل بالنفس الزكية ، والخوف من العاقبة والطمع فى الدنيا يثنيه عما نصب نفسه له من حق يعتقده .

وكان رد النفس الزكية محمد بن عبد الله :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله محمد بن عبد الله المهدىّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن محمد . أمّا بعدُ . « طسم ، تلْكَ آياتُ الكتاب المُبين نتْلُو عليكَ من نبأ مُوسَى وفرعونَ بالحقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون . إنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فى الأرْضِ وجَعَل أهْلَها شِيَعًا يَسْتَضعِفُ طائفةً مِنهم ، يُذَبِّحُ أبْناءَهُمْ ، ويَسْتَحيِى نِسَاءَهم ، إنَّه كان من المُفسِدِين ، ونُريدُ أن نَمُنَّ على الذين اسْتُضْعِفُوا فى الأرضِ ونَجعَلَهُمْ أئمةً ونجعلَهُم الوارثِين ، ونُمَكِّنَ لهم فى الأرضِ ، ونُرِىَ فِرعَوْنَ وهامانَ وجُنُودَهما مِنْهُم ما كَانوا يَحذَرُوَن » .

وأنا أعرضُ عليكَ من الأمَانِ مثل الذى أعطيتنى . وقد تعلمُ أنَّ الحقَّ حَقُّنا وأنَّكم إنما طلبتُموهُ بنا ، ونَضتُمْ فيه بشيَعتِنا ، وخبَطْتُموهُ بفضْلِنا ، وأنَّ أبانا عَلياً عليه السَّلام كانَ الوَصيَّ والإمام ، فكيفَ ورثتموهُ دوننا ونحنُ أحياء . وقد علمتَ أنه ليسَ أحدٌ من بنى هَاشِم يمتُّ بمثلِ فَضْلِنا ، ولاَيَفخَرُ بمثلِ قديمنا وحَدِيثنا ونَسبنا وسَبَبنا ، وإنَّا بنُو أُمِّ رسُولِ الله ﷺ فاطمة بنت عمرو فى

الجاهلية دونكم ، وبنو ابنته فاطمة فى الإسلامِ من بينكم ، فأنا أوسطُ بنى هاشِمَ نسبًا ، وخيرهم أُمّا وأباً . لم تلدنى العجمُ ، ولم تُعْرِقْ فىَّ أُمَّهاتُ الأولاد . وإنَّ الله تبارك وتعالى لم يَزَلْ يختارُ لنا ، فولَدني من النَّبيينَ أفضَلُهم محمد ﷺ ، ومن أصحابه أقدمهم إسْلاماً ، وأوسَعُهم عِلْماً ، وأكثرهم جهاداً عليُّ بنُ أبي طالب ، ومن نسائِهم أفضَلُهُنَّ خديجة بنتُ خُويْلد ، أوَّلُ من آمن باللّهِ وصَلَّى إلى القِبْلَة ، ومن بناتِه أفضلَهُنَّ ، وسيِّدةَ نِساءِ أهلِ الجنَّة ، ومن المولودين فى الإسلام الحسَنَ والحسُينَ ، سيِّدا شَبابِ أهلِ الجنَّة .

ثم قد عَلِمْتَ أنَّ هَاشِماً ولَدَ علياً مرَّتين ، وأن عبد المطلب ولد الحسن مرَّتين ، وأنَّ رسو الله ﷺ ولدنى مرَّتين من قِبَل جدَّىَّ الحسنِ والحسين ، فما زالَ الله يختارُ لى حتَّى اختارَنى ، فولَدنى أرفع الناسِ درَجَةً فى الجنَّة . فأنا ابن خير الأخيار ، وابن خير الأشرار ، وابن خير أهل الجنة ، وابن خير أهل النّار .

ولكَ عهدُ الله إن دخلْتَ فى بيْعَتى أن أؤَمنكَ على نَفْسكَ وَولدِك ، وكُلِّ ما أحبَتَهُ إلاّ حداً من حدودِ الله ، أوحقاً لمسْلمٍ أوَ مُعَاهد ، فقد علمتُ ما يلزَمُكَ فى ذلك ، فأنا أوفى بالعهد منك ، وأحرى لمقبول الأمان ، فأمَّا أمانُك الذى عرضْتَ علىَّ ، فأىُّ الأماناتِ هو ؟. آلأمانُ ابنِ هبيرةَ أم أمانُ عَمِّكَ عبد الله بن علىّ ، أم أمانُ أبى مسلم ؟. والسلام » .

وهذه الرسالة كما نرى تدور على محاور أساسية أولها هذا الردّ على الوعيد بالوعيد وعلى القرآن بالقرآن ،ز مع اختيار آيات من أول سورة القصص لا تخفى فيها الإشارةُ والرَّمز ، فهى آيات تشير إلى ما يضمره المرسُل وهو النَّفسُ الزكية للمتلقى وهو المنصور من اعتقاد فى مماثلته لفرعونَ الذى تحدثت عنه الآيات ، وما اجترمه من فعل لا عتصاب حقوق وتشريد قوم يؤمنونَ بالله ، وأن عاقبته ستكون كعاقبة فرعون وهى آيات تحمل النذير والوعيد .

وقد درج كثير من الكاتبين والخطباء على أن يبدأوا الكلام بمثل تلك الآيات المشيرة إلى مضمون الرسالة أو الخطبة .

وأما المحور الثانى فهو الرَّد المباشر على ما جاء من عرض الأمان ، فالنفس الزكيَّة الذى لُقبَ بالمهدىّ فى أول الرسالة يرى أنه صاحب الحق الشرعىّ ، وأنه هون أمير المؤمنين لا المنصور ، ومن هنا حُقَّ له أن يعرض الأمان على أبى جعفر .

والمحور الثالث هو اثبات أحقية الإمامة ، وهنا يتضح الفرق بين طلب الإمامة والخلافة ، حيث يتحدث عن الوصايا التى اعتبرها العلويون أمراً الهياً ليس للبشر خيار فيه . يجىء مسلسلاً من الوصىّ إلى من يختار من صلبه ، لتظل الإمامة مرتبطة بالأصل الأول وهو النبى تنتقل منه بالوصاية والنّسب أو الدّم عن طريق ابنة النبى فاطمة .

ويستغرق الحديث عن النسب والتفاخر به حيزاً كبيراً من الرّسالة ، ويركز على الأمهات وفضلهنّ ، والسبق فى الإسلام . وقد لفت هذا التفاخر بالنساء نظر المتلقى ، فركز عليه بالنقض فى الرد .

ثم يأتى المحور الرابع وهو عدم الأمان لمن أعطى الأمام المنصور ، ويؤكد بما كان من غدره بأقربائه واعمامه وانصاره وأعوانه .

ونكتفى بهاتين الرسالتين مشيرين إلى ما عرضنا من رسالة الردّ التى بعث بها المنصور فى أول حديثنا من ادعاء العباسيين الحق بالوراثة للعم ، وأنهم تحمَّلوا عبء الدعوة بعد أن فشل العلويون فى التمسك بحقهم ، وتعقبهم الأمويونو بالتقتيل والتشريد .

وظهر فى هذا العصر جماعةٌ من نَوَابه الكتَّاب الّذى كان لهم دورٌ كبير فى تدعيم الدّعوَى العّباسيّة ، وتمكين ملكهم بالكلمة البليغة ، والفكرة النيرة ، والرأى السديد . منهم من تولى الوزارة ، كيعقوب بن داود ، ويحيى بن خالد ، ومحمد بن عبد الملك الزيات ، ومنهم من تولى ديوان الحكمة كسهل بن هارون ، أو الكتابة فى ديوان الخلافة كعمرو بن مسعدة وأحمد بن يوسف ، وإبراهيم [illegible] صولى .

وتنوّعت اتجاهات أولئك الكتاب وثقافاتهم : بين الموالى من الفرس والنزل أو غيرهم ، والعرب ، وبين الأخذ بأصول الكتابة التقليدية التى عرفت أول عصر العباسين ومثلنا لها بالرسالتين المتبادلتين ، أو بادخال عناصر جديدة على الكتابة من الثقافات الوافدة والتى رأينا أبن قتيبة ينعى عليها وينعُها ، ويرى أن التمسّك بالأصول العربية التقليدية والطابع الاسلامى فى الرسائل الديوانية أمر ضرورى لأن الكاتب يكتب لخليفة المسلمين فلا يحقّ له أن يتجاوز أو يتساهل فى حق اللغة ، ولا أن يعقل الاستشهاد بكتاب الله وآياته وحديث رسول الله ، وأخبار العرب وحكمهم فى أشعارهم ، وأن يقدم ذلك على ما فى كتب الأولين من الفلاسفة والمناطقة ، ومن إليهم .

وغلب على الرسائل بصفة عامة ما عرف بالترسّل أو الاسلوب المرسل كما جعلوا للرسالة بناءً يقوم على مقدمة تحوى البسملة والتحميد ، والاستهلال بآيات من كتاب الله تنمّ عن المضمون وتوحى به ، ثم عرضٌ لموضوع الرسالة يعمد فيه الكاتب إلى ما يشاء من أدلة وحجج ، ويوازن فيه بين الوسيلة والغاية أو بين اللفظ والمعنى ، والمقال والمقام .

ثم يأتى بعد ذلك الختام ويتصرف فيه الكاتب وفي ما يراه مناسباً على أن يجسم القضية التى عرض لها ، ولا يترك مجالاً لتأويل ، ولا بقية لتساؤل . ومعلوم أن كتابة الرسائل كغيرها من رسوم الدواوين تأثرت بالفرس وتقاليدهم(١) .

وإلى جانب الرسائل الديوانية وهى لا تكون فى جملتها ابتداعاً من الكاتب بل إن موضوعها يكون مختاراً أو مملىً من الخليفة أو صاحب الشأن ويترك للكاتب حرية التعبير بما يمكنه فنه وقدراته فى حدود الموضوع .

إلى جانب هذه الرسائل وجدت الرسائل التى تتناول موضوعات بعيدة عند أمور الدولة ورسومها وادارتها وسياستها .

وقد أولى بعض الكتاب الرسميين أو الديوانيون بدلوهم فى هذا النوع الذى ينطلق فيه الكاتب على سجيته دون أن يملى عليه شيء ، فيختار هو الموضوع الذى يعنّ له ليكتب فيه .

وتكون حريَّة الكاتب فى هذا النوع من الرسائل أوفر ، وإبداعه أكثر وسنرى فى بعض رسائل سهل بن هارون ، نماذج من هذا ، كما أن للجاحظ القسط الأول فى هذا الضرب من الرسائل التى تناول فيها جوانب من مشكلات الحياة والمجتمع فى عصره ، كما ناقش بعض القضايا الفكرية فى « المعاد والمعاش » مثلاً وبعض الرسائل الأخرى المتصلة بمذهبه .

كذلك كان محمد بن عبد الملك الزيات .

هذا عن الرسائل ، وأما عن سائر أشكال الكتابة فقد وجدت كتب الأدب والتى تعرف لقضايا أدبية ، أو تجمع مجموعة من الفنون والأخبار والنوادر كالبيان والتبيين وعيون الأخبار والكامل . ومنها ما يشبه القصص الذى يدور على ألسنة الحيوان وينطق بالحكمة كما جاء فى كثير من كتب ابن المقفع ، وأبان بن عبد الحميد ، وسهل بن هارون .

(١) راجع فى ذلك ما كتبه الجهشيارى فى مقدمة كتاب الوزراء والكتاب .

سَهْل بن هارون[1]

(توفى بعد سنة ٢٠٠ هـ)

هو سهل بن هارون بن راهبون ، ويكنى أبا عمرو . من أهل ينسابور نزل البصرة ، فنسب إليها .

وكان فارسياً متعصباً لفارسيته ، شعوبياً معادياً للعرب ، متعقباً لمثالبهم . وعرف سهل بالذكاء ، وسرعة البديهة ، مع حافظةٍ تفى كثيراً وتكتنز من المعرفة وفنون الآداب والحكم ذخيرة لا تنفذ .

يقول المؤرخون إن أصله من ينسابور ، التى عرفت بتأثرها بالثقافة الهلينية وظلت مركزاً لها فى بلاد الفرس منذ فتح الإسكندر .

جمع سهل إلى الثقافة العربية ثقافة قومه الفرس ، وثقافة اليونان ، وانضم فى البصرة إلى أهل الكلام والاعتزال ، وصحبهم ، ولا زمهم كذلك ببغداد عند انتقاله إليها .

وكان أول من اتصل بهم من الرؤساء ببغداد الفضل بن سهل وزير المأمون وهو الذى قدمه للخليفة . فأعجب به وببلاغته ولَسَنِه ، وبواسع اطلاعه ومعرفته بكثير من العلوم ، ولهذا جعله خازناً على دار الحكمة التى جمع فيها كثيرا من كتب الأوائل ومن مؤلفات اليونان مما استقدمه المأمون من بلاد الروم البيزنطيين ، ومن صاحب قبرص .

قال ابن نباته : « وكان فى أول أمره خصيصاً بالفضل بن سهل ، ثم قدَّمه إلى المأمون فأُعجب ببلاغته ، وعقله ، وجعله كاتباً على خزانة الحكمة ، وهى كتب الفلاسفة التى نقلت للمأمون من جزيرة قبرس »[2] .

وروى أنه كان نهاية فى البخل ، وله نوادر تحكى فى ذلك . وألف رسالته . فى مدح البخل للفضل بن سهل ، وأهداها للحسن بن سهل . فقال له : « لقد مدحت ما ذمه الله .

---

(١) راجع ترجمته فى سرح العيون . لابن نباته ص ٢٤٢ ، طبع بيروت بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . وفوات الوفيات لابن شاكر جـ ٢ تحقيق إحسان عباس جـ ٢ .

(٢) سرح العيون ص ٢٤٢ .

وألف سهل رسائل وبعض الكتب ، قالوا وانفرد فى زمانه بالبلاغة والحكمة وأراد أن يعارض ببعض ما ألف كتب الحكماء والفلاسفة ، وصنف كتاباً فى معارضة كليلة ودمنة . وكتاباً فى سيرة المأمون حتى قيل عنه : بُزُرْجمهر الإسلام . وله النظم كذلك .

واتصل به الجاحظ ، وروى عنه وأعجب ببلاغته ، وإن عارضه فى بعض آرائه ، وألف الجاحظ كتاب البخلاء معارضاً لرسالة سهل فى العمل ومدحه .

ومن قوله فى رسالة البخل[1] :

قال الجاحظ : رسالة سهل بن هارون أبى محمد بن راهبون إلى بنى عمه من آل راهبون :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أصلح الله أمركم ، وجمعَ شملكُم ، وعلَّمكُم الخيرَ وجعلَكم من أهلِهِ . قال الأحنف بن قيس : يا معشر بنى تميم لا تُسرِعُوا إلى الفتنة ، فإن أسرعَ الناسِ إلى القتالِ أقلّهم حياءً من الفرارِ . وقد كانوا يَقُولون : إذا أردتَ أن ترى العُيوبَ جَمَّةً ، فتأمَّل عيَّاباً ، فإنه إنما يَعيبُ بفضل ما فيه من العيبِ ؛ وأولُ العيبِ أن تعيبَ ما ليسَ بعيب . وقبيحٌ أن تنهى عن مرشد ، أو تُغرِيَ بمُشفِق . وما أردنا بما قُلنا إلاَّ هدايتكم ، وتقويمكم ، وإلاَّ إصلاحَ فسادِكُمْ ، وإبقاءَ النعمةِ عليكم . ولئن أخطأنا سبيل إرشادِكم ، فما أخطأنا سبيل حُسنِ النية فيما بيننا وبينكم ..... » .

حتى يقول : « .. وعتبتموني حين ختمت على سدٍّ عظيمٍ وفيه شيءٌ ثمينٌ من فاكهة نفيسة ، ومن رطبة غريبة على عبدٍ نهمٍ . وصبيٍّ جشعٍ ، وأمَةٍ لكعَاء ، وزَوجةٍ خرقاء . وليس من أصل الأدبِ ، ولا فى ترتيب الحكمة ، ولا فى عادات القادَةِ ، ولا فى تدبيرِ السادةِ أن يستوىَ فى نفيسِ المأكولِ وغريبِ المشروبِ ، وثمينِ الملبوسِ ، وخطيرِ المركوبِ ، والناعم من كلِّ فنٍّ ، واللُّبابِ من كلِّ شكلٍ التَّابعُ والمتبوعُ ، والسّيدُ والمسودُ ، كما لا تستوى مواضِعُهم فى المجلس ، ومواقِعُ أسمائِهم فى العنواناتِ ، وما يُستقبلُونَ به من التحيَّاتِ . وكيف وهم لا يفقِدُون من ذلك ما يفقدُ القادِرُ ، ولا يكترثُونَ له اكتراثَ العارف . من شاءَ أطعم كلبَه الدَّجاج المسمَّنَ ، وأعلفَ حِمارهُ

(١) المزود :

السميسِمَ المقشَّرَ . فعِبتُموني بالختْم وقد ختم بعضُ الأئمةِ على مِزْودِ سُوَيْقٍ(١) ، وختمَ على كيسٍ فارغٍ وقال : طينُه خيرٌ من طيّه . فأمسكتم على من ختم على لا شيء ، وعبتم من ختم على شيء . وعبتموني حين قلتُ للغلام : إذا زدتَ في المَرَقِ فزدْ في الإنضاج ، لتجمعَ بين التأدُّم باللحم والمرق ، ولتجمعَ مع الارتفاقِ بالمرقِ الطيبَ . وقد قال النبي ﷺ : إذا طبخْتُمْ لحماً فزيدوا في الماءِ ، فإن لم يُصِبْ أحدُكُمْ لحماً أصابَ مَرَقًا . وعبتموني بخصف النعالِ ، وبتصْديرِ القميصِ . وحين زَعمتُ أنَّ المخصوعةَ أبقَى وأوطأُ ، وأوقَى ، وأتقَى لِلكِبْرِ ، وأشْبَهُ بالنُّسْكِ ، وأنَّ التَّرقيعَ من الحزمِ وأنَّ الاجتماعَ مع الحفظِ ، وأنَّ التفرُّقَ مع التضييعِ . وقد كان النبي ﷺ يخصِفُ نعلَهُ ، ويرقَعُ ثوبَهُ ، ويلطعُ إصبعه ، ويقولُ : لو أُتيتُ بذراعٍ لأكلْتُ ولو دُعيتُ إلى كراعٍ لأجبْتُ . ولقد لَفَّقتْ سُعدَى بنتُ إزارَ طلحةَ وهو جوادُ قُريشٍ ، وهو طلحةُ الفيَّاضُ . وكانَ في ثوبِ عُمرَ رقاعُ أدمٍ وقال : من لم يَستحِ من الحلالِ خَفَّتْ مؤنتُه ، وقَلَّ كِبرُه .

وقالوا : لا جَديدَ لمنْ لم يلبسْ الخَلَقَ . وبعث زيادٌ رجلاً يرتادُ له محدِّثا واشترط على الرائِدِ أن يكون عاقلا مُسَدَّداً ، فأتاهُ به موافقاً ، فقال : أكُنتَ ذا معرفةٍ بهِ ؟ . قال : لا ، ولا رأيتُه قبل ساعتِه . قال : أفنا قلتَهُ الكلامَ ؟ ، وفاتحْتَهُ الأمورَ قبل أن تُوصلَه إليّ ؟ قال : لا . قال فلِمَ اخترتَهُ على جميعِ من رأيتَه ؟ . قال : يومُنا يوم قائِظٌ ، ولم أزلْ أتعرَّفُ عقولَ الناسِ بطعامهم ولباسِهم في مثل هذا اليومِ ، ورأيت ثيابَ الناسِ جُدداً ، وثيابَه لَبِسًا ، فظنَنتُ به الحزمَ ، وقد علمنا أنَّ الجُددَ في موضعه دون الخَلَقِ ؛ وقد جعلَ اللهُ عزَّ وجلَّ لكلِّ شيءٍ قدرا ، وبوَّأ له موضعا ، كما جعلَ دهرٍ رجلا ، ولكلِّ مقامٍ مقالاً . وقد أحيى بالسُّمِّ وأمات بالغذاءِ . وأغصَّ بالماءِ ، وقتلَ بالدواءِ ، فترقيعُ الثوبِ يجمعُ مع الإصلاحِ التواضُعَ وخلافُ ذلك يجمعُ مع الإسرافِ التكبُّرَ . وقد زعموا أنَّ الإصلاحَ أحدُ الكسْبينِ ، كما زعموا أنَّ قلة العيالِ أحدُ اليسارينِ . وقد جبرَ الأحنفُ يدَ عنزٍ ، وأمر بذلك النعمان . وقال عمر : من أكل بَيضةً فقد أكل دجاجة . وقال رجلٌ لبعض السادة أهدى إليه دجاجة وقال : إنْ كانَ لا بُدَّ فاجعلها بيَّاضةً ، ...

والسُّويق :

وعبتمونى حين زعمتُ أن التبذيرَ إلى مالِ القمارِ ومالِ الميراثِ ، وإلى مالِ الالتقاطِ وحبَاءِ الملوكِ أسرع ، وأنّ الحفظ إلى المل المكتسب ، والغِنى المجتَلَب ، وإلى ما يُعرَض فيه لذهابِ الدِين . واهتضمام العرضِ ، ونصبِ البدنِ ، واهتمام القلبِ أسرع . وإن من لم يحسبْ ذهابَ نفقتِهِ لم يحسبْ دَخْلَه ، ومن لم يحسب الدَّخْلَ فقد أضاعَ الأصْلَ ، وإن من لم يعرفْ للغِنى قدرهُ فقد أذِنَ بالفقْر ، وطابَ نفساً بالذلّ .

وزعمْتَ أن كسبت الحلالِ مُضَمَّنٌ بالإنفاق فى الحلال ، وأن الخبيثَ ينزعُ إلى الخبيثِ وأنّ الطيِّبَ يدعو إلى الطيِّب ؛ وأنّ الإنفاقَ فى الهوَى حجابٌ دونَ الحقوق ، وأنّ الإنفاقَ في الحقوقِ حجازٌ دونَ الهوَى . فعبتُمْ عليَّ هذا القولَ ، وقد قال معاوية : لم أرَ تبذيراً قَطُّ إلاّ وإلى جانبه حقٌ مُضيَّعٌ . وقال الحسنُ : إذا أردتُمْ أن تعرفوا من أين أصابَ ماله ، فانظروا فى أىّ شيءٍ يُنفقُه ، فإنَّ الخبيثَ يُنفَقُ فى السَّرفِ » .

وقال سهل : « وقلتُ لكم عند إشفاق عليكم : إنَّ للغنِىَ سُكْراً ، وإنَّ للمالِ لَنَزوَةً فمن لم يحفظْ الغِنَى من سُكرِ الغِنَى فقد أضاعَهُ ، ومن لم يرتبط المالَ بخوف الفقر فقد أهمله فعبتمونى بذلك . وقال زيدُ بنُ حيلة : ليس أحدٌ أفقَرَ من غنىٍّ أمِنَ الفقَر . وسُكْرُ الغِنَى أشُد من سُكرِ الخمرِ .

وقُلْتُمْ : قد لزمَ الحثَّ على الحقوقِ والتزهيد فى الفُضولِ حتى صارَ يستعملُ ذلك فى أشعارِهِ بعد رسائِله ، وفى خطبِهِ بعد سائر كلامِهِ ؛ فمن ذلك قوله فى يحيى بن خالد :

عدُوٌ تلادِ المالِ فيما يَنُوبُه   مَنُوعٌ إذا مَا منْعُهُ كانَ أصوَبا

ومن ذلك قوله فى محمد بن زياد :

وخليقتانِ : تُقىً وفضْلُ تحرُّمٍ   وإهانةٌ فى حقِّه للمـــالِ

وعبتمونى حينَ زعمتُ أنىّ أقدمُ المالَ على العلم ، لأنَّ المالَ به يُغاثُ العالمُ ، وبه تقوم النفوسُ ، قبل أن تعرف فضيلةَّ العلمِ ، وأن الأصلَ أحقُ بالتفضيل من الفرع . وأنى قلتُ وإنْ كنَّا نستبينُ الأمورَ بالنُّفوسِ ، فإنَّا بالكَفايةِ نستبين ، وبالحاجَةِ نعْمَى .

وقلتم : كيف تقول هذا ، وقد قيلَ لرئيس الحكماء ومقدَّم الأدباءِ : العلماءُ أفضلُ أم اللاأغنياءُ ؟. قال : العلماءُ . قيل : فما بال العلماءِ يأتون أبواب الأغنياء ، أكثر مما يأتى الأغنياءُ أبوابَ العلماء ؟. قالَ : لمعرفةِ العلماءِ بفضل الغنى ، ولجهل الأغنياءِ بفضل العلم .

فقلت : حالُهما هى القاضية بينهما ، وكيف يستوى شىءٌ ترى حاجة الجميع إليه ، وشىءٌ يعتى بعضهم فيه عن بعض .

وعبتمونى حين قلت : فضل الغنى على القوت إنما هو فضل الآلة تكونُ فى الدار إن احتيجَ إليها استعملت ، وإن استغنى عنها كانت عُدَّةً . وقد قال الحصينُ بنُ المنذر : وَددْتُ أنَّ لى مِثْلَ أُحُدٍ ذهَبا لا أنتفعُ منه بشىءٍ . قيل : بفما ينفعُك من ذلك ؟. قال : لكثرة من يخدمنى عليه . وقال أيضاً : عليك بطلبِ الغِنَى ، فو لم يكُن لك فيه إلاَّ أنَّه عزٌّ فى قلبِكَ وشبهةٌ فى قلب غيرك ، لكان الحظُّ فيه جسيمكا ، والنفعُ فيه عظيماً . ولسنَا ندعُ سيرةَ الأنبياء وتعليم الخلفاء ، وتأديبَ الحكماء لأصحاب الأهواءِ .

كانَ رسول الله ﷺ يأمر الأغنياءَ باتخاذِ الغنم ، والفراءَ باتخاذِ الدجاج وقال : درهمُك لمعاشِكَ ، ودينُكَ لمعادِك ؛ فقسِّمُوا الأمورَ كلَّها على الدين والدنيا ، ثم اجعلوا أحد قسميّ الجميع الدرهم . وقال أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه : إنى لأبُغضُ أهل البيت ينفقون رزقَ الأيام فى اليوم . وكان هشام يقول : ضع الدرهم على الدرهم يكون مالاً .

ونهى أبو الأسود الدؤلى ــ وكان حكيماً أديباً ، وداهيةً أريبا عن جودِكم هذا المولَّد ، وعن كرمكم هذا المستحدث ، فقال لابنه : إذا بسط الله لك فى الرزق فابسطْ ، وإذا قبض فاقبضْ . ولا تجاوِزْ اللهَ ، فإنَّ اللّه أجودُ منك ، وقال : دِرْهمٌ من حَلّ يخرجُ فى حَقٍّ خيرٌ من عشرة آلافٍ قبِضًا وتلقّطُ عُرُنْدا من بزيم فقال : تضيعون مثل هذا وهو قوت امرىءٍ مسلمٍ يوماً إلى ليل . وتلقطُ أبو الدرداءَ حباتِ حنطةٍ فنهاهُ بعض المسرفين فقال : إيه ابن العبسيَّة ! ، إن مرفقة المرءِ رفقه فى معيشته ، فلستم علىَّ تروون ولا برأيى تقتدون . فقدِّموا النظر قبل العزم ، وتذكروا ما عليكم ، قبل أن تذكروا مالكم . والسلام » .

والرسالة على ما هو واضح مما أوردناه منها ليست كما اطرد عنها فى كتب الأدب من قولهم إنها فى مدح البخل ، وإنما هى فى التدبير وذم السرف والتبذير ، وهذا أمر واجب مطلوب . وحديثه هنا حديث مقنع ، فالمال عصبُ الحياة ، والحفاظ عليه واستخدامه فيما ينفع أمور تحضُّ عليها كل سياسة حكيمة ، ويستهدفها كل هادٍ أمين .

وأما الدفاع عن الاسرافِ بدعوى الكرم فهو مما أدّى فى كثير من الأمر إلى خلط الأوراق ، ولو تأملنا حال الدولة العباسية وحال خلفائها لرأينا أكثر الخلفاء حزماً ونفعاً للدولة أكثرهم تديراً وحرصاً على المالِ واستخداماً له فى كل نافع ، هذا أبو جعفر المنصور زعموا أنه كان بخيل بالمال قليل العطاء للشعراء ، ولم يكن مسرفاً كغيره فى ملاهيه فاحتفظ للدولة بخزانة ملأى بالمال ، انفقه من جاء بعده فى الصالح والطالح .

كذلك كان المأمون ، والدفاع عن الكرم على تلك الصورة التى ترامت إلينا فى عطاء الخلفاء أو الكرماء من عرب وفرس لم يكن فى الحقيقة لوجه الله فضلاً على نأهم لم يفقوا هذا المال مما حصَّلوا وجهدوا فيه بقدر ما كان جباية من الرعيَّة كان ينبغى انفاقه فى صحالحها ليعود عليهم بالنفع .

وأما دفاع الجاحظ عن الكرم باعتباره خلَّة عربية ، وذمة للبخل باعتباره خلةً فارسية ، فإن الدافع إليه لم يكن موضوعياً ، بل كان مدفوعاً بحمية العصبية للعرب والتملق لبعض الحاكمين ، وجاء حديثه فى البخلاء حديثَ نوادر وطرائف يراد به إدخال السرور والمداعبة والمفاكهة على طريقته فى الكتابة ، وإلا فإنه لم يرد ، ولم ينقض ما جاء فى رسالة سهل . وأنَّى له أن ينقض ما ليس بمنتقض بل هو حقائق لا يغفلها عاقل .

وأرى فى هذه الرسالة لسهل فى بن هارون — وإن بدت فى ظاهرها موجهة إلى بنى عمومته على ماروى فى مقدمتها — أرى فيها انتقاداً لبعض تصرفات الخلفاء والحكام فى عهده ، كما كانت كتابات ابن المقفع وإن لفها بغلائل موجهة إلى انتقاد سياسة الحكام وبعض الخلفاء ممن عاصرهم ، وبخاصة المنصور الذى كان ينفرد بالرأى ويغلب الاستبداد على الشورى .

ومما عُرف لسهل بن هارون من الكتب كتاب « النمر والثعلب »[1] .

يقول بعد البسْمَلةِ والتحميد والصَّلاةِ والسَّلامِ على رسول الله :

« أما بعدُ ـــ أيَّدكَ الله بتوفيقه ، وعصمكَ بتسديدِه ، فإني رأيتُ أن أصنَعَ لكَ كتاباً في الأدب والبلاغة والتَّرسُّل ، والحروبِ والحيل ، والأمثال ، والعالِم والجاهلِ ، وأن أُشرِبَ ذلك بشيءٍ من المواعِظ ، وضروبٍ من الحكم ، وقد وضعت في ذلك كتاباً مختصراً ، مُستوعباً شافياً ، وجعلتُه أصلاً للعَالِمِ الأديبِ ، والعاقل الأديبِ مما أمكنني حفظُهُ ، واطَّردَ لي تأليفه ، واللّهَ نسألُه العونَ والتأييدَ ، والتوفيق والتسديدَ ولا حولَ ، ولا قوَّةَ إلاَّ باللّهِ العليّ العظيم :

ذُكِرَ أنَّ ثعلباً يقالُ له مَرزوق ، ويُكَنيَّ أبا الصَّباح أقَامَ في وَادٍ لم يكُنْ فيه غيرُه فعَبَر عليه زَمانٌ وهو في حُسْنِ الحال ، آمنَ السِّرْبِ ،رَخيَّ البال ، فمرَّ به صديقٌ له من الثعَالِبَةِ يُقَالُ له طارق ، ويُكَنَيَّ أبا المُفَلِّس ، فنزلَ عليه ، فأحْسَنَ ضيافتهُ وأكرمَ مثواهُ ج فقالَ له طارق : يا أبا الصَّباح !، كلُّ أمركِ جميلٌ ، وكلُّ فعالكَ فعلى سبيلِ حزمٍ وصوَابِ تدبير ، غير أنِّي أراكَ احتقرتَ حجركَ بمكان سوء ، وإنَّه لأحقُّ منزلٍ بتركِ . فقال له مرزوق : يا أبا المُفَلِّسْ ، وما الذي أنكرتَ عليَّ منه وغمَّصْتَ عليَّ فيه ؟. فأنت من لاة أتَّهِمُ في عقلِهِ ، ونصيحتِهِ لأهلِ مَوَدَّتِه . وما عقالُكَ لهمْ بأنشوطة ، وإني لعلى حَبْلِ ذراعكَ . والمؤمنُ مرآلاةُ أخيهِ ، وقد كانَ عمرُ بنُ عبد العزيز رحمه الله قال : « رحم اللّهُ من أهدى إلينا عُيوبنا » .

فقال له طارق : إنَّ أخاك من صدَقَكَ ، والشَّفِيقُ بسوءِ الظنَ مُوَلَعٌ . وإنِّي أراكَ في وادٍ عظيم . وبه من آثار السَّيل ما ترى ، ومايُدري ما يحدثُ ، ولستُ آمنُ عليكَ أن يدهمك منه بالليلِ ما لا طاقةَ لكَ به ، وهو أحد الأبهمين ، والسَّيْلُ حربٌ للمكانِ البالي[2] ، فنشدتك اللّهَ في نفسِكَ وأهْلِكَ إلاَّ تحوَّلتَ من هذا الموضعِ واستبدلْتَ به غيْرَهُ .

---

(1) حققه وقدم له وترجمه إلى الفرنسية د . عبد القادر المهيرى ـــ طبع الجامعة التونسية . بكلية الآداب والعلوم الإنسانية سنة ١٩٧٣ .

(2) هذه العبارة عجز بيت لأبي تمام .

فقال له مرزوق : فأنتَ من لا أتَّهِمُ فى رأيِهِ ومشورتِهِ ، وسأتقدَّمُ إلى زوجتى فى التحويل .

وقام فدخَلَ إليهَا فقال لها : يا هذه ، قد كائن فرط من خطئِنا فى المقام بهذا الوادي ما كادَ يهلكنا حتى أتاحَ اللهُ لنا صديقنا أبا الغَلسْ ، فحذَّرنَا المقامَ به وخوَّفنَا النيلَ ، ونحن بقربه ، وإنه كانَ يقالُ : التقدمُ قَبلَ التندُّم . فاجمعى إليك وانتقلى .

فقالت له — ما هذا من صديقك بالنصيحة لك ، ولكنه رأى غضارة عيشكِ بهذا الوادى ، وقرْبَ مغاركَ ، وبعدَ أعدائكَ فحسدكَ إياهُ ، ونحنُ به نزولٌ منذ سنينَ فما رأينَا من سيلِهِ ما يُروعُنا . وجحرنا بالمعْزِلِ عن سننِهِ ، فزلْ عن هذا الرأى ولا تحفلْ به .

فخرجَ إلى طارق ، فأعلمه بخلافِ زوجتِهِ عليه ، وما اعترضت عليه من خفض العيش وطول السلامة .

فقال له طارق : يا أبا الصَّباح إن لم تفقَهْ معنى النصيحة فنحنُ منك بحلّ . وإنه كانَ يقَال : العزيمةُ حزمٌ ، والاختلاطُ ضعف ، وليس للنساءِ رأى ، فلا تحملك زوجُك بلجاجها على أمر فيه عَطبُكَ ، واعرف ذلك مما يقول طفيلٌ الغنوى شعراً :

إنَّ النساءَ كأشجارٍ نبتْنَ معاً   منهنَّ مرٌّ ، وبعضُ المرِّ مأكُولُ
إنَّ النساءَ متَى ينْهيْنَ عن خُلُقٍ   فإنه واجبٌ لا بدَّ مفعولُ

ثمَّ إن طارقاً ارتحل عنه ، وأقام مرزوق بمكانِه ، فبينما هو على تلك من حاله إذ جاء السيلُ فنظر إليه مرزوق فقال لزوجته : خُذي الأمرَ بقوابلهِ ، فقد علمت ما قال القطاميُّ فى شعرِه :

وخيرُ الأمرِ ما استقلْتَ منهُ   وليسَ بأن تُتبِّعهُ اتباعَـا

وقال بعض الحكماء : شرُّ الأمر الدَّبريُّ ، وقالُ متمثلاً : قبْلَ الرَّمي يراشُ السَّهْمُ ، فالنجاةَ الآن ، ولاتَ حين مناص .

قالت له زوجته : ما كلُّ أزبُّ نفور[1] . وقد يجيءُ في مثل هذا في سَنةٍ مراراً فما يصلُ إلينا أوَّلهُ ينقطعَ آخرهُ ، فلا تخْرجنَا من وطننا ، فإنَّا به راجنون .

وإنهما لعلى ذلك من مراجعتهما إذْ دهَل السيْلُ عليهما ، فخرج الثعلب من جحره ليهربَ فاحتمله السيلُ ، فقصد لبعض ما جاءَ به السيْلُ من الخشب فتعلَّق به ، وأسلمَ نفسَهُ فما نهته إلى أن قذف به في البحر ، فلما رأى البحر قال يخاطبُ نفسه : استمْسكْ فإنَّكَ معدوٌّ بك . فأجابَ نفسَه عن نفسِه : وكيف توقّى طهرَ من أنت راكبُه[2] . ثمَّ تمثَّلَ بقول أمية[3] حين قالَ :

يوشِكُ من فرَّ من مَنِيَّتِهِ	في بعضِ غِرَّاتِه يوافِقُـها
ما رغبةُ النفسُ في الحياةِ وإنْ	عاشتْ طويلاً ، والموت لاحِقُها
يَقُودُهــا قائِــدٌ ويَحْــدُو	ها سَرِيعكا إليه سـائِقُها
من لم يمُتْ غِبطةً يمتْ هَرَماً	الموتُ كأسٌ والمرءُ ذائِقُـها

ثم لم ينزلْ يترامى به الموجُ حتى ألقاهُ إلى جزيرة من جزائر البحر ، فلمَّا استقرتْ قوائمه على الأرض قال : من لمْيُفتْ لم يَمُتْ ، ثمَّ تمثَّل بقول الأعشَى :

شبابٌ وشَيْبٌ ، وافتقارٌ وثروةٌ   فلله هذا الدُّهرُ كيف تردَّدَا

فأقبل وأدبَر يومَه ، لا يسمع حَسيساً ، ولا يرى أنيساً ، وأوحشه ذلك ، وظنَّ أنه هالِكٌ حتى أصبحَ ، فبينما هو في تردده استقبله ذئبٌ » .

وتبدأ له مع الذئب قصةٌ أخرى حتى يلتقي بالنمر ، ويمضى سهل بن هارون على هذا النمط في الكتاب الذى حاول فيه أن يحارى كليلة ودمنه في نزعته أو مضمونه العام وهى نزعة استخدام الحيوان في القصّ الوعظى ، وسوق الحكَم . ومنه يتضح أن القوم في العصر تأثروا بابن المقفع وكتابه المترجم تأثُّراً بالغاً في استخدام الحيوان وانطاقه بالحكمة ويبدو هذا الأثر مباشراً عند سهل

(1) من أمثال العرب أورده الزمخشرى في أمثال العرب المسمى بالمستقصى ١١ /٢٢٣ .
(2) نصف بيت للمتلمس .
(3) هو أمية بن أبي الصلت الشاعر الثقفى .

بن هارون هنا وفى كتابه الآخر « عفراء وثعلة » الذى قيل إنه عارض فيه كليلة ودمنه ، وفى نظم أبان بن عبد الحميد اللاحقى لكليلة ودمنه وفى تأليف الجاحظ للحيوان تأثر غير مباشر بهذا الاتجاه الذى غرسَهُ ابن المقفع فى أدب الكتابة فى صدر عصر العباسيين . ثم كانت اه من بعد تداعياتُه ، وترداداته فى الأدب نثراً وشعراً حتى عصور متأخرة .

ونلاحظ على أسلوب سهل بن هارون صفات عامةً شارك فيها ابن المقفع هي هذا الاسترسال المنطلق فى الحديث دون تعقيد فى اللغة ، مع ثراء الأسلوب ، وتضمينه بالشعر والأمثال والحكم .

وكثير مما استعان به سهل بن هارون فيما شعنا له من المثالين السابقين كان من الشعر العربى القديم ، وبعض المحدث ، مع كثير من الأمثال العربية والأقوال السائرةِ ، والحكم المنقولة .

وعلى أنه لا يغفل أقوال مشاهير العرب قبل الاسلام وبعده ، ما كان عدّة الأدباء والبلغاء فى عصره ، وترددت كثيرا فى كتب العصر ومجموعاته وأماليه .

إبراهيم بن العباس الصولى
(ت سنة ٢٤٣ هـ)

ينسب إلى جده صول تكينى ، وصُول لقب من ألقاب ملوك دهستان وكان إحساسه بهذا النسب يكسبه فخراً ، واعتزازاً ، وهو قريب للكاتب عمرو بن مسعدة الصولى كاتب البرامكة ، ومتولى ديوان المأمون (توفى سنة ٢١٧ هـ) .

وانجب إبراهيم ولدين الحسن والحسين ، ومات أكبرهما فى حياته ورثاه بمراث كثيرة ، واعقبه الثانى ، فبكاه أيضاً بكاءً مراً .

وكانت ولادته ونشأته فى بغداد فى عصر ازدهار الحياة عصر الرشيد والأمين والمأمون . ولعله عانى فلى صباه ما عانته بغداد ، ولقيه سكّانها من كرب فى حصارها أيام حرب الأمين والمأمون . وما أن أهلَّ عليه عصر المأمون حتى كان شاباً مكتملاً يعبُّ من نعيم الحياة ، ويصحب جماعة من الشعراء المعروفين أمثال دعبل بن على الخزاعى رصيفه فى التشيّع والميل إلى العلويَّة .

وتولى فى عصر المأمون للفضل بن سهل الكتابة ، واتصل بالمأمون عام ٢٠١ هـ بعد مبايعته لعلى بن موسى الرّضا . وقد جاءت هذه المبايعة على هواه ، وهوى كلّ شيعىّ ، وقد أوحى بها إلى المأمون وزيره الفضل ذو الميول الشعيعية .

وتولى إبراهيم بعد ذلك للمعتصم ديوان الضياع والنفقات بسرّ من رأى ، وظلّ على ذلك حتى وفاته فى عهد المتوكل وقد نيّف على الثمانين من عمره . وكانت وفاته سنة ٢٤٣ هـ .

وتدلُّ كتاباته على ما حصّل من الثقافة والعلم من تراث العرب والإسلام ، ومن ثقافات الفرس واليونان كغيره من كتاب عصره ممن كانوا يحرصون على التزود بالثقافتين .

وتراه يوظف ما حفظ من آيات القرآن . ومن الحديث والشعر القديم والمحدث والأخبار والحكم فيما يكتب من الرسائل أو ينظم من الشعر .

وجالس إبراهيم كثيراً من علماء عصره أمثال ثعلب والأخفش ، وكان

ثعلب يحفظ بعض شعره ويمليه فى مجالسه[1] . ولم يمل شعراً من الكتاب سواه لأن فى شعره ألفاظا مشبهة لألفاظ الأوائل ، ولأنه فى رأيه كان أشعر المحدثيلأن من الكتاب . على حد قول أبى الفرج[2] .

وكان كغيره من طبقة الشعراء والكتاب المحدثين يحب الموسيقى والغناء ، ويلمُّ بكثير من علمهما ، ويعرف الأصوات والإيقاعات ، وطلب إلى أحد الملحنين أن يصنع صوتاً فى شعر يمدح به المتوكل ويغنيه .

يحكى صاحب الأغانى أن جعفر بن رفعة قال : دعانى إبراهيم بن العباس وقال : قد مدحت أمير المؤمنين المتوكل ببيتين ، فغنِّ فيهما وأشِعْهُما ، ودعا لى بطيب كثيرٍ ، فأعطانيه ، وخلع على خلعةً ، فغنيت فيهما . وهما :

ما واحـــدٌ من واحـــدٍ أولَى بفضـلٍ أو مُـروءهْ
ممَّـــنْ أبـــوُهُ وجـــدُّه بين الخـلافةِ والنبـوَّهْ

ويذكر أبو الفرج أن المتوكل كان يلذُّ لسماع شعره وهو يُغَنَّى به[3] .

ولم تكن بينه وبين محمد بن عبد الملك الزيات مودة ، بل قامت عداوة كان من آثارها المهاجاة بينهما . فقد هجا الصولى الزيات بأبيات عيّره فيها بأصله وبتجارة الزيت فقال :

حيِّ حانوته بناحية الكرخ وأرطـالَهُ على كلِّ بابِ
حتى من أصبحَ الغداة وزيراً وَهو بالأمس كاتب ابى شهابِ

ويقول فيه :

لئن أدرك الزّياتُ بالزّيتِ رُتبةً لمِنْ قبْلُه الخلاَّل بالَلّ نالهَا
تورّطَ منها نعمةً طمحتْ به فما لبثت أن أعقبتْهُ زوالهَا

وهى منافسة لاشتراكهما فى المهنة .

وكان إبراهيم الصولى يتشيَّع ، ويميل بهواه إلى العلويين ، وإن لم يعلن ذلك وكان صديقاً للشاعر المعروف بتشيعه دعبل بن على الخزاعى ، وكانا

(١) تاريخ بغداد ٦ /١١٧ .
(٢) الأغانى ١٠ /٥٩ — طبع دار الكتب .
(٣) الأغانى ١٠ /٥١ .

لا يفترقان وكلاهما مدح المأمون عند مبايعته على بن موسى الرضا ، وكلاهما مدح الرضّى ، فقال دعبل قصيدته المشهورة :

مدارسُ آياتٍ خلَتْ من تلاوةٍ   ومنزلُ وحي مقفِرُ العرصاتِ

وانشد الصولى قصيدته :

أزالت عزاءَ القلب بعد التجلُّدِ   مصارُع أولاد النبيِّ محمّـدِ

على أن دعبل ظلَّ مجاهراً بعقيدته يحمل حشبيته على كتفه أينما ذهب متهيأ للموت فى سبيلها ، وأما الصولى فآثر التقيَّة واخفاءها حفاظاً على حياته وجاهه ، وقربه من الخلفاء وبخاصة المتوكل ، الذى لم يحب الشيعة . ومع ذلك فقد ناله جانب من الاضطهاد والعزل والسجن .

وخلف الصولى ديوان شعر ، وديوان رسائل ، وكتاباً فى سياسة الدولة وكتاباً فى الطبيخ ، وكتاباً فى العطر .

نماذج من كتاباته

يقول من رسالة إلى الواثق يرثى والده المعتصم ويهنيه بالخلافة :

« إنَّ أحقَّ الناس بالشُّكرِ من جاء به عن الله ، وأولاهم وأولاهم بالصَّبر من كان سلَفَهُ رسولُ الله . وأمير المؤمنين أعزَّه الله ، وأباؤه نصَّرهم الله أولو الكتاب الناطق عن الله بالشكرس ، وعِيَرةُ رسولِهِ المخصوصونَ بالصَّبر . وفى كتاب الله أعظمُ الشّفاء ، وفى رسولِهِ أحسنُ العزاء . وقد كان من وفاةِ أمير المؤمنين المعتصم بالله ، ومن مشيئةِ الله فى ولاية أمير المؤمنين الواثق بالله ، ما عَفَى أوَّله على آخره بدأته بعاقبته ، فحقُّ الله بالأولى الصَّبر ، وفرضَ فى الأخرى الشكر ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يستجيز ثواب الله بصبره ، ويستدعىَ زيادتَهُ بُشكْرِه ، فعل إن شاءَ الله وحدَهُ » .

وكتب عن المتوكل إلى بعض عمَّاله(١) :

أما بعد فإنَّ الله تبارك وتعالى بعزته التى لا تحاوَل ، وقدرته علىَ ما يريد اصطفى الإسلامَ فَرضِيَهُ لنفسهِ ، وأكرمَ به ملائكِتَهُ ، وبَعثَ به رُسُلَه ، وأيدً به

(١) عن أمراء البيان ١ /٢٧٢ .

أولياءه وكنفَهُ بالبِرِّ ، وحاطه بالنَّصرِ ، وحرسه من العَاهَةِ ، وأظهرهُ على الأديانِ ، مُبرَّأً من الشُّبُهاتِ ، معصُوماً من الآفاتِ ، محبُواً بمناقِبِ الخيرِ ، مخصُوصاً من الشَّرائِعِ بأطهَرِها وأفضَلِها ، ومن الفرائِضِ بأزكاها وأشرفِها ، ومن الأحكامِ بأعدَلِها وأقنعِها ، ومن الأعمالِ بأحْسَنِها وأقصَدِها . وأكرمَ أهلَهُ لهم من حَلالِه ، وحرَّم عليهم من حرامه ، وبيَّن لهم من شرائعه وأحكامِهِ ، وحدَّ لهم من حُدودِهِ ومناهجِهِ ، وأعدَّ لهم من سِعَةِ جَزائِهِ وثوابِهِ ، فقال فى كتابه فيما أمَر به ، ونهى عنه ، وفيما حَضَّ عليه فيه ووعظَ : (إنَّ الله يأمرُ بالعَدْلِ والإحْسَانِ وإيتاءِ ذى القُربى ، ويَنْهَى عن الفَحشاءِ والمنكرِ والبغْى ، يَعظكُم لعلَّكمْ تذكَّرُون) .

وقال من رسالة فى قتل اسحاق بن إسماعيل[1] :

« ... وقسَّم الله عدوَّهُ أقساماً ثلاثةً : روحاً معجلةً إلى عذابِ الله ، وجثَّةً منسوبةً لأولياء الله ، ورأساً منقولاً إلى دار خلافة الله . استنزلوه من مُعْقِلٍ إلى عِقَال ، وبدَّلوهُ آجالاً من آمال وقديماً غَدَتْ المعصيةُ أبناءَها ، فحلَبتْ مندَّرها مُرضِعةً ، حتَّى إذا وثقُوا فأمنوا ، وركبُوا فاطْمأنُّوا ، وانقَضَى رضاعٌ ، وآن فطامٌ ، سقتهُمْ سُماً ، ففجَّرت مجارى ألبَانِها منهم دماً وأعقبتْهُم من حُلوِ غِذَائِها مُراً ، ونقَلتْهُمْ من عِزٍّ إلى ذُلّ ، ومن فرحةٍ إلى تَرحة ، ومن مسرَّةٍ إلى حَسْرة ، قتلاً وأسراً ، وغلبةً وقسراً ، وقلَّ من أوضع فى الفتنةِ مرهجاً[2] ، واقتحم لها مؤججاً إلاَّ استلحمته آخِذةً بمخُنَقِه ، وموهنةً بالحقِّ كيده ، حتى جعَلته لعاجِلَةِ جزراً ، ولآجلهِ حَيْطا ، وللحقِّ موعظة ، وعن الباطِل مزجرة (أولئكَ لهم خزىٌ فى الدنيا ، ولعَذابُ الآخرة أكبرُ ، وما ربُّك بظلاَّمٍ للعبيد) .

ومن رسائله م كتبه يستعطف الكاتب الوزير محمد بن عبد الملك الزيات :

« كتبتُ إليكَ ، وقد بلغتْ المديةُ المحَزَّ ، وعَدتْ ايام علىَّ بعد عَدْوایَ بك عليها وكان أسوأُ الظنّ ، وأكثرُ خوفى أن تسْكنُ فى بوقت حركتِها ، وتكُفَّ

(١) تاريخ الطبرى ١٢ /٣٨٣ .

(٢) الرهج : الغبار .

عن أذاتها . فصيرتَ أصرَّ عليَّ منها ، فكفَّ الصَّديقُ عن نُصرتي خوفاً منك ، وبادرَ إليَّ العدوُّ تقرُّباً إليك وكتب تحت ذلك :

أخٌ بيني وبيَن الدهــــرِ صاحبٌ أيّنا غلبا
صديقي ما استقام وإنْ بنا دهرٌ عَليَّ بنَا
وثبتُ على الزَّمانِ به فعادَ به وقد وثبا
ولو عادَ الزمانُ لنا لعادَ به أخاً حَدِبَا

هذا وقد كانت حدثت جفوة بين الكاتبين ، وهجَا ابراهيم ابن الزيَّات هجاًء مقذعاً . وتسبب ابن الزيات فى حبس إبراهيم . كلُّ ذلك زمن الواثق .

وعند تولّى المتوكّل ، وأمَر بقتْل ابن الزيَّات بالتنور ، تقرَّب إبراهيم إلى المتوكل وكان قد قرأ المتوكل رسالة ابراهيم إلى أهل حمص الخارجين عليه ويقول فيها :

« أما بعدُ ، فإنَّ أمير المؤمنين يرى من حقّ الله عليه مما قوَّم به من أودٍ ، وعدَّل به من زَيغ ولمَّ به من منتشرٍ — استعمال ثلاث يقدم بعضهنَّ على بعض ، أو لا هنَّ ما يتقدَّمُ به من تنبيه وتوقيف ، ثم ما يُستظهرُ به من تحذيرٍ وتخويف . ثم التى لا يقع بحسم الداءِ غيرها :

أناةٌ ، فإنْ تُغْنِ عَقَّبَ بعدها وعيداً، فإن لم يُغْنِ، أغْنتْ عزائمُهُ

فعجب المتوكل من حسن ذلك ، وأومأ إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان : أما تسمع ؟! فقال : يا أمير المؤمنين إنَّ إبراهيم خبيئةٌ خبَّأها الله لك ، وذخيرةٌ ذخرها على دولتك .

والمتبع لرسائل ابراهيم يلحظ ميله إلى الايجاز وتكثيف العبارة حتى تحتمل كثير المعنى دون إخلال بفصاحة اللفظ . وهو يكسب عباراته ضرباً من الإيقاع فيما يعمد إليه من فقرات فصار متتابعُ إذا لزم المعنى ذلك ، وتطول أحياناً إذا احتاج المعنى إلى شرح . ولا يستخدم الازدواج والتكرار ، أو إعادة عرض المعنى فى أكثر من لفظ ، وإنما يميل إلى توليد المعنى ، وتشقيقه أحياناً فعل المناطقة ، وأصحاب الكلام .

— ١ —

ابن المقـــفع

هو عبد الله بن المقفع الكاتب المشهور بالبلاغة ، صاحب الرسائل البديعة ، وهو من أهل فارس ، وكان مجوسياً فأسلم على يد عيسى بن عليّ عمّ السفاح والمنصور الخليفتين الأولين من خلفاء بني العباس ، ثم كتب له واختص به ، ومن كلامه « شربت من الخُطَب رِيًّا ، ولم أضبط لها رَوِيًّا ، ففاضت ثم فاضت ، فلا هي نِظاما ، وليست غيرُها كلاما » . قال الهيثم بن عديّ : جاء ابن المقفع إلى عيسى بن علي فقال له : قد دخل الإسلام في قلبي ، وأريد أن أسلم على يدك ، فقال له عيسى : ليكن ذلك بمحضر من القواد ووجود الناس ، فإذا كان الغد فحضر ؛ ثم حضر طعام عيسى عشية ذلك اليوم ، فجلس ابن المقفع يأكل ويُزَمْزِم على عادة المجوس ، فقال له عيسى : أتزمزم وأنت على عزم الإسلام ؟ فقال : أكره أن أبيت على غير دين ، فلما أصبح أسلم على يده .

وكان ابن المقفع مع فضله يُتَّهَم بالزندقة ، فحكى الجاحظ أن ابن المقفع ومُطيع بن إياس ويحيى بن زياد كانوا يُتهمون في دينهم ؛ قال بعضهم : فكيف نسي الجاحظ نفسه ؟ . وكان المهدي بن المنصور الخليفة يقول : ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع ؛ وقال الأصمعي : صنف ابن المقفع المصنفات الحسان منها « الدرة اليتيمة » التي لم يصنف في فنّها مثلها ؛ وقال الأصمعي : قيل لابن المقفع : من أدَّبَك ؟ فقال : نفسي ، إذا رأيتُ من غيري حسناً أتيته وإن رأيت قبيحاً أبيته . واجتمع ابن المقفع بالخليل ابن أحمد صاحب العروض ، فلما افترقا قيل للخليل : كيف رأيته ؟ فقال : علمه أكثر من عقله ، وقيل لابن المقفع : كيف رأيت الخليل ؟ فقال : عقله أكثر من علمه . ويقال : إن ابن المقفع هو الذي وضع كتاب « كليلة ودمنة » ، وقيل إنه لم يضعه وإنما كان باللغة الفارسية فعرّبه ونقله إلى العربية ، وإن الكلام الذي في أول هذا الكتاب من كلامه . وكان ابن المقفع يعبث بسفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة أمير البصرة وينال من أمه ولا يسميه إلا بابن المغتلمة ، وكثر ذلك منه ، فقدم سليمان وعيسى ابنا علي البصرة — وهما عمّا المنصور — ليكتبا أماناً لأخيهما عبد الله بن علي بن المنصور ، وكان عبد الله

المذكور قد خرج على ابن أخيه المنصور وطلب الخلافة لنفسه ، فأرسل إليه المنصور جيشاً مُقَدّمه أبو مسلم الخراساني ، فانتصر أبو مسلم عليه . وهرب عبد الله بن علي إلى أخويه سليمان وعيسى ، واستتر عندهما خوفاً على نفسه من المنصور ، فتوسّطا له عند المنصور ليرضى عنه ، ولا يؤاخذه بما جرى منه ، فقبل شفاعتهما ، واتفقوا على أن يُكتب له أمانٌ من المنصور ، وهذه الواقعة مشهورة في كتب التواريخ . وقد أتيتُ منها في هذا المكان بما تدعو الحاجة إليه لينبني الكلام بعضه على بعض . فلما أتيا البصرة قالا لعبد الله بن المقفع : اكتبه أنت وبالغ في التأكيد كي لا يقتله المنصور . وقد ذكرتُ أن بن المقفع كان كاتباً لعيسى بن علي ، فكتب ابن المقفع الأمان وشدّد فيه حتى قال في جملة فصوله : « ومتى غَدَرَ أمير المؤمنين بعمه عبد الله بن علي ، فنساؤه طوالق ، ودوابه حُبُس ، وعبيده أحرار ، والمسلمون في حِلٍ مِنْ بيعته » .

وكان ابن المقفع يتنوَّق في الشروط ، فلما وقف عليه المنصور عَظُمَ ذلك عليه ، وقال : مَنْ كتب هذا ؟ فقالوا له : رجل يقال له عبد الله ابن المقفع ، يكتب لأعمامك ، فكتب إلى سفيان متولي البصرة المقدم ذكره يأمره بقتله ، وكان سفيان شديد الحنق عليه للسبب الذي تقدم ذكره ، فاستأذن ابن المقفع يوماً على سفيان ، فأخّر إذنه حتى خرج مَنْ كان عنده ، ثم أذن له فدخل ، فعدل به إلى حجرة فقُتِل فيها .

وقال المدائني : لما دخل ابن المقفع على سفيان ، قال له : أتذكر ما كنت تقول في أمي ؟ فقال : أنشدك الله أيها الأمير في نفسي ، فقال : أمي مغتلمة إن لم أقتلك قتلةً لم يقتل بها أحد ، وأمر بتنُّور فسُجِّر ، ثم أمر بابن المقفع فقطعت أطرافه عضواً عضواً ، وهو يلقيها في التنور ، وهو ينظر ، حتى أتى على جميع جسده ، ثم أطبق عليه التنور ، وقال : ليس عليَّ في المثلة بك حَرَج لأنك زنديق وقد أفسدت الناس .

وسأل سليمان وعيسى عنه فقيل : إنه دخل دار سفيان بن سليمان ولم يخرج منها ، فخاصماه إلى المنصور ، وأحضراه إليه مقيداً ، وحضر الشهود الذين شاهدوه وقد دخل داره ولم يخرج ، فأقاموا الشهادة عند المنصور ، فقال لهم المنصور : أنا أنظر في هذا الأمر ، ثم قال لهم : أرأيتم إن قتلتُ سفيان به ثم

خرج ابن المقفع من هذا البيت — وأشار إلى باب خلفه — وخاطبكم ، ما تروني صانعاً بكم ؟ أأقتلكم بسفيان ؟! . فرجعوا كلهم عن الشهادة ، وأضرب عيسى وسليمان عن ذكره ، وعلموا أن قتله كان برضا المنصور . ويقال : إنه عاش ستاً وثلاثين سنة .

وذكر الهيثم بن عدي أن ابن المقفع كان يستخف بسفيان كثيراً ، وكان أنف سفيان كبيراً ، فكان إذا دخل عليه قال : السلام عليكما ! يعني نفسه وأنفه ! — وقال له يوماً : ما تقول في شخص مات وخلّف زوجاً وزوجة ؟ يسخر به على رؤوس الناس . وقال سفيان يوماً : ما ندمتُ على سكوت قطّ ، فقال له ابن المقفع : الخرسُ زينٌ لك فكيف تندم عليه ؟! . وكان سفيان يقول : والله لأقطعنه إرباً إرباً وعينه تنظر ، وعزم على أن يغتاله ، فجاءه كتاب المنصور بقتله فقتله .

وقال البلاذري : لما قدم عيسى بن علي البصرة في أمر أخيه عبد الله ابن علي قال لابن المقفع : اذهب إلى سفيان في أمر كذا وكذا ، فقال : ابعث له غيري ، فإني أخاف منه . فقال : اذهب فأنت في أماني ، فذهب إليه ففعل به ما ذكرناه ، وقيل : إنه ألقاه في بئر الخرج وردم عليه الحجارة ، وقيل أدخله حماماً وأغلق عليه بابه فاختنق .

قلتُ : ذكر صاحبنا شمس الدين أبو المظفر يوسف الواعظ سبط الشيخ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي الواعظ المشهور في تاريخه الكبير الذي سمّاه « مرآة الزمان » اخبار ابن المقفع وما جرى له وقتله في سنة خمس وأربعين ومائة ، ومن عادته أن يذكر كل واقعة في السنة التي كانت فيها ، فيدل على أن قتله كان في السنة المذكورة ، وفي كلام عمر بن شبة في كتاب « أخبار البصرة » ما يدل على أن ذلك كان في سنة اثنتين وأربعين ومائة أو ثلاث وأربعين .

ولا خلاف في أن سليمان بن علي المقدم ذكره مات في سنة اثنتين وأربعين ومائة ، وقد ذكرنا أنه قام مع أخيه عيسى بن علي في طلب ثأر ابن المقفع ، فيدل أيضاً على أنه قتل في هذه السنة والله أعلم .

وابن المقفع له شعر ، وهو مذكور في كتاب « الحماسة » وفي ترجمة أبي عمرو بن العلاء المقرىء له مرثية فيه[1] . وقد قيل : إنها لولده محمد بن عبد الله ابن المقفع على ما ذكرته هناك من الخلاف . فليُنظر فيه . وكيفما كان ، فإن تاريخ قتله لم يكن بعد سنة خمس وأربعين ومائة وإنما كان فيها أو فيما قبلها ، وإذا كان كذلك ، فكيف يُتصور أن يجتمع بالحلاج والجنّابي ــ كما ذكره إمام الحرمين رحمه الله تعالى ــ ومن ها هنا حصل الغلط ، وأيضا فإن ابن المقفع لم يفارق العراق ، فكيف يقول : إنه توغل في بلاد الترك ، وإنما كان مقيماً بالبصرة ويتردد في بلاد العراق ، ولم تكن بغداد موجودة في زمنه ، فإن المنصور أنشأها في مدة خلافته : فاختطها في سنة أربعين ومائة ، واستتم بناءها ونزلها في سنة ست وأربعين ، وفي سنة تسع وأربعين تم جميع بنائها ، وهي بغداد القديمة التي كانت بالجانب الغربي على دجلة ، وهي بين الفرات ودجلة كما جاء في الحديث المروي عن رسول الله ﷺ أنه تنشأ مدينة في هذا المكان وهذا الحديث هو الذي ذكره الخطيب أبو بكر البغدادي فى أول تاريخه الكبير وقد غاب عني الآن لفظه فلهذا لم أذكره . وبغداد في هذا الزمان هي الجديدة التي في الجانب الشرقي وفيها دُور الخلفاء ، وهي قاعدة الملك في هذا الوقت ، وكان السفاح واخوه المنصور قد نزلا بالكوفة ، ثم بنى السفاح بليدة عند الأنبار سمّاها الهاشمية ، فانتقلا إليها ، ثم انتقلا إلى الأنبار ، وبها مات السفاح وقبره ظاهر بها ، وأقام المنصور على ذلك إلى أن بنى بغداد فانتقل إليها .

قال ابن خلكان :

والمقَفَّعُ ــ بضم الميم وفتح القاف وتشديد الفاء وفتحها وبعدها عين مهملة ــ واسمه « داذويه » ، وكان الحجاج بن يوسف الثقفي في أيام ولايته العراق وبلاد فارس قد ولاّه خراج فارس فمدّ يده وأخذ الأموال ، فعذّبه فتقفّعَتْ يده فقيل له المقفع ؛ وقيل : بل ولاه خالد بن عبد الله القسري ، وعذبه يوسف بن عمر الثقفى لما تولى بعد خالد ، والله أعلم أيّ ذلك كان .

وقال ابن مكي في كتاب « تثقيف اللسان » : ويقولون : ابن المقفَّع والصواب ابن المقفِّع ــ بكسر الفاء ــ لأن أباه كان يعمل القِفَاع ويبيعها .

(١) انظر ترجمة أبي عمرو بن العلاء ، في وفيات الأعيان لابن خلكان ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، مطبعة دار صادر ــ بيروت وانظر ترجمة ابن المقفع ص ١٥٤ جـ ٢ نفس المصدر .

قلت : والقِفَاعُ بكسر القاف جمع قَفْعَة بفتح القاف ، وهي شيء يعمل من الخوص شبيه الزبيل لكنه بغير عُرْوَة ، والقول الأول هو المشهور بين العلماء ، وهو فتح الفاء .

قلت : ولما وقفت على كلام إمام الحرمين — رحمه الله تعالى — ولم يمكن أن يكون ابن المقفع أحد الثلاثة المذكورين قلت : لعله أراد « المقَنَع الخراساني » الذى ادعى الربوبية ، وأظهر القمر ، فإن اسمه عطاء ، ويكون الناسخ قد حَرَّفَ كلام إمام الحرمين فأراد أن يكتب « المقنّع » فكتب « المقَفّع » فإنه يقرب منه في الخط . فيكون الغلط والتحريف من الناسخ لا من الإمام ، ثم أفكرت في أنه لا يستقيم أيضاً ، لأن المقنع الخراساني قتل نفسه بالسم في سنة ثلاث وستين ومائة ، فما أدرك الحلاّج والجنابي أيضاً .

نصوص من أعماله

أ ــ « من الدرة اليتيمة »

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلواته على نبينا محمد وآله الطاهرين . قال عبد الله بن المقفع : وجدنا الناس قبلنا كانوا أعظم أجساداً وأوفر مع أجسادهم أحلاماً ، وأشد قوة وأحسن بقوتهم للأمور إتقاناً ، وأطول أعماراً وأفضل بأعمارهم للأشياء اختباراً ؛ فكان صاحبُ الدين منهم أبلغ في أمر الدين علماً وعملاً من صاحب الدين منا ، وكان صاحب الدنيا على مثل ذلك من البلاغة والفضل .

ووجدناهم لم يرضوا بما فازوا به من الفضل لأنفسهم حتى أشركونا معهم فيما أدركوا من علم الأولى والآخرة فكتبوا به الكتب الباقية وكفونا به مؤونة التجارب والفطن ، وبلغ من اهتمامهم بذلك أنَّ الرجل منهم كان يُفتح له الباب من العلم والكلمة من الصواب وهو بالبلد غير المأهول فيكتبه على الصخور مبادرةً منه للأجل وكراهيةً لأن يُسقط ذلك على من بعده(1) ، فكان صنيعهم في ذلك صنيع الوالد الشفيق على ولده الرحيم بهم الذي يجمع لهم الأموال والعُقد(2) إرادةَ أن لا تكون عليهم مؤونة في الطلب وخشية عجزهم إن هم طلبوا ..

فمنتهى علم عالمنا في هذا الزمان أن يأخذ من علمهم ، وغايةُ إحسان محسننا أن يقتدي بسيرتهم ، وأحسن ما يصيب من الحديث محدِّثنا أن ينظر في كتبهم فيكون كأنه إياهم يحاور ومنهم يستمع . غير أن الذي نجد في كتبهم هو المنتخل(3) في آرائهم والمنتقى من أحاديثهم ، ولم تجدهم غادروا شيئاً يجد واصفٌ بليغٌ في صفةٍ له مقالاً لم يسبقوه إليه لا في تعظيم الله عز وجَـلّ وترغيب فيما عنده ، ولا في تصغير الدنيا وتزهيد فيها ، ولا في تحرير صنوف

---

(1) أي يفوته ، فتضيع عليه فائدته .

(2) جمع عقدة ، وهي العقار الذي اعتقده صاحبه ملكاً .

(3) انتخل وتنخّل الشيء : صفاه واختاره وأخذ أفضله .

العلم وتقسيم أقسامه وتجزئة أجزائها وتوضيح سبلها وتبيين مآخذهم ، ولا في وجوه الأدب وضروب الأخلاق ، فلم يبق في جليل من الأمر لقائل بعدهم مقال . وقد بقيتْ أشياءُ من لطائف الأمور فيها مواضع لصغار الفطن مشتقة من جسام حِكم الأولين وقولهم ، ومن ذلك بعضُ ما أنا كاتب في كتابي هذا من أبواب الأدب التي يحتاج إليها الناس .

أصول الأمور

يا طالب الأدب اعرف الأصول والفصول فإن كثيراً من الناس يطلبون الفصول مع إضاعة الأصول فلا يكون دَرْكهم[1] دركاً ، ومن أحرز الأصول اكتفى بها عن الفصول ، وإن أصاب الفصل بعد إحراز الأصل فهو أفضل .

فأصل الأمر في الدين أن تعتقد الإيمان على الصواب وتجتنب الكبائر وتؤدى الفريضة فالزم ذلك لزوم من لا غناءً به عنه طرفة عين ، ومن يعلم أنّه إن حُرِمَه هلَك ، ثم إن قدرتَ أن تجاوز ذلك إلى التفقُّه في الدين والعبادة فهو أفضل وأكمل . وأصل الأمر في إصلاح الجسد ألاّ تحمل عليه من المآكل والمشارب والباه إلا خفافاً وإن قدرت على أن تعلم جميع منافع الجسد ومضارّه والانتفاع بذلك فهو أفضل . وأصل الأمر في البأس ألاّ تحدث نفسك بالإدبار وأصحابك مقبلون على عدوهم ، ثم إن قدرت أن تكون أول حامل وآخر منصرف من غير تضييع للحذر فهو أفضل . وأصل الأمر في الجود ألاّ تضنَّ بالحقوق عن أهلها ثم إن قدرت أن تزيد ذا الحق على حقه وتطول على من لا حق له فافعل فهو أفضل . وأصل الأمر في الكلام أن تسلم من السَّقَط[2] بالتحفُّظ ثم إن قدرت على بارع الصواب فهو أفضل . وأصل الأمر في المعيشة أن لا تنيَ عن طلب الحلال وأن تحسن التقدير لما تفيد وما تنفق ولا يغرَّنك من ذلك سعة تكون فيها فإن أعظم الناس في الدنيا خطراً أحوجهم إلى التقدير ، والملوك أحوج إلى التقدير من السوقة لأن السوقة قد تعيش بغير مال والملوك لا قوام

(١) الدَّرْك والدَّرَك : اللحاق والوصول إلى الشيء ، إدراك الحاجة . ولم يستعمل منه فعل ثلاثي .
(٢) السقَطَ : ما لا خير فيه من كل شيء .

لهم إلا بالمال ، ثم إن قدرت على الرفق واللطف في الطلب والعلم بالمطالب فهو أفضل .

وأنا واعظك في أشياء من الأخلاق اللطيفة والأمور الغامضة التي لو حنكتك سنّ كنت خليقاً أن تعلمها وإن لم تخبر عنها ، ولكن أحببت أن أقدم إليك فيها قولاً لتروّض نفسك على محاسنها قبل أن تجري على عادة مساويها ، فإن الإنسان قد تبتدر إليه في شبيبته المساوي وقد يغلب عليه ما يبدو إليه منها ..

***

إن ابتُليتَ بالامارة فتعوَّذ بالعلماء واعلم أن من العجب أن يُبتلى الرجل بها فيريد أن ينتقص من ساعات نصَبه وعمله فيزيدها في ساعات دعته وشهوته ، وإنما الرأي له والحق عليه أن يأخذ لعمله من جميع شغله فيأخذ من طعامه وشرابه ونومه وحديثه ولهوه ونسائه ، فإذا تقلدت شيئاً من الأعمال فكن فيه أحد رجلين : إما رجلاً مغتبطاً به فحافَظَ عليه مخافة أن يزول عنه ، وإما رجلاً كارهاً فالكاره عاملٌ في سُخرَةٍ إما للملوك إن كانوا هم سلطوه وإما لله إن كان ليس فوقه غيره .

وإياك إذا كنت والياً أن يكون من شأنك حب المدح والتزكية وأن يعرف الناس ذلك منك فتكون ثلمة[1] من الثلم يتقحّمون عليك منها وباباً يفتتحوك منه وغيبةً يغتابونك بها ويضحكون منها . اعلم أن قابل المدح كمادح نفسه والمرءُ جدير أن يكون حبه المدح هوالذي يحمله على رده فإن الراد له محمود والقابل له معيب . لتكن حاجتك في الولاية إلى ثلاث خصال : رضى ربك ، ورضى سلطان إن كان فوقك ، ورضى صالح من تلي عليه . وما عليك أن تلهو عن المال والذكر فسيأتيك منهما ما يكفي ويطيب ، واجعل الخصال الثلاث بمكان ما لا بد لك منه والمال والذكر بمكان ما أنت واجد منه بداً .

اعرف أهل الدين والمروءة في كل كورة وقرية وقبيلة فيكونوا هم اخوانك

---

(١) الثلمة في الحائط ونحوه : الخلل ــ ومكان الكسر من الشيء المكسور .

وأعوانك وبطانتك وثقافتك ولا يقذفنَّ في روُعك أنك إن استشرت الرجّال ظهر للناس منك الحاجة إلى رأي غيرك ، فانك لست تريد الرأي للافتخار به ولكن تريده للانتفاع به ، ولو أنك مع ذلك أردت الذكر كان أحسن الذكرين وأفضلها عند أهل الفضل أن يقال لا يتفرّد برأيه دون استشارة ذوي الرأي ..

***

إنك إن تلتمس رضى جيمع الناس تلتمس ما لايدرك ، وكيف يتفق لك رأي المختلفين ، وما حاجتك إلى رضى مَن رضاهُ الجورُ وإلى موافقة من موافقتهُ الضلالةُ والجهالة ؛ فعليك بالتماس رضى الأخيار منهم وذوي العقل فانك متى تُصِبْ ذلك تضع عنك مؤونة ما سواه .

لا تمكن أهل البلاء من التذلل ولا تمكن مَنْ سواهم من الاجتراء عليهم والعيب لهم . لتعرف رعيتك أبوابك التي لا يُنال ما عندك من الخير إلا بها ، والأبواب التي لا يخافك خائف إلا من قبلها . احرص الحرص كله على أن تكون خبيراً بأمور عمالك فان المسيءَ يَفْرَق من خبرتك قبل أن تصيبه عقوبتك ، وإن المحسن يستبشر بعلمك قبل أن يأتيه معروفك .

ليعرف الناس فيما يعرفون من أخلاقك أنك لا تعاجل بالثواب ولا بالعقاب فان ذلك أدوَم لخوف الخائف ورجاء الراجي .

عوِّد نفسك الصبر على من خالفك من ذوي النصيحة والتجرّع لمرارة قولهم وعذلهم ، ولا تسهلن سبيل ذلك إلا لأهل العقل والسن والمروءَة لئلا ينتشر من ذلك ما يجترىءُ به سفيهٌ أو يستخفّ له شأنٌ . لا تتركن مباشرة جميع أمرك فيعود شأنك صغيراً ولا تلتزم نفسك مباشرة الصغير فيصير الكبير ضائعاً .

***

اعلم أن رأيك لا يتسع لكل شيءٍ ففرّغه للمهم ، وأنّ مالك لا يغني الناس كلهم فاختصّ به ذوي الحقوق ، وأن كرامتك لا تطيق العامة فتوّج بها أهل

الفضائل ، وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجاتك وإن دأبتَ فيهما وانه ليس لك إلى أدائها سبيل مع حاجة جسدك إلى نصيبه منهما فأحسن قسمتهما بين دعتك وعملك . واعلم أنك ما شُغِلت من رأيك بغير المهم أزرى بالمهم ، وما صرفت من مالك بالباطل فَقَدْتَهُ حين تريدهُ للحق ، وما عدلت به من كرامتك إلى أهل النقص أضرَّ بك في العجز عن أهل الفضل ، وما شغلت من ليلك ونهارك في غير الحاجة أزرى بك في الحاجة .

اعلم أن من الناس ناساً كثيراً يبلغ من أحدهم الغضب إذا غضب أن يحمله ذلك على الكلوح والتقطيب في وجه غير من أغضبه وسوء اللفظ لمن لا ذنب له والعقوبة لمن لم يكن يهم بعقوبته وسوء المعاقبة باليد واللسان لمن لم يكن يريد به إلا دون ذلك ؛ ثم يبلغ به الرضى إذا رضي أن يتبرَّع بالأمر ذي الخَطرِ لمن ليس بمنزلة ذلك عنده ويعطي من لم يكن أعطاه ويكرم من لا حق له ولا مودة ، فاحذر هذا الباب كله فإنه ليس أحد أسوأ حالاً من أهل القدرة الذين يفرّطون باقتدارهم في غضبهم وسرعة رضاهم ، فإنه لو وصف بصفة من يتلبّس بعقله أو يتخبّطه المسُّ من يعاقب في غضبه غير من أغضبه ويحبو عند رضاه غير من أرضاه لكان جائزاً في صفته .

ب — من « كليلة ودمنة »

قدمهَا بهنودُ بنُ سحوانَ ويعرفُ بعليّ بنِ الشاهِ الفارسيّ. ذكرَ فيهَا السببَ الذى منْ أجلهِ عملَ بيدبَا الفيلسوفُ الهنديُّ رأسُ البراهمةِ لدبشليمَ ملكِ الهندِ كتابهُ الذى سماهُ كليلةَ ودمنةَ ؛ وجعلهُ علَى ألسنِ البهائمِ والطيرِ صيانةً لغرضهِ فيهِ منَ العوامُ ، وضنًّا بمَا ضمنهُ عنِ الطغامِ ؛ وتنزيهاً للحكمةِ وفنونهَا ، ومحاسنهَا وعيونهَا ؛ إذْ هيَ للفيلسوفِ مندوحةٌ ، ولخاطرهِ مفتوحةٌ ؛ ولمحبيهَا تثقيفٌ ، ولطالبيهاَ تشريفٌ . وذكرَ السببَ الذى منْ أجلهِ أنفذَ كسرَى أنوشروانُ بنُ قباذَ بنِ فيروزَ ملكُ الفرسِ برزويهِ رأسَ الأطباءِ إلَى بلادِ الهندِ لأجلِ كتابِ كليلةَ ودمنةَ ؛ ومَا كانَ منْ تلطفِ برزويهِ عندَ دخولهِ إلَى الهندِ ؛ حتَّى حضرَ إليهِ الرجلُ الذى استنسخهُ لهُ سرًّا منْ خزانةِ الملكِ ليلاً ، معَ ما وجدَ منْ كتبِ علماءِ الهندِ . وقدْ ذكرَ الذى كانَ منْ بعثةِ برزويهِ إلَى مملكةِ الهندِ لأجلِ نقلِ هذَا الكتابِ ؛ وذكرَ فيهَا ما يلزمُ مطالعهُ منْ إتقانِ قراءتهِ والقيامِ بدراستهِ والنظرِ إلَى باطنِ كلامهِ ؛ وأنهُ إنْ لمْ يكنْ كذلكَ لمْ يحصلْ علَى الغايةِ منهُ . وذكرَ فيهَا حضورَ برزويهِ وقراءةَ الكتابِ جهراً . وقدْ ذكرَ السببَ الذى منْ أجلهِ وضعَ بزرْ جمهرُ باباً مفرداً يسمَّى بابَ برزويهِ المتطببَ ، وذكرَ فيهِ شأنَ برزويهِ منْ أولِ أمرهِ وآنِ مولدهِ إلَى أنْ بلغَ التأديبَ ، وأحبَّ الحكمةَ واعتبرَ في أقسامهَا . وجعلهُ قبلَ بابِ الأسدِ والثورِ الذى هوَ أولُ الكتابِ .

قالَ علي بنُ الشاهِ الفارسيُّ : كانَ السببَ الذى منْ أجلهِ وضعَ بيدبَا الفيلسوفُ لدبشليمَ ملكِ الهندِ كتابَ كليلةَ ودمنةَ ، أنَّ الإسكندرَ ذَا القرنيْنِ الروميَّ لمَّا فرغَ منْ أمرِ الملوكِ الذينَ كانُوا بناحيةِ المغربِ ، سارَ يريدُ ملوكَ المشرقِ منَ الفرسِ وغيرهمْ ؛ فلمْ يزلْ يحاربُ منْ نازعهُ ويواقعُ منْ واقعهُ ، ويسالمُ منْ وادعهُ منْ ملوكِ الفرسِ ، وهمُ الطبقةُ الأولَى ، حتَّى ظهرَ عليهمْ وقهرَ منْ ناوأهُ وتغلبَ علَى منْ حاربهُ ، فتفرقُوا طرائقَ وتمزقُوا حزائقَ . فتوجهَ بالجنودِ نحوَ بلادِ الصينِ ؛ فبدأَ في طريقهِ بملكِ الهندِ ليدعوهُ إلَى طاعتهِ والدخولِ في ملتهِ وولايتهِ . وكانَ علَى الهندِ في ذلكَ الزمانِ ملكٌ ذو سطوةٍ وبأسٍ وقوةٍ ومراسٍ ، يقالُ له فورٌ . فلما بلغهُ إقبالُ ذِى القرنينِ نحوهُ تأهبَ

لمحاربتهِ ، واستعدَّ لمجاذبتهِ ؛ وضمَّ إليهِ أطرافهُ ، وجدَّ في التألبِ عليهِ ؛ وجمعَ لهُ العدةَ في أسرعِ مدةٍ منَ الفيلةِ المعدةِ للحروبِ ، والسباعِ المضراةِ بالوثوبِ ؛ معَ الخيولِ المسرجةِ والسيوفِ القواطعِ ، والحرابِ اللوامعِ . فلمَّا قربَ ذو القرنينِ منْ فورٍ الهنديِّ وبلغهُ مَا قدْ أعدَّ لهُ منَ الحيلِ التي كأنهَا قطعُ الليلِ ممَّا لمْ يلقهُ بمثلهِ أحدٌ منَ الملوكِ الذينَ كانوُا في الأقاليمِ ، تخوفَ ذو القرنينِ من تقصيرٍ يقعُ بهِ إنْ عجلَ المبارزةَ . وكانَ ذو القرنينِ رجلاً ذاَ حيلٍ ومكايدَ ، معَ حسنِ تدبيرٍ وتجربةٍ ، فرأى إعمالَ الحيلةِ والتمهلَ ، واحتفرَ خندقاً علىَ عسكرهِ ؛ وأقامَ بمكانهِ لاستنباءِ الحيلةِ والتدبيرِ لأمرهِ ؛ وكيفَ ينبغي لهُ أنْ يقدمَ علَى الإيقاعِ بهِ فاستدعَى بالمنجمينَ ، وأمرهمْ بالاختيارِ ليومٍ موافقٍ تكونُ فيهِ سعادةُ لمحاربةِ ملكِ الهندِ والنصرةِ عليهِ . فاشتغلوا بذلكَ وكانَ ذو القرنينِ لايمرُّ بمدينةٍ إلاَّ أخذَ الصناعَ المشهورينَ منْ صناعِ بالحذقِ منْ كلِّ صنفٍ . فأنتجتْ لهُ همتهُ ودلتهُ فطنتهُ أنْ يتقدَّمَ إلَى الصناعِ الذينَ معهُ في أنْ يصنعُوا خيلاً منْ نحاسٍ مجوفةً عليهاَ تماثيلُ منَ الرجالِ ، علَى بكرٍ تجرِي ، إذَا دفعتْ مرتْ سراعاً . وأمرَ إذَا فرغُوا منهَا أنْ تحشَى أجوافُهاَ بالنفطِ والكبريتِ ، وتلبسَ وتقدمَ أمامَ الصفِّ في القلبِ . ووقتَ ما يلتقي الجمعانِ تضرمُ فيهَا النيرانُ . فإنَّ الفيلةَ إذَا لفتْ خراطيمهَا علَى الفرسانِ وهيَ حاميةٌ ، ولتْ هاربةً ، وأوعزَ إلىَ الصنَّاعِ بالتشميرِ والانكماشِ والفراغِ منهَا . فجدوا في ذلكَ وعجلُوا . وقربَ أيضاً وقتُ اختيارِ المنجمينَ . فأعادَ ذُو القرنينِ رسلهُ إلى فورٍ بمَا يدعوهُ إليهِ منْ طاعتهِ والإذعانِ لدولتهِ . فأجابَ جوابَ مُصرٍّ علَى مخالفتهِ ، مقيمٍ علَى محاربتهِ . فلمَّا رأى ذُو القرنينِ عزيمتهُ سارَ إليهِ بأهبتهِ ؛ وقدَّم فُورٌ الفيلةَ أمامهُ ، ودفعتِ الرجالُ تلكَ الحيلَ وتماثيلَ الفرسانِ ؛ فأقبلَتِ الفيلةُ نحوهَا ، ولفَّتْ خراطيمهَا عليهاَ . فلمَّا أحستْ بالحرارةِ ألقتْ منْ كانَ عليْهَا ، وداستهمْ تحتَ أرجلهَا ، ومضتْ مهزومةً هاربةً ، لا تلوِي علَى شيْءٍ ولاَ تمرُّ بأحدٍ إلاَّ وطئته وتقطع فُورٌ وجمعهُ ؛ وتبعهمْ أصحابُ الإسكندَرِ وأثخنُوا فيهم الجراحَ . وصاحَ الإسكندَرُ : يا ملكَ الهندِ ابرزْ إلينَا وأبقِ علَى عدتكَ وعيالكَ ، ولاَ تحملهمُ علَى الفناءِ . فإنهُ ليسَ منَ المروءةِ أنْ يرمي الملكُ في المهالكِ المتلفةِ والمواضعِ المجحفةِ بلْ يقيهمْ بمالهِ ويدفعُ عنهمْ بنفسهِ . فابرزْ إليَّ ودعِ الجندَ ، فأينَا قهرَ صاحبهُ فهوَ الأسعدُ . فلمَّا سمعَ فُورٌ

منْ ذى القرنينْ ذلكَ الكلامَ دعتهُ نفسهُ لملاقاتهِ طمعاً فيهِ ؛ وظنَّ ذلكَ فرصةً . فبرزَ إليهِ الإسكندرُ فتجاولاً علَى ظهرىْ فرسيهمَا ساعاتٍ منَ النهارِ ليسَ يلقَى أحدهُمَا منْ صاحبهِ فرصةً ؛ ولمْ يزالاَ يتعاركانِ . فلمَّا أعيَا الإسكندرَ أمرهُ ولمْ يجدْ لهُ فرصةً ولاَ حيلةً أوقعَ ذُو القرنينْ في عسكرهِ صيحةً عظيمةً ارتجتْ لهَا الأرضُ والعساكرُ ؛ فالتفتَ فورٌ عندمَا سمعَ الزعقةَ ، وظنها مكيدةً فى عسكرهِ ؛ فعاجلهُ ذُو القرنينْ بضربةٍ أمالتهُ عنْ سرجهِ ، وتبعهُ بأخرى ؛ فوقعَ علَى الأرضِ . فلمَّا رأتِ الهندُ ما نَزلَ بهمْ ، وماَ صارَ إليهِ مَلِكُهُمْ ؛ حمَلُوا على الإسكندرِ فقاتلوهُ قتالاً أحبُّوا معهُ الموتَ . فوعدهُمْ منْ نفسهِ الإحسانَ ، ومنحهُ اللهُ أكنافهمْ ؛ فاستولىَ علىَ بلادهمْ ، وملكَ عليهمْ رجلاً من ثقاتهِ ، وأقامَ بالهندِ حتى استوثقَ مما أرادَ منْ أمرهمْ واتفاقِ كلمتهمْ ؛ ثمَّ انصرفَ عنِ الهندِ وخلفَ ذلكَ الرجلَ عليهمْ . ومضَى متوجهاً نحوَ ما قصدَ لهُ . فلمَّا بعدَ ذُو القرنينْ عنِ الهندِ بجيوشهِ ، تغيرتِ الهندُ عمَّا كانُوا عليهِ منْ طاعةِ الرجُلِ الذِى خلفهُ عليهمْ ؛ وقالُوا ليسَ يصلحُ للسياسةِ ولاَ ترضَى الخاصةُ والعامةُ أن يُملكُوا عليهمْ رجلاً ليسَ هوَ منهمْ ولاَ منْ أهلِ بيوتهمْ . فإنَّه لاَ يزالُ يستذلهمْ ويستقلهمْ . واجتمعواْ يملكونَ عليهمْ رجلاً منْ أولادِ ملوكهمْ ؛ فملكُوا عليهم ملكاً يقالُ لهُ دبشليمُ ؛ وخلعُوا الرجلَ الذِى كانَ خلفهُ عليهمُ الإسكندرُ . فلمَّا استوسقَ لهُ الأمرُ ، واستقرَّ لهُ الملكُ ، طَغَى وبغىَ وتجبرَ وتكبرَ ؛ وجعلَ يغزُو منْ حولهُ منَ الملوكِ . وكانَ معَ ذلكَ مؤيداً مظفراً منصوراً . فهابتهُ الرعيةُ . فلمَّا رأى ماهُوَ عليهِ منَ الملكِ والسطوةِ ، عبثَ بالرعيةِ واستصغرَ أمرهمْ وأساءَ السيرةَ فيهمَ . وكانَ لا ترتقي حالهُ إلاَّ ازدادَ عُتُواً . فمكثَ علَى ذلكَ برهةً منْ دهرهِ . وكانَ في زمانهِ رجلٌ فيلسوفٌ منَ البراهمةِ ، فاضلٌ حكيمٌ ، يعرفُ بفضلهِ ، ويرجعُ في الأمورِ إلىَ قولهِ ، يقالُ لهُ بيدبا . فلمَّا رأى الملكَ وما هوَ عليهِ منَ الظلمِ للرعيةِ ، فكرَ في وجهِ الحيلةِ في صرفهِ عمَّا هوَ عليهِ ، وردهِ إلَى العدلِ والإنصافِ ؛ فجمعَ لذلكَ تلاميذهُ ، وقالَ : أتعلمونَ مَا أُريدُ أنْ أشاوركمْ فيهِ؟. اعلمُوا أنّي أطلتُ الفكرةَ في دبشليمَ ومَا هُو عليهِ منَ الخروجِ عنِ العدلِ ولزومِ الشرِّ ورداءةِ السيرَةِ وسوءِ العشرةِ معَ الرعيَّةِ ، ونحنُ ما نروضُ أنفسنَا لمثلِ هذِه الأمُورِ إذَا ظهرتْ منَ الملوكِ ، إلاَّ لنردهمْ إلى فعلِ الخيرِ ولزومِ العدْلِ . ومتىَ أغفلنَا ذلكَ وأهملناهُ لزمَ وقوعُ المكْروه بنَا ، وبلوغُ

الإساءاتِ إلينَا ؛ إذْ كنَّا في أنفسِ الجهالِ أجهلَ منهمْ ؛ وفي العيونِ عندهمْ أقلّ منهمْ . وليسَ الرأيُ عندىَ الجلاءَ عنِ الوطنِ . ولا يسعُنَا في حكمتِنَا إبقاؤهُ علىَ ما هوَ عليهِ منْ سوءِ السيرةِ وقبحِ الطريقَة . ولاَ يمكننَا مجاهدتهُ بغيرِ ألسنتنَا . ولوْ ذهبنَا إلَى أنْ نستعينَ بغيرنَا لمْ تتهيأْ لنَا معاندتُهُ . وإنْ أحَسَّ منَّا بمخالفتهِ وإنكارنَا سوءَ سيرتهِ كانَ في ذلكَ بوارنَا . وقدْ تعلمونَ أنَّ مجاورةَ السبعِ والكلبِ والحيةِ والثورِ علَى طيبِ الوَطنِ ونضارةِ العيشِ لغدرٌ بالنفسِ . وإنَّ الفيلسوفَ الحقِيقَ أنْ تكونَ همتهُ مصروفةً إلَى ما يحصنُ بهِ نفسهُ منْ نوازلِ المكروهِ ولواحقِ المحذورِ ؛ ويدفعُ المخوفَ لاستجلابِ المحبوبِ . ولقدْ كنتُ أسمعُ أنَّ فيلسوفاً كتبَ لتلميذه يقولُ : إنَّ مجاورَ رجالِ السوءِ ومصاحبهُمْ كراكبِ البحرِ : إنْ سلمِ منَ الغرقِ لمْ يَسْلَمْ منَ المخاوفِ . فإذَا هوَ أوردَ نفسهُ مواردَ الهلكاتِ ومصادرَ المخوفاتِ ، عدَّ منَ الحميرِ التي لاَ نفسَ لهاَ . لأنَّ الحيوانَ البهيميةَ قدْ خصتْ في طبائعهاَ بمعرفةِ ما تككتسبُ بهِ النفعَ وتتوقَّى المكروهَ : وذلكَ أنَنَا لمْ نرهَا توردُ أنفسهَا مورداً فيهِ هلكتهَا . وأنهَا متى أشرفتْ علَى موردِ مهلكٍ لهَا ، مالتْ بطبائعهَا التي ركبتْ فيهَا — شحاً بأنفسهَا وصيانةً لهَا — إلَى النفورِ والتباعدِ عنهُ . وقدْ جمعتكمْ لهذا الأمرِ : لأنكمْ أسرتي ومكانُ وموضعُ معرفتِي ؛ وبكمْ اعتضدُ ، وعليكمْ أعتمدُ . فإنَّ الوحيدَ في نفسهِ والمنفردَ برأيهِ حيثُ كانَ فهو ضَائعٌ ولاَ نَاصرَ لهُ . علَى أنَّ العاقلَ قدْ يبلغُ بحيلتهِ مالاَ يبلغُ بالخيلِ والجنودِ . والمثلُ في ذلكَ أنْ قنبرةً اتخذتْ أدحيةً وباضتْ فيها علَى طريقِ الفيلِ ؛ وكانَ للفيلِ مشربٌ يترددُ إليهِ . فمرَّ ذاتَ يومٍ علَى عادتهِ ليردَ موردهُ فوطىءَ عُشَّ القنبرةِ ؛ وهشمَ بيضهَا وقتلَ فراخهَا . فلما نظرتْ ما ساءهَا ، علمتْ أنَّ الذى نالهَا منَ الفيلِ لاَ مِنْ غيرهِ . فطارتْ فوقعتْ علَى رأسهِ باكيةً ؛ ثمَّ قالتْ أيهَا الملكُ لمَ هشمتَ بيضي وقتلتَ فراخِي ، وأنَا في جوارِكَ أفعلتَ هذَا استصغاراً منكَ لأمرِي واحتقاراً لشأني ؟ قَالَ هو الَّذى حملني علَى ذلكَ . فتركتهُ وانصرفتْ إلَى جماعةِ الطيْرِ فشكتْ إليهَا ما نالهَا منَ الفيلِ . فقلنَ لهَا ومَا عَسَى أنْ نبلغَ منهُ ونحنُ طيورٌ ؟ فقالتْ للعقاعقِ والغربانِ : أحبُّ منكنَّ أنْ تصرْنَ معي إليهِ فتفقأْنَ عينيْهِ ؛ فإنِّي أحتالُ لهُ بعدَ ذلكَ بحيلةٍ أخرىَ . فأجبنهَا إلى ذلكَ ، وذهبنَ إلَى الفيلِ ، ولمْ يزلنَ ينقرنَ عينيهِ حتَّى ذهبنَ بهمَا . وبقِي لاَ يهتدِي إلَى طريقِ مطعمهِ ومشربهِ

إلاَّ ما يلقمهُ منْ موضعهِ . فلمَّا علمتْ ذلكَ منهُ ، جاءتْ إلَى غديرٍ فيه ضفادعُ كثيرةٌ ، فشكتْ إليهَا ما نالهَا منَ الفيلِ . قالتِ الضفادعُ : ما حيلتُنَا نحنُ في عظَمِ الفيلِ ؟ وأينَ نبلغُ منهُ ؟ قالتْ : أحبُّ منكنَّ أنْ تصرنَ معي إلَى وهدةٍ قريبةٍ منهُ ، فتنقنقنَ فيهَا ، وتضججنَ . فإنهُ إذَا سمعَ أصواتكنَّ لمْ يشكَّ في الماءِ فيهوِي فيهَا . فأجبنهَا إلَى ذلكَ ؛ واجتمعنَ في الهاويةِ ، فسمعَ الفيلُ نقيقَ الضفادعِ ، وقدْ أجهدهُ العطشُ ، فأقبلَ حتَّى وقعَ في الوهدةِ ، فارتطمَ فيهَا . وجاءتْ القنبرةُ ترفرفُ علَى رأسهِ ؛ وقالتْ : أيهَا الطاغي المغترُّ بقوتهِ المحتقرُ لأمرِي ، كيفَ رأيتَ عظمَ حيلتي معَ صغرِ جثتي عندَ عظمِ جثتكَ وصغرِ همتكَ ؟

فليشرْ كلُّ واحدٍ منكمْ بما يسنحُ لهُ منَ الرأيِ . قالُوا بأجمعهمْ : أيها الفيلسوفُ الفاضلُ ، والحكيمُ العادلُ ، أنتَ المقدمُ فينَا ، والفاضلُ علينَا ، وماَ عسَى أنْ يكونَ مبلغُ رأينَا عندَ رأيكَ ، وفهمنَا عندَ فهمكَ ؟ غيرَ أننَا نعلَمُ أنَّ السباحةَ في الماءِ معَ التمساحِ تغريرٌ ؛ والذنبُ فيهِ لمنْ دخلَ عليه في موضعهِ . والذي يستخرجُ السمَّ منْ نابِ الحيةِ فيبتلعهِ ليجربهُ جانٍ علَى نفسهِ ؛ فليسَ الذنبُ للحيةِ . ومَنْ دخلَ علَى الأسدِ في غابتهِ ، لمْ يأمنْ من وثبتهِ . وهذا الملكُ لمْ تفزعهُ النوائبُ ، ولمْ تؤدبهُ التجاربُ . ولسنَا نأمنُ عليكَ ولاَ علَى أنفسنَا سطوتهُ وإنَّا نخافُ عليكَ منْ سورتهِ ومبادرتهِ بسوءٍ إذا لقيتهُ بغيرِ ما يحبُّ . فقال الحكيمُ بيدبَا : لعمرِي لقدْ قلتمْ فأحسنتمْ ، لكنَّ ذَا الرأيِ الحازمَ لاَ يَدعُ أنْ يشاورَ منْ هوَ دونهُ أوْ فوقهُ في المنزلةِ . والرأيُ الفردُ لاَ يكتفَى بهِ في الخاصَّةِ ولاَ ينتفعُ بهِ في العامةِ . وقدْ صحتْ عزيمتي علَى لقاءِ دبشليمَ . وقدْ سمعتُ مقالتكمْ ؛ وتبيَّنَ لي نصيحتكمْ والإشفاقُ عليَّ وعليكمْ . غيرَ أني قدْ رأيتُ رأياً وعزمتُ عزماً ؛ وستعرفونَ حديثي عندَ الملكِ ومجاوبتي إياهُ فإذَا اتصلَ بكمْ خروجي منْ عندهِ فاجتمعُوا إليَّ . وصرفهمْ وهمْ يدعونَ لهُ بالسلامَةِ .

ثم إنَّ بيدبَا اختارَ يوماً للدخُولِ علَى الملكِ ؛ حتَّى إذَا كانَ ذلكَ الوقتُ ألقَى عليهِ مسوحهُ وهي لباسُ البراهمةِ ؛ وقصدَ بابَ الملكِ ، وسألَ عنْ صاحبِ إذنهِ وأرشدَ إليهِ وسلَّمَ عليهِ ؛ وأعلمهُ وقالَ لهُ : إني رجلٌ قصدتُ

الملكَ في نصيحةٍ . فدخلَ الآذنُ علَى الملكِ في وقتهِ ؛ وقالَ : بالبابِ رجلٌ منَ البراهمةِ يقالُ لهُ بيدبَا ؛ ذكرَ أنَّ معهُ للملكِ نصيحةً . فأذنَ لهُ ؛ فدخلَ ووقفَ بينَ يديهِ وكفَّر وسجدَ لهُ واستوى قائماً وسكتَ . وفكرَ دبشليمُ في سكوتهِ ؛ وقالَ : إنَّ هذَا لمْ يقصدنَا إلاَّ لأمرينِ : إمَّا لالتماسِ شيءٍ منَّا يصلحُ به حالهُ ، وإمَّا لأمرٍ لحقهُ فلمْ تكنْ لهُ به طاقةٌ . ثم قالَ : إنْ كانَ للملوكِ فضلٌ في مملكتِها فإنَّ للحكماءِ فضلاً في حكمتِها أعظمَ : لأنَّ الحكماءَ أغنياءُ عنِ الملوكِ بالعلمِ وليسَ الملوكُ بأغنياءَ عنِ الحكماءِ بالمالِ . وقدْ وجدتُ العلمَ والحياءَ إلفينِ متآلفينِ لا يفترقانِ : متَى فقدَ أحدهمَا لمْ يوجدِ الآخرُ ؛ كالمتصافيينِ إنْ عدمَ منهمَا أحدٌ لمْ يطبْ صاحبهُ نفساً بالبقاءِ بعدَهُ تأسفاً عليْهِ . ومنْ لمْ يستحي منَ الحكماءِ ويكرمهمْ ، ويعرفْ فضلهمْ علَى غيرهمْ ، ويصنهمْ عنِ المواقفِ الواهنةِ ، وينزههمْ عنِ المواطنِ الرذْلَةِ كَانَ ممنْ حُرِمَ عقلهُ ، وخسرَ دنياهُ ، وظلمَ الحكماءَ حقوقهمْ ، وعدَّ منَ الجهالِ . ثمَّ رفعَ رأسهُ إلَى بيدبَا ؛ وقالَ لهُ : نظرتُ إليكَ يابيدبَا ساكناً لا تعرضُ حاجتكَ ، ولاَ تذكرُ بغيتكَ ، فقلتُ : إنَّ الذى أسكتهُ هيبةٌ ساورتهُ أوْ حيرةٌ أدركتهُ ؛ وتأملتُ عندَ ذلكَ من طولِ وقوفكَ ، وقلتُ : لمْ يكنْ لبيدبَا أنْ يطرقنَا علَى غيرِ عادةٍ إلاَّ لأمرٍ حركهُ لذلكَ ؛ فإنهُ منْ أفضلِ أهلِ زمانهِ . فهلا نسألهُ عنْ سببِ دخولهِ ! فإنْ يكُن منْ ضيمٍ نالهُ ، كنتُ أولَى منْ أخذَ بيدهِ وسارعَ في تشريفهِ ، وتقدمَ في البلوغِ إلَى مُرادهِ وإعزازهِ ؛ وإنْ كانتْ بغيتهُ غرضاً منْ أغراضِ الدنيَا أمرتُ بإرضائهِ من ذلكَ فيما أحبُّ ؛ وإنْ يكنْ منْ أمرِ الملكِ ، وممَّا لا ينبغي للملوكِ أنْ يبذلوهُ منْ أنفسهمْ ولاَ ينقادوا إليهِ نظرتُ في عقوبتهِ ؛ علَى أنَّ مثلهُ لمْ يكنْ ليجترىءَ علَى إدخالِ نفسهِ في بابِ مسألَةِ الملوكِ ؛ وإنْ كانَ شيئاً منْ أمورِ الرعيةِ يقصدُ فيه أنَّي أصرفُ عنايتي إليهمْ ، نظرتُ ما هوَ ؛ فإنَّ الحكماءَ لاَ يشيُرونَ إلاَّ بالخيرِ ، والجهالَ يشيرونَ بضدهِ . وأنَا قدْ فسحتُ لكَ في الكلامِ . فلمَّا سمعَ بيدبَا ذلكَ منَ الملكِ أفرخَ روعهُ ؛ وسرىَ عنهُ ما كانَ وقعَ في نفسهِ منْ خوفهِ وكفرَ لهُ وسجدَ ؛ ثمَّ قامَ بينَ يديهِ وقالَ : أولَ ما أقولُ أسألُ اللهَ تعالَى بقاءَ الملكِ علَى الأبدِ ، ودوامَ ملكهِ علَى الأمَدِ : لأنَّ الملكَ قدْ منحني في مقامي هذَا محلاً جعلهُ شرفاً لي علَى جميعِ منْ بعدى منَ العلماءِ ؛ وذكراً باقياً علَى الدهرِ عندَ الحكماءِ . ثمَّ أقبلَ علَى الملكِ بوجههِ ، مستبشراً بهِ

فرحاً بمَا بدأَ لهُ منهُ ، وقالَ : قدْ عطفَ الملكُ عليَّ بكرمِهِ وإحسانِهِ . والأمرُ الذى دعاني إلى الدخولِ علَى الملكِ ، وحملني علَى المخاطرةِ لكلامِهِ ، والإقدامِ عليهِ ، نصيحةٌ اختصصتُهُ بهَا دونَ غيرِهِ . وسيعلمُ منْ يتصلُ به ذلكَ أنى لمْ أقصرْ عنْ غايةٍ فيمَا يجبُ للمولَى علَى الحكماءِ . فإن فسحَ في كلامي ووعاهُ عنِّي ، فهوَ حقيقٌ بذلكَ ومَا يراهُ ؛ وإنْ هوَ ألقاهُ ؛ فقدْ بلغتُ ما يلزمني وخرجتُ منْ لومٍ يلحقني . قالَ الملكُ يابيدبَا تكلمْ كيفَ شئتَ : فإنني مصغٍ إليكَ ، ومقبلٌ عليكَ ، وسامعٌ منكَ ، حتَّى أستفرغَ ما عندكَ إلَى آخرِهِ ، وأجازيكَ علَى ذلكَ بمَا أنتَ أهلهُ . قالَ بيدبَا : إنى وجدتُ الأمورَ التي اختصَّ بهَا الإنسانُ منْ بينِ سائرِ الحيوانِ أربعةَ أشياءَ ، وهيَ جُمَّاعُ ما في العالمِ ، وهيَ الحكمةُ والعفةُ والعقلُ والعدلُ . والعلمُ والأدبُ والرويةُ داخلةٌ في بابِ الحكمةِ . والحلمُ والصبرُ والوقارُ داخلةٌ في بابِ العقلِ . والحياءُ والكرمُ والصيانةُ والأنفةُ داخلةٌ في بابِ العفة . والصدقُ والإحسانُ والمراقبةُ وحسنُ الخلقِ داخلةٌ في بابِ العدلِ . وهذه هِيَ المحاسنُ ، وأضدادُها هِيَ المساوىءُ . فمتىَ كَمُلَتْ هذهِ في واحدٍ لمْ تخرجهُ الزيادةُ في نعمةٍ إلَى سوءِ الحظ منْ دنياهُ ولاَ إلَى نقصٍ ف عقباهُ ، ولمْ يتأسفْ علَى ما لمْ يُعنْ التوفيقُ ببقائهِ ، ولمْ يحزنهُ ما تجرِى بهِ المقاديرُ في ملكهِ ، ولمْ يدهشْ عندَ مكروهٍ . فالحكمةُ كنزٌ لا يفنَى علَى إنفاقٍ ، وذخيرةٌ لا يُضرَبُ لهَا بالإملاقِ ، وحلَّة لا تخلقُ جدتهَا ، ولذةٌ لا تُصَرَّمُ مدتهاَ . ولئنْ كُنتُ عندَ مقامي بينَ يدَى الملكِ امسكتُ عنِ ابتدائهِ بالكلامِ ، إنَّ ذلكَ لمْ يكنْ مني إلا لهيبتهِ والإجلالِ لهُ . ولعمرِى إنَّ الملوكَ لأهلٌ أنْ يهابُوا ؛ لا سيمَا منْ هوَ في المنزلَة التي جلَّ فيها الملِكُ عنْ منازلِ الملوكِ قبلهُ . وقد قالتِ العلماءُ : الزمِ السكوتَ ؛ فإنَّ فيهِ سلامةً ؛ وتجنبِ الكلامَ الفارغَ ؛ فإنَّ عاقبتهُ الندامةُ . وحكىَ أنَّ أربعةً منَ العلماءِ ضمهمْ مجلسُ ملكٍ ، فقالَ لهمْ : ليتكلمْ كلٌّ بكلامٍ يكونُ أصلاً للأدبِ . فقالَ أحدهمْ : أفضلُ خَلَّةِ العلمِ السُّكوتُ . وقال الثاني : إنَّ منْ أنفعِ الأشياءِ للإنسانِ أنْ يعرفَ قدرُ منزلتهِ منْ عقلهِ وقالَ الثالثُ : أنفعُ الأشياءِ للإنسانِ ألاَّ يتكلمَ بمَا لا يعنيهِ . وقالَ الرابعُ : أروحُ الأمورِ علَى الإنسانِ التسليمُ للمقاديرِ . واجتمعَ في بعضِ الزمانِ ملوكُ الأقاليمِ منَ الصينِ والهندِ وفارسَ والرومِ ؛ وقالوا ينبغي أنْ يتكلمَ كلُّ واحدٍ منَّا بكلمةٍ تدونُ عنهُ علَى

غابرِ الدهرِ . فقالَ ملكُ الصينِ : أنا علَى ما لمْ أقلْ أقدرُ مني علَى ردِّ ما قلتُ . وقالَ ملكُ الهندِ : عجبتُ لمنْ يتكلمُ بالكلمةِ فإنْ كانتْ لهُ لمْ تنفعهُ ، وإنْ كانتْ عليهِ أوْ بقتْهُ . وقالَ ملكُ فارسَ : أنا إذا تكلمتُ بالكلمةِ ملكتني ، وإذا لمْ أتكلمْ بهَا ملكتهَا . وقالَ ملكُ الرومِ : ما ندمتُ علَى ما لمْ أتكلمْ بهِ قطُّ ، ولقدْ ندمتُ علَى ما تكلمتُ بهِ كثيراً . والسكوتُ عندَ الملوكِ أحسنُ منَ الهذَرِ الذي لا يرجعُ منهُ إلَى نفعٍ . وأفضلُ ما استظلَّ بهِ الإنسانُ لسانهُ . غيرَ أنَّ الملكَ ، اطالَ اللهُ مدتهُ ، لمَّا فسحَ لي في الكلامِ وأوسعَ لي فيهِ ؛ كانَ أولَى ما أبدأُ بهِ منَ الأمورِ التي هيَ غرضيَ أنْ يكونَ ثمرةُ ذلكَ لهُ دوني ؛ وأنْ أختصهُ بالفائدةِ قبلي . علَى أنَّ العقبَى هيَ ما أقصدُ في كلامي لهُ ؛ وإنمَا نفعهُ وشرفهُ راجعٌ إليَّهِ ؛ وأكونُ أنا قدْ قضيتُ فرضاً وجبَ عليَّ فأقولُ :

أيهَا الملكُ إنكَ في منازلِ آبائكَ وأجدادكَ منَ الجبابرةِ الذينَ أسسُوا الملكَ قبلكَ ، وشيدوهُ دونكَ ، وبنواْ القلاعَ والحصونَ ، ومهدوا البلادَ ، وقادوا الجيوشَ ؛ واستجاشُوا العدةَ ، وطالتْ لهمُ المدةُ ؛ واستكثروا منَ السلاحِ والكراعِ ؛ وعاشُوا الدهورَ ، في الغبطةِ والسرورِ ؛ فلمْ يمنعهمْ ذلكَ منَ اكتسابِ جميلِ الذكرِ ، ولا قطعهمْ عنِ اغتنامِ الشكرِ ؛ ولا استعمالِ الإحسانِ إلَى منْ خوَّلُوهُ ، والإرفاقِ بمنْ ولوهُ ، وحسنِ السيرةِ فيمَا تقلدوهُ ؛ معَ عظمِ ما كانُوا فيهِ منْ غرةِ الملكِ ، وسكرةِ الاقتدارِ . وإنكَ أيهَا الملكُ السعيدُ جدهُ ، الطَّالعُ كوكبُ سعدهِ ، قدْ ورثتَ أرضهُمْ وديارهُمْ وأموالهمْ ومنازلهُم التي كانتْ عدتهمْ ؛ فأقمتَ فيمَا خُوِّلتَ منَ الملكِ وورثتَ منْ الأموالِ والجنودِ ؛ فلمْ تقمْ في ذلكَ بحقِّ ما يجب عليكَ ؛ بلْ طغيتَ وبغيتَ وعتوتَ وعلوتَ علَى الرعيةِ ، وأسأتَ السيرةَ ، وعظمتْ منكَ البليةُ . وكانَ الأولَى والأشبهَ بكَ أنْ تسلكَ سبيلَ أسلافكَ ، وتتبعَ آثارَ الملوكِ قبلكَ ، وتقفو محاسنَ ما أبقوه لكَ ، وتقلع عما عارهُ لازمٌ لكَ ، وشينهُ واقعٌ بكَ ، تحسنُ النظرَ برعيتكَ ، وتسنُّ لهمْ سننَ الخيرْ الذى يبقَى بعدَكَ ذكرُهُ ، ويعقبكَ الجميلَ فخرهُ ؛ ويكونُ ذلكَ أبقَى علَى السلامةِ وأدومَ علَى الاستقامةِ . فإنَّ الجاهلَ المغترَّ منِ استعملَ في أمورهِ البطرَ والأمنيةَ ، والحازمَ اللبيبَ منْ ساسَ الملكَ بالمدارةِ والرفقِ ؛ فانظرْ أيهاَ الملكُ ما ألقيتُ إليكَ ، ولا يثقلنَّ ذلكَ عليكَ :

ولكنّي أتيتك ناصحاً مشفقاً عليكَ .

فلمّا فرغَ بيدبَا منْ مقالتِهِ ، وقضَى مناصحتهُ ، أوغرَ صدرَ الملكِ فأغلظ لهُ في الجوابِ استصغاراً لأمرهِ ؛ وقالَ : لقدْ تكلمتَ بكلامٍ ما كنتُ أظنُّ أنَّ أحداً منْ أهلِ مملكتي يستقبلني بمثلِهِ ، ولا يُقدمُ علَى ما أقدمتَ عليهِ . فكيفَ أنتَ معَ صغرِ شأنكَ ، وضعفِ منكَ وعجزِ قوتكَ ؟ ولقدْ أكثرتَ إعجابي منْ إقدامكَ علَيَّ ، وتسلطكَ بلسانكَ فيمَا جاوزتَ فيهِ حدكَ . وما أجدُ شيئاً في تأديبِ غيركَ أبلغَ منَ التنكيلِ بكَ . فذلكَ عبرةٌ وموعظةٌ لمنْ عساهُ أن يبلغَ ويرومَ مارمتَ أنتَ منَ الملوكِ إذَا أوسعُوا لهمْ في مجالسهمْ . ثمَّ أمرَ بهِ أنْ يقتلَ ويصلبَ . فلمَّا مضوْا بهِ فيمَا أمرَ ، فكرَ فيمَا أمرَ بهِ فأحجمَ عنهُ ، ثمَّ أمرَ بحبسهِ وتقييدِهِ . فلمَّا حِبسَ أنفذَ في طلَبِ تلاميذِه ومنْ كانَ يجتمعُ إليهِ فهربُوا في البلادِ واعتصمُوا بجزائرِ البحارِ ؛ فمكثَ بيدبَا في محبسهِ أياماً لا يسألُ الملكُ عنهُ ، ولا يلتفتُ إليهِ ؛ ولا يجسُرُ أحدٌ أنْ يذكرهُ عندهُ ؛ حتَّى إذا كانَ ليلةٌ منَ الليالِي سَهِدَ الملكُ سُهداً شديداً ؛ فطالَ سهدُهُ ، ومدَّ إلَى الفلَكِ بصَرَهُ ؛ وتفَكَّرَ في تفلكِ الفلَكِ وحركاتِ الكواكبِ ، فأغرقَ الفكر فيهِ ؛ فسلكَ بهِ إلَى استنباطِ شيءٍ عرضَ لهُ منْ أمورِ الفلَكِ ، والمسألة عنهُ . فذكرَ عندَ ذلكَ بيدبَا ، وتفكرَ فيمَا كلمهُ بهِ ؛ فارعوَى لذلكَ . وقالَ في نفسهِ : لقَدْ أسأتُ فيمَا صنعتُ بهذَا الفيلسُوفِ ، وضيَّعْتُ واجب حقهَ ؛ وحملني علَى ذلكَ سرعةُ الغضبِ . وقدْ قالتِ العلماءُ : أربعةٌ لا ينبغِي أنْ تكونَ في الملوكِ : الغضبُ فإنهُ أجدرُ الأشياءِ مقتاً ؛ والبخلُ فإنَّ صاحبهُ ليسَ بمعذورٍ معَ ذاتِ يدهِ ؛ والكذبُ فإنهُ ليسَ لأحدٍ أنْ يجاورهُ ؛ والعنفُ في المحاورةِ فإنَّ السفهَ ليسَ منْ شأنهَا . وإنِّي أتَى إليَّ رجلٌ نصحَ لي ، ولمْ يكنْ مُبلِّغاً ؛ فعاملتُهُ بضدِّ ما يستحقّ ، وكافأتهُ بخلافِ ما يستوجبُ . وما كانَ هذا جزاءهُ منِّي ؛ بلْ كانَ الواجبَ أنْ أسمَعَ كلامهُ ، وأنقادَ لمَا يشيرُ بهِ . ثُم أنفذَ في ساعتهِ منْ يأتيهِ بهِ . فلمَّا مثلَ بينَ يديهِ قالَ لهُ : يابيدبَا ألستَ الذي قصدتَ إلَى تقصيرِ همتي ، وعجزتَ رأيي في سيرتِي بمَا تكلمتَ بهِ آنفاً ؟ قالَ لهُ بيدبَا : أيها الملِكُ الناصحُ الشفيقُ ، والصادقُ الرفيقُ ، إنمَا نبأتُكَ بمَا فيهِ صلاحٌ لكَ ولرعيتكَ ، ودوامُ ملككَ لكَ . قالَ لهُ الملِكُ : يا بيدبَا أعدْ

عليَّ كلامك كلهُ ، ولا تدعْ منهُ حرفاً إلاَّ جئتَ بهِ . فجعلَ بيدبَا ينثرُ كلامهُ ، والملكُ مصغٍ إليْهِ . وجعلَ دبشليمُ كلمَا سمعَ منهُ شيئاً ينكتُ الأرض بشيءٍ كانَ في يدهِ . ثمَّ رفعَ طرفهُ إلَى بيدبَا ، وأمرهُ بالجلوسِ . وقالَ لهُ : يا بيدبَا ؛ إنِّي قدِ استعذبتُ كلامكَ وحسنَ موقعهُ منْ قلبِي . وأنَا ناظرٌ في الذي أشرْتَ بهْ ، وعاملٌ بمَا أمرتَ . ثمَّ أمرَ بقيودهِ فحلتْ . وألقَى عليهِ من لباسهِ ، وتلقاهُ بالقبولِ . فقالَ بيدبَا : يأيهَا الملكُ ، إنَّ فى دونِ ما كلمتكَ بهِ نهيةٌ لمثلكَ . قالَ : صدقتَ أيهَا الحكيمُ الفاضلُ . وقدْ وليتكَ منْ مجلسِي هذَا إلَى جميعِ أقاصِي مملكتِي . فقالَ لهُ : أيهَا الملكُ أعفني منْ هذاَ الأمرِ : فإنِّي غيرُ مضطلعٍ بتقويمهِ إلا بكَ . فأعفاهُ منْ ذلكَ . فلمَّا انصرفَ ، علمَ أنَّ الذى فعلهُ ليسَ برأيٍ ، فبعثَ فردهُ . وقالَ : إنِّي فكرتُ فى إعفائكَ ممَّا عرضتهُ عليكَ فوجدتهُ لا يقومُ إلاَّ بكَ ، ولا ينهضُ بهِ غيركَ ، ولاَ يضطلعُ بهِ سواكَ . فلاَ تخالفني فيهِ . فأجابهُ بيدبَا إلى ذلكَ .

وكانَ عادةُ ملوكِ ذلكَ الزمانِ إذَا استوزروا وزيراً أن يعقدوا علَى رأسهِ تاجاً ، ويركَبَ في أهلِ المملكَةِ ، ويطافَ بهِ في المدينَةِ . فأمرَ الملكُ أنْ يفعلَ ببيدبَا ذلكَ . فوضعَ التاجُ علَى رسهِ ، وركبَ في المدينةِ ورجعَ فجلسَ بمجلسَ العدلِ والإنصافِ : يأخذُ للدني منَ الشريفِ ، ويساوِى بينَ القوىِّ والضعيفِ ؛ وردَّ المظالمِ ، ووضعَ سننَ العدلِ ، وأكثرَ منَ العطَاءِ والبذلِ . واتصل الخبَرُ بتلاميذهِ فجاءُوهُ منْ كلِ مكانٍ ، فرحينَ بما جددَ اللهُ لهُ منْ جديد رأيِ الملكِ في بيدبَا ؛ وشكرُوا اللهَ تعالَى علَى توفيقِ بيدبَا في إزالةِ دبشليم عما كانَ عليهِ منْ سوءِ السيرةَ ، واتخذوا ذلكَ اليومَ عيداً يعيدونَ فيهِ فهوَ إلَى اليومِ عيدٌ عندهمْ في بلادِ الهندِ .

ثمَّ إنَّ بيدبَا لمَّا أخلَى فكرهُ منَ اشتغالهِ بدبشليمَ ، تفرَّغَ لوضعِ كتبِ السياسةِ ونشطَ لهَا ، فعملَ كتباً كثيرةً ، فيهاَ دقائقُ الحيلِ . ومضَى الملكُ علَى ما رسَمَ لهُ بيدبَا منْ حسنِ السيرةَ والعدلِ في الرعيةِ . فرغبتْ إليهِ الملوكُ الذينَ كانوا في نواحيه ، وانقادتْ لهُ الأمورُ علَى استوائهَا . وفرحتْ بهِ رعيتُهُ وأهلُ مملكتهِ . ثمَّ إنَّ بيدبَا جمع تلاميذهُ فأحسنَ صلتهمْ ، ووعدَهمْ وعداً جميلاً . وقالَ لهمْ : لستُ أشكُّ أنهُ وقعَ في نفوسكمْ وقتَ دخولِي علَى الملكِ أنْ قلتمْ : إنَّ بيدبَا قدْ ضاعتْحكمتُه ،وبطلتْ فكرتهُ : إذْ عزمَ علَى الدخولِ علَى

هذا الجبارِ الطاغِي. فقدْ علمتمْ نتيجةَ رأيي وصحةَ فكرِي . وإنّي لمْ آتِهِ جهلاً بِهِ : لأني كنتُ أسمعُ لمِنَ الحكماءِ قبلي تقولُ : إنَّ الملوكَ لهَا سورةٌ كسورةِ الشرابِ : فالملوكُ لا تفيقُ مِنَ السورَةِ إلاَّ بمواعظِ العلماءِ وأدبِ الحكماءِ . والواجبُ علَى الملوكِ أنْ يتعظُوا بمواعظِ العلماءِ . والواجبُ علَى العلماءِ تقويمُ الملوكِ بألسنتِهَا ، وتأديبِها بحكمتهَا ، وإظهارُ الحجةِ البينةِ اللازمةِ لهمْ : ليرتدعُوا عمَّا همْ عليْهِ منَ الاعوجاجِ عنِ العدْلِ . فوجدتُ ما قالَت العلماءُ فرضاً واجباً علَى الحكماءِ لملوكهمْ ليوقظوهمْ منْ رقدتِهمْ ؛ كالطبيبِ الذى يجبُ عليهِ في صناعتِهِ حفظُ الأجسادِ علَى صحتِها أو ردهَا إلَى الصحةِ . فكرهْتُ أنْ يمُوتَ أو أموتَ وماَ يَبقَى علَى الأرضِ إلا منْ يقولُ : إنهُ كانَ بيدبَا الفيلسوفُ في زمانِ دبشليمَ الطاغى فلمْ يردَّهُ عمَّا كانَ عليْهِ . فإنْ قالَ قائلٌ : إنهُ لمْ يمكنْهُ كلامُهُ خوفاً علَى نفسهِ ، قالُوا : كانَ الهربُ منهُ ومنْ جوارِهِ أولَى بِهِ ؛ والانزعاجُ عنِ الوطنِ شديدٌ ؛ فرأيتُ أنْ أجودَ بحياتِي ، فأكونَ قدْ أتيتُ فيمَا بيني وبينَ الحكماءِ بعذرٍ عذراً . فحملتهَا علَى التغريرِ أوِ الظفرِ بمَا أريدُهُ . وكانَ منْ ذلكَ مَا أنتُمْ معاينوهُ : فإنهُ يقالُ في بعضِ الأمثالِ : إنهُ لمْ يبلغْ أحدٌ مرتبةً إلا بإحدَى ثلاثٍ : إمَّا بمشقةٍ تنالُهُ في نفسهِ ، وإمَّا بوضيعةٍ فى مالِهِ أو وكسٍ في دينهِ . ومنْ لمْ يركبِ الأهوالَ لمْ ينلِ الرغائبَ . وإنَّ الملكَ دبشليمَ قدْ بسطَ لساني في أنْ أضعَ كتاباً فيهِ ضروبُ الحكمةِ . فليضعْ كلُّ واحدٍ منكمْ شيئاً في أيِّ فنٍّ شاءَ ؛ وليعرضهُ عليَّ لأنظرَ مقدارَ عقلِهِ ، وأينَ بلغَ منَ الحكمةِ فهمهُ ، قالوا : أيها الحكيمُ الفاضلُ ، واللبيبُ العاقِلُ ، والذى وهَبَ لكَ ما منحكَ منَ الحكمةِ والعقلِ والأدبِ والفضيلةِ ، ما خطرَ هذاَ بقلوبنَا ساعةً قطُّ . وأنتَ رئيسنَا وفاضلنَا ، وبكَ شرفنَا ، وعلَى يدكَ انتعاشنَا . ولكنْ سنجهدُ أنفسنَا فيمَا أمرْتَ . ومكثَ الملكُ علَى ذَلِكَ منْ حسنِ السيرةِ زماناً يتولَّى ذلكَ لهُ بيدَباَ ويقومُ بِهِ .

ثمَّ إنَّ الملكَ دبشليمَ لمَّا استقرَّ لهُ الملكُ ، وسقطَ عنهُ النظرُ في أمورِ الأعداءِ بما قدْ كفاهُ ذلكَ بيدبَا ، صرفَ همتهُ إلَى النظرِ في الكتبِ التى وضَعَتْهَا فلاسفةُ الهندِ لآبائِهِ وأجدادِهِ ؛ فوقع في نفسِهِ أنْ يكونَ لهُ أيضاً كتابٌ مشروحٌ ينسبُ إليهِ وتذكرُ فيه أيامهُ كمَا ذكرِ آباؤهُ وأجدادهُ منْ قبلِهِ . فلمَّا عزمَ علَى ذلكَ ، علمَ أنهُ لا يقومُ ذلكَ إلاَّ ببيدبَا : فدعاهُ وخلاَ بِهِ ؛ وقالَ لهُ : يا بيدبَا ،

إنكَ حكيمُ الهندِ وفيلسوفُهَا . وإنّي فكرتُ ونظرتُ في خزائنِ الحكمةِ التي كانتْ للملوكِ قبلي ؛ فلمْ أرَ فيهمْ أحداً إلاَّ وقدْ وضعَ كتاباً يذكرُ فيهِ أيامهُ وسيرتهُ ، وينبيءُ عنْ أدبهِ وأهلِ مملكتهِ ، فمنهُ ما وضعتهُ الملوكُ لأنفسهَا ، وذلكَ لفضلِ حكمةٍ فيهَا ؛ ومنهُ ما وضعتهُ حكماؤهَا . وأخافُ أنْ يلحقني ما لحقَ أولئكَ ممَّا لا حيلةَ لي فيهِ ، ولا يُوجدُ في خزائني كتابٌ أذكرُ بهِ بعدي ، وأنسبُ إليه كما ذكرَ منْ كانَ قبلي لمنَ بعْدَهُم . وقدْ أحببتُ أنْ تضعَ لي كتاباً بليغاً تستفرغُ فيهِ عقلكَ يكونُ ظاهرهُ سياسةَ العامةِ وتأديبهَا ، وباطنهُ أخلاقَ الملوكِ وسياستَها للرعيةِ علَى طاعةِ الملكِ وخدمتهِ ؛ فيسقطُ بذلكَ عنّي وعنهمْ كثيرٌ ممَّا نحتاجُ إليهِ في معَاناةِ الملكِ . وأريدُ أنْ يبقى لي هذا الكتابُ بعدي ذكراً علَى غابرِ الدهورِ . فلمَّا سمعَ بيدبَا كلامهُ خرَّ لهُ ساجداً ، ورفعَ رأسهُ وقالَ : أيهَا الملكُ السعيدُ جدهُ ، علاَ نجمكَ ، وغابَ نحسكَ ، ودامتْ أيامكَ ؛ إنَّ الذى قدْ طبعَ عليهْ الملكُ منْ جودةِ القريحةِ ووفورِ العقلِ حركهُ لعالي الأمورِ ؛ وسمتْ بهِ نفسهُ وهمتهُ إلى أشرفِ المراتبِ منزلةً ، وأبعدهَا غايةً ؛ وأدامَ اللهُ سعادةَ الملكِ وأعانهُ علَى ما عزمَ منْ ذلكَ ، وأعانني علَى بلوغِ مرادهِ . فليأمُرِ الملكُ بما شاءَ منْ ذلكَ : فإنِّي صائرٌ إلَى غرضهِ ، مجتهدٌ فيهِ برأيي . قالَ لهُ الملكُ : يابيدبَا لمْ تزلْ موصوفاً بحسنِ الرأيِ وطاعةِ الملوكِ في أمورهمْ . وقدِ اختبرتُ منكَ ذلكَ ، واخترتُ أنْ تضعَ هذا الكتابَ ، وتعملَ فيهِ فكرَكَ ، وتجهدَ فيهِ نفسَكَ ، بغايةِ ما تجدُ إليهِ السبيلَ . وليكنْ مشتملاً علَى الجدِّ والهزلِ واللهوِ والحكمةِ والفلسفَةِ . فكَفَّرَ لهُ بيدَبَا وسجدَ ، وقالَ : قدْ أجبتُ الملكَ أدامَ اللهُ أيامهُ إلَى ما أمرني بهِ ، وجعلتُ بيني وبينهُ أجلاً . قالَ : وكمْ هوَ الأجلُ ؟ قالَ : سنةٌ . قالَ : قدْ أجلتكَ ؛ وأمرَ لهُ بجائزةٍ سنيَّةٍ تعينُهُ علَى عملِ الكتابِ فَبقي بيدبَا مفكراً في الأخذِ فيهِ ، وفي أيِّ صورةٍ يبتدىءُ بها فيهِ وفي وضعهِ .

ثمَّ إنَّ بيدبا جمعَ تلاميذهُ وقالَ لهمْ : إنَّ الملكَ قدْ ندبَني لأمرٍ فيهِ فخري وفخركمْ وفخرُ بلادكمْ ، وقدْ جمعتكمْ لهذا الأمرِ . ثمَّ وصفَ لهمْ ما سألَ الملكُ منْ أمرِ الكتابِ ، والغرضَ الذى قصدَ فيهِ ، فلمْ يقعْ لهمُ الفكرُ فيهِ . فلمَّا لمْ يجدْ عندهمْ ما يريدُهُ فكرَّ بفضلِ حكمتِهِ ، وعلمَ أنَّ ذلكَ أمرٌ إنما يتمِ باستفراغِ العقلِ وإعمالِ الفكرِ ؛ وقالَ : أرى السفينةَ لا تجري في البحْرِ إلا

بالملاحينَ : لأنهمْ يعدلونها ؛ وإنمَا تسلكُ اللجةَ بمدبرهَا الذِى تفردَ بإمرتِهَا ؛ ومتى شحنتْ بالركابِ الكثيرينَ وكثرَ ملاحُوهَا لمْ يؤمنْ عليهَا منَ الغرقِ . ولمْ يزلْ يفكرُ فيمَا يعملهُ في بابِ الكتابِ حتَّى وضعَهُ علَى الانفرادِ بنفسهِ ، معَ رجلٍ منْ تلاميذهِ كانَ يثقُ بهِ ؛ فخلاَ منفرداً معهُ ، بعدَ أنْ أعدَّ منَ الورقِ الذى كانتْ تكتبُ فيهِ الهندُ شيئاً ، ومنَ القوتِ ما يقومُ بهِ وبتلميذهِ تلكَ المدةَ . وجلسَا في مقصورةٍ ، وردَّا عليهمَا البابَ ثمَّ بدأَ في نظْمِ الكتابِ وتصنيفهِ ؛ ولمْ يزلْ هوَ يملي وتلميذهُ يكتبُ ، ويرجعُ هوَ فيهِ ؛ حتَّى استقرَّ الكتابُ علَى غايةِ الإتقانِ والإحكَامِ . ورتبَ فيهِ أربعةَ عشرَ باباً ؛ كلُّ بابٍ منهَا قائمٌ بنفسهِ . وفي كلِّ بابٍ مسألةٌ والجوابُ عنهَا ؛ ليكونَ لمنْ نظرَ فيهِ حظٌّ منَ الهدايةِ . وضمنَ تلكَ الأبوابُ كتاباً واحداً ؛ وسماه كتابَ كليلةَ ودمنةَ . ثمَّ جعلَ كلامهُ علَى ألسنِ البهائمِ والسباعِ والطيرِ : ليكونَ ظاهرهُ لهواً للخواصِّ والعوامِّ ، وباطنهُ رياضةً لعقولِ الخاصةِ . وضمنهُ أيضاً ما يحتاجُ إليهِ الإنسانُ منْ سياسةِ نفسهِ وأهلهِ وخاصتهِ ، وجميعِ ما يحتاجُ إليهِ منْ أمرِ دينهِ ودنياهُ ، وآخرتهِ وأولاهُ ؛ ويحضهُ علَى حسنِ طاعتهِ للملوكِ ويجنبهُ ما تكونُ مجانبتهُ خيراً له . ثمَّ جعلهُ باطناً وظاهراً كرسمِ سائرِ الكتُبِ التي برسمِ الحكمةِ : فصارَ الحيوانُ لهواً ، وما ينطقُ به حكمةً وأدباً . فلمَّا ابتدأَ بيدبَا بذلكَ جعلَ أولَ الكتابِ وصفَ الصديقِ ، وكيفَ يكونُ الصديقَانِ ، وكيفَ تقطعُ المودةُ الثابتةُ بينهمَا بحيلةِ ذِى النميمةِ . وأمرَ تلميذَهُ أنْ يكتبَ علَى لسانِ بيدبَا مثلَ ما كانَ الملكُ شرطهُ في أنْ جعلهُ لهواً وحكمةً . فذكرَ بيدبَا أنَّ الحكمةَ متى دخلهَا كلامُ النقلةِ أفسدهَا وجهلتْ حكمتهَا . فلمْ يزلْ هوَ وتلميذهُ يعملانِ الفكرَ فيمَا سألهُ الملكُ ، حتَّى فتقَ لهمَا العقلُ أنْ يكونَ كلامهمَا علَى لسانِ بهيمتينِ . فوقعَ لهمَا موضعُ اللهوِ والهزلِ بكلامِ البهائمِ . وكانتْ الحكمةُ ما نطقَا بهِ . فأصغتِ الحكماءُ إلَى حكمهِ وتركُوا البهائمَ واللهوَ ، وعلِموا أنهَا السببُ فى الَّذى وضعَ لهمْ . ومالتْ إليهِ الجهالُ عجباً منْ محاورةِ بهيمتيْنِ ، ولمْ يشكوا في ذلكَ ؛ واتخذوهُ لهواً ، وتركُوا معنى الكلامِ أنْ يفهموهُ ، ولمْ يعلمُوا الغرضَ الذِى وضعَ لهُ ؛ لأنَّ الفيلسوفَ إنمَا كانَ غرضهُ في البابِ الأولِ أنْ يخبرَ عنْ تواصلِ الإخوانِ كيفَ تتأكدُ المودَّةُ بينهمْ على التحفظِ منْ أهلِ السعايةِ والتحرزِ ممَّنْ يوقعُ العداوةَ بينَ المتحابينِ : ليجرَّ

بذلكَ نفعاً إلَى نفسهِ . فلمْ يزلْ بيدبَا وتلميذهُ في المقصورةِ ، حتَّى استتمَّا عملَ الكتابِ في مدةِ سنةٍ . فلمَّا تمَّ الحولُ أنفذَ إليهِ الملكُ أنْ قدْ جاءَ الوعدُ فماذَا صنعتَ ؟ فأنفذَ إليهِ بيدبَا : إنِّي علَى ما وعدتُ الملكَ . فليأمرني بحملهِ ، بعدَ أنْ يجمعَ أهلَ المملكةِ لتكونَ قراءتي هذَا الكتابَ بحضرتهمْ ، فلمَّا رجعَ الرسولُ إلَى الملكِ سُرَّ بذلكَ ، ووعدهُ يوماً يجمعُ فيهِ أهلَ المملكةِ . ثمَّ نادَى في أقاصِي بلادِ الهندِ ليحضرُوا قراءَةَ الكتابِ . فلمَّا كانَ ذلكَ اليومُ ، أمرَ الملكُ أنْ ينصبَ لبيدبَا سريرٌ مثلُ سريرهِ ، وكَراسِيٌّ لأبناءِ الملوكِ والعلماءِ . وأنفذَ فأحضرَهُ . فلمَّا جاءهُ الرسولُ قامَ فلبسَ الثيابَ التي كانَ يلبسُهَا إذَا دخلَ علَى الملوكِ وهيَ المسوحُ السودُ ، وحملَ الكتابَ تلميذُهُ . فلمَّا دخلَ علَى الملكِ وثبَ الخلائقُ بأجمعهِمْ ، وقامَ الملكُ شاكراً . فلمَّا قربَ منَ الملكِ كفَّر لهُ وسجدَ ، ولمْ يرفعْ رأسهُ . فقالَ لهُ الملكُ : يا بيدبَا ارفعْ رأسكَ ، فإنَّ هذَا يومُ هناءَةٍ وفرحٍ وسرورٍ ، وأمرهُ أنْ يجلسَ . فحينَ جلسَ لقراءَةِ الكتابِ ، سألهُ عنْ معنَى كلِّ بَابٍ منْ أبوابهِ ، وإلَى أيِّ شيْءٍ قصدَ فيهِ . فأخبرهُ بغرضهِ فيهِ ، وفي كلِّ بابٍ . فازدادَ الملكُ منهُ تعجباً وسروراً . فقالَ لهُ : يا بيدبَا ما عدوْتَ الَّذِى في نفسي . هذَا الذِى كنتُ أطلبُ ؛ فاطلبْ ما شئتَ وتحكمْ . فدعَا لهُ بيدبَا بالسعادةِ وطولِ الجدِّ . وقالَ : أيهَا الملكُ أمَّا المَالُ فلا حاجةَ لى فيهِ ، وأمَّا الكسوةُ فلا أختارُ علَى لبَاسى هذَا شيئاً ؛ ولستُ أخلي الملكَ منْ حاجةٍ . قالَ الملكُ : يا بيدبَا ما حاجتُكَ ؟ فكلُّ حاجةٍ لكَ قبلَنَا مقضيةٌ . قالَ : يأمرُ الملكُ أنْ يدونَ كتَابى هذَا كمَا دونَ آباؤهُ وأجدادهُ كتبهُمْ ، ويأمرُ بالمحافظَةِ عليهِ : فإنِّي أخافُ أنْ يخرجَ منْ بلادِ الهندِ ، فيتناولَهُ أهلُ فارسَ إذَا علموا بهِ ، فالملكُ يأمرُ ألاَّ يخرجَ منْ بيتِ الحكمةِ . ثمَّ دعَا الملكُ بتلاميذهِ وأحسنَ لهمُ الجوائزَ . ثمَّ إنهُ لمَّا ملكَ كسرَى أنو شروانُ وكانَ مستأثراً بالكتبِ والعلمِ والأدبِ والنظرِ في أخبارِ الأوائلِ وقعَ لهُ خبرُ الكتابِ ؛ فلمْ يقرَّ قرارهُ حتَّى بعثَ برزويهِ الطبيبَ وتلطفَ حتَّى أخرجهُ منْ بلادِ الهنْد فأقرَّهُ فى خزائنِ فارسَ .

بَابُ بَعْثَةِ بَرْزَوَيْهِ إِلَى بِلاَدِ الْهِنْدِ

أما بعدُ فإنَّ الله تعالىَ خلقَ الخلقَ برحمتهِ ، ومنَّ علَى عبادِهِ بفضلهِ وكرمهِ ورزقهمْ ما يقدرونَ بهِ علَى إصلاحِ معايشهمْ في الدنيَا ، ويدركونَ بهِ استنقاذَ أرواحهمْ منَ العذابِ فِي الآخرةِ ، وأفضلُ ما رزقهُمُ الله تعالَى ومنَّ بهِ عليهمُ العقلُ الذِى هوَ الدعامةُ لجميعِ الأشياءِ ، والذِى لاَ يقدرُ أحدٌ في الدنيَا علَى إصلاحِ معيشتهِ ولاَ إحرازِ نفعٍ ولاَ دفعِ ضرَرٍ إلاَّ بهِ . وكذلكَ طالبُ الآخرةِ المجتهدُ فِي العملِ المنجِّى بهِ روحهُ لاَ يقدرُ علَى إتمَامِ عملهِ وإكمالهِ إلاَّ بالعقلِ الَّذى هوَ سببُ كلِ خيرٍ ومفتاحُ كلِّ سعادةٍ . فليسَ لأحدٍ غنىً عنِ العقلِ . والعقلُ مكتسبٌ بالتجاربِ والأدبِ . ولهُ غريزةٌ مكنونةٌ في الإنسانِ كامنةٌ كالنارِ في الحجرِ لا تظهرُ ولاَ يرَى ضوءُهَا حتَّى يقدحَهَا قادحٌ منَ الناسِ ؛ فإذَا قُدحتْ ظهرتْ طبيعتهَا . وكذلكَ العقلُ كامنٌ في الإنسانِ لاَ يظهرُ حتَّى يظهرَهُ الأدبُ وتقويه التجاربُ . ومنْ رزقَ العقلَ ومنَّ بهِ عليهِ وأعينَ علَى صدقِ قريحتهِ بالأدَبِ حرصَ علَى طلبِ سعدِ جدهِ ، وأدركَ فِي الدنيَا أملهُ ، وحازَ فىَ الآخرةِ ثوابَ الصالحينَ . وقدْ رزقَ الله الملكَ السعيدَ أنوشروانَ منَ العقلِ أفضلهُ ، ومنَ العلمِ أجزلهُ ؛ ومنَ المعرفةِ بالأمورِ أصوبهَا ، ومنَ الأفعالِ أسدهَا ، ومنَ البحثِ عنِ الأصولِ والفروعِ أنفعهُ ؛ وبلغهُ منْ فنون اختلاف العلمِ ، وبلُوغِ منزلةِ الفلسفةِ ، ما لمْ يبلغهُ ملكٌ قطُّ منَ الملوكِ قبلهَ ؛ حتَّى كانَ فيمَا طلبَ وبحثَ عنهُ منَ العلمِ أنْ بلغهُ عنْ كتابٍ بالهندِ ، علمِ أنهُ أصلُ كلِّ أدبٍ ورأسُ كلِّ علمٍ ، والدليلُ علَى كلِّ منفعةٍ ، ومفتاحُ عملِ الآخرةِ وعلمهَا ، ومعرفةِ النجاةِ منْ هولهَا ؛ فأمَرَ الملكُ وزيرهُ بزرجمهرَ أنْ يبحثَ لهُ عن رجلٍ أديبٍ عاقلٍ منْ أهلِ مملكتهِ ، بصيرٍ بلسانِ الفارسيةِ ، ماهرٍ فِي كلامِ الهندِ ؛ ويكونُ بليغاً باللسانينِ جميعاً ، حريصاً علَى طلبِ العلمِ مجتهداً في استعمالِ الأدبِ ، مبادراً في طلبِ العلمِ ، والبحثِ عنْ كتبِ الفلسفةِ . فأتاهُ برجلٍ أديبٍ كاملِ العقلِ والأدبِ ، معروفٍ ، بصناعةِ الطبِّ ، ماهرٍ في الفارسيةِ والهنديةِ يقالُ لهُ برزويه ، فلمَّا دخلَ عليْه كفرَ وسجدَ بينَ يديهِ . فقالَ لهُ الملكُ : يا برزويه : إنى قدِ اخترتكَ لمَا بلغني منْ فضلكَ وعلمكَ وعقلكَ ، وحرصكَ علَى طلبِ العلمِ حيثُ كانَ . وقدْ بلغنى عنْ كتابٍ بالهندِ

مخزونٍ في خزائنهمْ ، وقصَّ عليهِ ما بلغَهُ عنهُ . وقالَ لهُ : تَجهزْ فإنِّي مرحلكَ إِلَى أرضِ الهندِ ؛ فتلطفْ بعقلكَ وحسنِ أدبكَ وناقدِ رأيكَ ، لاستخراجِ هذَا الكتابِ منْ خزائنهمْ ومنْ قبلِ علمائهمْ ؛ فتستفيدَ بذلكَ وتفيدنَا . وما قدرتَ عليهِ منْ كتبِ الهندِ ممَّا ليسَ في خزائنِنَا منهُ شيْءٌ فاحملهُ معكَ ؛ وخذْ معكَ منَ المالِ ما تحتاجُ إليهِ ، وعجلْ ذلكَ ، ولا تقصرْ في طلبِ العلومِ وإنْ أكثرتَ فيهِ النفقةَ ، فإنَّ جميعَ مَا في خزائني مبذولٌ لكَ في طلبِ العلومِ . وأمرَ بإحضارِ المنجمينَ ؛ فاختارُوا لهُ يوماً يسيرُ فيهِ ، وساعةً صالحةً يخرجُ فيهَا . وحملَ معهُ منَ المالِ عشرينَ جراباً ، كلُّ جرابٍ فيهِ عشرةُ آلافِ دينارٍ . فلمَّا قدمَ برزويهِ بلادَ الهندِ طافَ ببابِ الملكِ ومجالسِ السوقةِ ، وسألَ عنْ خواصِّ الملكِ والأشرافِ والعلماءِ والفلاسفةِ ؛ فجعلَ يغشاهمْ في منازلهمْ ، ويتلقاهُمْ بالتحيةِ ، ويخبرهُمْ بأنهُ رجلٌ غريبٌ قدمَ بلادهُمْ لطلَبِ العلُومِ والأدبِ ، وأنهُ محتاجٌ إِلَى معاونتهمْ في ذلكَ ، فلمْ يزلْ كذلكَ زماناً طويلاً يتأدَّبُ عنْ علماءِ الهندِ بما هوَ عالِمٌ بجميعهِ ، وكأنهُ لا يعلمُ منهُ شيئاً ؛ وهوَ بينَ ذلكَ يسترُ بغيتَهُ وحاجتهُ . واتخذَ فى تلكَ الحالةِ لطولِ مقامهِ أصدقاءَ كثيرةً منَ الأشرافِ والعلماءِ والفلاسفةِ والسوقةِ ومنْ أهلِ كلِّ طبقةٍ وصناعةٍ ؛ وكانَ قدِ اتخذَ منْ بينِ أصدقائهِ رجلاً واحداً قدِ اتخذهُ لسرهِ وما يُحِبُّ مشاورتهُ فيهِ ؛ للذِى ظهرَ لهُ منْ فضلهِ وأدبهِ ، واستبانَ لهُ منْ صحةِ إخائهِ ؛ وكانَ يشاورهُ في الأمورِ ، ويرتاحُ إليهِ في جميعِ ما أهمهُ . إلاَّ أنهُ كانَ يكتمُ منهُ الأمرَ الذِى قدمَ منْ أجلهِ لكىْ يبلوهُ ويخبرهُ ، وينظرَ هلْ هوَ أهلٌ أنْ يطلعهُ علَى سرِّه . فقالَ لهُ يوماً وهمَا جالسَان : يا أخِي ما أريدُ أنْ أكتمكَ منْ أمرِى فوقَ الذِى كتمتكَ . فاعلمْ أنِّى لأمرٍ قدمتُ ، وهوَ غيرُ الذِى يظهَرُ منِّى ؛ والعاقلُ يكتفِي منَ الرجلِ بالعلاماتِ منْ نظرهِ ، حتَّى يعلمَ سرَّ نفسهِ وَمَا يضمرُهُ قلبهُ . قالَ لهُ الهنديُّ : إنِّى وإنْ لمْ أكنْ بدأتكَ وأخبرتُكَ بمَا جئتَ لهُ ، وإياهُ تريدُ ؛ وأنكَ تكتمُ أمراً تطلبهُ ، وتظهرُ غيرهُ ؛ ما خفيَ عليَّ ذلكَ منكَ . ولكنِّى لرغبتِي فى إخائكَ ، كرهتُ أنْ أواجهكَ بهِ . وإنهُ قدِ استبانَ ما تخفيهِ مني . فأمَّا إذْ قدْ أظهرتَ ذلكَ ، وأفصحتَ به وبالكلاَمِ فيهِ ، فإنِّى مخبركَ عنْ نفسكَ ، ومظهرٌ لكَ سريرتكَ ، ومعلمكَ بحالكَ التي قدمتَ لهَا ؛ فإنكَ قدمتَ بلادنَا لتسلُبنَا كُتبنا النفيسةَ ، فتذهبَ بهَا إِلَى بلادكَ ، وتسرَّ بها ملكَكَ وكانَ قدومكَ بالمكرِ

والخديعةِ . ولكنّي لمّا رأيتُ صبركَ ومواظبتَكَ علَى طلبِ حاجتكَ ، والتحفظِ منْ أنْ يسقُطَ منّا الكلامُ ، معَ طولِ مكثكَ عندنا ، بشيءٍ يستدلُّ بهِ علَى سريرتكَ وأمورِكَ ، ازددتُ رغبةً في إخائكَ ، وثقةً بعقلكَ ، فأحببنا مودتكَ . فإنّي لمْ أرَ في الرجالِ رجلاً هوَ أرصنُ منكَ عقلاً ولا أحسنُ أدباً ، ولا أصبرُ علَى طلبِ العلمِ ولا أكتمُ لسرٍّ منكَ ؛ ولا سيمَا في بلادِ غربةٍ ، ومملكةٍ غيرِ مملكتكَ ، عندَ قومٍ لا تعرفُ سنتهمْ . وإنَّ عقلَ الرجلِ ليبينُ في ثماني خصالٍ : الأولَى الرفقُ . والثانيةُ أنْ يعرفَ الرجلُ نفسهُ فيحفظهَا . والثالثةُ طاعةُ الملوكِ ، والتحرّي لمَا يرضيهمْ . والرابعةُ معرفةُ الرجلِ موضعَ سرهِ ، وكيفَ ينبغي أنْ يطلعَ عليهُ صديقهُ . والخامسةُ أنْ يكونَ علَى أبوابِ الملوكِ أديباً ذَلِقَ اللسانِ . والسادسةُ أنْ يكونَ لسرهِ وسرِّ غيرهِ حافظاً . والسابعةُ أنْ يكونَ علَى لسانهِ قادراً ، فلاَ يتكلمُ إلاَّ بمَا يأمنُ تبعتهُ . والثامنةُ إنْ كانَ بالمحفلِ لا يتكلمُ إلاَّ بمَا يسألُ عنهُ . فمنِ اجتمعَتْ فيهِ هذهِ الخصالُ كانَ هوَ الداعيَ الخيرَ إلَى نفسهِ . وهذهِ الخصالُ كلهَا قدِ اجتمعتْ فيكَ ، وبانتْ لي منكَ . فاللهُ تعالَى يحفظكَ ، ويعينكَ علَى ما قدمتَ لهُ ؛ فمصادقتكَ إيايَ ، وإنْ كانتْ لتسلبني كنزي وفخري وعلمي ، تجعلكَ أهلاً لأنْ تسعفَ بحاجتكَ ، وتشفعَ بطلبتكَ ، وتعطَى سؤلكَ . فقالَ لهُ برزويهِ إنّي قدْ كنتُ هيأتُ كلاماً كثيراً ، وشعبتُ لهُ شعوباً ؛ وأنشأتُ لهُ أصولاً وطرقاً ؛ فلمّا انتهيتَ إلَى ما بدأتني بهِ منَ اطلاعكَ علَى أمري والّذي قدمتُ لهُ ، وألقيتهُ منْ ذاتِ نفسكَ ورغبتكَ فيمَا ألقيتَ منَ القولِ ، اكتفيتُ باليسيرِ منَ الخطابِ معكَ ، وعرفتُ الكبيرَ منْ أموري بالصغيرِ منَ الكلامِ ، واقتصرتُ بهِ معكَ علَى الإيجازِ . ورأيتُ منْ إسعافكَ إيايَ بحاجتي ما دلني علَى كرمكَ وحسنِ وفائكَ : فإنَّ الكلامَ إذَا ألقَى إلَى الفيلسوفِ ، والسرَّ إذَا استودِعَ إلَى اللبيبِ الحافظِ ، فقدْ حُصّنَ وبلغَ بهِ نهايةَ أملِ صاحبهِ ، كمَا يحصنُ الشيءُ النفيسُ في القلاعِ الحصينَةِ . قالَ لهُ الهنديُّ : لا شيءَ أفضلُ منَ المودَّةِ . ومنْ خلصتْ مودتهُ كانَ أهلاً أنْ يخلطهُ الرجلُ بنفسهِ ، ولا يدخرَ عنهُ شيئاً ، ولا يكتمهُ سراً : فإنَّ حفظَ السرِّ رأسُ الأدبِ . فإذَا كانَ السرُّ عندَ الأمينِ الكتومِ فقدِ احترزَ منَ التضييعِ ؛ معَ أنهُ خليقٌ ألاَّ يتكلمَ بهِ ؛ ولا يتمُّ سرٌّ بينَ اثنينِ قدْ علماهُ وتفاوضاهُ . فإذَا تكلمَ بالسرِ اثنانِ فلا بدَّ منْ ثالثٍ منْ جهةِ

أحدهمَا ؛ فإذَا صارَ إلَى الثلاثةِ فقدْ شاعَ وذاعَ ، حتَّى لا يستطيعَ صاحبهُ أنْ يجحدهُ ويكابرَ عنهُ ؛ كالغيمِ إذَا كانَ متقطعاً في السماءِ فقالَ قائِل : هذا غيمٌ متقطعٌ ، لا يقدرُ أحدٌ علَى تكذيبِهِ . وأنَا قدْ يداخلني منْ مودتكَ وخلطتكَ سرورٌ لا يعدلُهُ شيءٌ . وهذَا الأمرُ الذِى تطلبُهُ منِّي أعلمُ أنهُ منَ الأسرارِ التى لا تكتمُ ، فلاَ بُدَّ أنْ يفشو ويظهَر ، حتَّى يتحدثَ بِهِ الناسُ . فإذَا فشَا فقدْ سعيتُ في هلاكي هلاكاً لا أقدرُ على الفداءِ منهُ بالمَالِ وإنْ كثرَ ؛ لأنَّ ملكنَا فظٌّ غليظٌ ، يعاقبُ علَى الذنْبِ الصغيرِ أشدَّ العقابِ ؛ فكيفَ مثلُ هذَا الذنبِ العظيمِ ؟ وإذَا حملتنِي المودةُ التي بيني وبينَكَ فأسعفتُكَ بحاجتكَ لَمْ يردُّ عقابَهُ عنِّي شيءٌ . قالَ برزويهِ : إنَّ العلماءَ قدْ مدحَتْ الصديقَ إذَا كتمَ سرَّ صديقِهِ وأعانهُ علَى الفوزِ . وهذَا الأمرُ الذِى قدمتُ لهُ ، لمثلكَ ذَخرْتُه ، وبكَ أرجُو بلوغهُ ؛ وأنَا واثقٌ بكرمِ طباعكَ ووفورِ عقلكَ ، وأعلمُ أنكَ لا تخشَى مني ولا تخافُ أنْ أبديَهُ ؛ بلْ تخشَى أهلَ بيتكَ الطائفينَ بكَ وبالملكِ أنْ يسعوا بكَ إليهِ . وأنَا أرجُوا ألاَّ يَشيعَ شيءٌ منْ هذَا الأمرِ : لأنِّي أنا ظاعِنٌ وأنتَ مقيمٌ ، وما أقمتُ فلا ثالثَ بيننَا . فتعاهَدَا علَى هذا جميعاً . وكانَ الهنديّ خازنَ الملكِ ، وبيدِه مفاتيحُ خزائنهِ . فأجابهُ إلَى ذلكَ الكتابِ وإلَى غيرِهِ منَ الكتبِ . فأكبَّ علَى تفسيرِهِ ونقلِهِ منَ اللسانَ الهنديِّ إلَى اللسَانِ الفارسِّي ؛ وأتعَبَ نفسهُ ، وأنصَبَ بدنهُ ليلاً ونهاراً ، وهوَ معَ ذلكَ وجلٌ وفزعٌ منْ ملكِ الهندِ ؛ خائفٌ علَى نفسهِ منْ أنْ يذكرَ الملكُ الكتابَ في وقتٍ ولا يصادِفَهُ في خزائنهِ . فلمَّا فرغَ منَ انتساخِ الكتابِ وغيرِهِ ممَّا أرادَ منْ سائرِ الكتبِ . كتبَ إلَى أنوشروانَ يعلمُهُ بذلكَ . فلمَّا وصلَ إليهِ الكتابُ ، سُرَّ بذلكَ سروراً شديداً ؛ ثمَّ تخوفَ معاجلَة المقاديرِ أنْ تنغصَ عليهِ فرحهُ ؛ فكتبَ إلَى برزويهِ يأمرهُ بتعجيلِ القدومِ . فسارَ برزويهُ متوجهاً نحوَ كسرَى . فلمَّا رأى الملك ما قَدْ مسهُ من الشحوبِ والتعبِ والنصبِ ، قالَ لهُ : أيهَا العبدُ الناصحُ الَّذِى يأكُل ثمَرَةَ ما قدْ غرسَ ، أبشِرْ وقرَّ عيناً : فإنِي مشرفُكَ وبالغٌ بكَ أفضَلَ درجةٍ . وأمرهُ أن يريحَ بدنهُ سبعةَ أيامٍ . فلمَا كانَ اليومُ الثامنُ ، أمرَ الملكُ أنْ يجمعَ إليهِ الأمراءُ والعلماءُ . فلمَّا اجتمعُوا ، أمرَ برزويهِ بالحضورِ . فحضرَ ومعهَ الكتبُ ؛ ففتحهَا وقرَأها علَى منْ حضرَ منْ أهلِ المملكةِ . فلمَّا سمعُوا ما فيهَا منَ العلمِ فرحُوا فرحاً شديداً ؛ وشكرُوا الله علَى ما رزقهُمْ ، ومدحُوا

برزويه وأثنوا عليهِ ؛ وأمرَ الملكُ أنْ تفتحَ لبرزويهِ خزائنُ اللؤلُؤ والزبرجَد والياقوتِ والذهبِ والفضةِ ؛ وأمرهُ أنْ يأخذَ منَ الخزائنِ ما شاءَ منْ مالٍ أو كسوةٍ ؛ وقالَ : يا برزويهِ إنّي قدْ أمرتُ أنْ تجلسَ علَى مثلِ سريرى هذَا ، وتلبسَ تاجاً ، وتترأسَ علَى جميعِ الأشرافِ . فسجدَ برزويهِ للملكِ ودَعَا لهُ وطلبَ منَ اللهِ وقال : أكرمَ اللهُ تعالَى الملكَ كرامةَ الدنيَا والآخرةِ ، وأحسنَ عَنّي ثوابهُ وجزاءَهُ ؛ فإنّي بحمدِ اللهِ مستغنٍ عنِ المالِ بمَا رزقني اللهُ علَى يدِ الملكِ السعيدِ الجدِّ ، العظيمِ الملكِ ؛ ولاَ حاجةَ لي بالمالِ ؛ لكنْ لمَّا كلفني الملكُ ذلكَ وعلمتُ أنهُ يسرهُ ، أنَا أمضِي إلَى الخزائنِ فآخذُ منها طلباً لمرضاتِهِ وامتثالاً لأمرِه . ثمَّ قصدَ خزانةَ الثيابِ فأخذَ منهَا تختاً منْ ثِـــيابِ خراسانَ منْ ملابسِ الملوكِ . فلمَّا قبضَ برزويهِ ما اختارهُ ورضيهُ منَ الثيابِ قالَ : أكرمَ اللهُ الملكَ ومدَّ في عمرهِ أبداً . لا بُدَّ أنَّ الإنسانَ إذَا أُكرمَ وجبَ عليهِ الشكرُ ، وإنْ كانَ قدِ استوجبهُ تعباً ومشقةً فقدْ كانَ فيهمَا رضَا الملكِ . وأمَّا أنَا فمَا لقيتهُ منْ عناءٍ وتعَبٍ ومشقةٍ ، لمَا أعلَمُ أنَّ لكُم فيهِ الشرفَ يأهلَ هذَا البيتِ ! فإنِّي لمْ أزلْ إلَى هذَا اليومِ تابعاً رضاكُمْ ، أرَى العسيَر فيهِ يسيراً . والشاقَّ هيناً ، والنصبَ والأذَى سروراً ولذةً : لمَا أعلمُ أنَّ لكمْ فيهِ رضاً وقربةً عندكمْ . ولكنّى أسألكَ أيهَا الملكُ حاجةً تسعفني بهَا ، وتعطيني فيهَا سؤْلي : فإنَّ حاجتي يسيرةٌ ، وفى قضائِهَا فائدةٌ كثيرةٌ . قالَ أنوشروانُ : قُلْ فكلُّ حاجةٍ لكَ قبلنَا مقضيةٌ : فإنكَ عندنَا عظيمٌ ؛ ولوْ طلبتَ مشاركتَنَا فيَ ملكنَا لفعلنَا ، ولمْ نَرُدَّ طلبتَكَ ، فكيف ما سوَى ذلكَ ؟ فقُلْ ولا تحتشمْ ؛ فإنَّ الأمورَ كلهَا مبذولةٌ لكَ . قالَ برزويه : أيها الملكُ لا تنظرْ إلَى عنائي في رضاكَ وانكماشي في طاعتِكَ ؛ فإنَّمَا أنَا عبدُكَ يلزمُني بذلُ مهجتي في رضاكَ ؛ ولوْ لمْ تجزني لمْ يكنْ ذلكَ عندِى عظيماً ولاَ واجباً علَى الملكِ ؛ ولكنْ لكرمهِ وشَرَفِ منصبِهِ عمَدَ إلَى مجازاتِى ، وخصنِى وأهلَ بيتي بعلُوِّ المرتبةِ ورَفيعِ الدرجةِ ؛ حتّى لوْ قَدِرَ أنْ يجمعَ لنَا بينَ شرفِ الدنيَا والآخرةِ لفعَلَ . فجزاهُ اللهُ عنَّا أفضلَ الجزاءِ . قالَ أنوشروانُ : أذكُرْ حاجتَكَ ، فعلَيَّ ما يسرُّكَ . فقالَ برزويه : حاجتي أنْ يأمرَ الملكُ ، أعلاهُ اللهُ تعالَى ، وزيرهُ بزر جمهَرَ بنَ البختكَانِ ؛ ويقسمَ عليهِ أنْ يعملَ فكرهُ ، ويجمعَ رأيهُ ، ويجهَدَ طاقتهُ ، ويفرغَ قلبهُ في نظمِ تأليفِ كلامٍ متقنٍ محكمٍ ؛ ويجعلهُ باباً يذكرُ فيهِ أمرى ويصفُ حالى ؛

ولا يدعُ منَ المبالغةِ في ذلكَ أقصَى مَا يقدرُ عليهِ . ويأمرُهُ إذا استتمهُ ان يجعله أولَ الأبوابِ الَّتي تقرأُ قبلَ بابِ الأسَدِ والثورِ : فإنَّ الملكَ إذَا فَعَلَ ذلكَ فقدْ بلغَ بي وبأهلِي غايةَ الشرفِ وأعلَى المراتبِ ؛ وأبقَى لنَا مالاً يزالُ ذكرهُ باقياً علَى الأبدِ حيثمَا قرِئَ هذَا الكتابُ .

فلمَّا سمعَ كسرَى أنوشروانُ والعظماءُ مقالتهُ وما سمتْ إليهِ نفسهُ من محبةِ إبقاءِ الذكرِ استحسنوا طلبتهُ واختيارَهُ ، وقالَ كسرَى : حُباً وكرامةً لكَ يَا برزويهِ ، إنكَ لأهلٌ أنْ تسعفَ بحاجتكَ ؛ فمَا أقلَّ ما قنعتَ بهِ وأيسرهُ عندنَا ! وإنْ كانَ خطرهُ عندكَ عظيماً . ثمَّ أقبَلَ أنوشروانُ علَى وزيرهِ بزرجمهَرَ فقالَ لهُ : قدْ عرفتَ مناصحةَ برزويهِ لنَا ، وتجشمهُ المخاوفَ والمهالكَ فيمَا يقربُهُ منَّا ، وإتعابهُ بدنهُ فيمَا يسرُّنَا ، وما أتَى بهِ إلينَا منَ المعروفِ ، وما أفادنَا اللهُ عَلَى يدهِ منَ الحكمةِ والأدبِ الباقِي لنَا فخره ، ومَا عرضنَا عليهِ منْ خزائننَا لنجزيهُ بذلكَ علَى ما كانَ منهُ ، فلَمْ تملْ نفسهُ إلَى شيْءٍ منْ ذلكَ ؛ وكانَ بغيتهُ وطلبتهُ منَّا أمراً يسيراً رآه هوَ الثوابَ منَّا لهُ والكرامةَ الجليلَةَ عندهُ ؛ فإنِّي أحبُّ أنْ تتكلَّمَ في ذلكَ وتسعفَهُ بحاجَتهِ وطلبتهِ . واعلمْ أنَّ ذلكَ ممَّا يسرُّني ، فلا تدعْ شيئاً منَ الاجتهادِ والمبالغةِ إلا بلغتهُ ، وإنْ نالتكَ فيهِ مشقةٌ . وهوَ أنْ تكتبَ باباً مضارعاً لتلكَ الأبوابِ الَّتي في الكتابِ ؛ وتذكرَ فيهِ فضلَ برزويهِ ، وكيفَ كانَ ابتداءُ أمره وشأنهُ ، وتنسبَهُ إليهِ وإلَى حسبهِ وصناعتهِ ، وتذكرَ فيهِ بعثته إلَى بلادِ الهندِ في حاجتنَا ؛ ومَا أفدنَا عَلَى يديهِ منْ هنالكَ . وشرفنَا بهِ وفضلنَا علَى غيرنَا ؛ وكيفَ كانَ حالُ برزويهِ وقدومهُ من بلادِ الهندِ ؛ فقلْ ما تقدرُ عليهِ منَ التقريظِ والإطنابِ في مدحهِ ، وبالغْ في ذلكَ أفضلَ المبالغةِ واجتهدْ في ذلكَ اجتهاداً يَسرُّ برزويهِ وأهلَ المملكةِ . وإنَّ برزويهِ أهلٌ لذلكَ منِّي ومنْ جميعِ أهلِ المملكةِ ومنكَ أيضاً : لمحبتكَ للعلومِ . واجهدْ أنْ يكونَ غرضُ هذَا الكتابِ الَّذِي ينسبُ إلَى برزويهِ أفضلَ منْ أغراضِ تلكَ الأبوابِ عندَ الخاصِّ والعامِّ ، وأشدَّ مشاكلةً لحالِ هذَا العلمِ : فإنَّكَ أسعدُ الناسِ كلهم بذلكَ : لا نفرادكَ بهذَا الكتابِ ؛ واجعلهُ أولَ الأبوابِ . فإذَا أنتَ عملتَهُ ووضعتَهُ في موضعهِ فأعلمنِي لأجمَعَ أهلَ المملكَةِ وتقرأهُ عليهمْ ، فيظهرَ فضلُكَ واجتهادكَ فيَ محبتنَا ؛ فيكونَ لكَ بذلكَ فخرٌ . فلمَّا سمع بزرْ جمهرُ مقالةَ الملكِ خرَّ لهُ ساجداً ، وقالَ : أدامَ اللهُ لكَ أيهَا الملكُ البقاءَ ،

وبلغكَ أفضلَ منازلِ الصالحينَ في الآخرةِ والأولَى ؛ لقدْ شرفتني بذلكَ شرفاً باقياً إلَى الأبَد . ثمَّ خرجَ بزرْ جمهرُ منْ عندِ الملكِ ، فوصفَ برزويهِ منْ أولِ يومِ دفعهُ أبواهُ إلَى المعلّم ، ومضيهُ إلَى بلادِ الهندِ في طلَبِ العقاقيرِ والأدويَةِ ؛ وكيفَ تعلَّمَ خطوطهمْ ولغتهمْ ؛ إلَى أنْ بعثهُ أنوشروانُ إلَى الهندِ في طلَب الكتابِ . ولمْ يدعْ منْ فضائلِ برزويهِ وحكمتهِ وخلائقهِ ومذهبه أمراً إلا نسقهُ ، وأتَى بهِ بأجودِ ما يكونُ منَ الشرحَ . ثمَّ أعلَم الملكَ بفراغِهِ منهُ . فجمعَ أنوشروانُ أشرافَ قومهِ وأهلَ مملكتهِ ، وأدخلهمْ إليهِ ؛ وأمرَ بزرْ جمهرَ بقراءَةِ الكتَاب ، وبرزويهِ قائمٌ إلَى جانبِ بزرْ جمهَرَ ، وابتدأ بوصفِ برزويهِ حتَّى انتهَى إلَى آخرهِ . ففرحَ الملكُ بمَا أتَى بهِ بزرْ جمهرُ منَ الحكمةِ والعلمِ . ثمَّ أثنَى الملكُ وجميعُ منْ حضرهَ علَى بزرْ جمهرَ ، وشكروهُ ومدحوهُ ؛ وأمرَ لهُ الملكُ بمالٍ جزيلٍ وكسوةٍ وحليٍّ وأوانٍ ؛ فلمْ يقبلْ منْ ذلكَ شيئاً غيرَ كسوةٍ كانتْ منْ ثيابِ الملوكِ . ثمَّ شكرَ لهُ ذلكَ برزويهِ وقبلَ رأسهُ ويدهُ ؛ وأقبلَ برزويهِ علَى الملكِ وقالَ : أدامَ اللهُ لكَ الملكَ والسعادةَ فقدْ بلغتَ بي وبأهلِي غايَةَ الشرفِ بمَا أمرتَ بهِ بزرْ جمهرَ منْ صنعهِ الكتابَ في أمرِي وإبقاءِ ذكْرِي .

بَابُ عَرْضِ الْكِتَابِ . تَرْجَمَةُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُقَفَّعِ

هذَا كتابُ كليلةَ ودمنةَ ، وهوَ ممَّا وضعهُ علماءُ الهندِ منَ الأمثالِ والأحاديثِ التيَ ألهمُوا أنْ يدخلُوا فيهَا أبلغَ ما وجدُوا منَ القولِ. فيَ النحوِ الَّذِى أرادُوا . ولمْ تزلِ العلماءُ منْ أهلِ كلِّ ملةٍ يلتمسونَ أنْ يعقلَ عنهمْ ، ويحتالونَ في ذلكَ بصنوفِ الحيلِ ؛ ويبتغون إخراجَ ما عندهمْ منَ العللِ ، حتَّى كانَ منْ تلكَ العللِ وضعُ هذَا الكتابِ علَى أفواهِ البهائمِ والطيرِ . فاجتمَعَ لهمْ بذلكَ خلالٌ . أمَّا همْ فوجدُوا متصرفاً في القولِ وشعاباً يأخذونَ منهَا . وأمَّا الكتابُ فجمعَ حكمةً ولهواً : فاختارهُ الحكماءُ لحِكْمتِهِ والسُّفَهَاءُ للهوهِ ، والمتعلمُ منَ الأحداثِ ناشطٌ في حفْظ ما صَارَ إليهِ منْ أمرٍ يربطُ في صدْرِهِ ولا يدرِى ما هُوَ ، بلْ عرفَ أنهُ قدْ ظفرَ منْ ذلكَ بمكتوبٍ مرقومٍ . وكانَ كالرجلِ الَّذِى لمَا استكمَلَ الرجوليَّةَ وجدَ أبويهِ قدْ كنزَا لهُ كنوزاً وعقدَا

لهُ عقوداً استغنَى بهَا عنِ الكدحِ فيمَا يعملهُ منْ أمرِ معيشتِهِ ؛ فأغنَاهُ ما أشرفَ عليهِ منَ الحكمةِ عَنِ الحاجةِ إلَى غيرهَا منْ وجوهِ الأدَب .

وينبغي لمنْ قرأَ هذَا الكتابَ أنْ يعرفَ الوجوهَ الَّتِي وضعتْ لهُ ؛ وإلَى أىِّ غايةٍ جرَى مؤلفهُ فيهِ عندَ ما نسبَهُ إلَى البهَائِمِ وأضافهُ إلَى غيرِ مفصحٍ ؛ وغيرَ ذلكَ منَ الأوضاعِ التِي جعلهَا أمثالاً : فإنَّ قارئهُ متَى لمْ يفعلْ ذلكَ لمْ يدرِ ما أريدَ بتلكَ المعاني ، ولا أىَّ ثمرةٍ يجتني منهَا ، ولا أىَّ نتيجةٍ تحصلُ لهُ منْ مقدماتِ ما تضمنهُ هذَا الكتابُ . وإنهُ و إنْ كانَ غايتهُ استتمامَ قراءتهِ إلَى آخرهِ دونَ معرفةِ ما يقرأُ منهُ لمْ يعدْ عليهِ شيءٌ يرجعُ إليهِ نفعهُ . ومنِ استكثرَ منْ جمعِ العلومِ وقراءةِ الكتبِ ؛ منْ غيرِ إعمالِ الرويةِ فيمَا يقرؤهُ ، كانَ خليقاً ألا يصيبهُ إلا ما أصابَ الرجلَ الذِى زعمتِ العلماءُ أنهُ اجتازَ ببعضِ المفاوزِ ، فظهرَ لهُ موضعُ آثارِ كنز ، فجعلَ يحفرُ ويطلبُ ، فوقعَ علَى شيءٍ منْ عينٍ وورقٍ ؛ فقالَ في نفسهِ : إنْ أنَا أخذتُ في نقلِ هذَا المالِ قليلاً قليلاً طالَ عليَّ ، وقطعني الاشتغالُ بنقلهِ وإحرازهِ عنِ اللذَّةِ بمَا أصبتُ منهُ ؛ ولكنْ سأستأجرُ أقواماً يحملونهُ إلَى منزلي ، وأكونُ أنَا آخرهمْ ، ولا يكونُ بقىَ ورائي شيءٌ يشغلُ فكري بنقلهِ ؛ وأكونُ قدِ استظهرتُ لنفسي في إراحَةِ بدني عنِ الكدِّ بيسيرِ أجرةٍ أعطيهمْ إياهَا . ثمَّ جاءَ بالحمالينَ ، فجعلَ يحملُ كلُّ واحدٍ منهمْ ما يطيقُ ، فينطلقُ بهِ إلَى منزلهِ فيفوزَ بهِ ؛ حتَّى لمْ يبقَ منَ الكنزِ شيءٌ . فانطلقَ خلفهمْ إلَى منزلهِ : فلمْ يجدْ فيهِ منَ المالِ شيئاً ، لا قليلاً ولا كثيراً . وإذَا كلُّ واحدٍ منَ الحمالينَ قدْ فازَ بمَا حملهُ لنفسهِ . ولمْ يكنْ لهُ منْ ذلكَ إلاَّ العناءُ والتعبُ : لأنهُ لمْ يفكرْ في آخرِ أمرهِ . وكذلكَ منْ قرأَ هذَا الكتابَ ، ولمْ يفهَمْ ما فيهِ ، ولمْ يعلمْ غرضهُ ظاهراً وباطناً ، لمْ ينتفعْ بما بدَا لهُ منْ خطهِ ونقشهِ ؛ كما لوْ أنَّ رجلاً قدمَ لهُ جوزٌ صحيحٌ لمْ ينتفعْ بهِ إلاَّ أنْ يكسرهُ ؛ وكانَ أيضاً كالرجلِ الذِى طلَبَ علْمَ الفصيحِ منْ كلامِ الناسِ ؛ فأتَى صديقاً لهُ منَ العلماءِ ، لهُ علمٌ بالفصاحةِ ، فأعلمهُ حاجتهُ إلَى علْمِ الفصيحِ ؛ فرسمَ لهُ صديقهُ في صحيفةٍ صفراءَ فصيحَ الكلامِ وتصاريفهُ ووجوههُ ؛ فانصرفَ المتعلمُ إلَى منزلهِ ؛ فجعلَ يكثرُ قراءتهَا ولا يقفُ علَى معانيهَا . ثمَّ إنهُ جلسَ ذاتَ يومٍ فى محفلٍ منْ أهلِ العلمِ والأدب ، فأخذَ فى محاورتهمْ ؛ فجرتْ لهُ كلمةٌ أخطأَ فيهَا ؛ فقالَ لهُ بعضُ الجماعةِ : إنكَ قدْ أخطأتَ ؛

والوجهُ غيرُ ما تكلمْتَ به . فقالَ وكيفَ أخطىءُ وقدْ قرأتُ الصحيفةَ الصفراءَ ؛ وهيَ فى منزلِى ؟ فكانتْ مقالتهُ لهمْ أوجبَ للحجةِ عليهِ وزادهُ ذلكَ قرباً منَ الجهلِ وبعداً منَ الأدَبِ .

إنَّ العاقلَ إذَا فهمَ هذَا الكتابَ وبلغَ نهايةَ علمهِ فيهِ ؛ ينبغي له أنَ يعملَ بمَا علمَ منهُ لينتفعَ بِهِ ؛ ويجعلهُ مثالاً لا يحيدُ عنهُ . فإذَا لمْ يفعلْ ذلكَ ، كانَ مثلهُ كالرجلِ الذِى زعمُوا أنَّ سارقاً تسوَّرَ عليهِ وهوَ نائمٌ في منزلِهِ ، فعلمَ بِهِ فقالَ : واللهِ لأسكتنَّ حتَّى أنظرَ ماذَا يصنعُ ، ولا أذعرُهُ ؛ ولا أُعلمهُ أنِّى قدْ علمتُ بهِ. فإذَا بلغَ مرادهُ قمتُ إليْهِ ، فنغصتُ ذلكَ عليهِ . ثمَّ إنهُ أمسكَ عنهُ . وجعلَ السارقُ يتردَّدُ، وطالَ ترددهُ فى جمعهِ ما يجدهُ ؛ فغلبَ الرجلَ النُّعاسُ فنامَ ، وفرغَ اللصُّ ممَّا أرادَ ، وأمكنهُ الذهابُ . واستيقظَ الرجلُ ، فوجدَ اللصَّ قدْ أخذَ المتاعَ وفازَ بهِ . فأقبَلَ علَى نفسهِ يلومهَا ، وعرفَ أنهُ لم ينتفعْ بعلمه باللصِّ : إذْ لمْ يستعملْ في أمرهِ ما يجبُ . فالعلمُ لا يتمُّ إلا بالعملِ ، وهوَ كالشجرَةِ والعملُ بهِ كالثمرةِ . وإنمَا صاحبُ العلمِ يقومُ بالعملِ لينتفعَ بهِ ؛ وإنْ لمْ يستعملْ ما يعلمُ لا يسمَّى عالماً . ولوْ أنَّ رجلاً كانَ عالماً بطريقٍ مخوفٍ ، ثمَّ سلكهُ علَى علْمٍ بهِ، سمىَ جاهلاً ، ولعلهُ إنْ حاسبَ نفسهُ وجدهَا قدْ ركبتْ أهواءً هجمتْ بهَا فيمَا هوَ أعرفُ بضررهَا فيهِ وأذاهَا منْ ذلكَ السالكِ في الطريقِ المخوفِ الذِى قدْ جهلهُ . ومنْ ركبَ هواهُ ورفضَ ما ينبَغى أنْ يعملَ بمَا جربهُ هوَ أوْ أعلمهُ بهِ غيرهُ ، كانَ كالمريضِ العالمِ برديءِ الطعامِ والشرابِ وجيدهِ وخفيفهِ وثقيلهِ . ثمَّ يحملهُ الشرهُ علَى أكلِ رديئِهِ وتركِ ما هوَ أقربُ إلَى النجاةِ والتخلصِ مِن علتهِ . وأقلّ الناسِ عذراً في اجتنابِ محمودِ الأفعالِ وارتكابِ مذمومهَا منْ أبصرَ ذلكَ وميزهُ وعرفَ فضلَ بعضهِ علَى بعضٍ كمَا أنهُ لوْ أنَّ رجليْن أحدهُمَا بصيرٌ والآخرُ أعمَى ساقهُمَا الأجلُ إلَى حفرةٍ فوقعَا فيهَا ، كانَا إذَا صارَا في قاعهَا بمنزلةٍ واحدةٍ ؛ غيرَ أنَّ البصيرَ أقلَّ عذراً عندَ الناسِ منَ الضريرِ : إنْ كانتْ لهُ عينانِ يبصرُ بهمَا ؛ وذاكَ بمَا صارَ إليهِ جاهلٌ غيرُ عارفٍ .

وعلَى العالمِ أنْ يبدأَ بنفسهِ ويؤدبهَا بعلمهِ ، ولا تكونَ غايتهُ اقتناؤهُ العلمَ لمعاونةَ غيرهِ ، ويكونَ كالعينِ التي يشربُ الناسُ ماءَهَا وليسَ لهَا في ذلكَ شيءٌ منَ المنفعةِ ، وكدودَة القزِّ التِى تحكمُ صنعتهُ ولا تنتفعُ بهِ . فينبغِى لمنْ طلَبَ

العلمَ أنْ يبدأ بعظةِ نفسهِ ، ثمَّ عليهِ بعدَ ذلكَ أنْ يقبسهُ ؛ فإنَّ خلالاً ينبغي لصاحبِ الدنيَا أنْ يقتنيهَا ويقبسَهَا : منهَا العلمُ والمالُ . ومنهَا اتخاذُ المعروف . وليسَ للعالِمِ أنْ يعيبَ امرأً بشيءٍ فيهِ مثلهُ ، ويكونَ كالأعمَى الذِى يعيرُ الأعمَى بعماهُ . وينبغِي لمنْ طلَبَ أمراً أنْ يكونَ فيهِ غايةٌ ونهايةٌ ، ويعملَ بهَا ، ويقفَ عندهَا ؛ ولا يتمادَى في الطلَب ؛ فإِنَّهُ يقالُ : منْ سارَ إِلَى غيرِ غايَة يوشكُ أنْ تنقطعَ بهِ مطيتهُ ؛ وأنهُ كانَ حقيقاً ألا يعنىَ نفسهُ في طلبِ ما لا حدَّ لهُ ، وما لمْ ينلهُ أحدٌ قبلهُ ، ولا يتأسفَ عليهِ ؛ ولا يكونَ لدنياهُ مؤثراً علَى آخرتِهِ : فإنَّ منْ لمْ يعلِّقْ قلبهُ بالغايَات قلتْ حسرتهُ عندَ مفارقتهَا . وقدْ يقالُ في أمرينِ إنهمَا يَجْمُلانِ بكلِّ أحدٍ : أحدهمَا النسكُ والآخرُ المالُ الحلالُ ولا يليقُ بالعاقلِ أن يؤنبَ نفسهُ علىَ ما فاتهُ وليسَ في مقدورهِ ؛ فربمَا أتاحَ اللهُ لهُ ما يهنأ بهِ ولمْ يكنْ في حسبانهِ . ومنْ أمثالِ هذا أنَّ رجلاً كانَ بهِ فاقةٌ وجوعٌ وعرْىٌ ، فألجأهُ ذلكَ إِلَى أنْ سألَ أقاربهُ وأصدقاءَهُ ، فلَمْ يكنْ عندَ أحدٍ منهمْ فضلٌ يعودُ بهِ عليهِ . فبينمَا هوَ ذاتَ ليلةٍ في منزلهِ إذْ بصرَ بسارقٍ فيهِ ؛ فقالَ : واللهِ ما في منزلِى شيءٌ أخافُ عليهِ : فليجهدِ السارقُ جهدهُ . فبينمَا السارقُ يجولُ إذْ وقعتْ يدهُ علَى خابيةٍ فيهَا حنطةٌ ؛ فقالَ السارقُ : واللهِ ما أحبُّ أنْ يكونَ عنائِي الليلةَ باطلاً . ولعلي لا أصلُ إِلَى موضعٍ آخرَ ، ولكنْ سأحملُ هذِهِ الحنطةَ . ثمَّ بسطَ قيمصهُ ليصبَّ عليهِ الحنطةَ . فقالَ الرجلُ : أيذهبُ هذَا بالحنطةِ وليسَ ورائِي سواهَا ؟ فيجتمعُ علَيَّ معَ العرْيِ ذهابُ ما كنتُ أقتاتُ بهِ . وما تجتمعُ واللهِ هاتانِ الخلتانِ علَى أحدٍ إلا أهلكتاهُ . ثم صاحَ بالسارقِ ، وأخذَ هراوةً كانتْ عندَ رأسهِ ؛ فلمْ يكنْ للسارقِ حيلةٌ إلا الهربُ منهُ ، وتركَ قميصهُ ونجَا بنفسهِ ؛ وغدَا الرجلُ بهِ كاسياً . وليسَ ينبَغى أنْ يركنَ إِلَى مثلِ هذَا ويدَعَ ما يجبُ عليهِمن الحذَرِ والعملِ في مثلِ هذَا لصلاحِ معاشهِ ؛ ولا ينظرَ إِلَى منْ تُؤاتيهِ المقادرُ وتساعدهُ علَى غيرِ التماسٍ منهُ : لأنَّ أولئكَ في الناسِ قليلٌ؛ والجمهُورُ منهمْ منْ أتعبَ نفسهُ في الكدِّ والسعيِ فيمَا يصلحُ أمرهُ وينالُ بهِ ما أرادَ . وينبغِي أنْ يكونَ حرصهُ علَى ما طابَ كسبهُ وحسنَ نفعهُ ؛ ولا يتعرضَ لمَا يجلبُ عليهِ العناءَ والشقاءَ ؛ فيكونَ كالحمامةِ التِى تفرخُ الفراخَ فتؤخذُ وتذبحُ ، ثمَّ لا يمنعهَا ذلكَ أنْ تعودَ فتفرخَ موضعهَا ، وتقيمَ بمكانهَا فتؤخذَ الثانيةُ منْ فراخهَا

فتذبحَ . وقدْ يقالُ : إنَّ اللهَ تعالَى قدْ جعلَ لكلِّ شيءٍ حدًّا يوقفُ عليهِ . ومنْ تجاوزَ في أشياءَ حدَّهَا أوشكَ أنْ يلحقهُ التقصيرُ عنْ بلوغهَا . ويقالُ : منْ كانَ سعيهُ لآخرتهِ ودنياهُ فحياتهُ لهُ وعليهِ . ويقالُ في ثلاثةِ أشياءَ يجبُ علَى صاحبِ الدنيَا إصلاحهَا وبذلُ جهدِهِ فيهَا : منهَا أمرُ معيشتهِ ؛ ومنهَا ما بينهُ وبينَ الناسِ ؛ ومنهَا ما يكسبهُ الذكرَ الجميلَ بعدُ . وقدْ قيلَ في أمورٍ منْ كنَّ فيهِ لمْ يستقمْ لهُ عملٌ . منهَا التواني ، ومنهَا تضييعُ الفرصَ ؛ ومنهَا التصديقُ لكلِّ مخبرَ . فربَّ مخبرٍ بشيءٍ عقلهُ ولا يعرفُ استقامتهُ فيصدقهُ . وينبغي للعاقلِ أنْ يكونَ لهوَاهُ متهماً ؛ ولا يقبلَ منْ كلِّ أحدٍ حديثاً ؛ ولا يتمادَى فى الخطأَ إذَا ظهَرَ لهُ خطؤهُ ولاَ يقدمَ علَى أمرٍ حتَّى يتبينَ لهُ الصوابُ ، وتتضحَ لهُ الحقيقةُ ؛ ولاَ يكونَ كالرجلِ الذِى يحيدُ عنِ الطريقِ ، فيستمرُّ علَى الضلالِ ، فلا يزدَادَ فىَ السيرِ إلا جهداً ، وعنِ القصدِ إلا بعداً ؛ وكالرجلِ الذِى تقذَى عينُه فلا يزالُ يحكهَا ، وربمَا كانَ ذلكَ الحكُ سبباً لذهابهَا . ويجبُ علَى العاقلِ أنْ يصدقَ بالقضاءِ والقدرِ ، ويأخذَ بالحزمِ ، ويحبَّ للناسِ ما يحبُّ لنفسهِ ، ولا يلتمسَ صلاحَ نفسهِ بفسادِ غيرهِ ، فإنهُ منْ فعلَ ذلكَ كانَ خليقاً أنْ يصيبهُ ما أصابَ التاجرَ منْ رفيقه .

فإنهُ يقالُ إنهُ كانَ رجلٌ تاجرٌ ، وكانَ لهُ شريكٌ ، فاستأجرَا حانوتاً ، وجعلاَ متاعهمَا فيهِ . وكانَ أحدهمَا قريبَ المنزلِ منَ الحانوتِ ؛ فأضمَر في نفسهِ أنْ يسرقَ عدلاً منْ أعدالِ رفيقهِ ؛ ومكرَ الحيلةَ فى ذلكَ ، وقالَ : إنْ أتيتُ ليلاً لمْ آمنْ أنْ أحملَ عدلاً منْ أعدالِي أوْ رزمةً منِ رزَمي ولا أعرفهَا ؛ فيذهَبَ عنائي وتعبى باطلاً . فأخذَ رداءَهُ ، وألقاهُ علَى العدلِ الَّذِى أضمرَ أخذهُ . ثمَّ انصرفَ إلَى منزلِه . وجاءَ رفيقُهُ بعدَ ذلكَ ليصلحَ أعدالهُ ، فوجدَ رداءَ شريكهِ علَى بعضِ أعدالِهِ، فقالَ : واللهِ هذَا رداءُ صاحِبى ؛ ولا أحسبهُ إلا قد نسيهُ . ومَا الرأىُ أنْ أدَعهُ هاهنَا ؛ ولكنْ أجعلهُ علَى رزمهِ ؛ فلعلهُ يسبقني إلَى الحانوتِ فيجدهُ حيثُ يحبُّ . ثمَّ أخذَ الرداءَ فألقاهُ علي عدْلٍ منْ أعدالِ رفيقهِ ، وأقفلَ الحانوتَ ، ومضَى إلَى منزلِهِ . فلمَّا جاءَ الليلُ أتَى رفيقُهُ ومعهُ رجلٌ قدْ واطأهُ علَى ما عزَمَ عليهِ ، وضمنَ لهُ جعلاً علَى حملِهِ ؛ فصارَ إلَى الحانوتِ ؛ فالتمسَ الإزارَ في الظلمَةِ فوجدهُ علَى العدلِ ؛ فاحتملَ ذلكَ العدلِ ، وأخرجهُ هوَ والرجلُ ، وجعلا يتراوحانِ علَى حملِهِ ؛ حتَّى أتَى

منزلَهُ ، ورمَى نفسهُ تعباً . فلمَّا أصبحَ افتقدهُ فإذَا هوَ بعضُ أعدالِهِ ؛ فندمَ أشدَّ الندامَةِ . ثُمَّ انطلقَ نحوَ الحانوتِ ، فوجدَ شريكَهُ قدْ سبقهُ إليهِ ففتحَ الحانوتَ ووجدَ العدلَ مفقوداً : فاغتمَّ لذلكَ غمًّا شديداً ؛ وقالَ : واسوءَتَاهُ منْ رفيقٍ صالحٍ قدِ ائْتَمنِنى علَى مالِه وخلفنِى فيه ! مَاذَا يكونُ حالِى عندهُ ؟ ولستُ أشكُّ في تهمتهِ إيایَ . ولكنْ قدْ وطنتُ نفسِي علَى غرامتِهِ . ثمَّ أتَى صاحبهُ فوجدهُ مغتمًّا ، فسألهُ عنْ حالهِ ؛ فقالَ إنِّى قدِ افتقدْتُ الأعدَالَ ، وفقدْتُ عدلاً منْ أعدالكَ ، ولا أعلمُ بسببِهِ ؛ وإنِّى لا أشكُّ في تهمتكَ إيایَ ؛ وإنِّي قدْ وطنتُ نفسِي علَى غرامتهِ . فقالَ لهُ : يا أخِى لا تغتمَّ : فإنَّ الخيانَةَ شرُّ ما عملهُ الإنسانُ ، والمكرَ والخديعَةَ لا يؤديَانِ إلَى خيرٍ ؛ وصاحبهُمَا مغرورٌ أبداً ، وما عادَ وبالُ البغْيِ إلا علَى صاحبهِ ؛ وأنَا أحدُ مَن مكرَ وخدعَ واحتالَ . فقالَ لهُ صاحبُهُ : وكيفَ كانَ ذلكَ ؟ فأخبرَهُ بخبرهِ ، وقصَّ عليهِ قصتَهُ . فقالَ لهُ رفيقُهُ : ما مثلكَ إلا مثلُ اللصِّ والتاجرِ . فقالَ لهُ : وكيفَ كانَ ذلكَ ؟ قالَ : زعمُوا أنَّ تاجراً كانَ لهُ في منزلهِ خابيتَانِ إحداهُمَا مملوءَةٌ حنطَةً ، والأخرَى مملوءَةٌ ذهباً . فترقبهُ بعضُ اللصُوصِ زماناً ؛ حتَّى إذَا كَانَ بعضُ الأيامِ تشاغَلَ التاجرُ عنِ المنزلِ ؛ فتغفلهُ اللصُّ ، ودخلَ المنزلَ ، وكمنَ في بعضِ نواحيهِ . فلمَّا همَّ بأخذِ الخابيةِ التِى فيهَا الدنانيرُ أخذَ التِى فيهَا الحنطةُ ، وظنهَا التِى فيها الذهبُ ؛ ولمْ يزلْ في كدٍّ وتعبٍ حتَّى أتَى بهَا منزلهُ فلمَّا فتحهَا وعلمَ ما فيهَا ندمَ . فقَالَ لهُ الخائنُ : ما أبعدْتَ المثلَ ، ولا تجاوزْتَ القياسَ ؛ وقدِ اعترفتُ بذنبِي وخطئِي عليكَ ، وعزيزٌ علَيَّ أن يكونَ هذَا كهذَا . غيرَ أنَّ النفسَ الرديئَةَ تأمُرُ بالفحشاءِ . فقبلَ الرجلُ معذرتَهُ ، وأضرَبَ عنْ توبيخهِ وعنِ الثقة بهِ ؛ وندمَ هو عندَمَا عاينَ منْ سوءِ فعلهِ وتقديمِ جهلهِ .

وقدْ ينبغِى للناظرِ في كتابنَا هذَا ألاَّ تكونَ غايتهُ التصفحَ لتزاويقهِ ، بلْ يشرفُ علَى ما يتضمنُ منَ الأمثَالِ ، حتَّى ينتهِىَ منهُ ؛ ويقفُ عندَ كلِّ مثلٍ وكلمةٍ ، ويعملَ فيهَا رويتهُ ؛ ويكونَ مثلَ أصغرِ الإخوةِ الثلاثةِ الذينَ خلفَ لهمْ أبوهُم المالَ الكثيرَ ، فتنازعوهُ بينهمْ ؛ فأمَّا الكبيرانِ فإنهمَا أسرعَا في إتلافهِ وإنفاقهِ في غيرِ وجههِ ؛ وأمَّا الصغيرُ فإنهُ عندَ ما نظرَ ما صارَ إليهِ أخواهُ منْ إسرافهمَا وتخليهمَا منَ المالِ ، أقبلَ علَى نفسهِ يشاورهَا وقالَ : يا نفسِى إنمَا المالُ يطلبُهُ صاحبهُ ، ويجمعهُ منْ كلِّ وجهٍ : لبقاء حالهِ ، وصلاحِ معاشهِ

ودنياهُ ، وشرفِ منزلتِهِ في أعينِ الناسِ ، واستغنائِهِ عمَّا في أيديهِمْ ، وصرفِهِ في وجهِهِ : منْ صلةِ الرحِمِ ، والإنفاقِ علَى الولَدِ ، والإفضَالِ علَى الإخوانِ . فمنْ كانَ لهُ مالٌ ولاَ ينفقهُ في حقوقِهِ ، كَانَ كالذِي يعدُّ فقيراً وإنْ كانَ موسراً . وإنْ هوَ أحسنَ إمساكهُ والقيامَ عليهِ ، لمْ يعدمِ الأمرينِ جميعاً منْ دنيَا تبقَى عليهِ ، وحمدٍ يضافُ إليهِ ؛ ومتَى قصدَ إنفاقهُ علَى الوجوهِ التِي علمتِ ، لمْ يلبثْ أن يتلفهُ ويبقَى علَى حسرةٍ وندامةٍ . ولكنَّ الرأْيَ أنْ أمسكَ هذَا المالَ ، فإنِّي أرجُو أن ينفعَنِي اللهُ بهِ : ويغني أخويَّ علَى يديَّ : فإنَّما هوَ مالُ أبِي ومالُ أبيهمَا . وإنَّ أولَى الإنفاقِ علَى صلةِ الرحِمِ وإنْ بعدتْ ، فكيفَ بأخويَّ ؟ فأنفذَ فأحضرهُمَا وشاطرهُمَا مالهُ ، وكذلكَ يجبُ علَى قارىء هذَا الكتابِ أن يديمَ النظرَ فيهِ منْ غيرِ ضجرٍ ، ويلتمسَ جواهرَ معانيهِ ، ولا يظنَّ أنَّ نتيجتهُ الإخبارُ عنْ حيلَةِ بهيمتينِ أوْ محاورةِ سبعٍ لثورٍ : فينصرفَ بذلكَ عنِ الغرَضِ المقصُود . ويكونَ مثلهُ مثلَ الصيَّادِ الَّذِي كانَ في بعضِ الخلجانِ يصيدُ فيهِ السمكَ في زورقٍ فرأَى ذاتَ يومٍ في أرضِ الماءِ صدفةً تتلألأُ حُسنا ، فتوهمَهَا جوهراً لهُ قيمةٌ وكانَ قد ألقَى شبكتهُ في البحرِ ، فاشتملتْ علَى سمكةٍ كانتْ قوتَ يومِهِ ، فخلاهَا وقذفَ نفسهُ في الماءِ ليأخذَ الصدفةَ ، فلمَّا أخرجَهَا وجدهَا فارغةً لا شيْءَ فيهَا ممَّا ظنَّ . فندمَ على تركِ ما في يده للطمعِ ، وتأسفَ علَى ما فاتهُ ، فلمَّا كانَ اليومُ الثاني تنحَّى عنْ ذلكَ المكَانِ ، وألقَى شبكتهُ ، فأصابَ حوتاً صغيراً ، ورأَى أيضاً صدفةً سنيةً ، فلمْ يلتفتْ إليهَا ، وساءَ ظنهُ بهَا ، فتركهَا . فأجتازَ بهَا بعضُ الصيادينَ فأخذهَا ، فوجدَ فيهَا درةً تساوِي أموالاً . وكذلكَ الجهالُ إذَا أغفلُوا أمرَ التفكُّرِ في هذَا الكتابِ ، وتركُوا الوقوفَ علَى أسرارِ معانيهِ ، وأخذُوا بظاهرِهِ . ومنْ صرفَ همتهُ إلَى النظَرِ في أبوابِ الهزْلِ ، كانَ كرجلٍ أصابَ أرضاً طيبةً حرةً وحباً صحيحاً ، فزرعَهَا وسقاهَا ، حتَّى إذَا قربَ خيرهَا وأينعتْ تشاغَلَ عنْهَا بجمعِ ما فيهَا منَ الزهرِ وقطعِ الشوكِ ؛ فأهلكَ بتشاغلِهِ ما كانَ أحسنَ فائدةً وأجملَ عائدةً .

وينبغِي للناظرِ في هذَا الكتابِ أن يعلَمَ أنهُ ينقسمُ إلَى أربعَةِ أغراضٍ : أحدهَا ما قصدَ فيهِ إلَى وضعهِ علَى ألسنَةِ البهائِمِ غيرِ الناطقةِ ليسارعَ إلَى قراءَتِهِ أهلُ الهزْلِ منَ الشبانِ . فتستمالَ بهِ قلوبهمْ : لأنهُ الغرضُ بالنوادِرِ منْ حيلِ

الحيوانِ . والثاني إظهارُ خيالاَتِ الحيوانِ بصنوفِ الأصباغِ والألوانِ : ليكونَ أنساً لقلوبِ الملوكِ ، ويكونَ حرصهمْ عليهِ أشدَّ للنزهةِ في تلكَ الصورِ . والثالثُ أن يكونَ علَى هذهِ الصفةِ : فيتخذهُ الملوكُ والسوقةُ ، فيكثرَ بذلكَ انتساخهُ ، ولا يبطلَ فيخلقَ عَلَى مرورِ الأيامِ ؛ ولينتفعَ بذلكَ المصورُ والناسخُ أبداً . والغرضُ الرابعُ ، وهوَ الأقصَى ، وذلكَ مخصوصٌ بالفيلسوفِ خاصةً .

بَابُ بَرْزَوَيْهِ تَرْجَمَةُ بُزُرْ جَمْهَر بن الْبُخْتَكَانِ

قالَ برزويهِ رأسُ أطباءِ فارسَ ، وهوَ الَّذِى تولَّى انتساخَ هذَا الكتابِ ، وترجمهُ منْ كتبِ الهندِ(وقدْ مضَى ذكرُ ذلكَ منْ قبلُ) : أبي كانَ منَ المقاتلةِ ، وكانتْ أمي منْ عظماءِ بيوتِ الزمازمةِ . وكانَ منتشئِي في نعمةٍ كاملةٍ ، وكنتُ أكرمَ ولدِ أبويَّ عليهِمَا ؛ وكانَا بِيَ أشدَّ احتفاظاً منْ دونِ إخوتيَ ، حتَّى إذَا بلغتُ سبْعَ سنينَ ، أسلمانِى إلَى المؤدِّبِ ؛ فلمَّا حذقْتُ الكتابةَ ، شكرتُ أبويَّ ؛ ونظرتُ في العلمِ ، فكانَ أولَ ما ابتدأتُ بهِ ، وحرصتُ عليْه ، علمُ الطبِّ : لأنِّي كنتُ عرفتُ فضلهُ . وكلمَّا ازددتُ منهُ علماً ازددتُ فيهِ حرصاً ، ولهُ اتباعاً . فلمَّا همتْ نفسِي بمداواة المرضَى ، وعزمتُ علَى ذلكَ آمرتهَا ثمَّ خيرتهَا بينَ الأمُور الأربعةِ التى يطلبهَا الناسُ ، وفيهَا يرغبونَ ، ولهَا يسعونَ . فقلتُ : أيُّ هذهِ الخلالِ أبتغي في علمِي ؟ وأيهَا أحرَى بِى فأدركَ منهُ حاجتِي ؟ ألمالُ ، أمِ الذكرُ ، أم اللذاتُ أم الآخرةُ ؟ وكنتُ وجَدْتُ في كتبِ الطبِّ أنَّ أفضلَ الأطباءِ من واظبَ علَى طبهِ ، لا يبتغِي إلا الآخرةَ . فرأيتُ أنْ أطلبَ الاشتغالَ بالطبِّ ابتغاءَ الآخرةِ : لئلاَّ أكُونَ كالتاجرِ الَّذِى باعَ ياقوتةً ثمينةً بخرزةٍ لا تساوِى شيئاً ؛ معَ أني قدْ وجدتُ في كتُبِ الأولينَ أنَّ الطبيبَ الذِى يبتغِى بطبهِ أجرَ الآخرةِ لا ينقصهُ ذلكَ حظهُ منَ الدنيَا . وإنَّ مثلهُ مَثَلُ الزارعِ الذِي يعمُرُ أرضهُ ابتغاءَ الزرعِ لا ابتغاءَ العشبِ ، ثمَّ هيَ لا محالةَ نابتٌ فيهَا ألوَانُ العشبِ معَ يانعِ الزرْعِ . فأقبلتُ علَى مداواةِ المرضَى ابتغاءَ أجْرِ الآخرةِ ، فلمْ أدعْ مريضاً أرجُو لهُ البرءَ ، وآخَرَ لاَ أرجُو لهُ ذلكَ ، إلا أني أطمعُ أن يخفَّ عنهُ بعضُ المرضِ ، إلا بالغتُ فى مداواتِهِ ما أمكنني القيامُ عليه بنفسِي ؛ ومَن لمْ أقدرْ علَى القيامِ عليهِ وصفتُ لهُ ما يصلحُ ، وأعطيتهُ منَ الدواء ما يعالجُ بهِ . ولمْ أردْ ممنْ فعلتُ معهُ ذلكَ

جزاءً ولا مكافأةً ؛ ولمْ أغبطْ أحداً منْ نظرائىَ الذينَ همْ دوني في العلمِ وفوقي في الجاهِ والمالِ وغيرَهُما مِمَّا لا يعودُ بصلاحٍ ولا حسنِ سيرةٍ قولاً ولا عملاً . ولمّا تاقَتْ نفسِى إلَى غشيانهمْ وتمنتْ منازلَهمْ أثبتُّ لهَا الخصومَةَ ؛ فقلْتُ لها : يا نفسُ ، أما تعرفينَ نفعَكِ منْ ضرِّكِ ؟ ألا تنتهِينَ عنْ تمني مالاً ينالهُ أحدٌ إلا قلَّ انتفاعهُ بهِ ، وكثرَ عناؤُه فيهِ ، واشتدتْ المؤونةُ عليهِ وعظمَت المشقةُ لديهِ بعدَ فراقهِ ؟ يا نفسُ، أما تذكرينَ ما بعدَ هذهِ الدارِ : فينسيكِ ما تشرهينَ إليهِ منهَا ؟ ألا تَستحينَ منْ مشاركةِ الفجارِ في حبِّ هذهِ العاجلةِ الفانيةِ التِي منْ كانَ في يدهِ منهَا فليسَ لهُ ، وليسَ بباقٍ عليْهِ ؛ فلا يألفهَا إلا المغترونَ الجاهلونَ ؟ يا نفسُ انظري في أمْركِ ، وانصرفي عنْ هذَا السفهِ ، وأقبلي بقوتكِ وسعيكِ علَى تقديمِ الخيرِ ، وإياكِ والشرَّ ؛ واذكرِى أنَّ هذَا الجسدَ موجودٌ لآفاتٍ ؛ وأنهُ مملوءٌ أخلاطاً فاسدةً قذرةً ، تعقدها الحياةُ ، والحياةُ إلَى نَفَادٍ ؛ كالصنمِ المفصلةِ أعضاؤُهُ إذَا ركبتْ ووضعتْ ، يجمعهَا مسمارٌ واحدٌ ، ويضمّ بعضهَا إلَى بعضٍ ، فإذَا أخذَ ذلكَ المسمارُ تساقطَت الأوصالُ . يا نفسُ ، لا تغتري بصحبةِ أحبائِكِ وأصحابكِ ، ولا تحرصِي علَى ذلكِ كلَّ الحرصِ : فإنَّ صحبتهمْ علَى ما فيهَا منَ السرورِ — كثيرةُ المؤونةِ ، وعاقبةُ ذلكِ الفراقُ . ومثلهَا مثلُ المغرفةِ التِي تستعملُ في جدتِها لسخونةِ المرَقِ ، فإذَا انكسرتْ صارتْ وقوداً . يا نفسُ ، لا يحملنكِ أهلُكِ وأقاربُكِ علَى جمعِ ما تهلكينَ فيهِ ، إرادةَ صلتِهمْ ؛ فإذَا أنْت كالدخنةِ الأرجةِ التِي تحترقُ ويذهبُ آخرونَ بريحهَا . يا نفسُ ، لا يبعُدْ عليكِ أمرُ الآخرةِ فتميلي إلَى العاجلةِ في استعجالِ القليلِ وبيعِ الكثيرِ باليسيرِ ؛ كالتاجرِ الذِي كانَ لهُ ملءُ بيتٍ منَ الصندَلِ ، فقالَ : إنْ بعتهُ وزناً طالَ علَى ، فباعهُ جزافاً بأبخسِ الثمَنِ . وقدْ وجدتُ آراءَ الناسِ مختلفةً وأهواءَهُمْ متباينةً ؛ وكلٌّ علَى كلٍّ رادٌّ ، ولهُ عدوٌّ ومغتابٌ ، ولقولهِ مخالفٌ . فلمَّا رأيتُ ذلكَ لمْ أجدْ إلَى متابعةِ أحدٍ منهمْ سبيلاً ؛ وعرفتُ أني إنْ صدقتُ أحداً منهمْ لا علمَ لي بحالهِ ، كنتُ في ذلكَ كالمصدِقِ المخدوعِ الذِى زعمُوا في شأنِهِ أنَّ سارقاً علاَ ظهرَ بيتِ رجلٍ منَ الأغنياءِ ، وكانَ معهُ جماعةٌ منْ أصحابهِ ، فاستيقظ صاحبُ المنزلِ منْ حركَةِ أقدامهِمْ ، فعرَّفَ امرأتهُ ذلكَ ؛ فقالَ لهَا : رويداً إنِّي لأحسبُ اللصوصَ علوْا البيتَ ، فأيقظيني بصوتٍ يسمعهُ اللصوصُ وقولي ألا

تخبرني أيهُا الرجلُ عنْ أموالكَ هذهِ الكثيرةِ وكنوزكَ العظيمةِ ؟ فإذَا نهيتكِ عنْ هذَا السؤالِ فألحِّي علَيّ بالسؤالِ . ففعلتِ المرأةُ ذلكَ وسألتهُ كمَا أمرهَا ؛ وأنصتَتِ اللصوصُ إلَى سماعِ قولهِمَا . فقَال لهَا الرجلُ : أيتهَا المرأةُ ، قدْ ساقَكِ القدَرُ إلَى رزقٍ واسعٍ كثيرٍ : فكلِي واسكتِي ، ولا تسألِي عنْ أمرٍ إنْ أخبرتُكِ بهِ لمْ آمنْ أن يسمعهُ أحدٌ ، فيكونَ في ذلكَ ما أكرهُ وتكرهينَ . فقالَت المرأةُ : أخبرني أيهَا الرجلُ ، فلعمرِي ما بقربنَا أحدٌ يسمَعُ كلامَنَا . فقَال لهَا : فإنّيَ أخبرُكِ أنّي لمْ أجمعْ هذهِ الأموالَ إلا منَ السرقةِ . قالتْ : وكيفَ كانَ ذلكَ ؟ ومَا كنتَ تصنعُ ؟ قالَ :ذلكِ لعلمٍ أصبتهُ في السرقةِ ، وكانَ الأمرُ علَيّ يسيراً، وأنَا آمِن منْ أن يتهمنَي أحدٌ أوْ يرتابَ فيَّ . قالتْ : فاذكرْ لِي ذلكَ ، قالَ : كنتُ أذهبُ في الليلَةِ المقمرةِ ، أنَا وأصحابِي ، حتَّى أعلُوَ دارَ بعضِ الأغنياءِ مثلنَا ؛ فأنتهِيَ إلَى الكوةِ التِي يدخلُ منَها الضوءُ فأرقِي بهذهِ الرقيةَ وهيَ شولمْ شولمْ سبعِ مراتٍ ، وأعتنقُ الضوءَ ، فلا يحسُّ بوقوعِي أحدٌ ، فلا أدعُ مالاً ولا متاعاً إلاّ أخذتهُ . ثمَّ أرقِي بتلكَ الرقيةِ سبعَ مراتٍ ، وأعتنقُ الضوءَ ؛ فيجذبني ؛ فأصعدُ إلَى أصحابِي ، فنمضِي سالمينَ آمنينَ . فلمّا سمعَ اللصوصُ ذلكَ قالُوا : قدْ ظفرنَا الليلةَ بمَا نريدُ منَ المالِ ؛ ثمَّ إنهُمْ أطالُوا المكثَ حتَّى ظنُّوا أنَّ صاحبَ الدّارِ وزوجتهُ قدْ هجعَا ؛ فقامَ قائدهمْ إلَى مدخَلِ الضوءِ ؛ وقالَ : شولمْ شولمْ سبعَ مراتٍ ؛ ثمَّ اعتنقَ الضوءَ لينزلَ إلَى أرضِ المنزلِ ، فوقَعَ علَى أمِ رأسهِ منكساً . فوثبَ إلَيهِ الرجلُ بهراوتهِ ؛ وقالَ لهُ : منْ أنتَ ؟ قالَ : أنَا المصدّقُ المخدوعُ المغترُّ بمَا لا يكونُ أبداً ؛ وهذهِ ثمرةُ رقيتكَ . فلمّا تحرزتُ منْ تصديقِ مالاً يكونُ ، ولمْ آمنْ إنْ صدقتُهُ أن يوقعَنِي في مهلكةٍ عدتُ إلَى طلَب الأديَانِ والتماسِ العدلِ منهَا ؛ فلمْ أجدْ عندَ أحدٍ ممنْ كلمتهُ جواباً فيمَا سألتهُ عنهُ فيهَا ، ولمْ أرَ فيمَا كلمونِي بهِ شيئاً يحقّ لِي في عقلِي أنْ أصدقَ بهِ ولاَ أنْ أتبعهُ . فقلتُ لمّا لمْ أجدْ ثقةً آخذُ منهُ ، الرأيُ أنْ ألزَمَ دينَ آبائِي وأجدادِي الّذي وجدتهمْ عليهِ . فلمّا ذهبتُ ألتمسُ العذرَ لنفسِي في لزومِ دينِ الآباءِ والأجدادِ ، لمْ أجدْ لهَا علَى الثبوتِ علَى دينِ الآباءِ طاقةً ؛ بلْ وجدتهَا تريدُ أنْ تتفرغَ للبحثِ عنِ الأديانِ والمسألةِ عنهَا ، وللنظرِ فيهَا ، فهجسَ في قلبِي وخطَرَ علَى بالِي قربُ الأجلِ وسرعةُ انقطاعِ الدنيَا واعتباطُ أهلهِا وتخرمُ الدهرِ حياتهمْ . ففكرتُ في ذلكَ . فلمّا خفتُ منَ التردد

والتحول ، رأيتُ ألا أتعرضَ لمَا أتخوفُ منهُ المكروهَ ؛ وأنْ أقتصرَ علىَ عملٍ تشهدُ النفسُ أنهُ يوافقُ كلَّ الأديانِ . فكففتُ يدي عنِ القتلِ والضربِ ، وطرحتُ نفسي عنِ المكروهِ والغضبِ والسرقةِ والخيانةِ والكذبِ والبهتانِ والغيبةِ ، وأضمرتُ في نفسي ألا أبغىَ علَى أحدٍ ، ولا أكذبَ بالبعثِ ولا القيامةِ ولا الثوابِ ولا العقابَ ؛ وزايلتُ الأشرارَ بقلبِي ، وحاولتُ الجلوسَ معَ الاخيَارِ بجهدِي ، ورأيتُ الصلاحَ ليسَ كمثلهِ صاحبٌ ولا قرينٌ ، ووجدتُ مكسبهُ إذَا وفقَ اللهُ وأعانَ يسيراً ؛ ووجدتهُ يدلُّ علَى الخيرِ ويشيرُ بالنصحِ ، فعلَ الصديقِ بالصديقِ ؛ ووجدتهُ لا ينقصُ علَى الإنفَاقِ منهُ ؛ بلْ يزدادُ جدةً وحسناً ؛ ووجدتهُ لا خوفَ عليهِ منَ السلطانِ أنْ يغصبهُ ، ولا منَ الماءِ أن يغرقهُ ، ولا منَ النارِ أنْ تحرقهُ ، ولا منَ اللصوصِ أنْ تسرقهُ ، ولا منَ السبَّاعِ وجوارحِ الطيرِ أنْ تمزقهُ ؛ ووجدتُ الرجلَ الساهىَ اللاهِىَ المؤثِرَ اليسيرَ ينالهُ في يومهِ ويعدمهُ في غدهِ علَى الكثيرِ الباقي نعيمهُ ، يصيبهُ ما أصابَ التاجرِ الذِى زعمُوا أنهُ كانَ لهُ جوهرٌ نفيسٌ ، فاستأجرَ لثقبهِ رجلاً ، اليومُ بمائةِ دينَارٍ ؛ وانطلقَ بهِ إلَى منزلهِ ليعملَ ؛ وإذَا في ناحيةِ البيتِ صنجٌ موضوعٌ . فقالَ التاجرُ للصانعِ : هلْ تحسنُ أنْ تلعبَ بالصنجِ ؟ قالَ : نعمْ . وكانَ بلعبهِ ماهراً . فقالَ التاجرُ : دونكَ والصنجَ فأسمعنَا ضربكَ بهِ . فأخذَ الرجلُ الصنجَ ، ولمْ يزلْ يسمعُ التاجرَ الضربَ الصحيحَ ، والصوتَ الرفيعَ ، والتاجرُ يشيرُ بيدهِ ورأسِهِ طرباً ، حتَّى أمسَى . فلمَّا حانَ الغروبُ قالَ الرجلُ للتاجرِ : مُرْ لِي بالأجرَةِ . فقالَ لهُ التاجرُ : وهلْ عملتَ شيئاً تستحقُ بهِ الأجرةَ ؟ فقالَ لهُ : عملتُ ما أمرتني بهِ ، وأنَا أجيركَ ، ومَا استعملتنِي عملتُ ؛ ولمْ يزلْ بهِ حتَّى استوفَى منهُ مائةَ دينارٍ . وبقِي جوهرهُ غيرَ مثقوبٍ . فلمْ أزددْ في الدنيَا وشهواتهَا نظراً ، إلا ازددتُ فيهَا زهادةً ومنهَا هرباً . ووجدتُ النسكَ هوَ الَّذِى يمهِّدُ للمعَادِ كمَا يمهدُ الوالدُ لولدهِ ؛ ووجدتهُ هو البابَ المفتوحَ إلَى النعيمِ المقيمِ ؛ ووجدتُ الناسكَ قدْ تدبرَ فعلتهُ بالسكينةِ فشكرَ ؛ وتواضعَ وقنعَ فاستغنَى ، ورضىَ ولمْ يهتمَّ ، وخلعَ الدنيَا فنجَا منَ الشرورِ ، ورفضَ الشهواتِ فصارَ طاهراً ، واطرحَ الحسدَ فوجبتْ لهُ المحبةُ ، وسخَتْ نفسهُ بكلِّ شيءٍ ؛ واستعملَ العقلَ وأبصرَ العاقبةَ فأمنَ الندامةَ ، ولمْ يخفِ الناسَ ولمْ يدبَّ إليهمْ فسلمَ منهمْ . فلمْ أزدَدْ في أمرِ النسكِ نظراً ، إلا ازددتُ فيهِ رغبةً ، حتَّى

هممتُ أنْ أكونَ منْ أهلِهِ . ثمَّ تخوفتُ ألا أصبِرَ علَى عيشِ الناسكِ ، ولمْ آمنْ إنْ تركتُ الدنيَا وأخذتُ في النسكِ ، أنْ أضعفَ عنْ ذلكَ ؛ ورفضتُ أعمالاً كنتُ أرجوُ عائدتَهَا ؛ وقدْ كنتُ أعملهَا فأنتفعُ بهَا في الدنيَا ، فيكونُ مثلي في ذلكَ مثلَ الكلبِ الذِي مرَّ بنهرٍ وفي فيهِ ضلعٌ ؛ فرأى ظلهَا في الماءِ ، فهوَى ليأخذَها ، فأتلفَ ما كانَ معهُ ؛ ولمْ يجدْ في الماءِ شيئاً . فهبتُ النسكَ مهابةً شديدةً ، وخفتُ منَ الضجرِ وقلةِ الصبرِ ، وأردتُ الثبوتَ علَى حالتِي التِي كنتُ عليهَا . ثمَّ بدَا لِي أنْ أسْبُرَ ما أخافُ ألا أصبرَ عليهِ منَ الأذَى والضيقِ والخشونةِ في النسكِ ؛ وما يصيبُ صاحبَ الدنيَا منَ البلاءِ ؛ وكانَ عندِي أنهُ ليسَ شيءٌ منْ شهوَاتِ الدنيَا ولذاتهَا إلا وهوَ متحولٌ إلَى الأذَى ومولدٌ للحزَنِ . فالدنيَا كالماءِ الملحِ الَّذِي لا يزدادُ شاربهُ شرباً ، إلا ازدادَ عطشاً . وهيَ كالعظمِ الَّذِي يصيبهُ الكلبُ فيجدُ فيهِ ريحَ اللحْمِ ؛ فلا يزالُ يطلبُ ذلكَ حتَّى يدمِيَ فاهُ . وكالحدأةِ التِي تظفَرُ بقطعةٍ منَ اللحْمِ ، فيجتمعُ عليهَا الطيرُ ، فلا تزالُ تدورُ وتدأبُ حتَّى تعيَا وتتعبَ ؛ فإذَا تعبتْ ألقتْ ما معهَا . وكالكوزِ منَ العسلِ الَّذِي في أسفَلِهِ السمُّ الَّذِي يذاقُ منهُ حلاوةٌ عاجلةٌ وآخرهُ موتٌ ذعافٌ ، وكأحلامِ النائمِ الَّتِي يفرحُ بهَا الإنسانُ في نومِهِ ، فإذَا استيقظَ ذهَبَ الفرحُ . فلمَّا فكرتُ في هذهِ الأمورِ ، رجعتُ إلى طلَبِ النسكِ ؛ وهزنِي الاشتياقُ إليهِ ؛ ثم خاصمتُ نفسِي إذْ هيَ في شرورِهَا سارِحةٌ ، وقدْ لا تثبتُ علَى أمرٍ تعزمُ عليْهِ : كقاضٍ سمعَ منْ خصمٍ واحدٍ فحكَمَ لهُ ، فلمَّا حضرَ الخصمُ الثانِي عادَ إلَى الأوَّلِ وقضَى عليهِ . ثمَّ نظرتُ في الذِي أكابدُه منَ احتمالِ النسكِ وضيقِهِ ؛ فقلتُ : ما أصغرَ هذِهِ المشقةَ في جانبِ روحِ الأبَدِ وراحتِهِ . ثمَّ نظرتُ فيمَا تشرهُ إليهِ النفسُ منْ لذةِ الدنيَا ، فقلتُ : ما أمرَّ هذَا وأوجعهُ ، وهوَ يدفعُ إلَى عذَابِ الأبَدِ وأهوالِهِ ! وكيفَ لا يستحلِي الرجلُ مرارةً قليلةً تعقبهَا حلاوةٌ طويلةٌ ؟ وكيفَ لا تمرُّ عليهِ حلاوةٌ قليلةٌ تعقبُهَا مرارةٌ دائمةٌ ؟ وقلتُ : لو أنَّ رجلاً عرضَ عليهِ أن يعيشَ مائةَ سنةٍ ، لا يأتِي عليْهِ يومٌ واحدٌ إلا بضعَ منهُ بضعةٌ ؛ ثمَّ أعيدَ عليهِ منَ الغدِ ؛ غيرَ أنهُ يشترَطُ لهُ ، أنهُ إذَا استوفَى السنينَ المائةَ ، نجَا منْ كلِّ ألمٍ وأذَى ، وصَارَ إلَى الأمنِ والسرورِ ، كانَ حقيقاً ألا يرَى تلكَ السنينَ شيئاً . وكيفَ يأبَى الصبْرَ علَى أيامٍ قلائلَ يعيشهَا في النسكِ ، وأذَى تلكَ الأيامِ قليلٌ يعقبُ خيراً كثيراً ؟ فلنعلمْ أنَّ

الدنيَا كلهَا بلاءٌ وعذابٌ . أوَ ليسَ الإنسانُ إنمَا يتقلبُ في عذابِ الدنيَا منْ حينِ يكونُ جنيناً إلَى أن يستوفَى أيامَ حياتهِ ؟ فإذَا كانَ طفلاً ذاقَ منَ العذابِ ألواناً : إنْ جاعَ فليسَ بهِ استطعامٌ ، أوْ عطشَ فليسَ بهِ استسقاءٌ ، أوْ وجعَ فليسَ بهِ استغاثةٌ ؛ معَ ما يلقَى منَ الوضعِ والحملِ واللفِّ والدهنِ والمسحِ ؛ إنْ أنيمَ علَى ظهرهِ لمْ يستطعْ تقلباً ؛ ثمَّ يلقَى أصنافَ العذابِ ما دامَ رضيعاً ، فإذَا أفلتَ منْ عذابِ الرضاعِ ، أخذَ في عذابِ الأدبِ ، فأذيقَ منهُ ألواناً : منْ عنفِ المعلمِ ، وضجرِ الدرسِ ، وسآمةِ الكتابةِ ؛ ثمَّ لهُ منَ الدواءِ والحميَةِ والأسقامِ والأوجاعِ أوْفَى حظٍ . فإذَا أدركَ كانتْ همتهُ في جمعِ المالِ وتربيةِ الولدِ ومخاطرةِ الطلَبِ والسعْيِ والكدِ والتعَبِ . وهوَ معَ ذلكَ يتقلبُ معَ أعدائهِ الباطنيةِ اللازمةِ لهُ : وهىَ الصفراءُ والسوداءُ والريحُ والبلغمُ والدمُ والسمُّ المميتُ والحيةُ اللادغةُ ؛ معَ الخوفِ منَ السباعِ والهوامِ ؛ معَ صرفِ الحرِ والبرْدِ والمطرِ والرياحِ ، ثمَّ أنواعِ عذابِ الهرَمِ لمنْ يبلغهُ . فلوْ لمْ يخفْ منْ هذهِ الأمورِ شيئاً ، وكانَ قدْ أمنَ ووثقَ بالسلامَةِ منْها فلمْ يفكرْ فيهَا ، لوجبَ عليهِ أن يعتبرِ بالساعَةِ التِي يحضرهُ فيهَا الموتُ ، فيفارقُ الدنيَا ؛ ويتذكُّرُ ما هوَ نازلٌ بهِ في تلكَ الساعةِ : منْ فراقِ الأحبةِ والأهلِ والأقاربِ وكلِ مضنونٍ بهِ منَ الدنيَا ، والإشرافِ علَى الهولِ العظيمِ بعدُ الموتِ . فلوْ لمْ يفعلْ ذلكَ ، لكانَ حقيقاً أنْ يعدَّ عاجزاً مفرطاً محباً للدناءَةِ مستحقاً للوْم ؛ فمنْ ذَا الذِى يعلم ولا يحتالُ لغدٍ جهدهُ في الحيلةِ ، ويرفضُ ما يشغلُه ويلهِيهِ منْ شهواتِ الدنيَا وغرورهَا ؟ ولا سيَّما فى هذَا الزمَانِ الشبيهِ بالصافِى وهوَ كدرٌ فإنهُ وإنْ كانَ الملكُ حازماً عظيمَ المقدرةِ ، رفيعَ الهمةِ بليغَ الفحصِ ، عدلاً مرجواً صدوقاً عفواً ، رحبَ الذراعِ مفتقداً مواظباً مستمراً عالماً بالناسِ والأمـــورِ ، محباً للعلمِ والخيرِ والأخيارِ ، شديداً علَى الظلمةِ ، غيرَ جبانٍ ولا خفيفَ القيَادِ ، رفيقاً بالتوسعِ علَى الرعيةِ فيمَا يحبونَ ، والدفعِ لمَا يكرهونَ ؛ فإنَّا قدْ نرَى الزمَانَ مدبراً بكلِ مكانٍ ، فكأنَّ أمورَ الصدقِ قدْ نزعتْ منَ الناسِ ، فأصبَحَ ما كانَ عزيزاً فقدهُ مفقوداً ، وموجوداً ما كانَ ضائراً وجودهُ . وكأن الخيْرَ أصبحَ ذابلاً والشرَّ أصبحَ ناضراً . وكأنَّ الفهمَ أصبحَ قدْ زالتْ سبلهُ . وكأنَّ الحقَّ ولَّى كسيراً وأقبلَ الباطلُ تابعهُ . وكأنَّ اتباعَ الهوَى وإضاعةَ الحكْمِ أصبَحَ بالحكَّامِ موكلاً ؛ وأصبحَ المظلومُ بالحيفِ

مقراً والظالمُ لنفسهِ مستطيلاً . وكأنَّ الحرصَ أصبحَ فاغراً فاهُ منْ كلِ جهةٍ يتلقفُ ما قربَ منه وما بعدَ . وكأنَّ الرضَا أصبحَ مجهولاً . وكأنَّ الأشرارَ يقصدونَ السماءَ صعوداً . وكأنَّ الأخيارَ يريدونَ بطنَ الأرضِ ؛ وأصبحتِ المروءَةُ مقذوفاً بهَا منْ أعلَى شرَفٍ إلَى أسفَلِ دركٍ ؛ وأصبحتِ الدناءَةُ مكرمةً ممكنةً ؛ وأصبحَ السلطانُ منتقلاً عنْ أهلِ الفضلِ إلَى أهلِ النقص . وكأنَّ الدنيَا جذلةٌ مسرورةٌ تقولُ : قدْ غيبتِ الخيراتُ وأظهرَتِ السيئاتُ . فلمَّا فكرتُ فِي الدنيَا وأمورهَا ؛ وأنَّ الإنسانَ هوَ أشرفُ الخلقِ فيـــهَا وأفضلُهُ ؛ ثمَّ هوَ لا يتقلبُ إلا فى الشرورِ والهمومِ ، عرفتُ أنهُ ليسَ إنسانٌ ذُو عقلٍ يعلَمُ ذلكَ ثمَّ لا يحتالُ لنفسهِ فِي النجاةِ ؛ فعجبتُ منْ ذلكَ كلَّ العجبِ . ثمَّ نظرتُ فإذَا الإنسانُ لا يمنعهُ عنْ الاحتيالِ لنفسهِ إلا لذةٌ صغيرةٌ حقيرةٌ غيرُ كبيرةٍ منَ الشمِّ والذوقِ والنظرِ والسمعِ واللمسِ : فعلهُ يصيبُ منهَا الطفيفَ أوْ يقتنِي منهَا اليسيرَ ؛ فإذَا ذلكَ يشغلهُ ويذهبُ بهِ عنْ الاهتمامِ لنفسهِ وطلبِ النجاةِ لهَا .

فالتمستُ للإنسانِ مثلاً ، فإذَا مثلهُ مثلُ رجلٍ نجَا منْ خوفِ فيلٍ هائجٍ إلَى بئرٍ ، فتدلَّى فيهَا ، وتعلقَ بغصنينِ كانَا علَى سمائهَا ، فوقعتْ رجلاهُ علَى شيءٍ فى طيِّ البئرِ . فإذَا حياتٌ أربعٌ قدْ أخرجنَ رءُوسهُنَّ منْ أحجارهنَّ ، ثمَّ نظرَ فإذَا فِي قاعِ البئرِ تنينٌ فاتحٌ فاهُ منتظرٌ لهُ ليقعَ فيأخذهُ ، فرفعَ بصرهُ إلَى الغصنينِ فإذَا فى أصلهمَا جرذانِ أسودُ وأبيضُ ، وهمَا يقرضَانِ الغصنيْنِ دائبينِ لا يفترانِ ، فبينمَا هوَ فى النظرِ لأمرهِ والاهتمامِ لنفسهِ ، إذْ أبصرَ قريباً منهُ كوارةً فيهَا عسلُ نحلٍ ؛ فذاقَ العسلَ ؛ فشغلتهُ حلاوتهُ وألهتهُ عنِ الفكرةِ فِي شيءٍ منْ أمرهِ ، وأن يلتمسَ الخلاصَ لنفسهِ ؛ ولمْ يذكرْ أنَّ رجليهُ علَى حياتٍ أربعٍ لا يدرِى متَى يقعُ عليهنَّ ؛ ولمْ يذكرْ أنَّ الجرذينِ دائبانِ فى قطعِ الغصنينِ ؛ ومتَى انقطعَا وقعَ علَى التنينِ . فلَمْ يزلْ لا هياً غافلاً مشغولاً بتلكَ الحلاوةِ حتَّى سقطَ فِي فَمِ التنينِ فهلكَ . فشبهْتُ بالبئرِ الدنيَا المملوءَةَ آفَاتٍ وشُرُوراً ، ومخالفاتٍ وعاهَاتٍ ؛ وشبهتُ بالحياتِ الأربعِ الأخلاطَ الأربعةَ التِي فِي البدنِ : فإنَّهَا متَى هاجتْ أوْ أحدهَما كانتْ كَحُمَةِ الأفاعِي والسمِّ المميتِ ؛ وشبهتُ بالغصنينِ الأجلَ الذِى لا بُدَّ منَ انقضائهِ ؛ وشبهتُ بالجرذينِ الأسودِ والأبيضِ الليلَ والنهارَ اللذيْنِ هُما دائبانِ فِي إفناءِ الأجلِ ؛ وشبهتُ بالتنينِ المصيرَ الَّذِى لا بدَّ منهُ ؛ وشبهتُ بالعسلِ هذهِ الحلاوَةَ القليلةَ التِى ينالُ

منهَا الإنسانُ فيطعمُ ويسمعُ ويشمُّ ويلمسُ ، ويتشاغلُ عنْ نفسهِ ، ويلهُو عنْ شأنهِ ، ويصدُّ عنْ سبيلِ قصدهِ . فحينئذ صارَ أمرِى إلَى الرضَا بحالِي وإصلاح ما استطعتُ إصلاحهُ منْ عملِي : لعلِى أصادفُ باقِي أيامِي زماناً أصيبُ فيهِ دليلاً علَى هدايَ ، وسلطاناً علَى نفسِي ، وقواماً لأمرِى ، فأقمتُ علَى هذهِ الحالِ وانتسختُ كتباً كثيرةً ؛ وانصرفتُ منْ بلادِ الهندِ ؛ وقدْ نسختُ هذَا الكتابَ .

بَابُ الأسَدِ والثَّوْرِ وَهُوَ أوَّلُ الكِتَاب

قالَ دبشليمُ الملكُ لبيدبَا الفيلسوفِ ، وهوَ رأسُ البراهمةِ : اضربْ لي مثلاً لمتحابينِ يقطعُ بينهمَا الكذوبُ المحتالُ ، حتَّى يحملهُمَا علَى العداوَةِ والبغضاءِ . قالَ بيدبَا : إذَا ابتلِى المتحابَّانِ بأن يدخلَ بينهمَا الكذوبُ المحتالُ ، لمْ يلبثَا أنْ يتقاطعَا ويتدابرَا . ومنْ أمثالِ ذلكَ أنهُ كانَ بأرضِ دستاوندَ رجلٌ شيخٌ ، وكانَ لهُ ثلاثةَ بنينَ . فلمَّا بلغُوا أشدهُمْ أسرفُوا في مالِ أبيهمْ ؛ ولمْ يكونُوا احترفُوا حرفةً يكسبُونَ لأنفسهمْ بهَا خيراً . فلامهُمْ أبوهمْ ؛ ووعظهُم علَى سوءِ فعلهمْ ؛ وكانَ منْ قولهِ لهمْ : يا بنِّي إنَّ صاحبَ الدنيَا يطلبُ ثلاثةَ أمورٍ لَن يدركهَا إلاَّ بأربعةِ أشياءَ : أمَّا الثلاثةُ التِي يطلُبُ ، فالسعةُ في الرزقِ والمنزلةُ فى الناسِ والزادُ للآخرةِ ؛ وأمَّا الأربعةُ الَّتِى يحتاجُ إليهَا في دركِ هذِه الثلاثةِ ، فاكتسابُ المالِ منْ أحسنِ وجهٍ يكونُ ، ثمَّ حسنُ القيامِ علَى ما اكتسبَ منهُ ، ثمَّ استثمارُهُ ، ثمَّ إنفاقُهُ فيمَا يصلحُ المعيشةَ ويرضِى الأهلَ والإخوانَ ، فيعودُ عليهُ نفعهُ فى الآخرةِ . فمنْ ضيعَ شيئاً منْ هذهِ الأحوالِ لمْ يدركْ ما أرادَ منْ حاجتهِ : لأنهُ إنْ لمْ يكتسبْ ، لمْ يكنْ لهُ مالٌ يعيشُ بهِ ؛ وإنْ هوَ كان ذَا مالٍ واكتسابٍ ثمَّ لمْ يحسنِ القيامَ عليهْ ، أوشكَ المالُ أنْ يفنَى ويبقَى معدِماً ؛ وإن هوَ وضعهُ ولمْ يستثمرهُ ، لمْ تمنعهُ قلةُ الإنفاقِ منْ سرعَةِ الذَّهَابِ : كالكحلِ الَّذى لا يؤخذُ إلا غبارُ الميلِ ثمَّ هوَ معَ ذلكَ سريعٌ فناؤهُ . وإنْ أنفقهُ في غيْرِ وجههِ ، ووضعهُ في غيْرِ موضعهِ ، وأخطأ بهِ مواضعَ استحقاقهِ ، صارَ بمنزلةِ الفقيرِ الَّذِى لا مالَ لهُ ؛ ثمَّ لا يمنعُ ذلكَ مالهُ منَ التلفِ بالحوادثِ والعللِ الَّتِى تجْرِى عليهِ ؛ كمحبسِ الماءِ الَّذى لا تزآلُ المياهُ تنصبُّ فيهِ ، فإن لمْ يكنْ لهُ

مخرجٌ ومفيضٌ ومتنفسٌ يخرجُ الماءُ منهُ بقدرِ ما ينبغي ، خربَ وسَالَ ونزَّ منْ نواحٍ كثيرةٍ ، وربمَا انبثقَ البثقَ العظيمَ فذهَبَ الماءُ ضياعاً . ثمَّ إنَّ بني الشيخ اتعظوا بقولِ أبيهمْ وأخذوا بهِ وعلمُوا أنَّ فيهِ الخيرَ وعولُوا عليهُ ؛ فانطلقَ أكبرهُمْ نحوَ أرضٍ يقالُ لهَا ميونُ ؛ فأتى في طريقهِ علَى مكانٍ فيهِ وحلٌ كثيرٌ ؛ وكانَ معهُ عجلةٌ يجرهَا ثورانِ يقالُ لأحدهِمَا شتربَةُ والآخرِ بندبةُ ؛ فوحِلَ شتربُة فى ذلكَ المكانِ ، فعالجهُ الرجلُ وأصْحَابُهُ حتَّى بلغَ منهُم الجهدُ ، فلمْ يقدروا عَلى إخراجهِ ؛ فذهبَ الرجلُ وخلفَ عندهُ رجلاً يشارفهُ : لعلَّ الوحلَ ينشفُ فيتبعهُ بالثوْر . فلمَّا باتَ الرجلُ بذلكَ المكَان ، تبرمَ به واستوحشَ ؛ فترَكَ الثورَ والتحَقَ بصاحبه ، فأخبرهُ أنَّ الثورَ قدْ ماتَ ؛ وقالَ لَهُ : إنَّ الإنسانَ إذَا انقضتْ مدتهُ وحانتْ منيتهُ فهوَ وانِ اجتهَدَ في التوقّي منَ الأمورِ الّتِي يخافُ علَى نفسهِ الهلاكَ لمْ يغنِ ذلكَ عنهُ شيئاً ؛ وربمَّا عادَ اجتهادُهُ فى توقّيهِ وحذرهُ وبالاً عليهُ .

كالذِى قيلَ : إنَّ رجلاً سلكَ مفازةً فيهَا خوفٌ منَ السباعِ ؛ وكانَ الرجلُ خبيراً بِوَعْثِ تلكَ الأرضِ وخوفهَا ؛ فلمَّا سارَ غيرَ بعيدٍ اعترضَ لهُ ذئبٌ منْ أحدّ الذئَابِ وأضراهَا ؛ فلمَّا رأى الرجلُ أنَّ الذئبَ قاصدٌ نحوهُ خافَ منهُ ، ونظرَ يميناً وشمالاً ليجدَ موضعاً يتحرزُ فيهِ منَ الذئبِ فلمْ يرَ إلاَّ قريةً خلفَ وادٍ ؛ فذهَبَ مسرعاً نحوَ القريَةِ ؛ فلمَّا أتى الوادِىَ لمْ يرَ عليهَ قنطرةً ، ورأى الذئبَ قدْ أدركهُ ، فألقى نفسهُ في الماءِ ، وهوَ لا يحسنُ السباحةَ ، وكادَ يغرقُ ، لولاَ أنْ بصُرَ بهِ قومٌ منْ أهلِ القريةِ ؛ فتداَفَعُوا لإخراجهِ فأخرجُوهُ ، وقدْ أشرَفَ علَى الهلاكِ ؛ فلمَّا حصلَ الرجلُ عندهمْ وأمنَ علَى نفسِهِ منْ غائلَة الذئبِ رأى علَى عدوَةِ الوادِى بيتاً مفرداً ؛ فقالَ : أدخلُ هذَا البيتَ فأستريحُ فيهِ . فلمَّا دخلهُ وجدَ جماعةً منَ اللصوصِ قدْ قطعُوا الطريقَ علَى رجلٍ منَ التجارِ ، وهمْ يقتسمُونَ مالَهُ ؛ ويريدُونَ قتلهُ ، فلَمَّا رأى الرجلُ ذلكَ خافَ علَى نفسهِ ومضَى نحو القريَةِ ؛ فأسنَدَ ظهرَهُ إلَى حائطٍ منْ حيطانِهَا ليستريحَ ممَّا حلَّ بهِ منَ الهولِ والإعياءِ ، إذْ سقَطَ الحائطُ عليهِ فماتَ . قالَ التاجرُ : صدقْتَ ؛ قدْ بلغنَي هذَا الحديثُ . وأمَّا الثوْرُ فإنَّهُ خلصَ منْ مكانهِ وانبعثَ ؛ فلمْ يزلْ في مرْجٍ مخصبٍ كثيرِ الماءِ والكلاءِ ؛ فلَمَّا سمنَ وأمنَ جعلَ يخورُ ويرفَعُ صوتَهُ بالخوارِ . وكانَ قريباً منهُ أجمةٌ فيهَا أسدٌ عظيمٌ ؛ وهوَ ملكُ تلكَ

الناحيةِ ، ومعهُ سباعٌ كثيرةٌ وذئابٌ وبناتُ آوىَ وثعالبُ وفهودٌ ونمورٌ ؛ وكانَ هذَا الأسدُ منفرداً برأيهِ دونَ أخذٍ برأيِ أحدٍ منْ أصحابهِ . فلمَّا سمعَ خوارَ الثورِ ، ولمْ يكنْ رأى ثوراً قطُّ ، ولا سَمِعَ خوارهُ ؛ لأنَّهُ كانَ مقيماً مكانهُ لا يبرحُ ولا ينشطُ ؛ بلْ يؤتىَ برزقهِ كلَّ يومٍ علَى يدِ جندهِ . وكانَ فيمنْ معهُ منَ السباعِ ابنَا آوىَ يقالُ لأحدهمَا كليلَةُ وللآخرِ دمنةُ ؛ وكانَا ذويْ دهاءٍ وعلمٍ وأدبٍ . فقالَ دمنةُ لأخيه كليلَةَ : يا أخِي مَا شأنُ الأسَدِ مقيماً مكانهُ لا يبرحُ ولا ينشطُ ؟ قالَ لهُ كليلةُ : ما شأنكَ أنتَ والمسألةَ عنْ هذَا ؟ نحنُ علَى بابِ ملكنَا آخذينَ بما أحبَّ وتاركينَ ما يكرَهُ ؛ ولسنَا منْ أهْلِ المرتبةِ الَّتِي يتناوَلُ أهلهَا كلامَ الملوكِ والنظرَ في أمورهِمْ . فأمسكْ عنْ هذَا ، واعلمْ أنهُ منْ تكلفَ منَ القولِ والفعلِ ماليَس منْ شأنِهِ أصابهُ ما أصابَ القردَ منَ النجَّارِ . قال دمنةُ : وكيفَ كانَ ذلكَ ؟ قالَ كليلَةَ : زعمَوا أنَ قرد رأى نجَّاراً يشقُّ خشبةً بينَ وتدينِ ، وهوَ راكبٌ عليهَا ؛ فأعجبهُ ذلكَ . ثمَّ إنَّ النجارَ ذَهَبَ لبعضِ شأنِهِ . فقامَ القردُ ؛ وتكلَّفَ ما ليسَ منْ شغلهِ ، فركبَ الخشبةَ ، وجعلَ ظهرَهُ قبَلَ الوتدِ ، ووجهَهُ قبلَ الخشبةِ ؛ فتدلَّى ذنبهُ في الشقِّ ، ونزعَ الوتدَ فلزمَ الشقَّ عليهِ فخرَّ مغشياً عليهِ . ثمَّ إنَّ النجارَ وافاهُ فرآهُ موضعهُ ، فأقبلَ عليهِ يضربهُ . فكَانَ ما لقِيَ منَ النجارِ منَ الضرْبِ أشدَّ مما أصابَهُ منَ الخشبَةِ . قالَ دمنةُ : قَد سمعتُ ما ذكرتَ ، ولكنِ اعلَمْ أنَّ كلَّ منْ يدنُو منَ الملوكِ ليسَ يدنُو منهمْ لبطنهِ ، وإنَّما يدنُو منهمْ ليسرَّ الصديقَ ويكبتَ العدُوَّ . وإنَّ منَ الناسِ منْ لا مروءةَ لهُ ؛ وهمُ الذينَ يفرحونَ بالقليلِ ويرضونَ بالدونِ ؛ كالكلْبِ الَّذِى يصيبُ عظماً يابساً فيفرحُ بهِ . وأمَّا أهلُ الفضلِ والمروءَةِ فلا يقنعهُمُ القليلُ ، ولا يرضونَ بهِ ، دونَ أنْ تسموَ بهِ نفوسهُمْ إلَى ما همْ أهلٌ لهُ ، وهوَ أيضاً لهُمْ أهلٌ ؛ كالأسَدِ الَّذِى يفترسُ الأرنَبَ ، فإذَا رأى البعيرَ تركهَا وطلَبَ البعيَر ، ألا ترَى أنَّ الكلبَ يبصبصُ بذنبهِ . حتَّى ترمَى لهُ الكسرةُ ، وأنَّ الفيلَ المعترف بفضلهِ وقوتهِ إذَا قدّمَ إليهِ علفهُ لا يعتلفهُ حتَّى يمسحَ ويتملقَ لهُ . فمنْ عاشَ ذَا مالٍ وكانَ ذَا فضلٍ وإفضَالٍ علَى أهلهِ وإخوانهِ فهوَ وإنْ قلَّ عمرُهُ طويلُ العمرِ . ومنْ كانَ في عيشهِ ضيقٌ وقلةٌ وإمساكٌ علَى نفسهِ وذويهِ فالمقبورُ أحيَا منهُ . ومَنْ عملَ لبطنهِ وقنَعَ وتركَ ما سوىَ ذلكَ عُدَّ منَ البهائِمِ .

قالَ كليلةُ : قدْ فهمتُ ما قلتَ ؛ فراجعْ عقلَكَ ، واعلمْ أنَّ لكلِ إنسانٍ منزلةً وقدراً . فإنْ كانَ في منزلَتِهِ الَّتِي هُوَ فيهَا متماسكاً . كانَ حقيقاً أنْ يقنعَ . ونبسَ لنَا منَ المنزلةِ ما يحطُّ حالنَا الَّتِى نحنُ عليهَا . قالَ دمنةُ : إنَّ المنازلَ مُتَنَازَعةٌ مشتركةٌ علَى قدرِ المروءَةِ ؛ فالمرءُ ترفعهُ مروءَتُهُ منَ المنزلةِ الوضيعَةِ إلَى المنزلةِ الرفيعَةِ ؛ ومنَ لا مروءَةَ لهُ يحطُّ نفسهُ منَ المنزلةِ الرفيعةِ إلَى المنزلةِ الوضيعَةِ . وإنَّ الارتفاعَ إلَى المنزلَةِ الشريفَةِ شديدٌ ، والانحطَاطَ منهَا هينٌ ؛ كالحجرَ الثقيلِ : رفعهُ منَ الأرض إلَى العاتقِ عسرٌ ، ووضعُهُ إلَى الأرضِ هينٌ . فنحنُ أحقُّ أنْ نرومَ ما فوقنَا منَ المنازلِ ، وأنْ نلتمسَ ذلكَ بمروءَتِنا . ثمَّ كيفَ نقنعُ بهَا ونحنُ نستطيعُ التحولَ عنهَا ؟ قالَ كليلةُ : فمَا الذِى اجتمعَ عليهِ رأيكَ ؟ قالَ دمنةُ : أريدُ أنْ أتعرضَ للأسدِ عندَ هذِهِ الفرصَة : فإنَّ الأسدَ ضعيفُ الرأيِ . ولعلِى علَى هذِهِ الحالِ أدنُو منهُ فأصيبَ عندهُ منزلةً ومكانةً . قالَ كليلةُ : ومَا يدريكَ أنَّ الأسدَ قَدِ التبسَ عليْهِ أمرهُ ؟ قالَ دمنةُ : بالحسِّ والرأيِ أعلمُ ذلكَ منهُ : فإنَّ الرجُلَ ذَا الرأيِ يعرفُ حالَ صاحبِهِ وباطنَ أمرِهِ بمَا يظهَرُ لهُ منْ دلهِ وشكلِهِ . قالَ كليلَةُ : فكيفَ ترجُو المنزلَةَ عنْد الأسَدِ ولستَ بصاحبِ السلطانِ ، ولا لكَ علمٌ بخدمةِ السلاطينِ؟. قالَ دمنةُ : الرجلُ الشديدُ القويُّ لا يعجزُهُ الحملُ الثقيلُ ، وإنْ لمْ تكنْ عدتُهُ الحملَ، والرجلُ الضعيفُ لا يستقلُّ بهِ وإنْ كانَ ذلكَ منْ صناعتهِ . قالَ كليلةُ : فإنَّ السلطانَ لا يتوخَّى بكرامتهِ فضلاءَ منْ بحضرتهِ ؛ ولكنهُ يؤثر الأدنَى ومنْ قربَ منهُ . ويقالُ : إنَّ مثلَ السلطانِ في ذلكَ مثلُ شجرِ الكرمِ الذِى لا يَعْلَقُ إلا بأقربِ الشجَرِ . وكيفَ ترجُو المنزلَةَ عندَ الأسدِ ولستَ تدنُو منهُ ؟ قالَ دمنةُ : قدْ فهمتُ كلامكَ جميعهُ وما ذكرتَ ، وأنتَ صادقٌ . لكنِ اعلمْ أنَّ الذِى هوَ قريبٌ منَ السلطانِ ولا ذلكَ موضعُهُ ولا تلكَ منزلتهُ ، ليسَ كمنْ دنَا منهُ بعدَ البعدِ ولهُ حقٌّ وحرمةٌ ؛ وأنَا ملتمسٌ بلُوغ مكانتهمْ بجهدِي . وقدْ قيلَ : لا يواظبُ علَى بابِ السلطانِ إلا منْ يطرحُ الأنفةَ ويحملُ الأذَى ويكظمِ الغيظَ ويرفُقُ بالناسِ ويكتُمُ السرَّ ؛ فإذَا وصلَ إلَى ذلكَ فَقَدْ بلَغَ مرادَهُ . قالَ كليةُ : هبكَ وصلتَ إلَى الأسدِ ، فمَا توفيقكَ عندهُ الذِى ترجُو أنْ تنالَ بهِ المنزلةَ والحظوةَ لديهِ؟. قالَ دمنةُ : لوْ دنوتُ منهُ وعرفتُ أخلاقهُ ، لرفقتُ في متابعتهِ وقلَّةِ الخلافِ لهُ . وإذَا أرادَ أمراً هوَ في نفسهِ صوابٌ ، زينتهُ لهُ وصبرتهُ عليْه ،

وعرفتُهُ بمَا فيهِ منَ النفعِ والخيْرِ ، وشجعتُهُ عليهِ وعلَىَ الوصولِ اليهِ ، حتَّى يزدادَ بهِ سروراً . وإذَا أرادَ أمراً يخافُ عليهِ ضرهُ وشينهُ ، بصرتهُ بمَا فيهِ منَ الضرِ والشينِ ، وأوقفتُهُ علَى ما في تركهِ منَ النفعِ والزينِ ، بحسبِ ما أجدُ إليهِ السبيلَ . وأنَا أرجُو أنْ أزدَادَ بذلك عند الأسدِ مكانةً ويرىَ مني ما لا يراهُ منْ غيرِى ؛ فإنَّ الرجلَ الأريبَ الرفيقَ لوْ شاءَ أن يبطلَ حقاً أوْ يحقَّ باطلاً لفعَلَ : كالمصورِ الماهرِ الَّذى يصورُ في الحيطانِ صوراً كأنهَا خارجةٌ وليستْ بخارجةٍ ، وأخرَى كأنَّهَا داخلةٌ وليستْ بداخلةٍ . قالَ كليلةُ : أمَّا إنْ قلتُ هذَا أوْ قلتَ هذَا فإنِّى أخافُ عليكَ منَ السلطانِ فإنَّ صحبتهُ خطِرةٌ . وقدْ قالتِ العلماءُ : إنَّ أموراً ثلاثةً لا يجترىءُ عليهنَّ إلا أهوجُ ، ولا يسلمُ منهُنَّ إلا قليلٌ ، وهىَ : صحبةُ السلطانِ ، وائتمانِ النساءِ علَى الأسرَارِ ، وشربُ السمِ للتجربَةِ ، وإنمَا شبَّهَ العلماءُ السلطانَ بالجبلِ الصعبِ المرتقىَ الَّذى فيهِ الثمارُ الطيبةُ والجواهرُ النفيسةُ والأدويةُ النافعةُ . وهوَ معَ ذلكَ معدنُ السباعِ والنمورِ والذئَابِ وكلِ ضارٍ مخوفٍ . فالارتقاءُ إليهِ شديدٌ ، والمقامُ فيهِ أشدُّ ، قالَ دمنةُ : صدقتَ فيما ذكرتَ ؛ غيرَ أنهُ منْ لمْ يركبِ الأهوالَ ، لمْ ينلِ الرغائبَ ، ومنْ تركَ الأمرَ الذِى لعلَّه يبلغُ فيهِ حاجتهُ هيبةً ومخافةً لمَا لعلهُ أن يتوقاهُ ، فليسَ ببالغٍ جسيماً . وقدْ قيلَ : إنَّ خصالاً ثلاثاً لنْ يستطيعهَا أحدٌ إلا بمعونةٍ منْ علُوِّ همةٍ وعظيمِ خطرٍ : منهَا عملُ السلطانِ وتجارةُ البحرِ ومناجزةُ العدوِ . وقدْ قالتِ العلماءُ في الرجلِ الفاضلِ الرشيدِ : إنهُ لا يُرى إلا في مكانينِ ، ولا يليقُ بهِ غيرهمَا : إمَّا معَ الملوكِ مكرماً ، وإمَّا معَ النساكِ متعبداً ، كالفيلِ إنمَا جمالهُ وبهاؤهُ في مكانينِ : إمَّا أنْ تراهُ وحشياً وإمَّا تراه مركباً للمُلوكِ . قالَ كليلةُ : خارَ اللهُ لكَ فيمَا عزمتَ عليْه .

ثم إن دمنةُ انطلقَ حتَّى دخلَ علَى الأسدِ فسلَّمَ عليهِ . فقالَ الأسدُ لبعضِ جلسائِه : منْ هذَا ؟ فقالَ : فلانُ بنُ فلانٍ . قالَ : قدْ كنتُ أعرفُ أباهُ . ثمَّ سألهُ أينَ تكونُ ؟ قالَ : لمْ أزلْ ملازماً بابَ الملكِ ، رجاءَ أن يحضرَ أمرٌ فأعينَ الملكَ فيهِ بنفسي ورأيي : فإنَّ أبوابَ الملوكِ تكثرُ فيهَا الأمُورُ التي ربمَا يحتاجُ فيهَا إلَى الذِى لا يؤبهُ لهُ ؛ وليسَ أحدٌ يصغرُ أمرهُ إلا وقدْ يكونُ عندهُ بعضُ الغناءِ والمنافعِ علَى قدرِهِ ؛ حتَّى العودُ الملقَى في الأرضِ ربَّمَا نفعَ ، فيأخُذُهُ الرجلُ فيكونُ عدتهُ عندَ الحاجةِ إليهِ . فلمَّا سمعَ الأسدُ قولَ دمنةَ أعجبهُ ، وظنَّ

أنَّ عندهُ نصيحةً ورأياً . أقبلَ علَى منْ حضرَ فقالَ : إنَّ الرجلَ ذَا العلمِ والمروءَةِ يكونُ خاملَ الذكرِ خافضَ المنزلةِ ، فتأبَى منزلتُهُ إلا أنْ تشبَّ وترتفعَ ؛ كالشعلَةِ منَ النارِ يضربُهَا صاحبُهَا وتأبَى إلا ارتفاعاً . فلمَّا عرفَ دمنةُ أنَّ الأسَدَ قدْ عجبَ منهُ قالَ : إنَّ رعيةَ الملكِ تحضرُ بابَ الملكِ ، رجاءَ أن يعرفَ ما عندهَا منْ علم وافرٍ . وقدْ يقالُ : إنَّ الفضلَ في أمرينِ : فضلُ المقاتلِ علَى المقاتلِ والعالِمِ علَى العالِمِ . وإنَّ كثرَةَ الأعوانِ إذَا لمْ يكونُوا مختبرينَ ربَّمَا تكونُ مضرةً علَى العملِ : فإنَّ العملَ ليسَ رجاؤُهُ بكثرةِ الأعوانِ ولكنْ بصالحي الأعوانِ . ومثلُ ذلكَ مثلُ الرجلِ الَّذِى يحملُ الحجرَ الثقيلَ ، فيثقلُ بهِ نفسهُ ، ولا يجدُ لهُ ثمناً . والرجلُ الذِى يحتاجُ إِلَى الجذوعِ لا يجزئهُ القصبُ وإنْ كثرَ . فأنتَ الآنَ أيها الملكِ حقيقٌ ألا تحقرَ مروءةً أنتَ تجدهَا عندَ رجلٍ صغيرِ المنزلةِ : فإنَّ الصغيرَ ربمَا عظمَ ، كالعصبِ يؤخذُ منَ الميتةِ فإذَا عملَ منهُ القوسُ أكرمَ ، فتقبضُ عليهِ الملوكُ وتحتاجُ إليهِ في البأسِ واللهْو .

وأحب دمنةُ أن يُرِىَ القومَ أنَّ ما نالهُ منْ كرامة الملكِ إنمَا هو لرأيهِ ومروءَتِهِ وعقلِهِ : لأنهمْ عرَفُوا قبلَ ذلكَ أنَّ ذلكَ لمعرفتهِ أباهُ ، فقالَ : إنَّ السلطانَ لا بقربُ الرجالَ بقُربِ آبائهمْ ، ولا يبعدهمْ لبعدهمْ ، ولكنْ ينبغِى أن ينظرَ إِلَى كلِّ رجلٍ بمَا عندهُ : لأنهُ لا شيءَ أقربُ إِلَى الرجُلِ منْ جَسَدِه ومنْ جسدهِ مايَدْوَى حتَّى يؤذيهُ ولا يدفَعُ ذلكَ عنهُ إلا بالدواءِ الَّذِى يأتيهِ منْ بعيدٍ .

فلمَّا فرغُ دمنةُ منِ مقالتِهِ هذهِ أعجبَ الملكُ بهِ إعجاباً شديداً ، وأحسنَ الردَّ عليهِ ، وزادَ في كرامتهِ ، ثمَّ قالَ لجلسائهِ : ينبغِى للسلطانِ ألا يلجَّ في تضييعِ حقِّ ذوِى الحقوقِ . والناسُ في ذلكَ رجلانِ : رجلٌ طبعهُ الشراسةُ ، فهوَ كالحيَّةِ إن وطئهَا الواطىءُ فلمْ تلدغهُ ، لمْ يكنْ جديراً أنْ يغرهُ ذلكَ منهَا ، فيعودَ إِلَى وطنهَا ثانياً فتلدغهُ ؛ ورجلٌ أصلُ طباعهِ السهولةُ ، فهوَ كالصندلِ البارِدِ الذِى إذَا أفرطَ في حكهِ صارَ حاراً مؤذياً .

ثمَّ إنَّ دمنةَ استأنسَ بالأسدِ وخلا بهِ . فقالَ لهُ يوماً : أرَى الملكَ قدْ أقامَ في مكانٍ واحدٍ لا يبرحُ منهُ ، فمَا سببُ ذلكَ ؟ فبينما همَا في هذا الحديثِ إذْ خارَ شتربةُ خواراً شديداً : فهيجَ الأسد وكادَ أنْ يخبرَ دمنةَ بمَا نالهُ ؛ وعلم

دمنةُ أنَّ ذلكَ الصوتَ قدْ أدخلَ علَى الأسدِ ريبةً وهيبةً . فسألهُ : هلْ رابَ الملكَ سماعُ هذا الصوتِ ؟ قالَ لمْ يربْني شيءٌ سوَى ذلكَ . قالَ دمنةُ : ليسَ الملكُ بحقيقٍ أنْ يدعَ مكانهُ لأجلِ صوتٍ . فقدْ قالتِ العلماءُ ، إنهُ ليسَ منْ كلِ الأصواتِ تجبُ الهيبةُ . قالَ الأسدُ : وما مثلُ ذلكَ ؟

قالَ دمنةُ : زعموا أنَّ ثعلبًا أتَى أجمةً فيهَا طبلٌ معلقٌ عَلَى شجرةٍ ، وكلمَا هبتِ الريحُ علَى قضبَانِ تلكَ الشجرةِ حركتهَا ، فضربَتِ الطبلَ فسُمِعَ لهُ صوتٌ عظيمٌ ؛ فتوجَّهَ الثعلَبُ نحوهُ لأجلِ ما سمِعَ منْ عظمِ صورتهِ ؛ فلمَّا أتاهُ وجدهُ ضَخْماً ، فأيقَنَ فيَ نفسهِ بكثرةِ الشحْمِ واللحْمِ . فعالجهُ حتَّى شقَّهُ . فلمَّا رآهُ أجوفَ لا شيءَ فيهِ ، قالَ : لا أدرِي لعَلَّ أفشلَ الأشيَاءِ أجهرُهَا صوتاً وأعظمهَا جثةً . وإنَّمَا ضَرَبتُ لكَ هذَا المثلَ لتعلمَ أنَّ هذَا الصوتَ الَّذِى راعَنَا ، لوْ وصلنَا إليهِ ، لوجدنَاهُ أيسَرَ ممَّا في أنفسنَا . فإنْ شاءَ الملكُ بعثَني وأقامَ بمكَانهِ حتَّى آتيهِ ببيانِ هذَا الصوتِ . فوافَقَ الأسدَ قولُهُ ، فأذِنَ لهُ بالذهَابِ نحوَ الصوتِ . فانطلقَ دمنةُ إلَى المكانِ الَّذِى فيه شتربةُ . فلمَّا فصلَ دمنةُ منْ عندِ الأسَدِ ، فكرَ الأسدُ في أمرِه ، وندمَ علَى إرسَال دمنةَ حيثُ أرسلهُ ، وقالَ فى نفسهِ : مَا أصبْتُ في أئتِماني دمنةَ ، وقدْ كانَ ببابِي مطروحاً .

جـ — مقتطفات من « الأدب الكبير » و « الأدب الصغير »

قال ابن المقفع :

مطلب
(في فضل الأقدمين)

إنّا وجدنا الناس قبلنا كانوا أعظم أجساماً ، وأوفر[1] مع أجسامهم أحلاماً[2] ، وأشدّ قوّةً ، وأحسن بقوّتهم للأمور إتقاناً ، وأطوَل أعماراً ، وأفضل بأعمارهم للأشياء اختباراً[3] .

فكان صاحبُ الدِّين منهم أبلغ[4] في أمر الدين علماً وعملاً من صاحب الدين منا ، وكان صاحبُ الدنيا على مثل ذلك من البلاغة والفضل .

ووجدناهم لم يرضَوا بما فازوا به من الفضل الذي قُسِمَ لأنفسهم حتى أشركونا معهم في ما أدركوا من علم الأولى والآخرة فكتبوا به الكتبَ الباقية ، وضربوا الأمثال الشافية ، وكَفَوْنا به مؤونة[5] التجارب[6] والفِطَن .

وبلغ من اهتمامهم بذلك أن الرجل منهم كان يُفْتَحُ له البابُ من العلم ، أو الكلمةُ من الصواب وهو في البلد غير المأهول[7] ، فيكتبه على الصخور مبادرةً للأجل[8] وكراهيةً منه أن يسقط ذلك عمّن بعده .

---

(١) أوفر : أكثر .
(٢) الأحلام : جمع حلم — بالكسر — وهو العقل .
(٣) أي ان طول أعمارهم جعل خبرتهم أفضل وكذلك الوقوف على الحقائق .
(٤) أبلغ : أي أكثر تمسكاً .
(٥) المؤونة : المشقّة والعناء ، أيضاً الثقل والشدة .
(٦) التجارب : جمع تجربة ، اختبار الشيء مرة بعد مرة .
(٧) المأهول : الذي فيه أهل وسكان .
(٨) الأجل : وقت الموت ، ويكتبه على الصخور : كان المتقدمون إذا ما خطرت لأحدهم خاطرة أو سنحت لهم شاردة دوّنوها على الصخور خشية أن يوافيهم الأجل فتسقط عمن بعدهم ، يفوت ويضيع عليه .

فكان صنيعهم في ذلك صنيع الوالد الشفيق على ولده ، الرحيم البَرّ بهم ، الذي يجمع لهم الأموال والعُقد[1] إرادةَ ألاّ تكون عليهم مؤونة في الطلب ، وخشية عجزهم ، إن هم طلبوا .

فمنتهى علم عالمنا في هذا الزمان ، أن يأخذ من علمهم ، وغايةُ إحسان محسننا أن يقتديَ بسيرتهم .

وأحسن ما يصيب من الحديث محدِّثُنا أن ينظر في كتبهم فيكونَ كأنه إياهم يحاور[2] ، ومنهم يستمع ، وآثارهم يتّبع .

غير أن الذي نجد في كتبهم هو المنتخل[3] من آرائهم ، والمنتقى من أحاديثهم .

ولم نجدهم غادروا[4] شيئاً يجد واصفٌ بليغٌ في صفة له مقالاً[5] لم يسبقوه إليه : لا في تعظيم لله ، عزّ وجلّ ، وترغيبٍ فيما عنده ، ولا في تصغير للدنيا وتزهيد فيها ، ولا في تحرير صنوف العلم وتقسيم أقسامها وتجزئة أجزائها وتوضيح سُبلها وتبيين مآخذها ، ولا في وجه من وجوه الأدب وضروب[6] الأخلاق .

فلم يبقَ في جليل الأمر ولا صغيره لقائلٍ بعدهم مقالٌ .

وقد بقيتْ أشياءُ من لطائف الأمور فيها مواضع لصغار الفِطَن ، مشتقةٌ من جسام حِكَم الأولين وقولهم ، فمن ذلك بعضُ ما أنا كاتبٌ في كتابي هذا من أبوابِ الأدب التي يحتاج إليها الناس .

***

---

(١) العقدة : العقار .
(٢) يحاور : يناقش .
(٣) المنتخل : المنتخب ، المختار .
(٤) غادروا : تركوا .
(٥) مقالاً : في بعض الطبعات صفة بدل مقالاً .
(٦) ضروب : أنواع ، أصناف .

مطلب
(في الحث على تعرف أهل العلم على العلم وفضله)

يا طالب العلم :

إن كنتَ نوعَ العلم تريد فاعرف الأصول[١] والفصول[٢] . فإنَّ كثيراً من الناس يطلبون الفصول مع إضاعة الأصول ، فلا يكونُ دَرْكُهُمْ[٣] دَرَكاً . ومَن أحرزَ الأصول اكتفى بها عن الفصول . وإن أصاب الفصل بعد إحراز الأصل فهو أفضل .

فأصل الأمر في الدين أن تعتقد الإيمان على الصواب ، وتجتنب الكبائر ، وتؤدّي الفريضة . فالزَمْ ذلك لزومَ مَنْ لا غنىً عنه طرفة عين ، ومَنْ يعلم أنه إن حُرِمَهُ هَلَكَ . ثم إن قَدَرْتَ على أن تُجاوِز ذلك إلى التَّفَقُّهِ[٤] في الدين والعبادة فهو أفضل وأكمل .

وأصل الأمر في صلاح الجسد ألاّ تحمل عليه من المآكل والمشارب والباه[٥] إلا خُفافاً[٦] ، ثم إن قدرتَ على أن تعلم جميع منافع الجسد ومَضارِّه والانتفاع بذلك كله فهو أفضل .

وأصلُ الأمر في البأس والشجاعة ألاّ تحدِّثَ نفسك بالإدبار[٧] ، وأصحابُك مقبلون على عدوّهم . ثم إن قدرت على أن تكون أوّل حامل وآخر منصرف ، من غير تضييع لِلْحذرِ[٨] ، فهو أفضل .

وأصل الأمر في الجود ألاّ تضنَّ بالحقوق على أهلها . ثم إن قدرت أن تزيد ذا الحق على حقه وتَطَوَّلَ[٩] على مَن لا حقَّ له فافعل فهو أفضل .

---

(١) الأصول : القوانين ، القواعد .
(٢) الفصول : الفروع .
(٣) الدرك : الوصول إلى الغاية .
(٤) تفقه في الدين : أي صار عالماً .
(٥) الباه : النكاح .
(٦) خفاف : خفيف .
(٧) الإدبار : الفرار .
(٨) الحذر : مجانبة الشيء .
(٩) تطول : طال على فلان : أنعم .

وأصل الأمر في الكلام أن تسلم من السَّقَطِ[1] بالتحفظ . ثم إن قدرت على بارع[2] الصواب فهو أفضل .

وأصل الأمر في المعيشة ألاّ تَنِيَ[3] عن طلب الحلال ، وأن تُحسن التقدير لما تفيد ممَّا تنفق . ولا يغرَّنك من ذلك سَعَةٌ[4] تكون فيها . فإن أعظم الناس في الدنيا خطراً[5] أحوَجهم الى التقدير ، والملوك أحوَج إليه من السُّوقَةِ[6] ، لأن السوقة قد تعيش بغير مال ، والملوك لا قِوامَ[7] لهم إلا بالمال . ثم إن قدرت على الرفق واللطف في الطلب والعلم بوجود المطالب فهو أفضل .

وأنا واعظك في أشياء من الأخلاق اللطيفة والأمور الغامضة التي لو حَنَّكَتْكَ[8] سِنٌّ كنتَ خليقاً أن تعلمها ، وإن لم تُخْبَرْ عنها . ولكنني قد أحببت أن أُقَدِّمَ إليك فيها قولاً لِتَرُوضَ[9] نفسك على محاسنها قبل أن تجري على عادة مساوئها . فإن الإنسان قد تبتدر[10] إليه في شبيبته المساوىء ، وقد يغلب عليه ما بَدَرَ إليه منها للعادة . وإن لترك العادة مؤونةً[11] شديدة ورياضة صعبة .

***

---

(١) السقط : الخطأ .
(٢) البارع : برع : فاق علماً أو فضيلة .
(٣) تني : ونى : فتر وضعف .
(٤) سعة : بحبوحة .
(٥) الخطر : ارتفاع المنزلة .
(٦) السوقة : الرعية ، أما السوقي فهو من أهل السوق .
(٧) قوام : عماد ، نظام .
(٨) حنّك : راضَ وهذّب .
(٩) راض : ذلّله وجعله مطيعاً .
(١٠) تبتدر : تسبق .
(١١) المؤونة : الشدة والثقل .

مطلب
(في أن صاحب الامارة لا ينبغي له أن يُعنى إلا بأعمالها)

إن ابتليتَ بالسلطان فتعَوَّذْ[١] بالعلماء .

واعلمْ أن من العجب[٢] أن يُبتلى الرجل بالسلطان فيريد أن ينتقص من ساعات نَصَبِه[٣] وعمله فيزيدها في ساعات دَعَتِه[٤] وفراغه وشهوته وعبثه ونومه .

وإنما الرأيُ له والحقُّ عليه أن يأخذ لعمله من جميع شغله ، فيأخذ له من طعامه وشرابه ونومه وحديثه ولهوه ونسائه .

وإنما تكون الدَّعَةُ بعد الفراغ .

فإذا تقلَّدتَ شيئاً من أمر السلطان فكُنْ فيه أحد رجلين :

إما رجلاً مغتبطاً[٥] به ، محافظاً عليه مخافة أن يزول عنه ، وإما رجلاً كارهاً[٦] له مكرَهاً[٧] عليه . فالكاره عاملٌ في سُخرة[٨] : إما للملوك ، إن كانوا هم سلَّطوه ، وإما لله تعالى ، إن كان ليس فوقه غيرهُ .

وقد علمتَ أنه مَن فرَّطَ في سُخرة الملوك أهلكوه . فلا تجعل للهلاك على نفسك سلطاناً ولا سبيلاً .

---

(١) تعوّذ : اعتصم والجأ .
(٢) العجب : إنكار ما يرد عليك .
(٣) النصب : التعب .
(٤) الدعة : الراحة وخفض العيش .
(٥) مغتبطاً : مسروراً .
(٦) كارهاً : مبغضاً .
(٧) مكرهاً : مجبراً .
(٨) السخرة : العمل بلا أجرة .

وإياك ، إذا كنت والياً ، أن يكون من شأنك حُبُّ المدح والتزكية[1] ، وأن يعرف الناسُ ذلك منك ، فتكون ثُلمةً[2] من الثُّلَم يَتَقَحَّمُونَ[3] عليك منها ، وباباً يفتتحونك منه ، وغِيبةً[4] يغتابونك بها ويضحكون منك لها .

واعلم أن قابل المدح كمادح نفسه . والمرء جديرٌ أن يكون حُبُّهُ المدحَ هو الذي يحمله على رَدِّه . فإن الرَّادُّ له محمودٌ ، والقابل له مَعيبٌ .

***

مطلب

(فيمن ينبغي للوالي أن ينال رضاه)

لتكنْ حاجتك في الولاية الى ثلاث خصال : رضى ربك ، ورضى سلطان ، إن كان فوقك ، ورضى صالح مَن تَلي عليه .

ولا عليك أن تلهوَ عن المال والذِّكر ، فسيأتيك منهما ما يَحسُنُ ويطيب ويُكتفى به .

واجعل الخصالَ الثلاثَ منك بمكان ما لا بُدَّ لك منه . واجعل المالَ والذِّكرَ بمكان ما أنتَ واجدٌ منه بُدّاً .

***

---

(١) زكى نفسه : مدحها .
(٢) ثلمة : الفرجة التي تكون في الحائط .
(٣) قحم : دخل بسبب الهدم أو الكسر .
(٤) غيبة : ذكر المرء بما يسوؤه أثناء غيابه .

مطلب

(فيمن يجب أن يكونوا بطانة وأصفياء)

اعرفِ الفضلَ في أهلِ الدين والمروءة في كل كورة[1] وقرية وقبيلة . فليكونوا هم إخوانك وأعوانك وأخدانك[2] وأصفياءك[3] وبطانتك[4] وثِقاتك وخُلَطاءك . ولا تقذفنَّ في روُعِك[5] أنك إنِ استشرتَ الرجال ظهرَ للناس منك الحاجةُ الى رأي غيرك ، فإنك لستَ تريد الرأيَ للافتخار به ، ولكنما تريده للانتفاع به ، ولو أنك مع ذلك أردتَ الذكر ، كان أحسن الذكرين وأفضلهم عند أهل الفضل والعقل أن يُقال : لا يتفرَّد برأيه دون استشارة ذوي الرأي .

***

مطلب

(في أن رضى الناس غاية لا تُطلب)

إنك إن تلتمس رضى جميع الناس تلتمس ما لا يُدْرَك .

وكيف يتفق لك رأي المختلفين ، وما حاجتك الى رضى مَن رضاه الجَورْ ، وإلى موافقة مَن موافقتُه الضلالة والجهالة ؟ فعليك بالْتماس رضى الأخيار منهم وذوي العقل . فإنك متى تُصِبْ ذلك تَضعْ عنك مؤونة ما سواه .

***

---

(١) كورة : بقعة تجمع فيها المساكن والقرى .
(٢) الخدن : الحبيب والصاحب .
(٣) الصفي : المختار من الأصدقاء .
(٤) البطانة : الأهل والخاصة الذين يشاورهم في اموره .
(٥) الروع : القلب ، وقيل : موضع الفزع منه .

مطلب

(فيما ينبغي للسلطان نحو أصفيائه وسائر رعيته)

لا تُمكّنْ أهلَ البلاء[1] الحسن عندك من التدلُّل[2] عليك ، ولا تُمَكّنَنَّ مَنْ سواهم من الاجتراء عليهم والعيب لهم .

لتعرفْ رعيَّتُكَ أبوابَكَ التي لا يُنالُ ما عندك من الخير إلاّ بها ، والأبواب التي لا يخافك خائف إلاّ من قِبَلِها .

احرصِ الحرصَ كُلَّهُ على أن تكون خابراً أمورَ عمالك ، فإن المسيء يَفْرَقُ[3] من خبرتك قبل أن تصيبه عقوبتك ، وإن المحسن يستبشر بعلمك قبل أن يأتيه معروفك .

ليعرفِ الناسُ ، في ما يعرفون من أخلاقك ، أنك لا تعاجل بالثواب ولا بالعقاب ، فإن ذلك أدْوَمُ لخوف الخائف ورجاء الراجي .

***

مطلب

(في الحث على احتمال نصح النصيح وعذله)

عَوِّدْ نفسك الصبر على مَن خالفك من ذوي النصيحة ، والتجرُّع[4] لمرارة قولهم وعَذْلِهمْ[5] ، ولا تُسَهِّلَنَّ سبيل ذلك إلاّ لأهل العقل والسِنّ والمروءة ، لئلاّ ينتشر من ذلك ما يجترىء به سفيهٌ أو يستخفُّ به شانىءٌ[6] .

***

(١) البلاء : الاختبار .
(٢) التدلل : الدلال ، إفراط الإنسان على أخيه للوثوق على محبته وميله .
(٣) يفرق : يخاف .
(٤) جرع الماء : بلعه .
(٥) العذل : اللوم .
(٦) شانىء : مبغض .

مطلب

(في أن السلطان لا ينبغي له أن يُعنى بغير الخطير من الرجال والأعمال)

لا تتركنَّ مباشرةَ جسيم أمرك فيعود شأنك صغيراً ، ولا تُلزِمَنَّ نفسك مباشرة الصغير ، فيصيرَ الكبيرُ ضائعاً .

واعلمْ أن مالَكَ لا يُغني الناسَ كُلَّهم ، فاخصص به أهل الحقّ ، وأنَّ كرامتك لا تُطيقُ العامَّةَ كُلَّها ، فتوَخَّ[1] بها أهل الفضل ، وأنَّ قلبك لا يتَّسع لكلِّ شيء ، ففرِّغه للمهمّ ، وأنَّ ليلك ونهارك لا يستوعبان[2] حاجاتك ، وإن دَأَبْتَ[3] فيهما ، وأن ليس لك الى إدامة الدأب فيهما سبيلٌ مع حاجة جسدك الى نصيبه منهما ، فأَحْسِنْ قسمتهَما بين عملك ودعَتك .

واعلمْ أنَّ ما شغلتَ من رأيك بغير المُهمّ أزرى بك في المُهمّ ، وما صرفتَ من مالك في الباطل فقدتَه حين تريده للحقّ ، وما عدلْتَ به من كرامتك الى أهل النقص أضرَّ بك في العجز عن أهل الفضل ، وما شغلْتَ من ليلك ونهارك في غير الحاجة أزرى بك عند الحاجة منك إليه .

***

مطلب

(في تحذير السلطان من الافراط في الغضب والتسرُّع في الرضى)

إعلمْ أنّ من الناس ناساً كثيراً يبلغ من أحدهم الغضب ، إذا غضب ، أن يحمله ذلك على الكلوح[4] والقطوب[5] في وجه غير مَن أغضبه ، وسوء اللفظ لمن لا ذنب له ، والعقوبة لمن لم يكن يَهمّ بمعاقبته ، وشدة المعاقبة باللسان واليد

---

(١) توخَّ : تحرَّ في الطلب .

(٢) يستوعب : يسع .

(٣) دأب : جد وتعب .

(٤) الكلوح : التكشير في عبوس .

(٥) القطوب : أي يزوي المرء ما بين عينيه .

لمن لم يكن يريد به إلا دون ذلك . ثم يبلغ به الرضى ، إذا رضي ، أن يتبرّع بالأمر ذي الخطر[1] لمن ليس بمنزلة ذلك عنده ، ويعطي مَن لم يكن يريد إعطاءَه ، ويُكرم مَن لم يُرِدْ إكرامه ولا حقّ له ولا مودّةَ عنده .

فاحذرْ هذا الباب الحذر كله ! فإنه ليس أحدٌ أسوَأ فيه حالاً من أهل السلطان الذين يُفرطون باقتدارهم في غضبهم ، وبتسرعُّهم في رضاهم . فإنه لو وُصف بهذه الصفة مَن يُلْتَبَسُ[2] بعقله أو يتخبّطه المَسُّ[3] أن يعاقب عند غضبه غيرَ مَن أغضبه ويحبو[4] عند رضاه غيرَ مَن أرضاه ، لكان جائزاً ذلك في صفته .

***

مطلب

(في أنواع الملك)

إعلمْ أنَّ المُلْكَ ثلاثةٌ : مُلكُ دين ، ومُلكُ حزم ، ومُلكُ هَوىً .

فأما مُلكُ الدين فإنه إذا أقام للرعيَّةِ دينَهم ، وكان دينُهم هو الذي يعطيهم الذي لهم ويُلحق بهم الذي عليهم ، أرضاهم ذلك ، وأنزل الساخطَ منهم منزلة الراضي في الإقرار والتسليم .

وأما مُلك الحزم فإنه يقوم به الأمر ولا يَسلم من الطعن والتسخُّطِ[5] . ولن يَضُرَّ طعنُ الضعيف مع حزم القوي .

وأما مُلك الهوى فلَعِبُ ساعةٍ ودمارُ[6] دهر .

***

(1) الخطر : العظيم الشأن .
(2) لبس الأمر : خلطه وجعله مشتبهاً بغيره .
(3) المس : الجنون .
(4) يحبو : يعطي .
(5) التسخط : الغضب .
(6) دمار : هلاك .

الجاحـــــظ

أبو عثمان عمرو بن بحر ـــ ت سنة ٢٥٥ هـ

مولده ونشأته :

لم يتفق المؤرخون على السنة التى ولد فيها بل ان أكثرهم لم يذكر سنة مولده ، وذكر سنة وفاته ، وقالوا أنه نيف على السبعين ، وينفرد ياقوت بقوله عن الجاحظ قال : أنا أسن من أبى نواس بسنة ، ولدت فى أول سنة ١٥٠ هـ وولد فى آخرها . وذكر ياقوت تاريخين آخرين لمولد أبى نواس سنة ١٤٥ هـ وسنة ١٣٦ هـ .

إلا أن الراجح من أقوال المؤرخين والأدباء أنه ولد فى السنوات العشر الأولى من النصف الثانى من القرن الثانى ، أو حوالى سنة ١٥٦ هـ .

واسمه عمرو بن بحر بن محبوب ، كنانى ليثى ، نسبة الى ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة ـــ وقالوا انه كان مولى أبى القلمس عمرو بن قلع الكنانى ثم الفضيمى وقيل انه كنانى صليبة لا ولاء .

وكان جده أسودا يقال له فزارة ، كان جمالا لعمرو بن قلع الكنانى .

وقد ولد الجاحظ أسود اللون كآبائه ، جاحظ العينين ، لذلك لقب بالجاحظ لجحوظهما . كما لقب بالحدقى أيضا ، ولم يكن الجاحظ مفرطا فى الطول ، بل ربعة وقد تندر بقبح صورته فقال : ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رآنى استبشع منظرى ، فأمر لى بعشرة آلاف درهم وصرفت .

ثقافته وأدبه :

ربما غلبت على ثقافته فى مرحلة اقامته بالبصرة الثقافة العربية الإسلامية من اللغة والشعر والحديث والتفسير . مع بعض الثقافات الكلامية المتأثرة بالفلسفة والعقليات

مع أساتذته من المعتزلة . ويرجح شارل بللا قراءته لكتب اليونانيين فى المرحلة البغدادية[1] .

معرفة الفارسية :

ويُرجِّحُ معرفته بالفارسية وليس اجادته لها ، وقد واتته هذه المعرفة بحكم صلته بالوسط البغدادى فى القرن الثالث ويفترض أن يكون هذا الوسط وخاصة طبقة الخاصة فيه واقعا تحت تأثير الفرس ، والثقافة الفارسية متداولة فيه ، ولا يبتعد أن تتداول بعض الألفاظ . ويقول بللات : « أغلب الظن — ولا مجال هنا للتأكيد — أن الجاحظ قد أشبع رغبته بمطالعة الكتب المترجمة عن الفارسية التى وصلت إليه . ولم تكن هذه عديدة ولكنها كافية لاعطائه معلومات عامة عن تاريخ الفرس يمكن افهامها بمعلومات شفهية لم يحرم الجاحظ نفسه منها »[1] .

أساتيذه :

فى اللغة والنحو : أبو عبيدة والاصمعى وأبو زيد الانصارى ، وأبو الحسن الاخفش وفى الحديث أبو يوسف بن ابراهيم القاضى ويزيد بن هارون والسرى بن عبدوية والحاج ابن محمد بن حماد بن سلمة . وثُمامة بن أشرس الذى لازمه فى بغداد . وأخذ الكلام عن ابراهيم بن سيار النظام .

ولا شك أن الجاحظ تعرف على النظام فى البصيرة فى حلقة أبى الهذيل العلاف وصحبه إلى بغداد وصار من مريديه . وروى الخطيب البغدادى ما يفيد هذا المعنى قال عن لسانه : « اجتمع أبو شمر ،وثُمامة ، وعلى بن هيثم وابراهيم النظام وخرجوا إلى باب الشماسية فنظروا الى موضع استطابوه فاجتمعوا فيه ووجهوا لى لاشترى لهم من السوق ببغداد ما يحتاجون إليه »[2] . ويرجح أنه صحب النظام ببغداد منذ سنة ٢١٠ هـ . وقد كان

(١) بللات : « الوسط البصرى وأثره فى تكوين الجاحظ » ، ص ١١٥ . وراجع « الجاحظ معلم العقل » لشفيق جبرى ، ص ٧٦ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغداد ، جـ ٦ ، ص ٩٨ .

يكبر أستاذه بعشرين عاما إلا أن الاستاذ كان يتمتع لا ريب بمنزلة عالية فى علم الكلام وبمكانة اجتماعية رفيعة .

الجاحظ ورواية الشعر :

كان يروى عن رواة الشعر الكثيرين الذين يترددون على البصرة آنذاك كما أخذ على علمائه الكبار المعاصرين من أمثال الأصمعى وأبى عبيدة . قال :

« ... وقد أدركت المسجديين والمربديين. ومن لم يرو أشعار المجانين ولصوص الأعراب ، والأرجاز الاعرابية القصار ، وأشعار اليهود والاشعار المنصفة فانهم كانوا لايعدُّونه من الرواة ، ثم استبردوا ذلك كله . ووقفوا على قصار الحديث والقصائد ، والفِقَرِوالنتف من كل شىء . ولقد شهدتهم وما هم على شىء أحرص منهم على نسيب العباس بن الاحنف ، فما هو الا أن أورد عليهم خلف الاحمر نسيب الاعراب ، فصار زهدهم فى شعر العباس بقدر رغبتهم فى نسيب الأعراب ثم رأيتهم منذسَنَوات وما يروى عندهم نسيب الاعراب الا حدث السن قد ابتدأ فى طلب الشعر أو فتيانى متغزل . وقد جلست إلى أبى عبيدة والاصمعى ويحيى بن نجيم وأبى مالك عمرو بن كركرة مع من جلست من رواة البغداديين فما رأيت أحدا منهم قصد إلى شعر فى النسيب فأنشده . وكان خلف يجمع ذلك كله .

ولم أر غاية النحويين الا كل شعر فيه إعراب ، ولم أر غاية رواة الاشعار الا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج الى الاستخراج . ولم أر غاية رواة الاخبار الا كل شعر فيه الشاهد والمثل . ورأيتُ عامتهم — وقد طالت مشاهدتى لهم — لا يقفون الا على الالفاظ المتميزة والمعانى المنتخبة وعلى الالفاظ العذبة وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعانى اذا صارت فى الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم وفتحت للسان باب البلاغة ودلت الاقلام على مواطن الالفاظ ، وأشارت الى حسان المعانى . ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام فى رواة الكُتّاب أعم ، وعلى ألسنة حذاق الشعراء أظهر ، ولقد رأيت أبا عمرو الشيبانى يكتب أشعارا من أفواه جلسائه ليدخلها فى باب التحفظ والتذاكر وربما خيل إلى أن أبناء أولئك الشعراء لا يستطيعون أبدا أن يقولوا شعرا جيدا لمكان أعراقهم من أولئك الآباء .

ولولا أن أكون عيابا ثم للعلماء خاصة لصورت لك فى هذا الكتاب ما سمعت من أبى عبيدة ومن هو أبعد فى وهمك من أبى عبيدة »[1] .

وكان بين الجاحظ والاصمعى الراوية صلات كثيرة ، وربما وقف منه الاصمعى مواقف المعارضة والمخاشنة أحيانا .

ذكر ياقوت[2] : حدث أبو العيناء قال : قال الجاحظ : كان الاصمعى منا . فقال له العباس بن رستم : لا والله ، ولكن تذكر حين جلست اليه تسأله ، فجعَلَ يأخذ نعلَهُ بيده ، وهى مخصوفة بحديد ويقول : نعم قناع القدرى . فعلمت أنه يعنيك » .

يريد الجاحظ أن يقول أن الأصمعى كان يأخذ بآراء المعتزلة ، ولكن صاحبه نفى ذلك وذكره بهجومه عليه فى مجلس معه ، وحملته على القدرية « المعتزلة » .

رحـــلاته :

وكانت رحلاته ، مصدرا من مصادر معرفته وعلمه ، فقد سافر أولا من البصرة إلى بغداد وتردد بينهما كثيرا ، وسافر الى الشام ، وحل بدمشق ، وصحب بها الوزير الفتح بن خاقان ، تحدث عن جامع دمشق الكبير ، كما تحدث عن براغيث دمشق وربما ذهب الى أنطاكية ومصر .

الجاحظ والاعتزال وعلم الكلام :

تتلمذ الجاحظ فى مذهب الاعتزال على النظام وتأثر به . وأعجب به ، وترى أثر الاعجاب باديا فى مواضع كثيرة من كتبه . ولم يكن هذا الاعجاب مع ذلك داعيا لان يسلم الجاحظ لاستاذه بكل آرائه ، بل ، لقد وقف منه أحيانا موقف المناقشة والمعارضة .

ومن أمثلة ما جاء فى كلام الجاحظ من إجلال وتعظيم للنظام قوله : « الأوائلَ يقولون : فى كل ألف سنة رجل لا نظير له ، فان كان ذلك

(١) البيان والتبيين ٣ /٢٣٥ — ٢٣٦ . (٢) معجم الادباء ، جـ ٦ /٥٦ .

صحيحا ، فهو أبو اسحاق النظام » وقال مرة أخرى : « ما رأيت أحدا أعلم بالكلام والفقه من النظام » .

وذكر تأثيره فى الاعتزال وجماعة المعتزلة فقال : « أنهج لهم سبلا وفتق لهم أمورا واختصر لهم أبوابا ظهرت فيها المنفعة ، وشملتهم بها النعمة » .

وقال فى معرض نقده أحيانا :

« كان إبراهيم مأمون اللسان ، قليل الزلل والزيغ فى باب الصدق والكذب . ولم أزعم أنه قليل الزيغ ، على أن ذلك قد كان يكون منه وأن كان قليلا ، بل انما قلت على مثل قولك : فلان قليل الحياء ، وأنت لست تريد حياء البتة » .

« وإنما عيبه الذى لا يفارقه سوء ظنه وجودة قياسه على العارض والخاطر السابق الذى لا يوثق بمثله ، فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الأصل الذى قاس عليه ، كان أمره على الخلاص ، ولكنه كان يظن الظن ، ثم يقيس عليه ، وينسى أن بـــدء أمره كان ظنا ، فاذا أتفق ذلك أيقن ،وجزم عليه ، وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر فى صحة معناه . ولكنه كان لا يقول : سمعت ، ولا رأيت . وكان كلامه اذا خرج مخرج الشهادة القاطعة لم يشك السامع أنه انما حكى ذلك عن سماع قد امتحنه ، أو عن معاينة قد بهرته » .

وانفرد النظام بآراء خاصة فى الاعتزال تبعه فيها جماعة من تلاميذه واتباعه عرفوا بالنظامية . وهى فرقة من المعتزلة كما يذكر الشهرستانى .

وكان أهم ما يأخذ به النظام نفسه فى علمه العقل والقياس . وكان كثير الشك والسخرية بأصحاب الحديث والاثر من المفسرين . كان يقول لأصحابه :

« لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين ، وان نصبوا أنفسهم للعامة ، وأجابوا فى كل مسألة فان كثيرا منهم يقول بغير دراية ، على غير أساس ، وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب إليهم .. وليكن عندكم عكرمة والكلبى ، والسدى ، والضحاك ، ومقاتل بن سليمان وأبو بكر الأصم فى

سبيل واحدة . فكيف أثق بتفسيرهم، وأسكن إلى صوابهم وقد قالوا فى قوله عز وجل « وإن المساجد لله » ان الله عز وجل لم يعن بهذا الكلام مساجدنا التى نصلى فيها ، بل انما عنى الجِبَاهَ وكل ما سجد الناس عليه من يد ورجل وجبهة وأنف وثفنة . وقالوا فى قوله تعالى : « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت » انه ليست الجمال والنوق ، وانما يعنى السحاب » .

وكان يأخذ في منهجه الفكرى بالشك أولا ثم يبحث منه عن الحقيقة حتى يصل اليها . ومن أقواله : « الشاك أقرب إليك من الجاحد ، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ، ولم ينتقل أحد من اعتقاد إلى غيره حتى يكون بينهما حال شك » .

واهتم النظام بعلوم الفلسفة والكلام ، وعلوم الطبيعة ، وتأثر فيما يبدو بأرسطو ومنهجه العقلى .

وانتقلت آراء النظام إلى تليمذه الجاحظ ، فآمن بالعقل ، ولم يسلم إلى المفسرين ، بل عاداهم كثيراً وسفه آرائهم ، كما عارض اللغويين الذين يأخذون بظاهر النص ولا يتعمقون وراء المعنى .

ويرى الجاحظ أنه لولا المتكلمين والمعتزلة خاصة ، لضل الناس ، وأن العالم الذى يتصدى لأمور العقيدة ينبغى أن يلم بعلوم العقل والطبيعة حتى تتسع مداركه . يقول[1] : « ولا يكون المتكلم جامعا لأقطار الكلام متمكنا فى الصياغة ، يصلح للرياسة حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة . والعالم عندنا هو الذى يجمعهما » .

وأتم الجاحظ ثقافته بالاطلاع على كثير من الكتب التى وقعت له ، وكان رجلا طُلَعَةً لا يكف عن القراءة . وكان معاصروه يعرفون فيه هذا الشغف الشديد بالكتاب . قال أبو هفان : « ولم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فانه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كائنا ما كان ، حتى أنه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر » .

---

(١) كتاب الحيوان ، ٢ /١٣٤ .

وقد وقف على كثير من كتب اللغة والأدب التى عرفت فى عصره ، وقرأ فى كتب الفلسفة والطبيعة ، قرأ كتاب المنطق لأرســطاليس وبعض كتب أقليدس ، وكثيرا مما ترجمه السريان أو ألَّفوهُ فى هذا المجال . وقد نقل عن ماسرجويه وأفليمون وحنين بنى اسحاق . وتتبع الدكتور الحاجرى نقول الجاحظ فى كتاب الحيوان .

وأحب الكتاب حبا بدا فى مواضع كثيرة من مؤلفاته ، ومنها قوله فى كتاب الحيوان : « والكتاب نعم الذخر والعمدة ، ونعم الجليس والعدة ، ونعم النشرة والنزهة ونعم المشتغل والحرفة ، ونعم الانيس لساعة الوحدة . ونعم المعرفة ببلاد الغربة . والكتاب وعاء ملىء علما وظرف خشى ظرفا[1] » .

ووقف الجاحظ على ثقافات بعض الأمم التى خالطت الفكر العربى فى عصره . كالفارسية واليونانية . وكان يقول : إن الأمم التى فيها الاخلاق والآداب والحكم والعلم أربع هى : العرب ، والهند ، وفارس ، والروم — يعنى اليونان .

ويرى أن العرب تفضلها جميعا فى البيان « لانهم أنطق ، وأن لغتها أوسع ، وأن لفظها أدل ، وأن أقسام تأليف كلامها أكثر ، والامثال التى ضربت فيها أجود وأيسر ، والبديهة مقصورة عليها ، والارتجال والاقتضاب خاص بها » .

وكتب الجاحظ ورسائله العديدة دليل على ثقافته الواسعة المتعددة ، المصادر وهى حافلة بمعارفه الكثيرة العريضة ، وتنم رسالته « التربيع والتدوير » عن قدرته على الخوض فى مواضيع شتى ، وتعطينا برهانا على مدى اتساع معارفه[2] .

موقف الجاحظ من الاتجاهات الاجتماعية والمذاهب الدينية فى عصره :

موقفه من الشعوبية :

يقول : « واعلم أنك لم تر قوما قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ولا أعدى

(١) الحيوان ، جـ ١ .

(٢) شارل بللات : بيئة البصرة وأثرها فى الجاحظ ، ص ١١٠ /١١١ .

على دينه ، ولا أشد استهلاكا لعرضه ، ولا أطول نصبا ، ولا أقل غنا من أهل هذه النحلة ، وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم ، وتوقد نار الشنآن فى قلوبهم وغليان تلك المراجل الفائرة ، وتسعر تلك النيران المضطرمة » .

وألف الجاحظ بعض كتبه يرد على الشعوبية والطاعنين على العرب ، وأولها كتاب « البيان والتبيين » لان البيان خاصة العرب والميزة التى عرفوا بها ونزل بها كتاب الله فى لغتهم ليكون بيانا للناس هاديا لهم . ويقول فى الجزء الثانى من البيان والتبيين :

« أردنا — أبقاك الله — أن نبتدىء صدر هذا الجزء الثانى من البيان والتبيين بالرد على الشعوبية وطعنهم على خطباء العرب وملوكهم ، إذ وصلوا إيمانهم بالمخاصَر، واعتمدوا على وجه الأرض بأطراف القسى والعصى ... » .

كذلك فان كتاب البخلاء أراد أن يسخر فيه من البخل والبخلاء لانه ضد الكرم طبيعة العرب ومفخرتُهم . وصدر كتابه هذا برسالة لسهل بن هارون ، فيها التمدح بالبخل وذم الكرم . وأخذ على بعض الموالى ومن جاراهم ممن يدينون بالشعوبية اتصاف أهل فارس بالبخل وخاصة أهل خراسان ، بل أنه خصص للشعوبية كتابا أشار اليه فى « البخلاء » . يقول :

« ... وهذا الباب يكثر ويطول . وفيما ذكرنا دليل على ما قصدنا اليه من تصنيف الحالات . فان أردته مجموعا فاطلبه فى كتاب « الشعوبية » ، فانه هنالك مستقصى »[1] .

ووقف من بعض اتجاهات عصره موقف العداء والسخرية ، كموقفه من الجهمية والمشبهة وأصحاب الظاهر ، والمفسرين والمحدثين ، والذين يروون الاخبار ويفسرون بعض آى القرآن بغير علم ولا تعقل .

يقول فى تفسير قوله تعالى : « وإنَّ من الحجارة لما يتفجر منه الانهار ، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله » .

---

(١) راجع كتاب « الجاحظ » ، حياته وآثاره . للدكتور طه الحاجرى ، ص ٣٠٠ .

فذهب الجهمية (أتباع جهم بن صفوان) ومن أنكر ايجاد الطبائع مذهبا ، وذهب ناس من غير المتكلمين ، واتبعوا ظاهر الحديث ، وظاهر الاشعار ، وزعموا أن الحجارة كانت تعقل ، وتنطق ، وانما سلبت المنطق فقط . فأما الطير والسباع فعلى ما كانت عليه .

قالوا : والوطواط ، والقرد ، والضفدع مطيعات ومثابات ، والعقرب والحية والحدأة والغراب والوزغ والكلب ، وأشباه ذلك عاصيات معاقبات .

ولم أقف على واحد منهم فأقول له : « ان الوزعة التى تقتلها على أنها تضرم النار على إبراهيم أهي هذه أم هي من أولادها ؟ فمأخوذة هى بذنب غيرها . أم تزعم أنه فى المعلوم أن تكون تلك الوزغ لا تلد ولا تبيض الا من يدين بدينها ويذهب مذهبها ؟ .

وليس هؤلاء ممن يفهم تأويل الأحاديث، وأى ضرب منها يكون مردودا وأى ضرب منها يكون متأولا ، وأى ضرب منها يقال : ان ذلك انما هو حكاية عن بعض القبائل . ولذلك أقول : لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام ، واختطفت واسترقت ، ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون »[1] .

وقد ضايق هذا الموقف جماعة المحدثين ، وأئمة أهل السنة فوقفوا من الجاحظ موقف العداء ، والهجوم واتهموه بالمروق لانه يعبث بالحديث وأصحابه ، ولانه يأخذ بالعقل والفلسفة والرأى . وهو منهج يخالف مناهجهم يقول ابن قتيبة الفقيه وعالم أهل السنة المعاصر له . (توفى سنة ٢٦٧ هـ) : « وتجده يقصد فى كتبه للمضاحيك والعبث ، يريد بذلك استمالة الاحداث وشراب النبيذ ، ويستهزىء من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم . وهو مع هذا من أكذب الأمة وأوضعهم لحديث ، وأنصرهم لباطل »[2] .

موقفه من الزنادقة :

قال الجاحظ : « والزنادقة لم تكن قط أمة ، ولا كان لها ملك ومملكة، ولم تزل بين مقتول وهارب ومنافق » .

---

(١) الحيوان ، ٤ /٢٨٧ — ٢٨٩

(٢) تأويل مختلف الحديث ، ص ٧٢ .

وهو يعنى أن الزندقة شيع متفرقة من الناس لا تجمعهم كلمة واحدة ، ولا أمة واحدة كالامة الاسلامية ، وأنهم لخروجهم عن حدود الدين ومعارضتهم لامور الشريعة وقواعدها ، ولتهجمهم على مقدسات العقيدة يحاربون وينبذون ويعاقبون بالقتل والمطاردة .

وقد تعقب الجاحظ الزنادقة والملحدين تعقبه للخارجين المارقين ، وجادل المفكرين منهم أو أصحاب الزندقة الفكرية ، لانه من المعتزلة الذين نصبوا أنفسهم مدافعين عن هذا الدين الاسلامى وعن عقيدة الاسلام وعن الكتاب القرآن الكريم بالرأى والحجة .

وتتبع الزنادقة من الادباء والشعراء ، وحمل عليهم وأزرى بهم ، سواء من تزندق منهم زندقة فكرية أو كان فى زندقته خارجا عن قواعد المجتمع وعرف الحياة الاسلامية وأصول الدين . ومن بين من عرض لهم فى مؤلفاتهم من شعرائهم حماد عجرد ، ذكر أبياتا له فى هجاء عمارة بن حربية يقول فيها :

لو كنت زنديقا عمار حبوتنى	أو كنت أعبد غير رب محمد
أو كنت عندك أو تراك عرفتنى	كالنضر أو ألفيت كابن المقعد
أو كابن ضماد ربيئة دينكم	حبل وما حبل الغوى بمرشد
ولكننى وحدت لربى مخلصا	فجفوتنى بغضا لكل موحد
وحبوت من زعم السماء تكونت	والأرض خالقها لها لم يمهد
والنسم مثل الزرع آن حصاده	منه الحصيد ومنه ما لم يحصد

قال الجاحظ : « وحماد أشهر بالزندقة من عمارة بن حربية الذى هجاه بهذه الابيات وأما قوله : وحبوت من زعم السماء تكونت .. البيت . فليس يقول أحد أن الفلك بما فيه من التدبير تكون بنفسه ومن نفسه » .

ويذكر أبيات أبى نواس فى هجاء أبان بن عبد الحميد اللاحقى ، والتى يقول فيها :

جالست يوما أبانا	لا در در أبان
ونحن حضر رواق	الامير بالنهر وان
حتى اذا ما صلاة الـ	أولى دنت لاوان

فقال : كيف شهدتم	بذا بغير عيان
لا أشهد الدهر حتى	تعاين العينان
فقلت : سبحان ربى	فقال سبحان مانى
فقلت : عيسى رسول	فقال من شيطان
فقلت : موسى كليم	المهيمن المنان
فقال : ربك ذو مقل	ـة اذن ولسان
فنفسه خلقته	أم من ؟ فقمت مكانى
عن كافر يتمرى	بالكفر بالرحمن

يقول الجاحظ : « وتعجُّبي من أبي نواس ، وقد كان جالس المتكلمين أشد من تعجُّبي من حماد حين يحكى عن قوم من هؤلاء قولا لا يقوله أحد ، وهذه قرة عين المهجو . والذى يقول سبحان مانى يعظم أمر عيسى تعظيما شديدا ، فكيف يقول أنه من قبيل شيطان . وأما قوله : فنفسه خلقته أم من ؟ فان هذه المسألة نجدها ظاهرة على ألسن العوام . والمتكلمون لا يحكون هذا عن أحد .

وعاد الجاحظ فى موضع آخر فاتهم أبا نواس بالخروج والكفر عندما عرض لقوله :

يا أحمد المرتجى فى كل نائبة   قم سيدى نعص جبار السماوات

قال : هذا البيت مع كفره مقيت جدا . وكان يكثر فى هذا الباب .

وقد تحدث عن الزنادقة فى أكثر من موضع بكتابه « الحيوان » وذكر عجيب اعتقادهم وفرقهم .

كتبه :

وعرف الجاحظ بكثرة تأليفه ، فقد نقل أنه ألف كثيرا من الكتب ، وذكر جماعة من المؤرخين قوائم لمؤلفاته ، يختلط بها ما ليس له ، وقد يسقط منها بعض ما ألف وتردد ذكره فى مصادر مختلفة ، ككتابه فى الشعوبية الذى لم يذكره ياقوت فى قائمة كتبه مع أنه جمع له عددا وافرا من الكتب والرسائل .

وأشهر قائمتين لمؤلفاته فى كتابى « الفهرست » لابن النديم و « معجم الادباء » لياقوت الحموى .

ونشر ودرس عدد كبير منها فى مقدمتها :

١ـ كتاب الحيوان فى ٧ أجزاء بتحقيق عبد السلام هارون .
٢ـ كتاب البخلاء بتحقيق الدكتور محمد طه الحاجرى .
٣ـ كتاب البيان والتبيين بتحقيق عبد السلام هارون .
٤ـ مجموعات من رسائله تم تحقيقها أكثر من مرة وجمع مجموعة منها عبد السلام هارون ، فى جزئين ، وأشهرها :

رسالة (العثمانية) ، و (مناقب الترك) ، و (فخر السودان) و (رسالة فى القيان) و (التربيع والتدوير) و (وحجج النبوة) و (المعاد والعاش) و (الجد والهزل) و (القول فى البغال) و (التبصر بالتجارة) و (طبقات المغنين)[1] .

وهناك بعض الكتب الهامة التى فقدت وأشار اليها هو فى مؤلفاته ككتاب « نظم القرآن » ، أو أشار اليـــها بعض العلماء مثل رسالته فى مدح مصر التى أشار اليها القلقشندى فى « صبح الاعشى » .

ونسبت بعض الكتب اليه خطأ مثل كتاب (التاج) وكتاب (المحاسن والاضداد). وكتب الجاحظ تؤلف موسوعة علم ووثائق للحياة الاجتماعية والفكرية فى عصره . ففى كتاب « البيان والتبيين » نجد الرسالة الشهيرة التى بعث بها عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الاشعرى ، كذلك يحوى قائمة بأسماء النساك والقصاص الاوائل .

ويفيدنا كتاب « الحيوان » بأوسع المعلومات التى أفاد منها المستشرقون أحيانا عن بعض الفرق الدينية والمذاهب كالزنادقة والدهريين .

---

(١) نشر مجلد المنتقد ، مجلد ٢ ، جـ ٨ .
(٢) طبع بعناية أحمد زكى باشا .
(٣) طبع بتحقيق المستشرق فان فلوتن فى لندن سنة ١٨٩٧ م .

ويقول شارل بلات[1] : «يمكننا كتاب البخلاء من التقاط مظاهر الفعالية الاجتماعية فى البصرة بسرعة ، ومشاهدة برجوازية المال فيها» .

ونستطيع كذلك من كتبه أن نلم بكثير من المعارف عن حياة الجاحظ وفكره ، فهو يتجلى فيما يكتب ، فتكاد تنطق كلماته بروحه وتبدى سطوره رسم شخصه .

ونهج فى تأليفه نهجا مغايرا لنهج معاصريه ، فمال بكتبه ورسائله إلى الوضوح والبساطة والصدق . وكان يأخذ على بعض علماء عصره التعقيد فى كتبهم ، فقد ذكر فى كتاب الحيوان أنه سأل أبا الحسن الأخفش العالم النحوى :

أنت أعلم الناس بالنحو ، فلماذا لا تجعل كتبك مفهومة كلها ؟ وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ؟ . وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟ .

قال — أنا رجل لم أضع كتبى هذه لله . وليست هى من كتب الدين . ولو وضعتها هذا الوضع الذى تدعونى اليه قلت حاجاتهم إلى فيها . وانما كانت غايتى المال . وأنا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا الى التماس ما لم يفهموا . وأنا قد كسبت فى هذا التدبير اذ كنت لى التكسب ذهبت . ولكن ما بال ابراهيم النظام وفلان وفلان يكتبون الكتب لله بزعمهم ، ثم يأخذها مثلى فى موافقته وحسن نظره وشدة عنايته ولا يفهم أكثرها[2] .

ولكن الجاحظ اختلف عن هؤلاء ولعله كان «أول من اتخذ التأليف صناعة له يبرز بها نفسه ، ويظهر فيها مواهبه ، ويستجيب بها لنزوعه الفنى . ومن ذلك جاء الكتاب الجاحظى نمطا جديدا فى التأليف يجمع بين بسط العبارة وجمالها ، ويتجه الى جمهرة القراء على اختلاف قواهم ومداركهم لا الى طائفة خاصة منهم[3] . فهو عامى خاصى» يقول فى صفة الكتاب :

(١) البصرة وحياة الجاحظ ، ص ١٦ .
(٢) الحيوان ١ /٩١ — ٩٢ .
(٣) الجاحظ للحاجرى ، ص ١٨٠ .

« وليس الكتاب الى شيء أحوج منه الى افهام معانيه ، حتى لا يحتاج السامع لما فيه من الروية . ويحتاج من اللفظ الى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشوة ، ويحطه عن غريب الاعراب ووحشى الكلام ، وليس له أن يهذبه جدا . وينقحه . ويصفيه ويروقه . حتى لا ينطق الا بلب اللب وباللفظ الذى حذف فضوله وأسقطت زوائده ، حتى عاد خالصا لا شوب فيه، فانه إن فعل ذلك لم يفهم عنه إلا بأن يجدد لهم أفهاما مرارا وتكرارا ، لان الناس كلهم قد تعوّدوا المبسوط من الكلام ، وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم الا بأن يعكس عليها ويؤخذ بها » .

وذكر أبو حيان التوحيدى الجاحظ وكتبه ورسائله ، ونقل عن أحد علماء عصره صفته لها بقوله : « وكتبه رياض زاهرة ، ورسائله أفنان مثمرة » .

وقال عنه : « جمع بين اللسان والقلم ، وبين الفطنة والعلم ، وبين الرأى والأدب ، وبين الذكاء والفهم . طال عمره ، وفشت حكمته ، وظهرت خلته ، ووطىء الرجال عقبه وتهادوا أدبه ، وافتخروا بالانتساب إليه، ونجحوا بالاقتداء به . لقد أوتى الحكمة وفصل الخطاب » .

وقال أبو حيان : « قلت لابى محمد الاندلسى — يعنى عبد الله بن حمود الزيدى ، وكان من عدد أصحاب السيرافى : قلت اختلفت أصحابنا فى مجلس أبى سعيد السيرافى فى بلاغة الجاحظ وأبى حنيفة الدينورى صاحب النبات ووقع الرضا بحكمك ، فما قولك ؟ .

فقال — إنى أحقر نفسى عن الحكم لهما وعليهما .

فقيل له — لا بد من قول .

قال — أبو حنيفة أكثر ندارة ، وأبو عثمان أكثر حلاوة . ومعانى أبى عثمان لائقة بالنفس سهلة فى السمع . ولفظ أبى حنيفة أعذب وأغرب وأدخل فى أساليب العرب .

قال أبو حيان : « والذى أقول واعتقد وآخذ به أنى لم أجد فى جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تقريظهم ونشر فضائلهم لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم، أحدهما هذا الشيخ أى أبو عثمان عمرو بن بحر ، والثانى أبو حنيفة الدينورى والثالث أبو زيد أحمد بن سهل البلخى .

ولو تناصرت إلينا أخبارهما — يعنى أبا حنيفة الدينورى وأبا زيد البلخى — لكنا نحب أن نفرد لكل واحد منهما تقريظا مقصورا عليه ، وكتابا منسوبا اليه كما فعلت بأبى عثمان » .

وكان الجاحظ يعمد فى كتبه الى مزج الفكاهة بالجد ، فيخرج بالقارىء من ملل الى انتعاش ، وهو يسوق اليه النادرة فى طى الكلام ليرفه عنه ، ويجدد نشاطه ويبعث الحياة من جديد فى ذهنه .

ولا يتعفف الجاحظ عن ايراد نوادره بأساليب العامة ملحونة أحيانا ، يرويها كما هى كما قيلت دون أن يصرفها بالفصحى وذلك أطرى بالنادرة وأملح وقعا فى النفوس عنده .

وتمتاز كتبه كذلك بتنوع الموضوع والاستطراد والخروج من معنى الى آخر فى كثير من التشويق والامتاع وإن بدا فى نظر بعض المعاصرين تشعيثا فى الافكار واضطرابا فى النهج .

وقد يكون هذا الاختلاط الذى دخل إلى بعض كتبه كالحيوان أو البيان والتبيين راجعا الى اشتداد العلة عليه مما لم يمكنه من التنسيق وضم الفصول بعضها الى بعض كما أشار هو بنفسه .

لكن كتبه ورسائله على أية حال رياض للنفوس ، وواحات للعقول تستجم بها وتتزود بعديد من المعارف . وفيها رياضة للفكر فيما يشغل بال الناس فى عصره من قضايا سيا .ية وعقدية ودينية أو اجتماعية أو أدبية .

يقول عنه شارل بللات : « انه ليس هناك كاتب معاصر أو لاحق يشبه الجاحظ » . ويقول: «وقد ظهر الجاحظ كمجدد حقيقى يجيد استعمال اللغة بمهارة فائقة . يجمع على ذلك أصدقاؤه وخصومه . ويقول عنه المسعودى : « وكتب الجاحظ تجلو صدأ الاذهان وتكشف واضح البرهان لانه نظمها أحسن نظم ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ . وكان اذا تخوف ملل القارىء وسأَمَ السامع ، خرج من جد الى هزل ، ومن حكمة بليغة الى نادرة طريفة »[1] .

---

(١) البصرة وتكوين الجاحظ ، ص ٣ — وراجع مروج الذهب ٨ /٣٤ .

أسـلوبه :

وللجاحظ فى كتبه أسلوب امتاز به وعرف بين معاصريه ولاحقيه ، فيه السهولة والوضوح ، والابتعاد عن التعقيد فى المعانى وحوشى اللغة . لا يعمد الى التقعر أو التباهى بالمعرفة . وأكسب كلامه ضروبا من التلوين المعنوى واللفظى .

فهو يعمد الى خاصية المزج بين الجد والهزل ، والى الاستطراد من موضوع الى آخر ، معتمدا على تداعى المعانى والأفكار ، أو تواصل الموضوعات ، ويزاوج القول فى التعبير عن المعنى الواحد فيورده مُرددا مُزاوَجاً أو ملونا بلون من الصياغة فيه إيقاعٌ موسيقى تطول فيه الفقرات وتقصر مع توارد المعانى ، واتصالها أو انفصالها .

ولا يميل الى السجع الرتيب ، لكنه مع ذلك يوفر لفقراته ضربا من الموسيقى تأتيه طواعية دون تكلف .

وقد يبدو فى تلك المزاوجة مسرفا فى القول ومطنبا أو لا يقصد المعنى مباشرة بل يدور حوله ، مما قد يسمه بعدم الدقة ، مع كونه آخذا بمنهج أصحاب الفلسفة والمنطق ، لكنه أديب لا يكتفى بأن تؤدى العبارة المعنى وحسب ، بل لا بد من الايقاع فى الاداء ، ولهذا فهو يحب التعبير المشرق الجميل وان بدا مطيلا أو غير دقيق فى أداء معانيه .

وبالرغم من هذا كله فانه يبرأ مما يعيب بعض أساليب كتاب العربية ، وهو رغم ما يضمن كتبه ورسائله من قضايا عقلية ، وجدل منطقى ، وتعقب لبعض الافكار العلمية الجافة فانه لا يعدم الطلاوة والتشويق بما أشرنا اليه من عناصر تشد القارىء أو السامع .

وهكذا نجح الجاحظ فى أن يحتفظ باهتمام قرائه إلى حد يجعل جميع كتبه ورسائله تقرأ بلذة على الرغم من التكرار ، وفقدان النهج المنطقى ، وعدم تسلسل الافكار ، وكثرة الاستطرادات التى تعطى أسلوبه طابعه وطعمه الخاصين .

وان هذا الاسلوب الذى يبدو فى ظاهره بسيطا سهلا مرسلا طلقا ، يخفى فى طياته كثيرا من القضايا الغامضة والافكار المتجددة التى تستمد مادتها من الدين .

أهم موضوعات كتبه :

القضايا والجوانب الاجتماعية :

« لعل اهتمامه بقضايا المجتمع فى عصره دعا بعض المستشرقين الالمان الى مقارنته بفولتير Voltaire الكاتب الفرنسى الاجتماعى المشهور ، كما يمكن مقارنته بالكتاب الانسانيين Humanistes ، بل لعله يستحق أكثر من أى كاتب عربى قديم آخر هذا اللقب[1] » .

وتناول بعض الباحثين فى أدب الجاحظ هذا الجانب فى دراساتهم أمثال شارل بللات فى كتابه « بيئة البصرة وأثرها فى تكوين الجاحظ »[2] والدكتورة وديعة طه النجم فى كتاب : « الجاحظ والحاضرة العباسية »[3] .

ويعرض الجاحظ فى كتبه لكثير من قضايا المجتمع ، ومنها الخلافات السياسية بين المذاهب والفرق المختلفة ، مثل ما يدور فى رسالة « العثمانية » ، فيتعرض لوجوه الخلاف بين العلوية والعثمانية وأقوال كل منهم ورد الطرف الآخر عليها . ولكنه يميل ميلا واضحا على العلوية ، ويفند الفضائل التى ينسبونها الى الامام على رضى الله عنه مما دفع بعض العلماء إلى اتهامه بالعثمانية

ورسالة بنى أمية[4] ، وهى تمثل صورة من الجدل السياسى والمذهبى الذى كان سائدا فى عصره بين المعتزلة وأهل الحديث حول الحكم على معاوية وبنى أمية ، فأهل الحديث يتأثمون ويتحرجون ويرون التوقف فى الحكم ، وأما جمهور المعتزلة فيعلنون التبرأ منه . ويمثل الجاحظ فى هذه الرسالة رأى المعتزلة الذى أخذ به المأمون فى عصره والذى قال الطبرى أنه أمر مناديا فنادى :

---

(١) بللات ، ص ٥ .
(٢) نشر هذا الكتاب بفرنسا ، باريس .
(٣) الجاحظ والحاضرة العباسية ، طبع بغداد سنة ١٩٦٥ .
(٤) من مجموعة رسائل الجاحظ للسندوبى ، ص ٢٩٢ .

« برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير أو فضله على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ » .

وارتبط المحدثون بالدفاع عن معاوية ، وبذلك كانت قضية من مسائل الخلاف الرئيسية بينهم وبين المعتزلة .

والرسالة الثالثة فى هذا الموضوع « امامة بنى العباس »[1] وتدعو إلى إثبات حق العباسيين فى الخلافة من ناحية الوراثة ، ومناقشة الآراء المختلفة التى كانت تثيرها هذه المسألة[2] .

وتأتى بعد ذلك مجموعة من الرسائل تترى فى الامامة ووجوبها ومن يستحقها[3] والامامة عند الشيعة ، والرافضة والزيدية .

وتظهر بعض جوانب التعصب القبلى والعرقى فى انتاجه ، كالصراع بين القحطانية والعدنانية يقول فى آخر كتابه « النابتة » : « وقد كتبت — مد الله فى عمرك — كتبا فى مفاخرة قحطان وفى تفضيل عدنان ، وفى رد الموالى الى مكانهم فى الفضل والنقص .. » .

وقال مرة أخرى فى مقدمة الحيوان : « .. وعبتنى بكتاب القحطانية ، وكتاب العدنانية فى الرد على القحطانية . وذكرت أنى تجاوزت فيه حد الحمية إلى حد العصبية وأنى لم أصل الى تفضيل العدنانية الا بتقصى القحطانية »[4] .

ويعرض لمشكلة الصراع بين الموالى والعرب فى كتاب آخر أشار اليه أكثر من مرة هو « العرب والموالى » يقول فى مقدمة الحيوان كذلك : « وعبتنى بكتاب العرب والموالى ، وزعمت أنى بخست الموالى حقوقهم ، كما أنى أعطيت العرب ما ليس لهم »[5] .

ويعرض لبعض الاقوال فى هذه القضية التى قال فيها الشعوبية كثيرا ،

---

(١) بقيت منه قطعة فى مجموع رسائل الجاحظ للسندوبى ، ص ٣٠٠ — ٣٠٣ .
(٢) الجاحظ للدكتور الحاجرى ، ص ١٩٣ .
(٣) فى مجموع مختارات فصول الجاحظ رسالة بعنوان « استحقاق الامامة » ص ٢٤٠ — المتحف البريطانى .
(٤) راجع الجاحظ لطه الحاجرى ، ص ٢٣١ . (٥) المرجع نفسه ، ص ٢٣١ — ٢٣٣ .

وتحاملوا على العرب وفضلوا الفرس خاصة . ومنها ما قاله فى مواضع من كتاب « النابتة » : « وقد نجمت عن الموالى ناجمة ونبتت منهم نابتة تزعم أن المولى بولائه قد صار عربيا ، لقول النبى ﷺ : (مولى القوم منهم) ولقوله : (الولاء لحمة كلحمة النسب ، لا يباع ولا يوهب) .

وذكر ابن عبد ربه فى العقد جزءا من الكتاب فى كتاب « الشيمى فى النسب وفضائل العرب » . وجزءا آخر فى كتاب « الياقوتة الثانية فى الالحان واختلاف الناس فيه » . ويبدو من كلام ابن عبد ربه أن الجاحظ تكلم عن بعض شعراء الموالى مثل أبى نواس وقرظ شعره وأحسن الاختيار منه . قال فيه : « ومن الموالى الحسن بن هانىء ، وهو من أقدر الناس على الشعر وأطبعهم فيه » . وكتابات الجاحظ تعكس موقفا جديدا للموالى ، فبعد أن كانوا شعوبية متعصبين صدر الدولة العباسية وطوال أيام المأمون بدأوا فى التخفيف من حدة هذه العصبية ضد العرب ، وبدأوا يفاخرون بالولاء للعرب كذلك فان المنتصرين للعرب بدءوا يهدئون من غلوائهم فى الهجوم ، لسيطرة الفرس على الدولة وخاصة فى عصر المأمون والواثق .

واذا كان سهل بن هارون خازن بيت الحكمة للمأمون زعيم الشعوبية فى عصره ، وألف كتبا كثيرة فى التعصب للفرس ضد العرب[1] فان العرب وجدوا من الجاحظ وابن قتيبة من يتصدى للرد على هؤلاء . وقد افتتح الجاحظ كتاب البخلاء برسالة سهل بن هارون هذا . وتولى فى الكتاب كله الرد عليها .

وقريب من هذه القضية العرقية أو فيما يدور حولها من موضوعات الاجناس ومواقفها فى المجتمع الاسلامى فى ذلك تجرى بعض رسائله مثل « كتاب الصرحاء والهجناء »[2] و « فخر السودان على البيضان » .

ويذكر السودان فى كتابه الاول على أساس أنهم « السمر » ويعنى بهم العرب فى مقابلة الحمران وهم العجم من روم وصقالية وفرس وخراسانية . ويذكر ما يقال فى ذلك أيامه من مثل سائر هو : ما يخفى ذلك على الاسود والاحمر ، أى العربى والعجمى ، ويكرره المبرد .

(١) بلات ، ص ٣١٢ ، وراجع جولد تسهر : العقائد والشريعة فى الاسلام ١ /١٦٢ .
(٢) راجع كتاب الجاحظ للدكتور الحاجرى ، ص ٢٤٠ .

وفى الكتاب الثانى يعنى السودان الزنج من أهل النوبة والحبشة ومن اليهم وهم السودان الاصليون ويضاف اليهم أهل الهند والسند وسكان جزائر البحر الجنوبى (بحر العرب والمحيط الهندى) .

وقد كان للسودان أدوار فعالة فى التاريخ الاسلامى . تبدأ فى يوم حنين حين قيل للنبى ﷺ : هل لك فى جيش بنى المغيرة تستعين بهم ؟ فرفض الرسول هذا العرض . ثم كانت ثورتهم بالمدينة أيام أبى جعفر المنصور ، اضطروا واليه عليها الى الفرار ، وما زالت عناصر السودان تعمل حتى بلغت ثورتهم الكبرى فى القرن الثالث ، واستشعار الجاحظ لقوتهم فى مجتمع البصرة وخطورتهم آنذاك مما حفزه على كتابة هذه الرسالة . وقد كان للسودان كما كان لغيرهم من العصبيات والطوائف شعراء ذكر بعضهم الجاحظ فى هذه الرسالة ، ويذكر منهم كبار الرجال ومشاهير الامة ممن قاموا بأدوار هامة فى الجاهلية والاسلام أمثال عنترة بن شداد ، وسليك بن السلكة وبلال بن رباح مؤذن الرسول وأخيه وعمار بن ياسر وآل ياسر الذين لاقوا من العذاب أشده فى سبيل رسالة الاسلام أول أمره . ومنهم كذلك سعيد بن جبير ، وهو من هو فى صدق الايمان وصفاء البصيرة وقوة العزيمة . وعمير بن الحباب ، والحجاف بن حكيم وقد أقاما الدولة الاموية وأقعداها . الى غير هؤلاء من أبطال الحرب ورجال الدين والعلم .

ويقول فى هذه الرسالة[1] :

« .. والناس مجمعون على أنه ليس فى الارض أمة السخاء فيها أعم . وعليها أغلب من الزنج . وهاتان الخلتان لم توجدا قط الا فى كريم .

وهى أطبع الخلق على الرقص الموَّقع الموزون ، والضرب بالطبل على الايقاع الموزون ، من غير تأديب ولا تعليم .

وليس فى الارض أحسن حلوقا منهم ، وليس فى الارض لغة أخف على اللسان من لغتهم ولا فى الارض قومٌ أذرب ألسنة ، ولا أقل تمطيطا منهم .

---

(١) رسائل الجاحظ ، طبع عبد السلام هارون جـ ١ ، ص ١٩٥ .

وليس فى الارض قوم ألا وأنت تصيب منهم الأَرَتّ[1] ، والفأفاء ، والعَيِىّ ، ومن فى لسانه حبسة ، غيرهم .

والرجل منهم يخطب عند الملك بالزنج من لدن طلوع الشمس إلى غروبها ، فلا يستعين بالتفاتة ولا بسكته حتى يفرغ من كلامه .

وليس فى الأرض أمة فى شدة الابدان وقوة الاسر أعم منهم فيهما . وان الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذى تعجز عنه الجماعة من الاعراب وغيرهم . وهم شجعان أشداء الابدان ، أسخياء . وهذه خصال هى الشرف » .

ويقول عنهم فى الرسالة نفسها فى موضع آخر :

« قالوا : وثلاثة أشياء جاءتكم من قبلنا ، منها الغالية ، وهى أطيب الطيب ، وأفخره ، وأكرمه ومنها النعش وهو أستر للنساء ، وأهون للحوم ، ومنها المصحف ، وهو أوفى لما فيه ، وأحصن له وأبهى له .

قالوا : ونحن أهول فى الصدور ، وأملأ للعيون ، كما أنّ المسودة أهول فى العيون وأملأ فى الصدور من المبيضة ، وكما أن الليل أهول من النهار .

قالوا : ودهم الخيل أبهى وأقوى ، والبقر السود أحسن وأبهى ، وجلودها أثمن وأنقى ، والحمر السود أثمن وأحسن وأقوى . وسود الشاء أدسم ألبانا ، وأكثر زبدا ، والدبس أغزر من الحمر[2] .

وليس من التمر شىء أحلى حلاوة من الاسود ، ولا أعم منفعة ، ولا أبقى على الدهر ، والنخيل أثرى ما تكون اذا كانت سود الجذوع .

قالوا : وأحسن الخضرة ما ضارع السواد . قال الله جل وعلا : (ومن دونهما جنتان) ثم قال لما وصفهما وشوق إليهما (مدهامتان) قال ابن عباس : خضراوان من الرى سوداوان .

وليس فى الارض عود أحسن خشبا ولا أغلى ثمنا ، ولا أثقل وزنا ، ولا أسلم من القوادح ولا أجدر أن يُستَنَدَ فيه الخط من الأبنوس . وقد بلغ من اكتنازه والتئامه ،وملوسته وشدة تداخله ، أنه يرسب فى الماء دون جميع

(١) الارت الذى فى لسانه عقدة وحبسة .

(٢) الدبس : الحمر المشوبة بالسواد .

العيدان والخشب ، وقد غلب بذلك بعض الحجارة ، اذ صار يرسب وذلك الحجر لا يرسب .

والانسان أحسن ما يكون فى العين ما دام أسود الشعر ، وكذلك شعورهم فى الجنة ، وأكرم ما فى الانسان حدقتاه ، وهما سوداوان . وأكرم الاكحال الإثمِد ،وهو أسود . ولذلك جاء أن الله يدخل جميع المؤمنين الجنة جردا مردا مكحلين .

وأنفع ما فى الانسان له كبده التى بها تصلح معدته . وينهضم طعامه ، وبصلاح ذلك قام بدنه ، والكبد سوداء .

وأنفس ما فى الانسان وأعزه سويداء قلبه ، وهى علقة سوداء تكون فى جوف فؤاده تقوم فى القلب مقام الدماغ فى الرأس .

ومن أطيب ما فى المرأة وأشهاه شفتاها للتقبيل ، وأحسن ما يكونان اذا ضارعتا السواد . وقال ذو الرمة :

لمياءُ فى شفتيها حُوةٌ لعسٌ وفى اللّثاةِ وفى أنيابها شَنَبُ

وأطيب الظل وأبرده ما كان أسود . وقال الراجز :

سودٌ غرابيبُ كأظـلالِ الحجَرْ

وقال حُميد بن ثور :

ظَلِلْنا إلى كهفٍ وظلّتْ رِكابُنا إلى مُستكفّاتٍ لهنَّ غرُوبُ
إلى شجرٍ ألمى الظّلالِ كأنها رواهبُ أحْرَمْنَ الشّرابَ عُنوبُ[1]

ومن حلقات هذه الدراسات فى الأجناس رسالة « مناقب الترك »[2] ، وقد وجهها الى الفتح بن خاقان وزير الخليفة المتوكل ، والذى قتل معه سنة ٢٤٧ هـ ، وعنوان الرسالة كاملا « مناقب الترك وعامة جند الخلافة » . ومعروف أن الخليفة المعتصم كان قد بدأ يكثر من العناصر التركية فى جيشه .

---

(١) عنوب جمع عاذب وهو الذى لا يأكل ولا يشرب . رسائل الجاحظ ص ٢٠٦
(٢) رسائل الجاحظ ، جـ ١ ، ص ٥ .

والاتراك جنس كله يعيش فى مشارق أرض الخلافة شمال شرق خراسان وفى البلاد الواقعة شرق بحر قزوين .

وفى الرسالة حوار أو منافرة ومفاخرة بين عناصر مختلفة كالعرب والخراسانية كذلك ويبدو من حديثه أنه استشعر ما كان يستعر بين تلك العناصر من الخلاف والمنافرة ورأى خطرها فأراد أن يعرف لكل عنصر حقه وفضله يقول :

« وكتابنا هذا إنما تكلفناه لنؤلف بين قلوبهم التى كانت مختلفة ، ولتزيد الالفة إن كانت مؤتلفة ولنخبر عن اتفاق أسبابهم لتجتمع كلمتهم ، ولتسلم صدورهم وليعرف من كان لا يعرف منهم موضع التفاوت فى النسب ، وكم مقدار الخلاف فى الحسب ، فلا يغيُّر بعضُهم مغيرُ ، ولا يفسده عدو بأباطيلَ مموهة وشبهات مزورة[1] .

وتراه يعود الى نغمته السائدة فى مثل هذه الرسائل والكتب وهى نغمة المؤاخاة بين العناصر المؤلفة للمجتمع العربى الذى يظله الاسلام بظله ويمد عليه جناحيه فلا يفرق بين زنجى وفارسى وعربى وتركى والجميع عرب ومسلمون ، ما داموا يقرءون القرآن بالعربية ، ويتعلمون علوم العرب ، وينظمون ويؤلفون باللغة العربية :

« وقد جعلوا اسماعيل وهو ابن عجميين عربيا ، لان الله تعالى فتق لهاته بالعربية المبنية على غير النشوء والتقدير . وسلخ طباعه من طبائع العجم ، ونقل إلى بدنه تلك الاجزاء . وركبه اختراعا على ذلك التركيب ، وسواه تلك التسوية ، وصاغه تلك الصياغة ثم حباه من طبائعهم ومنحه من خلاقهم وشمائلهم ، وطبعه من كرمهم وأنفتهم وهممهم على أكرمها وأمكنها ، وأشرفها وأعلاها ، وجعل ذلك برهانا على رسالته ، ودليلا على نبوته ، فكان أحق بذلك النسب ، وأولى بشرف ذلك الحسب .

وكما جعل ابراهيم أبا لمن يلده ، فالبنوى خراسانى من جهة الولادة ، والمولى عربى من جهة المدعى والعاقلة .

---

(١) رسائل الجاحظ ، ص ٢٩ .

ويقول ان الله خلق العباد وله أن يجعل من عباده من شاء عربيا ، ومن شاء عجميا ومن شاء قرشيا ، ومن شاء زنجيا[١] .

ويقول : « وما الذى قسم الله ـــ عز اسمه ـــ بين الناس .. ألا كما صنع فى طينة الارض ، فجعل بعضها حجرا ، وبعض الحجر ياقوتا ، وبعضه ذهبا ، وبعضه نحاسا ، وبعضه رصاصا وبعضه حديدا أو بعضه ترابا ، وبعضه فخارا .. ومن يحصى عدد أجزاء الارض وأصناف الفلز ؟ .

وإذا كان الامر على ما وصفنا فالبنوى خراسانى ، واذا كان الخراسانى مولى ، والمولى عربى ، فقد صار الخراسانى والمولى والمولى والعربى واحدا .

وأوفى ذلك أن يكون الذى فيهم من خصال الوفاق غامرا ما فيهم من خصال الخلاف بل هم فى معظم الامر وفى أكبر الشأن وعمود النسب متفقون . والاتراك خراسانية .. فقد صار التركى الى الجميع راجعا ، وصار شرفه الى شرفهم زائدا[٢] . واذا عرف سائر ذلك سامحت النفوس ، وذهب التعقيد ومات الضغن ، وانقطع سبب الاستثقال ، فلمّ يبق الا التنافس والتحاسد الذى لا يزال يكون بين المتقاربين فى القرابة والمجاورة .

وعلى أن التوازر والتسالم فى القرابات وفى بنى الأعمام والعشائر أفشى وأعم من البعداء» . وهو حين يذكر مناقب الترك فانما يقتصر على ذكر محاسنهم وفضائلهم ولا يعرض لمثالب غيرهم يقول : « وان كان لا يمكن ذلك فى مناقب الاتراك الا بذكر مثالب سائر الاجناد ، فترك ذكر الجميع أصوب .. ولكل نصيب من النقص ، ومقدار من الذنوب ، وانما يتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوىء ، فأما الاشتمال على جميع المحاسن ، والسلامة من جميع المساوىء ، دقيقها وجليلها ، وظاهرها وخفيها ، فهذا لا يعرف . وقد قال النابغة :

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تَلُمُّهُ على شعثٍ ، أىُّ الرِّجالِ المهذَّبُ

وقال قريش السعدى :

---

(١) رسائل الجاحظ ، ص ٣٢ .
(٢) رسائل الجاحظ ، ص ٣٤ .

أخ لى كأيام الحياة إخاؤه | تلون ألوانا على خطوبها
اذا عبت منه خلة فتركته | دعتنى إليه خلة لا أعيبها

وقال بشار :

اذا كنت فى كل الامور معاتبا | صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه
فعش واحدا أوصل أخاك فانه | مقارف ذنب مرة ومجانبه
اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى | ظمئت ، وأى الناس تصفو مشاربه

وبدأ أبو عثمان فى التعريف بفضائل الترك ، وطباعهم ، وخاصة فى القتال .

يقول : « والتركى يرمى الوحش والطير والبرجاس[1] ، والناس ، والمجثمة ، والمثل الموضوعة ويرمى وقد ملأ فروج دابته مدبرا ومقبلا ، ويمنة ويسرة ، وصعدا وسفلا . ويرمى بعشرة أسهم قبل أن يفوق الخارجى سهما واحدا ، ويركض منحدرا من جبل ، أو مستفلا الى بطن واد بأكثر مما يمكن الخارجى على بسيط الارض .

وللتركى أربعة أعين : عينان فى وجهه ، وعينان فى قفاه .. والتركى فى حال شدته معه كل شيء يحتاج اليه لنفسه وسلاحه ، ودابته وأداة دابته .

فأما الصبر على الخبب وعلى مواصلة السفر وعلى طول السرى وقطع البلاد ، فعجيب جدا .. ولو حصلت عمر التركى وحسبت أيامه لوجدت جلوسه على ظهر دابته أكثر من جلوسه على ظهر الارض . والتركى يركب فحلا أو رمكة (فرسا) ، ويخرج غازيا أو مسافرا ، أو متباعدا فى طلب صيد » أو سبب من الاسباب فتتبعه الرمكة وأفلاؤها ؛ ان أعياد اصطياد الناس اصطاد الوحش ، وان أخفق أو احتاج الى طعام قصد دابة من دوابه ، وان عطش حلب رمكة من رماكه ، وان أراح واحدة تحته ركب أخرى من غير أن ينزل الى الارض .

وليس فى الارض أحد الا بدنه ينتفض على اقتيات اللحم وحده غيره ، وكذلك دابته تكتفى بالعنقر (القصب) والعشب والشجر ، لا يظلها من شمس ولا يكنها من برد[2] .

(١) البرجاس : هدف فى الهواء على رأس رمح أو نحوه .
(٢) رسائل الجاحظ ، ص ٤٨ .

ومن قضايا الحياة والمجتمع التى عرض لها أبو عثمان ضروب المعايش واختلافها وتنوعها ، وأسباب كسب الرزق من تجارة وصناعة وزراعة وغيرها . ويعرض لنا كتاب التبصر بالتجارة صورة لهذه الحرفة التاريخية القديمة قدم الانسان ، وقد ألم بها الجاحظ ، وعرف بأسرارها لنشأته فى البصرة ، وهى وسط تجارى ممتاز . ومنها رسائله (التبصر بالتجارة) و (المعاش والمعاد) و (غش الصناعات) و (كتاب الزرع والنخل والزيتون والاعناب)[1] ، ورسالة مدح التجار وذم عمل السلطان[2] .

التبصر بالتجارة ، ومدح التجار :

ونعلم أن الجاحظ نشأ فى وسط تجارى هو البصرة ، بل عمل هو نفسه ببيع بعض الاشياء الصغيرة أى بائعا جائلا على نهر سَيْحَان ، واتصل بأحد كبار التجار وهو محمد بن عبد الملك الزيات الاديب الشاعر الكاتب والوزير الخطير فى عهد المتوكل وكان صديقا له بعث اليه بالرسائل ، ومؤلف. وخص رسالة « مدح التجار » بالاشادة به وبمهنة التجارة وشرفها ، لانه ، أى ابن الزيات — لقى كثيرا من السخرية والاستهزاء بمهنته بعد توليه الوزارة ، وكأن الجاحظ أراد أن يرد اليه اعتباره ، وأن يرفعه بشرف المهنة .

وقد بقيت لنا من هذه الرسالة قطعة تتألف من أربعة فصول . يدافع عن التجارة فيقول : « .. وقد علم المسلمون أن خيرة الله تعالى من خلقه ، وصفيه من عباده ، والمؤتمن على وحيه من أهل بيت التجارة ، وهى معولهم ، وعليها معتمدهم ، وهى صناعة سلفهم وسيرة خلفهم .. وقد غبر النبى ﷺ برهة من دهره تاجرا ، وشخص فيه مسافرا ، وباع واشترى حاضرا ، والله أعلم حيث يجعل رسالته . ولم يقسم الله مذهبا رضيا ، ولا خلقا زكيا ، ولا عملا مرضيا ، الا وحظه منه أوفر الحظوظ ، وقسمه فيه أجزل الاقسام . ولشهرة أمره فى البيع والشراء قال المشركون : (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق) فأوحى الله اليه : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا أنهم ليأكلون

---

(١) نشرت بالمجمع العلمى بدمشق سنة ١٩٣٢ م ، وبالقاهرة ١٩٣٥ م .

(٢) الجاحظ للدكتور الحاجرى ، ص ٢٨٤ ، وتوجد منها قطعة فى مجموعة رسائل الجاحظ للسندوبى ، ص ١٥٥ .

الطعام ويمشون فى الاسواق) . فأخبر أن الانبياء قبله كانت لهم صناعات وتجارات » .

وذكر أن التجارة لا تمنع صاحبها من علم ، ولا تحجبه عن أدب . يقول : « فأى صنف من العلم لم يبلغ التجار فيه غاية ، أو يأخذوا منه بنصيب ؟ أو يكونوا رؤساء أهله وعليتهم ؟ . هل كان فى التابعين أعلم من سعيد بن المسيب أو أنبل ؟ . وقد كان تاجرا يبيع ويشترى ، وهو الذى يقول : ما قضى رسول الله ﷺ وآله ، ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا على رضوان الله عليهم قضاء الا وقد علمته . وكان أعبر الناس للرؤيا ، وأعلمهم بأنساب قريش » .

وكتاب التبصر بالتجارة محاولة من الجاحظ لعرض بعض أسرارها وصنوفها ، وما يجلب على البلاد المختلفة منها .. الى غير ذلك مما يتعلق بها . وهى معلومات تفيد كثيرا من الناس الذين يتصلون بهذه المهنة ، ولا بد لهم من التعرف عليها كالمحتسبين ، فالمحتسب وظيفته قريبة الصلة بالاسواق والتجارة والمكاييل والموازين ، لانه الرقيب عليها جميعا ، والمنفذ للشريعة وأصولها ، والراعى لمصالح الأمة بين التجار والصناع فى الأسواق . وقد ألف كثير من العلماء فى الحسبة ، واتصلوا من قريب بأصول التجارة وأسرار السوق ، ودخائل كل حرفة وصناعة ، حتى لا يغيب شىء عمن يلى هذه الرتبة ، وليطبق حدود الله ، ويحفظ حق الناس ، ويردع كل من تسول له النفس غشا أو تدليسا أو كسبا حراما غير مشروع .

ومما يتصل بكتابات الجاحظ فى الموضوعات الاجتماعية ما يتعلق بحياتهم فى لهوهم وملاذهم ، وقد كتب فى ذلك جملة من رسائله ، فضلا عما تخلل كتبه من فصول متنوعة . وأولى هذه الرسائل « رسالة القيان » ، والمفاخرة بين الجوارى والغلمان » وكتاب « طبقات المغنين » .

ورسالة القيان محاولة لعرض حال الغناء والمغنيات فى ذلك العصر ، ويعرض فيها للجوارى عامة ، ولموقف النساء ، وعلاقات النساء بالرجال ، والقول فى العشق والحب . يقول :

« والحب اسم واقع على المعنى الذى رسم له ، ولا تفسير له غيره ، لأنه قد يقال : ان المرء يحب الله ، وان الله جل وعز يحب المؤمن ، وإن الرجل يحب

ولده ، والولد يحب والده ويحب صديقه وبلده وقومه ، ويحب على أى جهة يريد ، ولا يسمى ذلك عشقا ، فيعلم حينئذ أن اسم الحب لا يكتفى به فى معنى العشق حتى تضاف إليه العلل الأخر ، إلا أنه ابتداء العشق ، ثم يتبعه حب الهوى ، فربما وافق الحق والاختيار وربما عدل عنهما .

وهذه سبيل الهوى فى الأديان والبلدان وسائر الأمور . ولا يميل صاحبه عن محبه واختباره فيما يرى . ولذلك قيل : « عين الهوى لا تصدق » وقيل : حبك الشيء يعمى ويصم ، يتخذون أوثانهم أربابا لأهوائهم ، وذلك أن العاشق كثيرا ما يعشق غير النهاية فى الجمال ، ولا الغاية فى الكمال ، ولا الموصوف بالبراعة والرشاقة ، ثم إن سئل عن حجته فى ذلك لم تقم له حجة .

ثم قد يجتمع الحب والهوى ، ولا يسميان عشقا ، فيكون ذلك فى الولد والصديق والبلد والصنف من اللباس والفرش والدواب ، فلم نر أحدا منهم يسقم بدنه ولا تتلف روحه من حب بلده ولا ولده ، وإن كان قد يصيبه عند الفراق لوعة واحتراق .

وقد رأينا وبلغنا عن كثير ممن قد تلف وطال جهده وضناه بداء العشق . فعلم أنه إذا أضيف إلى الحب والهوى المشاكلة ، أعنى مشاكلة الطبيعة ، أى حب الرجال النساء وحب النساء الرجال ، المركب فى جميع الفحول والاناث من الحيوان ، صار ذلك عشقا صحيحا ، وإن كان ذلك عشقا من ذكر لذكر فليس الا مشتقا من هذه الشهوة ، والا لم يسم عشقا اذا قامت الشهوة .

ثم لم نره مستحكما عند أول لقياه حتى يعقد ذلك الإلف ، وتغرسه المواظبة فى القلب، فينبت كما تنبت الحبة فى الأرض حتى تستحكم وتشتد وتثمر ، وربما صار لها كالجذع السموق والعمود الصلب الشديد ، وربما انعقف فصار فيه بوار الأصل ، فاذا اشتمل على هذه العلل صار عشقا تاما . ثم صارت قلة العيان تزيد فيه وتوقد ناره . والانقطاع يسعره حتى يذهل العقل وينهك البدن ويشتغل القلب عن كل نافعة ويكون خيال المعشوق نصب عين العاشق والغالب على فكرته ، والخاطر فى كل حالة على قلبه .

واذا طال العهد واستمرت الايام تقضّى على الفرقة ، واضمحل على المطاولة ، وإن كانت كلومه وندوبه لا تكاد تعفو آثارها ولا تدرس رسومها ، وكذلك الظفر بالمعشوق يسرع فى حل عشقه . والعلة فى ذلك أن بعض الناس أسرع إلى العشق من بعض لاختلاف طبائع القلوب فى الرقة والقسوة ، وسرعة الإلف وإبطائه ، وقلة الشهوة وضعفها .

وقل ما يظهر العاشق للمعشوق عشقا إلا عداه بدائه ، ونكت فى صدره وشغف فؤاده ، وذلك بين المشاكلة ، واجابة بعض الطبائع بعضا ، وتوقان بعض الأنفس إلى بعض وتقارب الارواح ، كالنائم يرى آخر ينام ولا نوم به فينعس ، وكالمتثائب يراه من لا تثاؤب به فيفعل مثل فعله ، قسرا من الطبيعة .

وقل ما يكون بين اثنين يتساويان فيه الا عن مناسبة بينهما فى الشبه فى الخلق والخلق ، وفى الظرف ، أو فى الهوى ، أو فى الطباع . ولذلك ما نرى الحسن يعشق القبيح ، والقبيح يحب الحسن . ويختار المختار الاقبح على الاحسن ، وليس يرى الاختيار فى غير ذلك فيتوهم الغلط عليه ، لكنه لتعارف الارواح وازدواج القلوب » .

وهكذا يعرض الجاحظ فلسفة الحب والمحبة ، أو الالفة والألاف ، ودرجات الحب وأنواعه وربما كان الجاحظ أول كاتب عربى طرق هذا الموضوع على تلك الصورة المبسوطة محللا لهذه العلاقة بين الرجل والمرأة . وقد تبعه فى ذلك بعض الكتاب ، كابن حزم فى كتاب « طوق الحمامة » وصاحب « تزيين الأشواق » وابن الجوزى فى « ذم الهوى » ، كما طرق أبو حيان التوحيدى الموضوع فى مواضع من كتبه . وعرض للصداقة فى كتاب « الصداقة والصديق » على اعتبار أنها رابطة مسجلة وألف يجمع بين اثنين .

كذلك عرض لها الوشاء فى كتاب « الموشى » فى الظرف والظرفاء .

رسالةُ القيان :

وعرض الجاحظ فى كتاب القيان طباع القينات ، المغنيات خاصة ، والجوارى عامة وأحوالهن مع المترددين على بيوت القيان التى عرفت واشتهرت فى المجتمع العباسى وكان الناس يقصدونها لقضاء أوقات من المتعة فى السماع واللهو .

يقول الجاحظ :

« .. ومن الآفة عشق القيان على كثرة فضائلهن ، وسكون النفوس اليهن ، وأنهن يجمعن من اللذات مالا يجتمع فى شيء على وجه الارض .

« .. واذا رفعت القينة عقيرة حلقها تغنى حَدَّقَ اليها الطرف . وأصغى نحوها السمع وألقى القلب اليها الملك ، فاستبق السمع والبصر أيهما يؤدى الى القلب ما أفاد منها قبل صاحبه فيتوافيان عند حبة القلب ، فيَفرِغانِ ما وعياه ، فيتولد منه السرور بحاسة اللّمس، فيجتمع له فى وقت واحد ثلاث لذات لا تجتمع له فى شيء قط ، ولم تؤد إليه الحواس مثلها ، فيكون فى مجالسته للقينة أعظم الفتنة ، لأنه روى فى الاثر : « اياكم والنظرة فانها تزرع فى القلب الشهوة » . وكفى بصاحبها فتنة ، فكيف بالنظر والشهوة اذا صاحبهما السماع ، وتكانفتهما المغازلة .

ان الفتنة لا تكاد تخالص فى عشقها ، ولا تناصح فى ودها ، لانها مكتسبة ومجبولة على نصب الحبالة والشرك للمتربصين ، ليقتحموا فى أنشوطتها . فاذا شاهدها المشاهد رامته باللحظ ، وداعبته بالتبسم وغازلته فى أشعار الغناء ، ولهجت باقتراحاته ، ونشطت بالشرب عند شربه ، وأظهرت الشوق الى طول مكثه ، والصبابة لسرعة عَوْدِه ، والحزن لفراقه . فاذا أحست بأن سحرها قد نفذ فيه ، وأنه قد تعقل فى الشرك ، تزيدت فيما كانت قد شرعت فيه ، وأوهمته أن الذى بها أكثر مما به منها ، ثم كاتبته تشكو إليه هواها ، وتقسم له أنها مدت الدواة بدمعتها ، وبلت السحاءة بريقتها ، وأنه شجنها وشجوها فى فكرتها وضميرها ، فى ليلها ونهارها ، وأنها لا تريد سواه ، ولا تؤثر أحدا على هواه ، ولا تنوى انحرافا عنه ، ولا تريده لماله ، بل لنفسه . ثم جعلت الكتاب فى مسدس طومار ، وختمته بزعفران ، وشدته بقطعة زير (وتر العود) ، وأظهرت سترة عن مواليها ، ليكون المغرور أوثق بها . وألحت فى اقتضاء جوابه ، ان أجيبت عنه ادعت أنها صيرت الجواب سلوتها ، وأقامت الكتاب مقام رؤيته وأنشدت :

وصحيفة تحكى الضمـ ـير مليحة نغماتها
جاءت وقد فرح الفؤا د لطول ما استبطأتها

فضحكت حين رأيتها وبكيت حين قرأتها
عيني رأت ما أنكرت فتبادرت عبراتها
أظلوم ، نفسي في يديـ ـك ، حياتها ووفاتها

ثم تغنت حينئذ :

بات كِتابُ الحبيب ندماني محدثي تارة وريحاني
أضحكني في الكتاب أوله ثم تمادى به فأبكاني

ثم تجنت عليه الذنوب ، وتغايرت على أهله ، وحمته النظر إلى صواحبها ، وسقته أنصاف أقداحها ، وجمشته بعضوض تفاحها ، وتحية من ريحانها ، وزودته عند أنصرافه خصلة من شعرها ، وقطعة من قرطها ، وشظية من مضرابها ، وأهدت إليه في النيروز تكةوسكرا،وفي المهرجان خاتما وتفاحة ، ونقشت على خاتمها اسمه ، وأبدت عند العثرة اسمه ، وغَنَّته إذا رأته :

نظر المحب الى الحبيب نعيم وصُدُودُهُ خطر عليك عظيم

ثم أخبرته أنها لا تنام شوقا إليه ، ولا تهنأ بالطعام وجدا به ، ولا تمل — اذا غاب — الدموعَ فيه . ولا ذكرته الا تنغصت ، ولا هتفت باسمه إلا ارتاعت ، وأنها قد جمعت قنينة من دموعها من البكاء عليه .. » .

ويعرض الجاحظ لجوانب من حياة مجتمعه وأخلاق الناس فيه ، فيبدى من مساوىء السلوك ومقابح الخلق عند الناس ، وينصح لهم بالسداد وسلوك الطريق القويم في الحياة ، وربما كانت رسالة المعاد والمعاش صورة لهذا اللون من كتابته .

رسالة المعاد والمعاش : أو الاخلاق المحمودة والمذمومة :

كتب بها الى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد يقول له فيه : « فرأيت أن أجمع لك كتابا من الادب جامعا لعلم كثير من المعاد والمعاش أصف لك فيه علل الأشياء ، وأخبرك بأسبابها وما اتفقت عليه من محاسن الامم .. » .

ويقول : « فألفت لك كتابي هذا اليك ، وأنا واصف لك فيه الطبائع التي

ركب عليها الخلق ، وفطرت عليها البرايا كلهم ، فهم فيها مستوون وإلى وجودها فى أنفسهم مضطرون وفى المعرفة بما يتولد عنها متفقون » .

يقول فيها :

« اعلم أن الآداب انما هى آلات تصلح أن تستغل فى الدين وتستعمل فى الدنيا وإنما وضعت الآداب على أصول الطبائع ، وإنما أصول أمور التدبير فى الدين والدنيا واحدة ، فما فسدت فيه المعاملة فى الدين فسدت فيه المعاملة فى الدنيا ، وكل أمر لم يصح فى معاملات الدنيا لم يصح فى الدين . وإنما الفرق بين الدين والدنيا اختلاف الدارين من الدنيا والآخرة فقط ، والحكم هاهنا كالحكم هناك ، ولولا ذلك ما قامت مملكة ، ولا ثبتت دولة ولا استقامت سياسة . ولذلك قال الله عز وجل : (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) قال ابن عباس فى تفسيرها : من كان ليس له من العقل ما يعرف به كيف دبرت أمور الدنيا ، فكذلك هو اذا انتقل الى الدين ، فانما ينتقل بذلك العقل ، فبقدر جهله بالدنيا يكون جهله بالآخرة أكثر ، لان هذه شاهدة وتلك غيب ، فاذا جهل ما شاهد ، فهو بما غاب عنه أجهل » .

ويقول :

« اعلم أن الله جل ثناؤه خلق خلقه ثم طبعهم على حب اجترار المنافع ، ودفع المضادّ، وبغض ما كان بخلاف ذلك . هذا فيهم طبع مركب وجبلة مفطورة . لا خلاف بين الخلق فيه ، موجود فى الانس والحيوان . لم يدع غيره مدع من الأولين والآخرين . وبقدر زِيادَةِ ذلك ونقصانه تزيد المحبة والبغضاء . فنقصانه كزيادته تميل الطبيعة معهما كميل كفتى الميزان ، قل ذلك أو كثر » .

« وهاتان جملتان داخل فيهما جميع محامد العباد ومكارمهم . والنفس فى طبعها حب الراحة والدعة والازدياد والعلو ، والعز والغلبة ، والاستطراف والتفوق وجميع ما تستلذ الحواس من المناظر الحسنة ، والروائح العبقة والطعوم الطيبة ، والأصوات الموقعة ، والملامس اللذيذة ومما كراهَتُهُ فى طباعهم أضداد ما وصفت لك وخِلافه .

فهذه الخلال التى تجمعها خلتان غرائز فى الفطر ، وكوامن فى الطبع ، خلّة

ثابتة وشيمة مخلوقة . على أنها فى بعض أكثر منها فى بعض ، ولا يعلم قدر القلة فيه والكثرة الا الذى دبرهم .

فلما كانت هذه طبائعهم ، أنشأ لهم من الارض أرزاقهم ، وجعل فى ذلك ملاذا لجميع حواسهم ، فتعلقت به قلوبهم وتطلعت إليه أنفسهم ..

وعلم الله أنهم لا يتعاطفون ، ولا يتواصلون ، ولا ينقادون إلا بالتأديب ، وأن التأديب ليس إلا بالامر والنهى ، وأن الأمر والنهى غير ناجعين فيهم الا بالترغيب والترهيب اللذين فى طباعهم ، فدعاهم إلى جنته ، وجعلها عوضا مما تركوا فى جنب طاعته ، وزجرهم بالترهيب بالنار عن معصيته ، وخوفهم بعقابها على ترك أمره . ولو تركهم جمل ثناؤه والطباع الاول جروا على سنن الفطرة ، وعادة الشيمة .

ثم أقام الرغبة والرهبة على حدود العدل وموازين النصفة ، وعدلهم تعديلا متفقا ، فقال : (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) .

ثم أخبر الله تبارك وتعالى أنه غير داخل فى تدبيره الخلل ، ولا جائز عنده المحاباة ، ليعمل كل عامل على ثقة مما وعده ، وواعده ، فتعلقت قلوب العباد بالرغبة والرهبة ، فاطرد التدبير ، واستقامت السياسة ، لموافقتهما ما فى الفطرة ، وأخذهما بمجامع المصلحة .

ثم جعل أكثر طاعته فيما تستثقل النفوس ، وأكثر معصيته فيما تلذ . ولذلك قال النبى ﷺ : (حفت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات) .

ويقول : واحفظ هذه الابواب التى يوجب بعضها بعضا .

ويقول المَنْفَعَةُ توجب المحبة ، والمضَرَّةُ توجب البغضاء ، والمضادة توجب العداوة ، وخلاف الهوى يوجب الاستثقال ، ومتابعته توجب الالفة ، والصدق يوجب الثقة ، والكذب يورث التهمة ، والامانة توجب الطمأنينة ، والعدل يوجب اجتماع القلوب ، والجور يوجب الفرقة وحسن الخلق يوجب المودة ، وسوء الخلق يوجب المباعدة ، والانبساط يوجب المؤانسة والانقباض يوجب الوحشة ، والتكبر يوجب المقت ، والتواضع يوجب الثقة ، والجود

بالقصد يوجب الحمد ، والبخل يوجب المذمة ، والتوانى يوجب التضييع ، والجد يوجب رخاء الاعمال والهوينا تورث الحسرة ، والحزم يورث السرور ، والتغرير يوجب الندامة ، والحذر يوجب العذر ... » .

ويقول :

واحذر كل الحذر أن يختدعك الشيطان عن الحزم فيمثل لك التوانى فى صورة التوكل ويسلبك الحذر ، ويورثك الهوينا باحالتك إلى الاقدار ، فان الله انما أمر بالتوكل عند انقطاع الحيل ، والتسليم للقضاء بعد الاعذار ، بذلك أنزل كتابه ، وأمضى سنته فقال : (خذوا حذركم) و (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) .

وقول النبى ﷺ : « أعقلها وتوكل » . وسئل ما الحزم فقال : الحذر . واعلم أن تثمير المال آلة للمكارم ، وعون على الدين ، ومتألف للاخوان ، وأن من قد فقد المال قلت الرغبة اليه والرهبة منه . ومن لم يكن بموضع رغبة ولا رهبة استهان الناس بقدره فاجهد الجهد كله الا تزال القلوب معلقة منك برغبة أو رهبة ، فى دين أو دنيا .

واعلم أن السرف لا بقاء معه لكثير ولا تثمير معه لقليل ، ولا تصلح عليه دنيا ودين . وتأدب بما أدب الله تعالى به نبيه فقال : (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا) .. وقالت الحكماء : القصد أبقى للجمام .

فداوم حالك وبقاء النعمة بتقديرك أمورك على قدر الزمان ، وبقدر الامكان . فقد قال الشاعر :

من سابق الدهر كبا كبوة   لم يستقلها من خطى الدهر
فاخط مع الدهر على ما خطا   واجر مع الدهر كما يجرى

ويقول :

« واعلم أن المقادير ربما جرت بخلاف ما تقدر الحكماء ، فنال بها الجاهل فى نفسه ، المختلط فى تدبيره ما لا ينال الحازم الاريب الحذر . فلا يدعونك ما ترى من ذلك الى التضييع والاتكال على مثل تلك الحال . فان الحكماء قد

أجمعت أن من أخذ بالحزم وقدم الحذر فجاءت المقادير بخلاف ما قدر كان عندهم أحمد رأيا وأوجب عذرا ممن عمل بالتفريط وان اتفقت له الأمور على ما أراد . ولعمرى بان كان ذلك ما يجىء إلا فى أقل الأمور .

ولا تكونن لشىء مما فى يدك أشد ضنا ، ولا عليه أشد حدبا منك بالأخ الذى قد بلوته فى السراء والضراء ، فعرفت مذاهبه ، وخبرت شيمه ، وصح لك غيبه ، وسلمت لك ناحيته ، فانما هو شقيق روحك ، وباب الروح إلى حياتك ، ومستمد رأيك ، وتوأم عقلك . ولست منتفعا بعيش مع الوحدة ولا بد من المؤانسة ، وكثرة الاستبدال تهجم بصاحبه على المكروه . فان صفا لك أخ فكن أشد ضنا منك بنفائس أموالك ، ثم لا يزهدنك فيه أن ترى منه خلقا أو خلقين تكرههما ، فان نفسك التى هى أخص النفوس بك لا تعطيك المقادة فى كل ما تريد ، فكيف بنفس غيرك ؟ وبحسبك أن يكون لك من أخيك أكثره . وقد قالت الحكماء : « من لك بأخيك كله » . « وأى الرجال المهذب » .

ويتصل بهذه الرسالة فى الموضوع رسالته فى « كتمان السر وحفظ اللسان » .

حب الاوطان : أو « رسالة فى الحنين الى الاوطان » :

(مجموعة رسائل الجاحظ لهارون جـ ٢ /٣٨٤) قال :

« لقد قالت العجم : من علامة الرشد أن تكون النفس الى مولدها مشتاقة ، والى مسقط رأسها تواقة . وقالت الهند : حرمة بلدك عليك مثل حرمة أبويك لأن نظراءك منهما وعداءهما منك . وقال آخر : احفظ بلدا رشحك غذاؤه وارع حمى أكنك فناؤه . وأولى البلدان بصبابتك اليه بلد رضعت ماءه ، وطعمت غذاءه » .

يقول : « ومما يؤكد ما قلنا فى حب الاوطان قول الله عز وجل حين ذكر الديار ، يخبر عن مواقعها من قلوب عباده . فقال : (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم) فسوى بين قتل

أنفسهم وبين الخروج من ديارهم . وقال تعالى : (وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله ، وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) .

وقال عمر رضى الله عنه : (عمر الله البلدان بحب الاوطان) .

وكان يقال : لولا حب الناس الاوطان لخسرت البلدان .

وقال عبد الحميد الكاتب يذكر الدنيا : « نفتنا عن الأوطان ، وقطعتنا عن الإخوان » .

الموضوعات الدينية والكلامية فى كتبه ورسائله :

وشملت كتبه ورسائله كذلك موضوعات دينية متنوعة ، منها كتاب « حجج النبوة » و « كتاب نظم القرآن » وكتاب « آى القرآن » وكتاب « مسائل القرآن » وكتاب « خلق القرآن » وكتاب « الرد على المشبهة » وكتاب « الرد على النصارى » وكتاب « الرد على اليهود » .

ويعكس الجاحظ فى هذه الكتب والرسائل آراءه الخاصة فى اطار فلسفته الاعتزالية العامة .

ومما قاله فى اليهود من كتاب الحجة[1] :

« ومتى أحببت أن تعرف غى بنى اسرائيل ونقص أحلام القبط ، ورجحان عقول العرب ، وأحلام كنانة ، فانظر بواديهم ورباعهم ، وانظر إلى بيئتهم وبقاياهم كما نظرت إلى غى بنى اسرائيل ونقص بين من مضى من القبط تعتبر ذلك وتعرف ما أقول : .. وكيف لا وتقص عليهم بالغي والجهل ولم تسمع لهم بكلمة فاخرة أو معنى نبيه ، لا ممن كان فى المبدأ ، ولا ممن كان فى المحضر ، ولا من قاطنى السواد ، ولا من نازلى الشام ، ثم أنظر إلى أولادهم مع طول لبثهم فينا وكونهم معنا ، هل غير ذلك من أخلاقهم وشمائلهم وعقولهم وأحلامهم وآدابهم وفطنهم ؟ فقد صلح بنا كثير من أمور النصارى وغيرهم ، وليس النصارى كاليهود ، لأن اليهود كلهم من بنى اسرائيل الا القليل ، فلم يُعْرِبْ فيهم غيرهم ، لان مَنَاكِحَهُمْ مقصورة فيهم ، ومحبوسة عليهم

(١) الجاحظ للدكتور طه الحاجرى ، ص ٣٦٧ .

فقصور أولهم مؤداه إلى آخرهم ، وعقول أسلافهم مردودة على أخلاقهم ، ثم اعتبر بقولهم لنبيهم عليه السلام : (اجعل لنا الها كما لهم آلهة) حين مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم يعبدونها .

وكقولهم : (أرنا الله جهرة) ، وكعكوفهم على عجل صنع من حليهم يعبدونه من دون الله بعد أن أراهم من الآيات ما أراهم ، وكقولهم : (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون) . وكذلك ما وعد محمد ﷺ بنار الابد كوعيد موسى بنى اسرائيل بالقاء الهلاك على زرعهم ، والهم على أفئدتهم ، وتسليط الموتان على ماشيتهم ، وباخراجهم من ديارهم ، وأن يظفر بهم عدوهم ، فكان تعجيل العذاب الادنى فى استدعائهم واستمالتهم وردعهم ، كتأخير العذاب على غيرهم ، لان الشديد المؤخر لا يزجر الا أصحاب النظر فى العواقب ، وأصحاب العقول التى تذهب فى تلك المذاهب » .

مثل فى تفسيره للقرآن :

وهو يعرض لآيات الكتاب لفسيرها ، لا يأخذ بالظاهر ولا بمجرد المدلول المحدود للفظ ، يستبطن المعانى ، ويجول جولة مع السياق ومع غاية التعبير القرآنى وينشد أثره النفسى ، والعقلى ، ويكشف الجاحظ عن اقتدار فى اكتشاف أسرار التعبير . فانظر الى تفسيره لقوله تعالى : (قال لأهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر) وقال مرة أخرى (بشهاب قبس) .

وان المسافر فى هذا البيد المترامى من العرب لا يدرى طريقه ، والرمال من تحته ممتدة على مرمى البصر ، والسماء فوقه لا تريه متى يصل بأمان الى مخيم ، قد يخطىء ظنه وتقديره ، وينفذ زداه ، وينضب ماؤه ، ويفقد الطريق ، ويضل السبيل ، فيضرب بلا هدى ، ولا تسل عن حيرة هذا المسافر الضال ، وعن مدى ما يشعر به من وساوس وهواجس ، ثم ما يداعب به نفسه من آمال وبينها هون غارق فى هواجسه وآماله ، والليل مغلق عليه ، والابل تئط من التعب والضنى ، وبطنه الطاوى يكاد يلتصق من السغب ، وريقه يكاد يجف من العطش ، وهو فى متاهة لا تبصر العين فيها أثرا لحياة ، لا تسل عن حال هذا الضال وسعادته كيف يلقى قبسا من النار يطلع له من الأفق البعيد طلوع الأمل الباسم يناديه ، ويفتح له الطريق أمام حياة بعد أن كاد يفقد الأمل ، وتعمى السبل، فيهرول وهو يمنى النفس بشبع ورى ، وراحة وأنس .

هذا ما أراد بهْ الجاحظ من تفسيره للآية ، وما أراد أن يعلنه حين نقل قول أبي عقيل في قوله تعالى : (وقال موسى لاهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بشهاب قبس) فقال أبو عقيل لم يعرف موقع النار من أبناء السبيل ومن الجائع المقرور[1] .

والقرآن استخدم اللفظين « بخبر » و « بشهاب قبس » والمعنى واحد ، والاختلاف فى اللفظ . والنار فى الحالين هى القصد ، فعندها الخبر بما يحب السائرون من أبناء السبيل ، وفيها القرى والدفء له . والمعترض هاهنا — وأغلب الظن أنه من الموالى غير العرب — لم يحس بما للنار فى البوادى لأنه لم يحى حياة العرب البادين ، ولم يسمع منهم عن شأنها وقدرها . فأنكر أن يُغَيِّر القرآن اللفظ على لسان موسى ، وحسب أن المعنى اختلف ، وأن التنزيل خالف نفسه وهو الذى لم يفهم قصد التنزيل ، ولم يلم بالمعنى المراد الماما شاملا ، فوقع فى الخطأ ، ويحسب أنه قد ظفر على القرآن بحجة فى تناقض نظمه .

ويعرض الجاحظ للتفسير المجازى للقرآن ، والذى لا يؤخذ فيه بظاهر القول فيواجه الظاهرية والمعترضين بالحجج البينة ، ويتناولهم بالسخرية اللاذعة ليسفه آراءهم فيقول مثلا فى قوله تعالى : (ان أصحاب الجنة اليوم فى شغل فكهون) .

« وأصحاب الجنة لا يوصفون بالشغل ، وانما ذلك جواب لقول القائل : خبرنى عن أهل الجنة بأى شيء يتشاغلون ؟ أم لهم فراغ أبدا ؟ فيقول المجيب : لا ، ما شغلهم الا افتضاض الابكار وأكل فواكه الجنة وزيارة الاخوان على نجائب الياقوت » .

وهذا على مثال جواب عامر بن عبد قيس ، حين أقبل من جهة الحلبة وهو بالشام — من سبق ؟ قال : رسول الله ﷺ ، قيل فمن صلى : قال أبو بكر . قال : انما أسألك عن الخيل قال : وأنا أجيبك عن الخير . وهو كقول المفسر حين سئل عن قوله : (لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) فقال : ليس فيها بُكْرةٌ ولا عشى . وقد صدق القرآن وصدق المفسر ، ولم يتناكرا ولم يتنافيا ، لان

---

(1) البيان والتبين ، طبع هارون ، جـ ١ ، ص ٢٦٥ .

القرآن ذهب إلى المقادير ، والمفسر ذهب إلى الموجود من دوران ذلك مع غروب الشمس وطلوعها[1] .

وفى قوله تعالى : (حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا بلى ، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) . فجعل للنار خزائن ، وجعل لها خزنة ، كما جعل فى الجنة خزائن وجعل لها خزنة . ولو أن جهنم فتحت أبوابها ونحى عنها الخزنة ، ثم قيل لكل لص فى الارض ولكل خائن فى الارض دونك فقد أبيحت لك لما دنا منها . وقد جعل لها خزائن وخزنة ، وانما هذا على مثال ما ذكرنا . وهذا كثير فى كلام العرب .

وقال فى قوله تعالى : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) وقال تعالى : (وحفظناها من كل شيطان رجيم) وقال تعالى : (وجعلناها رجوما للشياطين) . ونحن لمن نجد قط كوكبا خلا مكانه . فما ينبغى أن يكون واحد من جميع هذا الخلق من سكان الصحارى والبحار ومن يراعى النجوم للاهتداء ، أو يفكر فى خلق السماوات أن يرى كوكبا واحدا زائلا ، مع قوله وجعلناها رجوما للشياطين .

قيل لهم : قد يحرك الانسان يده أو حاجبه أو أصبعه فتضاف تلك الحركة الى كله ، فلا يشكون أن الكل هو العامل لتلك الحركة ، ومتى فصل شهاب من كوكب ، فاحترق وأضاء فى جميع البلاد ، فقد حكم كل انسان باضافة ذلك الاحتراق الى ذلك الكوكب . وهذا جواب قريب سهل .

ومنهج الجاحظ فى تفسيره يميل الى الاعتدال ، فلا يأخذ بظاهر القول ، وغريبه ، ولا يتأول أو يذهب بعيدا كفعل الباطنية انما يفسر القرآن على ما يفهمه العرب أصحاب اللغة التى نزل بها ، آخذا فى اعتباره ما يجوز فيها من وجوه التعبير المختلفة كالمجاز والتشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير

(١) البيان ، ٦ /٢٧٦ .

وما اليها وفى تفسير قوله تعالى فى سورة النحل : (يخرج من بطونها شراب) يقول : « فالعسل ليس شرابا ، وانما هو شىء يحول بالماء شرابا ، أو بالماء نبيذا كما ترى شرابا اذا كان يجىء منه الشراب . وقد جاء فى كلام العرب أن يقولوا : جاءت السماء اليوم بأمر عظيم . وقد قال الشاعر :

اذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

زعموا أنهم يرعون السماء ، وأن السماء تسقط .

ومتى خرج العسل من جهة بطونها وأجوافها فقد خرج فى اللغة من بطونها وأجوافها . ومن حمل اللغة على هذا المركب لم يفهم عن العرب قليلا ولا كثيرا . وهذا الباب هو مفخر العرب فى لغتهم ، وبه وبأشباهه اتسعت . وقد خاطب بهذا الكلام أهل تهامة ، وهذيلا ، وضواحى كنانة . وهؤلاء أصحاب العسل . والاعراب أعرف بكل صمغة سائلة ، وعسلة ساقطة . فهل سمعتم بأحد أنكر هذا الباب ؟ أو طعن عليه ؟ من هذه الجهة »[1] .

وكذلك الايجاز وترك الفضول ، لجأ اليه القرآن فى مثل قوله تعالى : (لا يصدعون عنها ولا ينزفون) فى صفة خمر أهل الجنة . « وهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا . وقوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة (لا مقطوعة ولا ممنوعة) جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعانى وفى التشبيه قوله تعالى : (انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين) فزعم ناس أن رءوس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن لها منظر كريه . والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير وقالوا : انما عنى رءوس الشياطين المعروفين بهذا الاسم من فسقة الجن ومردتهم . فقال أهل الطعن : كيف يجوز أن يضرب المثل بشىء لم نره فنتوهمه ، ولا وصفت لنا صورته فى كتاب ناطق أو خبر صادق .

ومخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة ، والتفريع منها ، على أنه لو كان شىء أبلغ فى الزجر من ذلك لذكره . فكيف يكون الشأن كذلك ، والناس لا يفزعون إلا من شىء هائل شنيع قد عاينوه ، أو صور لهم واصف

(١) كتاب الحيوان ، جـ ٢ ، ص ٤٢٥ /٤٢٦ .

صدوق اللسان بليغ فى الوصف ، ونحن لم نعاينها ، ولا صورها لنا صادق . وعلى أن أكثر الناس من هذه الأمم التى لم تعايش أهل الكتابين ، وحملة القرآن من المسلمين ومن لم تسمع الاختلاف لا يتوهمون ذلك ولا يقفون عليه ، ولا يفزعون منه ، فكيف يكون ذلك وعيدا عاما ؟

قلنا : وان كنا نحن لم نر شيطانا قط ، ولا صور رءوسها لنا صادق بيده ، ففى إجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان ، حتى صاروا يضعون ذلك فى مكانين ، أحدهما أن يقولوا : لهو أقبح من الشيطان ، والوجه الآخر أن يسمى الجميل شيطانا ، على جهة التطير له ، كما تسمى الفرس الكريمة « شوهاء » ، والمرأة الجميلة جماء وقرناء وخنساء وجرباء وأشباه ذلك على جهة التطير لها ، ففى إجماع المسلمين والعرب وكل من لقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان دليل على أنه فى الحقيقة أقبح من كُلّ قبيح »[1] .

وهكذا نجد الجاحظ فى تفسيره انما ينظر الى القرآن نظرة بيانية وعقلية ، لا يأخذ بمأثور الكلام والخبر ، أو بآراء المحدثين والمفسرين ، انما يعمد الى تحليله للآيات وفق ما تقتضيه أصول البيان العربى ، ووفق ما يعتقده من آراء المعتزلة والمتكلمين .

البيان والنقد والبلاغة :

وكان اهتمام الجاحظ فى كتبه بالبيان عدل اهتمامه بقضايا الفكر والحياة والدين. ومعلوم أن المعتزلة اهتموا بالبيان ، وعلموا ناشئتهم البلاغة ووصفوا لهم أصُولَها ، وفى صحيفة بشر بن المعتمر فى البلاغة التى رواها الجاحظ دليل على ذلك .

ويخصص الجاحظ كتابا كبيرا من كتبه لهذا الموضوع « البيان والتبيين » يبحث فيه البيان العربى فى صوره المختلفة من خطابة وشعر ورسائل ومثل وحكمة ، وان كان اهتمامه منصبا على الخطابة. وحدد الجاحظ البيان ، ووجوهه ، كما عرف بالبلاغة وعناصرها ، وحاول أن يوقف متعلمى البيان على طرق التبيين وأصوله .

---

(١) كتاب الحيوان جـ ٦ ص ٢١٢ — ٢١٣ .

ولم يقتصر حديثه فى البيان ، ولا نظراته البيانية والبلاغية على كتاب البيان بل تعددت فى مواضع كثيرة من كتبه ، كلما تعرض لتفسير آية أو بيت شعر أو مثل أو حكمة ويضع مقياسا عاما للحسن فى البيان فيقول :

« وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه فى ظاهر لفظه ، وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه ، وتقوى قائله ، فاذا كان المعنى شريفا بليغا ، وكان صحيح الطبع بعيدا من الاستكراه ، ومنزها عن الاختلال مصونا من التكلف صنع فى القلوب صنيع الغيث فى التربة الكريمة[1] .

ويدور البيان عند الجاحظ على عنصرى اللفظ والمعنى بمدلولاتهما القريبة ، المفردة والمركبة ، فقد يعنى اللفظ النطق أو العبارة أو الكلمة الواحدة . وقد يعنى المعنى المضمون والموضوع ويعنى العبارة والمعنى القائم فى النفس والمعنى المحدود ، والمعنى الجزئى للكلمة ، والمعنى المجازى والمعنى اللغوى .

وللجاحظ آراء كثيرة فى النقد والبلاغة[2] مفرقة تتعرض لبناء العبارة فى الشعر والكلام وما ينبغى أن تتصف به البليغة منها من التلاؤم والقرن[3] ، كما يتحدث عن السرقات والمآخذ المعنوية فى الشعر[4] ، والصدق والكذب فى البيان[5] ، وأن الكلمة اذا خرجت من القلب وقعت فى القلب ، واذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان[6] . ويتحدث عن الطبع والصنعة فى الشعر[7] .

روح الفكاهة والسخرية فى أدب الجاحظ :

يقول ابن قتيبة عن الجاحظ أنه يلجأ فى كتبه الى المضاحيك والعبث .

---

(١) البيان والتبيين ، ٢ /٧٣ .

(٢) راجع أثر القرآن فى تطور النقد العرفى « للدكتور محمد زغلل سلام » ، وبلاغة أرسطو بين العرب واليونان للدكتور ابراهيم سلامة ، ص ٥٤ ــ ٥٧ ، والبيان العربى من الجاحظ الى عبد القاهر للدكتور طه حسين ، فى مقدمة نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر .

(٣) راجع البيان والتبيين ، ١ /٢٠٥ .

(٤) البيان ، ١ /١٥٤ .

(٥) البيان ، ١ /٥٠ .

(٦) البيان ، ١ /٨٣ .

(٧) البيان ، ٢ /٢٠٠ ــ ٢٢٠ .

وروح الفكاهة والسخرية سمة دالة فى كتاباته ، وربما كانت من أبدع خصائص فنه الكتابى ، فالفكاهة اقتدار وهبة من عند الله ، وهى تدخل على نفس القارىء النشاط وتروح عنه .

ومن أجمل ما كتب متضمنا روح الفكاهة والسخرية كتابه الخالد « البخلاء » ورسالته « التربيع والتدوير » وبعض فصول فى كتاب الحيوان ، وفى رسائل أخرى متفرقة .

وتراه فى البخلاء يسخر منهم ويعرض حرصهم على طعامهم بصور مضحكة كقوله فى أحد بخلائه وقد دعاه هو وبعض أصحابه الى طعام كان خبزه قليلا ، على قدر كل واحد رغيف :

« وكنت أنا وأبو اسحاق ابراهيم بن سيار النظام وقطرب النحوى وأبو الفتح مؤدب منصور بن زياد على خوان فلان بن فلان والخوان من جزعة ، والغضار صينى ملمع أو خلنجيه كيماكية ، والالوان طيبة شهية وغذية قدية ، وكل رغيف فى بياض الفضة كأنه البدر ، وكأنه مرآة مجلوة ، ولكنه على قدر عدد الرءوس ، فأكل كل انسان رغيفه الا كسرة ، ولم يشبعوا فيرفعوا أيديهم ، ولم يمدوا بشىء فيتموا أكلهم والايدى معلقة ، وانما هى فى تنقير وتنتيف .. » .

ويقول فى آخر :

« .. قد رأيناه ينفق على مائدته وفاكهته ألف درهم فى كل يوم ، وعنده فى كل يوم عرس ولان يطعن طاعن فى الاسلام أهون عليه من أن يطعن فى الرغيف الثانى . ولشق عصا الدين أشد عليه من شق رغيف . لا يعد الثلمة فى عرضه ثلمة ، ويعدها فى ثريدته من أعظم النقم .. » .

وفى رسالة التربيع والتدوير نرى الجاحظ يفتن فى رسم صور ساخرة هزلية لشخص محمد بن عبد الوهاب الذى أدار حوله الرسالة . وهى تُعَدُّ من أبرع رسائل الهجاء فى أدبنا النثرى ، وقد شرع بها للناثرين من بعده طريقا ، اقتحموه ، وتفاوتوا فى سلوك دروبه ونواحيه .

كتاب الحيوان ، بين الادب والجدل الدينى والاجتماعى :

يمثل كتاب الحيوان للجاحظ صورة واضحة متنوعة الجوانب لشخصية الجاحظ الادبية والمذهبية والفكرية والاجتماعية .

فهو كتاب جامع لهذا كله . وان بَدَا مختصا بموضوع الحيوان .

١ ــ منها أن موضوع الحيوان يشمل الحديث فى الحياة وأسرارها ، وفيه عناصر البحث عن الخالق وقدرته ، والدليل على وحدته ، وعدله ، وحكمته ، فهو موضوع جليل لكشف حقائق الايمان ، وتدعيم جدل المعتزلة . أو يمكن أن يستمد هؤلاء منه مددا كبيرا لافكارهم وحججا لهم على معارضيهم . وقد أشار الجاحظ الى اهتمام بعض المتكلمين فى عصره بالكلب والديك والمناظرة بينهما[١] .

٢ ــ ومنها أن موضوع الحيوان كان تراثا دينيا أو هو فى وجدان كثير من الشعوب التى دخلت الاسلام يتلونُ بألوان عقائد الاسلاف التى تحيط الحيوان بضروب من الافكار ، والعقائد انحدرت اليهم من ماضيها السحيق حين كانت تقدس الحيوان وتجعل منه آلهة للخير أو الشر . وتحوك حوله الاساطير والخرافات لتثبيت هذه العقيدة أو تلك . ويشير الى هذه العقائد والاساطير فى مواضع كثيرة من الكتاب . كما أكد هذه الحقيقة فى المجتمع العباسى فى عصره ما رواه الحصرى فى أخبار أبى نواس قال الحصرى :

« لما حبس الامين أبا نواس دخل عليه خال الفضل بن الربيع وكان يتعهد المحبوسين ويسأل عنهم ، وكانت فيه غفلة ، فأتى أبا نواس فقال : ما جرمك حتى حبست فى حبس الزنادقة ؟ أزنديق أنت ؟ . قال : معاذ الله . قال : أتعبد الكبش ؟ قال : ولكنى آكله بصفوفه . قال : أفتعبد الشمس ؟ . قال : والله ما أجلس فيها من بغضها . فكيف أعبدها ؟ . قال : أفتعبد الديك ؟ قال : لا والله بل آكله ولقد ذبحت ألف ديك ، لان ديكا نقرنى مرة ، فحلفت ألا أجد ديكا الا ذبحته[٢] .

---

(١) راجع الجاحظ للدكتور طه الحاجرى ، ص ٤٠٣ والحيوان ١ /٠٠/ و ٢١٦ .

(٢) جمع الجواهر للحصرى ، ص ١٣٤ طبع الرحمانية .

وقد اتصل حديث الديك والاعتقاد الدينى فيه بالاسلام ، فأحدث الناس حوله بعض الاحاديث كذلك الحديث الذى رواه الطبرانى فى معجمه :

« ان لله سبحانه وتعالى ديكا أبيض ، جناحاه موشيان بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ جناح بالمشرق وجناح بالمغرب . ورأسه تحت العرش ، وقوائمه فى الهواء ، يؤذن فى كل سحر ، فيسمع تلك الصيحة أهل السماوات ، وأهل الارض الا الثقلين الانس والجن ، فعند ذلك تجيبه ديوك الارض ، فاذا دنا يوم القيامة ، يقول الله سبحانه وتعالى : ضم جناحيك وغض صوتك ، فيعلم أهل السموات والارض الا الثقلين أن الساعة قد اقتربت »[1] .

وقد ارتبط هذا المعنى الدينى فى الديك عند المسلمين لصياح الديكة قرب طلوع الفجر ، والفجر عندهم موعد فريضة الصلاة الاولى (الصبح) . وربما ارتبط المعنى الدينى عند ثنوية الفرس لانه مبشر بالضياء وخروجه من الظلمة .

ويشير الجاحظ فى غير موضع من كتابه الى اعتقاد الناس فى تقسيم أنواع الحيوان الى شرير وخير ، وربما كان ذلك أثرا من آثار بعض عقائد الفرس القدماء من المجوس خاصة فى أن الحيوان قسمة بين الهى الخير والشر ، بعضه من خلق اله الخير هرمز ، والآخر من خلق اله الشر أهريمان . ويتصل الاعتقاد فى الحيوان كذلك فيما يتطير منه أو يتفاءل به من الحيوان ببعض عقائد الكلدانيين .

٣ ــ أن موضوع الحيوان كان من عناصر الحياة الشعبية اليومية فى المجتمع العباسى المعاصر فقد شغل بعض الناس بضروب من الحيوان ، فى لهوهم ، فاتخذوا منه أداة لقضاء الوقت وشغل الفراغ أو أداة للمفاخرة والمبارزة ، كاقتنائهم الديكة للمهارشة ، والكباش ، والحمائم وغيرها .. وكتعصبهم عرفيا لهذا الحيوان أو ذاك . ومنه تعصب العرب للبعير الناقة ، والفرس ، والهند للفيل مثلا .

---

(١) راجع ، الجاحظ للدكتور طه الحاجرى ، ص ٤٠٥ .

٤ — ان هذا الموضوع نفسه كان موضوعا فلسفيا ، طرقه من قبل فلاسفة اليونان ، وألف فيه فيلسوفهم أرسطو[١] كتابا ، أغلب الظن أن الجاحظ وقف عليه ، لكنه اختطّ لنفسه طريقا آخر مغايرا له .

أما الدور الاجتماعى للحيوان ، وان كان متصلا بوشائج متينة ببعض العقائد والاساطير الدينية ، الا أن هذا الاتصال اليومى بين الحيوان والانسان فى الحياة ، والمشاركة فى بعض أعبائها جعل الروابط بينهما مدعاة لضروب من القصص ، أو الاساطير .

ويختلف الحال فى بعض المجتمعات التى يغلب عليها نوع خاص من الحيوان على بعضها الآخر فترى مجتمع البادية وحيوانه ، وعلاقة الناس والحيوان بعضهم ببعض يختلف عن مجتمع البلاد البحرية ، أو الزراعية وعلاقات الناس والحيوان فيها بالضرورة .

والمجتمع العباسى فى عصر الجاحظ يجمع عناصر عديدة من مجتمعات بدوية صحراوية أو زراعية ريفية ، وجبلية ، وبحرية ، تتعدد بيئاتها ويتعدد حيوانها .

وتختلط علاقات الناس بأنواع الحيوان ، لاختلاف بيئاتهم ، فحيوان الصحراء كالبعير والكلب والكبش ، قريب الى نفوس البدو أثير لديهم ، لانه يشاركهم أعباء الحياة فيها ويتحمل معهم عناءها ، فيحملهم ويصبر على الرحلة ، أو يدفع عنهم شر الغريب ، وينبههم الى الغارة أو يذود عنهم عوادى الحيوان المفترس كالذئب والسبع ، أو يمدهم بالطعام ، من لبن ولحم وحيوان البحار كالحوت والاسماك ، وطيور البحر لها كذلك علاقات بأبناء الجزر ، والثغور وقد كان بالبصرة موطن الجاحظ جماعة كبيرة من البحريين . رووا كثيرا من القصص عن حيوان البحار ، ولاحظ عليهم التزيد والاغراب . ومنها ما يرويه أولئك من صداقة بين بحارة السفن وبعض الطيور التى تدلهم على الشاطىء .

يقول الجاحظ :

---

(١) توجد ترجمة له غير منسوبة بالمتحف البريطانى مخطوطة — ويشير ابن النديم إلى أن البطريق ترجم كتاب الحيوان لأرسطو .

« ويزعم البحريون أن طائرين يكونان ببلاد السفالة ، أحدهما يظهر قبل قدوم السفن اليهم قبل أن يمكن البحر من نفسه لخروجهم فى متاجرهم فيقول الطائر : « قرب آمد » . فيعلمون بذلك أن الوقت قد دنا ، وأن المكان قد قرب . قالوا : ويجيء طائر آخر وشكل آخر فيقول : سمارو ، وذلك فى وقت رجوع من قد غاب منهم ، فيسمون هذين الجنسين من الطير « قرب » و « سمارو » .. فيزعم أهل البحر أن ذينك الطائرين لا يطير أحدهما الا فى اناث ، وأن الآخر لا يطير أبدا الا فى ذكورة »[1] .

وربما كان من وحى أحاديث هؤلاء البحريين التى روى الجاحظ طرائف منها حول الحيوان نبع قصص ألف ليلة وليلة التى تدور فى البحار من أمثال قصص السندباد والرخ وما إليها .

والحيوان موضوع « فلسفي » ، واهتم به الجاحظ ، من باب اهتمامه الفلسفى ، والعلمى وقد قرأ فى كتب الفلاسفة والاطباء عن الحيوان ، فأراد أن يحيط علما بهذا العالم الذى تعطى المعرفة به زادا علميا وفكريا عظيما . ويشير الجاحظ إلى ما جاء من معارف عن الحيوان عن طريق العرب وأخبارهم وأشعارهم وما جاءه عن طريق العلم والمعرفة من فلاسفة وحكماء وأطباء . يقول :

« وقل معنى سمعناه فى باب معرفة الحيوان من الفلاسفة . وقرأناه فى كتب الأطباء والمتكلمين إلا ونحن قد وجدناه أو قريبا منه فى أشعار العرب والاعراب ، وفى معرفة أهل لغتنا وملتنا »[2] . فالالمام بأنواع الحيوان ، وطبائعه ، وتوالده ، وحياته من أمور المعرفة أو العلم الضرورية للفيلسوف والعالم .

وقد مال الجاحظ فى هذا الجانب من كتاب الحيوان أحيانا إلى التجريب والملاحظة البصرية والمعاينة ، أو الاتصال بالتجربة اتصالا مباشرا .

ولا يصدق الجاحظ — مدفوعا بهذا الروح العلمى — كل ما يقع لسمعه من أخبار حول الحيوان ، وطبائعه ، وعيشه وتناسله ، فهو يضعها موضع المناقشة والشك والتجريب والنظر ، فما ثبت منها لهذا كله أخذ به ، وما لم يثبت أنكره ، ونفاه حتى لو وقع له فى الكتب أو من أفواه العلماء .

(١) الحيوان ، ٣ /٧ . (٢) الحيوان ، ٧ /٤٩ .

يقول مثلا :

« ومما لا أكتبه من الأجناس العجيبة التى لا يجسر عليها الا كل وقاح ، أخبار بعض العلماء وبعض من يؤلف الكتب ، يقرؤها ويدارس أهل البصرة ، ويتحفظها ، زعموا أن الضبع يكون عاما ذكرا وعاما أنثى ، وسمعت هذا من جماعة ، منهم من لا أستجيز تسميته » . ثم يقول : « وأولئك بأعيانهم هم الذين يزعمون أن الثمرة تضع فى مشيمة واحدة جروا وفى عنقه أفعى قد تطوقت به » .

ويعد كتاب الحيوان من آخر ما ألف من الكتب ، وهو يشكو فيه علته التى مات بها وتظهر عليه آثار الاضطراب لهذه العلة ، وأن وسمته سمات النضوج والتجارب العديدة فى رحلة حياته الطويلة ، ومن ذخيرة فكره الحافلة المنوعة .

ابن قتيبة
(ت سنة ٢٧٦ هـ)

١ ـــ حياته :

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى[١] ، كان والده فارسيا من مرو الروز[٢] وتختلف المصادر فى البلد الذى ولد فيه ابن قتيبة ، فيذكر ابن النديم أنه الكوفة[٣] ، ويذكر الخطيب البغدادى أنه بغداد[٤] . ويبدو أنه ولد بالكوفة ، ولم يقم بها كثيرا فانتقل فى صباه على الأرجح إلى مدينة السلام ، فطالت اقامته بها حتى عد من أبنائها .

وقد أثرت حياة بغداد فى نشأته الفكرية ، اذ أنه تلقى العلم على جماعة من علمائها الأجلاء ، فأخذ الحديث عن أئمته المشهورين فيه مثل اسحاق بن راهوية ، وتلقى النحو عن جماعة من علماء الكوفة والبصرة ، مثل أبى حاتم السجستانى .

وتأثر فى شبابه بما كان يدور فى أوساط العلماء من جدل وتناظر بين المعتزلة وأهل السنة ، ولمس فى فجر حياته غلبة المعتزلة على الحياة الفكرية ، فأعجب ـــ على ما يبدو ـــ بآرائهم كما يحكى فى « تأويل مختلف الحديث »[٥] .

وقد اختير قاضيا لمدينة الدينور ، وهى بلدة من بلاد الجبل قرب قرميسين كان بها جماعة من العلماء والمحدثين والمشايخ المشاهير[٦] ، وقضى بالدينور زمنا

---

(١) دينور : ودينهور فى المصادر السريانية مدينة من أهم مدن الجبل يرجع تأسيسها إلى الجاهلية وكانت فى عهد الخليفة عمر أعمر مدينة فى اقليم همذان وقد سلمها الوالى الفارسى للعرب عقب وقعة نهاوند الحاسمة مباشرة (حوالى عام ٢١ هـ) وقد ازدهرت أيضا ازدهاراً كبيراً فى عهد الأمويين والعباسيين .

(٢) (الاشربة) لمحمد كرد على ـــ ص ١ .

(٣) (الفهرست) طبع أوربا .

(٤) (تاريخ بغداد) ١٠ ، ١٧٠ .

(٥) (تأويل مختلف الحديث) ص ٧٤ .

(٦) قرميسين : تشمل الأراضى السفلى من جبال قرميسين أمادينور: فتشمل الأراضى العليا منها .

اتصل فيه بأولئك المحدثين والفقهاء ، وتدارس أمور الدين والفقه ، ثم عاد الى بغداد ، وهناك وجد شمس المعتزلة آخذة فى الافول بعد أن تولى الخلافة جعفر المتوكل ، وساعد أهل الحديث والسنة على الظهور على منافسيهم . فتقدم هو ليدلى بدلوه ، وينتصر للسنة ، ويجمع من الاراء والكتب ما يعينه على ذلك .

واتصل ابن قتيبة فى بغداد برجال الدولة كعادة غيره من العلماء والادباء. وعرف منهم فى ذلك الوقت الوزير أبا الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل وابنه المعتمد[١] وأهدى اليه كتابه « أدب الكاتب » .

واستمرت حياته العلمية ببغداد ، فاشتغل بالتدريس للناس زمنا[٢] ، وكان يقرأ كتبه على تلاميذه ، ومن بينهم جماعة من العلماء الذين نبهوا بعد ذلك وكان لهم نتاج معروف مثل ابنه أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، الذى حدث بكتب أبيه فى مصر حين ولى القضاء بها ، وعبد الله بن جعفر بن درستويه الكاتب الفارسى صاحب « أدب الكتاب » .

وقد شارك مشاركة جدية فى محاربة نزعات الشك والفلسفة التى غلبت على العقول فى ذلك الوقت ، وسيتضح هذا عند تناول اتجاهاته المختلفة فى كتبه . وقد توفى ابن قتيبة بعد أن قضى حياته فى خدمة الدين والادب سنة ست وسبعين ومائتين على الارجح[٣] ، وكانت وفاته فجأة ، صاح صيحة سمعت من بعد ثم أغمى عليه ، ومات . وقيل أنه أكل هريسة فأصابته حرارة ثم صاح صيحة شديدة ثم أغمى عليه الى وقت الظهر ثم اضطرب ساعة ثم هدأ .

(١) الانساب — ٢٣٨ ط أوربا .

(٢) وفيات الأعيان — ٢ /٢٤٦ ط محى الدين .

(٣) اختلفت المصادر فى سنة وفاته بين ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٦ .
راجع (ابن خلكان) طبع باريس ١ /٣٥٤ و (تاريخ بغداد) طبع السعادة ١٩٣١ ، ١٠ /١٧٠ — ٦٧١ .

٢ — ثقافته وآراؤه وعقائده

ذكرنا عند الكلام عن ثقافة العصر أن المعتزلة أثاروا حركة فكرية واسعة فى عصر المأمون والمعتصم ، وأن كثيرا من الكتب اليونانية وغيرها من مختلف الثقافات قد نقلت الى العربية وأثرت تأثيرا عظيما فى ثقافة العصر وثمراته الباقية ، وأشرنا الى النضال الفكرى بين المعتزلة وأهل السنة ، ولما كان ابن قتيبة أحد أبطال ذلك النضال ، فينبغى أن نقف عنده لنتعرف الى جوانبه .

اتجه ابن قتيبة فى مطلع حياته الى علم الكلام ، واجتذبته أضواؤه ، فجلس الى كثير من علماء المتكلمين وأخذ عنهم واغتر بكلامهم فقد قال : « وقد كنت فى عنفوان الشباب وتطلب الاداب أحب أن أتعلق من كل علم بسبب ، وأن أضرب فيه بسهم ، فربما حضرت بعض مجالسهم ، وأنا مغتربهم طامع أن أصدر عنه بفائدة أو كلمة تدل على خير أو تهدى لرشد ، فأرى من جرأتهم على الله تعالى ، وقلة توقيهم ، وحملهم أنفسهم على العظائم لطرد القياس أولئلا يقع انقطاع ، ما أرجع معه خاسرا نادما »[١] .

وقد أفاد اطلاعه على آراء المتكلمين فى جدله معهم ، اذ قارعهم الحجة بالحجة وكال لهم بالكيل الذى كالوا به لاهل السنة والحديث ، وتأثر ابن قتيبة بآراء أبى حاتم السجستانى وشيخه المحدث اسحاق بن راهوية ودافع عنها[٢] .

ويبدو أنه كان ملما بالفارسية[٣] ، مطلعا على كثير مما جاء فى الكتب السماوية مترجما فقد استشهد فى كثير من آرائه بما جاء فى التوراة والانجيل .

وفى كتبه دلائل على المامه بالفلسفة ، منها ما ينقله عن أرسطو صاحب المنطق كما ينقل عنه بعض المعلومات فى الطبيعة كأن يقول « وكيف لا يعجبون من حجر يجذب الحديد من بُعد ويطيعه حتى يذهب به يمينا وشمالا بذهابه ، وهذا حجر المغناطيس وكيف صدَّقوا بقول أرسطاليس فى حجر المستقبل أنه

---

(١) تأويل مختلف الحديث — ص ٧٤ .

(٢) تأويل مختلف الحديث — ص ٦٥ .

(٣) كثيرا ما يذكر فى كتبه (قرأت فى كتب العجم كذا وكذا) .

اذا ربط على بطن صاحب الاستسقاء نشف منه الماء .... الخ[١] . كما أنه يذكر في تأويل مختلف الحديث « أنه اتصل بأيوب المتطيب ، وحنين بن اسحاق .

واختلطت دراساته الفلسفية ، والمنقولة عن العجم واليونان بآرائه الدينية ، مع أنه كان من المنتصرين لأهل السنة المدافعين عن مبادئهم وآرائهم ، فقد اتهمه بعضهم بالخروج . قال الذهبي[٢] : « وقال الحاكم أجمعت الامة على أن القتبي كذاب ، واتهم بأنه كان خبيث اللسان يقع فى كبار العلماء »[٣] . كما أتهم بأنه منحرف عن العترة ، وأنه يميل الى التشبيه ، ويرى رأى الكرامية الذين يغالون فى التشبيه والتجسيم . قال الذهبي : « قال البيهقي كان يرى رأى الكرامية »[٤] .

ولم يرض عنه أنصار الفلسفة ، وساءهم هجومه عليها وتقليله من شأنها ، فاتهم بالجهل بها وعدم المعرفة .

ولكنه على الرغم من تلك الاتهامات التى وجهت اليه ظل محتفظا بمكانته العلمية الرفيعة . وظل يُمَاثِل لجاحظ فى أهل السنة ، ولم ينس فضله جماعة من فضلاء المؤرخين فأشادوا به . ومن هؤلاء الخطيب البغدادى ، والحافظ الذهبى ، والسيوطى — وقد سخر من قول الحاكم « اجتمعت الامة عى أنه كذاب » فقال : « وما أعلم الامة اجتمعت الا على كذب الدجال ومسيلمة »[٥] . وقدره ابن تيمية حق قدره ، ووضعه فى المكان اللائق ونفى عنه ما وجه إليه من طعن وتجريح ودفَعَ عنه تهمة التشبيه وقوله بآراء الكرامية واعترف بأنه أمام أهل السنة فى زمن كان الجاحظ فيه إمام المعتزلة وخطيبهم قال : « وكان أهل المغرب يعظمونه ويقولون من استجاز الوقيعة فى ابن قتيبة يتهم بالزندقة ، ويقولون : كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه لا خير فيه[٦] .

وذكر يوهان فك فى « العربية » أنه أبرز الادباء الممثلين للتجديد السني[٧] .

(١) أدب الكاتب ، وشرح أدب الكتاب — للبطليوسى — ص ٤٣٨ .
(٢) مقدمة « الاشربة » لمحمد كرد على — ص ٢ .
(٣) نفس المصدر — ص ٥ .
(٤) ميزان الاعتدال .
(٥) بغية الوعاة .
(٦) تفسير سورة الاخلاص لابن تيمية — ص ١٣٣ ط المنيرية بمصر /سنة ١٣٥٢ .
(٧) العربية — ص ١٣١ .

ويعتبر ابن قتيبة كاتب أهل السنة فى النصف الاخير من القرن الثالث ، فقد ألف كثيرا من الكتب تناول فيها قضية السنة والحديث ، وما وجه اليهما من اتهامات على أيدى المعتزلة ، وانتصر للمذهب ، وللمحدثين ومناهجهم فى العلم والعقيدة ، وأظهر هذه الكتب وأسيرها كتاب « تاويل مختلف الحديث » ، « والاختلاف فى اللفظ والرد على الجهمية والمشبِّهة » و « المسائل والأجوبة » .

والأساس الذى تقوم عليه آراؤه هنا لا تتضح حتى نعرض لما كان يوجهه المعتزلة لاهل السنة من اتهامات ، فقد عرف المعتزلة بأنهم أهل التوحيد والعدل لانها أصل عقيدتهم الفكرية أو الدينية ، والتوحيد عندهم أن الله واحد منزه عن الخلق لا يشبه شيئا ولا يشبهه شىء ، وكل ما يمس هذا الاعتقاد من قريب أو بعيد عندهم فهو باطل مشكوك فيه ، ويتفرع على هذا أن الله تعالى لا تنفصل صفاته عن ذاته ، ولا يجوز أن يشبه خلقه فى شىء من تلك الصفات ، لذلك تأولوا ما جاء فى القرآن من ألفاظ قد توحى بغير عقيدتهم . ويرى أهل السنة التسليم بما جاء فى القرآن والحديث كما هو لا يتأولونه ، وهم وراء هذا يرون أن صفات الله تعالى منفصلة عن ذاته ، فالله عالم بعلم وقادر بقدرة . وقد يوضح هذا الخلاف ما ذكره الطبرى فى تفسير قوله تعالى : (وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان) قال : وقد اختلف أهل الجدل — وهم المتكلمون — فى تأويل قوله تعالى : (بل يداه مبسوطتان) قال بعضهم عنى باليد النعمة أو القوة أو الملك ، وقال آخرون : بل يد الله صفة من صفاته ، هى يد غير أنها ليست بجارحة ، واستدلوا على استحالة المعنى الأول بأدلة منها قالوا : وذلك أن الله — تعالى ذكره — أخبر عن خصوصية آدم بما خصه من خلقه اياه بيده ، وكان لخصوصية آدم بذلك وجه مفهوم ، اذ كان جميع خلقه مخلوقين بقدرته ، ومشيئته فى خلقه نعمه ، وهو لجميعهم مالك . قالوا : واذا كان — تعالى ذكره — قد خص آدم بذكره خلقه اياه بيده دون غيره من عباده ، كان معلوما أنه انما خصه لمعنى فارق غيره من سائر الخلق ، واذا كان كذلك بطل قول من قال : معنى اليد من الله القوة أو النعمة أو الملك »[1] .

(١) تفسير الطبرى — وراجع « مذاهب التفسير » لجولد تسيهر — ص ٩٥ .
« واضح من هذا القول التهافت والجدل العقيم » .

وأما مبدأ العدل أن الله عادل لم يخلق الناس وهو مقدر لما يعملون من خير أو شر ، والا ما كان ثواب الجنة وعذاب النار ، فأعمال الانسان فى الحياة باختياره ، ليس من العدل نسبتها للقدر . وانما غاية الامر أن الله تعالى يصطفى من عباده الاخيار ممن يرضى عنهم فيهبهم اللطف الذى يعينهم على السير فى طريق الخير ، ويحجبه عن عبادة الذين لا يرضى عنهم فيسيرون كما توحى لهم أنفسهم . .

ويرى أهل السنة عكس ذلك ، وأن القدر يتدخل فى أعمال الانسان ، لذلك سموا المعتزلة بالقدرية ، لانهم نسبوا القدر الى أنفسهم .

تلك هى الاصول ، وأما الفروع فما اختلفوا فيه منها القول فى اعجاز القرآن ، فقد خرج النظام على جماعة المسلمين برأى فى الاعجاز مؤداه أن القرآن معجز لان الله صرف الخلق عن الاتيان بمثله قال الشهرستانى : « إنه كان يرى أن إعجاز القرآن من حيث الاخبار عن الامور الماضية والآتية ومن جهة صرف الدواعى عن المعارضة ومنع العرب من الاهتمام به جبرا وتعجيزا ، حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظما »[١] .

وقال الجاحظ تلميذه : ان النظام وأصحابه كانوا يزعمون أن القرآن حق ، وليس تأليفه بحجة ، وأنه تنزيل وليس ببرهان[٢] .

ويرى أكثر المعتزلة وأهل السنة أن القرآن معجز ببيانه وأسلوبه الرائع الذى لا تستطيعه العرب ، والذى ظهر عجزهم عنه منذ عهد النبى ﷺ . يقول الجاحظ أن معجزة النبى فى القرآن كانت قاطعة ، وكان موقعها فى العقل كموقع فلق البحر بالنسبة للعين[٣] كما يذكر أن العرب لم يقدروا على الاتيان بمثله عجزا ووهنا ، لا تهاونا ولا تغافلا لان الاتيان بمثل أصغر سورة منه كان كفيلا بأن يكفيهم شر قتل الانفس والاولاد . ثم يرى أن الاعجاز متصل بالنظم وحده ، أى الاسلوب ، بصرف النظر عن معانيه[٤] .

(١) الملل والنحل — طبع ليزج — ص ٣٩ .
(٢) رسائل الجاحظ ، طبع السندوبى — ص ١٤٧ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٤٣ .
(٤) أثر القرآن فى تطور النقد — لمحمد زغلول سلام — ص ٧٥ .

وتعرض كثير من العلماء فى عصر الجاحظ لاعجاز القرآن من ناحية نظمه وبيانه وتعرض ابن قتيبة من وجهة نظر أهل السنة لهذه المسألة فى كتابه « مشكل القرآن » على ما سنعرض له عند تحليل الكتاب .

وكان الخلاف بينهم حول تفسير ما جاء فى القرآن من آيات المجاز والتشبيه والاستعارة وما يمثلها كذلك فى الحديث : قال الجاحظ فى تفسير قوله تعالى : (انها شجرة تنبت فى أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشياطين) ، وليس أن الناس رأوا شيطانا قط على صورة ولكن لما كان الله تعالى قد جعل فى طباع جميع الامم استقباح جميع صور الشياطين واستسماجه وكراهيته وقد أجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل فى ذلك ، رجع بالإنحاء والتنفير ، وبالاخافة والتقريع إلى ما قد جعله الله فى طباع الاولين والآخرين وعند جميع الامم على خلاف طبائع جميع الامم ، وهذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين أن رءوس الشياطين نبات ينبت باليمن[1] . وقال : « والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير » وقال النظام : لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين » .

واختلف ابن قتيبة مع المعتزلة والجاحظ ، فانه كان يرى كما قلنا رأى مذهبه ولا يحاول أن يبعد فى التأويل ، بل يفسر فى حدود النص تفسيرا لغويا محدودا على قدر ما تسمح به معانى الالفاظ الظاهرة . وقد اهتم بالتشبيه والتجسيم ، ولعل ذلك راجع الى بعض ما أورده فى كتابه « تأويل مختلف الحديث » ولكنه أوضح موقفه بصورة ناضجة فى « تأويل مشكل القرآن » ، فهو فيه معتدل لا يأخذ بمذهب أصحاب الظاهر من اللغويين ، كما ينفى تفسير المشبهة ، ويعرض فى كتاب « الرد على الجهمية والمشبه» ما انزلق اليه هؤلاء من أخطاء .

وعارض المعتزلة المحدثين حول ما يمكن الاعتماد عليه من الحديث ، فكان عمرو بن عبيد لا يثق بهم[3] . وقد ذكر ابن قتيبة أنهم اتهموا أهل الحديث بالكذب والتناقض وأن النظام أنكر حجية الاجماع ، وغلب عليه القياس المنطقى ، والجواز العقلى ، كما أنهم نالوا من المحدثين بالسخرية ، والاتهام

(١) الحيوان — ٤ /٣٩ .
(٢) نفس المصدر — ٦ /٢١٢ .
(٣) أثر القرآن فى تطور النقد — ص ٦٧ .

بالجهل وقلة المعرفة بالشعر واللغة ، أو بأنهم « أجهل الناس بما يحملون وأنذر الناس حظا فيما يطلبون » وقالوا فى ذلك :

زوامل فى الاشعار لا علم عندهم بجيدها الا كعلم الاباعر
لعمرك ما يدرى البعير اذا غدا بأحماله ، أرواح ، ما فى الغرائر

وأنهم قنعوا من العلم برسمه ، ومن الحديث باسمه . ورضوا بأن يقولوا : فلان عارف بالطرق راوية للحديث ، وزهدوا فى أن يقال : عالم بما كتب أو عامل بما علم »[1] .

ويرد ابن قتيبة على هذه الآراء ردا شاملا جامعا فيرى : « أن معانى الكتاب والحديث وما أودعاه من لطائف الحكمة وغرائب اللغة لا يدرك بالطفرة والتولد والعرض والجوهر ، والكيفية والكمية ، والاينية ، ولو ردوا المشكل منها الى أهل العلم بها ، وضح لهم المنهج واتسع لهم المخرج[2] . وعنده أن اطلاق الامر للرأى والقياس فى المسائل الدينية الدقيقة مثل صفات الله تعالى ، وقدرته ، ونعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار يدعو الى الخلاف والزيغ والاحسن فيها أن نلجأ إلى الحديث ونؤمن بما جاء به متعلقا بها ، لانها فى رأيه « أمور لا يعلمها نبى إلا بوحى من الله تعالى »[3] .

وبالرغم من دفاع ابن قتيبة عن الحديث ، فانه لم يكن محدثا بالمعنى المعروف قال الحافظ الذهبى : « أبو محمد صاحب التصانيف صدوق قليل الرواية »[4] ، وقال: « ابن قتيبة من أوعية العلم ، لكنه قليل العمل فى الحديث »[5] وله كتاب فى « غريب الحديث » وآخر فى « اصلاح الغلط فى غريب الحديث لابى عبيد » .

وكان يذهب فى الفروع مذهب أحمد بن حنبل : فقد عاصره وأخذ عنه ، قال ابن تيمية : « ابن قتيبة من المنتسبين الى أحمد »[6] .

(١) تأويل مختلف الحديث — ص ١٠ — ١١ .
(٢) تأويل مختلف الحديث — ص ١١١ .
(٣) نفس المصدر — ص ٧٧ .
(٤) ميزان الاعتدال — ٢ /٧٧ .
(٥) تذكرة الحفاظ — ٢ /١٨ .
(٦) تفسير سورة الاخلاص — ص ١٢١ .

٣ — بين ابن قتيبة والجاحظ

ذكر ابن قتيبة أنه أخذ عن الجاحظ وأنه أجازه ببعض كتبه(١) ، وقال ابن تيمية : ويقال هو لاهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة ، فانه خطيب السنة ، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة . وقد ذكر محمد كرد على فى مقدمة كتاب « الأشربة » ما كان بين ابن قتيبة والجاحظ ، وكيف أنه عنف فى ردوده على الجاحظ ، واتهمه بالكذب ، وكان فيما يبدو مندفعا فى حمية الذود عن آرائه وآراء شيوخه وأصحابه ، فأفلتت منه عبارات فيها عنف وتجريح لعالم جليل وأستاذ من أساتذة الفكر العربى . قال فى شأنه : « ثم نصير الى الجاحظ وهو آخر المتكلمين والمعاير على المتقدمين وأحسنهم للحجة استثارة ، وأشدهم تلطفا لتعظيم الصغير حتى يعظم وتصغير العظيم حتى يصغر ، ويبلغ به الاقتدار الى أن يعمل الشىء ونقيضه ، ويحتج لفضل السودان على البيضان وتراه يحتج مرة للعثمانية على الرافضة ، ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة ، ومرة يفضل عليا رضى الله عنه ، ومرة يؤخره ، ويقول : قال رسول الله ﷺ ، ويتبعه قال الجماز وقال اسماعيل بن غزوان كذا وكذا من الفواحش ، ويجل رسول الله ﷺ عن أن يذكر فى كتاب ذكرا فيه ، فكيف فى ورقة أو بعد سطر وسطرين ، ويعمل كتابا يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين ، فاذا صار الى الرد عليهم تجوز فى الحجة ، كأنه انما أراد تنبيههم على مالا يعرفون وتشكيك الضعفة من المسلمين ، وتجده يقصد فى كتبه للمضاحيك والعبث ، يريد بذلك استمالة الاحداث وشراب النبيذ ، ويستهزىء من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم — وهو مع هذا من أكذب الامة وأوضعهم لحديث وأنصرهم لباطل »(٢) .

---

(١) عيون الاخبار — جـ ٣ — ص ١٩٩ .

(٢) تأويل مختلف الحديث — ٧١ — ٧٢ .

٤ — تأثره وتأثيره

وتنوعت دراسات ابن قتيبة اللغوية ، وقد سبق ذكرنا لاساتذته فى هذا الميدان . ولعل من أبرزهم أبا حاتم السجستانى تلميذ الاصمعى ، وروى عن الكوفيين ، وأخذ عن البصريين وخلط بين المذهبين . قال ابن النديم : « انه كان يغلو فى البصريين الا أنه خلط فى كتبه عن الكوفيين وكان صادقا فيما يرويه عالما باللغة والنحو »[١] . وكان البطليوسى يقول إنه ذو مذهب ضعيف فى النحو[٢] ، وهو مع ذلك — كما عده السيوطى — من النحويين[٣] ويعتبر اماما لمدرسة بغداد التى مزجت بين آراء الكوفة والبصرة[٤] .

والباحث فى كتبه يرى أنه يستشهد بآراء علماء المدينتين ، ويختار لنفسه مذهبا بينهما وتارة يفضل آراء علماء أحد الفريقين ، وترى هذا كثيرا فى كتبه ، فهو يفضل آنا رأى أبى حاتم ، وآنا آخر رأى أبن السكيت ، وتارة يأخذ بما قال الفراء ، وتارة بما قال الكِسَائى .

وذكر الازهرى ما ألفه ابن قتيبة فى اللغة ، وما رد به على علمائها ، فقال : « وأما أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى ، فانه ألف كتبا فى مشكل القرآن وغريبه ، وألف كتاب « غريب الحديث » ، وكتابا فى الأنواء ، وكتابا فى أدب الكتبة ، ورد على أبى عبيد حرَوفًا فى غريب الحديث سماها « اصلاح الغلط » ، وقد تصفحتها كلها ، ووقفت على الحروف التى غلط فيها ، وعلى الاكثر الذى أصاب فيه . فأما الحروف التى غلط فيها فانى أثبتها فى مواقعها من كتابى ، ودللت على موضع الصواب فيما غلط فيه . وما رأيت أحدا يدفعه عن الصدق فيما يرويه عن أبى حاتم السِّجستانى ، والعباس بن الفرج الرياشى ، وأبى سعيد المكفوف البغدادى . فأما ما يستبد فيه برأيه ، من معنى غامض أو حرف من علل التصريف والنحو مشكل ، أو حرف غريب ، فانه ربما زل فيما لا يخفى على من له أدنى معرفة . وألفيته يحدث بالظن فيما لا يعرفه

---

(١) الفهرست — ص ٧٧ — ٧٨ .
(٢) الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب — ٢٣
(٣) بغية الوعاة — ٢٩١ .
(٤) دائرة المعارف الاسلامية — م ٢٦٠ .

ولا يحسنه ، ورأيت أبا بكر ابن الانبارى ينسبه إلى الغفلة والغباوة وقلة المعرفة ، وقد رد عليه قريبا من ربع ما ألفه من مشكل القرآن »[1] .

ويذكر الازهرى فيما يذكر أنه قيل عن ابن قتيبة أنه يروى عن سيبويه والاصمعى وأبى عمرو وهو لم ير منهم أحدا ، ولم ير فى هذا نقصا أو انحرافا لانه أخذ عن جماعة ممن حضروا عليهم »[2] .

وقد ترك لنا فى مجموعة كتبه ما يشهد على علو كعبه فى اللغة رواية ودراية ، ومنها « كتاب غريب الحديث » ، و « إصلاح الغلط فى غريب الحديث لابى عبيد » ، و « تفسير غريب القرآن » ، و « كتاب الأنواء » ، وكتاب « أدب الكاتب » .

وكان الى جانب علمه باللغة أديبا واسع الاطلاع ، صاحب ذوق وبيان ، جامعا لعلوم الادب بمعناه العام ، راوية للشعر وأخباره ، ملما بدقائقه ، محيطا بكثير من المعارف العامة التى ينبغى للاديب أن يتزود بها ، وكان فى كتبه الأدبية رجلا ذواقة يحسن الاختيار[3] ، ينظر فى الشعر برأى صائب ، ولم يحب تحكيم المنطق والعقل كما لم يمل للتعنت اللغوى ، بالصورة التى كان يلقى بها اللغويون شعر المحدثين ، وكان ذوقه الادبى رائده فى تفسير المشكل من آيات القرآن ، فكان يرجع للذوق العربى ولا يحكم القياس .

وقد جمع إلى جانب هذا وذاك كثيرا مما يتصل بثقافة الكاتب والاديب من معارف عامة،وسار على الدرب الذى انتهجه من قبل أبو عثمان الجاحظ ، وأبو حنيفة الدينورى ، ولذلك كان كثير من كتبه الادبية يدور حول تربية الملكة العربية و « تحبيب اللغة إلى الدارسين والشادين »[4] وكان يقصد من ورائها إلى ارشاد طبقة الكتاب وتعليمهم ، ووضع ثمرات ناضجة بين أيديهم يسهل عليهم هضمها والافادة منها ، ولعل كتابه « أدب الكاتب » خير ما يمثل هذا

---

(١) التهذيب — للازهرى — ص ١٣ .

(٢) راجع مقدمة « مشكل القرآن » بتحقيق السيد أحمد صقر — ص ٣٨ .

(٣) قيل فى حسن الاختيار :

قد عرفناك باختيارك اذ كا ... ن دليلا على اللبيب اختياره

(٤) محمد كرد على فى مقدمة « الاشربة » — ص ٦ .

الاتجاه الداعى إلى ثقافة الكتاب . يقول فى مقدمته « فانى رأيت كثيرا من كتاب زماننا كسائر أهله قد استطابوا الدعة واستوطأوا مركب العجز وأعفوا أنفسهم من كد النظر وقلوبهم من تعب التفكير .. الخ . ولهذا يقول : « فلما رأيت هذا الشأن كل يوم الى نقصان ، وخشيت أن يذهب رسمه ، ويعفو أثره جعلت له حظا من غايتى وجزءا من تأليفى ، فعملت لمغفل التأديب كتبا حِسَاناً فى المعرفة وفى تقويم اللسان واليد، يشتمل كل كتاب منها على فن ، وأعفيته من التطويل والتثقيل لأنشَطَهُ لتحفظه ودراسته »[1] .

وقد أعجب الناس بكتبه الادبية ، ذكر السمعانى أن الامير أبا نصر الميكالى قال : « تذاكرنا المتنزهات يوما ، وابن دريد حاضر ، فقال بعضهم : أنزه الاماكن غوطة دمشق وقال آخرون : بل نهر الأُبلة . وقال آخرون : بل سغد سمرقند ، وقال بعضهم : نهروان بغداد وقال بعضهم : شعب بوان بأرض فارس ، وقال بعضهم : نوبهار بلخ فقال هذه متنزهات العيون ، فأين أنتم من متنزهات القلوب ؟ .. قلنا : وما هى يا أبانصرْ ؟ قال «عيون الأخبار» للقتيبى والزهرة لابن داود[2] .

وقد عد ابن خلدون كتابه « أدب الكاتب » من دواوين الادب الأربعة .

وكثرت مؤلفات ابن قتيبة فى مختلف علوم الدين واللغة والادب حتى أربت على الخمسين فى قول كثير من العلماء ، وزادها بعضهم إلى ستين ونيف وبلغ بها آخرون زهاء ثلاثمائة[3] .

---

(١) مقدمة « أدب الكاتب » .
(٢) « الأشربة » نشر محمد كرد على — ص ٩ .
(٣) تفسير سورة الاخلاص — ١٢٠ /١٢١ .

منتخبات من آثار ابن قتيبة

أ ـــ ابن قتيبة الفقيه العالم

فضل القرآن

وإنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره ، واتسع علمه ، وفهم مذاهب العرب وافتنانها فى الأساليب ، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات ، فإنه ليس فى جميع الأمم أمةٌ أوتيت من العارضة[١] ، والبيان ، واتساع المجال ، ما أوتيته العرب خصيصى من الله لما أرهصه فى الرسول ، وأراده من إقامة الدليل على نبوته بالكتاب ، فجعل علمه كما جعل علم كل نبي من المرسلين من أشبه الأمور بما فى زمانه المبعوث فيه .

فكان لموسى فلق البحر ، واليد ، والعصا ، وتفجر الحجر فى التيه بالماء الرواء[٢] ، إلى سائر أعلامه زمن السحر .

وكان لعيسى إحياء الموتى ، وخلق الطير من الطين ، وإبراءُ الأكمه والأبرص ، إلى سائر أعلامه زمن الطب .

وكان لمحمد ﷺ الكتاب الذى لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لم يأتوا به ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، إلى سائر أعلامه زمن البيان[٣] .

وللعرب المجازات فى الكلام ، ومعناها طرق القول ومآخذه ، ففيها الاستعارة والتمثيل ، والقلب ، والتقديم ، والتأخير ، والحذف ، والتكرار ، والإخفاء ، والإظهار ، والتعرض ، والإفصاح ، والكناية والإيضاح ، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع ، والجيمع خطاب الواحد ، والواحد والجميع خطاب الاثنين ، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم ، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص ...

---

(١) العارضة : قوة الكلام والرأى الجيد .

(٢) الرّواء : العذب .

(٣) مشكل المقدمة .

وبكل هذه المذاهب نزل القرآن، ولذلك لا يقدر أحدٌ من التراجم على أن ينقله إلى شيءٍ من الألسنة كما نقل الإنجيل من السريانية إلى الحبشية والرومية، وترجمت التوراة والزبور، وسائر كتب الله تعالى بالعربية، لأن العجم لم تتسع فى المجاز اتساع العرب.

ألا ترى أنك لو أردت أن تنقل قوله تعالى: ﴿ وإمَّا تخافَنَّ من قومٍ خيانةً فانْبِذْ إليهم على سَواءٍ ﴾ لم تستطع أن تأتى بهذه الألفاظ مؤديةً عن المعنى الذى أودعته حتى تبسط مجموعها، وتصل مقطوعها وتظهر مستورها فتقول: إن كان بينك وبين قوم هدنةٌ وعهدٌ فخفت منهم خيانةً ونقضاً فأعلمهم أنك قد نقضت ما شرطت لهم، وآذنهم بالحرب، لتكون أنتِ وهم فى العلم بالنقض على استواء.

الاحتجاج للقرآن[1]

فأما ما نحلوه من التناقض فى مثل قوله تعالى: ﴿ فيومَئِذٍ لا يُسْأَلُ عن ذنبه إنْسٌ ولا جَانٌّ ﴾. وهو يقول فى موضعٍ آخر: ﴿ فوربِّكَ لنسألنَّهُم أجْمَعينَ عمَّا كانوا يَعْمَلُون ﴾ فالجواب فى ذلك أن يوم القيامة يكون كما قال الله تعالى: ﴿ مقدارُه خمسينَ ألفَ سَنَةٍ ﴾ ففى مثل هذا اليوم يسألون، وفيه لا يسألون، لأنهم حين يعرضون يوقفون على الذنوب ويحاسبون، فإذا انتهت المسألة ووجبت الحجة: ﴿ انشقَّت السَّماءُ فكانتْ وَرْدَةً كالدِّهان ﴾ وانقطع الكلام، وذهب الخصام؛ واسودت وجوه قومٍ وابيضت وجوه آخرين، وعرف الفريقان بسيماهم وتطايرت الصحف من الأيدى، فآخذٌ ذات اليمين إلى الجنة، وآخذٌ ذات الشمال إلى النار، وكذلك قال ابن عباس رضى الله عنه فى قوله: ﴿ فيومئذٍ لا يُسْأَلُ عن ذنبه إنسٌ ولا جانٌّ ﴾ قال: هو موطنٌ لا يسألون فيه. ومثله: ﴿ ولا يُسألُ عن ذُنُوبِهم المجرِمُون ﴾ ..

وقوله: ﴿ قُلْ أئنَّكم لتكفُرون بالذى خَلَقَ الأرضَ فى يومَيْن، وتجعلونَ له أنْداداً ذلك ربُّ العالمين. وجَعَل فيها رواسِيَ من فوقها وبارك فيها وقَدَّرَ فيها أقواتَها فى أربعةِ أيامٍ سَواءً للسَّائِلِين. ثم استَوَى إلى السَّماء وهى دُخانٌ فقال لها

(١) راجع باب «التناقض والاختلاف» فى كتاب بيان شكل القرآن ص ٤٦ بتحقيق السيد أحمد صقر.

وللأرض ائتيا طَوْعاً أو كَرْهاً قالتا أتينا طائعين ﴾ فدلت هذه الآيات على أنه خلق الأرض قبل السماء .

وقال فى موضع آخر : ﴿ أمِ السَّماءُ بناها رَفَعَ سَمْكَهَا فسَوَّاها وأغْطَشَ لَيْلَها وأخْرَجَ ضُحاها والأرضَ بعد ذلك دَحَاها ﴾ ، فدلت هذه الآية على أنه خلق السماء قبل الأرض .

وليس على كتاب الله تحريف الجاهلين ، وغلط المتأولين ، وإنما كان يجد الطاعن متعلقاً ومقالاً لو قال : والأرض بعد ذلك خلقها بأو ابتدأها أو أنشأها ، وإنما : ﴿ دَحَاها ﴾ فابتدأ الخلق للأرض على ما فى الآى الأول فى يومين ، ثم خلق السماوات وكانت دخاناً فى يومين ثم دحا بعد ذلك الأرض أى بسطها ومدها ، وكانت ربوةً مجتمعةً ، وأرساها بالجبال وأنبت فيها النبات فى يومين ، فتلك ستةُ أيام سواءً للسائلين ، وهو معنى قول ابن عباس .

وقال مجاهد : « بعد ذلك » فى هذا الموضع ، بمعنى « مع ذلك » و « مع » و « بَعدَ » فى كلام العرب سواء ...

وأما قوله : ﴿ مَثَلُ الجنَّة التى وُعِدَ المُتَّقُونَ ﴾ ، ولم يأت بالشيءِ الذى جُعِلتُ له الجنة مثلاً ، فإن أصل المثل ما ذهبوا إليه من معنى المثل. تقول : هذا مثل الشيءِ ومثله ، كما تقول : هذا شبه الشيء وشبهه .

ثم قد يصير المثل بمعنى صورة الشيء وصفته ، وكذلك المثال والتمثال يقال للمرأة الرائقة : كأنها مثال ، وكأنها تمثال ، أى صورة ، كما يقال كأنها دمية ، أى صورة ، وإنما هى مثل ، وقد مثلت لك كذا أى صورته ووصفته .

فأراد الله بقوله : مثل الجنة ، أى صورتها وصفتها .

وروى أن علياً رحمه الله كان يقرأُ : مثال الجنة ، وهو بمنزلة مثلي ، إلا أنه أوضح وأقرب فى إفهام الناس إلى المعنى الذى تأولناه فى مثل .

ونحوه قوله : ﴿ محمَّدٌرسوُلُالله والَّذين معه أشِدَّاءُ على الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بينهمْ تراهم رُكَّعاً سُجّداً يَبتغُونَ فَضْلاً من الله ورِضْواناً ، سِيماهُم فى وجوهِهِمْ من أثَرِ السُّجُود ﴾ ، ثم قال : ﴿ ذلك مَثَلُهم فى التَّوْراةِ ومَثَلُهم فى الإنجيل ﴾ أى

ذلك وصفهم لأنه يضرب لهم مثلاً فى أول الكلام ، فيقول : ﴿ ذلك مَثَلُهم ﴾ وإنما وصفهم وحلاهم ثم قال : ذلك مثلهم أى وصفهم .

وقوله : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاستَمِعُوا له ﴾ ، ثم قال : ﴿ إن الذينَ تَدْعُون من دونِ الله لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً ولو اجْتَمَعُوا له ﴾ ، ولم يأت بالمثل ، لأن فى الكلام معناه ، كأنه قال : يا أيها الناس مثلكم مثل من عبد آلهة اجتمعت لأن تخلق ذباباً فلم تقدر عليه ، وسلبها الذباب شيئاً فلم تستنفذه منه[1] ...

متشابه القرآن[1]

وأما قولهم : ماذا أراد بإنزال المتشابه فى القرآن ، من أراد بالقرآن لعباده الهدى والتبيان ؟

فالجواب عنه : أن القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها ، ومذاهبها فى الإيجاز والاختصار والإطالة والتوكيد ، والإشارة إلى الشىء ، وإغماض بعض المعانى حتى لا يظهر عليه إلا اللَّقِنُ[2] ، وإظهار بعضها ، وضرب الأمثال لما خفى .

ولو كان القرآن كله ظاهراً مكشوفاً حتى يستوى فى معرفته العالم والجاهل ، لبطل التفاضل بين الناس ، وسقطت المحنة ، وماتت الخواطر .

ومع الحاجة تقع الفكرة والحيلة ، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة وقالوا : عيب الغنى أنه يورث البله ، وفضيلة الفقر أنه يبعث الحيلة .

وقال أكثم بن صيفى : ما يسرنى أنى مكفىٌّ كل أمر الدنيا . قيل له : ولم ؟ قال : أكره عادة العجز .

وكل بابٍ من أبواب العلم : من الفقه والحساب والفرائض والنحو فمنه ما يجل ، ومنه ما يدق ليرتقى المتَعَلِّمُ فيه رتبةً بعد رتبة ، حتى يبلغ منتهاه ، ويدرك أقصاه ، ولتكون للعالم فضيلة النظر ، وحسن الاستخراج ، ولتقع المثوبة من الله على حسن العناية .

---

(١) بيان مشكل القرآن ص ٦٢ .

(٢) واللَّقِنُ : سريع الفهم .

ولو كان كل فن من العلوم شيئاً واحداً ، لم يكن عالمٌ ولا متعلم ، ولاخفيٌّ ولا جليٌّ ، لأن فضائل الأشياء تعرف بأضدادها ، فالخير يعرف بالشر ، والنفع بالضر ، والحلو بالمر ، والقليل بالكثير والصغير بالكبير ، والباطن بالظاهر .

وعلى هذا المثال كلام رسول الله ﷺ ، وكلام صحابته والتابعين ، وأشعار الشعراء ، وكلام الخطباء ، ليس منه شيءٌ ، إلا وقد يأتي فيه المعنى اللطيف الذى يتحير فيه العالم المتقدم ، ويقر بالقصور عنه النقاب المبرزُ ...

ولسنا ممن يزعم أن المتشابه فى القرآن لا يعلمه الراسخون فى العلم . وهذا غلطٌ من متأوليه على اللغة والمعنى . ولم ينزل الله شيئاً من القرآن إلا لينفع به عباده ، ويدل به على معنىً أرداه ؛ فلو كان المتشابه لا يعلمه غيره للزمنا للطاعن مقالٌ ، وتعلق علينا بعلة .

وهل يجوز لأحدٍ أن يقول : إن رسول الله ﷺ لم يكن يعرف المتشابه ؛ وإذا جاز أن يعرفه مع قول الله تعالى : ﴿ وما يعلمُ تأويلَهُ إلا الله ﴾ جاز أن يعرفه الربانيون من صَحابتِهِ ، فقد علم علياً التفسير ، ودعا لابن عباس فقال : « اللهم علمه التأويل ، وفقِّههُ فى الدين » ..

وبعد فإنا لم نر المفسرين توقفوا عن شيءٍ من القرآن فقالوا : هذا متشابهٌ لا يعلمه إلا الله ، بل أمرُّوهُ كله على التفسير ، حتى فسروا الحروف المقطعة فى أوائل السور مثل : آلر ، وحم ، وطه ، وأشباه ذلك[1] ....

القولُ فى المجاز

وأما المجاز فمن جهته غلط كثيرٌ من الناس فى التأويل ، وتشعبت بهم الطرق واختلفت النحل ، فالنصارى تذهب فى قول المسيح عليه السلام فى الإنجيل : « أدعو أبى ، وأذهب إلى أبى » وأشباه هذا ، إلى أبوة الولادة .

ولو كان المسيح قال هذا فى نفسه خاصةً دون غيره ، ما جاز لهم أن يتأولوه هذا التأويل فى « الله » — تبارك وتعالى عما يقولون علواً كبيراً — مع

---

(١) مشكل القرآن ص ٧٣ .

سعة المجاز ، فكيف وهو يقوله فى كثيرٍ من المواضع لغيره . كقوله حين فتح فاه بالوحى : « إذا تصدقت فلا تعلم شمالك بما فعلت يمينك فإن أباك الذى يرى الخفيات يجزيك به علانيةً ، وإذا صليتم فقولوا : يا أبانا الذى فى السماء ليتقدس اسمك ، وإذا صُمْتَ فاغسل وجهك وادهن رأسك لئلا يعلم بذلك غير أبيك » .

وقد قرأوا فى الزبور أن الله تبارك وتعالى قال لداود عليه السلام : « سيولد لك غلامٌ يسمى لى ابناً وأسمى له أباً » .

وفى التوراة أنه قال ليعقوب عليه السلام : « أنت بِكْرى » . وتأويل هذا أنه فى رحمته وبره وعطفه على عباده الصالحين ، كالأب الرحيم لولده . وكذلك قال المسيح للماء : « هذا أبى » ، وللخبز : « هذا أمى » ؛ لأن قوام الأبدان بهما ، وبقاء الروح عليهما ، فهما كالأبوين اللذين منهما النشأة وبحضانتهما النماءُ .

وكانت العرب تسمى الأرض أما لأنها مبتدأ الخلق ، وإليها مرجعهم ، ومنها أقواتهم وفيها كفايتهم . وقال أمية بن أبى الصلت :

والأرضُ مَعْقِلُنا وكانت أُمَّنا ... فيها مقابِرُنا وفيها نُولَدُ

وقال يذكرها :

منها خُلِقْنا وكانتْ أمَّنا خَلِقتْ ... ونحنُ أبناؤُها لو أنَّنا شكُرُ

هىَ القَرارُ فما نَبْغى لها بَدَلاً ... ما أرْحَمَ الأرضَ إلاَّ أنَّنا كُفُرُ

وقال الله تعالى فى الكافر : ﴿ فأُمُّه هاويةٌ ﴾ لما كانت الأم كافلة الولد وغاذيته ، ومأواه ومَرَبِّيَتَهُ ، وكانت النار للكافر كذلك — جعلها أمه..»[1]

« وأما الطاعنون على القرآن بالمجاز ، فإنهم زعموا أنه كذب ، لأن الجدار لا يريد ، والقرية لا تسأل .

وهذا من أشنع جهالاتهم ، وأدلها على سوء نظرهم وقلة أفهامهم . ولو كان المجاز كذباً ، وكل فعلٍ ينسب إلى غير الحيوان باطلاً — كان أكثر كلامنا فاسداً ؛ لأنا نقول : نبت البقل ، وطالت الشجرة ، وأينعت الثمرة ، وأقام الجبل ورخص السعر »[2] .

(١) بيان مشكل القرآن ص ٧٦ — ٧٧ .
(٢) المصدر نفسه ص ٩٩ .

وتقول : كان هذا الفعل منك فى وقت كذا وكذا ، والفعل لم يكن وإنما كُوِّنَ .

وتقول : كان الله ، وكان بمعنى حدث ، والله جل وعز قبل كل شيء بلا غاية ، لم يحدث فيكون بعد أن لم يكن ...

***

ولو قلنا للمنكر لقوله : ﴿ جداراً يريد أن ينقض ﴾ : كيف كنت أنت قائلاً فى جدارٍ رأيته على شفا انهيار : رأيت جداراً ماذا ؟ لم يجد بداً من أن يقول : جداراً يهم أن ينقض . وأياً ما قال فقد جعله فاعلاً ولا أحسبه يصل إلى هذا المعنى فى شيءٍ من لغات العجم إلا بمثل هذه الألفاظ .

وأنشدنى السجستانى عن أبى عبيدة فى مثل قول الله : ﴿ يريد أن ينقضّ ﴾ :

يُرِيدُ الرُّمحُ صَدْرَ أبى بَراءٍ ويَرغَبُ عن دِماءِ بَنِى عَقِيلِ

وأنشد الفراء :

إنَّ دَهْراً يَلُفُّ شَمْلي بِجُمْلٍ لزَمَانٌ يَهُمُّ بالإحسانِ

والعربُ تقول : بأرض فلانٍ شجرٌ قد صاح أى قد طال لمَّا تبيَّنَ الشجرُ للناظر بطوله ، ودل على نفسه ، جعله كأنه صائحٌ ؛ يدل على نفسه بصوته[1] ...

ومن أمثلة تفسيره ماجاء :

فى سورة سبأ[2]

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ﴾ .

تأويله : أن إبليس لما سأل الله تبارك وتعالى النَّظِرةَ فأنظره قال : لَأُغْوِيَنَّهُمْ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ[3] آذَانَ الأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ

---

(١) مشكل القرآن ص ١٠٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٤٠ .

(٣) البتك : القطع .

الله وَلَأَتَّخِذَنَّ مِنْهُمْ نَصِيباً مَفْرُوضاً ، وليس هو فى وقت هذه المقالة مستيقناً أن ما قدره الله فيهم يتم ، وإنما قاله ظاناً ، فلما اتبعوه وأطاعوه صدق ما ظنه عليهم أى فيهم ، ثم قال الله : وما كان تسليطنا إياه إلا لنعلم من يؤمن. أى المؤمنين من الشاكين .

وعلم الله تعالى نوعان :

أحدهما علم ما يكون من إيمان المؤمنين ، وكفر الكافرين ، وذنوب العاصين ، وطاعات المطيعين قبل أن تكون ؛ وهذا علم لا تجب به حجة ، ولا تقع عليه مَثوبةٌ ولا عقوبة .

والآخر : علم هذه الأمور ظاهرة موجودة ، فيحق القول ويقع بوقوعها الجزاء ، فأراد جل وعز : ما سلطناه عليهم إلا لنعلم إيمان المؤمنين ظاهراً موجوداً ، وكفر الكافرين ظاهراً موجوداً .

وكذلك قوله سبحـــانه : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾[1] أى يعلم جهاده وصبره موجوداً ، يجب له به الثواب .

وقوله سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾[2] .

تأويله أن المشركين قالوا : إن محمداً مجنونٌ وساحر ، وأشباه هذا من خرصهم[3] فقال الله جل وعز لنبيه ﷺ : قل لهم : اعتبروا أمرى بواحدة ، وهي أن تنصحوا لأنفسكم ، ولا يميل بكم هوىً عن حق فتقوموا لله وفى ذاته مقاماً يخلو فيه الرجل منكم بصاحبه فيقول له : هلم فلنتصادق ، هل رأينا بهذا الرجل جنة قط ، أو جربنا عليه كذباً ؟ فهذا موضع قيامهم مثنى .

---

(١) سورة آل عمران ١٤٢ .
(٢) سورة سبأ ٤٦ .
(٣) خرصهم : كذبهم أو ظنهم .

ثم يتفرد كل واحدٍ عن صاحبه ، فيفكر وينظر ويعتبر ، فهذا موضع قيامهم فرادى ، فإن فى ذلك ما دلهم على أنه نذير .

وكل من تحير فى أمرٍ قد اشتبه عليه واستبهم ، أخرجه من الحيرة فيه : أن يسأل ويناظر ثم يفكر ويعتبر .

ومن كتابِ « الأشربة » :

« القول فى الشراب »

وأما ما نذهب إليه ونراه عدلاً من القول ، خارجاً من الإفراط والتقصير ، فتحريم الخمر بالكتاب والسنة ، وكراهة ما أفتر وأخدر من الأشربة تأديباً . والمحرم شيئان : شيءٌ حرمه الله تعالى نصاً فى القرآن ، كالميتة ، والدم ولحم الخنزير ، والخمر ، وهذا فرضٌ على المسلمين أن يجتنبوه ولا يطعموه ، فمن طعم منه شيئا عامداً ، غير مستغفرٍ منه ولا نادمٍ عليه ، فالنار مثواه ، إلا أنْ تلحقه رحمة الله التى وسعت كل شيء ، وعفوه الذى لا ييأس منه إلا الكافرون .

ومثل هذا من المحرم الفرائض نحو الصلوات الخمس ، وزكاة المال ، وصوم شهر رمضان ، ليس لأحدٍ أن يترك من هذا شيئاً ، فمن تركه عامداً ، ثم لقى الله غير مستغفرٍ منه ولا نادمٍ ، فهو بحال الأول .

والمحرم الآخر ، شيءٌ حرمه رسول الله ﷺ ، كسباع الطير ، والوحش ، والحمر الأهلية ، وكتحريمه الحرير والذهب والديباج ، وهذا واجبٌ على المسلمين أن يحرموه ، وليس كوجوب الأول ، ولا التغليظ فيه على من خالف ، كالتغليظ فى الأول ، وقد أتت الرخص فى أوله كالقليل من الديباج يكون فى الثوب والقليل من الحرير .

وبعد المحرم بالسنة شيءٌ نهى رسول الله ﷺ عنه ، وأمر به على جهة التأديب ، فالعمل به فضيلةٌ ومثوبة ، وليس على تاركه عقوبةٌ ، كأمره بالتلحى ونهيه عن الامتعاط[1] . وكنهيه عن لحوم الجلالة[2] ، وعن كسب الحجام ، وهذا ليس مما حرم الله تعالى ، ولا مما حرم رسول الله ﷺ .

---

(١) من معط الشعر أى نتف .

(٢) الجلالة : البقرة تتبع النجاسات .

والأشربة بهذا السبيل ما حدها الخمر ، وهى محرمةٌ بكتاب الله تعالى ، كما حرمت الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، لا يحل منها قليلٌ ولا كثير ، حتى تفسد ويفارقها العرض الذى حرمها .

والخمر نوعان : أحدهما مجمعٌ عليه ، والآخر مختلفٌ فيه ، فأما المجمع عليه فهو ما غلا من عصير العنب من غير أن تصيبه النار ، أجمع المسلمون جميعاً على أن هذا خمرٌ لا يحل منه شىء ، ولا يستعمل بطعامٍ ولا شراب ، ولا دواء حتى ينقلب فيصير خلاً .

والجنس الآخر المختلف فيه ، هو نقيع الزبيب إذا اشتد ، ونقيع التمر إذا صلب ، وهو السكر ... يقول بعض الناس : ليس ذاك بخمر ... وقال آخرون : هو خمرٌ ، وهذا هو القول الأولى .

رأى ابن قتيبة فى الجاحظ

ثم نصير إلى الجاحظ وهو آخر المتكلمين ، والمعاير على المتقدمين ، وأحسنهم للحجة استثارةً ، وأشدهم تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يعظم ، وتصغير العظيم حتى يصغر . ويبلغ به الاقتدار إلى أن يعمل الشىء ونقيضه ، ويحتج لفضل السودان على البيضان ، وتجده يحتج مرةً للعثمانية على الرافضة ، ومرةً للزيدية على العثمانية وأهل السنة ، ومرةً يفضل علياً رضى الله عنه ، ومرةً يؤخره ، ويقول : قال رسول الله ﷺ ، ويتبعه قال الجمَّازُ ، وقال إسماعيل بن غزوان كذا وكذا من الفواحش . ويجل رسول الله ﷺ عن أن يذكر فى كتابٍ ذكرا فيه ، فكيف فى ورقةٍ ، أو بعد سطرٍ وسطرين . ويعمل كتاباً يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين ، فإذا صار إلى الرد عليهم تجوز فى الحجة كأنه إنما أراد تنبيههم على ما لا يعرفون ، وتشكيك الضعفة من المسلمين .

وتجده يقصد فى كتبه للمضاحيك والعبث ، يريد بذلك استمالة الأحداث وشراب النبيذ ، ويستهزىء من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم ، كذكره كبد الحوت وقرن الشيطان ، وذكر الحجر الأسود ، وأنه كان أبيض فسوده المشركون ، وكان يجب أن يبيضه المسلمون حين أسلموا ، ويذكر

الصحيفة التى كان فيها المنزل فى الرضاع تحت سرير عائشة فأكلتها الشاه ، وأشياء من أحاديث أهل الكتاب فى تنادم الديك والغراب ، ودفن الهدهد أمه فى رأسه ، وتسبيح الضفدع ، وطوق الحمامة وأشباه هذا مما سنذكره بعد إن شاءَالله ـــ وهو مع هذا من أكذب الأمة ، وأوضعهم لحديث ، وأنصرهم لباطل .

ومن علم رحمك الله أن كلامه من عمله قل إلا فيما ينفعه ، ومن أيقن أنه مسئول عما ألف ، وعما كتب لم يعمل الشيء وضده ، ولم يستفرغ مجهوده فى تثبيت الباطل عنده . وأنشدنى الرياشى :

ولا تكتبْ بخطِّك غيرَ شىءٍ　　يَسرُّكَ فى القيامةِ أن تراهُ[1]

ابن قتيبة العريف

تطرق ابن قتيبة فى بعض كتبه للتاريخ والمعارف العامة فنراه فى أحد الفصول من كتاب « المعارف » يذكر المساجد وتاريخها وكيفية بنائها ومنها[2] :

الكعبة

ذكر وهب بن منبه أن الله تبارك وتعالى ، لما أهبط آدم إلى الأرض ، حزن واشتد بكاؤه على الجنة ، فعزاه الله بخيمةٍ من خيام الجنة ، فوضعها له بمكة فى موضع الكعبة ، قبل أن تكون الكعبة ، وكانت الخيمة ياقوتةً حمراء من ياقوت الجنة ، فيها قناديل من ذهبٍ من تبر الجنة ، ونزل معها الركن يومئذ ، وهو ياقوتةٌ بيضاء ، وكان كرسياً لآدم يجلس عليه ، فلما كان الغرق زمن نوح عليه السلام ، رفع ومكثت الأرض خراباً ألفي سنة ، حتى أمر الله تبارك وتعالى إبراهيم أن يبنى بيته ، فجاءت السكينة كأنها سحابةٌ فيها رأسٌ يتكلم ، له وجه كوجه الإنسان ، فقالت : يا إبراهيم خذ ظلى فابن عليه ، فبنى هو وإسماعيل البيت ، ولم تزل خيمة آدم عليه السلام ، إلى أن قبض ، ثم رفعها الله إليه ، وبنى بنو آدم من بعده فى موضعها بيتاً من الطين والحجارة ، ثم نسفه الغرق

---

(١) تأويل مختلف الحديث .

(٢) ما جاء من حديث ابن قتيبة عن الكعبة يحتاج إلى توقف ونظر ولا يستطيع مفكرٌ فى ضوء منجزات العلم والعقل أن يسلّم بما جاء فى قول ابن قتيبة عن هذا الموضوع . وهذا الحديث من ابن قتيبة يرفع من درجة الجاحظ وأمثاله ، ويضع فى مقابله من درجة ابن قتيبة وأمثاله ، ويصل الجاحظ بفكر العصر ، بينما يبعد ابن قتيبة عنه .

فعفى مكانه ، حتى ابتعث الله تعالى إبراهيم عليه السلام ، وحفر عن قواعده وبناه على ظل الغمامة ، فهو أول بيتٍ وضع للناس ، وأول من كساه الأنطاع والبرود اليمانية ، أسعد أبو كرب الحميرى فقال :

وكَسَوْنا البيتَ الذى حَرَّمَ الله ملاءً معضَّـداً وبُرُودا

وبنته قريش قبل مبعث النبى ﷺ بخمس سنين ، وبناه عبد الله بن الزبير بعدما بويع له بالخلافة ، فلما قتل ابن الزبير ، نقض الحجاج بنيان ابن الزبير ، وبناه على الأساس الأول ، ثم وسع مسجد الكعبة أبو جعفر المنصور سنة ولى الخلافة ، ثم زاد فيه المهدى سنة ستين ومائة .

(حدثنى) أبو حاتم عن الأصمعى ، عن عمر بن قيس قال : فى البيت من الحجر سبع أذرع وأصابع ، أو قال وإصبعان ، قال وقال الأصمعى : قال أبو غرارة : الحجر الأسود على قدر الجدر ، يعنى ركن الكعبة الذى عند الملتزم ، وحدثنى عنه ، عن الأعمش عن مجاهد قال : المسعى ، ما بين دار عباد إلى بئر ابن مطعم ، ولكن الناس حفوه بالبناء . قال غير واحد : ذرع الكعبة أربعمائه وتسعون ذراعاً مكسورة وذكر قوم أن أبى بن سالم الكلبى ، ورد مكة وقريشٌ تبنى البيت ، وتشاجروا فى إخراج النفقة ، فسألهم أن يولوه ركناً من أركانه ، فولوه الربع الذى فيه الركن اليمانى ، فبناه فسمى اليمانى ، وقال شاعرهم :

لنا أيمنُ البيتِ الذى تعبدونَهُ وراثة ما بقى أبىّ بن سالمِ

وأكثر الناس على أنه سمى يمانياً لأنه من شق اليمن ، والمؤذنون فيه ولد أبى محذورة[1] .

ومن كتاب المعارف أيضاً :

بيت المقدس

ذكر وهب أن إسحق بن إبراهيم النبى عليهما السلام ، أمر يعقوب ابنه أن لا ينكح امرأةً من الكنعانيين ، وأن ينكح من بنات خاله لا بان بن ناهر بن آزر ، وكان مسكنه الفران[2] فتوجه إليه يعقوب ، فأدركه الليل فى بعض

---

(١) من كتاب « المعارف » ص ٢٤٤ .

(٢) الفرّان بالتشديد بلاد واسعة بالمغرب على حد قول الشارح .

الطريق ، فبات متوسدا حجراً ، فرأى فيما يرى النائم ، سلماً منصوباً إلى باب من أبواب السماء عند رأسه ، والملائكة تنزل منه ، وتعرج فيه ، وأوحى الله تبارك وتعالى ،إليه أنى أنا الله لا إله إلا أنا ، إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق ، وقد ورثتك هذه الأرض المقدسة وذريتك ، وباركت فيك وفيهم ، وجعلت فيكم الكتاب والحكمة والنبوة ، ثم إنى معك حتى أردك إلى هذا المكان ، وأجعله بيتاً تعبدنى فيه وذريتك ، فيقال إنه بيت المقدس ، وبناه داود ، وأتمه سليمان عليهما السلام ، ثم خرجه بُخْتَنَصَّرٌ ، فمر به عزيز ، فرآه خراباً والقرية ، فقال أنى يحيى هذه الله بعد موتها ، فأماته الله مائة عام ، وابتناه ملكٌ من ملوك فارس يقال له كورش(١) .

مسجد الكوفة

لما نزل المسلمون المدائن ، وطال بها مكثهم ، وآذاهم الغبار والذباب ، كتب عمر إلى سعد فى بعثه رواداً يرتادون منزلاً برياً بحرياً ، فإن العرب لا يصلحها من البلدان إلا ما أصلح الشاة والبعير ، فسأل من قبله عن هذه الصفة ، فأشار عليه من رأى العراق من وجوه العرب بلسان ، وهو ظهر الكوفة ، وكانت العرب تقول : أدلع البر لسانه فى الريف ، فما كان يلى الفرات منه فهو الملطاط ، وما كان يلى الطين منه فهو النجاف ، فكتب عمر إلى سعد يأمره به ، وكان نزولهم الكوفة سنة سبع عشرة ، فالبصرة أقدم منها بثلاث سنين ، وزياد بن أبى سفيان هو بانى مسجد الكوفة ، وروى فى بعض الحديث أن موضع مسجدها فار التنور(٢) .

الطوال

جال ابن قتيبة فى ميادين شتى من العلوم والمعارف وها هو ذا يسرد تاريخ الطوال من الرجال . يقول :

كان حبيب بن مسلمة الفهرى كالمشرف على دابة لطوله .

---

(١) كتاب « المعارف » ص ٢٤٥ . وكورش هذا هو الذى أعاد اليهود أو بنى إسرائيل من منفاهم ببابل بعد أن أسرهم بنو خذ نصّر . وواضح فى حديث ابن قتيبة نقله عن مصادر إسرائيلية أو غيرها غير موثقة ، وتعتمد على الرواية دون الوثائق والتاريخ الصحيح .

(٢) كتاب « المعارف » ص ٢٤٦ .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، كأنه راكب والناس يمشون لطوله .

والعباس بن عبد المطلب وكان يمشى فى الطوافِ كأنه عمارية على ناقةٍ والناس كلهم دونه .

وكان جرير بن عبد الله البجلى ، يتفل فى ذروة البعير من طوله ، وكانت نعله ذراعاً .

وكان عدى بن حاتم طويلاً إذا ركب الفرس كادت رجله تخط فى الأرض .

وكان قيس بن سعد طويلاً جسيماً ، وكتب ملك الروم إلى معاوية : أرسل إلى سراويل أجسم أطول رجلٍ عندك ، فقال معاوية ما أعلمه إلا قيس بن سعد ، فقال لقيس : إذا انصرفت فابعث إلىَّ سراويلك ، فخلعها ورمى بها إليه ، فقال : ألا بعثت بها من منزلك فقال :

أردتُ لكيلا يعلمَ النّاسُ أنّها سراويلُ قيسٍ والوفودُ شهودُ
وأنْ لا يقولَ النّاسُ بالظنّ إنّها سراويلُ عاديٍّ نَمَتْهُ ثَمودُ

وعبيد الله بن زياد ، كان طويلاً لا يرى ماشياً إلا ظنوه راكباً من طوله .

وكان على بن عبد الله بن العباس طويلاً جميلاً ، وعجب قومٌ من طوله ، فقال رجلٌ يا سبحان الله ! كيف نقص الناس. ولقد أدركت العباس يطوف بهذا البيت ، كأنه فسطاط أبيض ، فحدث بذلك على فقال : كنت إلى منكب أبى ، وكان أبى إلى منكب جدى .

وكان جبلة بن الأيهم ، آخر ملوك غسان ، طوله اثنا عشر شبراً ، وإذا ركب مسحت قدمه الأرض ، وأسلم فى خلافة عمر ، ثم تنصَّر بعد ذلك ولحق ببلاد الروم .

وكان عمارة بن عقبة الحنفى الخارجى ، طويلاً . ولما مات لم يجدوا سريراً يحملونه عليه ، فزادوا فى السرير ألواحاً ، وآمنه الحجاج فمات بالبصرة[1] .

---

(١) كتاب « المعارف » ص ٢٥٧ .

عنى ابن قتيبة بالآداب الإنسانية والقيم الاخلاقية وآداب السلوك وما إلى ذلك فجمع منها قسطاً وافراً فى بعض كتبه وفيما يلى نبذ من ذلك .

المحبة[1]

قال حدّثنى أحمد بن حنبل ، عن محمد بن بشار عن يحيى بن سعيد ، عن ثور بن يزيد ، عن حبيب بن عبيد ، عن المقدام بن معد يكرب ، وكان أدرك النبى ﷺ قال : قال النبى ﷺ : « إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه أنه يحبه » .

وحدثنى محمد بن دواد ، عن أبى الربيع ، عن حماد بن زيد ، عن ليث ، عن مجاهد قال : ثلاثٌ يصفين لك ود أخيك : أن تبدأه بالسلام إذا لقيته ، وتوسع له فى المجلس ، وتدعوه بأحب أسمائه إليه . وثلاثٌ من العِيّ : أن تعيب على الناس ما تأتى ، وأن ترى من الناس ما يخفى عليك من نفسك ، وأن تؤذى جليسك فيما لا يعنيك

وكان يقال : لا يكن حبك كلفاً ولا بغضك تلفاً ، أى لا تسرف فى حبك وبغضك . ونحوه قول الحسن أحبوا هوناً ، فإن أقواماً أفرطوا فى حب قوم فهلكوا وكان يقال من وجد دون أخيه ستراً فلا يَهْتِكْهُ

وقال عمر بن أبى ربيعة

أتاني هَواها قبلَ أن أعرف الهَوى فصادَفَ قَلْباً فارغاً فتمكّنا

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لطليحة الأسدى : قتلت عكاشة بن محصن ! لا يحبك قلبى ! .قال. فمعاشرةً جميلةً يا أمير المؤمنين ، فإنَّ الناس يتعاشرون على البغضاء

وكتب رجلٌ إلى صديقٍ له : الشوق إليك وإلى عهد أيامك ـــ التى حسنت بك كأنها أعياد ، وقصرت بك حتى كأنها ساعات ـــ يفوت الصفات . ومما جدد الشوق وكثر دواعيه ، تصاقب الدار ، وقرب الجوار ، تمم الله النعمة المتجددة فيك ، بالنظر إلى الغرة المباركة التى لا وحشة معها ولا أنس بعدها ... » .

(١) عيون الأخبار باب « المحبة » من كتاب الإخوان .

وكتب رجل إلى صديق له فى فصلٍ من كتاب : لسانى رطبٌ بذكرك ، ومكانك من قلبى معمورٌ بمحبتك . ونحوه قول معقل أخى أبى دلف لمخارق :

لعَمْرى لئن قرَّتْ بقربك أعينٌ لقد سخنَتْ بالبَيْن منك عيونُ
فسِرْ وأَقِمْ ، وقفٌ عليك مودَّتى مكانُك من قلبى عليك مَصُونُ

وقال رجلٌ لشبيب بن شيبة : والله أحبك ، قال : وما يمنعك من ذلك وما أنت لى بجارٍ ، ولا أخٍ ولا قرابة[1] ؟ يريد أن الحسد موكل بالأدنى فالأدنى .

قال رجلٌ لشهر بن حوشب : إنى لأحبك قال : ولم لا تحبنى وأنا أخوك فى كتاب الله ، ووزيرك على دين الله ، ومؤونتى على غيرك ! . قال بشار :

هل تعلمين وراء الحبِّ منزلةً تُدْنى إليكِ فإنَّ الحُبَّ أقصانى

وقال غيره[2] :

أُحِبُّكَ حُبَّينِ حُبَّ الهوى وحبٌ لأنَّكَ أهلٌ لِذاكا
فأمّا الذى هو حبُّ الهوى فشغلى بذكرك عمَّن سواكا
وأمّا الذى أنت أهلٌ لهُ فكشفُك لى الحُجْبَ حتى أراكا
فلا الحمدُ فى ذا ولا ذاك لى ولكنْ لك الحمدُ فى ذا وذاكا

ونحوه لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر :

فلستُ براءٍ عيبَ ذى الوُدِّ كله ولا بعضَ ما فيه إذا كنت راضيا
وعينُ الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ ولكنَّ عين السُّخطِ تُبدِى المساويا

قال أعرابى :

أُحِبُّكِ حبًّا لو بُليتِ ببعضِهِ أصَابكِ من وجدٍ علىَّ جُنونُ
لطيفٌ مع الأحشاءِ أمَّا نهارُهُ فسَبْتٌ وأمَّا لَيْلُه فأنينُ[3]

---

(١) ولا قرابة : أى ولا ذى قرابة ، وقد أنكر صاحب القاموس استعمال قرابة فى مثل هذا الموضع بدون اضافة . وتعقبه شارحه بأن استعماله بدون الاضافة جائز وورد فى فصيح الكلام من نثر وشعر .

(٢) تنسب الأبيات لرابعة العدوية فى العشق الإلهى .

(٣) السبت : السكون والراحة .

وكتب رجل إلى صديق له : الله يعلم أننى أحبك لنفسك فوق محبتى إياك لنفسى ، ولو أنى خيرت بين أمرين : أحدهما لى وعليك ، والآخر لك وعلى ، لأثرت المروءة وحسن الأحدوثة ، بإيثار حظك على حظى ، وإنى أحب وأبغض لك وأوالى وأعادى فيك ...

آداب الأكل والطعام

رأى رجلٌ رجلاً يأكل لحماً فقال : لحمٌ يأكل لحماً ، أفٍ لهذا عملاً !

وكان عمر يقول : إياكم وهذه المجازر فإن لها ضراوة[1] كضراوة الخمر .

يا بنى عود نفسك الأثرة[2] ، ومجاهدة الهوى والشهوة ، ولا تنهش نهش السباع ، ولا تخضم خضم البراذين، ولا تدمن الأكل إدمان النعاج ، ولا تلقم لقم الجمال ، فإن الله تعالى جعلك إنساناً وفضلك ، فلا تجعل نفسك بهيمةً ولا سبعاً ، واحذر سرعة الكظة[3] وسرف البطنة ...

يا بنى ، والله ما أدى حق الركوع والسجود ذو كظة ، ولا خشع لِلّهِ ذو بطنة ، والصوم مصحة ، والوجبات[4] عيش الصالحين .

أى بنى ، لأمرٍ ما طالت أعمار الهند ، وصحت أبدان الأعراب . فللّه در الحارث بن كلدة حيث يزعم أن الدواء هو الأزم[5] ، وأن الداء إدخال الطعام إثر الطعام .

أى بنى ، لم صفت أذهان الأعراب ، وصحت أبدان الرهبان ، مع طول الإقامة فى الصوامع ، حتى لم تعرف النقرس[6] ولا وجع المفاصل ، ولا الأورام ، إلا قلة الرزء[7] وخفة الزاد . وكيف لا ترغب فى تدبير يجمع

(١) الضراوة بالشىء : الولع به .
(٢) الأثرة : المكرمة لأنها تؤثر أى تذكر ويأثرها قرن عن قرن .
(٣) الكظة : الامتلاء من الطعام .
(٤) الوجبات : جمع وجبة وهى الأكلة ، فى اليوم والليلة .
(٥) الأزم : ألا تدخل طعاماً على طعام .
(٦) النقرس : سداء يأخذ فى الرجل .
(٧) الرزء : ما يصيبه الإنسان من الطعام .

لك صحة البدن ، وذكاء الذهن وصلاح المعى[1] ، وكثرة المال ، والقرب من عيش الملائكة !

أى بنى لم صار الضب أطول شىء ذماء[2] إلا لأنه يتبلغ بالنسيم .

أى بنى ، قد بلغت تسعين عاماً ما نغض[3] لى سن ، ولا انتشر[4] لى عصب ، ولا عرفت ذنين[5] أنف ، ولا سيلان عين ، ولا سلس بول ما لذلك علة إلا التخفيف من الزاد . فإن كنت تحب الحياة فهذه سبيل الحياة ، وإن كنت تريد الموت فلا يبعد الله إلا من ظلم نفسه .

وقال أبو نهشل : كانت لى أبنةٌ تجلس معى على المائدة ، فتبرز كفا كأنها طلعة ، وفى ذراع كأنه جمارة ، فلا تقع عينها على أكلةٍ نفيسة إلا خصتنى بها ، فزوجتها وصرت أجلس معى على المائدة ابناً لى فيبرز كفاً كأنها كرنافة ، فى ذراعٍ كأنه كربة ، فوالله ما إن تسبق عينى إلى لقمة طيبة إلا سبقت يده إليها[6] ...

الاستجاع بالرشوة والهدية

حدثنى زيد بن أخزم . عن عبد الله بن داود قال سمعت سفيان الثورى يقول : إذا أردت أن تتزوج فأهد للأم . والعرب تقول : من صانع[7] لم يحتشم من طلب الحاجة .

قال ميمون بن ميمون : إذا كانت حاجتك إلى كاتب فليكن رسولك الطمع .

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : نعم الشىءُ الهديَّةُ أمام الحاجة .

---

(١) المعى : المصارين .
(٢) الذماء : بقية النفس والحركة .
(٣) نغض : قلق وتحرك .
(٤) انتشر : انتفخ .
(٥) الزنين : المخاط الرقيق يسيل من الأنف .
(٦) عيون الأخبار « باب آداب الأكل والطعام » من كتاب الطعام .
(٧) صانع : هادى .

وقال رؤبة :

لمّا رأيتُ الشُّفعاءَ بَلَّدُوا وسألوا أميرَهم فأنكدوا(١)
نامسْتُهم برشوةٍ فأقْـرِدُوا وسهَّلَ اللهُ بها ما شدَّدوا(٢)

وقال آخر :

وكنتُ إذا خاصمتُ خصماً كبَبْتُهُ على الوجهِ حتّى خاصمتنى الدَّراهمُ
فلمّا تنازَعْنا الخصومةَ غُلِّبتْ علىَّ وقالوا قُمْ فإنَّكَ ظالِمُ(٣)

والعرب تقول فى مثل هذا المعنى : من يخطب الحسناء يعط مهراً . يريدون من طلب حاجة مهمة بذل فيها .

وقال بعض المحدثين :

ما من صديق وإن تمّتْ صداقَتُهُ يوماً بأنْجَحَ فى الحاجاتِ من طَبَقِ
إذا تلثَّمَ بالمنديلِ منطلِقاً لم يخش نَبْوَةَ بَوَّابٍ ولا غَلَقِ
لا تكذبنَّ فإنَّ النَّاسَ مذ خُلقوا لرغبةٍ يكرمونَ النَّاسَ أو فَرَقِ

وقال آخر :

ما أرسل الأقوامُ فى حاجةٍ أمضى ولا أنجحَ من درهمِ
يأتيك عفواً بالذى تشتهى نعم رسولُ الرَّجلِ المسلمِ(٤)

شجاعة العرب

وأما الشجاعة ، فإن العرب فى الجاهلية أعز الأمم نفساً ، وأعزها حريماً وأحماها أنوفاً ، وأخشنها جانباً ، وكانت تغير فى جنبات فارس وتطرقها حتى تحتاج الملوك إلى مداراتها وأخذ الرهن منها ، والعجم تفخر بأساورة فارس ومرازبتها ، وقد كان لعمرى لهم البأس والنجدة ، غير أن بين العرب وبينها فى

(١) بلدوا : يقال بلد الرجل إذا لم يتجه لشىء وبلد إذا نكس فى العمل وضعف . انكروا : لم يعطوا .
(٢) نامستهم : ساورتهم . أقروا ذلوا وخضعوا .
(٣) يقال : غلب الرجل على صاحبه إذا حُكِّم له عليه بالغلبة .
(٤) عيون الأخبار « بابُ استنجاح الحوائج » .

ذلك فرقاً ؛ منه أن العرب كانت أكثر أموالاً ، وأجود سلاحاً ، وأحصن بيتاً ، وأشد اجتماعاً ، وكانت تحارب برياسة ملكٍ وسياسة سلطان ؛ وهذه أمورٌ تقوى المنة وتشد الأركان ، وتؤيد القلوب ، وتثبت الأقدام . والعرب يومئذٍ منقطعةٌ ليسْ لها نظام ، ومتفرقة ليس لها التئام ، وأكثرها يحارب راجلا بالسيف الكليل ، والرمح الذليل ، والفارس منها يحارب على الفرس العربى الذى لا مسرج له ، وعلى السرج الرث الذى لا ركاب له . والأغلب على قتال العجم الرمى ، والأغلب على قتال العرب السيف والرمح ، وهما أوصل فى الجد ، وأبعد من الفرار ، وأدل على الصبر .

وشجعانهم فى الجاهلية مثل عتيبة بن الحارث بن شهاب صياد الفوارس وبسطام بن قيس ، وبجير وعفان ، ابنى أبى مليل ، وعامر بن الطفيل ، وعمرو بن ود ، وأشباههم . وفى الإسلام مثل الزبير وعلى وطلحة ورجال من الأنصار ، وعبد الله بن حازم السلمى ، وعباد بن الحصين .

وقال : ما ظننت أن أحداً يعدل بألف فارس حتى رأيت عباداً ليلة كابل وقطرى بن الفجاءة وشبيب الحرورى . وأمثال هؤلاء عدد الرمل والحصى ، ليس منهم أحدٌ إذا أنت توقفت على أخباره وحاله فى شجاعته ، إلا وجدته فوق كل أسوارى، والرجليون[1] للعرب خاصة .

وقرأت فى كتب العجم أن برهام جور كان فى حجر ملك العرب بالبادية ؛ فلما بلغه هلاك أبيه وأن الفرس عزموا على أن يمكلوا غيره ، سار بالعرب حتى نزل السواد ، وطالبهم بالملك ، وجادلهم عنه ، حتى اعترفوا له بالحق وملكوه .

وقد كان كسرى أغزى بنى شيبان جيشاً ، فاقتتلوا بذى قار ، فهزمت بنو شيبان أساورة كسرى ، فهو يوم ذى قار .

---

(١) الرجليون : كانوا يعدون على أرجلهم .

شرف العرب عَلَى جميع الأمم

... أتى الله بالإسلام فابتعث نبيه منها (من العرب) النبى ﷺ ، سيد الأنبياء ، وخاتم الرسل . وناسخ كل شرعة ، وحائز كل فضيلة ؛ ونشر عددها ، وجمع كلمتها ، وأمدها بملائكته ، وأيدها بقوته ، ومكن لها فى البلاد ، وأوطأها رقاب الأمم ، وجعل فيها خلافة النبوة ثم الإمامة خالدةً تالدة ، حتى يأتى المسيح ﷺ فيصلى خلف الإمام منها فاردةً لا يستطيع أحدٌ أن يأتى بمثلها . وخاطبتها يومئذ لا عجم فيها ، فقال : ﴿ كنتم خيرَ أمة أُخرجت للنَّاس ﴾ ، فلها فضل هذا الخطاب ، والأمم طراً داخلةٌ عليها فيه . وأما قوله لبنى اسرائيل ﴿ فضَّلكم على العالمين ﴾ فإنه من باب العام الذى أريد به الخاص ، كقوله حكاية عن إبراهيم : ﴿ وأنا أوَّل المسلمين ﴾ ، وحكاية عن موسى : ﴿ وأنا أوَّل المؤمنين ﴾ . وقد كانت الأنبياء قبلهما مؤمنين ومسلمين ؛ فإنما أراد موسى زمانه[1] .

ابن قتيبة الأديب اللغوى

الأدب واللغة والعلوم اللسانية كانت جانباً من الجوانب التى عالجها قلم ابن قتيبة سواء فيما ألف من كتب فى الفقه والحديث أم فى الكتب التى أفردها بتلك العلوم فهو تارة المرشد الهادى إلى اللفظ الصحيح والأسلوب القويم. وهو تارة أخرى المفسر لمعانى الألفاظ والحروف والناشر فى اللغة قواعدها الصحيحة .

فمن قوله فى :

أدب الكاتب

أما بعد ، حمداً لله بجميع محامده ، والثناء عليه بما هو أهله ، والصلاة على رسوله المصطفى وآله فإنى رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين ، ومن اسمه متطيرين ، ولأهله كارهين . أما الناشىءُ منهم فراغبٌ عن التعليم ، والشادى تاركٌ للازدياد ، والمتأدب فى عنفوان الشباب ناسٍ أو متناسٍ ليدخل فى جملة المجدودين ، ويخرج فى جملة المحدودين ، فالعلماء مغمورون

(١) عن كتاب العرب والرد على الشعوبية .

بكثرة الجهل ، مقموعون حين هَوَى نجم الخير ، وكسدت سوق البر ، وبارت بضائع أهله ، وصار العلم عاراً على صاحبه ، والفضل نقصاً ، وأموال الملوك وقفاً على النفوس ، والجاه الذى هو زكاة الشرف يباع بيع الخلق ، وآضت[1] المروءات فى زخارف النجد ، وتشييد البنيان ، ولذات النفوس فى اصطفاق المزاهر ، ومعاطاة الندمان ، ونبذت الصنائع ، وجهل قدر المعروف ، وماتت الخواطر وسقطت همم النفوس ، وزهد فى لسان الصدق ، وعقد الملكوت ، فأبعد غايات كاتبنا فى كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتاً فى مدح قينة[2] أو وصف كاس ، وأرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئاً من تقويم الكواكب ، وينظر فى شىء من القضاء وحد المنطق ، ثم يعترض على كتاب الله بالطعن ، وهو لا يعرف معناه . وعلى حديث رسول الله ﷺ وسلم بالتكذيب ، وهو لا يدرى من نقله ، قد رضى عوضاً من الله ومما عنده بأن يقال فلانٌ لطيفٌ ، وفلانٌ دقيق النظر ، يذهب إلى أن لطف النظر قد أخرجه عن جملة الناس ، وبلغ به علم ما جهلوه ، فهو يدعوهم الرعاع والغثاء[3] والغثر[4] وهو لعمر الله بهذه الصفات أولى ، وهى به أليق لأنه جهل وظن أن قد علم ، فهاتان جهالتان ، ولأن هؤلاء جهلوا وعلموا أنهم يجهلون ، ولو أن هذا المعجب بنفسه ، الزارى على الإسلام برأيه ، نظر من جهة النظر لأحياه الله بنور الهدى ، وبلج اليقين ، ولكنه طال عليه أن ينظر فى علم الكتاب ، وفى أخبار الرسول ﷺ ، وصحابته ، وفى علوم العرب ولغاتها وآدابها ، فنصب لذلك وعاداه ، وانحرف عنه إلى علمٍ قد سلمه له ولأمثاله المسلمون ، وقل فيه المناظرون ، له ترجمةٌ تروق بلا معنى ، واسمٌ يهول بلا جسم ، فإذا سمع الغمر والحدث الغِرُّ قوله الكون والفساد ، وسمع الكيان والأسماء المفردة ، والكيفية والكمية ، والزمان والدليل ، والأخبار المؤلفة ، راعه ما سمع ، وظن أن تحت

(١) آمن : انتهى وتلاشى ، وضعفت وتبددت .

(٢) القينة : الأمة والمغنية .

(٣) الغثاء : البالى من ورق الشجر المخالط زيد السبيل والمقصود به الرعاع .

(٤) الغُثر : السَفلة من الناس .

هذه الألقاب كل فائدةٍ وكل لطيفة ، فإذا طالعها لم يحل منها بطائل ، إنما هو الجوهر يقوم بنفسه ، والعرض لا يقوم بنفسه ، ورأس الخط النقطة ، والنقطة لا تنقسم ، والكلام أربعة : أمروخبر واستخبار ورغبة . ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب ، وهى الأمر والاستخبار والرغبة ، وواحدٌ يدخله الصدق والكذب ، وهو الخبر ، والآن حد الزمانين مع هذيان كثير . والخبر ينقسم إلى تسعة آلاف وكذا كذا مائة من الوجوه ، فإذا أراد المتكلم أن يستعمل بعض تلك الوجوه فى كلامه ، كانت وبالاً على لفظه ، وقيداً للسانه ، وعياً فى المحافل ، وغفلةً عند المتناظرين ، ولقد بلغنى أنَّ قوماً من أصحاب الكلام سألوا محمد بن الجهم أن يذكر لهم مَسألةً من حد المنطق حسنةً لطيفة ، فقال لهم : ما معنى قول الحكيم : أول الفكرة آخر العمل ، وأول العمل آخر الفكرة ، فسألوه التأويل فقال لهم : مثل هذا رجلٌ قال : إنى صانعٌ لنفسى كناً ، فوقعت فكرته على السقف ، ثم انحدر فعلم أن السقف لا يكون إلا على حائط ، وأن الحائط لا يقوم إلا على أس ، وأن الأس لا يقوم إلا على أصل ، ثم ابتدأ فى العمل بالأصل ، ثم بالأس ، ثم بالحائط ، ثم بالسقف ، فكان ابتداء تفكره آخر عمله ، وآخر عمله بدء فكرته . فأية منفعةٍ فى هذه المسألة، وهل يجهل أحدٌ هذا حتى يحتاج إلى إخراجه بهذه الألفاظ الهائلة ، وهكذا جميع ما فى هذا الكتاب . ولو أن مؤلف حد المنطق بلغ زماننا هذا ، حتى يسمع دقائق الكلام فى الدين والفقه والفرائض والنحو ، لعد نفسه من البكم ، أو يسمع كلام رسول الله ﷺ وصحابته ، لأيقن أن للعرب الحكمة وفصل الخطاب ، فالحمد لله الذى أعاذ الوزير أبا الحسن ، أيده الله ، من هذه الرذيلة ، وأبانه بالفضيلة ، وحباه بخيم[2] السلف الصالح ، ورداه رداء الإيمان ، وغشاه بنوره ، وجعله هدىً فى الضلالات ، ومصباحاً فى الظلمات ، وعرفه ما اختلف فيه المختلفون على سنن الكتاب والسنة ، فقلوب الخِيارِ[3] به متعلقة ، ونفوسهم إليه مائلة ، وأيديهم إلى الله فيه مظان القبول ممتدة ، وألسنتهم بالدعاء له شافعة ، يهجع[4] ويستيقظون ، ويغفل ولا يغفلون ، وحقٌّ لمن قام لِلّهِ مقامه ،

---

(١) لعله يعترض على علماء البصريين أهل القياس فى النحو وتحديدهم أنواع الكلام .
(٢) الخيم : الطبيعة والسجية .
(٣) كرام الناس .
(٤) يهجع : ينام .

وصبر على الجهاد صبره ، ونوى فيه نيته ، أن يلبسه الله لباس الضمير ، ويرديه رداء العمل ، ويصدر إليه مختلفات القبول ، ويتعهدُه بلسان الصدق فى الآخرين ، فإنى رأيت كثيراً من كتاب أهل زماننا كسائر أهله ، قد استطابوا الدعة ، واستوطئوا مركب العجز ، وأعفوا أنفسهم من كد النظر ، وقلوبهم من تعب التفكر ، حين نالوا الدرك بغير سبب ، وبلغوا البغية بغير آلة ، ولعمرى كان ذاك فأين همة النفس ؟ وأين الأنفة من مجانسة البهائم ؟ . وأى موقف أخزى لصاحبه من موقف رجل من الكتاب اصطفاه بعض الخلفاء لنفسه، وارتضاه لسره ، فقرأ عليه يوماً كتاباً ، وفى الكتاب : « ومطرنا مطراً كثر عنه الكَلَأُ » فقال له الخليفة ممتحناً له : وما الكَلأُ ؟ فتردد فى الجواب وتعثر لسانه ، ثم قال: لا أدرى ، فقال : سل عنه ، وفى مقام آخر فى مثل حاله ، قرأ على بعض الخلفاء كتاباً ذكر فيه حاضر طى ، فصحف تصحيفاً أضحك منه الحاضرين ، ومن قول آخر فى وصف برذون[1] أهداه : « وقد بعثت به إليك أبيض الظهر والشفتين » فقيل له : لو قلت أرثم ألمظ ، قال : فبياض الظهر ما هو ؟ قالوا : لا ندرى ، قال : إنما جهلت من الشفتين ما جهلتم من الظهر ...

فلما أن رأيت هذا الشأن كل يوم إلى نقصان ، وخشيت أن يذهب رسمه ويعفو أثره ، جعلت له حظاً من غايتى ، وجزءاً من تأليفى ، فعملت لمغفل التأديب كتباً خفافاً فى المعرفة وفى تقويم اللسان واليد ، يشتمل كل كتاب منها على فن ، وأعفيته من التطويل والتثقيل ، لأنشطه لتحفظه ودراسته ،إن فاءت به همته ، وأقيد عليه بها ما أضل من المعرفة ، وأستظهر بإعداد الآلة لزمان الأدلة أو لقضاء الوطر ، عند تبين فضل النظر ، مع كلال الجُهْد ويبس الطينة بالمرهفين ، وأدخله وهو الكودن[2] فى مضمار العتاق ، وليست كتبنا هذه لمن لم يتعلق من الإنسانية إلا بالجسم ، ومن الكتابة إلا بالاسم ، ولم يتقدم من الأدوات إلا بالقلم والدواة ....

ونستحب له أيضاً أن يُنَزِّلَ ألفاظه فى كتبه ، فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه ، وأن لا يعطى خسيس الناس رفيع الكلام ولا رفيع الناس

---

(١) البرذون : دابة الحمل الثقيلة .
(٢) الكودن : البرذون .

وضيع الكلام ، فإني رأيت الكتّاب قد تركوا تفقد هذا من أنفسهم ، وخلطوا فيه ، فليس يفرقون بين من يكتب إليه : « فرأيت في هكذا » وبين من يكتب إليه : « فإني رأيت كذا » ورأيك إنما يكتب بها إلى الأكفاء[1] والمساوين ، ولا يجوز أن يكتب بها إلى الرؤساء والأساتذة ، لأن فيها معنى الأمر ، ولذلك نصبت ، ولا يفرقون بين من يكتب إليه : « وأنا فعلت ذلك » وبين من يكتب إليه : « ونحن فعلنا ذلك » ونحن لا يكتب بها عن نفسه إلا أمراؤنا ، لأنها من كلام الملوك والعظماء ، قال الله عز وجل : « إنّا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[2] ....

بلاغة العرب

... فالخطيب من العرب إذا ارتجل كلاماً في نكاح أو حمالة[3] ، أو تحضيض أو صلح أو ما أشبه ذلك ، لم يأت به من وادٍ واحد ، بل يفتن فيختصر تارةً إرادة التخفيف ، ويطيل تارةً إرادة الإفهام ، ويكرر تارة إرادة التوكيد ، ويخفي بعض معانيه حتى يغمض على أكثر السامعين ، ويكشف بعضها حتى يفهمه بعض الأعجمين ، ويشير إلى الشيء ويكني عن الشيء . وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال ، وقدر الحفل ، وكثرة الحشد ، وجلالة المقام .

ثم لا يأتي بالكلام كله ، مهذباً كل التهذيب ، ومصفى كل التصفية ، بل تجده يمزج ويشوب[4] ، ليدل بالناقص على الوافر ، وبالغث على السمين ، ولو جعله كله نجراً[5] واحداً لبخسه بهاءه ، وسلبه ماءه .

ومثل ذلك الشهاب من القبس تبرزه للشعاع ، والكوكبان يقترنان فينقص النوران ، والسخاب[6] ينظم بالياقوت والمرجان ، والعقيق والعقيان ، ولا يجعل كله جنساً واحداً من الرفيع الثمين ولا النفيس المصون .

---

(١) الأكفاء : الأمثال .
(٢) من مقدمة كتاب « آداب الكاتب » .
(٣) الحمالة ما يحمله الرجل عن غيره من دية أو غرامة .
(٤) شاب : خلط .
(٥) نجراً : لوناً ونمطاً .
(٦) السخاب كلّ قلادة ذات جوهر أو بغيره .

وألفاظ العرب مبنيةٌ على ثمانيةٍ وعشرين حرفاً ، وهى أقصى طوق اللسان .

وألفاظ جميع الأمم قاصرةٌ عن ثمانيةٍ وعشرين ، ولست واجداً فى شيء من كلامهم حرفاً ليس فى حرفنا إلا معدولاً عن مخرجه شيئاً ، مثل الحرف المتوسط مخرجى القاف والكاف ، والحرف المتوسط مخرجى الفاء والباء . فهذه حال العرب فى مبانى ألفاظها .

ولها الإعراب الذى جعله الله وشياً لكلامها ، وحليةً لنظامها ، وفارقاً ، فى بعض الأحوال بين الكلامين المتكافئين والمعنيين المختلفين ، كالفاعل والمفعول لا يفرق بينهما إذا تساوت حالاهما فى إمكان الفعل أن يكون لكل واحدٍ منهما إلا بالإعراب ، ولو أن قائلاً قال : هذا قاتلٌ أخى بالتنوين ، وقال آخر : هذا قاتل أخى بالإضافة ، لدل التنوين على أنه لم يقتله ، ودل حذف التنوين على أنه قد قتله .

ولو أن قارئاً قرأ : (فلا يَحْزُنْكَ قولُهُم ، إنّا نعلَمُ ما يُسِرُّون وما يُعْلِنُون) وترك طريق الابتداء بإنا وأعمل القول فيها بالتنصيب على مذهب من ينصب أن بالقول — كما ينصبها بالظن — لقلب المعنى عن جهته وأزاله عن طريقته ، وجعل النبى عليه السلام محزوناً لقولهم إن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ، وهذا كفرٌ ممن تعمده ، وضربٌ من اللحن لا تجوز الصلاة به ، ولا يجوز للمأمومين أن يتجوزوا فيه .

وقد قال رسول الله ﷺ : « لا يقتل قرشىٌّ صبراً بعد اليوم » ، فمن رواه جزماً أوجب ظاهر الكلام للقرشى أن لا يقتل إن ارتد ، ولا يقتص منه إن قتل ، ومن رواه رفعاً انصرف التأويل إلى الخبر عن قريش أنه لا يرتد منها أحدٌ عن الإسلام فيستحق القتل .

أفَما ترى الإعراب كيف فرق بين هذين المعنيين .

وقد يفرقون بحركة البناء فى الحرف الواحد بين المعنيين ، فيقولون : رجلٌ لُعْنَةٌ ، إذا كان يَلْعَنُهُ الناس ، فإذا كان هو الذى يلعن الناس ، قالوا : رجلٌ لُعَنَة فحركوا العين بالفتح ، ورجلٌ سبةٌ إذا كان سُبَّةُ الناس ، فإن كان هو يسب الناس ، رجلٌ سببةٌ ، وكذلك هُزْأةٌ وهُزَأةٌ ، وسُخْرَةٌ وسُخَرَةٌ ، وضُحْكةٌ وضُحَكَةَ ، وخُدْعةٌ وخُدَعَة .

وقد يفرقون بين المعنين المتقاربين بتغيير حرف فى الكلمة حتى يكون تقارب ما بين اللفظين كتقارب ما بين المعنيين ، كقولهم للماء الملح الذى لا يشرب إلا عند الضرورة : شروب ، ولما كان دونه مما قد يتجوز به : شريب .

وكقولهم لما ارفض على الثوب من البول إذا كان مثل رءوس الإبر : نضحٌ ، ورش الماء عليه يجزىء من الغسل ، فإن زاد على ذلك قليلاً قيل له نضخ،ولم يجزى فيه إلا الغسل .

وكقولهم للقبض بأطراف الأصابع : قبصٌ . وبالكف : قبضٌ .

وللأكل بأطراف الأسنان : قضمٌ ، وبالفم : خضمٌ .

ولما أرتفع من الأرض : حزنٌ ، فإن زاد قليلاً قيل : حزمٌ .

وللذى يجد البرد : خَصِرٌ ، فإن كان مع ذلك جوعٌ قيل : خَرِصٌ .

وللنار إذا طفئت هامدة ، فإن سكن اللهب وبقى من جمرها شىءٌ قيل خامدةٌ .

وللقائم من الخيل : صائمٌ ، فإن كان ذلك من حفىً أو وجىً قيل : صائن .

وللعطاء : شُكْدٌ . فإن كان مكافأةً قيل : شُكْمٌ .

وللخطأ من غير التعمد : غلطٌ . فإن كان فى الحساب قيل : غلَتٌ .

وللضيق فى العين خَوَصٌ . فإن كان ذلك فى مؤخرها قيل : حَوَصٌ .

وقد يكتنف الشىء معانٍ فيشتق لكلٍ معنى منها اسمٌ من اسم ذلك الشىء كاشتقاقهم من البطن للخميص : مُبَطَّن ، وللعظيم البطن إذا كان خِلْقَة : بَطِين ، فإذا كان من كثرة الأكل قيل : مِبْطان ، وللمنهوم بَطِنٌ وللعليل البطن : مَبْطون .

ويقولون : وجدت الضالة ووجدت فى الغضب . ووجدت فى الحزن

ووجدت فى الاستغناء ثم يجعلون الاسم فى الضالة ووجوداً ووجداناً . وفى الحزن وجداً ، وفى الغضب موجدةً ، وفى الاستغناء وجداً(١) .

تفسير الألفاظ والحروف

ولابن قتيبة أبحاث كثيرة فى تفسير الألفاظ والحروف كتفسير اللفظ الواحد الذى يحتمل المعانى المختلفة أو تفسير حروف المعانى وما شاكلها من الأفعال التى لا تتصرف وهاك نموذجاً على كل من ذلك .

الخـــيانة

الخيانة أن يؤتمن الرجل على شىء فلا يؤدى الأمانة فيه .

يقال لكل خائن : سارق وليس كل سارقٍ خائناً .

والقطع يجب على السارق ، ولا يجب على الخائن ، لأنه مؤتمنٌ . قال النمر بن تولب :

وإنَّ بَنى ربيعةَ بَعْدَ وَهْبٍ   كَرَاعِى البَيْتِ يَحْفَظُهُ فَخَانَ(٢)

ويقال لناقض العهد : خائن ، لأنه أُمِنَ بالعهد وسكن إليه فغدر ونكث . قال الله تعالى : (وَإِمَّا تَخَافَنَّ من قَوْمٍ خِيانَةً)(٣) أى نقضاً للعهد .

وكذلك قوله : (وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خائِنَةٍ مِنْهُمْ) أى غدرٍ ونكثٍ .

ويقال لعاصى المسلمين : خائن ، لأنه مؤتمنٌ على دينه . قال : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتَخُونُوا اللهَ والرَّسُولَ وَتَخُونُوا أمانَاتِكُمْ)(٤) يريد المعاصى .

---

(١) « مشكل القرآن » .

(٢) بعد وهب : يريد بعد خيانة وهب لأنه يذمه وقد جاء قبل هذا البيت :

يريد خيانتى وهب وأرجو   من الله البراءة والأمانا
فإن الله يعلمنى ووهباً   ويعلم أن سنلقاه كلانا

(٣) سورة المائدة ١٣ .

(٤) سورة الأنفال ٢٧ .

وقال الله تعالى : (عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ)[1] أى تخونونها بالمعصية[2] .

كـــاد

كاد : بمعنى هَمَّ ولم يَفْعِلْ . ولا يُقال : يَكادُ أن يفعل ، إنما يقال : كاد يفعل ، قال الله تعالى : (فَذَبَحُوها وَمَا كادُوا يَفْعَلُونَ)[3] وقد جاءت فى الشعر قال الشاعر :

قد كادَ من طُولِ البِلَى أن يَمْصَحَا[4]

وأنشد الأصمعى :

كادتِ النفسُ أن تفيظَ عليهِ   إذْ ثَوَى حَشْوَ رَيْطَةٍ وبُرُودِ[5]

---

(١) سورة البقرة ١٨٧ .

(٢) « مشكل القرآن » باب اللفظ الواحد للمعانى المختلفة .

(٣) سورة البقرة ٧١ .

(٤) يمصح : يذهب .

(٥) فاظت نفسه تفيظُ ، خرجَتْ روحُه .

الباب الثالث

الشعر والشعراء وإتجاهاتهم الفنية

الفصل الأول : حال الشعر :
الفصل الثاني : شعراء البداوة
الفصل الثالث : شعراء مجددون
الفصل الرابع : شعراء مفتنون
الفصل الخامس : شعراء صنعة
الفصل السادس : شعراء محافظون
الفصل السابع : شعراء مبدعون

الفصل الأول

حال الشعر
فى القرنين الثانى والثالث

بدأت الدولة العباسية ، والشعر يعيش فى ظل التقاليد العربية التى يرعاها الأمويون ، ويحرصون على ترسيخها ، وينفرون من كلّ طارىء عليها أو مُستحدث يُغالبها ، ويزحزحها عن مكانها .

ومن هنا كان النموذج الجاهلى للقصيدة هو الذى اقتداه ، وأحياه شعراء العصر الأموى الكبار ، ويمثلهم شعراء النقائض المقدمون جرير والفرزدق والأخطل ، ثم الراعى وذو الرمة وأضرابهما .

وقد شجع الأمويون على جمع الشعر القديم ، وكذلك فعل العباسيون فى أول دولتهم وقامت بالبصرة والكوفة وبغداد جماعات من العلماء على جمع هذا الشعر وتدوينه . وساعد على ذلك حاجة علماء اللغة إلى الشاهد الشعرى . والرغبة فى الحفاظ على مستوى اللغة الفصحى التى نزل بها القرآن الكريم ، وهى لغة الشعر الجاهلى .

وتنافس زعماء القبائل فى المصرين البصرة والكوفة على جمع شعراء قبائلهم ، وتحمّسوا لشعرائهم، وأغروا العلماء على تقديمهم ، كل ينتصر لشعراء قبيلته ويقدمه على غيره من الشعراء .

قدم اليمنيون شاعر كندة امرؤ القيس وتعصبوا له وجعلوه حامل راية الشعر الجاهلى ، بل العربى عامة ، وأنه هو الذى فتق للشعراء معانى الشعر . وتعصب المضَريُّون للنابغة وزهير وقدموها على غيرها .

وأصبح الشعر الجاهلى القديم قدوة الشعراء . ولما ظهرت حركة الموالى ، وجاءوا بنمط من الشعر يختلف عن النموذج القديم رفض ذلك النمط من كثير من علماء والكوفة ، بل وبغداد فى مرحلة من القرن الثالث .

واضطر شعراء الموالى وبعض المحدثين إلى الأخذ بأسباب الشعر التقليدى والمحافظة على شكل القصيدة الجاهلية فى بعض شعرهم الجادّ ، والموجه إلى

الممدوحين من الخلفاء وكبار القادة من العرب خاصة ، ومن جاراهم من غيرهم من الفرس أو الترك .

وكان من بين شعراء مخضرمى الدولتين من أخذ نفسه باقتداء القدماء أمثال مروان بن أبى حفصة . والذى حافظ على النمط الأموى خاصة، مُمثِّلاً فى جرير والفرزدق . ومنهم من احتفظ بالطابع البدوى الأعرابى من أمثال ابن هرمة ، والحسين بن مطير ، ومنهم من جمع بين الطابع التقليدى والإتجاه الجديد فى شعر الموالى أمثال بشار بن برد . واستطاعوا أن يبدعوا فى الإتجاهين .

وكان مروان يقتدى زهيراً والحطيئة فى تحليل الشعر ، وكان نجدياً مثلهما . روى أنه قال : « كنت أعمل القصيدة فى أربعة أشهر ، وأحككها فى أربعة أشهر . وأعرضها فى أربعة أشهر ، ثم أخرج بها للناس » .

وساد وسط اللغويين والنقاد بالبصرة أواخر العصر الأموى ومطلع العصر العباسى فى القرن الثانى تيار عام يرفض شعر المولدين والمحدثين . ويعتبر ما حاولوه من أساليب جديدة ، وما أكثروا فيه من المعانى المحدثة والموضوعات الجارية دون جاد القول ، والخروج على شكل القصيدة التقليدى ، يعتبر ذلك خروجاً على الشعر . فوقفوا منه موقف الرفض مهما ارتفعت قيمته الفنية .

ولعل هذا الموقف العام من الشعر قديمه ومحدثه ما جعل ناقداً مثل ابن سلَّام عاش بالبصرة أُخريات القرن الثانى وتأثر بمواقف العلماء من الشعر . جعله يرفض شعر المحدثين جملة ولا يعتبرهم فى طبقاته .

إلاَّ أن شعراء الموالى ، وهم من تبنَّى الشعر المحدث أو الجديد ، اعتبروا معركة الشعر المحدث ، معركتهم ، ولا تنفصل فى أصولها عن حركة الشعوبية التى يواجهون بها العصبية العربية لكل ما هو عرفى قديم .

وقام جماعة من هؤلاء الشعراء الموالى ومن والاهم من العرب بالبصرة والكوفة بحركة مضادة ومعارضة لسيطرة النموذج الجاهلى ، وظهر بين الشعراء من يعرف بجماعة المجَّان أو عصبة المجَّان أو المخنثين ، أو أشبه ، من هذه المصطلحات التى أطلقت على جماعة الشعراء الخارجين على التقليد ، وعلى القيم العربية الراسخة فى المجتمع وأنماطه التعبيرية وبخاصة فى الشعر .

(١) راجع الأغانى جـ ١٢ ومعجم الشعراء للمرزبانى .

ويرأس هذه الجماعة بشار بن برد ، ويعاصره ويجرى معه ويتبعه جماعة من أمثال مطيع بن إياس[1] . ووالبة بن الحباب ، وسلم الخاسر ، وأبى نواس الحسن بن هانىء .

منهم من توسط ، ومنهم من غالى . وقد أشرنا إلى أن شعر بشار وأبى نواس جمع النموذجين . بل إنهما تحدّيا النقاد بالتفوق فى النموذج التقليدى القديم حتى لا يتهما بالضعف وعدم المقدرة فى لجوئهما إلى السهولة فى شعر المحدثين .

وتروى الروايات التى عرضنا لها فى موضعها عن محاولة كل من بشار وأبى نواس تقليد القدماء بقصائد وأراجيز تقليدية أعرابية .

إلاَّ أن تلك المحاولات من كبار شعراء الموالى والمحدثين لم تكن كُلُّها صادقة التعبير عن موقف الشاعر الفنى والوجدانى ، بل كانت فى معظمها مجاراة لذوق الرؤساء من قادة العرب وأصحاب السلطان من الخلفاء ممن بذلوا المال . والشعراء يحصّلون المال بما يقدمون من الشعر ، ولابدَّ لهم من مجاراة ممدوحيهم حتى يجزلوا لهم العطاء .

وخفت حدّة التقليد مع مضى الوقت ، واقتراب القرن الثانى من نهايته ، وزادت موجة المحدث قوة بفضل إصرار أصحابه ، وهجومهم الدائب على عناصر التقليد الفنية فى شكل القصيدة ، وتعمدهم السخرية من عدم التوافق فى المضمون بين تلك العناصر وطبيعة الحياة العصرية .

وأزكت هذه السخرية ، وذلك الهجوم عصبية فارسية أحياناً ، ورغبة فى الإفلات من أسر التقليد أحيانا ، ورغبة فى التحرر من قيود فرضتها التقاليد وثبتتها طوال قرنين من الزمان فى ظل الحكم العربى ، وبعض اتجاهات التزمت المواكبة لهذا الحكم .

فكانت سخرية بشار من طريقة العرب فى الحياة والشعر ، وأنماط المعانى التى اعتادوها فى حياتهم الصحراوية ، وكانت رغبته الجامحة فى الخروج على الأعراف والتقاليد المتوارثة . بل والعقائد الثابتة السائدة ، فى شعره المحدث .

وكذلك كان حال أبى نواس فى موقفه من الحياة والناس والتقاليد ذلك الموقف العابث ، المستهتر ، وكأنه يثور على كل تقليد ومُتَّبع . فقد تعمد أن يبدأ قصائده

بالقول فى الخمر ، ويجعلها معشوقته ، بدلاً من هند والرباب ودعد وأسماء وليلى من معشوقات العرب . وجعل الفرحة والسعادة فى قصد منازل الفرجة من البساتين ، والأديرة النزهة ، ومجالس الأنس والشراب والغناء فى منزلة المنازل والديار الدارسة :

قل لمن يبكى على رسم درس   واقفا ما ضرَّ لو كان جَلَس

وقال :

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند   واشرب على الورد من حمراء كالورد

ويقول :

دع الأطلالَ تسفيها الجنوب   وتبكى عهد جدتها الحظوب
يطوف بكاسها ساقٍ أريبُ   فاطيبُ منه صافية شمولٌ

ولم تكن محاولات المحدثين والمجددين فى القرن الثانى قاصرة على تغيير شكل القصيدة وتبديل مطلعها ، أو الاستغناء عنه ، بل حاولوا تغيير موسيقاها فى إحداث مجزوءات البحور ، واللعب بالقوافى ، أو ايجاد ايقاعات جديدة مستمدة من حياة المدينة الحاضرة كما فعل أبو نواس ، وأبو العتاهية[1] فى بعض محاولاتهما التى لم يكتب لها البقاء والاستقرار .

وابتدع بعضهم نظام المقطعات ، والمخمسات والمسمطات .

هذا فضلاً عما أدخلوه من بديع المعانى وصور التراكيب والألفاظ التى عرفت من بعد بمصطلح البديع .

واعتبر شعر المحدثين عند بعض العلماء لما يحمله من عناصر حضارية فى الصورة وسلاسة التعبير اللفظى شعراً مخنثاً ليس له جزالة الشعر التقليدى .

ومع ذلك فقد بقى للشعر التقليدى رُوَّادُه وعشاقه وأنصاره ، وهم وإن لم يستطيعوا إيقاف تيار شعر المحدثين ، إلاَّ أنهم حافظوا على تقاليد الشعر القديم ، وشجعوا الشعراء على المحافظة عليها ، وليس حديث ابن قتيبة فى مقدمة الشعر والشعراء ببعيد عن أذهان الباحثين والدارسين ، فقد دعا إلى المحافظة على شكل

(١) ويذكر بروكلمان نقلاً عن تاريخ بغداد أن شاعراً يُدعى رزين بن زيدورو مولى طيفور بن منصور الحميرى خال المهدى صنع شعراً خرج فيه عن العروض التقليدى . راجع تاريخ آداب اللغة العربية لبروكلمان ترجمة الدكتور النجار ، ٢ /١١ .

القصيدة القديمة الجاهلية بمقدمتها الطللية ، وبنَسيبِها المعتاد ، ورفض أن يبدأ الشاعر المحدث فيبدأ بالحديث عن الروض والبساتين وما إليها من مناظر الحضَر .

ومع أن الشعر المحدث قد وجد أنصاره ومؤيديه من المتلقين فى هذا العصر ، فى ظل الثورة ضد التقاليد والقيم المتوارثة ، والعقائد الساذجة ، بما أشاعه العلم بفضل دعوة المعتزلة والمتكلمين والفلاسفة ، إلاّ أنّ سطوة تلك القيم والعقائد ظلت تبسط نفوذها وتسيطر على عقول العوام وأنصاف المتعلمين ، والمتعصبين للعروبة والمتزمتين من المحافظين المرتابين فى كل جديد محدث . فكان ما رأيناه من شبه الرِّدة ، والعودة إلى أنمَاطِ الشعر التقليدى بعد ضعف مكانة العقل ، ونفوذ المعتزلة والفلاسفة فى النصف الثانى من القرن الثالث .

ويحكى لنا الجاحظ أن الإتجاه البدوى فى الشعر لقى ترحيباً من الرأى العام الأدبى فى عصره وبعد أن كان الناس يهجرون نسيب البداوة إلى غزليات وغراميات عباس بن الأحنف .

ويؤيد هذا ما روى من ميل اسحاق الموصلى وبعض المغنيَن إلى شعر الأعراب من مثل قول أحدهم :

ألا قاتَلَ الله الحمَامةَ غدوةً ... على الغُصْنِ ، ماذا هَيجتْ حين غنَّتِ
تَغنَّتْ بصوتٍ أعجميٍّ فهيَّجتِ ... من الشوْقِ ما كانَتْ ضُلوعِى أجَنَّتِ
فلو قَطرَتْ عَينُ إمرىءٍ من صَبابَةٍ ... دماً قَطرتْ عينى دمًا فألمَّتِ
فما سكنت حتى أَنَّبتُ لصَوْتِها ... وقُلْتُ ترى تلْكَ الحَمامةُ جُنَّتِ
ولى زفراتٌ لو يَدُمنَ قَتلْننى ... بشوقٍ إلى نأىِ التى قد تولَّتِ
إذا قُلْتُ هذى زفرةُ اليوم قد مَضَتْ ... فمَن لى بأُخرى فى غَدٍ قَد أطَلَّتِ

وأثر الشعر فى الغناء ، كما أثر الغِنَاءُ فى الشعر ، وصار بعض الشعراء يصنعون الشعر ليتغنى به كما أشرنا من قبل ، بل كان بعضهم يجمع بين الغناء والشعر كإسحق بن إبراهيم الموصلى ، وإبراهيم بن المهدى وعُليَّة .

وحافظ الشعر على الموضوعات التقليدية وفى مقدمتها المديح والرثاء والهجاء والوصف والفخر والعتاب ، وتلونت بعض موضوعاته بأحوال العصر ، فاتصل الشعر السياسى والمذهبى أحيانا بالمديح أو الهجاء والمعارضة . وظهر فى الوصف موضوعات كوصف مجالس الشراب والغناء ، ووصف المغنين والمغنيات ،

ووصف الشراب وآنية الخمر والسُّقاة ، ووصف الأديرة والأعياد المستحدثة كالنيروز والمهرجان .

وظهرت موضُوعاتٌ جديدة كالزهد والتصوف ، ومزج بعضهم بين العشق والتصوف .

روى المسعودى[1] أن الصوفية من البغداديين قالوا : « إن الله جلَّ وعزَّ إنما امتحن الناسَ بالهوَى ليأخذوا أنفسهم بطاعة من يهوونه ليشُقَّ عليهم سخطُه ويسرُّهم رِضَاهُ ، فيستدِلُّوا بذلك على قدر طاعة الله ، إذ كان لا مثِل له ولا نظير ، وهو خالقهم ، غير محتاجٍ إليهم ، ورازِقُهم مُبتدِئا بالمنّ عليهم ، فإذا أُوحيوا على أنفسهم طاعة سواهُ كان تعالى أحرى أن يتبع رضاه . » .

وقال : « وللباطنية المتصوفة فى هذا كلام كثير وخطبٌ طويلة » .

وأوضح مثال لهذا اللون من التصوف فى العصر رابعة العدوية .

واتصل الزهد بالتصوّف ، ووجد تيار الزهد بالكوفة والبصرة ، وربما كان ظهورُ هذا التيار راجعاً فى بعض أسبابه إلى ردود الفعل ضد تيارات الإنحلال والزندقة ، والتكالب على مظاهر النعمة ، والشره للمال . مع التأثر بالمذاهب الوافدة ، والعقائد القديمة شرقية ، هندية وفارسية أو نصرانية محلية نتيجة انتشار بعض عُبَّاد النصارى واتصال الشعراء بنساكهم فى الأديرة المنتشرة فى العراق والحيرة . وأشار إلى بعضهم أبو نواس فى قصيدته عن دير حنَّة :

يا دير حنَّة من ذات الأُكيرَاحِ	من يصحُ عنك فإنى لَسْتُ بالصَّاحى
....	....
دع التشاغُلَ باللَّذاتِ يا صاحِ	من العكوف على الريحان والرَّاحِ
واعدلْ إلى فتيةٍ ذابت نفوسُهم	من العبادة تحت الجسْم أَطْلاحِ
لم يبقَ منهم لرائيهم إذا حُصِّلوا	خلافَ ما خُوِّفُوهُ غيرُ أَشْباحِ
تَلْقَى بهم كلَّ محفوٍّ مَفَارِقُه	من الزُّهادِ عليه سحْقُ أمساحِ
لا يدلفون إلى ماءٍ بآنيةٍ	إلاَّ اغترافاً من الغُدْرانِ بالرَّاحِ

وعاصر أبو العتاهية أبا نواس ، ومثَّل كلٌّ منهما سلوكاً غير سلوك صاحبه ، ومنهجا فى الشعر مخالفاً ، بل إن أبا العتاهية الذى انتهى فى أمره وشعره إلى الزهد

(١) مروج الذهب ٣ /٤٥٨ .

والنسك بدأ مثل أبى نواس وأصحابه يحمل زاملة المخنثين على ما تقول الرواية ، وأبو نواس نفسه فيما يروى من خبره وشعره قال فى الزهد فى أخريات حياته .

ولعلَّ هذا كلُّه يشهد بما قلناه من أثر ردود الفعل للاسراف على النفس فى اللّذات والإقبال على الدنيا .

ولم يكن تيار الزهد أو التصوف مجرد انصراف عن اللذات ، وزهد فى الحياة الدنيا من وجهة النظر الإسلامية كما مثلها شعر محمود الورّاق وأبو العتاهية ، بل ربما كان زهد العصر يحمل كذلك بعض الفكر الهندى البرهمى ، أو الفلسفة الرواقية اليونانية .

وكان يمثل زهّاد الفكر صالح بن عبد القُدُّوس الذى اتهم بالزندقة ، وقتل لهذا التفكر .

واتجه شعراء الزهد والحكمة فى صياغة أشعارهم إلى السهولة واستخدموا اللفظ الجارى المتداول حتى يكون كلامهم قريبا من أفهام عامة الناس الذين إليهم يتوجهون .

وربما كان شعر فلاسفة الزُّهاد أمثال صالح أكثر عمقاً لاهتمامهم بمضامينهم الفلسفية .

وأخلص بعض الشعراء المحدثين للون واحد من الشعر أوقفوا قولهم عليه ، كالزهد والحكمة على ما ذكرنا . ومنهم من أوقف شعره على الحب كعباس بن الأحنف وابن داوود صاحب الزهرة .

وراج هذا اللون من الشعر فى المجتمع العباسى عامة وفى أوساط سراة الناس فى العواصم وبغداد خاصة . وكان الشاعر ينظم القصائد الطوال ، وأحيانا ينظم المقطوعات بين ثلاثة وخمسة أبيات ، يتغنى بها المغنون والمغنيات .

فقد كانت أصواتُ الغناء لا تتعدى هذه المقطوعات إلا فى النادر حيث تتعداها إلى القصيدة أحيانا .

وافتن شعراء العشق والمحبة فى معانى أشعارهم ، وابتدع عباس بن الأحنف معانى الوجد والغرام أفاد فيها من شعراء العذريين السابقين ، وأثر فيمن بعده ممن طرق هذا الموضوع فاعتمد عليه .

وأثر هذا اللون فى الغزل والنسيب ، وأصبح ما تقدم به القصائد من الشعر الحضرى مطبوعاً بغزل المطبوعين ونسيبهم من أهل الحضر ، أمثال عباس ، وصارت معانيه والفاظه أكثر رقة وظرفاً ، وملاءمة لذوق المنعمين المترفين من أبناء القصور وبناتها .

وفى مقابل هذا النسيب أو شعر المحبة والعشق والغزل الرقيق فى المرأة المحبوبة نجد لوناً آخر مقابلاً ، هو هذا الغزل الذى شاع على ألسنة المخنثين والمجان وأهل الإباحة والزندقة ، ما كان منه مؤنثاً أو مذكراً ، وكان رواده ومروجوه عصبة مجان البصرة أمثال بشار بن برد وأبى نواس ووالبة بن الحباب .

وقيل إن هذا الشعر الماجن المستهتر ، الحسّى الذى يركز على ملاذ الحسّ ومفاتن الجسد ومواضع المتعة الحسيّة فيه كان يستهوى شباب العباسيين وتتعلق أهواؤهم به ، مما أقلق أصحاب الدعوة الصالحة والحريصين على الإخلاق ، وسلامة المجتمع الإسلامى .

ويمكن أن نعرض لهذا النموذج من شعر بشار فى قصيدته الرائية :

قد لامنى فى خليلتى عُمَرُ   واللَّومُ فى غير كُنْهِه ضَجَرُ
قال : أفِقْ . قلت : لا . قال : بَلَى   قد شاعَ فى الناسِ منكما الخبرُ

....

ماذا عليهم؟، وما لهم؟. خَرِسُوا   لو انَّهم فى عُيونِهم نَظَرُ
أعْشَقُ وحْدى، ويؤخذون به   كالتُّركِ تَغْزُو فتؤخَذُ الخَزْرُ

....

حَسْبِى وحسبُ الذى كَلِفْتُ به   منّى ومنه الحديث والنَّظَرُ
أو قبلةٌ فى خِلالِ ذاك وما   بأسٌ إذا لم تُحَلَّ لى الأُزُرُ
أو عضَّةٌ فى ذراعها ولها   فوق ذراعى من عَضِّها أثرُ
أو لمسةٌ دونَ مِرطها بيدى   والبابُ قد حالَ دونه السُّتُرُ
والساقِ براقةٌ مخلخلُهــا   ومَصٍّ ريقٍ وقد عَلَا البُهُرُ
واسترخَتْ الكفُّ للعراكِ وقا   لَتْ : إيه عنّى والدمع ينحدرُ
إنهضْ، فما أنت كالَّذِى زعموا   أنتَ وربّى مُغَازِلٌ أشِرُ

ونضع هذا القول المكشوف فى مقابل ذاك الغزل العفيف الرقيق من شعر من ذكرنا قبل من مثل ما تغنَّى به إبراهيم المهدى :

هذا مُحبُّك مطوىٌّ على كمدِهْ ... صبٌّ مدامِعُه تجرى على جسَدِه
له يدٌ تسألُ الرحمنَ راحتَهُ ... مما به، ويدٌ أُخرى على كبدِهْ
يا من رأى كِلفاً مستهتراً أسفاً ... كانتْ منيّته فى عيْنِهِ ويدِهْ

أو قوله :

إلى الله أشكو بُخْلَها وسماحتى ... لها عسلٌ منى، وتبذلُ عَلْقَا
فردّى مُصَابَ القلبِ أنت قتلتِهِ ... ولا تتركيه ذاهِلَ العقل مُغْرَمَا
إلى الله أشكو أنَّها أجنبيَّةٌ ... وأنى لهَا بالودّ ما عِشْتُ مُكرِمَا

هذان اللونان من الغزل صورة من صور الثنائية فى المجتمع العباسىّ آنذاك ، والتى تجلَّت فى أكثر من موضوع من موضوعات الشعر والأدب . الشىء وضده ، أو المحاسن والأضداد كما عبَّر عنها بعض المؤلفين .

ودخل على المديح التقليدى فى هذا العصر معانٍ موافقة للممدوحين الذين تغيرت صفاتهم ومنازلهم ، فصار الشاعر يمدح الخليفة ، ويعرض لما يوافق مقام الخلافة من الهيبة والجلال ، لأنه ليس مجرد حاكم أو سلطان ، بل هو يمثِّل اختياراً إلهياً ، فعليه طابع الاحترام والتقدير ، ويشع وجهه بنور الإيمان ، وإرث النبوة . وقد اجتمع عند الشعراء مدلُول الخلافة مع الامامة عند الشيعة . فالإمام يفضل الخليفة لأنه اختيار إلهى ، والخليفة اختيار بشرى ، الإمام يملك بالوصيّة ، والخليفة يملك بالبيعة .

وقد مزج شعراء العباسيين فى مدائحهم بين المعنيين . واستطاع مروان بن أبى حفصة أن يغيّر من معانى المديح بعد تحوله عن الأمويين إلى العباسيين . فقد روى صاحب مروج الذهب عن الهيثم بن عدى قال : « كنت فى مجلس المهدى فأتاه الحاجب ، فقال إنَّ ابن أبى حفصة بالباب ، فقال له : لا تأذن له ، فإنه منافق كذَّاب ، فكلّمه الحسن بن قحطبة فيه فأدخله ، فقال له المهدى : يا فاسق ألستْ القائل فى مَعْن (أحد قادة الأمويين) :

---

(١) مروج الذهب ٣ /٣٩٣ .

جبلٌ تلوذُ به نزارٌ كلُّها   صَعْبُ الذُّرى مُتَمنِّعُ الأركان

قال : بل أنا الذى أقول فيك يا أمير المؤمنين :

يا ابن الذى ورث النبىَّ محمداً   دونَ الأقارب من ذَوِى الأرحام

ومدح دعبل بن على الخزاعى الشريف على بن موسى الرّضا الذى نَصَّبه المأمون من بعده . بقصيدة خلع عليه فيها صفات الأئمة[1] .

ودخل شعر المديح الحديث عن الاتجاهات السياسية والمذهبية ، وأحقية الخلفاء العباسيين فى الخلافة على ابناء عمومتهم من العلوية . وشمل الحديث حجج لعباسية التى عرضنا لها فيما مضى .

وعلى عكس المديح كان الهجاء ، ولم يقتصر هجاء الزعماء على معانى التقليدية ، تعداها إلى معانٍ أخرى تتصل بمكانة المهجو من الخلفاء والرؤساء . والقضاة منه هذا الهجاء السياسى الذى قاله بشار فى أبى جعفر المنصور ينصر ابراهيم بن عبد الله بن الحسن العلوى الحسنى فى خروجه على المنصور يقول بشار

أبا جعفرٍ ما طُول عيشٍ بدائمٍ   وما سَالِمٌ عما قليلٍ بسالِمِ
على الملك الجبَّار يقتحم الرَّدى   ويَصرَعُه فى المأزق المتلاحم
كأنَّكَ لم تسمع بقتل مُتوَّجٍ   عَظيمٍ، ولم تسْمَعْ بفتْكِ الأعاجم
تقسَّمَ كسْرَى رهطُه بسيوفهم   وأمسَى أبو العباس أحْلامَ نائم
وقد كان لا يخشَى انقلابَ مكيدَةٍ   عليه ولا جَرْىَ النحوسِ الأشائِم
مُقيماً على اللَّذاتِ حتى بدت له   وجوه المنايا حاسراتِ العمائِمَ
وقد تردُ الأيَّامُ غُرًّا، وربَّما   وردْنَ كُلوحًا بادياتِ الشكائِم
ومروانُ قد دَارَت على رَأْسِه الرَّحى   وكان لما أجْرمْتَ نَزْر الجرائِمَ
فأصبحت تَجرى سَادِراً فى طريقهم   ولا تَتَّقِى أشبَاهَ تلك النَّقَائِمَ
تجرَّدت للإسلامِ تعْفُو سبيلَهُ   وتُعْرِى مطاهُ للَيُوثِ الضَّراغِمَ
فمازلتَ حتى استَنْصَرَ الدينَ أهلُه   عليك فعادوا بالسُّيوفِ الصوارِمِ
فَرُمْ وزَرًا يُنجيكَ يا ابن سلامةٍ   فَلَسْتَ بناجٍ من مُضيمٍ وضَائِمِ
لحَى الله قوماً رأسوكَ عليهُم   وما زلْت مرءوساً خبيثَ المطاعَمِ

(١) راجع ذلك تفصيلاً فى حديثنا عن دعبل بعد .

أقولُ لبسّامٍ عليه جلالةٌ	غدا أريحيًّا عاشِقاً للمكارِمِ
من الفاطميينَ الدُّعاةِ إلى الهُدَى	جَهاراً، ومنَ يهْدِيكَ مثلُ ابنِ فاطِمِ
سِرَاجٌ لعينِ المستضيءِ وتارةً	يكون ظلاماً للعَدُوِّ المُزاحِمِ
إذا بلغ الرأى المشورة فاستَعِنْ	برأى نصيحٍ أو نصيحةِ حَازِمِ
ولا تجعلِ الشُّورَى عليكَ غَضاضَةً	فريشُ الذُّنابى قوةٌ للقوادِمِ
وما خيرُ كفٍ أمسكَ الغُلُّ أختَها	وما خير سيفٍ لم يُؤيَّد بقائِمِ
وخلِّ الهُوَيْنَى للضعيفِ ولا تكُنْ	نَؤُوما، فإن الحزمَ ليس بنائِمِ
وحارِبْ إذا لم تُعطَ إلاَّ ظُلامَةً	شَبَا الحربِ خيرٌ من قبولِ المظالِمِ

وفى القصيدة هجاءٌ للمنصور باستبداده بالخلافة ، وبطشه بالأقارب والأعوان وظلمه للناس ، وفيها تحذير للخليفة من انقلاب الأمور ، وهو فى نشوة الانتصار وزهو السلطة. وينصحه الشاعر بأن يتعظ بغيره من الملوك السابقين ؛ كسرى ملك الفرس الذى قتله أصحابه والوليد بن يزيد الخليفة الأموى الذى قتله أهله ، ولم يكن يفكر فى الموت ، وهو غارق فى لذاته ، ومروان بن محمد الذى دارت عليه الرَّحى ، وانقلبت عليه الأيام .

ثم ينتقل إلى اتهامه بالخروج على الإسلام وإعفاء آثاره بما ارتكب من الجرائم ، وما اعتدى على الأهل والأقارب . ومنه قتل النفس الزكية بالمدينة . واغتصاب الحق لنفسه ، ويشير بعد ذلك إلى أن الإسلام استنصر بأهله من آل البيت وهم أحق بالدفاع عن حوزته ، وصيانة حرمته ، ومن له غير أبناء فاطمة بنت النبى ومنهم إبراهيم المطالب بالحق بالبصرة . وينتقل إلى الدفاع عن إبراهيم الحسنى ونصيحته بإتخاذ المشورة من أهل الرأى والأستعانة بهم فى حركته ، وعدم الرضا بالخذلان، بل مواجهة المنصور بالحزم والمناجزة بالحرب ، فالحرب خيرٌ من الاستكانة والقبول بالظلم .

وخلِّ الهُوَيْنَى للضعيف ولا تكُنْ	نَؤُومًا، فإنَّ الحزْمَ ليسَ بنائم
وحارِبْ إذا لم تَلْقَ إلا ظلامةً	شبا الحربِ خيرٌ من قبولِ المظالِم

وكذلك الرثاء تلوّن باللون السياسى والمذهبى ، فكان فى مراثى بعض الخلفاء والعلويين إشادة بإتجاههم ومذهبهم ، فمما قاله بعض العلويين فى رثاء أحد أئمتهم وهو الحسين بن على صاحب فخ ، وقد قتله موسى الهادى بن المهدى فى معركة

وتركت جثته مع بعض قتلى جيشه فى العراء حتى أكلتها السباع والطير[1] :

فلأبكيَنَّ على الحُسَـــ ـــيْنِ بعولةٍ، وعلى الحسَنْ
وعلى ابن عاتكة الذى أثووهُ ليس له كفَنْ
تُرِكوا بفـــخٍّ غُدوةً فى غيرِ مَنزلةِ الوطنْ
كانوا كراماً قُتِّلوا لا طائشينَ ولا جُبُنْ
غَسَلُوا المذلَّةَ عنهمو غسْلَ الثياب من الدَّرَنْ

وكان فى مديح بعض رجال الدولة كذلك إشارات إلى الأعمال السياسية والإدارية التى ينهضون بها كقول منصور النمرى فى مديح جعفر بن يحيى البرمكى يذكر ما نهض به فى كبت أعداء الدولة بالشام :

لقد أُوقدتْ بالشام نيرانُ فتنةٍ فهذا أوان الشام تُخمدُ نارُها
إذا جاش موج البحر من آل برْمَكٍ عليها خبتْ شهبانُها وشرارُها
رماها أمير المؤمنين بجعفرٍ وفيه تلاقى صدعُها وانجبارُها
رمَاها بميمونِ النقيبةِ ماجدٍ تُراضُ به قحطانُها ونِزَارُها
تدلَّت عليهم صخرةٌ برمكيَّةٌ دَمُوغٌ لهامِ الناكثين انحدارُها

حتى يقول :

وزير أمير المؤمنين وسيفُه وصعدتُه، والحربُ تَدمَى شفارُها
ومن تطو أسرار الخلافة دونه فعندك مأْوَاها، وأنت قرارُها
وفيتَ فلم تغْدِرْ لقومٍ بذمَّةٍ ولم تدْنُ من حالٍ يَنالُكَ عارُها
طَبيبٌ بإحياء الأُمور إذا التوتْ من الدَّهر أعناقٌ، فأنت جبارُها
إذا ما ابن يحيى جعفر قصدتْ له ملمَّاتُ خطبٍ لم ترعْهُ كبارُها
لقد نشأَت بالشام منك غمامةٌ يُؤمَّل جدواها، ويخشى دمارُها
فطوبى لأهل الشام ياويل أُمِّها أتاها حياها، أو أتاها بوارُها
فإن سَالمُوا كانت غمامة نائلٍ وغيثاً، وإلاَّ فالدّماءُ قطارُها

فالشاعر هنا يستخدم فى التعبير عن مقدرة جعفر السياسية والعسكرية فى إدارة شئون الدولة ، وحفظها من الخارجين والعاصين تعبيرات غير معهودة ، وقد

---

(1) مروج الذهب . ٣ /٤٠١ .

يلمح إلى معنى قرآنى فى تشبيه الغَمامة التى تأتى بالحيا والغيث فيكون فيها الخير ، وقد تحمل الصواعق فتحمل معنى الموت والفناء .

وهذا المعنى الجديد ، وإن ارتد إلى المعنى القرآنى ، إلاّ أن الشاعر تصرّف فى عرضه وبسطه ، وتوليد صوره وتعبيراته .

ونجد من المعانى المُستجدَّةِ ما نقد به الشعراء بعض رجال الحكم والقضاة كهذا الشعر الذى نظمه شاعر بصرى فى هجاء القاضى يحيى بن اكثم الذى تولى قضاء البصرة زمن المأمون فساءت سيرته واتهم بالرشوة والفساد . يقول :

يا ليت يحيى لم يَلدْهُ أكثمُهْ	ولم تطأْ أرض العراقِ قدَمهْ
ألْوطُ قاضٍ فى العراق نَعلَمُهْ	أىُّ دواةٍ لم يلقْها قلمُهْ

وأىُّ شعبٍ لم يَلجْه أرقمُهْ

وقال فيه راشد بن اسحاق أبو حكيمة أيضا :

وكنَّا نُرجِّى أن نَرى العدلَ ظاهراً	فأعقبنا بعد الرَّجاءِ قُنُوطُ
متى تصلحُ الدنيا ويصلحُ أهلُها	وقاض قضاةِ المسلمينَ يَلُوط

وقال آخر :

أميرنا يرتشِى، وحاكمنا	يلوطُ، والرأس شر ما راسِ
ما أحسبُ الجورَ يَنْقضِى وعلى الـ	أمّةِ والٍ من آلِ عبَّاسِ

ومن جديد الموضوعات فى شعر العصر ما قيل فى رثاء المدن ، وبخاصة رثاء بغداد بعد أن هُدِّمتْ وذهبتْ بَهْجَتُها فى حرب الأمين والمأمون . يقول الشاعر :

ما ذَا أصابك يا بغدادُ بالعين	ألم تكونى زماناً قُرَّةَ العينِ
ألم يكنْ فيك قومٌ كان مسكنُهمْ	وكان قربُهمُ زينا من الزَّيْنِ
صاح الغرابُ بهم بالبينِ فافترقوا	ماذا لقيتُ بهم من لوعةِ البيْنِ
أستودع الله قوماً ما ذكرتُهُمُ	إلا تحدَّر ماء العينِ من عينى

وقال أحد البغداديين :

تبدلنا هموماً من سرورٍ	ومن سعةٍ تبدلنا بضيقِ
أصَابتْها من الحسَّادِ عينٌ	فأفنتْ أهلهـا بالمنجَنيـقِ

فقومٌ أُحرقوا بالنّار قسْراً ونائحةٌ تنوحُ على غَريقِ
وصائحةٌ تنادى واصَباحَا وباكيةٌ لفقدان الشقيقِ
وحوراءُ المحاجِرِ ذات دلٍّ مضمخةُ المجاسدِ بالخلوقِ
تفرُّ من الحريق إلى انتهابٍ ووالدها يفرُّ إلى الحريقِ

....

وقَوْمٌ أخرجوا من ظلّ دنيا متاعُهم يباعُ بكلِّ سوقِ
ومغترب قريب الدار مُلْقَى بلا رأسٍ بقارعة الطريقِ
فلا ولدٌ يقيمُ على أبيه وقد هربَ الصديقُ بلا صديقِ

وللشاعر الخُرَيْمى قصيدةٌ طويلة من مائة وخمس وثلاثين بيتاً فى رثاء بغداد ، يقول فيها :

يا بؤسَ بغداد دار مملكة دارتْ على أهلها دَوائِرها
أمهلهـا الله ثم عاقبهـا لمَّا أَحَاطتْ بها كبائِرها
بالخسْفِ والقذفِ والحريق وبالحـ ـربِ التى أصبحت تساوِرها

وكأن الخريمى وهو يرثى المدينة يرى أن ما نالها جزاء ما ارتكب أهلها من المفاسيد ، وما اعتقلوه من الخطايا ، وأن ذلك الذى حدث إنما هو عقابٌ من الله نزل بالبلد وأهله . يقول :

رقَّ بها الدينُ واستخف يدى الفَضْـ ـلِ ، وعزَّ النسَّاكَ فاجرُها
وحطَّمَ العبدُ أنْفَ سيدهِ بالرَّغْمِ ، واستُعْبِدَتْ مخادِرُها
وصارَ رَبُّ الخلَّان فاسقَهم وابتَزَ أمر الدُّروب زاعِرُها

وأصبح رثاء المدن بعد ذلك موضوعاً من موضوعات الشعر العربى ، وانتقل منه إلى الشعر الفارسى. ومما نَذكرهُ فى هذه المرحلة مما يقع فى دائرة رثاء المدن ما رثى به أبو تمام مدينة عمورّية بعد أن هدمها المعتصم وأحرقها انتقاماً من ملك الروم . ويختلف مضمون الرثاء وفق موقف الشاعر من المدينة كما رأينا من اختلاف المواقف بين شعراء بغداد فى التحسر عليها والبكاء على تبدل حالها ، وموقف الخريمى من تصوير ما حلَّ بها وكأنه انتقام من الله وعقاب لأهلها وكأنه يسوق من خلال رثائها العبرة ، ويحذر من سوء مصير كل من ينهجون نهج أهل بغداد فى الخروج عن حدود الله والإفساد فى الأرض .

ومن الموضوعات المستجدة شعر الطرد أو رحلات الصيد ووصف حيوانه ، ومعظمه على وزن الرجز .

واختلفت أحوال الشعراء فى العصر ، واختلفت مواقعهم وطبقاتهم ، واتجاهاتهم فكان من الشعراء من يلون الخلافة ، ونجد كثيرا من خلفاء العباسيين ينظمون الشعر كالرشيد والمأمون وابراهيم المهدى والواثق ، وله شعر رقيق رواه أبو الفرج .

كما نظم الشعر جماعة من القادة وسراة القوم ، نذكر منهم على سبيل المثال أبو دلف العجلى (ت ٢٢٦ هـ) . وقد عاصر المأمون والمعتصم ، وكان سيد أهله ورئيس عشيرته من عجل وغيرها من ربيعة . وكان كما يقول — المسعودى — شاعراً مجيداً وشجاعاً بطلاً وهو القائل :

يوماً تَرانى على طِمِرٍّ   تَرْهَبُنِى الأَجْبُلُ الرُّواسى
ويوم لهوٍ أُحثّ كأساً   وخلف أذنى قضيبُ آسِ

كما كان الوزير القاضى أحمد بن أبى دؤاد شاعراً ، وذكره دعبل بين طبقاته .

وكان كلٌ من أبى دلف وأبن أبى دؤاد من ممدوحى أبى تمام .

وعرف من بين الكتاب شعراء مشهورون كابراهيم الصولى ، ومحمد بن عبد الملك الزيات وأحمد بن أبى طاهر . وغيرهم . وكان شعر هؤلاء يميل إلى السهولة ، ويتأثر باساليب الرسائل .

كما عرف من جمع الموسيقى والشعراء والغناء كإبراهيم الموصلى ، وابنه اسحاق بن ابراهيم وإبراهيم بن المهدى .

كما عرف بعض العلماء بقول الشعر كالعتابى ، وابن داود الظاهرى ، والناشىء الاكبر ويحيى بن على بن يحيى المنجم .

واشتهرت من شواعر النساء بعض الجوارى والمغنيات ذكر منهم أبو الفرج عددًا، وأشهرهن علية بنت المهدى ، وجنان الناطفية ، وعنان .

واصطلح على تسمية شعراء الدولة العباسية بالمولدين والمحدثين ، وقيل إن تسميتهم بالمولَّدين لأنهم ولدوا بعد الشعراء الإسلاميين والمخضرمين الذين عاصروا

أواخر الدولة الأموية وبداية العباسية ، ولأن معظمهم كان من المولدين والموالى ، وغالبا ما يطلق المصطلح على شعراء الدولة فى القرن الثانى ، وأما المحدثون فيطلق على شعراء القرن الثالث وما بعده ، لأنهم استحدثوا بعد المولدين . وإن كان بعض العلماء لا يفرق بين المصطلحين ، فقد جرى ابن المعتز على اطلاق اسم المحدثين على شعراء الدولة العباسية جميعا حتى عصره فى نهاية القرن الثالث ، ومنهم من يفعل عكس ذلك فى إطلاق اسم المولدين عليهم جميعا .

واقترن اسم المولدين والمحدثين غالباً بأصحاب البديع ، لأنهم أبدعوا واستحدثوا فى الشعر أساليب وصوراً جديدة ، وجعلوا بشاراً على رأس أصحاب البديع ، وهو من المولدين والمحدثين ولم يقلد القدماء بل ثار على طريقتهم ، وفى اخريات القرن الثالث وأوائل القرن الرابع ظهر مصطلح « طريقة العرب » مقابل طريقة المحدثين أو أصحاب البديع ، وجعلوا البحترى ممثلاً لطريقة العرب وأبا تمام ممثلاً لأصحاب البديع والخارجين على عمود الشعر .

الفصل الثانى
الإتجاه البدوى

ويمثل الإتجاه البدوى فى شعر العصر جماعة من الشعراء الوافدين من الجزيرة ، أكثرهم من نجد والحجاز ، ومنهم جماعة من المشهورين كابن ميادة ، والحسين بن مطير ، ومروان بن أبى حفصة فى بعض شعره .

ويغلب على هؤلاء البداوة فى الحياة ، والشعر ، ويميلون إلى اللفظ البدوى الغريب عن ذوق الحضر ، ولغته ، وهم مولوعون بحياة البادية ، يقتبسون منها تعبيراتهم وصورهم . وقد كثر وفود هؤلاء إلى البصرة فى العصر العباسى ، كما ذهب بعضهم إلى الكوفة وبغداد وشهدت مجالس الخلفاء والسادة والأمراء وفود بعضهم مادحين أو رواة للشعر ، أو شعراء متكسبين .

ومن بينهم نذكر فى أول هذا العصر ابن ميادة ، وابن هرمة ، والحسين بن مطير .

— ١ —

فأما ابن ميادة :

فهو الرّماح بن يزيد المرّى ، ينسب إلى ظالم بن مرة من ذبيان وكانت مساكنهم بين فدك وخيبر فى الشمال الشرقى من المدينة .

وكان الرماح ابن ميادة مشهوراً بهجائه ، ويقال إن أمّه ميادة كانت صقلية ، وادعى أنها فارسية . يقول :

أليس غلامٌ بين كِسرى وظالمٍ بأكرم من نِيطَتْ عليه التمائم

وقال[1] :

لو أن جميع النّاسِ كانُوا بِتَلْعةٍ وجئتَ بجدِّى ظَالمٍ دانَ طالمُ
لظلّت رقابُ الناس خاضِعةً لنا سجوداً على أقدامنا بالجماجم

ويقال إنه كان أحمر مبسوط الجسم نظيف الثياب ، يتطيب ويهتم بمنظره . وكان يغشى المربد ، ويلتقى هناك بالفرزدق ، ويروى أن الفرزدق استمع إلى أبياته السابقة فى الفخر ، وأغتصبها منه .

(١) رويت الأبيات فى الأغانى متتابعة مع اختلاف حركة الروىّ ، ويبدو أنهما من قصيدتين .

وعاش ابن ميادة معظم حياته زمن الأمويين ، وقصد الوليد بن يزيد ، ومدحه بقصائد ، وقربه الوليد وأجازه .

واشتهر بالهجاء ، وكان لاذعاً فيه ، وتهاجى هو والحكم الخضرى فهجاه الخضرى بنسبه وأمه .

وبعد تولى العباسيين الخلافة قصد أبا جعفر المنصور ، ومدحه بقصيدة يقول فيها[1] :

وكواعبٍ قد قُلْنَ يوم توافدٍ ... قَوْلَ المجدِّ وهُــنَّ كالمزَّاحِ
ياليتنا فى غير أمر فادح ... طلعت علينا العيسُ بالرَّمَّاحِ
بينا كذاك رأيتنى مُتَعَصِّبـاً ... بالخزِّ فوقَ جُلَالةٍ سِرْدَاحِ[2]
فيهنَّ صفراءُ المَعَاصِمِ طفلةٌ ... بيضاءُ مثل غريضَةِ التفاحِ
فنظرنَ من خلَلِ الحجَالِ بأعينٍ ... مرضَى مُخالِطَها السَّقَامُ صِحاحِ
وارتَشْنَ حين أردْنَ أن يرميننى ... نبلاً بلا رِيشٍ ولا بقداحِ

ومنها فى مدح المنصور :

فلئِنْ بقيتُ لألحقَنَّ بأبْحُرٍ ... ينمينَ ، لا قَطْعٍ ، ولا أنْزَاحِ
ولآتيَـنَّ بنـى علىٍّ إنَّهُـمْ ... من يأتِهِمُ يَتْلـقَّ بالإفـلَاحِ
قومٌ إذا جُلبَ الثناءُ إليهم ... بِيعَ الثناء هنـاك بالأرباحَ
ولأجلسَنَّ إلى الخليفة إنـه ... رحبُ الفِنَاءِ بواسع بَحْبَاحِ

والقصيدة فى غنى عن التعليق على ما فيها من روح بدوية فى الصياغة والألفاظ والصور ، والتعبيرات .

ومما يُروى من شعره الجيد فى حب الوطن قوله[3] :

ألا ليت شِعرى هل أبيتَنَّ ليلَةً ... بحَرَّةِ ليلَى حيث ربَّتنى أهْلِى
بلادٌ بها نِيطَت علىَّ تمائِمى ... وقطِّعنَ عنِّى حين أدركنى عَقْلِـى

---

(١) الأغانى ٢ /٣١٦ .
(٢) الجُلالة الناقة العظيمة ، والسِّرداحُ الطويلةُ الكثيرة اللحم .
(٣) الأغانى ٢ /٣١٨ .

وهل أسمعنّ الدّهر أصواتِ هَجمةٍ تطالع من هَجْلٍ خصيبٍ إلى هَجْلِ[1]
صُهَيْبيةٍ صفراء تُلقِى رِباعها بمنعرج الصُّمّان، والجرع السَّهْلِ[2]

وهو يصف منازل أهله بنى مرة وقبيلة بنى ذبيان من غطفان ، ويذكر مرابعهم ومشتاتيهم بالصمّان والدهناء مع كثير من قبائل نجد كتميم التى كانت تنزل الدهناء ، وبنى عامر التى جاورت تميم .

والصور كما ترى بدوية ، يحنّ فيها إلى منَازِله ، ومنازل قبيلته ومرابعها ويصف أبلهم الصهب ، وهى ترعى بالصمّان ، وكثبان الدهناء ، وثلد ، وتثرى حياتهم البدوية باللحم ، واللبن والأقط .

ويستمر فى عرض مشاهده البدوية ، ويذكر علاقته بفتاةٍ عربية :

وهل أجمعنّ الدّهر كفّىَ جَمعةً بمهضومة الكشحَيْن ذات شوًى عَبْلِ[3]
محلّلَةٍ ، لى لاحرامًا أتيتُها من الطيباتِ حينَ تركضُ فى الحجْلِ
تميلُ إذا مالَ الضجيعِ بِعطفِها كما مالَ دعصٌ مِن ذَرَا عُقِد الرَّمِلِ

وشارك ابن ميادة فى المنافسة القبلية بين قيس وتميم ، فانتصر لقيس بحكم نسبه فى ذبيان وبنى مرة . يقول :

فلو أن قيساً قيْسَ عيلانَ أقسمت على الشمس لم يطلع عليكم حجابُها
ولو حاربتنا الجنُّ لم نرفع القَنَا عن الجنّ حتى لا تَهِرّ كلابُها
لنا الملك إلاّ أن شيئاً تعدُّهُ قريشٌ ولو شئنا لذلّت رقابُها

ولا عجباً فى فخره على تميم بأن ينال من قريش وهى أقرب إلى قيس إلاّ ثورة الحماس جعلته يمسّها من قريب . مما دفع بشاعر يدفع عن قريش ليقول :

ولو أغضبتْ قيسٌ قريشاً لجدّعت مسامع قيسٍ وهى خُضّعٌ رقابُها

وهكذا كان رمّاح ابن ميادة أعرابياً بدوياً فى شعره ، وممارسَاتِهِ الشعرية لم يُهذّب الإسلام . ولا الحضارة من طباعة شيئاً ، فكان هَجّاءًا ، حجاماً لا يعبأ إذا ثارت عصبيته أن يدّمر ، وأن يعصف ، ولا يبالى :.

---

(١) الهجمة من الإبل القطيع ، والهجل المطمئن من الأرض .
(٢) والصّمان مجاور للدهناء شرق نجد ، والجرع الرمل .
(٣) الشّوى : الأطراف ـــ والعبل السحين الممتلىء .

— ٢ —

ابن هرمـــة[1]

وهو ابراهيم بن على بن سلمة من فهر من قريش .

وقيل إن أهله ألحقوا بقريش ، فسمُّوا بالخلج ، ولم يكونوا من قريش صليبة .

كان قصيراً دميماً بموق عينيه بياض .

روى أبو الفرج أن ابن هرمة كان يقول : أنا ألأم العرب ، دعيٌّ أدعياء هرمة ، دعيٌّ فى الخُلج ، والخُلجُ أدعياءُ قريش .

أتصل بعبد الله بن الحسن بالمدينة وكان ينزل عليه ، وعلى ابنه محمد النفس الزكية ، وكان يصاحبهما إلى البادية إذا خرجا إليها .

وعاصر الشاعر ابن ميادة ، وكانا يلتقيان ويتبادلان الحديث والشعر فكلاهما من شعراء البادية ، وإن وفدا على الخلفاء فى العراق .

ولم يتصل ابن هرمة بالأمويين فيما يبدو ، ولا كانت له بهم صلة ، وكانت صلته بالعلويين والعباسيين ، فلم تكن لديه الخشية التى حَجَبَتْ غيره من شعراء الأمويين الذين شهدوا نهاية دولتهم ، وبداية الدولة العباسية كمروان بن أبى حفصة ، وابن ميادة والحسين بن مطير .

وظلّ على صلة بعبد الله بن الحسن وابنه محمد إلى أن حدث ما حدث بينه وبين أبى جعفر المنصور وانتهى الأمر بمقتل النفس الزكية بالمدينة بعد حصارها .

وظلّ ابن هرمة يتنقل فى بادية الحجاز ، ويتجول بين عشائر العرب فى نواحى مكة والمدينة ، قاصداً بعض الرؤساء ليمدحهم ، ويحصل على الجوائز .

وكان له راوية يدعى ابن ربيح ، يحفظ شعره وينشده ، وكان حسن المنظر على نقيض ابن هرمة ، فكان يجتذب الناس بحسن منظره لسماع شعر صاحبه .

وقصد ابن هرمة المنصور قبل بناء المدينة المدورة أو مدينة السلام بغداد

(١) راجع أخباره فى الأغانى ، جـ ٤ .

وبعد بنائها ، ومدحه بقصائد جيدة . ويبدو أن أبا جعفر أعجب به ، وقربه . ويبدو أنه أصبحت له دالة عليه حتى إنه سأله أن يبيح له الشراب الذى كان ابن هرمة مغرماً به ، فقال له أبو جعفر : ويحك ! هذا حدٌّ من حدود الله . قال : احتَلْ لى يا أمير المؤمنين . فقال : نعم .

فكتب إلى والى المدينة : « من أتاكَ بابن هرمة سكرانَ فاضربه مائة واضرب ابن هرمة ثمانين » .

فكان الشرطىُّ إذا مرَّ به سكران لم يقربه .

ولا ندرى مدى صحة هذا الخبر ، إلاّ أنه يدلّ على أية حال على أن الخلفاء كانوا يغضون البصر أحيانا عن أخطاء مثل ابن هرمة من الشعراء المؤيدين أو الذين يخشون لسانهم .

وكان يقال إن ابن هرمة لأنه عاصر الدولتين الأموية والعباسية فكان من مخضرميهما سُمّى بساقة الشعراء ، أو خاتمة شعراء الأمويين وطليعة العباسيين ، أو هو آخر التقليديين ومن عرفوا بالسير على نهج القدماء ، وطرائقهم الفنية ، ولم يتأثر كثيراً بإتجاه المحدثين والمولدين .

ويروى عن الأصمعى قوله : « ختم الشعراءُ بابن هرمة ، والحكم الخضرىّ وابن ميَّادة ، وطفيل الكنانى ، ومسكين العذرى » .

ونقل أنه كان قادراً على صنعة الشعر متمكنا من اللغة حتى إنه صنع قصيدة من أربعين بيتاً خالية من الحروف المعجمة . قال فيها :

أَرَسْمَ سَوْدةَ أمسى دارِسَ الطَّلَلِ	معطّلاً رَدَّهُ الأحوالُ كالحُلَلِ
لما رأى أهْلَها سدُّوا مَطالِعَها	رامَ الصُّدُودَ ، وعَادَ الودُّ كالمَهَلِ
وعادَ ودّكِ داءً ، لا دواءَ لهُ	ولو دَعَاكِ طِوالَ الدهرِ للرَّحَلِ

وقد عابَ بعضهم شعرهُ فهجاه بقوله :

إيّاكَ لا أَلْزِمنْ لحييْكَ من لُجُمِى	نِقْلاً يُنَكِّلُ قرّاصاً من اللُّجم
يَدُقُّ لحْيَيْكَ أو تنقادَ متّبِعاً	مشى المقيَّدِ ذى القِردان والحَلَمِ
إنّى إذا ما امرؤٌ خفّتْ نعامَتُه	إلىَّ واستحصدتْ منه قُوَى الوذَمِ
عقدْتَ فى ملتقى أوْداجِ لَبَّتِهِ	طوقَ الحمامَةِ لا يَبْلَى على القِدَمِ

إني أمرؤ لا أصوغ الحَلْيَ تعمله كَفَّايَ ، لكنْ لسانى صائغُ الكلمَ
إنّ الأديمَ الذى أمسَيتَ تقرِظُهُ جهلاً لَذو نَغَلٍ بادٍ ، وذو حَلَمَ[1]
ولا يِئِطّ بأيدى الخائِطينَ ولا أيدى الخوالِق إلاّ جَيِّدُ الأدمِ[2]

وغنى عن التنبيه ما فى الشعر من هذه الروح البدوية لفظاً ، وتعبيراً وصورة وربما كان بعض ما عِيبَ عليه فى ا لشعر هذه الروح ، والجفاء الغالب دون محاولة منه لتهذيبه وتثقيفه ، ولذلك فهو يقول إنه لا يصوغ الحلْيَ ، أى لا يحسّن ما توردهُ عليه قريحة الشعر بل يلقى به كما هو بما يحمله من لفظ قد يجفو عن الطبع ، ويصُكُّ السمع .

وقضى ابن هرمة معظم حياته كما قلنا ببادية الحجاز ، يذهب أحياناً إلى حواضره ليمدح هذا أو ذاك . ومن مديحه فيمن اسمه ابراهيم بن عبد الله بن مطيع فى بادية مكة :

أرّقتنى تَلومنِى أمُّ بكـــرِ بعد هَدْءٍ ، واللّوْمُ قد يُغْرِينى
حذّرتنى الزّمانَ ثمّتَ قالتْ ليس هذا الزمانُ بالمأمون
قلتُ لمّا هبّتْ تحذّرنى الدّهـــ ـــرَ : دَعِى اللومَ عنك واستبْقِينِى
إنّ ذا الجود والمكارم إبرا هيمَ يعنيه كلُّ ما يَعنِينِى
قد خبرناه فى القديم فألفَيْنَا مواعيده كعيـــنِ اليقيـــن
قلتُ ما قُلْتُ للذى هو حقٌّ مُسْتبينٌ لا للذى يُعطِينِى
نضحت ارضَنا سماؤك بعد الجـــ ـــدْبِ فيها وبعد سوءِ الظّنُونِ
فرعيْنـــا آثـــارَ غيثٍ هرا قتهُ يَدَا محكَمِ القُوَى ميمونِ

وليس خافيا ما تحدثنا عنه من تلك الروح البدوية ، ومنها هنا فى المديح إلحاحه على تشبيه الممدوح بالغيث ، وهو خاصة ظاهرة فى شعر الأعراب ممن لم يعانوا البحار ، أو لم يكن البحر أو النهر يرسم فى وجدانهم صور الخير والعطاء كما يرسمها الغيث .

ولنتأمل هذه القصيدة الأعرابية الأخرى التى مدح بها محمد بن عبد الله بن

---

(١) والنغل دودٌ يقع فى الجلد .

(٢) يقصد بالأدم الجلد الجديد ، يحدث صوتا فى أيدى الخائطين ممن يصنعون منه الأحقاف وما شابه ، وليس كذلك القديم .

الحسن ، ويشير فيها إلى مكانة هذا الشريف ونسبه الكريم فى بيت النبوة ، وبنى هاشم من ذروة قريش سكان مكة وسادتها .

ويقول :

عُوجَا على ربع ليلى أُمِّ محمودِ ... حتى نسائِلَها مَنْ دون عَبُّودِ[1]
عن أُمِّ محمودَ إذ شطَّ المزارُ بها ... لعلَّ ذلك يَشفِى داء محمودِ
فعرِّجَا بعد تغويرٍ وقد وقفتْ ... شمسُ النهار ، ولاَذَ الظِّلُّ بالعودِ
شيئاً فما رجَّعَتْ أطلالُ منزلةٍ ... قفرٍ جواباً لمخزُونِ الجوَى مُودِى

يقول فى مدحها :

ذاكَ السَّرِىُّ الذى لولا تدفُّقُه ... بالعرفِ متّنا حليف المجدِ والجود
من يَعتمِدْك ن عبد الله مُجْتديًا ... نسيب غرفِك بعمدْ خير معْمُودِ
يا ابن الأساة الشُفاةِ المستغاثِ بهم ... والمطعِمِين درى الكومِ المقاصيدِ[2]
والسابقين إلى الخيرات قومَهُم ... سبق الجيادِ إلى غاياتها القودِ
أنت ابن مُسْلَنطح البطحاء منبُتُكمْ ... بطحاء مكة لا وس القراديدِ[3]
لكم سقايتها قدماً وندوتُها ... قد حازها والدٌ منكم لمولود
لولا رجاؤك لم تعسِف بنا قُلُصٌ ... أجواز مهمهةٍ قفر لصَوّى بِيدِ[4]
لكن دعانى وميضٌ لاح معترضاً ... من نحو أرضك فى دُهْمِ المناضيدِ

أرأيتَ أعرابية بادية اكثر من هذه وهو يمدح أحد رجالات المسلمين وأئمتهم الدينيين فلا يذكر شيئاً يمت إلى الإسلام والدين بصلة ، وإنما كلُّ ما وصفه به من الفضائل جاهلىٌّ أعرابىٌّ بدوى ، فكرمه يعبر عنه باطعام الناسَ النوق السمينة ، وهم من النسب فى المكان العريق من قريش البطاح ولهم السقاية فى الجاهلية ، واينَ مكانتهم فى الإسلام ، وفيهم النبوة والإمامة ؟!

وهكذا تدور معظم مدائحه فى أشراف المدينة ومكة ، وفى ولاة بنى العباس والخليفة المنصور نفسه ، إلاّ بعض الحديث عن العدل فى الرعية ، ورعاية أهل

---

(١) عبود : جبلٌ قرب المدينة .
(٢) الكوم المقاصيد النوق العظيمة السنام .
(٣) القراديد : المرتفعات .
(٤) والصُّوى : حجارة تنصبُ بالبادية لهداية السالكين .

اليمامة ، وجلب الخير لهم كما ورد فى مديحة للسرىّ الهاشمى والى اليمامة إذ يقول :

نَفى الظُّلْمَ عن أهل اليمامة عدلُهُ ... فعاشوا ، وراح الظلمُ عنهم وباطلُهْ
وناموا بأمنٍ بعد خوفٍ وشدَّةٍ ... بسيرةِ عدلٍ ما تخافُ غوائِلُهْ
وقد علم المعروف أنك خِدْنُه ... ويعلمُ هذا الجوعُ أنك قاتِلُهْ
بكَ اللهُ أحيى أرض حجرٍ وغيرَها ... من الأرض حتّى عاش بالبَقْلِ آكلُهْ
وأنتَ تُرجَّى للذى أنتَ أهلُهُ ... وتنفع ذا القربى لدَيْك وسائِلُهْ

ذلك شعره فى المديح إلاّ أنه اشتهر عند كثير من الأخباريين والأدباء بالقول فى الخمر . قال عنه الرقيق : « ومن المستهترين بالشراب المدمنين عليه ابراهيم بن هرمة » .

وقال عنه أبو الفرج : « وكان مشتهراً بالنبيذ . وكان يقولُ مُفَضّلاً فى شُرْبَ النبيذ على اللبن :

لا نبتغى لبن البعير وعندنا ... ماءُ الزَّبيبِ وناطفُ مِعْصَارُ

ومعانيه فى الخمر تجرى على نسق ما جاء فى شعر خمريات سابقيه كالأعشى والأخطل وغيرهما .

ـ٣ـ
الحسين بن مطير الأسدى

أحد شعراء هذا العصر ، قيل إنه من موالى بنى أسد ، ولا نعرف تاريخا لمولده ، ونرجح أنه ولد فى بداية القرن الثانى ، وهو من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، شهد مولد الدولة العباسية وقد بلغ مبلغ الرجولة ، ونضجت شاعريته .

وقيل إنه أقام بمنزلة على طريق مكة الكوفة تُسمَّى زُبَالَة ، لعلها بأرض بنى أسد شمالىَّ نجد ، وكانت قريةً عامرةً ، بها أسواق .

وأول ما يعرف عن أخبار وفوده إلى الخلفاء شاعراً كان أيام الوليد بن يزيد (ت ١٢٦ هـ) ، صحبه فى تلك الوفادة جماعة من الشعراء من بينهم مروان بن أبى حفصة ، وقد كان يسكن اليمامة ، فهو شاعر نجدىٌّ كذلك .

واتصل كمروان بالأمير العربى الشيبانى معن بن زائدة ، والى اليمن زمن أبى جعفر المنصور ، ومدحه بأرجوزة لامية يقول فيها :

حديثُ ليلَى حبَّذا إدْلَالُها
تَسْأَلُ عن حالِى وما سؤالُها
عن امرىءٍ قد شاقَهُ خيالُها
وهى شفاءُ النَّفسِ لو تنالُها
سَلَّ سيوفاً محدثاً صقالُها
صابٌ على أعدائِه وبَالُها[1]
وعِندَ معنٍ ذى النَّدى أمثالُها

وظلَّ وفيًّا لمعن ، يمدحه فى مناسباتٍ حتى غدر به الخوارج فمات معن سنة ١٥٢ هـ فرثاه كما رثاه مروان بقصيدة جيدة يقول فيها :

لِنَذْبِكَ أحزانٌ وسابقُ عَبْرةٍ ... أَثَرْنَ دمًا مِن داخِلِ الجوفِ أَنْقَعَا
تجرَّعتُها مِنْ بعدِ مَعنٍ بموْتِه ... لأَعْظَمُ مِنْها ما احْتَسَى وتجرَّعَا

---

(١) الصَّابُ : المرُّ .

وقد تأخرَّ كمروان فى قصد خلفاء العباسيين ، فلم يمدح أبا العبَّاس السفاح ولا أبا جعفر ، وأول من قصد المهدىّ ، ولعله رأى فى عدم تشدده ، وعفوه عن كثير ممن حبَس المنصور ، وفى تخفيفه من القبضة على المعارضين ما شجعه هو ومروان على طرق بابه .

وكان قصده المهدىَّ ليشارك غيره فى تقديم الولاء والمديح ، ولم يخيب المهدى ظنه ، فكافأه على مديحه ، وأجزل له العطاء كعادته مع الشعراء . وظل على صلته به حتى توفى سنة ١٧٠ هـ .

ومن مدائحه فى المهدى قوله :

لو يعبدُ الناسُ يامهدىُّ أفضلَهُمْ ... ما كانَ فى النَّاسِ إلاَّ أنتَ معبودُ
أضْحتْ يمينُكَ من جُودٍ مصوَّرةً ... لا بَلْ يمينُكَ منْها صُوِّر الجودُ
لو أنَّ من نوره مثقَال خرْدَلَةٍ ... فى السُّودِ طُرًّا إذا لا بيضَّتْ السُّودُ

ولا تغيب عن القارىء ملاحظة المبالغة ، والتكلف فى هذا الشعر ، ولعله أراد بذلك أن يكتسب عطف الخليفة الذى يعرف ولاءه السابق لبنى أمية ولمعن بن زائدة .

وهذه ظاهرةٌ غالبةٌ على شعر بعض المخضرمين الذين عاصروا الدولتين وبصفة خاصة أولئك الذين مدحوا بعض خلفاء الأمويين أو ولاتهم ، ثم اضطروا بعد مجىء الدولة العباسية إلى قصد خلفائها وكبارها . شاركه فى هذه الظاهرة مَرْوان على ما سَنُبيِّنُ ذلك عند الحديث عنه .

وشعر الحسين بن مطير مقَسَّمٌ بين المديح والرثاء والوصف ، والغزل والحكمة .

ومديحه تقليدى ، وكذلك رثاؤه ، ويختلف مديحه ورثاؤه لمعن ، إذ تغلب عليه نغمة الصدق ، وفى رثائه رنَّة الأسى كأن يقول :

ألِمَّا على معنٍ وقولا لقبره ... سَقَتْكَ الغَوَادِى مربعاً ثم مَرْبَعا
فياقبرَ معنٍ أنت أوَّلُ حُفرةٍ ... من الأرضِ خُطَّتْ للسماحة مضْجَعا
ويلقبرَ معنٍ كيف واريْتَ جُودَهُ ... وقد كانَ منه البرُّ والبحرُ مُترعَا
بلَى قد وسِعْتَ الجودَ والجودُ ميِّتٌ ... ولو كانَ حيًّا ضِقْتَ حتَّى تصدَّعا

وغزلهُ ذلك الغزلُ البدوى حار النَّفَس ، فطرى العاطفة ، والذى كانَ يعجب كثيرا من أهل الأدب فى بغداد . وقد أعجب ابن المعتز بقصيدته الجيمية التى يقول فيها :

كأنَّنا يا سُلَيْمَى لم نُلِمَّ بكُمْ ... وتحتنا عَلَسِيَّاتٌ ملاجيجُ(1)

يقول :

سقَى الله جيراناً لنا ظعنُوا ... لمَّا دَنَا من رياضِ الحَزْنِ يهيجُ
لم أخش بينَهُمُ حتَّى غدوا حِزَقاً ... واستوسَقَتْ بهم البُزْلُ العَناجيجُ(2)
فاحتثَّ من خلفِهم حاديُهم غرِداً ... وجَدَّدَت دون من تهوَى الهَواديجُ
تلكُم ديَارُكُمْ بالقَفِّ دَارِسةٌ ... يَستَنُّ فيها عِجاجُ الصَّيفِ والهوجُ(3)
قفراً ، خلاءَ المغَانِى ما يظلُّ بها ... إلا الظِّباءُ وغربانٌ مَشَاحِيجُ(4)

ويقول :

زارتك سَلْمةُ والظَّلمَاءُ داجيةٌ ... والعين هاجعةٌ ، والرُّوح معروجُ
فمرحباً بك من طيف ألمَّ بنا ... وليس يا سَلْمَ بِى فى السلم تحريجُ

وغنّى عن الإشارة تلك الروح البدوية لفظاً ومعنى ، وصورة . ومع هذا فابن المعتز يختارها فى طبقات الشعراء المحدثين ،ويقول عنها: فهذا كما ترى شعر كأنه الديباج ، بل نظم الدرّ فى حسنِ وصفٍ ، وإحكام رصف(5) . مع أن ذوق ابن المعتز وشعره يخالفان هذا النهج ، لكنها النفس قد تعاف اللون الغالب من الطعام ، وترغب فى الغريب لتدفع الملل . وهكذا كان بعض المحدثين ، يميلون للتملّح بمثل هذا الشعر الأعرابى .

ولابن مطير غير هذا الغزل الأعرابى شعرٌ فى وصف المطر يكشف عن مقدرة فى التقاط الصورة وتلوينها بألوان من إبداع الخيال تحلُو لتلقائيتها وغرابتها . يبدأ أبياته بالحديث عن الشباب حتى يقول :

---

(1) عَلَسِيَّاتٌ إبلٌ منسوبةٌ إلى عَلَس .
(2) الحِزَق : الجماعاتُ والقطعُ من كلِّ شىء ، والعناجيجُ الإبلُ النجيبةُ .
(3) العجاجُ : الغبارُ — والهوج :الشديدة من الرياح .
(4) مشاحيجُ ناعقةٌ — من شحج الغراب إذا رجع صوته ومدَّه .
(5) طبقات الشعراء لابن المعتز تحقيق عبد الستار فراج — طبع دار المعارف ، ص ١١٥ .

فعلى الشّباب تحيةٌ من زائرٍ ... يَغْدُو ويطرقُ ليلَةً وصباحَا

فدع الشُّبابَ فقد مضى لسبيلِهِ ... وانظر بِعينكَ بارِقاً لمَّاحَا

مازَالَ يدفعُه الصَّبا دفْع الطّلَى ... من لعلع حتى أضاءَ ولاحَا[1]

جونُ الرُّبابِ عصى الرّياحَ على الرُّبا ... مُتَبرِّكا مَن فوقها إلحاحَا

فعَلَا كُحَيْلَ بنى قَنانَ على الذّرا ... حُوًّا ، ودُهْماً يَستَرِدْنَ بِطَاحَا[2]

وكأنّ أصواتَ الحجيج عَشيَّةً ... يَثْغُونَ بالصَّوتِ الرفيع فَلاحَا

فيه . وأصواتُ الرُّوائِمَ فارقَتْ ... أولادَها ، فلجَجْنَ بعدُ رَوَاحَا[3]

يغشَى الوحوشَ بمرسَلٍ من مائِه ... مثلَ الزِّقاقِ ملأْتَهُنَّ رِيَاحا[4]

وترى صفوف الوحْشِ فى حافَاتِها ... كثمُودَ يومَ رغى الفصيلُ فَصاحا[5]

وكأنّ يثرب إذ علاها وبْلُهُ ... بلَدٌ تَغَوَّثُ أهلُهَ لِيَاحَا[6]

صوَّر بدوية ، والفاظٌ بدوية ، واستدعاءٌ لأوصاف سابقة عليه للمطر والسَّيل فى شعر القدماء ، وليس امرؤ القيس ممن أقلته ، فقد أعانه فى حديثه عن تتبع المطرفى منازله ، واندفاع السّيل ، واغتياله الوحش الذى شبهه هنا بالزقاق من الجلد اليابس الممتلىء بالهواء ، وهى صورة أخرى مقابلة لصورة امرىء القيس للوحش الغريق فى مجرى السّيل وقد شبهه بأنابيش عنصل .

ولكنَّ ابن مطير أبدع فى رؤيته البصرية من مشاهد الصحراء لوحات جديدة كتلك التى صور فيها أصوات الحيوان حول مجرى السُّيل وقد اختلطت وتعالت كتجمع الناس فى المواسم ، والحجيج إلى رموز المعبودات .

وهذا الإستدعاء للتراث القديم من عقائد عند شاعرٍ إسلامى فى القرن الثانى جدير بالملاحظة ، ودليل على أن التقاليد الفنية فى الشعر القديم لا تمحى آثارها

---

(١) الطَّلَى الشخص ، أو ابن الشاة أو الظبية ، والصورة هنا واضحة لأن الأم تدفع بوليدها أمامها . ولعلع مكان قرب البصرة بالعراق .

(٢) الكحيل موضع بالجزيرة لعله بنجد وبنو قنان هؤلاء من العرب أو الأعراب ينسب إليهم المكان لأنه من منازلهم . يستردْنَ: يحثن أو يجئن ، والبطاح الوديان .

(٣) الروائم الظباء ، لججن اجتهدن ، وأسْرَعْنَ ، يصور عودة القطيع فى زحام وسرعة .

(٤) الزقاق : جمع زقّ وهو من الجلد ، جلد الماعز أو الضأن ، وهو القربة ، وامتلأت رياحاً نُفخت .

(٥) رغا : أصدر صوتاً ، والفصيل : ابن الناقة .

(٦) الوبل المطر الغزير ــ وتغَوَّث طلب الغوث ، ويباح لعله اسم صنم قديم .

مع العقيدة الجديدة فى زمن محدود ، بل تحتاج إلى أجيال وأجيال ، ومع هذا قد تظل آثارها ، ورواسبها تعمل فى وجدان البشر ، وعقل الأمم الباطن لا تلبث أن تكشف عن نفسها وتطل برأسها من حين إلى حين .

الفصل الثالث

شعراء مجددون

— ١ —

بشار بن برد

المحدث رأس أصحاب البديع

وُلد بشار فى البصرة إبان الدولة الأموية فى خلافة عبد الملك ابن مروان من أحد كبار خلفائها[1] ، ودهاتها (توفى عبد الملك سنة ٨٦ هـ) . أو الوليد ابنه من أب (برد) فارسى الأصل من موالى بنى عقيل بالبصرة .

ونشأ فى حجر هذا البيت العربى العريق ، وكان يفخر بولائه فيهم ، وبما أخذه عنهم من الفصاحة . يقول :

اننى من بنى عقيل بن كعب	موضع السيف من طلا الأعناق

وبنو عقيل من بنى عامر من « قيس عيلان » لهذا اعتبر شاعر قيس كلها . وبهذا خاطبه القيسى بهذا اللقب ، ونبه إلى خطورته ، وما ينبغى عليه من المحافظة عليه . يقول محمد بن حازم الباهلى :

اتق الله انت شاعر قيس	لا تكن وصمة على الشعراء[2]

ويفخر بقيس فيقول :

أمنت معرة الفحشاء انى	أرى قيسا تضر ولا تضار
كأن الناس حِينَ تغيب عنهم	نباتُ الأرض أخطاه القطار
وقد كانت بتدمر خيل قيس	فكانَ لتدمر فيها دمار
بحيٍّ من بنى غيلان شوس	يسير الموت حيث يقال ساروا
وما نلقاهم إلا صدرنا	برى منهم وهم حرار

فبشار اذاً يشارك فى هذا الصراع القبلى الذى احتدم إبان العصر الأموى بين القيسية واليمنية ، ويأخذ جانب القيسية ، لولائه ، ولأنه اعتبر شاعر قيس بالبصرة ، وبخاصة بعد موت جرير والفرزدق[3] .

(١) يختلف الناس فى مولده .

(٢) راجع الأغانى ، وكتاب « بشار بن برد » لحسين منصور ، ص ٢ ، طبع القاهرة ١٩٣٠ .

(٣) الأغانى ، دار الكتب ، جـ ٣ ، ص ١٣٩ .

وتنازعته العصبية الفارسية ، فلم ينج من الفخر بها ، إذا ما أثاره أحد أو غمزه فى نسبه غامز . وتراه يجمع بين الولاءين ، فيفخر بعروبته ولاءا ، وبأصله الفارسى ، وقد بلغ به بعض الناسبين ، ورواه الأغانى الى أحد ملوك الفرس القدماء وهو « جستاسب » ، ويشير إلى هذا النسب العريق فى شعره ، حين يشمخ به فيقول [1] :

وربذى تاج كريم الجد كآل - كسرى وكآل برد
فصلته عن ماله والولد

ويقول :

ونبئت قوما بهم جنة يقولون من ذا وكنت العلم
ألا أيها السائلى جاهدا ليعرفنى أنا أنف الكرم
نمت فى الكرام بنى عامر فروعى وأصلى قريش العجم

فالشاعر اذا منقسم النفس بين الولاء للعرب ، الذين ترعرع فيهم ونشأ ولقن الفصاحة والشعر ، والولاء للفرس الذى يجرى دمهم فى عروقه ، وهو فى هذا وذاك ينظر الى نفسه فيجد المتناقضات ، وهو شاعر موهوب ، من أصل عريق ، فمن حقه أن ينزل بين الناس منزلة كريمة رفيعة ، لكنه لا يجد فى الوقت نفسه تلك المكانة التى يرجوها ، ويأبى القدر إلا أن يزيد فى تعاسته ، وإلا أن يباعد بين ما هو عليه من واقع الحال ، وما كان يصبو اليه ، فيولد قبيح الوجه بالعمى ، ويأبى إلا أن يضاعف هذا القبح فيصاب بالجدرى فيزيده تشوها ، ويشب ضخم الجثة كالفيل أو كالثور ، فيما يصفه الرواة . وكان جاحظ العينين يغشاهما لحم أحمر زاد فى قبحه حتى صار يضرب به المثل ، يقول مخلد بن على السلامى فى هجاء ابراهيم بن المدبر :

أرانى الله وجهك جَاحِظِيًّا وعينك عين بشار بن برد

ومما روى فى صفاته . قال الأصمعى : « وصف لى بشار فكان أقبح الناس عمى ، وأفظعهم منظراً » ، وقال : « كان بشار ضخما عظيم الخلق والوجه مجدورا ، جاحظ المقلتين ، وقد تغشاهما لحم أحمر ، فكان أقبح الناس عمى

---

(١) من أرجوزته المشهورة فى عقبة بن سلم .

وأفظعهم منظرا ، وكان اذا أراد أن ينشد صفق بيديه وتنحنح وبصق عن يمينه وشماله ثم ينشد فيأتى بالعجب » .

وكان لشكل بشار وضخامة جثته أثر على نفسه ، فكان يخشى الناس أن ينبذوه به ، وكان يقف منهم اذا ما تعرضوا لصورته موقفين ، فيهيج تارة ويثور اذا ما رأى ضعف من أمامه من شاعر أو غيره ، فإذا كانت امرأة سلقها بلسان خبيث ، وأما اذا خشى من أمامه أن يشهر به سالمه وضعف أمامه .

وكان بشار يلقب بالمرعث ، لأنه كان يلبث رعثين أو قرطين فى أذنيه كعادة الفرس القدماء. ويكنى بأبى معاذ .

ويحلل بعض الباحثين — الدكتور النويهى — شخصية بشار ابن برد فى ضوء علم النفس وعلى أساس ما عرف من صفاته وأخلاقه ، وسلوكه الإجتماعى ، فيراه أعمى دميما ، مولى مضطهدا منجوسا حساسا أبيا مشاكسا ، سليطا فاجرا ، متشككا ممقوتا ، كارها للبشر ، إلى جانب بعض الصفات الخيرة ، فقد كان بارا بأهله وولده وبعض أصدقائه ، كريما ، صدوقا فى صداقته ، صفوحا أحياناً ، فكها شجاع القلب والرأى ، عنيدا .

وحاول النويهى أن يشكف عن أثر بيئته فى طبعه ، من خلال تلك الصفات التى ركبت منها شخصيته ، وهو يرى أن العوامل الأساسية فى اصطباغ شخصيته بتلك الصفات الصارخة هى خلقته : عماه ، ودمامته ، وحدة شعوره ، وتهتكه الجنسى . وهو مهما تكن البيئة التى يعيش فيها فلابد من أن يتعذب قدرا من العذاب بسبب حرمانه البصر ، وقبح منظره .

وكان بشار ميالا الى العبث منذ صغره ، نزاعا الى الهجاء والسخرية بالناس . وقد بدأ قول الشعر فى صباه ، وناش بلسانه من وقع فى طريقه ، فلجأوا إلى والده لينهاه فكان يضربه ، فلما ضاق به وزجره لكثرة شكوى الناس منه قال له بشار : يا أبت إنّ هذا الذى يشكونه اليك منى هو قول الشعر ، وإنى إن أتممت عليه أغنيتك وسائر أهلى . فإذا شكونى اليك فقل لهم : أليس الله عز وجل يقول : (ليس على الأعمى حرج) . فلما أعادوا الشكوى على أبيه قال لهم ما ذكره ابنه فانصرفوا قائلين : والله لفقه برد أغيظ لنا من شعر بشار .

وكان عابثاً لا يرعى حدود الدين والمجتمع أو التقاليد ، ولا يرعوى من زجر ، ويجرى مع رغباته . كما يقول :

« ولقد جَرَيْتُ مع الصبا طلق الصبا »

ويدعو إلى اقتحام اللذات فيقول :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته   وفاز بالطيبات الفاتِكُ اللهج

وفى شعره دعوة صارخة الى الإباحة وعدم مراعاة الحرم فى النساء يقول :

لا يؤيسنك من مخبأة   قول تغلظه وإن جرحا
عسر النساء الى مياسرة   والصعب يسهل بعدما جمحا

وكان يضع من الشعر السهل فى الغزل الفاضح ما يستهوى قلوب النساء وشباب البصرة فيجرى على كل لسان ، مما دعا علماءها ونساكها يثورون به . ويطاردونه غيرة على الدين والأخلاق فى بلدهم . وكانوا يقولون إنهم لا يخشون شيئا على شباب البصرة أشد من شعر هذا الأعمى لأنه دعوة للفجور سافرة .

ويبدو أن بشارا لم يكن يكتفى من الأمر بالقول ، بل كان يتبعه بالفعل . وكان له فى منزله مجلسان أحدهما قريب المدخل ، ويجلس فيه وصحابته مساء يشربون ويسمعون الغناء من القينات ، ومجلس آخر فى داخل المنزل يجتمع فيه بمن يرى الإجتماع به من الرجال والنساء ، وكانت بعض النسوة يأتينه ليسمعن الشعر ، أو ليصنع لهن الشعر فيحطن به ويسجل أنباء المجلسين وهما « الرقيق » و « البردان » ، فيقول ويحكى زيارة جماعة من النسوة له فى بيته ، وتأنيب الحسن البصرى — وكان يسمى القس — أياه فى مجلسه :

لما طلعن من الرقيق   على بالبردان خمسا
وكأنهن أهله   تحت الثياب زففن شمسا
باكرن عطر لطمية   وغمسن فى الجادى غمسا
لما طلعن حففتها   وأصخن ما يهمسن همسا
وسألتنى : من فى البيو   ت؟ فقلت ما يأوين إنسا
ليت العيون الطارقا   ت طمسن عنا اليوم طمسا
لولا تعرضهن لى   ياقس كنت كأنت قسا

وكان لتهتكه قصص تروى ، وهو لا يرعوى ، يشرب جهارا ، ويأتى من الأفعال المنكرة ، ما يثير عقلاء الناس ، فيسمع وهو يؤذن فى غير وقت الصلاة ، ويخرج مع الناس ، متظاهرا بقضاء الفريضة ، فيجنح الى بيت للقيان يقضى فيه وصاحبا له أوقات الحج حتى إذا عاد الحجيج الى البصرة لحقا بمواكبه فيظن الناس أنهما حجا ولم يحجا إلا الى اللهو والشراب .

ويسجل صاحبه فى هذه الزورة « سعد بن القعقاع » ذلك فيقول فيما يروى عنه : « قال يوما لبشار وهو ينادمه : ويحك يا أبا معاذ ، قد نسبنا الناس إلى الزندقة فهل لك أن تحج بنا حجة تنفى ذلك عنا ؟

ــ قال نعم ما رأيت .

فاشتريا بعيرا ومحملا ومركبا ، فلما مرا بمكان يقال له زرارة ، قال له : ويحك يا أبا معاذ ! ثلاثمائة فرسخ متى نقطعها ، مل بنا الى زرارة نتنعم فيها فإذا قفل الحاج عارضناهم بالقادسية وجززنا رؤوسنا فلا يشك الناس أنا جئنا من الحج .

فقال بشار : نعم مارأيت لولا خبث لسانك ، وأنى أخاف تفضحنا .
قال : لا تخف .

فمالا إلى زرارة ، وما زالا يشربان الخمر حتى نزل الحجاج بالقادسية راجعين ، فأخذا بعيرا ومحملا ، وجزا رؤوسهما وأقبلا فتلقاهما الناس فقال فى ذلك صاحبه سعد :

ألم ترنى وبشارا حججنا	وكَانَ الحج من خير التجارة
خرجنا طالبى سفر بعيد	فمَالَ بنا الطريق الى زرارة
فآبَ الناس قد حجوا وبروا	وأبنا موقرين من الخسارة.

ولم يقلع بشار عن هذه الزندقة الاجتماعية ، أو الإباحية ، والمجون ، حتى فى آخريات حياته ، وكان المهدى الخليفة غيورا على الحريم فمنعه من ذكر النساء والغزل عامة لاستهتاره .

ويقول فى ذلك :

يا منظرا حسنا رأيته ... من وجه جارية فديته

بعثت إلىّ تسومني ... ثوب الشباب وقد طويته

والله رب محمد ... ما إن غدرت ولا نويته

أمسكت عنه وربما ... عرض البلاء وما ابتغيته

إن الخليفة قد أبى ... وإذا أبى شيئا أبيته

ونهانى الملك المسلم ... عن النساء فما عصيته

بل قد وفيت ولم أضع ... عهدا ولا رأيا رأيته

إلى أن يقول :

ويشوّقني بيت الحبيب ... إذا غدوت وأين بيته

حال الخليفة دونه ... فصبرت عنه وما لقيته

ويقول من أبيات :

قد عشت بين الريحان والرّا ... ح والمزهر فى ظل مجلس حسن

وقد ملأت البلاد ما بين فغفو ... ر إلى القيروان واليمن

شعرا تصلى له العَواتِقُ والثيـ ... ـب صلاة الغواة للوثن

ثم نهانى المهدى فانصرفت ... نفسى صنيع الموفق اللقن

ولكنه لم يرتدع تماما .

ولقد عاداه كما قلت جماعة من نساك البصرة وعلمائها لهذا المسلك ولذلك الشعر الإباحى الماجن ، حتى إن واصل ابن عطاء ضاق به مع أنه كان صاحبه زمنا يجلس معه فى مجلس العلم ، لكنه خرج عن وقاره فاضطره إلى معاداته ، وقال لأصحابه : أما لهذا الملحد الأعمى المكتنى بأبى معاذ من يقتله ؟ « أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لبعثت إليه من يبعج بَطْنَهُ على مضجعه ويقتله فى جوف منزله وفى يوم حفله ، ثم لا يتولى ذلك منه إلا عقيلى أو سدوسى » وكان يقول : « إن لمن أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الملحد الأعمى » .

وانتهى الأمر بينهما إلى أن نفاه واصل من البصرة حوالى سنة ١٢٠ هـ والشاعر فى أوج رجولته فقصد إلى حران حيث سليمان بن هشام بن عبد

الملك . وظل طريدا من البصرة إلى سنة ١٣١ هـ قبيل استيلاء العباسيين بعام واحد فقد توفى فى هذا العام واصل بن عطاء .

وكان موقف مالك بن دينار كموقف الحسن البصرى وواصل بن عطاء ، تعرض لبشار مثلهما لاستهتاره . وكان مالك يقول : ما من شىء أدعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى .

وأصبح مالك يوما فقرع على بشار بابه فقال بشار :

— يا جارية ، أنظرى من هذا ؟

فرجعت وقالت — مالك بن دينار .

فقال — ما هو من أحزابى ولا أشكالى . أدخليه .

— فدخل مالك وقال : يابشار أتشتم أعراض الناس وتشبب بنسائهم .

فقال بشار : لن أعود . وما أن ولاه ظهره حتى عاد لما كان عليه وأنشد :

غدا مالك بملاماته	علىَّ وما كان من باليَهْ
تناول خَوْدًا هضيم الحشا	من الحور محطوطَة خالية
فقلت دع اللوم فى حبها	فقبلك أعييت عُذّالِيَهْ

وقد غرق بشار فى لهوه ، وكان يوفر لنفسه المتعة فى السكن والحياة ، يسكن دارا يجمع فيها كل ما يلذه ، ويقتنى الخدم والرقيق من الغلمان والجوارى ، ويقتنى المغنيات أو يدعوهن للحضور على السماع وينعمون بأطيب الطعام .

وكان يلبس حلة الشاعر من الديباج ، وحين يطرب يصفق بيديه .

ويغشى دور القيان بالبصرة ، وفى شعره تسجيل لمجالس الغناء . ومنه تلك القصيدة التى يصف فيها مغنية تنشد بلحن مشهور . يقول :

وذات دل كأن الحسن صُورَتُها	باتت تغنى عميد القلب سكرانا
(إنّ العيون التى فى طرفها حور	قَتلْنَنا ثم لم يحيين قتلانا)
	(لجرير)
فقلت احسنت ياسؤلى وياسكنى	فاسمعينى جزاك الله إحسانا
(ياحبذا جبل الريان من جبل	وحبذا ساكن الريان من كان)
	(لجرير)

قالت: فهلاّ فدتك النفس أحسنَ من هذا لمن كان صب القلب حيرانا
(ياقوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل القلب أحيانا)
(لبشار)

فقلت أحسنت أنت الشمس طالعة اضرمت فى القلب والأحشاء نيرانا
فاسمعيني صوتا مطربا هزجا يزيد صبا محبا فيك أشجانا
يا ليتنى كنت تفاحا مفلجة أو كنت من قضب الريحان ريحانا
حتى إذا وجدت ريحى فأعجبها ونحن فى خلوة مثلت إنسانا
فحركت عودها ثم انثنت طربا تشدو به ثم لا تخفيه كتمانا
(اصبحت أطوع خلق الله كلهم لأكثر الخلق فى حبيك عصيانا)
فقلت أطربتنا يا زين مجلسنا فهات إنك بالاحسان أولانا
فغنت الشرب صوتا مونقا رملا يذكى السرور ويبكى العين ألوانا
(لا يَقْتُلَ الله من دامت مودته والله يقتل أهل الغدر أحيانا)

واذا ما تركنا هذا الجانب من حياة بشار الى جانب آخر ، أكثر جدية ، وجدناه عالما فقيها أديبا جامعا يرتاد مجالس العلماء ، ويصحب جماعة من المعتزلة أمثال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد زمنا ، ويسجل صداقته لزعيم المعتزلة فى البصرة بجملة من القصائد قبل أن تسوء الحال بينهما .

يقول بشار ممتدحا واصل بن عطاء فى خطبته المشهورة التى أسقط فيها الراء للثغة فى لسانه ، فجلى على من حضر من الخطباء :

فقام مرتجلا تغلى بداهته كمرجل القين لما حف باللهب
وجانب الراء لم يشعر به أحد قبل التصفح والإغراق فى الطلب

وقال مرة أخرى :

أبا حذيفة قد أوتيت معجزة من خطبة بدهت من غير تقدير
وإنّ قولا يروق الخالدين معا لمسكت مخرس عن كل تعبير

ولكن الخلاف بينهما لم يكن فيما يبدو قاصرا على استهتار بشار أو بسبب شعره الماجن فى النساء بل كان كذلك للخلاف فى العقيدة ، ولما جاء به لسان الشاعر من أشياء تخالف اتجاه المعتزلة ، كالقول « بالجبر » وهم القائلون

بالإختيار ، وكتناوله لرجال الدين والصحابة بكثير من السخرية وعدم الإحترام لأقدارهم ، ولقوله كذلك بمذهب الديصانية والرجعة ، وتفضيل النار على الطين ، والأعتقاد بالثنوية الفارسية ، والإِلَهَيْنِ للنور والظلمة .

وبما يثبتون به جبرية بشار قوله :

طبعت على ما فى غير مخير — هواى ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد — وقصر علمى أن ينال المغيبا
فاصرف عن قصدى وعلمى مقصر — وأمضى وما أعقبت إلا التعجبا

وفى الطين والنار ، والظلمة والنور يقول :

الأرض مظلمة والنار مشرقة — والنار معبودة مذ كانت النار

وفى تفضيل إبليس على آدم لأنه من النار يقول :

إبليس خير من أبيكم آدم — فتنبهوا يا معشر الفجار
ابليس من نار وآدم طينة — والأرض لا تِسمو سمو النار

لهذا رماه المعتزلة بالكفر والزندقة ، ولم يكن بشار فيما ورد من أخباره أو ذكر من شعره داعية إلحادٍ أو زندقة فكرية ، بل ربما زلقت على لسانه بعض الآراء والأفكار التى علقَها فى دراساته ومعارفه التى استقاها من علمه بالمذاهب والفرق المختلفة ، وقد كان الرجل المثقف الذكى الواسعَ الإطلاع .

ومهما يكن من أمر فإن العداء بينه وبين المعتزلة خلف لنا من شعره قصائد فى هجاء واصل بن عطاء ، لتعقبه إياه ونفيه من البصرة . فمما قال فيه :

ما لى منيت بغزال له عنق — كنقنق الدَّوِّ إنْ ولى وإن مثلا
عنق الزرافة ما بالى وبالكم — تكَفِّرون رِجالاً كفَّروا رَجُلاً

يريد أن المعتزلة كفروا الخوارج لأنهم بدورهم كفروا عليا ، وسمى واصلا الغزَّال لأنه كان يسكن حى الغزاليين بالبصرة فعرف بهذا اللقب .

ورد أحد شعراء المعتزلة وهو « صفوان الإنصارى » أحد أصدقاء واصل

(١) يروى أن بشارا زعم أن جميع المسلمين كفروا بعد وفاة الرسول ﷺ قيل له : وعلى أيضا فقال :
وما شر الثلاثة أم عمرو — بصاحبك الذى لا تصبحينا

بن عطاء بقصيدة طويلة أنشدها عقب موت واصل بن عطاء وعودة بشار إلى البصرة . قال[1] :

رجعت الى الأمصار من بعد واصل ... وكنت شريدا فى التهائم والنجد

يقول فيها مشيرا إلى عقيدة بشار التى عاداه من أجلها ابن عطاء :

زعمت بأن النار إكرم عنصرا ... وفى الأرض تحيى بالحجارة والزند
ويخلق فى أرحامها وأرومها ... أعاجيب لا تحصى بخطٍ ولا عقد

ويعدد فضائل الأرض وما فيها من الخيرات والنعم الكبرى ثم يقول :

وفيها مقام الخل والركن والصفا ... ومستلم الحجاج من جنة الخلد

* * *

مفاخر للطين الذى كان أصلنا ... ونحن بنوه غير شك ولا جحد
وذلك تدبير ونفع وحكمة ... واوضح برهان على الواحد الفرد

* * *

ويقول :

انجعل عمرا والنطاسى واصلا ... كاتباع ديصان وهم قمش المد[2]

* * *

فياابن حليف الطين واللؤم والعمى ... وأبعد خلق الله من طرق الرشد
اتهجو أبا بكرٍ وتخلع بعده ... علياً وتعزو كل ذاك إلى برد
كأنك غضبان على الدين كله ... وطالب ذحل لا يبيتُ على حقد

ويرمونه بالشعوبية كما رمى بالزندقة والكفر والإلحاد ، وكانت هذه الاتهامات فى ذلك العصر تعلق على الرءوس ، من يستحق ، ومن لا يستحق لمجرد شبهة ، أو قول يُزَوَّرُ على غير وجهته .

---

(١) راجع القصيدة بتمامها ، ص ١٠١ـــ١٠٢ ، بشار بن برد لحسين منصور .

(٢) قمش المد : غثاء السيل .

وقد رمى قوم بالشعوبية ومعاداة العرب ، ومن بينهم جماعة من كبار العلماء أمثال أبي عبيدة معمر بن المثنى . وأخذ على بشار تهجمه على العرب وافتخاره بالفرس وتفضيلهم ويروون على رأس الإتهام من الأدلة قوله :

سأخبر فاخر الأعراب عني ... وعنه حين تأذن بالفخار
أحين كسيت بعد العرى خزا ... ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يا ابن راعية وراع ... بني الاحرار حسبك من خسار

الى آخر القصيدة .

وهى أبيات رد بها على أحد الأعراب ، وكان قد سخر به فى مجلس أحد أعيان البصرة إذ دخل بشار وعليه بزة الشاعر فقال الأعرابى ، من الرجل ؟ فقيل له شاعر فقال : أمولى هو أم عربى ؟ فقيل له : مولى هو ، فقال : وما للموالى وقول الشعر فغاظ بشارا هذا القول فنظم تلك الأبيات .

وهى من نبت ثورة استفز لها ، ولم يكن عن عقيدة يعتقدها . وكيف كان يعتقد ذلك وهو يمدح العرب من خلفاء بنى أمية وكبارّ رجالهم وقادتهم ، ويمدح العباسيين وكبار قادتهم من العرب ويفخر بولائه لبنى عقيل ، ويعتبر شاعر قيس كما أشرنا من قبل ، ولكنه قد يثور على الولاء ، ويعتبره مزريا بالكرامة ، ولا يرى ولاءا الا لله تعالى وحده فيقول :

أصبحت مولى ذى الجلال وَبَعْضُهُمْ ... مولى العريب فخذ بفضلك وافخرْ
مولاك أكرم من تميم كلها ... أهل الفعال ومن قريش المعشر
فأرجع إلى مولاك غير مدافع ... سبحان مولاك الأجل الأكبر

وهى نفثة أخرى من صدر مسجور ، وثورة على رُبقَةِ الولاء ، وصَغَارِه ، وكيف لا يثور والدين نفسه جعل الناس سواسية لا فرق بين عجمى وعربى إلا بالتقوى والعمل الصالح . ولا شك أن هذه الثورة كانت من مصدور ضاق بعنجهية بعض الأعراب وتفاخرهم الكاذب ودعاواهم بالأنساب والأحساب . وهى الدعاوى التى عصفت بالدولة الأموية وهزت أركان المجتمع الإسلامى هزا عنيفا . وقد وضع الإسلام هذه الأنساب والأحساب وأرساها النبى فى خطبة الوداع .

شــــعره :

قال الجاحظ : كان بشار خطيبا صاحب منثور ومزدوج وسجع ورسائل ، وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والإختراع المتفننين فى الشعر القائلين فى أكثر أجناسه وضروبه .

وقال ابن شرف القيروانى : هو أول المحدثين وآخر المخضرمين ممن لحق الدولتين ، عاشق سمع ، وشاعر جمع ، شعره ينفق عند ربات الحجال وعند فحول الرجال ، فهو يلين حتى يتعطف ويقوى حتى يستنكف .. وقد طال عمره وكثر شعره ، وطما بحره ، ونقب فى البلاد ذكره .

وقد أجاد بشار فى فنون الشعر المختلفة ، وكانت شاعريته غنية متدفقة . قال عن نفسه : لى اثنا عشر ألف بيت عين فقيل له : هذا ما لم يكن يدَّعيه أحد سواك ، فقال : لى اثنتا عشرة ألف قصيدة ، لعنها الله ولعن قائلها إن لم يكن فى كل واحدة منها بيت عين .

وقد سئل مرة: ليس أحَدٌ من شعراء العرب إلا وقد جاء فى شِعرِهِ شيء استنكرته العرب وشك فيه، وان شعرك ما فيه شك أو خطأ. فقال: ومن أين يأتينى الخطأ . ولدت ها هنا يعنى فى البصرة ، ونشأت فى حجور ثمانين شيخا من فصحاء بنى عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ . وإن دخلت إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ، ويفعت فأبديت إلى أن أدركت فمن أين يأتينى الخطأ ؟.

واعتبر بشار آخر من يستشهد بشعره . وللأصمعى فيه ولأبى عمرو بن العلاء رأى حسن ، وكان ذا قدرة على أن يحاكى شعر الأعراب ، ويصطنع أساليبهم ، وقد روى أن خلفا الأحمر وأبا عمرو بن العلاء ، وكانا من رواة الشعر الكبار بالبصرة ، يختلفان إلى بشار بن برد يسألانه ما جاء به من الجديد ، وقد جاءاه يوما إلى داره فقالا له : ما أحدثت يا أبا معاذ . فقد بلغنا عنك قصيدة فى مدح سلم بن قتيبة . قال هى ما بلغتكما ، وقد علمت أن سلما يتباهى بالغريب فأحببت أن أورد عليه ما أحب . ثم أنشدهما :

بكرا صاحِبَىَّ قبل الهجير   إنّ ذاك النجاح فى التبكير

فقال أحدهما : هلا قلت ، بكرا فالنجاح فى التبكير . فقال : انه إنما يريد أن يبنيها بدوية وحشية .

وكذلك فعل فى أرجوزته البدوية التى مدح بها عقبة ابن سلم بن قتيبة وتحدى فيها عقبة بن رؤبة بن العجاج الذى زعم أن بشارا لا يحسن هذا الضرب من الرجز الذى برع فيه هو وآباؤه : ولكن بشارا أثبت له أنه قدير كذلك فى فن الرَّجَزْ كما هو قدير فى فن الشعر ، وأن باستطاعته أن يلبس فيه لبوس الأعراب ، يقول فى هذه الأرجوزة :

يا طلل الحى بذات الصمد ... بالله خبر كيف كنت بعدى
أوحَشْتَ من دعد وترب دعد ... سقيا لأسماء ابنة الأشد
قامت تراءى اذ رأتنى وحدى ... كالشمس تحت الزبرج المنقد
صدَّتْ بخدو جلت عن خد ... ثم انثنت كالنفس المرتد
عهدى بها سقيا له من عهد ... تخلف وعدا وتفى بوعد
فنحن من جهد الهوى فى جهد ... وزاهر من سبط وجعد
أهدى له الدهر ولم يستهد ... أفواف نور الحبر المجد
يلقى الضحى ريحانه بِسَجْدِ ... بدلت من ذاك بكسا لا يجدى

* * *

وافق حظا من سعى بجد ... ما ضر أهل القول ضعف الجد
الحر يلحى والعصا للعبد ... وليس للملحف مثل الرد
والنصف يكفيك من التعدى ... وصاحب كالدمل الممد

* * *

حملته فى رقعة من جلدى ... أرقب منه مثل يوم الورد
حتى مضى غير فقيد الفقد ... ومادرى ما رغبتى من زهدى

* * *

أسلم وحييت أبا الملد ... مفتاح باب الحدث المنسد
مشترك النيل ورى الزند ... أغر لباس ثياب الحمد
ما كان منى لك غير الود ... ثم ثناء مثل ريح الورد

نسجته في محكمات الند فالبس طرازي غير مسترد

* * *

لله أيامك في معد وفي بني قحطان غير عد
يوم بذي« طخفة »عند الحد ومثله أودعت أرض الهند
بالمرهفات والحديد السرد والمقربات المبعدات الجرد
إذا الحيا أكدى بها لا تكدى تلحم أمرا وأمورا تسدى

* * *

وابن حكيم ان أتاك يردى اصم لا يسمع صوت الرعد
حييته بتحفة المشد فانهد مثل الجبل المنهد
كل امرىء رهن بما يؤدى ورب ذى تاج كريم الجد
كآل كسرى وكآل برد انكب جاف عن سبيل القصد

فصلته عن ماله والولد

ويروض بشار نفسه على قول الشعر منذ صباه ، فيرى تحت سمعه وبصره كبار شعراء عصره يفدون إلى مَرْبِد البصرة ، يتناشدون الأشعار ، وتثور فى نفس الفتى الرغبة فى قول الشعر ، ومعارضة الكبار ، ويحاول أن يطاول جريرا ، وقد رمى به أمله هذا المرمى السابق فلا يجاوبه جرير بطبيعة الحال ، ولو جاوبه على ذاك السن لكان أشعر الشعراء كما يقول .

ولكنه مع ذلك لا يدع نماذج أشعارهم تفلت من بين يديه ، فيروض نفسه على تقليد جرير والفرزدق ، ولا تزال أبياتهم ترن فى أذنيه ، وتتسلل إلى قصائده . ونرى مثالا عليها فى الميمية التى هجا بها أبا جعفر المنصور ومدح إبراهيم بن عبد الله بن الحسن العلوى الذى ثار فى البصرة ، ثم أخمدت ثورته . قال بشار :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم وما سالم عما قليل بسالم

وينهج فيها طريق نقيضتين ميميتين إحداهما للفرزدق ، قالها فى مقتل قتيبة بن مسلم ، يشمت ويمدح سليمان بن عبد الملك مطلعها :

تحن بزوراء المدينة ناقتى حنين عجول تبتغى البَوَّ رائم

وثانيتهما لجرير يقول فى مطلعها :

ألا حى ربع المنزل المتقادم ومساحل مذ حلت به أم سالم

وتأثره واضح فى بعض معانيهما وفى الصياغة والألفاظ ، مما يدل على أنهما كانتا تدوران فى خلده أثناء نظمه لقصيدته . وربما جعل من قصيدته هذه نقيضة ثالثة ليعارض بها الشاعرين الكبيرين ، ويروض بها القول محاولا أن يطاولهما ، ونمر فى كلام بشار على عبارات تستدعى مثيلاتها فى قصيدة الفرزدق أو قصيدة جرير . فاذا مررت بقوله (بشار) :

فلا تجعل الشورى عليك غضاضة فإن الخوافى قوة للقوادم

لا شك تذكر قول جرير :

وريش الذنابى تابع للقوادم

ونمر بقول بشار كذلك :

على الملك الجبار يقتحم الردى ويصرعه فى المَأْزِق المتلاحم

وهو صدى لقول جرير :

وقبلك ما أخزَى الأخيطل قومه وأسلمهم للمازق المتلاحم

وفى بيته :

كأنك لم تسمع بقتل متوج عظيم ولم تسمع بفتك الأعاجم

معنى قول الفرزدق وصياغته فى قوله :

كأنك لم تسمع تميما إذا دعت تميم ولم تسمع بيوم ابن خازم

ولم يكن تأثره فى شعره بهذا النموذج الذى يقدمه شعراء النقائض بالبصرة فحسب ، بل تأثر كذلك بقدامى الشعراء من جاهليين ومخضرمين . ويروى الخريمى الشاعر أن بشارا قال : لم أزل مذ سمعت تشبيه امرىء القيس شيئين بشيئين فى بيت واحد حيث يقول :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى

أعمل نفسي في تشبيه شيئين بشيئين حتى قلت :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وكان لهذا الاحتذاء للشعر القديم قد يورد بعض قولهم في شعره ، أو قد ينزلق دون ارادة على لسانه ، فيتهمه العلماء والمعاصرون من الرواة بالسرقة من القدماء ، فقد اتهم بسرقة بعض أبيات المتلمس الشاعر الجاهلي .

ولم يكن شعر بشار كله يتجه هذا الاتجاه إلى القديم ، يحذوه ، ويصطنع ديباجته بل كان يجمع بين القديم والحديث ، ولهذا غمزه بعض النقاد بالتخليط في الشعر .

وكان اسحاق الموصلي يتهمه بذلك فيرى أن أشعاره مختلفة لا يشبه بعضها بعضا . أليس هو القائل :

إنما عظم سليمى حبتي قصب السكر لاعظم الجمل
وإذا أدنيت منها بصلا غَلَبَ المسك على ريح البصل

لو قال كل شيء جديد ثم أضيف إليه هذا لزَيَّفَهُ .

ولم يكن الضعف الذي يرد في شعره ناجماً عن التخليط بقدر ما هو راجع إلى أن بعضه من مراحل الصبى الأولى . وقد ذكرت الأخبار أنه قال الشعر في العاشرة من عمره . ولعله يقصد به خطاب مستوى من الناس . ونبه هو إلى ذلك حين سئل عما يجيء في شعره من الهجين المتفاوت مثل قوله :

ربابــة ربــة البــيت تصب الخل في الزيت
لها عشــر دجاجــات وديك حسن الصوت

فقال : لكل وجه . وهذا قلته في ربابة جاريتي وأنا لا آكل البيض من السوق وربابة لها عشر دجاجات وديك ، فهي تجمع لي البيض . وهذا عندها أحسن من « قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل » عندك .

وقد يكون بعض هذا الشعر الضعيف في أسلوبه من المرتجل في المناسبة العابرة أو للفكاهة والتندر من مثل قوله أنه رأى حماره في النوم وكان قد مات ، فسأله : لم مت ألم أكن أحسن إليك ؟ فقال هذه الأبيات :

سيدى خذنى أتانا … عند باب الأصبهانى
تيمتنى بدلال … وبدل قد شجانى
تيمتنى يوم رحنا … بثناياها الحسان

إلى أن قال :

فلذا مت ولو عشـ … ـت اذن طال هوانى

ونعلم بعد هذا أن بشارا كان من المطبوعين الذين يرتجلون الشعر ، وأنه قد يصنعه للنائحات والناديات كما يصنعه للمغنيات ، وهو إلى جانب هذا يقوله فى المناسبات العظام ، فى فتح أو نصر أو مديح عظيم ، أو قائد جليل أو خليفة فيرتفع إلى مستوى المناسبة والمقام .

ومن هنا نلاحظ أن شعره التقليدى عامة ، والذى ينهج فيه نهج القدماء غالبا ما يكون فى المديح والموضوعات الرصينة . ومنه البائية الشهيرة فى مديح مروان بن محمد ويعرض فيها للفخر بقيس عيلان فيقول :

جفا وده فازور أو مل صاحبه … وازرى به أن لا يزال يعاتبه
خليلى لا تستنكرا لوعة الهوى … ولا سلوة المحزون شطت حبائبه
شفى النفس ما تلقى بعبدة عينه … وما كان يلقى قلبه وطبائبه

ويقول بعد النسيب :

اذا كنت فى كل الأمور معاتبا … صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه
فعش واحدا أو صل أخاك فانه … مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى … ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

ويقول فى الوصف فى نمط أعربى : (حر الصيف فى الصحراء) :

فلما تولى الحر واعتصر الثرى … لظى الصيف من نجم توقد لاهبه
وطارت عصافير الشقائق واكتسى … من الآل أمثال الملاء مساربه
وصدعن الشول القريع وأقفرت … ذرى الصمد ما استودعته مواهبه
ولاذ المها بالظل واستوفض السفا … من الصيف نتّاجٌ تخب مواكبه
غدت عانة تكشو بأبصارها الصدى … الى الجَأبِ إلاّ أنها لا تخاطبه

وفى فخرها يقول :

إذا الملك الجبار صَعَّرَ خده ... مشينا إليه بالسيوف نعاتبه
وكنا إذا دب العدو لسخطنا ... وراقبنا فى ظاهر لا نراقبه
ركبنا له جهرا بكل مثقف ... وأبيض تَستَسْقِى الدماء مضاربُهْ
وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى ... وبالشوك والخطى حمر ثعالبه
غدونا له والشمس فى خدر أمها ... تطالعنا والطل لم يجر ذائبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه ... وتدرك من نجى الفرار مثالبه
كأن مثار النقع فوق رءوسنا ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه
بعثنا لهم موت الفجاءة إننا ... بنو الموت خفاق علينا سبائبه
فراحوا فريق فى الأسار ومثله ... قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه
وأرعن يغشى الشمس لون حديده ... وتخلس أبصار الكماة كتائبه
تغص به الأرض الفضاء إذا غدا ... تزاحم أركان الجبال مناكبه

فهذه القصيدة قوية أسر الكلام ، جزلة الصياغة ، لا تظن بصاحبها لينا ولا طراوة ، وشتان بين هذا النمط والنمط الذى أشرنا إليه فى شعره المرتجل .

ولا شك أنه كان فى مثل هذا الشعر الذى يقصد به إلى الحصول على الجائزة يعمد إلى تثقيفه وتنقيحه وقد قيل له مرة : « بم فقت أهل دهرك ، وسبقت رجال عصرك فى حسن معانى الشعر وتهذيب ألفاظه فقال : لأنى لم أقبل كل ما تورده على قريحتى ويناجينى به طبعى ويبعثه فكرى ، ونظرت الى مغرس الفطن ومعادن الحقائق ولطائف التشبيهات ، فسرت اليها بفهم جيد وغريزة قوية . فأحكمت سبرها وانتقيت حرها ، وكشفت عن حقائقها ، واحترزت من منعكفها » .

ومع ذلك فإن هذا الشعر التقليدى من شعر بشار لم يكن مناط شاعريته وابداعه بل إن كثيرا منه كان مطبوعا دون تكلف يأتى جميلا ، فيه طلاوة الطبع وجمال الشاعرية بل إن به الصدق ، والانفعال بالموقف ، وفيه الإبداع والإختراع .

غزله وموقفه من المرأة :

أكثر غزل بشار فى نوع خاص من المرأة هى المرأة الجارية ، أو الغانية المغنية ، وكانت النساء يأتينه أو كان يزورهن فى بيوت القيان فيعاتبنه ويعاتبهن ، ويقول فيهن الشعر الخليع الماجن .

ويمكن أن نعطى صورة لما كان يجرى بينه وبينهن ، وأى نوع من المرأة كان يلقى ويصور فى شعره فى كثير مما روى أبو الفرج فى الأغانى . ومنه قوله :

« كان بشار يهوى امرأة من أهل البصرة فراسلها يسألها الزيارة ، فوعدته بذلك ثم أخلفته وجعل ينتظرها ليلته حتى أصبح ، فلما لم تأته أرسل اليها يعاتبها فاعتذرت بمرض أصابها فكتب إليها بهذه الأبيات :

يا ليلتى تزداد نكرا من حب من أحببت بكرا
حوراء إن نظرت اليـــ ـــك سقت بالعينين خمرا

ويروى أنه كان يجتمع إلى النسوة فى بيته بمجلسه بالعقيق أو بالبردان .

وكانت بالبصرة قينة لبعض ولد سليمان بن على وكانت حسنة بارعة الظرف ، وكان بشار صديقا لسيدها ومداحا له فحضر مجلسه يوما والجارية تغنى فسر بحضوره وشرب حتى سكر ونام ونهض بشار فقالت له الجارية يا أبا معاذ أحب أن تذكر يومنا هذا فى قصيدة ولا تذكر فيها اسمى ولا اسم سيدى وتكتب بها إلى فانصرف وكتب إليها :

وذات دل كأن البدر صورتها باتت تغنى عميد القلب سكرانا
(القصيدة)

مثل هذا الشعر الذى يتغزل فيه بشار بجوارى البصرة وقيانها وبعض نسائها كان يعجبهن فيطربن له ويستزدنه منه . وكان ببشار عبث ومجون لاشك ، وقد صور هذا العبث فى قصائده الغزلية مثل قوله :

أمتا بدد هذا لعبى ووشاحى حلة حتى انتثر

أو قوله :

قد لامنى فى خليلتى عمر واللوم فى غير كنهه ضجر

ويقول فيها :

حسبي وحسب الذى كلفت به   منى ومنه الحديث والنظر
أو قبلة فى خلال ذاك وما   بأس إذا لم تحل لى الأزر

ويعتبر هذا الشعر الماجن الخليع الذى انطلق فيه بشار على سجيته ، وجاء فيه بكثير من البديع وصور التجديد فى الموسيقى والتعبير ، وقد أجاد وصف النساء ، وصورهن صورا بصرية جديدة جميلة وهو الأعمى ، ولكنه يدرك ما يقول ، ويعلل قدرته على هذا التصوير البصرى فيقول :

عميت جنينا والذكاء من العمى   فجئت عجيب الظن للعلم موئلا

ويصف شعره :

وشعر كَنَوْرِ الروض لاءمت بينه   بقول إذا ما أحزن الشعر أسهلا

فنعرف هذا الشعر السهل يأتى بكل مشرق بديع فى المعانى والأسلوب . مثل قوله :

لم يطل ليلى ولكن لم أنم   ونفى عنى الكرى طيف ألم
وإذا قلت لها جودى لنا   خرجت بالصمت عن لا ونعم

وقد أعجب به أبو عمرو بن العلاء واعتبره أبدع الناس بيتا . فى وصف جمال النساء يقول :

حوراء إن نظرت إليك   سقتك بالعينين خمرا
وكأن رجع حديثها   قطع الرياض كسين زهرا
وكأن تحت لسانها   هاروت ينفث فيه سحرا
وتخال ما جمعت عليه   ثيابها ذهبا وعطرا

ومع هذه الصفات البصرية ، التى أعجب بها النسوة ممن نعتهن ، فأنا نلاحظ أنها صفات عامة لا تدقيق فيها ، وهى صفات من مخزونه من الشعر العربى فصفة العيون بالحور ، وصفة المرأة فى اللون بالصفرة والذهب وما إليها صفات متداولة .

لكن الجديد ها هنا مثلا تحويل صفة الكلام إلى صفة بصرية . فى تشبيه

الحديث بزهر الرياض . وهذا من مواضع البديع فى شعره لأنه تجديد فى المعنى .

على أن بشار بن برد كما نلاحظ فى كثير من الشعر الذى قاله فى الغزل ، لم يكن بذلك العاشق الوله المعذب فى العشق والحب ، وإنما جرت معانى العشق على لسانه ولم يكن فيه صادقا تماما ، ولهذه عابه بعض الكوفيين فى قوله :

نَفِّسى يا عبّد عني واعلمى ... أننى يا عبد من لحم ودم
إن فى بردى جِسْماً ناحلا ... لو توكأت عليه لانهدم

فقد رأى منه جسدا كالجاموس ، ويدعى النحول فى الحب . ولعل هذا ما جعل طه حسين يعيبه ويحمل عليه ، ويرى فى غزله قولا غليظا لا رقة فيه ، ولا عاطفة ، ويقول فى شعره عامة :

« ليس شفافا كشعر أبى نواس والحسين بن الضحاك ومطيع وحماد عجرد ، وإنما هو شعر كثيف صفيق لا يدل من نفس صاحبه على شيء ، وهو كاذب أبدا لا يحفل بالكذب » .

فغزله عند طه حسين ليس صادرا عن صدق ، إنما هو تهالك على اللذة وافحاش وامعان فيه . فلم يعرف عنه أنه أحب ، وشعره فى عبدة التى يردد اسمها على لسانه معظمه متكلف[1] . وكذلك رأى المازنى فقال أنه لم ير فى المرأة غير الأنثى والجنس[2] .

وتعجب من كلام طه حسين فى مثل هذا الشعر الذى يصفه بالصفاقة ، وقد أعجِبَ به القدماء كأبى عمرو بن العلاء ، وها هو ابن المعتز يقول : وكان شعره أنقى من الراحة وأصفى من الزجاجة وأسلس على اللسان من الماء العذب .

والحق أن شعر بشار بن برد شعر شاعر صناع ، وهو فى الغزل يأتى بالغزل الرقيق المرقص والمطرب ، وقد فتن به نساء البصرة وشبابها ، ولو كان شعره الغزلى صفيقا كما يقول طه حسين لما فتن به أحد ، ولكفى نفسه بنفسه ولم يمتد أحد لحربه تلك الحرب التى عرفتموها .

(١) حديث الأربعاء ، جـ ٢ .
(٢) بشار بن برد (سلسلة أعلام الإسلام) ، ص ٩٥ــ١٠٠ .

أما أن بشارا لم يكن صادق العاطفة فى الحب ، وأن غزله كان غزلا مصنوعا فهذا شىء آخر ، ومع ذلك فقد أحسن بشار اصطناع مواقف العاشقين ، وهذه قضية من قضايا الخلق الفنى عامة وليست قضية بشار فحسب ، أينبغى أن يعانى الفنان موضوع فنه ، بمعنى أيشترط للغزل أن يكون زير نساء ، أو للعاشق أن يكون قد مر بتجربة حب عنيفة ، ألا يستطيع أن يتمثل .

قد تكون التجربة مما يعمق إحساس الفنان وشعوره ، ومن ثم تزيد تعبيره غنى وعمقا .

ومع ذلك فها هو باحث آخر — الدكتور النويهى — يعارض مقال الدكتور طه حسين ، ويكشف عن جوانب الصدق والعاطفة فى شعره الغزل ، فهو يرى فى المرأة جمالا يعلو على الجمال الجسدى . ويقول إن شعره المفحش فى الغزل قليل بالنسبة لجملة شعره فى هذا الموضوع ، وليس جل غزله كذلك بل فيه ما هو حلو رقيق ، مفعم بالصفاء والحنان[1] .

ويردد بشار أسماء بعض النسوة فى غزله أمثال عبدة ، وسلمى ، ويدعوها بالتصغير أحيانا سليمى ، ووهبى ، وحمدة ، وسعدى ، وحبابة ، ويدعوها مرخمة أحيانا ، بحباء ، وطيبة ، وأسماء ، والرباب ، وبانة .

ولا نعدم فى غزله الشكوى ، كما يشكو العشاق من آلام الحب . يقول مخاطبا عبدة :

يا عبد حتام لا ألقاك خالية	ولا أنام لقد طوَّلتِ تَعْذيبى

ويقول عنها كذلك :

اذا ذكرت دَارَ الهوى بمسامعى	كما دارت الصهباء فى رأس شارب
فإن يك عنى وجهها اليوم غائبا	فليس فؤادى من هواها بغائب

وهو يشعر بالأسى لفراق سلمى فيقول :

سِيقَتْ إلى الشام وما ساقها	إلا الشقا والقدر الغالب
أصبحت قد راح الذى دونها	ورحت فردا ليس لى صاحب

(١) شخصية بشار .

لا أرفع الطرف الى زائر كأنى غضبان أو عاتب
يا راهب المصر لنا حاجة فانظر لنا هل سكنى آيبُ

ويقول فى عبدة وتحس بحرقة الحب ولواعجه :

أفد الرحيل وحثنى صحبى والنفس مُشْرِفَةٌ على النحب
لما رأيت الهم مجتنحا فى القلب والعينان فى سكب
والحى قد أخوت ركائبه والقوم من طرب ومن حسب
ناديت إنّ الحب أشعفنى قتلا وما أحدثت من ذنب

وقد أبدع فى ذكر الهجران وطول سهر العاشقين حيث قال :

لم يطل ليلى ولكن لم أنم ونفى عنى الكرى طيف ألم

ولبشار فى غزله قصص كقصص عمر بن أبى ربيعة، وزَوْراتِهِ ليلية لمعشوقاته يسجلها فى شعره كهذه الزورة التى قال عنها لأوانس دَعَوْنَهُ لقضاء ليلة فى سمر وحديث :

وَدُمًى أوانس من بنات محرق حور نواعم أوجها وجلودا
أرسلن فى لطف الى أن ائتنا غاب الرقيب وما تخاف وعيدا
فأتيتهن مع الجَرِىءِ يقودنى طربا ويالك قائدا ومقودا
لما التقينا قلن هات فقد مضى سنة نؤمل أن نراك تعيدا
حَدِّثْ فقد رقد الوشاة وليتهم حتى القيامة يلبثون رقودا
قلت: اقترحن من الهوى، فسألننى طرف الحديث فكاهة ونشيدا
حتى إذا بعث الأذان فراقنا ورأيت من وجه الصباح خدودا
جرت الدموع وقلن فيه جلادة عنا ونكره أن نراك جليدا

مديح بشار :

وسبقت الإشارة عند الحديث عن شعره بين التقليد والتجديد الى أنه كان يعمد فى مديحه الى النمط التقليدى فى الشعر ، وقد اتصل بجماعة من الخلفاء والولاة والقواد ، نذكُرُ من بنيهم فى عصر الأمويين مروان بن محمد ، وسليمان بن هشام ، ويزيد بن عمر بن هبيرة ، وفى عصر العباسيين أبا جعفر المنصور والمهدى ويزيد بن مزيد الشيبانى ، ومن ولاة البصرة سلم بن قتيبة ، ومن

العلويين ابراهيم بن عبد الله بن الحسن بن على ، ومن وزراء الدولة خالد البرمكى .

ومن أشهر مدائحه فى العصر الأموىّ قصيدته فى يزيد بن عمر بن هبيرة ، وقد أنشده إياها سنة ١٢٨ هـ وكان يقود فرقة من جند مروان بن محمد فى حرب الضحاك بن قيس الخارجى . وهى حماسيّة قوية يقول فيها :

جفاوده فازور أو مل صاحبه

التى مرت بنا .

وقصيدته فى مديح ابراهيم بن عبد الله بن حسن والتى يهجو فيها أبا جعفر المنصور ، وكان ابراهيم قد ثار بالبصرة واستولى عليها من أبى جعفر ، لكن أبا جعفر تمكن من القضاء على ثورته وقتله .

وبعث بشار بهذه القصيدة الى ابراهيم بن عبد الله قبل القضاء عليه وظن أنه سيكتب له النصر على أبى جعفر ، قال :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم ولا سالم عما قليل بسالم .

ولم تصل هذه القصيدة ابراهيم بن عبد الله العلوى ، وأغلب الظن أنها لم تبلغ أبا جعفر المنصور وإلا كان قد قضى على بشار ، وقد أسرع بشار فغير فيها وحورها وجعلها فى هجاء أبى مسلم الخراسانى بعد قتله فقال :

أبا مسلم ما طول عيش بدائم

وفى عقبة بن سلم أرجوزته المشهورة :

يا طلل الحى بذات الصمد

ويقول فيه بيته المشهور :

يسقط الطير حيث يلتقط الحـ ـب وتغشى منازل الكرماء

وفيها يقول :

حرم الله أن ترى كابن سلم عقبة الخير مطعم الفقراء
إنما لذة الجواد ابن سلم فى عطاء ومركب ولقاء

ليس يعطيك للرَّجاءِ ولا الخـ ـوف ولكن يلذ طعم العطاء

وفى خالد بن برمك يقول أبياته المشهورة :

لعمرى لقد اجدى على ابن برمك وما كان من كان الغنى عنده يجدى
حلبت بشعرى راحتيه فدرتا سماحا كما در السحاب مع الرعد
اذا جئته للمجد أشرق وجهه الى وأعطانى الكرامة بالحمد
له نعم فى القوم لا يستثيبها جزاء وكيل التاجر المد بالمد
لمست بكفى كَفَّهُ أبتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعدانى فاتلفت ما عندى

وفى عمر بن العلاء وكان من كبار رجال الدولة العباسية ومن المقربين للمهدى يقول قصيدته الميمية التى أشرنا الى مطلعها :

لم يطل ليلى ولكن لم أنم

والتى يفخر فيها كذلك بقوله :

ونبثت قوما بهم جنة

يقول فى مديحها :

فقل للخليفة إن جئته نصيحا ولا خير فى المتهم
إذا أيقظتك حروب العدى فنبه لها عمرا ثم نم
فتى لا يَبِيتُ على دمنة ولا يشرب الماء إلا بدم
إذا ما غزا بشرت طيره بفتح وبَشَّرنا بالنعم
دعانى إلى عمر جوده وقول العشيرة بحر خضم
ولولا الذى خبروا لم أكن لأمدح ريحانه قبل شم
فَعِيٌّ الفعال كعى المقال وفى الصمت عىٌّ كعَىِّ الكلم

وجرى بشار فى مديحه على سنن السابقين من صفات الكرم ، ووصف الممدوح بالغيث ، والبحر ، وأنه يتهلل للسائلين ، وما إلى ذلك مما يتردد فى هذا المعنى ، ويضم إليه صفات الشجاعة والإقدام ، وخاصة عندما يصف القادة ، والخلفاء .

ومع ترديده للمعانى السابقة فى هذا الموضوع لكنه يحاول مع ذلك التجديد ، فيبدع أو يأتى بالبديع ، فإما أن يسوق المعنى القديم فى صورة جديدة ، أو يأتى به جديدا لفظا ومعنى . وقد مر بنا من اللونين أمثلة مما سقنا .

هجــاؤه :

وقد عرف بشار بالهجاء . قال : إنى وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع الشاعر من المديح الرائع ومن أراد من الشعراء أن يكرم فى دهر اللئام على المديح فليستعد للفقر ، وإلا فليبالغ فى الهجاء ليخاف فيعطى .

ولعل من أشهر من هجاهم بشار وندد بهم العباس بن محمد عم المهدى ، وكان معروفا بالبخل . قال فيه قصيدته المشهورة وبها كثير من المعانى الجديدة فى الهجاء وأعنى قوله :

ظل اليسار على العباس ممدود ... وقلبه أبدا بالبخل معقود

يقول فيها :

إن الكريم ليخفى عنك عسرته ... حتى تراه غنيا وهو مجهود
وللبخيل على أمواله علل ... زرق العيون عليها أوجه سود

ويقول :

اذا تكرهت أن تعطى القليل ولم ... تقدر على سعة لم يظهر الجود
أورق بخير ترجى للنوال فما ... ترجى الثمار إذا لم يورق العود
بث النوال ولا تمنعك قلته ... فكل ما سد فقرا فهو محمود

وهجا حماد عجرد ، وكان صديقه فأفحش فى هجائه ، وتبادلا الهجاء المقزع . كما هجا جماعة من أصدقائه كيدا أو معاتبة ، ولهذا عرف بخبث اللسان ، وبأنه كثير الوقوع فى الناس . ومن أطرف معانيه قوله فيمن يسمى ابن قزعة :

فلا تبخلا بخل ابن قزعة انه ... مخافة أن يرجى نداه حزين
اذا جئته للعرف اغلق بابه ... فلم تلقه الا وأنت كمين

ويسخر من الصفات الجسدية لمهجويه . فقد سخر من طول عنق واصل إذ هجاه فقال :

مالى أشايع غزالا له عنق كنقنق الدو أن ولى وإن مثلا
عنق الزرافة ما بالى وبالكم تكفرون رجالا كفروا رجلا

ويكاد يكون بشار شاعرا جامعا ، قال فى كل موضوعات الشعر ، مما يدل على قوة شاعريته ، ومن هنا كان مقدما على معاصريه ممن اقتصر على لون واحد مثل مروان بن أبى حفصة .

وله فى الرثاء أبيات يرثى ابنه .

وعجيبٌ أن يأتى هذا الرجل بالرثاء الحزين ، وهو من عرفنا من السخرية واللامبالاة ، والعبث . قال أبو الفرج : توفى ابن بشار فجزع عليه فقيل له : أجر قدمته ، وفرط افترطته ، وذخر أحرزته . فقال : ولد دفنته وثكل تعجلته ، وغيب وعدته ، فانتظرته ، والله لانى أجزع للنقص ولا أفرحُ للزيادة :

أجَارَتَنا لا تجزعى وأنيبى أتانى من الموت المطل نصيبى
كأنى غريب بعد موت محمد وما الموت فينا بعده بغريب
لعمرى لقد دافعت موت محمد لو أن المنايا ترعوى لطبيب

ويقول :

فأصبحت أبدى للعيون تجلدا ويالك من قلب عليه كئيب
يذكرنى نوح الحمام فراقه وأرنان أبكار النساء وثيب

وصفه :

وله فى الوصف ابداع كإبداع المبصرين ، وذكر عن نفسه دهشة الناس لدقة وصفه فقال فى معرض الحديث عن احدى النسوة اللائى وصفهن . قال :

عجبت فطمة من نعتى لها هل يجيد النعت مكفوف البصر

ويقول مرة أخرى :

إن تك عينى لا ترى وجهها فانها قد صورت فى الضمير

وسبق أن أشرت الى أنه استوحى صفات القدماء فى رسم صُورِهِ للصفات الجميلة فى المرأة مع تجديد فى بعض المعانى مثل وصف الحديث بالزهر وقطع الرياض ، وكذلك المعنى الذى عاب به الشاعر القديم .

انما سلمى عصا خيزرانة   اذا غمزوها بالأكف تليـن

فعدل هذا القول الى قوله :

وحوراء المدامع من معد   كأنّ حديثها ثمر الجنان
اذا قامت لمشيتها تثنت   كأنّ عظامها من خيزران

ونعرض مجموعة لهذه الصفات الأنثوية ، منها الجديد ، ومنها القديم ، ومنها القديم المجدد ، يقول :

وجوار إذا تحلّيْنَ لم تد   رجوار فى حليها أم ظباء
يتعرضن لى بفاترة الطر   فِ اذا اقبلت ثناها الحياء
وحديث كأنـه قِطَعُ الـرو   ض ففيهِ الصفـراء والحمـراء

ويقـول :

ألا يا طيب قد طبـت   ومـا طيبـك الطيـب
ولكـن نفس منــك   إذا ضمـك تقريـب
وثغـر بارد عـذب   جرى فيـه الأعاجيـب
ووجـه يشبـه البـد   ر عليه التاج معصـوب
وعين تسحـر العيـن   وما فى سحرها حـوب
ووصف زان متنيــ   ـك وزانتهُ التّقاصيبُ
وجيـد يشبـه الـدر   ر كجيد الريم سلهوب
ونحر بين حقيـن   يشف العين مجبـوب
عليـه الجوهـر الاحمـ   ـر والياقوت مَنصُوبُ

ويردد ألوانا بِذاتها هى البياض والصفرة فى لون البشرة ، والأحمر فى اللباس . ويتيم باللون الأحمر فيقول :

فخذى ملابس زينة   ومصبغات فهى أفخر
واذا دخلت تصنعى   بالحمر إنّ الحسن أحمر

ولا غرو أن تلذذه بالحديث مع ذلك ، وبالشم كان أكمل . ولهذا يفيض في ابداع صفات الحديث الذى شبهه بالزهر وروض الجنان ، والثمر ، والخمر ، ووشى المطارف .

وله فى صفة الحرب ذلك التشبيه الجارى على كل لسنان :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا   وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ويضع العلماء بالشعر ونقاده بشارا على رأس المحدثين والمجددين وأصحاب البديع وفى مقدمتهم كما رأينا أبو عمرو بن العلاء والأصمعى . وأشاد بفضله ابن المعتز . قال مستحسنا شعره معجبا برائيته العجيبة البديعة المعانى الرفيعة المبانى[1] :

رأيت صحابتى بخنا صرات   حمولا بعد ما متع النهار
فكاد القلب من طرب إليهم   ومن طول الصَّبابةِ يستطار
وفى الحى الّذينَ رأيت خود   خلوب الدل آنسة نوار
برود العارضين كَأنّ فاها   بعيد النوم عاتِقَةٌ عقار
كأن فؤاده كرة تنزى   حذار البين لو نفع الحذار
يُروِّعُه السرار بكل شىء   مخافة أن يكون به السرار
وَوَدَّ الليل زيد إليه ليل   ولم يخلق له أبدا نهار
جفت عينى من التغميض حتى   كان جفونها عنها قصار

ففى القصيدة كثير من البديع المعنوى فى تشبيه القلب بكرة الصولجان يتقاذفها اللاعبون ، وهذا المعنى المجددِ فى قوله :

« يروعه السرار » وقوله : « وَوَدَّ الليل زيد إليه ليل »

ومعناه الجديد البديع : « كأن جفونها عنها قصار » ويذكر من بديع غزله :

يا منية القلب إنى لا أسميك   أكنى بأخرى أسميها وأعنيك
يا أطيب الناس ريقا غير مختبر   إلا شهادة أطراف المساويك
فقد زرتنا زورة فى الدهر واحدة   فأثنى ولا تجعليها بيضة الديك
يا رحمة الله حلى فى منازلنا   حسبى برائحة الفردوس من فيك

(١) طبقات المحدثين .

وفى البيت الأخير تورية باسم محبوبته « رحمة الله » ولكنه ورى واستخدم التورية فى المعنى اللاحق عندما شبه رائحة فيها برائحة الفردوس .

ومن تجديده كثرة الأوزان السهلة من مجزوءات البحور ، وفيها يبدو الإيقاع الراقص المطرب ، من مثل قوله :

من المشهـــور فى الحب   الـــى قاسيـــة القلـــب
سلام الله ذى العـــرش   علـى وجهـك يـا حبـى
فأمـــا بعـــد يا قـــرة   عينـــى ومنـــى قلبـــى
لقـــد انكـــرت يا عبـــد   جفاء منـك فـى الكتـب
أعـــن ذنب ولا واللـــ   ـه ما أحدثـت مـن ذنـب
ولا والله مافى الشرق من انـــ   ـــشـــى لاَ ولا الغَـــرْبِ
سِوَاكِ اليومَ أهوَاهـا   على جَدٌّ بِلَا لعْبِ

وتذكرنا هذه الصيغة من صيغ الرسائل الشعرية ، بسابقتها عند أبى ربيعة ، واستخدَمَها كذلك أبو نواس وأخذ عن أستاذه بشار بن برد هذا الفن ، بل نظم على هذا الوزن رسالة مشهورة لصاحبته جنان .

وكان بشارُ مطبوعا فى معانيه وألفاظه، لا يتكلف القول، ولا تشعر فى شعره بجهد المثقفين ، وإنما يجرى كلامه سلسا سهلا ، كما يقول ابن المعتز : « ولا يتوقف أمام بعض الإلزامات اللفظية ، بل تبحث فى طريقته ما يروق له من الألفاظ وقد يضع منها ما يراه ، فإذا سئل تعلل بعلة ما » .

ومن أمثلة تحرره من الإلتزامات اللغوية قوله :

زرى روحـا فلـن تجـدى كروحـى

وأصلها فعل الأمر من زار يزور والأمر للمخاطبة زورى باثبات الواو .

واسْتخدَمَ ثِيب فى جمع ثَيِّب والصحيح الوارد ثُيُبٌ .

وكأنه جوز أن يقال : امرأة ثيباء فقال :

فلابـد أن تغشاك حين غشيتها   هواجد أبكارٌ عليك وثِيبُ

وبعد ، فإن بشارا ترك فى تاريخ الشعر العربى أثرا ظل يتردد ، وصدى

يتجاوب ، وفتح للشعراء طريقا سلكوها ، وأبدعوا فيها هى طريق البديع . وكان إهتمام القدماء به عظيما ، وعلى رأسهم ابن المعتز ، وابن رشيق القيرواني ، وابن دريد سأل أبا حاتم عن بشار بن برد فقال : نظار غواص ، مطيل مجيد ، يصف ما لم ير كأنه قد رآه .

واهتم به الباحثون ، ونذكر على سبيل المثال منهم الدكتور طه حسين فى حديث الأربعاء والعقاد فى مراجعات فى الآداب والفنون ، والمازنى ، فى مجموعة أعلام الإسلام ، والنويهى فى شخصية بشار ، والحاجرى فى مجموعة نوابغ الفكر العربى .

مصادر بشار بن برد :

١ ــ الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، طبع دار الكتب ، الجزء الثالث .

٢ ــ المختار من شعر بشار وشرحه ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة .

٣ ــ ديوان شعره ، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور بجامع الزيتونة ، ثلاثة أجزاء ١٩٥٠ــ١٩٥٧ .

٤ ــ بشار بن برد ، أحمد حسين القرنى ، طبع القاهرة سنة ١٩٢٥ .

٥ ــ بشار بن برد ، الجد والمجون لحسين منصور ، طبع التجارية بالقارة ، سنة ١٩٣٠ .

٦ ــ بشار بن برد ، مجموعة أعلام الإسلام للمازنى .

٧ ــ بشار بن برد ، مجموعة نوابغ الفكر العربى للدكتور طه الحاجرى .

٨ ــ مراجعات فى الآداب والفنون للأستاذ عباس محمد العقاد .

٩ ــ شخصية بشار بن برد للدكتور النويهى ، طبع القاهرة .

١٠ ــ تاريخ آداب اللغة العربية للدكتور شوقى ضيف ، الجزء الثالث ، العصر العباسى .

١١ ــ حديث الأربعاء ، الجزء الثانى للدكتور طه حسين ، طبع دار المعارف بمصر .

—٢—
أبو نواس المجدد المفتن
(توفى سنة ١٩٩ هـ)

وصف أبو عبد الله الجماز أبا نواس فقال :

« كان أظرف الناس منطقا ، وأغزرهم أدبا ، وأقدرهم علىّ الكلام ، وأسرعهم جوابا ، وأكثرهم حياء ، وكان أبيض اللون جميل الوجه ، مليح النغمة والإشارة ، ملتف الأعضاء ، بين الطويل والقصير ، مسنون الوجه ، قائم الأنف ، حسن العينين والمضحك ، حلو الصورة ، لطيف الكف والأطراف » .

وكان فصيح اللسان جيد البيان ، عذب الألفاظ ، حلو الشمائل ، كثير النوادر ، وأعلم الناس كيف تكلمت العرب ، رَاوِيةً للأشعار ، علامة بالأخبار ، كأن كلامه شعر موزون[1] .

ولد أبو نواس من أب عربى وأم فارسية ، كان أبوه من جند مروان بن محمد الذين بعث بهم إلى الأهواز — بين البصرة وفارس — وكان من دمشق . وأقام فى معسكر ظاهر المدينة . وهناك التقى بجلبان الأهوازية الفارسية أم أبى نواس فتزوجها ولم يقم معها طويلا لانشغاله بحرب الخراسانية مع جند مروان . وبعد هزيمة جيش مروان أمام الخراسانية سرح الجند ، فكان « هانى » بين من سرحوا ، وأقام مع زوجه جلبان واشتغل برعى الأغنام واشتغلت هى بالحياكة ، تصنع الأخراج ، وتنسج الجوارب . ولد لها عدة أبناء . بينهم الحسن (أبو نواس) وولدان آخران وفتاة .

ولد الشاعر سنة ١٤١ هـ على أرجح الأقوال ، فى خلافة أبى جعفر المنصور ثانى خلفاء بنى العباس . ووفد مع أبيه وأمه الى البصرة عام ١٤٣ هـ . وسكنت الأسرة بيتا من القصب ، وظلت أمه تزاول عملها فى الرعى والحياكة ، واضطرت أحيانا إلى الأرضاع لتكسب قوتها وعيالها ولتعين زوجها على العيش .

(١) زهر الآداب للصرى القيروانى ، بتحقيق الدكتور زكى مبارك ١ /١٦٣ .

ولم يلبث أن مات هانىء ، وظلت جلبان تجاهد وتعمل حتى انفرجت شدتها بعض الشيء فسكنت بالبصرة دارا من الآجرّ والجص . وصار منزلها مرتادا للناس رجالا ونساء للشراء ورميت بالريبة لأنها كانت تجمع بين الرجال والنساء . وكان هذا الأمر مما هجى به الشاعر .

ووردت الأخبار بعض لمحات أو سمات لجلبان ، منها أنها ربما كانت بخيلة كغيرها من أهل الأهواز الذين يرمون بالبخل . لكنها على أية حال كانت مدبرة استطاعت أن تقوم بعبء أطفالها حتى دفعت بهم الى الكتاب والدرس ، وتسنم منهم الحسن الذروة بين شعراء عصره .

تعلم الحسن بأحد كتاتيب البصرة — وكانت أمه تبعث للمعلم أجره خبزا ، حتى تقدم الطفل فى تعليمه وحفظ القرآن ومعرفة بعض الحساب . وكانت ترسل اليه بالدرهم والدرهمين . ويبدو أن هذا الكتاب كان يدعى بكتاب « حفص » باسم معلمه . وقد وصف لنا فى ذكرى استعادها لهذا الكتاب صورة طفل ناعم من أنداده ضربه حفص عقابا :

قال حفص اجلدوه	انه عندى بليد
ثم هالوه بسير	لين ما فيه عود
ولم يزل مذ كان فى الـد	رس عن الدرس يحيد
عندها صاح حبيبى	يا معلم لن أعود
كشفت عنه خزوز	وعن الخز برود

وتدرج الحسن فى تعليمه من الكتاب الى مجالس العلم بالمساجد يتلقى عن العلماء والشيوخ من قراء ورواة ومحدثين ولغويين .

قرأ على الشيخ القارىء يعقوب الحضرمي ، وكان قد ذاع صيته فى تعليم القراءات وفى العلم بمذاهب النحاة فى القرآن . وكان يعقوب زاهدا ورعا . علم أبا نواس حسبة ولم يتقاض على تعليمه أجرا ، ويبدو أنه أعجب بذكائه فألقى بخاتمه اليه وقال : اذهب فأنت أقرأ أهل البصرة .

وظل يتردد على الشيوخ بالمسجد الجامع فانضم الى حلقة أبى زيد الأنصارى اللغوى النحوى صاحب كتاب « النوادر » يسمع لما يستشهد به من أوابد الأبيات وفرائد البلاغات من كلام العرب ، وما ينشد من القصائد أو الرجز .

وجلس الى أبى عبيدة معمر بن المثنى اللغوى الراوية الأخبارى ، فعرف عنه الكثير من أخبار العرب وأيامهم ، وقبائلهم وأنسابهم . وظل يذكره بالخير دائما ويقول عنه انه : « أديم » طوى على علم .

وجلس إلى خلف الأحمر رواية البصرة ، وناقدها ، وأعلم أهلها بالشعر القديم . فكان أستاذه فى الشعر ومعلمه . ومسدد خطاه ، وهو الذى لقبه بأبى نواس فى رواية إذ قال له : أنت من اليمن — أى قبيلة (بنى الحكم) فتكنَّ باسم من أسماء الذوين ، أى باسم أحد ملوك اليمن القدماء الذين تبدأ « بذو » فتسمى بذى نواس .

ورحل إلى البادية يأخذ الفصاحة عن ألسنة أصحابها . وأقام سنة ثم عاد إلى بلده . وكان يقال له : أرغبت عن والبة ومللت الكوفة ؟. فيجيب : هى « أجدى » وأطيب من أن تمل ، ووالية لا يرغب عنه . ولكنى نزعت الى الأوطان واشتقت إلى الأخوان .

واستأنف بالبصرة حياة الدرس والتحصيل بعد تلك الزورة للبادية والسرحة فى الكوفة وأصطحاب بعض شعرائها . وارتاد فى البصرة المربد ، واعتاد حلقات الشعراء به ، وجمع من الشعر والعلم ما جعل الناس يرددون القول بأن « أقل ما فى الحسن من بضاعة قول الشعر فقد كان فحلا راوية علامة » .

وفى غير علوم العربية ، وعلوم الأدب واللغة خاصة ، اتصل ببعض الثقافات الأجنبية فوقف على التنجيم باتصاله بآل نوبخت الذين اشتهروا فيه ، وفى قصيدة له يمدح يحيى بن خالد البرمكى أمثلة لمعرفته بأسماء النجوم ومساراتها .

وألم بطرف من علوم الطبيعة ، والحياة ، والفلسفة والطب ، وفى شعره آثار من العلوم عن طبائع الإنسان الأربع من البرودة والرطوبة واليبوسة . والقول بأقوال المتكلمين من المعتزلة ومعارضيهم من الجبرية . ولا يروق له جدلهم العقيم حول قضية « الجبر والإختيار » .

ياناظرا فى الدين ما الأمر	لا قَدَرٌ صَحَّ ولا جبـر
ماصح عندى من جميع الـذى	يذكر الا الموت والقبـر

ومما جاء فى شعره من آثار علوم الكلام والقول فى الجزء الذى لا يتجزأ :

تركت منى قليلا ومن القليل اقلا
يكاد لا يتجزأ أقل فى اللفظ من لا

وزعموا أن إبراهيم النظام المعتزلى أستاذ الجاحظ لما سمع ذلك من قوله قال : « أنت أشعر الناس فى هذا المعنى . والجزء الذى لا يتجزأ منذ دهرنا الأول نخوض فيه ، ما خرج لنا فيه من القول ما جمعته أنت فى بيت واحد » .

وربما اتخذ أبو نواس بعض معارفه وسيلة للتظرف كما فعل فى الحديث عن الحب يداعب المحدث الشيخ عبد الواحد بن زياد أستاذ الحديث بالبصرة . اذ طلب الى الناس فى حلقته أن يسأل كل رجل ثلاثة أحاديث مهمة . ففعل الناس حتى انتهى الى أبى نواس فقال له : سل يافتى ، فقعد بين يديه وأنشا يقول :

ولقد كنا روينا عن سعيد عن قتادة
عن زرارة ابن اوفى ان سعد بن عبادة
قال : من مات محبا فله أجر الشهادة
أترى ذاك صوابا نتبع منه سدادة

فالتفت اليه الشيخ مغضبا وقال : « أغرب عنى ياخبيث ، والله لا أحدثك بعد ذلك ولا أعرف وجهك » .

أساتيذه فى الشعر

شعره التقليدى وأستاذه خلف الأحمر :

قلنا إنه اتصل بخلف الأحمر فعلّمه الشعر القديم ، وشجعه على حفظ كثير منه .ويُروى أن خلفا قال له : « لا آذنّ لك فى عمل الشعر إلا أن تحفظ ألف مأثور للعرب ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة » . ففعل ما طلب إليه خلف وعاد إليه فقال له : انس هذه الألف الأرجوزة وقصيدة كأنك لم تحفظها ، ثم انظم الشعر بعد ذلك .

وروى عن أبى نواس أنه قال : ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب ، منهن الخنساء وليلى (الاخيلية) ، فما ظنك بالرجال ؟.

وراض الشعر على هذا النسق القديم ، فقال يرثى أستاذه :

لو كان حى وائلا من التلف   لو ألت شغواء فى أعلا شغف

وفى رثاء أبى البيداء الرياحى الأعرابى الشاعر الراوية يقول :

هل مخطىء حتفه عفر بشاهقة   رعى بأخيافها شثا وطباقا

وفيها يقول :

زار الحمام أبا البيداء مخترما   ولم يغادر له فى الناس مطراقا

وتعلم الشعر من المولدين والمحدثين على يد أستاذه وصاحبه واليه بن الحباب ، وشيخه محمد بن مناذر فى بعض الروايات .

وأثرت صحبته لواليه فى حياته وسلوكه وشعره . وقد لقيه والبة صبيا يقول الشعر فعرف فيه فطنة وذكاء وتعلقا بالشعر ورغبة فى عمله والتجويد فيه ، فقال له : إنى أرى فيك مخايل فلاح ، وأرى لك ألا تضيعها ، وستقول الشعر وتعلو فيه فأصحبنى حتى أخرجك .

وصحب أبو نواس والبة إلى الكوفة ، وجلس إلى عصبة المجان من رفاق الشاعر الماجن أمثال يحيى بن زياد ، ومطيع بن إياس ، وحماد عجرد . وقد عرفوا بالعبث ، والغزل بالغلمان ، وشرب الخمر والقول فيها .

وكان والبة يتعمد إغراء السقاة بالحسن بن هانىء الفتى فيسقونه حتى التلف ، وكان يغريه بالمجون والاستهتار حتى أفسده .

وكانت مجالس هؤلاء الخلعاء الماجنين لا تخلو من إنشاد للشعر ، وصنعة له على البديهة ، وهو شعر سهل يجرى بلغة الحديث ينظمونها فى أوزان خفيفة ، يتناولون بها موضوع العبث الذى يشغلون به أو يتحاورون فيه ، وكان هذا الإنشاد . وذاك الحوار الشعرى الذى يجرى على البديهة مما شجع الحسن على أن ينشد بديهة ، ينظم كما ينظمون فى تلك الأوزان السهلة والألفاظ الجارية والمعانى الحاضرة .

وكانت هذه المجالس مما شجعه على الولع بالخمر ، وعمل الشعر فيها وفى مجالسها ، ثم خرج إلى ضواحى الكوفة حيث تنتشر الأديرة المسيحية فى

الحيرة ، وصحب جماعة المجان إلى تلك الأديرة للهو وشرب الخمر ، وكان رهبانها يحتفونها ، ويقدمونها ، ويطرب الوافدون ، نزلاء الأديرة ويرحبُ بهم أهلها ويهيئون لهم أسباب اللهو وخاصة فى أعياد النصارى « كالشعانين » وفى أعياد الفرس القدماء ، كالنيروز .

وتظهر فى شعر أبى نواس الخمرى ملامح الديارات ، ورهبانها ، وقسيسيها ، ويبدع قصائد من أجمل قصائده فنا وحسنا . كتلك التى قالها فى دير حنة ، وذاعت بين الأدباء وبلغت شهرتها الآفاق ، وتعلق بها الناس فى أقطار العالم العربى شرقا وغربا . وهى :

يادير حنة من ذات الاكيراح ... من يصح عنك فانى لست بالصاحى

على أن أبا نواس لم يتوقف طموحه عند حدود بلده البصرة والكوفة ، وأوساطها الأدبية ، بل رمى ببصره ، وتطلع الى أفق أوسع ، الى مركز الخلافة بغداد . يقول :

سابغى الغنى إما جليس خليفة ... يقوم سواءا أو مخيف سبيل

وجاء بغدادَ ، فأم قصور البرامكة ، ومدحهم ، وحدث ما حدث بينه وبين الشاعر الرقاشى من منافسة ومهاجاة ، والرقاشى من شعراء البرامكة المخلصين ، وأما أبو نواس فانه لم تدم صلته بالبرامكة ، وقيل إنه لم يلق عندهم القبول ، أو لم يلق النجاح الذى ينتظره ، وفسر المؤرخون سوء حظه مع البرامكة بأخبار كثيرة ، منها أن جعفر بن يحيى تشاءم من مطلع إحدى قصائده .

ومدح أبو نواس الرشيد ، وصلته بهذا الخليفة العظيم غير واضحة المعالم ، وتربط الأخبار بينهما برباط وثيق ، وخاصة فى قصص الشعب ، والعامة ، تجعله هذه القصص نديما له ومضحكا لكن المحقق أنه مدح الرشيد بجملة من قصائده ، وأنه لقى عنده بعض النجاح ، لكنه ربما سجن فى عصره كذلك ، وقاسى السجن ومرارته . ونظم القصائد لاستعطافه لكى يطلقه .

واتصل بالامين من بعد الرشيد ، ولكن صلته بالخليفة هذه المرة كانت مختلفة تماما ، فقد كان نديمه ، وصاحبه الذى لا يصبر عنه ، وربما جرت

صحبة الشاعر على الخليفة كثيرا من المتاعب وربما وجد من طبع الأمين فى خلواته استجابة لاستهتاره ، فتمادى الشاعر فى خلاعته ، وجهر بها وأعلن اسم الخليفة معه . كقوله :

وندمان يرى غبنا عليه ... بأن يمسى وليس له انتشاء
إذا نادَيْتَهُ من نوم سكر ... كفاه مرة منك النداء
فليس بقائل لك ايه دعنى ... ولا مستخبر لك ما تشاء
ولكن «ياسقنى» ويقول أيضا ... عليك الصرف إن أعياك دَاءُ
وذاك محمد تفديه نفسى ... وحق له وقل له الفداء

وقيل إنّ الأمير أجازه على هذه القصيدة بكل بيت ألف درهم .

ولم تصف الحياة لهما ، فأثار أعداء الخليفة الناس عليه ، وشهروا به ، وجعلوا من الشاعر مادة للتشهير . وكان لابد أن ينتهى الأمر بالشاعر المجاهر الى السجن ، وقد وجدوا الدليل فى شعره على ادانته ، من قوله :

ألا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر ... ولا تسقنى سرا اذا أمكن الجهر

ومثل قوله :

يا أحمد المرتجى فى كل نائبة ... قم سيدى نعص جبار السماوات

وبعد أن قضى زمنا فى السجن عفا عنه الامين ، وقد أخذ عليه وزيره الفضل ابن الربيع عهدا بترك القول فى الخمر والمجون . يخاطب ابن الربيع بأبيات يظهر فيها نسكه وتوبته ، ولا تخفى نغمة السخرية . بقوله :

انت يا ابن الربيع ألزمتنى ... النسك وعودتنيه والخير عادة
فارعوى باطلى وأقصر حبلى ... وتبدلت عفة وزهادة
لو ترانى ذكرت للحسن البصرى ... فى حسن سمته وقتاده
المسابيح فى ذراعى والمصحـ ... ـف فى لبتى مكان القلادة

وتدوم الصلة بين الأمين والحسن بن هانىء حتى تقوم الفتنة بين الأخوين على الخلافة ، وتحاصر جيوش المأمون بغداد ، ويهب أهل بغداد للدفاع عن بلدهم ، ويتراشق الفريقان بالنبال وتصب المجانيق وابلها على المنازل والأسوار ، ويدافع شطار بغداد ويستبسلون . ويشارك الناس كلهم فى الحرب ، لكن الشاعر لا يبالى ، وينصرف الى كأسه :

اذا عبا أبو الهيجاء	للهيجــاء فرســانــا
وسارت راية الموت	وأم الشيخ اعلانا
وشبت حربها واشتعلـ	ـت تلهب نيرانا
جعلنا القوس ايدينا	ونبل القوس سوسانا
وقدمنا مكان الرمـ	ـح والمطرد ريحانا
فعادت حربنا سلما	وعدنا نحن خلانا
بفتيان يرون القتـ	ـل فى اللذة قربانا
اذا ما ضربوا الطبل	ضربنا نحن عيدانا

وتنتهى الحرب بمقتل الأمين ، فيرثيه الشاعر فى حرقة وألم ، وصدق عاطفة ، ولا تطول بعده حياته فيقضى ما بقى من عمره عليلا يشكو العلة والهرم . فقد قارب الستين ، ويقضى فى النهاية نحبة سنة ١٩٩ هـ .

اتصل الشاعر فى مرحلته البغدادية ببعض الأمراء والولاة ، سافر الى مصر فلقى أميرها الخصيب ومدحه بجملة من القصائد الجيدة ، منها رائيته المعروفة :

أجارَةَ بيتينا أبــوك غيور	وميسور ما يرجى لديك عسير

وقيل إنه أقام فى مصر عاما من سنة ١٩٠ الى ١٩١ هـ .

شعره ، دراسة موضوعية وفنية :

يحمل شعره سمات شخصيته ، وملامح عصره ، ومجتمعه ، وربما كان شعر أبى نواس من أصدق شعر العباسيين تعبيرا عن صاحبه وحياته ومجتمعه . وأول ملامح شخصيته الظرف ، وعدم المبالاة وحبُ الظهور ، أو الاعتداد بنفسه ، وكراهيته للمرأة وحبه للغلمان .

وربما كانت هذه الأشياء جميعا متصلة معا بوشائج فى نفسه ، وكان لحياته ، وظروفها كذلك أثر فى نموها أو تكوينها .

ولد جميل الصورة ، مطبوعا على الظرف وحلاوة الروح ، وربما ظلت هذه الخصلة ، أى الظرف وخفة الدم ــ السمة الغالبة عليه ، حتى صار رمزا للنادرة والفكاهة فى الأدب الفصيح ، والأدب الشعبى جميعا ، وربما كان جمال صورته ورقته ، سببا من أسباب حب الظهور ، والميل الى العبث والمجون ،

خاصة وأن والبة بن الحباب ، قد غرس فيه ذلك منذ صغره ، ونماه وتعهده . وقد زكاه فى نفسه نسب رماه الناس فيه ، وعقدة الموالى التى استقرت فى قلبه تحرقه ، وتشعره كأنداده من أبناء الموالى ، بالضعة وصغر الشأن ، فكان لابد له من مجال للتنفيس ، فكان التمرد ، والخروج ، والعناد ، والمجاهرة بالعصيان .

وربما كانت عقدة والدته ، وما لقيه من « جنان » صاحبته أو فتاته الأولى التى علقها بالبصرة من أسباب اتجاهه إلى الغزل بالمذكر ، وكراهته المرأة فى أعماقه ، أو خشيته منها ، ذلك إلى ما وجد فى طفولته من ميل عصبة المجان لهذا اللون من الشعر . واعتيادهم عليه باعتباره جديدا خارجا وهم الولعون بكل جديد وخارج .

ويحدثنا الأستاذ العقاد عن عقدة النرجسية أو عبادة الذات عنده ، وأن من أسبابها اعتداده بجماله[1] . يقول : فالنرجسية التى تتبع أعراقها فى الحسن بن هانىء ليست حالة طبيعية تلاحظ على أنداده ، وفى مثل عمره ، ولكنها حالة منحرفة . ولد ببعض أعراضها ، وجاءت الأعراض الأخرى من البيت والمجتمع والعصر الذى نشأ فيه ، وعاش سائر حياته وهى حالة لا يشابه فيها أحدًا من شعراء عصره .

وأول دلالات النرجسية فى نفس أبى نواس عند العقاد هى تكوينه الجسدى ، وجمال صورته ، وقد ساق جملة من الأخبار تشير إلى ذلك . وقد ردد هو نفسه اعجابه بجماله قال وقد جاوز الشباب :

تتيه علينا أن رزقت ملاحة	فمهلا علينا بعض تيهك يا بدر
فقد طالما كنا ملاحا وربما	صددنا وتهنا ثم غيرنا الدهر

ومن دلالات نرجسيته عقدة الأنثى ، وهى عقدة علقت به مع أمه طفلا وصبيا ، حين كانت تكثر من تدليله وتترك شعره مرسلا ، فيبدو فى مظهر الفتاة لا الفتى ، وقد مات عنه أبوه صغيرا ، فعاش فى كنف أمه حتى يَفَعَ ، وقد سمع عن أمه الكثير من الغمز فى وسط البصرة ، ومن شعراء هاجموه ، واتهموها بريبة . وقد حاول أن ينتسب الى قبيلة والده اليمنية أو بنى الحكم . ولهذا عرف بالحكمى ، لكنه ربما ضاق بهذه النسبة ، أو هاجمه بها مهاجموه ،

(١) أبو نواس للعقاد ، كتاب الهلال ص ٨٨ .

فنسب نفسه الى مضر ، وهى غير اليمنية . وربما ضاق بهذا كله ، وبالعرب والأنساب ، وجرى مع الشعوبية ، يفخر بآبائه وأجداده الفرس ، ويقول :

راح الشقى على الربوع يهيم ... والراح فى راحى ، ورحت أهيم
بمزمزين غدوا بسدقة ليلة ... والليل ملتبس الظلام بهيم
متقرقرين كلامهم ما بينهم ... ومزمزمين خفاؤهم مفهوم
نادمتهم ارتاض فى آدابهم ... فالفرس عدوى سكرهم محسوم
ولفارس الأحرار أنفس أنفس ... وفخارهم فى عشرة معدوم

* * *

ويقول عن العرب :

واذا أنادم عصبة عربية ... بدرت الى ذكر الفخار تميم
وعدت الى قيس وعدت قوسها ... سبت تميم وجمعهم مهزوم

وكان هذا التمرد والخروج على التقاليد ، والاعتداد ، والمجاهرة ، مظهرا لهذه الشخصية الشاعرة . ربما شابه بشارا فى بعض ملامحه ، وربما شابه غيره من شعراء الموالى أو عصبة المجان . أو الزنادقة ، لكنه ظل نموذجا فريدا . وطابعا مميزا بجملة سماته الخاصة بين الشعراء جميعا ، وهى سمات فيها الجميل المحبب إلى النفوس ، وفيها القبيح الذى تنفر منه ، لكنه حتى فى هذا القبيح ، غير غليظ الطبع ، ولا ثقيل الظل كسابقه بشار . لكنه يظل فيه محتفظا بخفة ظله ورقته .

وشعوبية أبى نواس ، وزندقته ، مع صلتها بشخصيته وحياته ، وظروفه الخاصة فى حياته لا يمكن فصلها عن ظروف حياته ومجتمعه . وقد شاعت هذه الروح كما قلنا فى عصره . وتجاوب الشاعر معها ، وتلاقى وبشارا وآخرين فى الحملة على نهج القدماء فى القصيدة ، والدعوة الى هجر مقدمتها الطللية ، وبكاء الديار . يقول :

قل لمن يبكى على رسم درس ... واقفا ما ضر لو كان جلس

ولعله بذلك يلمح الى قول الشاعر القديم امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللِّوَى بين الدخول فَحَوْمَلِ

ويسخر من قول السابق :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا ... نبكى الديار كما بكى ابن حذام

فيقول[1] :

عاج الشقى على رسم يسائله ... وعُجْتُ أسأل عن خمارة البلد
يبكى الشق على طلل الماضين من أسد ... لادر درك قل لى من بنو أسد
ومن تميمٌ ومن قيس ولَفُّهما ... ليس الأعاريب عند الله من أحد
لا جف دمع الذى يبكى على حجر ... ولا صفا قلب من يصفو الى وتد
كم بين ناعت خمر فى دساكرها ... وبين باك على نُؤْيٍ ومنتضد

ويقول فى أخرى :

دع الأطلال تسفيها الجنوب ... وتبكى عهد جدتها الخطوب
تحل لراكب الوجناءِ ارضا ... تخب بها النجيبة والنجيب
ولا تأخذ عن الأعراب لهوا ... ولا عيْشًا فعيشهم جديب
ذَرْ الألبان يشربها أناس ... رقيق العيش عندهمو خديب
بأرض نبتها عشر وطلح ... وأكثر صيدها ضبع وذيب
اذا رَابَ الحليب فبل عليه ... ولا تحرج فما فى ذاك حوب
فأطيب منه صافية شمول ... يطوف بكأسها ساق أريب

حتى يقول :

فأين البدو من إيوان كسرى ... وأين من الميادين الدروب

وهذه الدعوة الجديدة إلى نبذ الحياة العربية القديمة حياة الصحراء ، وما بها فى الشعر والتعبير عن الحياة الحضرية ، وهى حياة عراقية فارسية ، تمت بمدنيتها إلى حضارة الفرس القدماء ونظمهم فى العيش . وهذه الدعوة وإن تلونت باللون الفارسى ، وبدت شعوبية المظهر لكنها دعوة الى التجديد ، والملاءمة بين الشعر والحياة ، وترك القيم والتقاليد الموروثة والتى تمسك بها شعراء العرب وعلماء العربية ردحا من الزمن .

---

(١) ديوانه ص ٢٦٦ .

هذه الصرخة الى فك قيود الشعر ، والخروج عن إطاره القديم إلى إطار جديد كانت دعوة صادقة من الشاعر ، تتلاءم مع مزاجه ، وإن مقدمته الجديدة التى دعا إلى بدء القصائد بها هى القول فى الخمر أو النسيب الخمرى إذا صح هذا القول .

واذا كان بدء القصيدة بالنسيب عند القدماء مدعاة لأنس السامع وتوددا إلى قلبه ، لأن حديث النسيب والغزل محبب الى كل القلوب ، فإن حديث الخمر فى دعوة أبى نواس محبب إلى من هم فى مثل مزاجه ، ممن يعشقون الخمر ، ويطيفون بِدسّاكِرِها .

ويردد هذه الدعوة فى مطلع كثير من خمرياته . فيطيل أحيانا ويقصر أخرى حتى لا يذكرها إلا فى سطر بيت كقوله :

لا تبك ليلى ولا تطرب الى هند   واشرب على الورد من حمراء كالورد

ومزاج أبى نواس وهو مزاج أبيقورى ، عاشق للحياة وملاذها ، يدفع به إلى نشدان ملاذه كلها فى ظل الخمر ومجالسها ، لذة النساء ، ولذة الغلمان ، ولذة الطعام ، ولذة الشراب ، ولذة النظر ، والشم ، وسعادة الحديث والسحر كلها تجتمع إلى الخمر ، وتصب فيها ، فكأسها ذوب اللذات ، من يد ساق جميل الصورة يضع فيها أو على أذنه عود الريحان ، وتحيط به الرياض ، والبساتين ، أو الكروم .

وهو فى مزاجه هذا لا يحول ، يدعوه أبو العتاهية الى ترك اللهو ، والامتناع عن سماع الغناء فيقول له :

أتـــرانى ياعتاهـــى   تاركا تلك الملاهى
أتراني مفسدا بالنسك   عند القوم جاهى .

وقد كان هذا المزاج داعيا له الى المجاهرة والتبذل ، فهو واعٍ مدرك لطريقه وغايته غير جاهل ، ولا غافل ، لذا تراه يجاهر بميوله النرجسية ، وحب الظهور أو الميل إلى العرض . يعتب على صاحبته التى تلومه على التمادى فى الشراب والاغراق فى اللهو ، فيقول :

وملحمة باللوم تحسب أننى   بالجهل أوثر صحبة الشطار

بكرت على تلومنى فاجبتها	انى لأعرف مذهب الأبرار
فدعى الملام فقد أطعت غوايتى	وصرفت معرفتى الى الانكار
ورأيت اتيانى اللذاذة والهوى	وتعجلى من طَيِّبِ هَذِى الدار
أحرى وأحزم من تَنَظُّرِ آجِلٍ	علمى به رجم من الأخبار
ما جاءنا أحد يُخَبِّرُ أنه	فى جنة من مات أو فى نار

ويردد هذا المعنى مرة أخرى فى قوله :

ألم ترنى أتحت اللهو نفسى	ودينى وأعتكفت على المعاصى
كأنى لا أعود الى معاد	ولا أخشى هنالك من قصاص

نفسية متمردة ، ألهاها اندفاعها نحو اللذة ، وأغفلها ، فجأرت بالقول بالخلاف حتى يلتفت إليه الناس ، فيؤاخذونه ويلومونه ، أو يتهمونه ، ويرجمونه ، وهو لا يعبأ بهذا كله ، بل يكفيه منه أنه معروف عند الناس ، تجرى سيرته على كل لسان ، ويدور شعره الغريب فى مجالسهم ، خفاء أو جهرا ، ويسعده أن يسير هذا الشعر ويشيع ، والناس وراء كل غريب ، وخاصة العامة . وقد لاحظ النقاد القدماء ميله لهذا اللون الخارج أو الصارخ ، الذى يسعى فيه أحيانا لرواجه عند العامة وأوساط الناس .

يقول ابن شرف(١) :

« أما أبو نواس فأول الناس فى خرم القياس ، وذلك أنه ترك السيرة الأولى ، ونكب عن الطريقة المثلى ، وجعل الجد هزلا ، والصعب سهلا ، فهلهل المسرد ، وبلبل المنضد ، وخلخل المنجد وترك الدعائم ، وبنى على الطامى والعائم ، وصادف الأفهام قد كَلّتْ ، وأسباب العربية قد تخلخلت وانحلت ، والفصاحات الصحيحة قد سئمت وملت ، فمال الناس إلى ما عرفوه ، وعلقت نفوسهم بما ألفوه فتهادوا شعره ، وأغلوا سعره ، وشغفوا بأسخفه ، وعلقوا بأضعفه ، وكان ساعده أقوى ، وسراجه أضْوَى ، لكنه عرض الأنفق ، وأهدى الأوفق ، وخالف فشهر وعرف وأعرب ، فذكر واستطرف ، والعوام تختار هذه الأعلاق ، وأسواقهم أوسع الأسواق . فشعر أبى نواس نافق عند هذه الأجناس ، كاسد عند أنقد الناس ، وقد فطن الى

(١) الذخيرة قسم ٤ مجلد ١ .

استضعافه . وخاف من استخفافه ، فاستدل بفصيح طرده طرفا من جد اللسان الأول وجدده . وهو مجدد فى كثرة التظاهر على من غض منه بالحق الظاهر ، ليس إلاّ لخفة روح المجون ، وسهولة الكلام الضعيف الملحون على جمهور العوام ، لا على خصائص الأنام » .

وشعر أبى نواس الجديد ، أو الذى يذهب فيه هذا المذهب الجديد ، يدور فى الخمر والمجون ، والغزل بالمذكر والوصف ، والغزل بالمؤنث وإن كان قليلا . ويميل فيه إلى الأوزان الخفيفة الرشيقة ، والإيقاع الموسيقى المطرب ، وكثيرا ما لجأ إلى مجزوءات البحور ، وكذلك حاله فى أهاجيه ، وهى قليلة نسبيا ، لأن سيرورة الهجاء تقتضى السهولة فى القول والبحر ، ولأبى نواس أراجيز ، ومجزوءات الرجز كقوله فى الفضل بن الربيع :

وبلـــدة فيها زور صعراء تخطى فى صعر

ويدخل شعره الصنعة فى اللفظ والصورة ، لكنه لا يسرف إسراف المتصنعين كمسلم بن الوليد وأبى تمام . وإنما يجىء صنعه كالحلية البديعة .

ويرى النقاد المحدثون خلاف رأى القدماء فى شعره الجديد ، إذ يعتبرونه أكثر صدقا وأظهر تعبيرا عن شخصه ، وعصره . يقول طه حسين :

« وكان أبو نواس فى شعره صادقا فى التعبير عن أحاسيسه ، صادقا فى وصفه للحياة من حوله ، فهو يصدق فى وصف لذات الحياة ، وإن كانت خارجة عن الدين والفضيلة لأنه لم يرد أن يخفى نفسه أو أن يتحدث بما لا يرى ، أو أن لا يقول الشعر فى كل ما يرى ، فهو صادق الوصف ، لأنه أراد بهذا الصدق أن يرضى نفسه .

وقد رفعه هذا الصدق الى ترك ما ليس معبرا عن هذه الحياة من أنماط التقليد الذى توارثه الشعراء كذكر الأطلال ، والرغبة فى التقعر والاغراب فى اللغة والأساليب ، والدعوة إلى التعبير عن الحياة الجديدة بألفاظ تتمشى مع الحياة سهولة ورقة »[1] .

(١) حديث الأربعاء ، جـ ٢ ، ص ١٥٠ .

ويقول عبد العزيز البشرى[1] عنه فى هذا الشعر الصادق :

« هو رجل يشعرك مرسل شعره بأن نظره كان ينفذ الى صميم الأشياء ، بل يشعرك بأن الأشياء كانت تلطف له وتشف ليتناول صميمها ما يشاء ، وسرعان ما يتنفس بهذا الذى أدرك شعرا » .

ويقول أحمد أمين فى شعره الجديد :

« فإن كان بشار يستحق لقب (المجدد الأول) فإن أبا نواس يستحق لقب المجدد الثانى » .

شعره فى الخمر :

وإذا كان قوله فى الخمر من أبرز موضوعات شعره الجديد ، فينبغى الوقوف عنده لنتلمس عناصره :

وليس شعر الخمر من جديد الموضوعات ، فقد عرف فى شعر الجاهلية ، وبدأ عمرو ابن كلثوم قصيدته النونية بقوله :

ألا هبى بصحنك فاصبحَينا ولا تُبقِى خمور الأندرينا

وأكثر الأعشى من ذكرها ، وكان من وصافها المشهورين ، وربما تأثر أبو نواس ببعض معانيه . قال الأعشى :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

وقال أبو نواس :

دع عنك لومى فان اللوم اغراء وداونى بالتى كانت هى الداء

لكن شعراء الجاهلية الذين قالوا فى الخمر لم يزيدوا على وصفها ووصف شرابها ، من الندامى ، وبَعضهُم جعل منهم فتيانا يتحلّون بخلق الفتوة العربية لا تأخذ الخمر بألبابهم ، وهم ينعمون بمجالسها ، وقد تجتمع لذة الخمر عندهم بلذة النساء ، أو بلذة الصيد والركوب ، وتجتمع هذه اللذات جميعا عند امرىء القيس فى قوله :

(١) الاغانى ٩ /٧٨ .

كأنى لم أركب جوادا للذة ... ولم اتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل ... لخيليَ كرى كرة بعد اجفال

ولما جاء الإسلام كان بعض شعراء المدينة يذكرون الخمر فى قصائد المديح كحسان بن ثابت :

لله در عصابة نادمتهم - يوما بجلق فى الزمان الأوّل

فلما حرمها الإسلام ، أقلع الشعراء عن ذكرها ، وظلوا كذلك حتى عصر بنى أمية ، وقد عرف بالقول فيها شاعر نصرانى كبير هو الأخطل ، ولم يكن المسلمون بمانِعِى النصرانى من شرب الخمر ، أو القول فيها ، وكان الأخطل مجيدا فى صفة الخمر ، ومَجالسيها ، ولكنه جرى فى ذلك على سنن شعراء الجاهلية ، وظلت الفاظه ومعانيه وصوره مكررة ، أو تمت إلى خمريات البادية بصلات وطيدة .

وأول ما بدا من تغير فى شكل الخمريات على لسان الوليد بن يزيد ، وبعض شعراء الكوفة فى أخريات عصر بنى أمية أوائل القرن الثانى للهجرة . وطبيعى أن يظهر هذا اللون الجديد من شعر الخمر فى الكوفة وهى ما ذكرنا من وجودها فى وسط تحيط به الأديرة النصرانية . وقد نهج هؤلاء الشعراء الكوفيون فى شعرهم عامة وفى الخمريات خاصة نهجا جديدا فى شكله وأسلوبه ومعانيه ، يميل الى الخفة وسهولة اللفظ والعبارة ومسايرة المعانى لروح الحضر والمدنية . ويمكن أن نذكر لهذا النهج مثالا من شعر الوليد بن يزيد (الخليفة الأموى الشاعر) . يقول فيه :

أدر الكأس يمينا ... لا تدرها ليسار
أسق هذا ثم هذا ... صاحب العود النضار
من كميت عتقوها ... منذ دهر فى جرار
ختموها بالأفا ... وية وكافور وقار

وأمثال هذا النهج الجديد هو الذى سار عليه أبو نواس فى خمرياته شكلا وأسلوبا ومعنى . لكنه أتقن فيه وتنوع وأبدع .

وكان شعر الخمر فى الكوفة على آخر عهد الأمويين وأول عصر العباسيين

فى القرن الثانى قد تلون بلون الحضارة الجديدة ، واستمد بعض معانيه من تراث الفرس ، أو النصارى ، وتنوع تناول الشعراء للخمر وصفاتها ، فقالوا فى تقديرها ، وذكر مكانتها ، ووصفوها بالعروس غالية المهر ، وهى كريمة لابد وأن تزف لكريم ، ووصفوا رائحتها ، وما يوضع حولها أو مع كؤوسها من مختلف الأفاوية والطيب وأنواع الرياحين ، ثم ذكروا تعتيقها ، وقدمها ، ووصفوا رائحتها وفعلها فى الألباب ، وحالات السكرى والنشاوى ممن دارت برءوسهم ، وما قد يحدث المزج بها من فقاقيع ، وما يتلألأ من ألوانها فى الكؤوس ووصف الكؤوس والأباريق ، الى غير ذلك كله .

وهى أوصاف قد يكون كثير منها جديدا ، فى صوره ، وفى ألفاظه ، لكن الشاعر لم يرتبط بالخمر ذلك الرباط الذى ارتبطه أبو نواس ، فهو يحس إزاءها بقدر غير قليل من الحب ، والإجلال يبلغ ذروة التقديس أحيانا ، تحسه فى قوله مثلا :

إثن على الخمر بآلائها	وسمها أحسن أسمائها
لا تجعل الماء لها قاهرا	ولا تسلطها على مائها

وهى عذراء تزف إليه ، ومهرها غال ، يبذل فيها الدر والياقوت ، وهى كريمة لا يخطبها إلا الكرام :

يا خاطب القهوة الصهباء يمهرها	بالرطل يأخذ منها ملأه ذهبا
قَصَّرْتَ بالراح فاحذر أن تسمعها	فيحلف الكرم أن لا يحمل العنبا
إنّى بذلت لها لما بصرت بها	صاعا من الدر والياقوت ما ثقبا

* * *

يا قهوة حرمت إلاّ على رجل	أثرى فأتلف فيها المال والنشبا

وهو حين يشرب الخمر من الكأس فكأنما يقبل حبيبته التى يزهر وجهها كالنجم أو البدر :

اذا عب فيها شارب القوم خلته	يقبل فى داج من الليل كوكبا

وهى دائماً مشرقة منيرة ، تضىء أينما وجدت من البيت أو الحانة :

ترى حيث ماكانتْ من البيت مشرقا | وما لم تكن فيه من البيت مغربا
يدير بها ساق أغن ترى له | على مستدار الأذن صدغا معقربا

وهى بأضوائها ولآلائها شمس :

قامت بابريقها والليل معتكر | فلاح من وجهها فى البيت لألاءُ
فأرسلت من فم الأبريق صافية | كأنما أخذها بالعين أغفاء
رقت عن الماء حتى ما يلائمها | لطافةً وجفا عن شكلها الماء
فلو مزجت بها نورا لمازجها | حتى تولد أنوار وأضواء

وهى كالورد ، وكعين الدين حمراء أحيانا ، وحين تختلط بالماء ، تفور ، وتبدو فقاقعها فوقها بيضاء كالحبب ، أو حبات الدر :

وقهوةً كجنى الورد خالصة | قد أذهب العتق منها الذام والرنقا

ويقول :

واشرب سلافا كعين الديك صافية | من كف ساقية كالريم حوراء

* * *

تنزو فواقعها منها إذا مزجت | نزو الجنادب فى مرج وأفياء

ويقول :

اذا ما علاها الماء خِلْتَ حبابها | تَفَادِيَق در فى جوانبها شتى

ويفتن فى تصوير كؤوسها وأباريقها صورا فنية جميلة ، أبدع خلقها وتكوينها . يقول فى إبريقها وهو على صورة ظبى مشرف من مكان عالٍ :

كأن ابريقها ظبى على شرف | قد مدَّ منه لخوف القانص العنقا

وأحيانا هى كالكراكى تمد برقابها الطويلة ورءوسها الدقيقة :

لدينا أباريق كأن رقابها | رقاب كراكى قد نظرن الى صقر

ويجمع الصورتين معا فى واحدة فيقول :

فى أباريق من لجين حسان | كظباء سكن عرض القفار
أو كراك ذعرن من صوت صقر | مفزعات شواخص الأبصَارِ

وتصبُّ الخمرُ في الأباريق في الكؤوس ، وهى بيضاء زجاجية ، أو من نحاس مصور عليه صور الأكاسرة ، أو صور الحيوان :

والكوب يضحك كالغزال مسبحا ... عند الركوع بلثغة الفأفاءِ
وكأن اقداح الزجاج اذا جرت ... وسط الظلام كواكب الجوزاء

ويقول :

فحل بزالها فى قعر كأس ... محفرة الجوانب والقرار
مصورة بصورة جند كسرى ... وكسرى فى قرار الطهر جار
وجل الجند تحت ركاب كسرى ... بأقبية وأعمدة قصار

ويعرض هذه الصورة فى صيغة أخرى فيقول :

تدور علينا الرَّاحُ فى عسجدية ... حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفى جنباتها ... مَهًا تدَّريها بالقسى الفوارس

ويصف زوراته للحانات فى قطربل أو غيرها من أماكن اللهو والشراب فى ضواحى بغداد ، وغالبا ما تكون زورته بالليل والناس نيام ، يدب وحده أو مع بعض صحابته ، فيطرق باب صاحب الحانة ، وهو نصرانى حينا ، يهودى أحيانا فيجيبهم هو أو تجيبهم ابنته ، ويتوجس من الطارقين أول الأمر ثم لا يلبث أن يطمئن إليهم لأنه يعرف زبائنه الذين اعتادوه ، واعتادوا أن يقدموا المال فى سبيل الخمر ولا يبخلون . فيجود لهم بأحسنها .

يقول :

وفتية كنجوم الليل أوجههم ... من كل أغيد للغماء فراج
أنضاء كأس اذا ما الليل جنهم ... ساقتهم نحوها سوقا بإزعاج
طرقت صاحب حانوت بهم سحرا ... والليل منسدل الظلماء كالساج
لما طرقت عليه الباب أوجله ... وقال بين مسر الخوف والراجى
من ذا؟ فقلت: فتى نادته لذته ... فليس عنها إلى شىء بمنعاج
إفتح. فقهقه من قولى وقال: لقد ... هيجت خوفى لأمر فيه إبهَاجى
ومر ذا فرح يَسْعَى بمسرجة ... فاستلّ عذراء لم تبرز لأزواج

ويقول :

وخمارة للهو فيها بقيـــة ... إليها ثلاثا نحو حانتها سرنا
ولليل جلباب علينا وحولنا ... فما أن ترى إنسا لديه ولا جنًّا
يسايرنا الا سماء نجومهـا ... معلقة فيها الى حيث وجهنا
الى أن طرقنا بابها بعد هجعة ... فقالت: من الطراق؟ قلنا لها: «إنَّا»
شباب تعارفنا ببابك لم نكن ... نروح بما رحنا إليك ، فأدلجنا
فإن لم تحيينا تبدد شملنا ... وإن تجمعينا بالوداد تواصلنا
فقالت لنا: أهلا وسهلا، ومرحبا ... بفتيان صدق ما أرى بينهم أفنا
فقلت لها: كيلا حسابا مقوما ... دواريق خمر ما نقصن ولا زدنا

ولا يأخذ الشاعر فى هذه القصيدة نفسه باستقلال البيت فى لفظه ، بحيث تكون القافية نهاية للمعنى ، كما هى نهاية للنغم فى البيت الواحد . إذ نلحظ ارتباط معنى القافية بمعنى البيت الذى يليه ، وهذا عند نقاد الشعر التقليديين عيب يسمى التضمين .

ويقول مرة أخرى :

وفتيـان صدق قد صرفت مطيهم ... إلى بيت خمار نزلنا به ظهرا
فلما حكى الزنـار أن ليس مسلمـا ... ظننا به خيرا فظن بنا شرا
فقلنا على دين المسيح بن مريم؟ ... فاعرض مزورا وقال لنا كفرا
ولكن يهودى يحبك ظاهرا ... ويضمر فى المكنون منه لك الختـرا
فقلنا له: ما الإسم قال سَمَوْأَلٌ ... على أننى أكنى بعمـرو ولا عمـروا
وما شرفتنى كنية عربية ... ولا أكسبتنى لا سناء ولا فخرا
ولكنها خفت وقلت حروفها ... وليس كأخرى انما جعلت وقرا
فقلنا له عجبا بَظَرْفِ لسانه ... أجدت أبا عمرو ، فجود لنا الخمرا
فأدبر كالمُزورِّ ينظر نحونا ... لأرجلنا شطراء وأوجهنا شطرا
وقال لعمرى لو أحطتم بأمرنا ... للمناكم ، لكن سنوسعكم عذرا
فجاء بها زيتيـة ذهبيـة ... فلم نستطع دون السجود لها صبرا

وتارة يكون صاحب الحانة رجلا أصلع الرأس ، يَطْرقُه أبو نواس وعصابته ليلا فيقوم مروعا ، لكن يفرخ روعه عند تعرفه إليهم ، وأنهم زبائن لا ينوون به شرا :

يارب صاحب حانة قد رعته — فبعثته من نومه المتديل
عرفت ثياب الطارقين كلابه — فيبتن عن سنن الطريق بمعزل
ما زلت امتحن الدَّساكِرَ دونه — حتى دفعت إلى خفى المنزل
فعرفته والليل ملتبس بنا — برفيف صلعته وشيب المسحل

ويقول فى صورة أخرى مع فتية وخمارة :

وليلة قد سرت فيها بفتية — تنازعها نحو المدام قلوب
إلى بيت خمار ، ودون محله — قصور منيفات لنا ودروب
ففزع من إدلاجنا بعد هجعة — وليس سوى ذى الكبرياء رقيب
تَنَاوَمَ خوفا أَنْ تكون سعاية — وعاوده بعد الرقاد وجيب
ولما دعونا باسمه طار ذعره — وايقن أنَّ الرَّحْلَ منه خصيب
وبادر نحو الباب سعيا ملبيا — له طرب بالزائرين عجيب
فأطلق عن نابيه وانكب ساجدا — لنا وهو فيما قد يظن مصيب
وقال : ادخلوا حييتموا من عصابة — فمنزلكم سهل لدى رحيب
وجاء بمصباح له فأناره — وكل الذى يبغى لديه قريب
فقلنا : أرحنا هات إن كنت بائعا — فإنَّ الدجى عن ملكه سيغيب
فأبدى لنا صهباء، تم شبابها — لها مرح فى كأسها ووثوب

ويجيد رسم مجلس الخمر فيصور الساقية أو الساق ، وشعرها ، وتصفيف الشعر ، واللباس والزينة . وغالبا ما تكون مجالس الشراب وسط الرياض ، أو تحت ظلال الكروم ، وقد اشتهرت قطربل والكرخ وطيرناباذ فى عصره بمجالس الخمر وحانات وسط البساتين :

قطربل مربعى ، ولى بقرى الكر — خ مصيف ، وأمى العنب
ترضعنى درها ، وتُلْحِفُنى — بظلهــــا والهجير يلتهب
اذا ثنته الغصون جللنى — فينان ما فى أيكه حوب
تبيت فى مأتم حمائمه — كما ترنى الفواقد السلب
يهب شوق وشوقهن معا — كأنما يستخفنا الطرب
فقمت أحبو الى الرضاع كما — تحامل الطفل مسه سغب

ويقول :

وبجلس خمار الى جنب حانة | بقطربل بين الجنان الحدائق
نجاة ميادين على جنباتها | رياض غدت محفوفة بالشقائق

ويكون هذا المجلس بالدير ، وللديارات فى شعر أبى نواس صورة جميلة ، منها صورة دير بَهراذان يقول :

بدير بَهزاذان لى مجلس | وملعب وسط بسَاتينِه .
رحت له ومعى فتية | نزوره يوم شعانينه
بِكُلِّ طلاب الهوى فاتك | قد آثر الدنيا على دينه
حتى توافينا إلى مجلس | تضحك ألوان رياحينه
والنرجس الغض لدى ورده | والورد قد حف بنسرينه

وقصيدته فى وصف دير حنة ورهبانه وقساوسته يقول فيها :

يا دير حنة من ذات الاكيراح | من يصح عنك فانى لست بالصَّاحِى

وحانات الكرخ ذات الحدائق والكروم المظللة والورود والرياض من حول الأرائك المصفوفة :

ومل إلى مجلس على شرف | بالكرخ بين الحديث معتمد
ممهد صففت نمارقه | فى ظل كرم معرش خضد
قد لحفتك الغصون أردية | فيومك الغض بالنعيم ندى

وهو يمزج بين جمال الربيع وجلوته فى إبانة ونشوة الخمر :

واغد على اللَّهْوُ غير متئد | عنه فهذا أوان مُقْتبلِهْ
أما ترى جدة الزمان وما | أَبْدعَ فيه الربيع من عمله
وافى وجوه الزمان غادية | عند اقتراب الشتاء من أجله
فاحتل أرجاءه فادركها | من زهو نواره ومن حلله
أدركت فى أخريات شتوته | ما كان مد الربيع فى أجله
فأشرب على جدة الزمان فقد | وافى بطيب الهوى ومعتدله
من قهوة تذكر السرور وتنسـ | ـى الهم عند اعتراض مُشْتَكِلِهْ

ويجمع إلى الخمر وصف الورود والراحين :

لا تخشعن لطارق الحدثان — وادفع همومك بالشراب القانى
أو ماترى أيدى السحـائب رقشت — حلل الثرى ببدائع الريحان
من سوسن غض القطاف وخُرَّمٍ — وبنفسج وشقائق النعمـان
وجنى ورد يستبيك بحسنه — مثل الشموس طلعن من أغْصَانِ
حمرا وبيضا يجتنين وأصفرا — وملونا ببدائع الألــوان
بعقود ياقوت نظمن ولؤلؤ — أوساطهن فرائد العقيان
ومن الزبرجد حولهن ممثلاً — (ثملا) يلوح بجانب البستان

ويقول فى دير حنة : (وقت عيد الشعانين) :

يا دير حنة من ذات الأكيراح — من يصح عنك فانى لست بالصّاحى
رأيت فيك ظباء لا قرون لها — يلعبن منا بالباب وأرواح
دع التشاغل باللذات يا صاح — من العكوف على الريحان والراح
واعدل الى فتية ذابت نفوسهم — من العبادَةِ تحت الجسم أطلاحَ
لم يبق فيهم لرائيهم إذا حصلوا — خلاف ما خوفوه غير أشباح
تلقى بهم كل محفو مفارقه — من الزهاد عليه سحق أمساح
لا يدلفون الى ماء بآنيةٍ — إلاَّ اغترافًا من الغدران بالراح

ومن قصائده الفريدة فى هذا قوله :

نـص :

وفتية كمصابيح الدجى غرر — شم الأنوف من الصيد المصاليت
صالوا على الدهر باللهو الذى وصلوا — فليس حبلهمو منه بمبتوت
دار الزمان بأفلاك السعود لهم — وعَاجَ يحنو عليهم عاطف الليت
نادمتهم قرقف الإسفنط صافية — مشمولة سبيت من خمر تكريت
من اللواتى حظيناها على عجل — لما عججنا بربات الحوانيت
فى فيلق لدُجَى كاليم ملتطم — طام يَحَارُ بِهِ من هوله النُّوتى
إذا بكافرة شمْطاءَ قد برزت — فى زى مختشع لله زميت
قالت : من القوم . قلنا : من عرفتهم — من كل سمح بفرط الجود منعوت
حلوا بدارك مجتازين فاغتنمى — بذل الكرام وقولى كيفما شيت
فقد ظفرت بصفو العيش غانمه — كغنم داود من أسلاب جالوت
فاحيى بريحهم فى ظل مكرمة — حتى إذا ارتحلوا عن داركم موتى

قالت فعندى الذى تبغون فانتظروا   عند الصباح فقلنا بل بها إيتِ
هى الصباح يجلى الليل صفوتها   إذا رمت بشرار كاليواقيت
رمْىَ الملائكة الرصاد اذ رَجَمَتْ   فى الليل بالنجم مُرَّادَ العفاريت
فاقبلت كضياء الشمس بازغةً   فى الكأس من كفّ واهى الخصْر منكوت
قلنا لها كم لها فى الدن اذ حجبت   قالت قد اتخذت من عهد طالوت
كانت مخبأة فى الدن قد عنست   فى الأرض مدفونة فى بطن تابوت
فقد أتيتم بها من كُنْهِ معدنها   فَعَاذِرُوا اخذها فى الكأس بالقوت
تهدى إلى الشرب طيبا عند نكهتها   كنفح مسك فويق النار مفتوت
كأنها بزلال المزن إذ مزجت   شباك در على ديباج ياقوت
يديرها قمر فى طرفه حور   كأنما اشتق منه سحر هاروت
وعندنا ضارب يشدو فيطربنا   « يادار هند بذات الجزع حييت »
إليه الحاظنا تثنى أعنتها   فلو ترانا إليه كالمباهيت
من أهل هيت سَخِيُّ الجرم ذو أدب   له أقول مزاحا هات يا هيتى
فينبرى بفصيح اللفظ عن نغم   مثقفات فصيّحات بتثبيت
حتى إذا فلك الأوتار دار بنا   مع الطبول ظللنا كالمسابيت
فزنا بها فى حديقات ملففة   بالرند والطلح والرمان والتوت
تلهيك أطيارها عن كل ملهية   اذا ترنم فى ترجيع تصويت
لم ينثنى اللهو عن غشيان موردها   ولم أكن من دواعيها بصميت
حتى إذا الشيب فاجانى بطلعته   أقبح بِطَلْعَةِ شيب غير مبخوت
غدا الغوانى إذا أبصرن طلعته   وقد أذن بتوديع وتشتيت
فقد ندمت على ما كان من خطلى   ومن أضاعه مكْتُوبِ المواقيت
أدعوك سبحانك اللهم فأعف كما   عفوت ياذا العلا عن صاحب الحُوتِ

ونعجب من براعته فى توظيف لغة التوراة والإنجيل والقرآن لمعانيه لخطاب المتلقى الذمّىّ والمعْلم .

صور الساقى والساقية :

ونحن بين بساتين فتنفحنا   ريح البنفسج لا نشر الخزاماء
يسعى بها خنث فى خلقه دمث   يستأثر العين فى مستدرج الرائى
مقرطق صخب الأرداف ذو غنج   كأن فى راحتيه رسم حناء
عيناه تقسم داء فى محاجرها   وربما نفعت فى حَوْمَةِ الداء
إنى لأشرب من عينيه صافية   صرفا وإشربُ أخرى مع ندامائى

ومن أوصافه تصوير حال المطربة والمغنين والمنشدين وآلاتهم فى مجالس الخمر

* * *

فمن وصْفِ العتاءِ والمغنىّ ، وما يتغنَّى من الأصوات (الأدوار) :

١) حتى تغنى وما تم الثلاث له حلو الشمائل محمود السجيات
ومنه : « يا ليت من مالى ومن ولدى أنى أجالس لبنى بالعشيات »

٢) وأصبحت السن أوتاره اذ حرك المثنى بمضرابه
ثم شدا لما جرت كأسه حرفا ومرت بين أقرابه
وقال : « عاود قلبى كله أطرابه من حب من أصبحت أعنى به »

٣) وغنى لنا صوتا بحسن ترجع « سرى البرق غَربيًّا فَحَنَّ غريب »
وقال : فمن كان منا عاشقا فاض دمعه وعاوده بعد السرور نحيب

٤) وجدت أَلَذَّ عارية الليالى قران النغم بالوتر الفصيح
ومُسْمِعَةٍ إذا ما شئت غنت « متى كان الخيام بذى طلوح »

ومُغَنٍّ كلّما شئـ ـتَ تغَنَّى وأشارا
رفعَ الصَّوتَ بضربٍ هاجَ للقلبِ ادّكارا
صاحَ هل أبصرْتَ بالخمـ ـسين من أسماءَ دارَا

ومنه وصف مغنية وعودها :

وخاذل من جوارى الحى يسعدها أصوات مختلِف من وقع أوتار
مِنْ بين بم الى مثنى ومثلثة وما خلا ذاك من أصوات أوتار
نيطت إلى بدن كالحلى ليس له روح ولكنه من نحت نجار
أتاه فى غيضة فاختار جيده وظل ينحى له قطعا بمنشار
معقرب الرأس كالمسراج صنعته سحر وما مسه تعقيد سحار
تمَّتْ ملاويه حتى خلت خلقتها أصابعا حركت من مفصل جار
يحكى صداه مجيد الصوت إذ نطقت منه اللغات على طبل ومزمار

---

(١) يصف فى هذا البيت والأبيات بعده العود ، وكيف صنعه صانعه من الخشب .
(٢) ملاء به مفاتيح أوتاره ، التى يضبط بها شدًّا وإرخاء .

ويقـول :

فى مجلس جلى السرور صباحه — سترا له من ناظر الحدثان
لا يطرق الأسماع فى أرجائه — الا ترنم السن العيدان
دوما وتصفيق الجليس تطربا — وبكاء خابية وضحك قنانى

مغنيــة :

ومُسَمِّعَةٌ جاءت بأخرس ناطق — بغير لسان ظل ينطق بالسحر
لتبدى سر العاشقين بصوته — كما تنطق الأقلام تجهر بالسر
ترى فخذ الألواح فيها كأنها — الى قدم نيطت تضج الى الزمر
أصابعها مخضوبة وهى خمسة — تختمن بالآثار فى العسر واليسر
اذا لحنت يوما لوت أصبعا لها — فتحكى أنينَ الصب من حرقة الهجر
تقول وقد دبت عقار كأنها — دم ودموع فوق خد اذا تجرى
« سلام على شخص إذا ما ذكرته — حذرت من *الواشين* أنْ يهتكوا سرى »
فبعض الندامى فى سرور وغبطة — وبعض الندامىَ للمدامة فى أسر

اسمها قبل :

فقال هات وأسمعنا على طرب — (ودع هريرة ان الركب مرتحل)
فاحسنت فيه لم تخرم مواقعه — والكأس فى يدها فى جوفها حلل
ثم استهشت إلى صوت تملحه — « أنا محيوك فأسلم أيها الطلل »
فما تمالكت عينى أن تبادرها — دمعى ، وعاودها من دلها خبل
فقال أحسنت ، ماتدعين؟ قلت له : — معكوسة لبق هذا هو المثل
فطار وجدا بها والخمر يأخذها — وقال : هات ، فأنت العيش والأمل
(أن العيون التى فى طرفها مرض) — فرجعته بلحن وقعه شكل
فخر معتجزا مما ترادفه — منها وقلت لها : أحسنت يا قبل
فاستخجلت فتبدى الورد يضحك فى — خد أنيق لها يا حبذا الخجر

نغــم :

أكرم بهم وبنغم من مغنية — ففى الغناء بنغم يضرب المثل
هيفاء تسمعنا والعود يطربنا — (ودع هريرة أن الركب مرتحل)

حال النّدامى :

ولابن هانى فى أوصاف السكارى والنّشاذى لوحات أبدع تصويرها فمنها :

فى الندمان وقد سكر فارتعشت يداه :

وندمان ترادفه خمار ... فأورث فى أنامله ارتعادا
فليس بمُستَقِل الكأس ما لم ... تكن يسراه لليمنى عمادا
رفعت له يدى وهنا بكأس ... بها منها تزيد فاستَعَادا
وقال ألست متبعها بأخرى ... توقرنى فإن بى ازديادا
فقلت له : بلى وباخريات ... على انى سأجعلها جيادا
فذلك دأبه ليلا ودأبى ... اذا ما زِدْتُهُ منها استزادا
الى ان خر ما يدرى أأرضًا ... توسد عند ذلك أم وسادا

ويقــول :

أسقنى حتى ترانى ... أحسب الديك حِمارًا

ويقول فى الندامى وقد غلبهم السكر :

فما برحت حتى الصباح يديرها ... ويجرى بنا فى كل حق وباطل
فبين صَرِيع قد تجدل طافحا ... إلى ذى وساد مائل الرأس زائل
فلما رأيت الصبح أسفر وجهه ... وحَثَّتْ نواقيس الدجى فى الهياكل
طَفِقْتُ أُفَدِّيهِ وأدعُوه باسمه ... فقال مجيبا : ما تشا ، بتثاقل
فقلت له : تفديك نفسى وأسرتى ... ويفديك طرا كل حاف وناعل
الست ترى ضوء الصباح ونوره ... وتسمع تغريد الحمام الثواكل
فقم فأصطبحها وانف عنك خمارها ... فليس لها مثل الصبوح المعاجل
فما زال حتى ذاقها متكرها ... فردت اليه روحه فى المفاصل

ويقــول :

نبهته بعدما حل الرقاد له ... عقدا من السكر الا أنه ثمل
فقلت كأسك خذها قال محتجرا ... حسبى الذى أنا فيه أيها الرجل
ثم استدار به سُكْرٌ فمال به ... فقمت أسعى إليهِ وهو منجدل
قد دبت الخمر سرا فى مفاصله ... فمات سكرا ولكن حاطه الأجل

فلم أزل اتفداه وأرفعه ... عن وهدة الأرض والنشوان محتمل
حتى أفاق وثوب الليل منخرق ... وغار نجم الثريا واختَفَى زحل

ويقـــول :

رفعت له النداء بقم فخذها ... وقد أخذت مطالعها النجـوم
فقام وقمت من أخوين قاما ... على طرب وليلهما بهيم
أجر الزق وهو يجر رجلا ... يجور بها النعاس ويستقيم

ويقول فى وصف ما يخيله السكر :

ذكر النعام :

خلنا الظليم بعيرا عند نهضتنا ... والتل منبطحا فى قد ثهلان

ويُصوِّرُ طُلوع الصباح صوراً مختلفة :

فمن بين مسرور وباك من الهوى ... وقد لاح من ثوب الظلام غيـوب
وقد غابت الشعرى العبور وأقبلت ... نجوم الثريا بالصباح تثوب

صنعته الشعرية (موسيقاه) فى خمرياته :

ومنها الترصيع كما فى قوله :

فى بيت كافرة بالخمر تاجرة ... شمطاء شاطرة تعتز بالوالى
فبيتها حرم وقولها نعم ... وكيلها حكم فى كل مكيال
وعندها قمر فى طرفه حور ... فى دلة خفر فى حسن تمثال
مفاكه عبث مقاله انث ... فى طرفه نفث مثلل أبطال
يسقيك من يده خمرا وناظره ... سحرا، ومن فمه سكرا على حال

ومن أوزانه ما أعمل فيه الترصيع والتقسيم الموقع :

سلاف دن كشمس وجن ... كدمع جفن كخمر عدن
طبيخ شمس كلون ورس ... ربيب فرس حليف سجن
رأيت علجا بباطر نجا ... لها توجى فلم يثن
حتى تبدت وقد تصدت ... لنا وملت حلول دن
فاحت بريح كريح شيح ... يوم صبوح وغيم وجن
يسقيك ساق، على اشتياق ... الى تلاقى بماء مزن

يدير طرفا يعير حتفا	اذا تكفا من التثنى
على غناء وصوت ناء	دواء داء من التجنى
ولثم خد كطعم قند	لذات قد وهى تغنى
غنا بدل وضرب طبل	وحى شكل وخبص جنى
يا من لحانى على زمانى	اللهو شأنى فلا تلمنى
أطلت قولا فلا تقل لا	يريد الا السلو عنى
أسخفت عينا تراك زينا	فأين أينا الفرار منى
هتكت سترى فباح سرى	وعيل صبرى بطول حزنى

وله الأوزان الراقصة ، منها قوله :

ويجلس ماله شبيه	حل بالحسن والجمال
بمطرفيه السرور سحا	بدينة مالها انتقال
شهدته فى شباب صدق	ما أن يوازى لهم فعال

نسق قصيدته الخمرية :

ويتبع فى قصيدته الخمرية نسقا غالبا ، وقليلا ما يعدل عنه ، هو أن يبدأ باللوم على من يصف الطلول أو يقف بها ، ويبكى هندا وأسماء وغيرهما من نساء العرب ، ويطلب أن يدع الناس هذا كله لأنه بلاغة القدماء ، وليس أنسب للمحدثين من وصف الرياض والقصور والخمر بآلاتها ، وسقاتها غلمانا وفتيات ، فهذه هى لذات الدنيا . تجتمع فى مجالس الخمر : جمال الطبيعة ، وجمال الوجوه والورود من السقاة ، وجمال الحديث ، من الندماء ، ولذة الخمر ونشوتها ، ثم جمال الصوت بالغناء .

وغالبا ما تختم قصيدته بصوت من الأصوات المعروفة التى يتغنى بها ف عصره .

ألفاظـــه :

ويُلاحظ تلاعبه باللفظ أو توليده : ويستخدم أحيانا من مشتقاته ما يناسب الموسيقى وانسجام الصوت .

يريد أن يعبر عن معنى أن الخمر إلا يشربها الا كريم فيشتق من الكَرْم الكرم ويقول مناسبا بين الألفاظ ومولدا :

وخذها أن شربت وبعض خمر بماء المزن من نطف الغيوم
لتجعل هذه عرسا لهذا فان القطر بعل للكروم
ولا تسق المدام فتى لئيما فأنى لا أحلك للئيم
لأن الكرم من كرم وجود وماء الكرم للرجل الكريم

وصفُ الطبيعة :

ولأبى نواسَ أوصافٌ للطبيعة بكل مظاهرها الجامِدة والحيَّة ، يتعجَّبُ مجالى الجمال فيها .

يقول من أوصافه فى بستان نخيل وأشجار فاكهة وزينة :

نخل اذا جليت ابان زينتها لاحت بأعناقها أعذاقها النحل
اسقاط مسجدة فيهالا لآلئها مقصودة بسموط الدر تتصل
يفتضها فطن علج بها خبر فض العذارى حلاها الربط والحلل
فافتض أولها منها وآخرها فأصبحت وبها من شحلها حبل
لم تمتنع عفة منه ولا ورعا بلا صداق ولم يوجد لها عقل
حتى اذا لقحت أرخت عقائصها فمال منتترا عرجونها الرجل
فبينما هى والأرواح تنفحها شهرين بارحة وهنا وتنتحل
أرخت عقودا من الياقوت ملمجة صفرا وحمرا بها كالجمر يشتعل
فلم تزل بمدود الليل ترضعه حتى تمكن فى أوصاله العسل
بأطيب تلك عروسا فى مجاسدها لم كان يصلح منها اللثم والقبل
خلالها شجر فى فيئة نقد لا يرهب الذئب فيها الكبش والحمل
إن جئت زائرها غناك طائرها يرجع ألحانه فى صوته هدل
من بلبل غرد ناداك من غصن يبكى لبلبلة أودى بها خبل
هذه قصفة وقل فى وصفه سددا مدت لواصفه فى عمره الطول
ما بين ربع ولا رسم ولا طلل أقوى، وبنيتى فى حكم الهوى عمل

ولعَّلنا لا نحيد عن الصدق إذا ما قُلنا إن الشاعِرَ يستجلى الأنثى فى عطاء الطبيعة ممثلة فى النخلة ، ويمثل بهذا التزاوج فى الحياة التى تقوله منه حَيَواتٌ .

غزله بالمرأة :

لِئن كانَ أبو نواس قد وهبَ شهرتَهُ للخمر ، ووهب كذلك عاطفته

وأحاسيسه كلها، فإن المرأة لعبت مع الخمر دور باعث اللذة ، أو هي كانت عنصرا من عناصرها ، فالجمال الأنثوى متمم للذات ، وإن كان عند أبي نواس يتأخر عن مرتبة الخمر والغلمان .

ولكن ديوانه مع ذلك يحوى قصائد ذوات عدد فى الغزل والنسيب ، ومنها ما يكشف عن عاطفة ما حملها الشاعر للمرأة ، لعلها تكون أول حياته أو فى شرْخُ الشباب وميعة الصبا ، وفلسفة اللذة لم تتبلور عنده على تلك الصورة التى جعلت من الخمر قطبها ومن الغلمان والسماع والطبيعة معرضها ومجلاها .

ومن هذه الأبيات التى تحس فيها بحرقة العاطفة بعض الشيء قوله ولعله قالها شابا كما قلت :

حامل الهوى تعب ... يستخفه الطرب
ان بكى يحق له ... ليس ما به لعب
تضحكين لاهية ... والمحب ينتحب
تعجبين من سقمى ... صحتى هى العجب
كلما انتفى سبب ... منك جاءنى سبب

وتربط الأخبار بينه وجارية من جوارى البصرة اسمها « جنان » ، وتصور علاقة حب بينهما . كانت جنان جارية لآل عبد الوهاب الثقفى . رآها مرة تمر أمامه وهو بالمربد فى مجلس مع جماعة من أصحابه . وكانت مقدودة حلوة بديعة الحسن ، أديبة ظريفة عاقلة تعرف الأخبار وتروى الأشعار . واتفقت الأخبار على أن أبا نواس لم يصدق فى حب امرأة غيرها .

ويصور فى مقطوعة لقاءه بصاحبته جنان بين جماعة من الجوارى ، وقد أقبلن من رصافة البصرة فى أتم زينة يحففن بجنان كالتماثيل الحسان . فقال :

ومضمخات بالعبير ... نزلن من غرق الجنان
راضعتهن من الصبا ... كأسا عقدن بها لسانى
أقبلن من باب الرصا ... فة كالتماثيل الحسان
يحففن أحور كالغزا ... ل أمر أمرار العنان
يمشى بردف كالنقا ... يختال تحت قضيب بان
فإذا انجليت فتجاملى ... كيلا أموت على المكان

وتعرف إلى جنان ، وكان يكتم حبها أول الأمر لكنه لم يطق الكتمان فلهج بذكرها ، وردد اسمها :

لا يبحن حرمة الكتمان	راحة المستهام فى الاعلان
قد تصبرت بالسكوت وبالاطر	اق جهدى فنمت العينان
تركتنى الوشاة نصب المريبيـ	ـن واحدوثة بكل مكان
ما أرى خاليين للسر الا	قلت ما يخلوان الا لشانى

وقـــال :

لما تكشف عنى اننى كلف	كشفت ايضا لهم عمن به كلف
جيم وجدت لها نونين بينهما	لمن تهجى اسمها أو خطه ألف
يضمه من ثقيف بعض دورهم	ما بينكم بعد ذا التبيان مختلف

وله مع جنان هذه نوادر كثيرة ، يقال إنها هجرته لما سمعت بتشهيره بها فى شعره ، وسجل صدها له وابتعادها عنه فى قوله :

زهدت جنان فى الذى	رغبت اليها فيه نفسى
فزهدت فى الدنيا وصا	رت منيتى فى زور رمسى
وطويت عينى ان ترا	نى عينها وأمت جرسى
كيلا يروع ذلك الوجـ	ـه الجميل سماع حسى

ويقـــول :

جنان تسبنى ذكرت بخير	وتزعم اننى رجل خبيث
وان مودتى كذب ومين	وأنى كالذى تطوى بثوث
وليس كذا ولا يرد عليها	ولكن الملول هو النكوث
ولى قلب ينازعنى اليها	وشوق بين اضلاعى حثيث
رأيت كلفنى بها وقديم وجدى	فملتنى كذا كان الحديث

ولكنه لم يطق الصبر طويلا ، وعاد لترديد اسمها واللهج به حتى قال فيه الناس وعذلوه :

أما يغنى حديثك فى جنان	ولا تبقى على هذا اللسان
اكل الدهر قلت لها وقالت	فكم هذا أما هذا بفان

وتذكر أخبارهما أنها عزمت الحج مع أهلها ، وسمع هو بذلك فعزم على أن يصحب الركب خفية وأن ينوى الحج ليراها هناك فى مكة وعند الطواف ، وقد لجأ إلى هذا لما طلبها فلم تحصل له ، وكان طلابها عليه عسيرا :

ألم تر أننى أفنيت عمرى بمطلبها ومطلبها عسير
فلما لم أجد سببا إليها يقربنى وأعيتنا الأمور
حججت وقلت قد حجت جنان فيجمعنى وإياها المسير

ويلتقيان فى الطواف ، وتقترب لتلثم الحجر الأسود ، ويقترب هو منها ويلتقى عليه خداهما .

وعاشقين التف خداهما عند التثام الحجر الأسود
فاشتفيا من غير أن يأثما كنها كانا على موعد
لولا دفاع الناس أياهما لما استفاقا آخر المشهد
ظللنا كلانا ساتر وجهه بما يلى جانبه باليد
نفعل فى المسجد ما لم يكن يفعله الابرار فى المسجد

وعلى أننا نجد من شعره فى جنان شعرا وجدانيا جيداً مثل قوله :

ياذا الذى عن جنان ظل يخبرنا بالله قل وأعد يا طيب الخبر
قالوا اشتكتك وقالت ما ابتليت به أراه من حيث ما أقبلت فى أثرى
ويرفع الطرف نحوى أن مررت به حتى ليخجلنى من شدة النظر
وإن وقفت له كيما يكلمنى فى الموضع الخلو لم ينطق من الحصر
مازال يفعل بى هذا ويدمنه حتى لقد صار من همى ومن وطرى

وربما ترك حب جنان فى نفسه بعض حرقة الهوى ، وهو الذى لم يبد فى شعره حرقة ، ولا لوعة ، لكنا نعثر مع بعض شعره فى الخمر حرقة غير معهودة كثيرا فى خمرياته مثل قوله :

وقهوة عتقت فى دير شماس تفتر فى كأسها عن ضوء مِقْبَاس
مزاجها دمع حاسيها فأى فتى لم يبك اذ ذاقها من حرقة الكأس
سلم ولكنها حرب لذائقها ياحبذا بأسها ما كان من بأس

ويقول فى موضع آخر :

ردا على الكأس انكما	لا تدريان الكأس ما تجدى
لو نلتما ما فعلت ما مزجت	الا بدمعكما من الوجد

وبعد فلعل هذا هو الحب الوحيد فى حياته الذى خلف فى نفسه حرقة ، ولعله فشل ولم يبلغ منه مراده ، فحز فى قلبه أسى ، ومن يدرى لعل فشله فى الحب ، مع عقدة أمه جلبان وما كان يسمع عنها ومنها تركا فى نفسه احساسا مريرا من المرأة ساعده على أن ينحرف أو يحيد عنها ، ويشق فى حياته الجنسية طريقا غير السوى ، فيخرج إلى هذا الشذوذ فى الغرام بالغلمان وكراهة النساء أو العزوف عنهن . ربما كان الأمر كذلك ، وربما كان لعشق النفس أو عقدة النرجسية كما أشار الأستاذ العقاد .

ولكن سائر شعره الغزلى فى النساء مع ذلك طبع بطابع جديد ، يختلف عن شعره فى جنان ، ويختلف عن غزل الغزلين ، فيه ظرف وفيه تندر . تحس بروحه العذبة ودعابته تجريان مع ألفاظه وصوره . مثل قوله :

قل لندامای وجلاسی	هل لى من عبدة من آسى
أو قائل يخبرها حالفا	ان ليس منها لى من بأس
فراجعني الوصل فان زرتكم	قدر فراق فاحلقى رأسى

وقولـــه :

اسمى لوجهك يامنى صفة	فكفى بوجهك مخبرا باسمى
الله وفق والدى له	من قبل أن أهواك عن علم
الله فى قتلى معذبتى	لا تقتلى فى غير ما جرم
لا تفجعى أمى بواحدها	لن تخلفى مثلى على أمى

ويحلو له أن يداعب بعض الجوارى ممن يلقاهن . ويصور تلك الدعابة فى شعره . فيقول :

أين الجواب وأين رد رسائلى	قالت تنظر ردها من قابل
فمددت كفى ثم قلت تصدق	قالت نعم . بحجارة وجنادل
ان كنت مسكينا فجاوز بابنا	وارجع ، فمالك عندنا من نائل
يا ناصر المسكين عند سؤاله	الله عاتب فى انتهار السائل

وقد يعاكس إحدى الجوارى فى الطريق :

أمشى الى جنبها أزاحمها ... وما فى الطريق من ضيق

ويقول فى جارية قصرية من جوارى قصور الخلافة أو الأمراء :

وقصرية أبصرتها فهويتها ... هوى عروة العذرى والعاشق النهدى
فلما تمادى هجرها قلت واصلى ... فقالت بهذا الوجه ترجو الهوى عندى
فقلت لها لو كان فى السوق أوجه ... تباع ينقد حاضر ويسوى نقد
لغيرت وجهى واشتريت مكانه ... لعلك ان تهوى وصالى من بعد
وإن كنت ذا قبح فانى شاعر ... فقالت : ولو أصبحت نابغة الجعدى

ويقول وقد طلب قبلة من جارية فتأبت عليه وقالت له ، لا تلح فى الطلب كالطفل :

سألتها قبلة ففزت بها ... بعد امتناع وشدة الطلب
فقلت بالله يا معذبتى ... جودى بأخرى أقضى بها اربى
فابتسمت ثم ارسلت مثلا ... يعرفه العجم ليس بالكذب
لا تعطين الصبى واحدة ... يطلب أخرى بأعنف الطلب

وهو يعرف حب القيان ، وأنهن لا يثبتن على العهد ، وبهذا يخاطب « عنان » جارية الناطفى وكانت أديبة شاعرة ، وكثيرا ما كانت تجالسه مع بعض أصحابه :

قد قلت قولا فاسمعى ذاكم ... منى وردى مثله يا عنان
انى لأهواك وانى جبان ... افرق من علمى بعذر القيان
يصلن من واصلنه خدعة ... بكسرة الطرف ومزح اللسان
لست أرى وصلك أو تحلفى ... الا تخونى ، وتفى بالضمان
أو فذرينى وصلى جاهلا ... يلقى من الغيرة فيك الهوان

شعره التقليدى :

المديـــح :

ونخرج من حديث الخمر والغزل الى المديح ، وكان مديحه طلبا للمال ، أو استعطافا أو تقربا أو خشية ، كذلك كان مديحه للرشيد وللفضل بن الربيع والأمين والخصيـــب . ولكنه أخلص أحيانا اذا ما رضى أو اذا شعر بالمودة بينه وبين من يمدح كما هى الحال فى بعض مدائحه للأمين . فيخاطبه فيها مخاطبة النديم والصاحب ، ومدائحه للخصيب والى مصر ، لأنه أرضاه ، وأطلق له العنان فى ملاهيه .

ومدائحه تجرى على سنن الشعر التقليدى ، فتبدأ غالبا بالنسيب ، ثم يمدح بالصفات المعروفة للمديح ، والتى يتناولها الشعراء ويجرون فيها على نهج واحد ، وإن اختلفت الصور والأساليب . ومن أجمل مدائحه ميميته فى مدح الأمين ومطلعها :

يا دار ما فعلت بك الأيام　　　ضامتك والأيام ليس تضام

وقد يروى الشطر الثانى : « لم تبق فيك بشاشة تستام » . وقيل أن هذه القصيدة من أول ما أنشد أبو نواس فى مديحه . وقد وصلة عليها بألف دينار . ومما يتردد من أبياتها فى كتب الأدب وعلى ألسنة الرواة اعجابا قوله :

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم　　　وأسمت سرح اللهو حيث أساموا

وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه　　　فاذا عصارة كل ذاك أثام

وقولــه :

واذا المطى بنا بلغن محمدا　　　فظهورهـــن على الرجـــال حرام

قربننا من خير من وطىء الحصى　　　فلها علينا حرمة وذمام

رفع الحجاب لنا فلاح لناظـــر　　　قمر تقطع دونه الأوهام

ملك اذا علقت يداك بحبله　　　لا يعتريك البؤس والاعدام

وكذلك قصيدته فى الخصيب :

أجارة بيتينا أبون غيور　　　وميسور ما يرجـــى لديك عسير

ومن جيد قوله فيها :

تقول التي من بيتها خف مركبي ... عزيز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلب ... بل أن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بوادر ... جرت فجرى في أثرهن عبير
ذريني أكثر حاسديك برحلة ... الى بلد فيه الخصيب أمير

ويصف هذه الرحلة من بغداد الى الفسطاط فيقول :

رحلن بنا من عقرقوف وقد بدا ... من الصبح معتوق الأديم شهير
فما نجدت بالماء حتى رأيتها ... من الصبح مفتوق الأديم شهير
وغمرن من ماء النقيب بشربة ... وقد حان من ديك الصباح زمير
ووافين اشراقا كنائس تدمر ... وهن الى رعن المداخن صور
يؤممن أهل الغواطتين كأنما ... لها عند أهل الغوطتين ثؤور
وأصبحت بالجولان يرضخن صخرها ... ولم يبق من أجراحهن شطور
وقاسين ليلا دون بيسان لم يكد ... سنا صبحة للناظرين ينير
وأصبحن قد فوزن من نهر فطرس ... وهن عن البيت المقدس زور
طوالب بالركبان غزة هاشم ... وفي الفرما من حاجهن شقور
ولما أتت فسطاط مصر أجارها ... على ركبها أن لا تزال تجير

وله من قصيدة أخرى :

أنت الخصيب وهذه مصر ... فتدفقا فكلاكما بحر
لا تقعدا بي عن مدى أملي ... شيئا فمالكما به عذر
ويحق لي اذ صرت بينكما ... ألا يحل بساحتي فقر
النيل ينعش ماؤه مصرا ... ونداك ينعش أهله الغمر

ويمدح العباس بن عبد الله بن أبي جعفر المنصور برائيته الاعرابية الذائعة ومطلعها :

أيها المنتاب من عفرة ... لست من ليلي ولا سمرة
لا أذود الطير عن شجر ... قد بلوت المر من ثمره
فاتصل ان كنت متصلا ... بقوى من أنت من وطره

خفت مأثور الحديث غدا   وغد أدنى لمنتظره
خاب من أسرى الى بلد   غير معلوم مدى سفره

* * *

فأمض لا تمنن على يدا   منك المعروف من كدره

رثاؤه :

ورثاؤه كذلك كمديحه من اللون التقليدى ، وربما كان أقل حظا من حيث الجودة من مديحه . بل ربما كان الرثاء أضعف شعر أبى نواس كما يقول طه حسين . وهذا طبيعى لأنه لم يكن رجلا محزونا ، ولا ميالا للحزن ، وإنما كان رجلا مبتهجا بطبعه . ويقول طه حسين : « وأنا أزعم أن أبا نواس لم يصدق فى رثائه إلا مرة واحدة ، وذلك حين رثى الأمين بهذه الأبيات » :

طوى الموت ما بينى وبين محمد   وليس لما تطوى المنية ناشر
فلا وصل الا عبرة تستديمها   أحاديث نفس مالها الدهر ذاكر
وكنت عليه احذر الدهر وحده   فلم يبق لى شىء عليه احاذر
لئن عمرت دور بمن لا أوده   فقد عمرت ممن أحب المقابر

هجاؤه :

مختلف متعدد الموضوع والمناسبة ، فهو يهاجى غيره من الشعراء ممن تصدوا له أو ناقشوه أو نبشوا عواره ونسبه أو عابوا دينه وزندقته . ومن هؤلاء يقف الرقاشى وأبان ابن عبد الحميد اللاحقى فى المقدمة .

وربما هجا العرب جميعا ، أو بعض قبائلهم ، ويصح أن يكون هذا الهجاء سياسيا فهو يذهب فيه مذهب الشعوبية فى التعرض للعرب وتراثهم وحياتهم وعقائدهم ، وعاداتهم ، فيزرى بهم ويذكرهم ضعة حياتهم فى الصحراء ، بين الضباب والذئاب ، يشربون اللبن ، ويتزودون بتمرات .

ويهجو العلماء أحيانا من اللغويين وأصحاب الكلام ، ولعل أشهر من هجا منهم أبو عبيدة معمر بن المثنى .

ويهجو بعض من يلقى من المغنين والقيان ، هجاء نفور وتقبيح ، لأنه لم يلق عنده قبولا أو لم يقع فى نفسه موقعا حسنا .

ففيما يتصل بأبان بن عبد الحميد يقول ابن المعتز : « كان فى جميع أَحْوَالِهِ أرفع طبقة من أبى نواس، وقد هجاه أبو نواس بشعر كثير ، فما سار فيه شيء على شهرة شعره . ولم يقل فى أبى نواس غير ثلاثة أبيات ، وقد سارت فى الدنيا ، وهى هذه :

أبو نواس ابن هانى	وأمـــــه جلبـــــان
والناس أقطن شيء	الى حروف المعانى
إن زدت بيتا على ذى	ما عشت فاقطع لسانى

ويهجُو النُّواسِيُّ الرقاشى فيقول :

رأيت قدور الناس سودا من الصلا	وقدر الرقاشيين زهراء كالبدر
يضيق بحيزوم البعوضة صدرها	ويخرج ما فيها على طرف الظفر
يبـنيها للمعتفى بغنائهـم	ثلاث كحـظ الشاء من نقـط الحبر
اذا ما تنادوا للرحيل سعى بها	أمامهم الحولى من ولد الذر

يَصِمُهُ بالنجل وأهلَه بصغر الإناء على الطريقة التقليدية .

ويهجو اسماعيل بن نوبخت كذلك بالبخل فيقول :

على خبز اسماعيل وافية البخل	فقـد حل فى دار الأمـان من الأكل
وما خبزه الا كاوى ترى ابنها	ولسنا نراها فى الحزون وفى السهل
وما خبزه الا كعنقاء مغرب	تصور فى بسط الملوك وفى المثل
يحدث عنها الناس عن غير رؤية	سوى صورة ما أن تمر ولا تحلى

ويخرج هجاؤه عن هؤلاء السادة من الناس ، أو عن زملائه من الشعراء الذين نابذوه القول هجاؤه لبعض من يستثقل ظلمهم أو لا يستريح اليهم من الناس ، وخاصة من يتصل بهم فى حياته اتصالا مباشرا ، فى أوقات لذته ، أو طربه ، وأوقات جده سواء بسواء . فيقول فى مغن استثقله :

قل لزهير اذا اتكا وشدا	اقلل أو اكثر فأنت مهذار
سخنت من شدة البرودة حتى	صرت عندى كأنك نـار
لا يعجب السامعون من صفتى	كذلك الثلج بارد حـار

طرديّاتــه :

ومن شعره التقليدى الجادُّ طرديّاته ، ووصفه لحيوان الصيد وكلها على وزن الرجز . وقد أجاد فيها ، مظهراً براعته القطريّة فى الوصف مُسخرًا له اللفظ وإيقاع الرَّجز فيأتى على حد قول القدماء جيداً بالغ حدّ الجودة .

قال جامع ديوانه : « أخبرَ الرواةُ أنَّ أبا نواس لم يَقُلْ فى الطرد إلاَّ تسْعًا وعشرينَ أرجوزةً ، وأربع قصائد ، فما كان زائداً على هذا العدد ، فهو منحولٌ إليه » .

ومنه يصف كلابَ الصيد :

قد أغتدِى والطَّيرُ فى مَثواتِها — لم تعربْ الأفواهُ عن لُغاتِها
بأكْلُبٍ تمرَحُ فى قِدّاتِها — تُعدُّ عين الوحشِ من أقواتِها

.... — ....

غرِّ الوجـوهِ ومحجَّلاتِهـــا — كأنْ أحْماراً على لَبّاتِها
ترى على أفخاذِها سِمَاتِها — مندبــاتٍ ومحمَّياتِهــا

ويقولُ فى آخر :

لمَّا تبدَّى الصُّبحُ من حجابِه — كطلعةِ الأشمَطِ فى جلبابِه
وانعدَلَ اللَّيلُ إلى مآبِه — كالحبشىِّ افترَّ عن أنيابِه
هجنا بكلْبٍ ، طالما هِجْنَا بِهِ — ينتسِفُ المِقْوَدَ من كلاَّبِه
كأنَّ متنيهِ لدى انسلابِه — مَتْنَا شُجاعٍ لجَّ فى انسابِه
كأنَّما الأظفورُ فى قِنَّابِه — مُوسَى صناعٍ رُدَّ فى نِصابِهِ
تراهُ فى الحُضْرِ إذا هَاهَا بِهِ — يكادُ أن يخرج من إهابِه

ويقرب من أوصاف حيوان الطرد ، ما وصف به ديك الهراش . يقول :

أنعتُ ديكاً من ديُوكِ الهِنْدِ — كريمَ عمٍّ ، وكريمَ جدِّ
لنسبةٍ ليستْ إلى مَعِدِّ — ولا قضاعِىٍّ ولا للأزْدِ
مُفَتَّحِ الريشِ شديد الزَّندِ — ضخم المخاليبِ عظيم العَضْدِ
حتَّى إذا الديكُ ارتأى من بُعْدِ — ونَجمُه فى النَّحْسِ لا فى السَّعْدِ
رأيتَـهُ كالفـارسِ المُعِـدِّ — يخطِرُ خطراً مثل خَطْرِ الأسْدِ

يَفْتَهُ بالكدِّ بعد الكدّ وتعب موصّل بجهد
حتى ترى الدّيك له كالعَبْد مفكِّراً يُعْظِمُه بالسُّجْد
يا لكَ من ديكٍ رُبي في المَهْد

الزهدُ والنُّسُك :

ولأبى نواس شعر فى الزهد اختلف الناس فيه ، لكنه على أية حال يأتى اكثر فى مرحلة متأخرة من حياته ، ولعله شعر شاعر أسرف على نفسه ، وشعر بأنه مثقل بالأثم ، ينتظره الحساب العسير ، أو لعله مَلّ من اللذة ، ولم يعد فى الجسم شدة الشباب ، ولا سورته ، بل أضعفته العلل ، وأسكنت من نوازعه .

ومن هذا الشعر قوله :

يا كبير الذنب عفو اللـ ـه من ذنبك أكبر
ليس للانسان الا ما قضى الله وقدر
ليس للمخلوق تدبير بل الله المدبر
اعظم الأشياء فى أصغـ ـر عفو الله يصغر

لعلّ الشاعر تابَ وأناب ، وثاب عن شِرَّته ، ولقى خالقه ضارعاً مستغفراً فغفر له .

وهكذا كان شعر أبى نواس صورةً للإنسان والعصر بكل نوازِعه الجادة والمنحرفة ، وهوَ إبداعٌ لمبدع لا يملّ من قراءته ، من نزعته به النفس إلى اللهو ، ولَا من تطلّب جاد الحديث ، ومحكم القول .

الفصل الرابع

ــ ١ ــ

شعراء مفتُّون

أبو الشيص[1]

(ت سنة ١٩٦ هـ)

محمد بن عبد الله بن رزين الخزاعى . غلب عليه لقب أبى الشيص وكنيته أبو جعفر ، وهو ابن عم دعبل بن على الخزاعى .

قال أبو الفرج : وكان أبو الشيص من شعراء عصره ، متوسط المحل فيهم ، « غير نبيه الذكر ، لوقوعه بين مسلم بن الوليد وأشجع السلمى وأبى نواس . فخمل »[2] .

قال : وانقطع إلى عقبة بن جعفر بن الأشعث الخزاعى ، وكان أميراً على الرقة . فمدحه بأكثر شعره ، فقلما يروى له فى غيره وكان عقبه جواداً ، فأغناه عن غيره .

وكان معاصراً لجماعة من الشعراء ذكرنا بعضهم وأشهرهم ، وكأنه عاش فى النصف الأخير من القرن الثانى ، معاصراً لثلاثة من الخلفاء المهدى والهادى والأمين ، وربما لحق برابعهم المأمون ، إلا أنه لم يمدح واحداً منهم ، أو هذا ما وصل إلينا من شعره وأخباره .

ومع ذلك فإن ابن المعتز روى له أبياتاً جيدة فى رثاء الرشيد ومدح الأمين وتهنئته بالخلافة . يقول :

جرت جوارٍ بالسَّعدِ والنَّحسِ ... فنحنُ فى وحشةٍ وفى أُنسِ
العينُ تبكى والسنُّ ضاحِكةٌ ... فنحنِ فى مأتمٍ وفى عُرْسِ

---

(١) راجع أخباره فى : الشعر والشعراء ٥٣٥ ــ طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز ٧٢ ــ الأغانى جـ ١٥ ، نكت الهميان ٢٥٧ ، معاهد التنصيص ٢ /١٤٢ وفوات الوفيات لابن شاكر .

(٢) الأغانى ١٦ /٤٣٢ طبع دار الكتب العالمية (٣) طبقات ابن المعتز ص ٨٠ وجمع أشعاره عبد الله الجبورى طبع بغداد .

يُضحِكُنا القائمُ الأمين ويبكينا وفاةُ الإمامِ بالأمسِ
بدران : بدرٌ هذا ببغداد فى الخُلْدِ ، وبدرٌ بطوس فى الرَّمسِ

ويروى له ابن المعتز بيتين آخرين فى رثاء الرشيد هما :

غربت فى المشرقِ الشَّمْسُ فقل للعين تَدْمَعْ
مارَأينا قطُّ شمساً غَرُبتْ من حيث تطلُعْ

قال : وهى طويله[٣] .

قال ابن المعتز : إن المأمون أنشد قصيدته الدالية التى يقول فيها :

جَلاَ الصُّبْحُ أوْنِيَّ الكَرى عن جفونه وفى صدْرِهِ مثل السّهام الوَاصِد
تمكَّنَ من غِرَّاته الحبُّ فانتَحَى عليه بأيدٍ أيَداتٍ حواشِدِ
إذا خطراتُ الشوقِ قلَّبْنَ قلْبَهُ شدَوْن بأنفاسٍ شدادِ المصاعِدِ
يذكِّرهُ خفضُ الهوَى ونعيمه سَوالِفَ أيام ، وليس بعائِدِ

فأفرطَ المأمون فى استحسانها ، ثم أنشد فى ذلك المجلس لجماعة من الشعراء من حذَّاقِ المحدثين مثل بشار ومسلم بن الوليد ونظرائهما ، فلم يهش لشيءٍ من ذلك وفضل عليهم أبا الشيص .

قال ابن المعتز : وأشعاره ، ونوادره وملحه كثيرة جداً .

وكان أبو الشيص يلتقي مع بعض معاصريه من الشعراء فى مجالس للشراب أو المذاكرة أو هما معاً روى ابن المعتز وأبو الفرج[١] أن أبا الشيص اجتمع مع مسلم بن الوليد ، وأبى نواس ودعبل فى مجلس فقالوا : لِينشدْ كلُّ واحد منكم أجود ما قاله من الشعر . فاندفع رجلٌ كانَ معهم ، فقال : اسمعوا منى أخبركم بما ينشد كل واحد منكم قبلَ أن يُنْشِدْ . قالوا : هات . فقال لمسلم : أما أنت يا أبا الوليد فكأنى بك قد أنشدت :

إذَا مَا علَتْ منَّا ذُؤَابةُ واحدٍ وإنْ كانَ ذا حِلمٍ دَعَتْهُ إلى الجَهْل
هل العيشُ إلاَّ أنْ تروُحَ مع الصِّبا وتغْدُو صريعَ الكأسِ والأعْيُنِ النُّجْلِ

قال وبهذا البيت لُقِّبَ بصريع الغوانى . فقال مسلم : صدقْت .

(١) طبقات المحدثين ص ٨٠ وجمع اشعاره عبد الله الجبورى — طبع بغداد .
(٢) الأغانى جـ ١٦ ص ٤٣٢ .

ثم أقبل على أبو نواس فقال له : كأني بك يا أبا علي قد أنشدت :

لا تبْكِ ليْلى ولا تطربْ إلى هندِ   واشربْ على الورد من حمراءَ كالورْدِ
تسقيك من عينها خمراً ومن يدها   خمراً ، فما لك من سُكْريْن مِنْ بُدّ

فقال : صَدَقْتَ .

ثم أقبل على دعبل ، فقال له : وأنت يا أبا علي ، فكأني بك تنشد قولك :

أين الشباب وأيةً سَلَكا   لا أينَ يُطْلَبُ ، ضَلّ ، بل هَلَكا
لا تعْجبي يا سَلْمَ من رَجُلٍ   ضحكَ المشيبُ برأسِهِ فبكى

فقال : صَدَقْتَ .

ثم أقبل على أبي الشيص ، فقال له : وأنت يا أبا جعفر فكأني بك وقد أنشدت قولك :

لا تنكرى صدّى ولا اعتراضِى   ليسَ المقِلّ عن الزّمانِ بِرَاضِ

فقال له : لا . ما هذا أردت أن أُنشِدَ ، ولا هذا بأجود شيء قلته ، قالوا : فأنشدنا ما بدا لك . فأنشَدَهم :

وقَفَ الهَوى بى حيثُ أنت فليسَ لي   مُتأخَّــرٌ عنــهُ ولا مُتقَــدَّمُ
أجد الملامةَ في هواكِ لَذِيذَةً   حُباً لِذكْرِكِ فلْيَلُمنِي اللُّوَّمُ
أشبهتَ أعدائي فصِرْتُ أُحِبُّهُمْ   إذ كانَ حَظّى مِنْكِ حظّى مِنْهُمُ
وأهنتنى فأهنتُ نفسى صَاغراً   ما من يَهُونُ عليكِ مِمّنْ يُكرَمُ

قال فقالَ أبو نواس : أحسنتَ والله وجوّدت . ورواية ابن المعتز « أحسنت والله وملّحت » . وقال في رواية ابن المعتز : ولتعلمنّ أني سآخذ منك هذا المعنى فيشتهر ما أقول ولا يشتهر ما قلت . ويرويها أبو الفرج : « وحياتِكَ لأسرقنّ هذا المعنى ثم لأغلبنك عليه ، فيشتهر ما أقول ، ويموت ما قلت . فسرق قوله :

وقف الهوى بى حيث أنتِ فليس لى   مُتأخَّــرٌ عنــه ولا مُتقَــدَّمُ

سرقاً خفياً ، فقال في الخصيب :

فما جازَهُ جُودٌ ، ولا حَلَّ دُونَهُ   ولكن يسيرُ الجودُ حيثُ يَسيرُ

فسار بيت أبى نواس ، وسقط بيت أبى الشيص .

ويذكرنا هذا الحديث بأحداث أخرى جرت بين بعض الشعراء ، ومنه ما ذكر عن اغتصاب الفرزدق لأبيات من ذى الرّمة فى الفخر ، وأخذ سلم الخاسر لبيت بشار المعروف .

من راقب الناسَ لم يظفر بحاجته   وفَازَ بالطيبات الفاتِكُ اللهج

وأخذه سلم وصاغه صياغة أسهل كتبت له السيرورة :

من راقبَ الناس مات غمًّا   وفاز باللذة الجَسُور

ولا ندرى ما إذا كانت هذه الروايات عن سرقات الشعراء بعضهم من بعض صحيحة أم أنها من وضع بعض الرواة والنقاد . فمما يزيد الشك فيها تشابه وقائعها . ومعلوم أن حديث السرقات بين الشعراء ، كان يشغل علماء العصر ونقاده فى هذه المرحلة ، لاختلاف العلماء حول القدماء والمحدثين ، وأصالة كل منهم ، وفوز المتقدم بالمعنى دون المتأخر ، والمشهور دون المجهول والمغمور .

فكثيرا ما نجد الشعر ينحل وينقل من شاعر غير معروف إلى آخر مشهور معروف ، وأوجد هذا الأمر اضطراباً فى نسبة النصوص . وصعوبة بالغة فى تخليص الصحيح من المنسوب .

وقد وقع لشاعرنا هذا مثل ما وقع لغيره من تضارب فى نسبة بعض الشعر الذى يُروى لمعاصريه. وله فى الوقت نفسه، كالقصيدة الفريدة فى الغزل ووصف المرأة وصفاً جَسَدِيًّا تفصيلياً يذكرنا بقصيدة المتجردة للنابغة ، فقد قيل أنها منسوبة وليست للنابغة . وأما قصيدة أبى الشيص وتنسب لعلى بن جبلة العكوَّك فهى :

هل بالطُّلولِ لسائِلٍ ردُّ   أم هَلْ لهَا بتكلُّمٍ عهدُ[1]

وشعر أبى الشيص يمتاز — فضلاً عن غيره من الشعراء بهذه الخيالات

(١) راجع شعر على بن جبلة جمع الدكتور حسين عطوان ص ١١٠ طبع دار المعارف .

المبتدعة والصور المطردة أو الممتدة التى لا يكتفي فيها باللقطة العابرة الجزئية ، بل يمتد بها ويتعقب جزئياتها ، فيعرضها عرضاً ملفتاً شيقاً . ولنتأمل هذه القصيدة فى تنتهى بحرف الرَّوِيِّ الضاد ، ورواها ابن المعتز . يقول :

أبقى الزمانُ به نُدوبَ عِضاضِ ... ورَمَى سوادَ قُرونهِ ببَياضِ
نفرتْ به كأسُ النَّديمِ وأغمضَتْ ... عنه الكواعبُ أيُّما إغْمَاضِ
ولرُبَّما جعلت محاسِنُ وجهه ... لجفُونِها غَرَضاً من الأغراضِ
حَسر المشيبُ قناعَه عن رأسِهِ ... فرمينَــهُ بالصدِّ والإعْــراضِ
اثنانِ لا تصبُو النِّساءُ إليهما ... ذُو شيبةٍ ، ومُخالفُ الإنفاضِ
فوُعُودُهنَّ إذا وعدنكَ باطِلٌ ... وبروقُهُــنَّ كواذِبُ الإيماضِ
لا تنكِري صَدِّى ولا إعراضي ... ليسَ المقِلُّ على الزَّمانِ بَراضي
حُلِّي عقِاَلَ مَطيَّتِي ، لا عنْ قِلىً ... وامْضِي فإنِّي يا أميمةُ ماضي
عَوِّضتُ عن بُرْد الشبابِ ملاءةً ... خَلقاً ، وبئسَ مَعوضَةُ المعتاضِ
أيامَ أفْراسُ الشبابِ جَوامِحٌ ... تأبَى أعنَّتَها على الرُّوَّاضِ
وركائبٍ صَرَفَتْ إليك وجُوهَهَا ... نكباتُ دَهرٍ للفَتى عضّاضِ
شدُّوا بأعوادِ المطِيِّ رحالهم ... من كلِّ أهْوجَ للحصَىَ رضّاضِ
يرمينَ بالمرْءِ الطريقَ وتـارةً ... يحذِفْنَ وجهَ الأرْضِ بالرَّضْراضِ[(١)]
قطعُوا إليكَ رِياضَ كلِّ تنوفةٍ ... ومهامِهٍ مُلْسِ المتونِ عِراضِ
أكَلَ الوجيفُ لحومَها ولحُومَهُمْ ... فأتَوْكَ أنقاضاً على أنقاضِ[(٢)]
ولقد أتتك على الزَّمانِ سَوَاخطاً ... فرجعْنَ عنْك وهنَّ عنه رَوَاضي
إنَّ الأمانَ من الزَّمانِ ورَيبِهِ ... يا عُقْبَ شطا بحرك الفيَّاضِ[(٣)]
بحرٌ يفُوزُ المعتَفُونَ بنَيْلِهِ ... فعمُ الجداوِلِ ، مُترعُ الأحْوَاضِ
ثبْتُ المقام إذا التَوَى بعدُوّهِ ... لم يخش من زلَلٍ ولا إدْحَاضِ[(٤)]
غيثٌ توشَّحَتْ الرِّياضُ عهادَهُ ... ليْثٌ يطوفُ بغابةٍ وغياضِ

---

(١) الرضراض الحصى أو ما دقّ منه .
(٢) الوصيف : ضربٌ من مشى النوق وهو السريع .
(٣) عُقبَ هنا هو اسم ممدوحه عقبة بن جعفر مرخّم بالنداء .
(٤) الإدحاض : الانزلاق والسقوط .

ومشمّرٍ للموتِ ذَيْلَ قميصِهِ قانى القناةِ إلى الرَّدى خوّاضِ
لأبى محمدٍ المرجّى رَاحَتَا مَلِكٍ إلى أعلا العلا نهّاضِ
فيدٌ تَدَفَّقُ بالنّدى لوليّه ويدٌ على الأعداء سمٌّ قاضي
وجناحَ مقصوصٍ تحيَّف ريشَه رَيْبُ الزَّمانِ تحيُّفَ المِقْراضِ
أنهَضْتَهُ ، ووصَلْتَ ريشَ جناحِهِ وجَبَرْتَهُ ، يا جابِرَ المنْهاضِ[1]
نفسى فداؤكَ أىُّ ليثِ كَتيبةٍ يُرمَى بها بين القنا المرفاضِ[2]

وأول ما نلاحظه على القصيدة ، كثرة الابتداع فى المقدمة ، مع وفرة الاتباع فى المديح ذلك أن الشاعر فى حديثه عن الشيب وذكريات الشباب ، والعلاقة بين قوة الشباب ورونقه واقبال الحياة ممثلاً فى المرأة يخرج عن ما جرى عليه الشعراء فى هذا المعنى إلى استخدامات جديدة للغة وأخيلة مبتدعة غير مطروقة .

فأول ما يفتتح به القول عَضُّ الزمان ، ويعنى به ما تركه على الوجه والجسد من آثار تجاعيد وندب عبّر عنها بأنها ندوب عضاض ، واستخدم لفظ عضاض بالذات ، ولعله استدعاه من قول الشاعر الأموى بالفرزدق :

وعضُّ زمانٍ يا ابن مروان لم يدع من القوم إلا مسحتا أو مجلّفُ

ثم هذه الصورة الجديدة فى البيت الثانى، وكيف استخدم لفظ نَفَرتْ، فى ابتعاد النديم عن مجالسة الشيخ ، وهو يصور ابتعاد اللذات عنه بهذه الصورة المعبَّرة اللافتة :

نفَرت به كأس النديم وأغمضَتْ عنه الكواعِبُ أيما إغماض

وهكذا يفتتح بفعل الزمان فى الشيخ ثم يفصل الصَور ، ويتابعها ، متلاحقة ، مولده تتشابك لتدور حول هذا المحور لا تعدوه . فهى تبتعد عن اللحظة الآنية للزَمن إلى الماضى إلى الشباب ، والفتوة ، والنضرة والحيوية ،

---

(١) المنهاض: المنكسر .
(٢) المرفاض : المحطّم .

وإقبال الحياة فى إقبال الغوانى ثم تعود فترتد إلى الآن .. وضموره ونضوب الهوى فى قلبه ، وعزوفه عن الرغبة فى المرأة . وكم كان تعبيره عن ذلك بديعاً حين قال :

حُلِّى عقالَ مطيتي ، لا عَنْ قِلِى وامضيى ، فإنى يا أميمةَ ماضى

وينتقل بعدها إلى الرحلة ، فلا يعبّر عنها بلغة جارية معتادة ، لكنه يتخذ لنفسه لغة خاصة ، يصوغ فيها ما يتردد من مشاق الرحلة ، وإعنات الراحلة حتى يبلغ الممدوح ونلفت هنا إلى هذا التواصل السّياق ، والتعبيرى بين معاناة الإنسان فى رحلة الزمن ومعَاناة الشاعر فى الرحلة إلى الممدوح .

واكثر ما اختاره ابن المعتز لأبى الشيص يدور حول الشيب وذهاب الشباب كقوله :

خلع الصِّبا عن منكبيه مشيب فطوى الذّوائبَ رأسُه المخضُوبُ
نَشَرَ البِلى فى عارضيه عقارباً بيضاً لهنَّ على القرون دبيب

ونلاحظ هذه الاستخدامات اللغوية فى نشر البلى ، عقارباً وكيف سخر الدّلالة المستعارة للفظ فى هذا المعنى الذى استهدفه لتعطى وقعاً وإحساساً خاصين بمدى شعور الشاعر بانصرام الشباب ، ومقدم المشيب منذراً بالفناءِ فجعل البياض علامة البلى ، والذوائب البيض فى قرونه ، وكأنها عقارب ، منذرة بالهلاك .

ويعيد عرض هذا الإحساس بالشيب والزمن مرة أخرى فى قوله :

نهى عنْ خُلَّةِ الخمرِ بياضٌ لاَحَ فى الشعرِ
وقد أغدو وعيْنُ الشَمْسِ فى أثوابها الصفْرِ
على جرداءَ قباءِ الـ ـحَشَا مُلْهَبةِ الحُضْرِ
بسيفِ صَارِم الحـ ـدِّ وزقٍّ أحْدَبِ الظهرِ

ويمضى فى هذه القصيدة على طريقته التى أشرنا إليها فى الضادية فيقول :

وظبيٍ يعطفُ الأُزْرَ ويثنيها على الخصْرِ
على ألطفَ ماشُدَّتْ عليه عُقَدُ الأُزْرِ

مهـــاةٌ ترتمى الألْبَـــا بَ عن قوسٍ من السِّحْرِ
لها طَرْفٌ يشوبُ الخمـــرَ للنُّدمَـــانِ بالخَـمْـــرِ
عفيفُ اللّحظِ والأعْــضاءِ فى الصّحْوِ وفى السُّكْرِ
على عذراءَ لم تُفْتَـقْ بنـــارٍ لا ولا قِدْرِ
عجـــوزٌ نســـجَ الماءُ لها طوقاً من الشُّـذْرِ
كأن الذهـــب الأحـمـــر فى حافاتِهــا يَجـرْي
وليل تركب الرُّكبـــان فى أجـوائِـه الخُضْـــرِ
بأرضٍ تقطـــعُ الحـــيرةُ فيها بالقَطَـا الكُـــدْرِ
تمســـكتُ على أهـــوا لها بالله والصَّـبـــرِ
وإعمـــالِ بَنَـاتِ الريـــحَ فى المهــمــه القفْـــرِ
شـماليـــلَ بصافِخـــنَ مُتونَ الصَّخْـرِ بالصّخْـرِ
يايجـــافٍ يُقُـــدُّ اللـيْـلَ عن ناحيـــةَ الفجـــرِ

ألم أقل إن هذا الشاعر مميَّز عن معاصريه فى استخدامه للغة الاستعارية ، فقد جرى معهم فى بعض معانى الشعر إلا أنه اختلف عنهم فى هذه اللغة الجديدة والتراكيب الغريبة أو الطريفة المليحة كما عبّر ابن المعتز . لقد تحدث عن بعض معانى الخمر أبو الهندى وأبو نواس ، ومزجا ، ومزج سابقون بين الساقية ، والشراب فى منح اللذة للشاربين لكن تعجب معى كيف ربط الشاعر فى لغة شاعرة وسياق متدفق بين عذرية الساقية وعذرية الخمر فى قوله :

عفيف اللَّحْظِ والأعضـــاءِ فى الصَّحْـو وفـى السـكـر
على عذراءَ لم تُفْتَـــقْ بنـــارٍ لاَ ، ولا قِـــدْرِ

ثم تأمل معى هذا الانقلاب المفاجىء فى البيت التالى ليصور لذهنك هذا التضاد فى الصفة ، على غير الواقع الملموس فهى عذراء فاتنة ، وإن كانت عجوزاً لكنها ليست عجوزَ البشرية ، فالعجز فى البشرية معناه الضعف والتخاذل ، لكن الخمر العجوز تزداد عرامةً وفتوةً فى فعلها ، فهى عجوز الزمن فتية الفعل . يقول :

عجـــوزٌ نســـجَ الماءُ لها طـوقاً من الشَـذْرِ
كأن الذهـــب الأحـمـــر فى حافاتـهـــا يجـــرى

وتعجب معى لهذه الصياغة المبدعة لمعنى يجرى على ألسنة الشعراء لكنه يفوته فى الصياغة واستخدام اللغة هذا الاستخدام غير المسبوق . قال فى هذا المعنى كثيرون ، آخرهم معاصره أبو نواس لكن الأمر يختلف هنا .

كذلك فى وصفه للرحلة تعدد المتحدثون ، وتحدث هو عن الرحلة فى القصيدة السابقة وعبروا وعبَّر عن المعانى الجارية لكنه هنا يختلف فى استخدامه للغة عن سابقيه بل ويختلف عن نفسه . وأقف عند قوله :

بأرضٍ تُقْطَع الحيرةُ فيها بالقَطَا الكُدْرى

واتعجب مما أوتيه الشاعر فى هذا البيت من الشاعرية والإيجاز المعجز فى استخدام اللغة فيعبر عن مدى ما يشعر به سالك هذا التيه الذى لا يتبين فيه معلماً للطريق من حيرة ، وشعور بالضياع لولا أن هذا القطا الكدرى الذى تبدو أسرابه لتبعث فى نفسه الأمل وتقطع الحيرة ، لأن القطا قواصدُ الماء، فالماءُ قريب ومعه الأمل فى الإفلات من أسر اليأس وقطع الحيرة بالاَطمئنان .

والشعور العام الذى يتسلل فى أنحاء الابيات كالعصارة يدُب فيها من مطلعها قطبه ومداره ومحوره ومساره ذلك الإحساس بالضياع ، ضياع العمر فى رحلة الحياة لولا رجاء الآخرة أمل المسلم. ولهذا يقول فى بيت من أبيات الرحلة بعد انقطاع الحيرة :

تمسّكْت على أهوا لِها بالله والصَّبْرِ !!

ونقف مع أبى الشيص وقفة أخرى مصاحبين قصيدته النونية التى استهلها ابن المعتز بقوله[1] : « ومما طار لأبى الشيص فى الدنيا ، وسارت به الركبان هذه » ثم يأتى بالقصيدة :

أشاقَكَ واللَّيلُ مُلْقِي الجَرانِ	غُرابٌ يَنُوحُ على غُصْنِ بانِ
أحمُّ الجنَاحِ ، شَديدُ الصِّياحِ	يُبَكِّي بعينيـنِ لا تَهمِـلاَنِ
وفى نَعباتِ الغُرَابِ اغترابٌ	وفى البَانِ بينٌ بَعيدُ التدانِ
لعَمرى لئِن فزِعَتْ مُقْلَتَاك	إلى دمعةٍ قطرُهَا غيرُ وانِ
فحُـقَّ لَعَيْنَـيْكَ ألاَّ تجفَّ	دُمُوعُهـا وهما تَطْرفـانِ
ومَـنْ كانَ بالأمسِ منكَ	قريبَ المكانِ بَعِيدُ المكَانِ

(١) طبقاته ص ٧٨ .

فهلْ لَكَ يا عيشُ من رَجْعَةٍ ... بأيَّامِكِ المونقَاتِ الحِسَانِ
فياعَيْشَنَا واهوى مُورِقٌ ... له غصنٌ أخْضَرُ العُودِ دَانِ
لعلَّ الشبَّابَ وريْعَانَه ... يُسَوِّدُ ما بيَّضَ القادمانِ
وهيهاتَ يا عَيْشُ من رجعةٍ ... بأغصَانِك المائلاتِ اللدانِ
لقد صدَع الشَّيْبُ ما بيننا ... وبينَك صَدْعَ الرِّداءِ اليمانِ
عليكَ السَّلامُ فكمْ ليلةٍ ... جموحٍ وليْلٍ خليعِ العِنانْ
قَصَرْتُ بكَ اللَّهوَ فى جانبيه ... بقرعِ الدُّفوفِ ، وعزفِ القِيانِ
وعَذْرَاءَ لم تَفْتَرِعْها السُّقاةُ ... ولا استَامَها الشَّرْبُ فى بيت جَانْ
ولا احتلَبتْ درَّهَا أرجُلٌ ... ولا وسَمَتْهَا بنارٍ يَدَانِ
ولكنْ غَذَتهَا بألبانِها ... ضُروعٌ يَحُفُّ بها جدولَانِ
إلى أن تحوَّلَ عنها الصِّبا ... وأهْدَى الفطَام لهَا المرْضِعَانِ
فلم تزل الشَّمْسُ مشغولةً ... بصبغتها فى بطُونِ الدِّنانِ
تُرَشحُها لِلِئَامِ الرِّجالِ ... إلى أنْ تصدَّى لها السَّاقِيانْ
ففضَّا الخواتيمَ عن جَونَةٍ ... صدوفٍ عن الفَحْلِ ، بكرٍ عَوَانْ
عَجُوزٍ غذا المسْكُ أصداغَها ... مُضَمَّخَةِ الجلْدِ بالزَّعفران
يطوف علينا بها أحْوَرٌ ... يَداه من الكأسِ مخضُوبَتانْ
ليالي تُحْسَبُ لى من سِنِيَّ ... ثمانٍ ، وواحدةٌ ، واثنتانْ
غلام صَغيرٌ أخو شِرَّةٍ ... يطيرُ معى للهَوَى طَائِرانِ
جرورُ الإزارِ ، خليع العِذَار ... علىَّ لَعهْدِ الصِّبا بُرْدَتانِ
أُصِيبُ الذُّنوبَ ولا أتَّقى ... عقوبةَ ما يكْتُبُ الكَاتِبانِ
تنافَسُ فىَّ عُيونُ الرِّجالِ ... وتَعْتَرِني فى الحِجالِ الغَوانْ
فأقْصَرْتُ لمَّا نهانِى المشيبُ ... وأقصرَ عَنْ عذلِي العَاذِلانِ
وعافَتْ عَيوفُ وأترابُها ... دُنُوِّى إليها وملَّتْ مكانِى
وراجعتُ لمَّا أطارَ الشبابَ ... غُرابانِ عن مَفرقِى طَائِرانِ
رَأتْ رجُلاً وسَمَتْهُ السُّنونُ ... بَرْيب المشيب وَرَيْبِ الزَّمانِ
فصدَّت وقالتْ : أخو شيبةٍ ... عديْمَ . ألا بئْسَتْ الخَلَّتانِ
فقُلْتُ كذلكَ من عَضَّهُ ... من الدَّهرِ نَابَاهُ والمخلبانِ
وعُجْتُ إلى جملٍ بَازِلٍ ... رَحيبِ رحَى الزَّوْرِ ، فَحلٍ هَجانِ

سَبُوح اليَدَيْنِ ، طَمُوحِ الجِرانِ غَوْولٍ لأنْسَاعــهِ والبِطــانِ[1]
فعضَّضْتُ أعوادَ رَحْلى به ونابَاهُ من زَمَعٍ يَضْرِبـانِ
فلمَّـا استَقَـلَّ بأجْرَانِـه ولانَ على السَّيْرِ بعض اللَّيانِ
قطعتُ به من بلادِ الشآم خروقاً يضلُّ بها الهادِيـانِ
إلى مَلِكٍ من بنى هَاشِمٍ كريمِ الضَرَّائِب سَبْطِ البنانِ
إلى علَمِ البأسِ فى كفِّهِ من الجَود عينانِ نضَّاحتـانِ

ونلاحظ على هذه القصيدة الملاحظات نفسها التى لا حظناها على شعره السابق ، ولعلنا لا نتردد بعد ذلك فى التعرف على بيانه ، وطريقته التى تكررت ملامحها فى القصائد الثلاثة وسنتخذها دليلاً بعد قليل للتعرف على صحة نسبة القصيدة التى نسبها بعضهم لعلى بن جبلة ولكن لهذه القصيدة خصائص انفردت بها ، أولها ، أن سورة الرحمن بايقاعاتها كانت تلازمه وهو ينظم أبياته ، ولدينا دليل مادى فى آخر القصيدة هو هذا الاقتباس من الآية « فيهما عينان نضاحتان » . غير ما يلقانا فى قوافيه من استخدام بعض فواصل السورة .

وتراه فى البيت الثالث ، يستخدم النظير من اللفظ على ما يعتقده بعض الناس ، وعلى ما استشعر ، بعد ذلك ابن الرومى وجاء به فى بعض شعره . وهو قوله هنا :

وفى نعباتِ الغُراب اغترابٌ وفى البَانِ بينٌ بَعيدُ التدان

ثم نلحظ طريقته الفنية فى الصياغة ، والتى سبقت الاشارة إليها وهى هذا الاستخدام المكَثَّف للمعنى فى التراكيب ، أو ما عرف فى علم البلاغة بايجاز القصر . من مثل قوله :

عليكَ السلامُ فكم ليـلةٍ جموحٍ ، وليل خليع العِـنَانْ

ومن مثل قوله : (يداه من الكأس مخضوبتان) ، و (تنافسُ فيَّ عيونُ الرجال) و(تَعْتِزُنِى فى الحجال الغوان) .

---

(١) والجران مقدم العنق فى البعير ، والبطان حزام البطن للبعير .

ويراجع هنا لفظ عضّ الزّمان ، التى بدأ بها القصيدة الضّاديّة :

فقـــلت كذلك من عَضّهُ من الدّهـر نابـاهُ والمخلبـــان

هذا غير الاستطراد فى تفصيل الصورة ، وتوليد المعانى بعضها من بعض . ونتوقف عند خاصية فى هذه القصيدة حيث استبدل بالمرأة فى التعبير عن الدنيا أو الحياة الخضرة والزرع ، ولعله استلهم التعبير القرآنى . (مثل الحياة الدنيا) إذ يقول :

وهيهاتَ يا عيش من رجعةٍ بأغصانك المائلاتِ اللّـــدانِ

وقوله :

فيـا عيشَنَـا والهوَى مورقٌ له غُصُنٌ أخضرٌ العُـودِ دَانِ

وصوره الغربية الطريفة المليحة تتكرر ، والتدفق السياق ، الذى تتعانق فيه المعانى واستخداماته الجديدة للغة كلٌ هذا ماثلٌ بوضوح . يزيد من كشف الملامح العامة لطريقته الشعرية .

وتطول وقفتنا مع أبى الشيص بعض الشيء لنكشف عن بديع هذا الشاعر المبدع ، المظلوم مهضوم الحق بين شعراء عصره .

ويجرى فى قصيدته البائية :

مَرتْ عينَهُ للشّوقِ فالدّمع مُنْسَكِبُ طلُول دِيار الحىّ ، والحىُّ مُغْتَرِبُ

على طريقته فى القصائد السابقة . ويبدو أن هذا النهج كان النهج التقليدى أو الجديد التقليدى فى عهده فى جيل الشعراء الثانى بعد الجيل الأول الذى اصطرع فيه القديم مع الجديد ، فى مواجهة واضحة ، القديم بتقاليده فى بناء القصيدة والتى عبّر عنها ابن قتيبة ، وقال عنها إنها لازمة لا ينبغى لشاعر محدث أن يعدل عنها إلى غيرها تلك المقدمة التى لا بد منها من النسيب وذكر الاطلال والديار الدوارس وبكاء العهد القديم ، والتوصل إلى الممدوح بالرحلة .

وكان الجيل السابق متمسكا بها بحرفياتها وطقوسها ، بل وببعض صيغ التعبير ، والقوالب المتداولة بين القدماء ، وجاء من بعد هذا الجيل الأول من شعراء العباسيين أو معاصراً له جماعة من الموالى المحدثين الذين ثاروا على هذا

التقليد ، واعتبروه من شعائر القصيدة العربية البدوية فحاولوا الخروج عليه ، وبدأ بشار بتجاربه الجديدة فى الشعر المحدث الذى حاول قدر استطاعته أن يستغنى عن المقدمة فى بعضه ، وأن يحاول محاولات مبتكرة فى التعبير والصور والصياغة ، إلا أنه لم يستطع أن يفلت تماماً من أسر القديم . فتمسك إلى حدّ ما ومن حيث الشكل . وإن غيّر فى طريقة الصياغة والتعبير . وكذلك حاول أبو نواس فى الجيل الثانى .إذ خطا خطوةً أخرى للاستغناء عن المقدمة وإحلال المقدمة الخمريّة كنموذج للشعر الجَديد . ويبدو أن تشجيع بعض الأذواق الحضرية المتأثرة بالفارسية قد تقبلت هذا الاتجاه وشجعته . بينما تحفظت أذواق بعض الممدوحين الكبار من العرب إزاء هذا التغيّر الذى يبتعد بهم عن أصولهم الأولى ، ولا يبعث فيهم هذا الحنين العميق للأوطان الأولى مهد العربية .

فكان هذا التذبذب بين التجديد المغالى ، والتقليد المتمسك المحافظ . لكن الجيل الثانى وجد من بينه من يستطيع أن يوفق بين الاتجاهين ، ويمزج فى براعة بين الذوقين وكان من هذا الجيل أمثال أبى الشيص ، وأبى تمام .

وهذا ما نراه هنا فيما سقنا من نماذج شعرية . نلاحظ بدء الشاعر بالحديث عن الديار المهجورة والطلل فى مديحه لشخصية عربية هى عقبة ، ويمزج فى غير قليل من التوفيق بين النسيب التقليدى والغزل الحضرى وحديث الخمر والشراب ، أنشودة المحدثين فى مقدماتهم . كذلك فى بقية أجزاء القصيدة كالرحلة إلى الممدوح وإنضاء الراحلة .

ففى هذه القصيدة البائية عقب حديث الطلل المهجور ومشاهده من اعتياد الظباءله لوحشته بعد أنسه بأهله يأتى بالبيت الفاصلة بين النمط القديم والجديد وهو :

عفائف لم يكشفْنَ ستراً لغدرةٍ ... ولم تنتحْ الأطرافُ منهنَّ بالرِّيَبْ
فأدرجهم طيُّ الجديدين فانطووا ... كذاك انصداعُ الشَّعْب ينأى ويقترِبْ

وينتقل إلى الخمر مباشرة فيقول :

وكأسٍ كسَاالساقى لنا بعد هجعة ... حواشيهَا مامجٌّ من ريقهِ العِنَبْ

ويَمْضى فى حديث الخمر والساق أو الساقية حتى يقول ذاكراً الاقلاع عن هذا اللهو الموكل بالصبا :

فورَّعني بعد الجهَالةِ والصِّبَا عن الجَهْلِ عهدٌ بالشبيبة قد ذَهَبْ

ويقول بعد استطراده إلى عهد ذاك الصبا :

إلى أن رمى بالأربعين مُشبُّها ووقَّرنى قرعُ الحوادث والنَّكَبْ
وكفكف من غربي مشيبٌ وكَبرةٌ وأحكمنى طول التجارب والأدبْ
وبحرٌ يحارُ الطرفُ فيه قطعتُه بِمَهْنُوءَةٍ من غير عُرٍ ولا جَرَبْ

يريد بذلك السفينة التى اتخذها مطيةً إلى ممدوحه بدلاً من الناقة ، وهذه نقلةٌ جديدة وتغيير لتقليد متبع ، أخذ به من بعده ابن الرومى فأبدع .

ويمضى أبو الشيص فى وصف هذه المطية الجديدة أو المركب الشراعىّ الذى يحمله على موج دجلة أو الفرات إلى ممدوحه . فيقول :

عريضة زَوْرِ الصَّدرِ دَهْمَاءُ رسلةٌ سنادٌ خليعُ الرَّأسِ مزمومة الذَّنبْ
جموحُ الصَّلا ،مَوَّارَةُ الصَّدْر جَسْرَةٌ تكادُ من الإغراقِ فى السَّيْرِ تلتهبْ

حتى يقول مستعيراً بعض صفات الناقة لوصف السفينة ، ولكن احداهما تسبح فى رمال الصحراء والثانية تشقُّ عباب الماء :

مرفَّقَةُ الأخفَافِ صُمٌّ عظامُها شديدةُ طيِّ الصُّلْب معصوبة العَصَبْ
يَشُقُّ حبابَ الماءِ حدُّ جِرانِها إذا ما تَفَرّى عن مَناكبها الذَّنَبْ

فيذكرنا هذا البيت بيت طرفه :

يشق حباب الماءِ حيزومُها بها كما قسم التُّربَ المفايِلُ باليَدِ

ونلاحظ فى شعر أبى الشيص أشياء يكثر من ترديدها ، كالحبيبة العفيفة الحييَّة . يكرر ذكرها فهى تارة :

عفيف اللحظ والأعضاء فى الصَّحوِ وفى السكر

أو :

عفائفُ لم يكشفْنَ سترًا لِغَدْرةٍ ولم تنتج الأطراف منهنَّ بالرِّيبْ

أو :

ولربما جرَّ الصِّبا لى ذيْلَهُ فيه ، وفيه مألفٌ وأنيسُ
من كل ضامرة الحشى مهضومةٍ لحَبالها بحبالنا تلبيسُ
متستراتٍ بالحياءِ لوابسٌ حُلَلَ العفافِ عن الفواحش شوسِ

وهو دائم الذكر للصِّبا مجتمعاً مع المرأة ، والشراب .

ويكرر فى شعره ذكر الخمر الحيرية ، نسبة إلى موقع الكوفة مما يُرجِّحُ نشأته بها أو أقامته هناك :

وسبيئةٍ من كرمها حيريَّةٍ عذراء من لمسِ الرجال شوسٌ

ونتوقف فى سينية له عند هذا البيت يصف الخمر :

ذمِّيَّةٌ صلى وزمزمَ حولَها من آل بَرمَكَ هَرْبَذٌ ومجوسُ

ونتساءل أكان هذا الشعر بعد نكبة البرامكة واتهامهم بأنهم كانوا يعملون على الردة إلى دين الفرس القديم ؟!. وإلا فما الداعى لهذا القول من الشاعر ، وقد كان زملاؤه ومعاصروه من الشعراء يمجدون البرامكة ويرفعون من شأنهم ؟.

ومن الملاحظات عن الظواهر المتكررة فى شعره ما عرف بالاستدارة ، أو الارتداد ، وهو أن يشرع فى حديث عن الطلل ، ثم يعدل عنه إلى صاحبته ، ثم يرتد للطلل، ثم يخرج إلى الخمر والشراب وأن الخمر عذراء، وكأنه يربطُ وجدانا بين الخمر هنا والمرأة فى الاستدارة الأولى ، ثم يرتد مرة أخرى إلى الطلل . وهكذا فى دورات متصلة طوال القصيدة .

وبعد هذه الوقفة مع ما وصل إلينا من شعر أبى الشيص ، وما حاولنا التعرف عليه من ملامحه ندلف إلى القصيدة المشتركة بينه وعلى بن الجَهْمَ العكوك وهى[1] :

هَلْ بالطُّلُولِ لسائِلٍ ردُّ أم هل لهَا بتكَلُّمٍ عَهْدُ
دَرَسَ الجديدُ جَديدَ معهدها فكأنَّما هى رَيْطَةٌ جرْدُ[1]

---

(١) ديوان على بن الجهم ص ١١٥ القصيدة رقم ٦٢ .

من طول ما يبكي الغمام علي ... عرصاتِها ويقهقِهُ الرَّعْدُ
وتلثُّ ساريةٌ وغاديةٌ ... ويكرُّ نحسٌ بعده سَعْدُ
تلقى شآميةٌ يمانيةً ... لهما بِوِرْدِ تُرابها سَرْدُ
فكستْ بواطنُها ظواهِرَها ... نوراً كأنَّ زُهاءَهُ بُرْدُ
يغدو فيسْرِى نسجُه حَدَبٌ ... واهى العُرَى ، ونِثِيرُهُ عِقْدُ
فوقفتُ أسألُها ، وليس بها ... إلاَّ المها ونقانِقٌ رُبْدُ
ومكدَّم فى عانةٍ خَفَرتْ ... حتَّى يُهَيِّج شأوها الوِرْدُ
فتبادرتْ دِرَرُ الشُّؤونِ على ... خدّى كما يتناثر العِقْدُ
أو نَضْحُ عزلاءِ الشَّعِيبِ وقد ... رَاحَ العَسيفُ بمائِها يَغْدُو(١)
لهفى على دَعدٍ وما خُلِقَتْ ... إلاَّ لطول بَلِيَّتي دعْدُ
بيضاءُ قد لبِسَ الأديمُ بِها الـ ... حسنَ فهو لجِلدها جِلْدُ
وَيزينُ فوْدَيْهَا إذا حسَرَتْ ... ضافى الغدائِرِ فَاحِمٌ جَعْدُ
فالوجهُ مثلُ الصُّبح مُنبلِجٌ ... والشَّعْرُ مثلُ الليْل مُسوَدُّ
ضِدَّان لما اسْتجمعَا حَسُنا ... والضِّدُّ يظهرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ
وجبينُها صَلْتٌ وحاجبُها ... شختُ المخطِّ أزجُّ مُمْتَدُّ
وكأنَّها وسْنَى إذا نظَرتْ ... أو مُدْنفٌ لمَّا يُفِقْ بَعْدُ(٢)
بفتُورِ عَيْنٍ ما بها رمَدٌ ... وبها تُداوى الأعينُ الرُّمْدُ
وتُريك عرنيناً يُزَيِّنُهُ ... شمَمٌ وخداً لَوْنُه الوَرْدُ
وتُجيلُ مِسْواكَ الأراكِ علَى ... رَتْلٍ ، كأنَّ رُضَابَه الشُّهْدُ
والجيد منها جيد مُغْزِلةٍ ... تعطو إذا ما طالها المَرْدُ(٣)
وامتدَّ من أعضائِها قَصَبٌ ... فعْمٌ تلتْهُ مِرافِقٌ دُرْدُ(٤)
والمِعْصَمانِ فما يُرَى لهُما ... من فَعْمةٍ وبَضاضَةٍ زَنْدُ
ولها بَنَانٌ لو أردْتَ له ... عقداً بكفِّكَ أمكنَ العقْدُ
وكأنَّما سقيت ترائبُها ... والنحرُ ماءَ الحُسنِ إذْ تبدُو
وبصدْرها حُقانِ خِلْتُهما ... كافُورتينِ علاهُمَا نَدُّ(٥)

(١) عزلاء الشعيب يقصد القربة ، والعسيف العبد والأجير والخادم .
(٢) المدْنف المريض .
(٣) المغزلة الظبية التى لها ولد والمردُ ثمر الأراك .
(٤) القَصْبُ العظام ، الفعم الممتلىء ، الدُّرد لاتشوه بها .
(٥) الكافور طيب أبيض اللون ، والندُّ المِسْكُ أو العود من الطيب .

والبَطنُ مطويٌّ كما طُوِيتْ بيضُ الرِّيَاطِ يصُونُها المَلْدُ[1]
هيهات يأبى ذاكَ لى سَلَفٌ خَمدُوا ولم يخْمَدْ لهمْ مَجْدُ
والجدُّ كندةُ والبنون هُمُ فزكا البنون وأنجبَ الجدُّ[2]
فلئن قفوت جميل فِعلهمُ بذميم فِعْلى إنَّنِى وَغْدُ
أجْمِل إذا حاولت فى طَلَبٍ فالجدُّ يُغنى عنك لا الجَدُّ
ليكن لديك لسائل فرجٌ إن لم يكنْ فليحسن الردُّ
وطريد ليلٍ ساقه سغبٌ وهناً إلىَّ وقادَهُ بَرْدُ
أوسعت جهدَ بشاشةٍ وقرىً وعلى الكريم لضيفِهِ الجهْدُ
فتصرَّم المشتى ومنزلُهُ رَحْبٌ لدىَّ وعيشُه رغْدُ
ثم اغتدىَ ورداؤه نعَمٌ أسديتُها وردائِىَ الحمْدُ
يا ليتَ شعرِى بعد ذلكُمُ ومصيرُ كلِّ مؤمِّلٍ لحْدُ
أصريع كلْمٍ أم صَريعُ ضنىً أودَى فليسَ من الرَّدى بُدُّ

والقصيدة بتمامها تعلن عن نهج أبى الشيص الشعرى الذى أشرنا إليه سواء فى بنائها وتوليد معانيها والمعاودة والارتداد ، أم فى بعض الصّياغات والتراكيب المكثفة الدلالة على ما اشرنا أنها القصر كما قال القدماء ، أو فى اللفظ المستخدم . ثم بعد هذا كله فى هذه الأدلة والشواهد المادية التى تنطق بأن الشاعر يمنىٌّ يفخر بنسبه وأنه تهامىٌّ ، ولم يكن ابن جبلة السّندىّ الأصل الخراسانى الوطن ليعلق من هذه القصيدة بسبب .

والقصيدة كما رأينا بها هذه الخاصية التى أشرنا إليها وتنفرد بهذا الوصف التفصيلى للمرأة من شعر رأسها إلى قدميها ، وهى نموذج فريد فى ذلك ، قد يشاركها فيه قصيدة المتجردة للنابغة ، ولعله إذا صحت للشاعر القديم .أن يكون أبو الشيص قد وضعها فى مخيلته حين بنى قصيدته هذه . والنموذج الذى صوره للمرأة هو النموذج العربى التقليدى ، وليست المرأة المدنية الحضرية أو الجارية على أية حال ، بل هى السّيدة المصونة المنعمة قعيدة البيت وهى التى اشار إليها امرؤ القيس بقوله (نؤومُ الضّحىَ لم تنتَطِقْ عن تفضّل) .

(١) الرباط الثياب والملْدُ الشباب والنعمة .
(٢) وهذا شاهد آخر على نسبة الشعر لأبى الشيص الخزاعى اليمنى ، فهو يفخر بكندة اليمنى الذى تنتسب إليه مملكة كندة العربية اليمنية فى نجد ومن ملوكها والد امرىء عمرو بن حجر .

وقد نظر فى رسم نموذجه إلى بعض سمات المرأة وصفاتها فى الشعر القديم ، فهو ينظر إلى قول طرفه :

وفى الحىِّ أحوى ينفضِ المرد شادنٌ ... مظاهر سمطي لؤلؤٍ وزبرجَدِ
وبخصرها هيفٌ يزيِّنُه ... فإذا تَنُوءُ يكادُ ينقَدُّ

....

والتفَّ فخذاهَا وفوقَهُما ... كفَلٌ يجاذِبُ خصرها نَهْدُ
فقيامُها مثنىً إذا نهضَتْ ... من ثقلَةٍ يجاذِبُ وقعودها فَرْدُ
والساقُ خِرعبةٌ منعَّمةٌ ... عَبِلَتْ فطوقُ الحجلِ مُنْسدُّ(١)
والكعبُ أدرَمُ لا يبين لَهُ ... حجمٌ ، وليس لرَأسه حدُّ(٢)
ومشتْ على قدمين خُصِّرتا ... والتَفَّتا فتكامَلَ القَدُّ
ما شانَها طولٌ ولا قِصَرٌ ... فى خَلْقِها فقوامُها قَصْدُ
إنْ لم يكنْ وصْلٌ إليكِ لنَا ... يشفى الصَّبابَةَ فليكُنْ وعْدُ
قد كانَ أورقَ وصلكم زمناً ... فذَوَى الوصالُ وأورق الصَّدُّ
لله أشواقٌ إذا نَزَحَتْ ... دارٌ بنا ونأى بكم بُعْدُ
إن تُتْهِمي فتِهامَةٌ وطَني ... أو تنجِدى إن الهَوى نجْدُ(٣)
وزعمتِ أنَّكِ تُضْمرين لنا ... وداً ، فَهلاَّ ينفعُ الودُّ
وإذا المحبُّ شكا الصُّدُودَ ولَمْ ... يُعْطَفْ عليه فقتله عَمْدُ
تختَصُّها بالودِّ وهى على ... مالاَ تُحِبُّ فهكذا الوَجْدُ
إمَّا ترى طِمْرَىَّ بينَهُما ... رَجُلٌ ألحَّ بهزْلِه الجدُّ
فالسَّيفُ يقطع وهو ذو صدإٍ ... والنَّصْلُ يعلو الهامَ لا الغِمْدُ
هلْ ينفعَنَّ السيفَ حِليتُه ... يومَ الجلادِ إذا نبا الحدُّ
ولقد علمتُ بأننى رجُلٌ ... فى الصالحاتِ أروحُ أو أغْدو
سَلْمٌ عَلى الأدْنى ومَرحمةٌ ... وعلى الحوادثِ هادىءٌ جَلْدُ
متجلببٌ ثوبَ العفافِ وقد ... غَفَلَ الرقيبُ ، وأمكنَ الوِرْدُ
ومُجانبٌ فِعْلَ القبيح وقد ... وصلَ الحبيبُ وساعدَ السَّعْدُ

(١) الخرعبة : الرقيقة العظم كثيرة اللحم ، ناعمة .
(٢) آدرم مستو ليس له بروز .
(٣) هذا البيت يؤكد أن الشعر لأبى الشبص الخزاعة من خزاعة اليمنية وبعض بطونها بتهامة منازلها .

منعَ المطامعَ أنْ تكلِّمَنــي أنــيّ لمقتولها صقــاً صلْــدُ
فأروح حرا من مذلّتهــا والحرُّ حيــنَ يطيعُها عَبْــدُ
آليت أمدحُ مقرفاً أبــداً يَبْقَى المديح ، ويذهبُ الرِّفْدُ[1]

وأختار له جماعة من الأدباء المتأخرين كابن الرقيق القيرواني فى القرن الرابع ، والحصرى فى زهر الآداب أبياتا من شعره معجبين .

يقول الرقيق فى قطب السرور[2] : « وهذا أبو الشيص نقىُّ الكلام ، متخير الألفاظ مداحٌ للخلفاء ، لاحق بالفحول . يقول :

وكميتٍ أرقها وهج الشمس وصيف يَغْلِي بها وشتــاءُ
طبختْها الشعرى العبورُ وحثَّتْ نارَهــا بالكــواكب الجوزاءُ
مَحضتْها كواكبُ القيظ حتّى أقْلَعَتْ عن سمائها الأقــذاءُ
هى كالسُّرْج فى الزجاج إذا ما صبّها فى الزجاجة الرَّصفاءُ
ودَم الشادن الذبيح وما يجلــبُ الســاقياتُ منها سَــواءُ
وقــدْ سَقتنى والليل فتــقُ الصُّــبْحِ بكأســن ظبيةٌ حــوراءُ
مِــنْ بنانٍ كأنها قضبُ الفضّــة حَنّــى أطــرافها الحنّــاء

والمقطوعة المختارة من قصيدة همزية ، لكن الرقيق اختار ما يوافق موضوع كتابه وهو حول الأشربة والشراب والندمان وما إليها .

ويختار له من نونية أخرى أبياتا فى الموضوع نفسه . يقول : « وهو الذى يقول وقد اصطبح :

عاطِنى كأسَ سلــوةٍ عن أذانِ المؤذّنِ
ما ترى الصُّبحَ قد بدا فى إزار مُبَيّــــــنِ
فاسْقِنيها سُلافــــةً والطمــنّــى وآزمــنـــي.

ويختار الشمشاطى[3] أبياتا من بائيته فى وصف السفينة يقول فيها :

وبحرٍ يحارُ الطَّرف فيه قَطَعْتُه بمهنوءةٍ من غير عُرٍّ ولا جَربْ

(1) المقرف : الدعىُّ .
(2) طبع دمشق ص ١٠٦ .
(3) فى كتاب الأنوار ومحاسن الأشعار بتحقيق صالح العزاوى طبع العراق ١٩٧٦ ص ٢٩١ .

مُوَثَّقةِ الألواحِ لم يُذمِ مَتْنَها ... ولا صَفْحتيْهَا عَضُّ رَحْلٍ ولا قتبْ
مقبَّلَةٍ لا تشتكِى الأَيْنَ والوجَى ... ولا تشتكى عضَّ النسوعِ ولا الدَّأبْ
يَشُقُّ حبابَ الماءِ حدُّ جِرانِها ... إذا ماتَفَرَّى عن مناكبها الحبَبْ
إذا اعتلجت والريح فى بطن لُجَّةٍ ... رأيت عجاج المَوْج من حَوْلها يَثب

ويروى له صاحب الحماسة البصرية أبياتا طريفة فى وصف الهدهد[1] يقول :

لا تأمَنَنَّ على سِرِّى وسِرِّكُم ... غيرى وغيرَك أوطىَّ القِراطيسِ
أو طائراً سأجليه وأنعتُــه ... ما زال صاحِبَ تنقيرٍ وتَدْسيسِ
سودٌ براثِنه ميـلٌ ذوائِبُــه ... صفرٌ حمالقُه فى الحسْن مغموسُ
قد كانَ همَّ سليمانٌ ليذبَحهُ ... لولا سعايتُه فى عَرش بُلْقيسِ

كما روى له السرى الرفاء جملة أبيات فى كتابه الكبير « المحب والمحبوب والمشموم والمشروب »[2] وأعجب القدماء بتشبيهاته الغريبة مثل قوله[3] :

كأن بلادَ الله حَلقةُ خاَتمٍ علىَّ ... فما تَزدادُ طولاً ولا عَرْضَا
كأنَّ فؤادى فى مخالبِ طائرٍ ... إذا ذكرتُكِ النفسُ شدَّت به قَبْضَا

---

(١) الحماسة البصرية للبصرى طبع عالم الكتب ببيروت ٢ /٣٤١ وكذا فى المختار من شعر بشار .
(٢) طبع مجمع اللغة العربية الدمشقى بتحقيق مصباح غلاونجى .
(٣) المصدر نفسه ٢ /٧٦ .

ومن الشعراء المغنين :

—٢—

إبراهيم وإسحاق الموصليان

ولد إبراهيم بالكوفة سنة ١٢٥ هـ ، وتوفى ببغداد سنة ١٨٨ هـ .

وأصله فارسى ، أوى أنه قال : وبيتنا شريف فى العجم . نزل جده بالكوفة هرباً من بعض عمّال بنى أمية ، خرج هارباً من الكوفة إلى الموصل فأقام بها ونسب إليها .

روى صاحب الأغانى أن إبراهيم عندما خرج مع والده إلى الموصل صَحِبَ جماعة من الصعاليك ، كانوا يقطعون الطريق ويقطعه معهم ، ويجمعون ما يحصلون عليه من مال أو متاع فيقصفون به ويشربون ويغنون . فتعلم منهم شيئاً من الغناء والشعر وكان أطيبهم صوتاً ، وأحذقهم ، فلما أحسّ بذلك من نفسه اشتهى الغناء وطلبه ، وسافر إلى الأماكن البعيدة لتحصيله .

ويذكر أبو الفرج فى رواية أخرى عن احترافه الغناء نقلاً عن ابنه اسحاق قال : « أسْلِمَ أبى إلى الكُتّاب ، فكانَ لا يتعَلّمُ شيئاً ، ولا يَزالُ يُضرَبُ ويُحبَسُ ولا ينجعُ ذلك فيه ، فهربَ إلى الموصل ، وهناك تعلّم الغناء ، ثم صارَ إلى الرّىّ ، وتعلّم بها أيضا ، ومهر وتزوج امرأته « دوشار » ، وطال مقامه هناك بالرىّ ، وأتقن الغناء الفارسىّ ، وتزوج مرة أخرى بفارسية هى « شاهك » أم إسحاق ابنه وسائر ولده .

وكان إبراهيم يحب زوجه الأولى . وقال فيها شعراً تغنى به ثم خرج من الرىّ قاصداً البصرة وأقام بها زمناً فى صحبة بعض الهاشميين والعباسيين ثم عرّج على بغداد . وأقام بحىّ الشمّاسيّة أحد أحيائها الراقية ، وجاور الفضل بن الربيع حاجبَ المهدى ووزير الرشيد ، والفضل بن يحيى وخالد بن يحيى البرمكيين .

وكان أول حضوره إلى بغداد أيام المهدى ، وحضر مجالسه ، ولزمه ردحاً من الزمن ثم جاء موسى الهادى فاصطفاه ، وقربه ، ومن بعده هارون الرشيد الذى قويت علاقته به .

وصادق من الشعراء أبا العتاهية ، وكان يلتقى به فى بلاط الرشيد ، وكذلك سلمًا الخاسر . ولأبى العتاهية فى إبراهيم الموصلى شعرٌ جيد .

ولقى إبراهيم من النعمة والثراء حظًّا، وبلغ من الجاه مبلغاً بفضل صلات الخلفاء والوزراء وكان يهتم بمظهره ويحرص على بهاء ونظافة ثيابه .

وكان تعلّم إبراهيم فى أول الأمر للغناءِ للذته لا ليحترف ويتكسب به . فقد طلبه من العَباسيين بالبصرة محمد بن سليمان بن على وعلى بن سليمان بن على لمنادمتهما والغناء ، فقال لمحمد وهو أخو أبى جعفر المنصور : أيها الأمير إنى لستُ أتكسبُ بالغناء ، وإنما ألتذّه فلذلك تعلمتُه .

ولمّا جاء بغداد والتحق ببلاط المهدى كان إبراهيم يَشْرَبُ النبيذ والمهدىُّ لا يشربه ، فنهاه المهدىُّ عن الشراب فى مجلسه ، وفى مجالس أهل القصف واللهو الذين كان يلهو معهم . وعاتبه على الشراب فى منازل الناس والتبذّل معهم فقال له إبراهيم : يا أمير المؤنين ، إنما تعلّمتُ هذه الصناعة للذّتى ، وعِشْرتى لإخوانى ، ولو أمكنني تركتها لتركتها ، وَجميع ما أنا فيه لله عزّ وجل فغضب المهدىُّ غضباً شديداً ، وأمره ألاّ يدخل على ولديه موسى وهارون البتّة .

ولإبراهيم شعرٌ رقيقٌ من طراز المحدث وشعر الموالى ، عليه رونق الحضارة ، فى عذوبة من اللفظ وطرافةِ التعبير . من ذلك قوله[1] : (وهو من زمن اقامته بالرى) :

رُبَّما نبهنى الإخـوا	نُ ، والليـلُ بهيـمْ
حينَ غَارتْ وتدلّتْ	فى مهاديها النجومْ
ونعاسُ الليل فى عيـ	نَىَّ كالثاوى المقيمْ
للّتى تُعصَرُ لمَّـا	أينعَت منها النجومْ
أنـا بالـرىّ مقيـمٌ	فى هَوَى الرىّ أهيـمْ
ما أرانى عن قرى الرّ	ىِّ مدى الدهرِ أريمْ

ويقول فى يوم جاءت فيه السماء بمطر خفيف[2] :

ألاَ من مبلغٌ قوماً	من اخوانى وجيرانى
هَنِيئاً لَكُمْ الشُّربُ	علَـى دَرٍّ وتَهتـانِ

---

(١) الأغانى ٥ /١٦٨ .

(٢) المصدر نفسه ٢٠٥ .

وأنى مفردٌ وحيدى ... بأشجانى وأحزانـــى
فمنْ جَفّ لَهُ جفنٌ فجفنـانىَ بِسيـــلانِ

وينزل بخمّارٍ نصرانىٍّ من السُّريان ، فيخاطبه متظرِّفاً ببعض لغة السّريان قائلاً[٣] :

سَقْياً لِمَنْزِلِ خَمَّارٍ قَصَفْتُ بِهِ وَسَطَ الرَّصَافَةِ يَوْماً بَعْدَ يَوْمَيْنِ
مَازِلْتُ أَرْهَنُ أَثْوَابِى وأشْرَبُهَا صَفْرَاءَ قد عُتِّقَتْ فِى الدنِّ حَوْلَيْنِ
حَتَّى إذا نَفِدتْ مِنِّى بأجْمَعِهَا عَاوَدْتُهُ بالرِّبَا دَيْناً بِدَيْنِ
فقال : « إزل بشين » حِينَ وَدَّعَنِى وقَدْ لِعَمْرُكَ زُلْنَا عَنْهُ بالشَّيْنِ

و « إزل بشين » كلمة سريانية معناها امضى بسّلام .

وكان إبراهيم يختار لغنائه ما يناسب هذا الشعر من المحدثين والأعراب . وكانت صنعته فى الموسيقى والغناء تجمع بين موروث الغناء وموسيقى الفارسية وصنعته الحجازيين والمدنيين خاصة إضافة إلى ما يبدعه ، مستوحياً مسموعه من أغانى العامة ، أو الأصوات والألحان مما يقع لأذنه التى تلتقط كلّ معجب طريف . وبهذا استطاع أن يرضى الأذواق كلّها وأن يقع فى عصره عند الخاصة والعامة موقع الإعجاب والتقدير .

وقد أحبه الرشيد ونادمه ولم يصبر على مفارقته طوال أيام الأسبوع فيما عدا يوم السبت . وكان يصحبه فى غنائه جماعة من كبار الموسيقيين؛ برصوما الزامر ، وزُلزُل الضارب وكان من الكوفة تعرف عليهما ، ووفقهما على الغناء العربى وأراهما وجوه النغم ، وثقفهما حتى بلغا المبلغ الذى بلغاه .

وممن اشتهر من تلاميذه جامع المغنى المشهور ذو الصوت الطّلّىّ ، وكان إبراهيم يغنّى فى الحانة . وقيل إنه صنع تسعمائة صوت .

قال أبو الفرج : وما رأيت أكثر من صيغته ، فأما ثلاثمائة منها فإنه تقدم النّاس جميعاً فيها وأما ثلاثمائة فشاركوه وشاركهم فيها ، وأما الثلاثمائة الباقية فلعبٌ وطرب .

---

(١) الأغانى ٥ /١٩١ .

وتغنىٰ بألحان جماعة من سابقيه أمثال معبد وابن سريج ، وعاتبه ابنه إسحاق في ذلك قائلاً : دعْ ما اعتورته صناعة القدماء وخذ في غيره .

ومما تغنى به إبراهيم من ألحانه قول ابن الطَّثْرِيَّة :

ألا يا حَمَامَاتِ اللوَى عُدْنَ عَوْدَةً	فَإِنِّي إلى أصْوَاتِكُنَّ حَزِينُ
فَعُدْنَ ، فَلَمَّا عُدْنَ كِدْنَ يُمِتْنَنِي	وَكِدْتُ بِأَسْرَارٍ لَهُنَّ أَبِينُ
دَعَوْنَ بِتَرْدَادِ الهَدِيرِ كَأَنَّمَا	سُقِينَ حُمَيًّا أو بِهِنَّ جُنُونُ
فَلم تَرَ عيْنِي مِثْلَهُنَّ حَمَائِماً	بَكَيْنَ ، ولَمْ تَدْمعْ لَهُنَّ عُيونُ

وفي قوله :

ألا يَا صَبَا نجدٍ متى هجْتِ من نَجْدِ	لقد زَادَني مَسْرَاكِ وجدًا على وجْدِ
أآن هتفتْ وَرقاءُ في رونَقِ الضُّحَى	على فَنَنٍ غضِّ النباتِ من الرَّنْدِ
بكَيتَ كما يَبْكِي الحَزِينُ صَبَابَةً	وذُبْتَ مِن الحُزْنِ المبرِّحِ والجُهْدِ
وقَدْ زَعَمُوا أنَّ المُحِبَّ إذا دَنَا	يُمَلُّ وأنَّ النَّأىَ يَشْفِي مِنَ الوَجْدِ
بِكُلٍّ تَدَاوَيْنَا ، فَلَمْ يَشْفِ ما بِنَا	على أنَّ قُربَ الدَّارِ خَيرٌ مِنَ البُعْدِ

وكذلك تغنى بشعر لذى الرّمة ، قيل إنه صنع لحناً ، وظلّ يبحث عن شعرٍ يوافقه حتى اهتدى إلى أبيات لذى الرّمة .

لقد كان إبراهيم علامةً مميزة لما بلغ فن الموسيقى والغناء، إلى كونه شاعراً نديماً يحسن المنادمة وحديث المجالس . وهو وإسحاق من ثمار الحضارة العباسية الزاهرة في القرن الثالث .

وأما إسحاق(١) .

ولد إسحاق اثناء إقامة والده بالريّ ، وانتقل معه إلى البصرة ثم إلى بغداد ، ولمَّا جاء بغداد كان إسحاق شاباً في مطلع شبابه ، وصاحب والده في مجلس المهدى والهادى ، فلما تولى الرشيد كان إسحاق قد بلغ مبلغ الرجولة ، ونضجت مواهبه في الموسيقى والغناء والشعر . وقد أولع به الرشيد ، ربما لتقاربهما في السنّ ، ولأن الرشيد كان يعشق الموسيقى والغناء ، ويحب الشعر ، وكان

---

(١) راجع ترجمته بالأغاني ٥ /٢٨١ .

إسحاق يجمع هذا كله إلى حسن الحديث ، وظرف مفطور عليه ، وقوة عارضة ، وفطنة ودماثة طبع .

وكان الرشيد يكنيه أبا صفوانٍ محبةً له .

ووضع إسحاق من العلم ، ومكانه من الأدب ، ومحله من الرواية ، وتقدمه فى الشعر ، ومنزلته فى سائر المحاسن أشهر من أن يُدلّ عليه ، على حدّ قول أبى الفرج[1] :

« وأما الغناءُ فكان أصغر علومه، وأدنى ما يُوسَمُ به، وإن كان الغالبَ عليه، وعلى ما كان يُحسِنُه ، فإنه كانَ له فى سائر أدواتِه نظراء ، وأكفاءُ ، ولم يكنْ له فى هذا نظير ، فإنه لحق بمن مضى فيه ، وسبق من لحق ، ولحبَ للنّاس جميعاً طريقه فأوضحها ، وسهَّل عليهم سبيله وأنارها فهو إمام أهل الصّناعة جميعا ، ورأسهم ومعلّمهم ، يعرفُ ذلك منه الخاصُّ والعام ، ويشهَدُ به المفارق والموافق ، على أنه كان أكره الناسِ للغناءِ ، وأشدّهم بغضاً لأن يُدْعى إليه أو يُسمّى به » .

وكان المأمونَ يقول : لولا ما سَبَق على ألسنة الناسِ وشهر بِهِ عندهم من الغناءِ لولّيتُهُ القضاء بحضرتى ، فإنه أولى ، وأعفّ ، وأصدقُ ، وأكثرُ ديناً وأمانةً من هؤلاء القضاة ، ولعلّ المأمون كان يقول ذلك وفى ذهنه ما رُمى به أحد كبار قضاته وهو يحيى بنُ أكثم من أمورٍ ، تخدش أمانته ، وتقلل من مروءته أثناء توليه قضاء البصرة .

روى إسحاق الحديث عن جماعة من محدّثى العراق والحجاز وشيوخهم .

وصحّح أجناسَ الغناءِ وطرائِقَه ، وميّزهُ تمييزاً لم يقدِرْ عليه أحدٌ قبلَه ، ولا تعلّق أحدٌ بعده . وكان المغنون المقدّمون ، والموسيقيون المعروفون فى عصره يترددون عليه ويأخذون عنه غناء الحجاز ، حتى والدُه ، وابن جامع ، وهو من طبقته ، كانا يضطران إلى الرجوع إليه والأخذ عنه .

وتبين للعالمين بِفَنَّىْ الموسيقى والغناء معجزاته فى صنعته ، وفضله على أهلها ، وكونه سماءً هم أرضُها ، وبحراً هم جداوله .

تعلّم ضرب العود على ضاربه المشهور فى عصره وهو منصور زُلْزَل ، وكان مُمن يصحب والده فى غنائه كما ذكرنا .

(١) راجع الأغانى ٥ /٢٨١ .

وجمع إسحاق بين تفوقه فى صنعة الموسيقى والغناء ، وحسن اخلاقه ومكارم خلاله ، وسعة علمه ، ولباقة حديثه فأغرم به جلساؤه من الملوك والناس . ولم يفارقه أحد من الخلفاء من هارون الرشيد إلى المأمون والمعتصم ، فالواثق .

وكانت له عند الواثق مكانة خاصة لأنه شاركه فى صنعة الموسيقى والغناء وقول الشعر .وكان لفرط إعجاب الواثق بإسحاق يقول : « ما غنّانى إسحاق قط إلا ظننتُ أنه زيد لى فى مُلكى .. وإنّ إسحاق لنعمةٌ من نعم المُلْكِ التى لم يُحظ بمثلها ، ولو أن العمر والشبابَ والنشاط مما يُشترى لأشتريتُهنّ له بشَطْرِ ملكى » .

وكان المغنون يحضرون مجلس الواثق وعيدانهم معهم إلاّ إسحاق ، فإنه كان يحضُر بلا عود للشرب والمجالسة ، فإن أمَرَهُ الخليفةُ أن يُغَنِّى أحضَرَ له عُوداً .. فإذاَ غنّى فرغ الواثق من شُرْب قدح فإذا شرب قطع الغناء ، ولم يعد منه حرفاً إلاّ أن يكون فى بعض بيت فيتمه ، ثم يقطع ويضع العود من يده ، وهذا احترام منه لصنعته ، وتوقير لنفسه ومكانته ، وإلزام لمن يسمعه بالاحترام والإنصات وعدم الإنشغال بشى دون سماعه .

ومع ذلك فلم يكن صوت إسحاق طليًا ، ولكنّ صنعته كانت تُعَوِّضُ نقصَ الجمال فى صوته، وكان مخارق ، وعُلوية أحلى صوتا ، ولكنه أجود صنعه . وكان صَوتَه خفيضاً غير حادٍ ، ولا عالٍ . حكى ذلك أبو الفرج فى غير موضع .

وكان إسحاق يعترف بأن صوت مخارق أجمل أصوات معاصريه ، وهو تلميذ أبيه ، وتخرج عليه ولزم إسحاقاً وفاءً لإبراهيم .

قال أبو الفرج إن اسحاقَ كان يقول « إن مخارق يملك من صوته ما لا يملكه أحد فيتزايد فيه تزايداً لا يبقى عليه ، ويتغير فى كلّ حال ، فهو أحلى الناس مسموعا ، وهو يعنى بلغة غناء العصر تعدد طبقات صوته بحيث لا يَصعُب عليه لحن مهما كانت طبقته .

وكانت بين إبراهيم المهدي وإسحاق منافسة ، كما كانت بينه وبين أبيه ، فإذا خلا إبراهيم المهدى وإسحاق الموصلى فى مكان فهما أخوان ، وإذا التقيا عند خليفة تكاشحا أقبح تكاشح » .

وذكر أنه كان علوى الهوَى يمدح الفاطميين ويَرَى حبَّهم ، يقول :

وَمَهْمَا أَلاَمُ على حُبِّهِمْ | فَإِنِّي أُحِبُّ بَنِي فَاطِمَهْ
بَنِي بِنْتِ مَنْ جَاءَ بِالْمُحْكَمَا | تِ ، وَالدِّينِ وَالسُّنَّةِ القَائِمَهْ

وكان إسحاق شاعراً مجيداً يميل إلى نمط الأعراب ، وفي النسيب خاصة . فكان يسلك سبيله في مثل قوله :

أَجَرتْ سَوَابِقَ دَمْعِكَ المُهْرَاقِ | لَمَّا جَرَى لَكَ سَائِحٌ بِفِرَاقِ
إِنَّ الظَّعَائِنَ يَوْمَ صَائِفَةِ اللِّوَى | هَاجَتْ عليكَ صَبَابَةَ المُشْتَاقِ
لَمْ أَنْسَ إِذْ أَلْمُخْتَشِي رُقْبَةً | مِنْهُنَّ بِيضُ تَرَائِبٍ وَتَرَاقِي
وَأَشَرْنَ إِذْ وَدَّعْنَنَا بِأَنَامِلٍ | حُمْرٍ كَهُدَّابِ الدِّمَقْسِ رِقَاقِ
وَرَمَتْكَ هِنْدٌ يَوْمَ ذَاكَ فَأَقْصَدَتْ | بِأَغَرَّ عَذْبٍ بَارِدٍ بَرَّاقِ
وَتَنَفَّسَتْ لَمَّا رَأَتْكَ صَبَابَةً | نَفَساً تَصَعَّدَ في حَشًى خَفَّاقِ
وَلَقَدْ حَذِرْتُ فَمَا نَجَوْتُ مُسَلَّماً | حَتَّى صَرَعْتُ مَصَارِعَ العُشَّاقِ
إِنَّ الخِلاَفَةَ أَثْبَتَتْ أَوْتَادَهَا | لَمَّا تَحَمَّلَهَا أَبُو إِسْحَاقِ
مَلِكٌ أَغَرُّ يَلُوحُ فَوْقَ جَبِينِهِ | نُورُ الخِلاَفَةِ سَاطِعَ الإِشْرَاقِ
لَبِسَ الجَلاَلَ مَعَ الجَمَالِ وَزَانَهُ | هَدْيُ التُّقَى وَمَكَارِمُ الأَخْلاَقِ
صَحَّتْ عُرُوقُكَ فِي الجِيَادِ وَإِنَّمَا | يُجْرَى الجَوَادُ بِصِحَّةِ الأَعْرَاقِ
ذُخْرُ المُلُوكِ فَكَانَ أَفْضَلَ ذُخْرِهِمْ | لِلْمُلْكِ مَا جَمَعُوا مِنَ الأَوْرَاقِ .
وَذَخَرْتُ أَبْنَاءَ الحُرُوبِ كَأَنَّهُمْ | أُسْدُ العَرِينِ عَلَى مُتُونِ عِتَاقِ
كَمْ مِنْ كَرِيمَةِ مَعْشَرٍ قَدْ أَنْكَحَتْ | بِسُيُوفِهِمْ ، قَسْراً بِغَيْرِ صَدَاقِ
وَعَزِيزَةٍ في أَهْلِهَا وَقَطِينِهَا | قَدْ فَارَقَتْ بَعْلاً بِغَيْرِ طَلاَقِ

ودخل مرة على الواثق فوجده خائر النفس ، فأمسك بعود من الخزانة ، ووقف بين يديه وغناه من شعره :

مِنَ الظِّبَاءِ ظِبَاءٌ هَمُّهَا السُّخُبُ | تَرْعَى القُلُوبَ وَفِي قَلْبِي لَهَا عُشُبُ
أَهْوَى الظِّبَاءَ اللَّوَاتِي لا قُرُونَ لَهَا | وَحَلْيُهَا الدُّرُّ وَاليَاقُوتُ وَالذَّهَبُ
لا يَغْتَرِبْنَ وَلاَ يَسْكُنَّ بَادِيَةً | وَلَيْسَ يَعْرِفْنَ مَا مِصْرٌ وَلا حَلَبُ
وَفِي الَّذِينَ غَدَوْا نَفْسِي الفِدَاءُ لَهَا | شَمْسٌ تَبَرْقَعُ أَحْيَاناً وَتَنْتَقِبُ
يَا حُسْنَ مَا سَرَقَتْ عَيْنِي وَمَا انْتَهَبَتْ | وَالعَيْنُ تَسْرِقُ أَحْيَاناً وَتَنْتَهِبُ
إِذَا يَدٌ سَرَقَتْ فَالقَطْعُ يَلْزَمُهَا | وَالقَطْعُ فِي سَرَقِ العَيْنَيْنِ لا يَجِبُ

ومن شعره الذى غنىّ فيه وقلد فيه الأعراب قوله :

ومكحُولَةَ العيْنَين منْ غَيْرِ ما كُحْلِ ... مُهَفْهَفَةِ الكشْحَيْنِ ذاتِ شَوَى خَدْلِ
منعمةِ الأطرافِ مُفْعَمةِ البُرَى ... روادِفُها تحْكِى الدّهَاسَ من الرّمْلِ
صَيُودٌ لألبابِ الرجالِ متى رَنَتْ ... إلى ذى نُهىً جَلْدِ القُوَى وافِرِ العَقْلِ
تَخَلّى النُّهَى عنْهُ وحَالفَهُ الصِّبَا ... وأسْلَمه الرأىُ الأصيلُ إلى الجهْلِ

ومما تغنى فيه كذلك :

تَوَلّى شبابُكَ إلا قليلاَ ... وحلّ المشيبُ فصبراً جميلا
كفَى حزناً بفراقِ الصِّبا ... وإنْ أصبح الشيبُ منه بديلاً
ولمّا رأى الغانياتُ المَشيـ ... ـبَ أغضَيْنَ دُونكَ طرفاً كليلا
سأندبُ عهداً مَضَى للصِّبا ... وأبكى الشّبابَ بُكاءً طويلا

وقال متغزلاً :

هلْ إلى نظرة إليك سبيلُ ... فيُرَوَّى منْها الصَّدَى ويُشفَى الغليلُ
إنّ مَا قلّ منك يكثر عندى ... وكثيرٌ ممّنْ تحِبُّ القَليلُ

وهكذا نرى أن الذوق الغالب على إسحاق هو الطابع البدوىّ القديم ، حتى إنه يصطنع خيالاتهم وألفاظهم، وقد يستخدم تعبيراتهم، ويسلك سبيلهم فى ذكر بعض أماكنهم . ويتفق ذوقه فى الشعر مع ذوقه فى صنعة الموسيقى والغناءُ فهو أميلُ إلى القديم والتقليد ، أو التمسك بالقيم الفنية المتوارثة والأصول المنقولة ، لا يميل إلى المحدث ، والخروج عما تعارف عليه المقدّمون ، فيحدث ما لم يعرفوه ، وكان إبراهيم المهدى على عكس ذلك .

على أنّ لأسحاق شعرٌ لا تستطيع أن تفرقه عن شعر المحدثين ، وبخاصة فى حديث الخمر والغزل إذا انطلق على سجيته دون قيد من عقله . كأن يقول من قصيدة رواها أبو الفرج[1] :

(١) الأغانى ٥ /٤٠٧ .

ومجلسٍ باكرتُه بكــورا / والطيرُ ما فارقتْ الوكورا
والصبحُ لم يستنطِقِ العصفورا / على غديرٍ لم يكنْ دُعْثورا[1]
لم تر عيني مثلَه غديرا / يجرى حَبَابُ مائِهِ مَسْجُورا[2]
على حصىً تحسبُه كافورًا / تسْمَعُ للمـاءِ به خريـرًا
ينسجُ أعلا متنهِ سطورا / نسيمُ ريحٍ قد وَنَتْ فتورا
حتى تخالَ متنَهُ حصيرًا / والشَّرْبَ قد حَفُّوا به حُضُورًا
وأمروا الساقِيَ أن يُديرا / كأسهم الأصغَر والكبيـرًا
وأعملوا البمَّ معاً والزيرا / وجاوبتْ عيدانُهم زَمِيرًا[3]
وقرَّبوا المغنِّــى النّحريــرًا / مقدَّماً فى حذقه مشهورا
فهــم يطيرون به سرورا / ولا ترى فى شربهم تقصيرا
ولا لصفوِ عيشِهِمْ تكديرًا / ولا لخلْــقٍ بينهم نظيرا

وقال إبراهيم الشعر فى موضوعات شتَّى ، منها المديح ، فقد مدح الرشيد والمأمون والمعتصم والواثق فمما قاله فى مدح المعتصم :

لاحَ بالمفرقِ منك القَتيرُ / وذوَى غُصنُ الشَّبابِ النَّضيرُ
هزئت أسماء منّى وقالت / أنْت يا ابنَ المُوصِلِىِّ كبير
ورأتْ شيبا برأسِى فصدَّت / وابنَ ستين بشيبٍ جديرُ
لا يروعنّكِ شيبى فإنّى / مع هذا الشيب حلوٌ مزيرُ

وقال من أخرى يمدحه وقد قدم من غزاة :

لأسـماءَ رسمٌ عفَا باللِّوَى / أقام رهيناً بطولِ البلَـى
تعاوره الدهرُ فى صَرْفِهِ / بكرِّ الجديدينِ حتَّى عَفَا
إذ البينُ لم تُخْشَ رَوْعاتُهُ / ولم يَعْرِفِ الحىُّ صرْفَ الرَّدى
وإذ ميعة اللهوِ تجرى بنا / وحَبْلُ الوِصالِ متينُ القُوى
فذلك دهرٌ مضى فابْكِهِ / ومن ضاقَ ذرعاً بأمرٍ بَكَى

وله شعر فى الهجاء ، قال يهجو مغنياً مدّعياً :

---

(١) الدعثور المثلم والمقطّع .
(٢) المسجور المملوء .
(٣) البمّ الوتر الغليظ ، والزير الخفيف .

إلاّ رجيلاً منهم سِكِّيرا معربدًا موضّحاً شرِّيرَا
مُدَّعياً للعلم مستغيرا يَرُوم شيئاً كاذباً مغرورا
وأنّ يكونَ عالماً بصيرًا مفضّلاً بعلمهِ مَذكورَا
غمزْتُه ولم يكُنْ صبورا فعاذَ منّى هارباً مَذْعُورا
بمعْشرٍ نحسَبُهمْ حَميرا أشدّ منه حُمُقاً كثيرا
لا ينطقُونَ الدّهرَ إلاّ زُورا حتى إذا كسّرْتُه تكسيرَا
كاللّيثْ لمّا ضَغَم الخنزيرَا ولّى انهزاماً خاسِئاً مدحورا
مُعْترفاً بذُلّهِ مَقْهُورا وكنتُ قدماً ضيغماً هصورا
مُعْتلياً لقِرْنه عَقُورا وما أخافُ الزّمنَ العثورا
إذ كنتُ بالواثِقِ مُستجيرا قد عزَّ من كان لن نَصيرا

وهجَا الأصمعي :

أَلَيْسَ من العجائِبِ أنّ قِرْداً أُصَيْمِعَ باهِليًا يَستطِيلُ
ويزعُمُ أنه قد كان يُفتِي آبا عمرو ، ويسألُهُ الخليلُ
إذَا ما قالَ قالَ أبى ، عَجِبْنَا لما يأتِي به ولما يَقُولُ
وما إنْ كانَ يدْرِي ما دَبيرٌ أبــوهُ ومـــا قَبيــلُ
وجلّلَهُ عطاءُ المُلْكِ عارًا تَزُولُ الرّاسياتُ ولا يزولُ

— ٣ —

ربيعة الرّقى[1]

(ت سنة ٢٠١ هـ)

وهو من شعراء الغزل والحب المذكورين كالعباس ، وعكاشة .

وهو ربيعة بن ثابت بن لجأ الأسدى الأنصارى الرقى .

وينسب إلى الرقة ، وهى المدينة العراقية المشهورة على الشاطىء الشرقى للفرات ، ومن بلاد الجزيرة الفراتية ، وكانت أثيرة لدى هارون الرشيد . انتقل إليها لطيب هوائها ، مفارقا عاصمته بغداد .

وقد تعلق بها الشاعر ، وقال شعراً فى وصفها هو :

حبّذا الرقة داراً وبَلَد　　بلداً ساكِنُه ممَّنْ تودْ
ما رأَيَنا بلــدةً تعدِلُهــا　　لا ، ولا أخبرنا عنها أحَدْ
إنَّهــا برِّيَّــةٌ بَحريَّــةٌ　　سورُها بحرٌ ، وسورٌ فى الجدَدْ
يسمعُ الصُّلْصُلُ فى أشجارها　　هُدْهُدُ البرِّ ، ومكّاءٌ غرِدْ
لم تُضمَّنْ بلدةٌ ما ضمِّنتْ　　من جمالٍ فى قريشٍ وأسَدْ

ولعله يقصد أن سكانها كانوا من قريش وبنى أسد .

ولد ربيعة إذا بالرقة ونشأ ، ولعله من مواليد أخريات عصر الأمويين كغيره من شعراء هذه المرحلة الأولى من الدولة العباسية . وظلّ ملازماً الرقة لم يبرح فيما يظن حتى توفى بها سنة ٢٠١ هـ أو سنة ١٩٨ هـ .

وتعلّم فى بلده ، وعرف الكتابة ، وروى الشعر .

وكان ربيعة أعمى ، ذكره صاحب نكت الهميان ، ولا ندرى متى فقد البصر ، أو ولد كذلك أم عمى فى صباه أو شبابه . ويظنُّ أنه فقد بصره كبيراً لما نستشف من بعض شعره فى الغزل .

ولم يكن ربيعة من الموسرين ، بل عاش عيشة تقرب من الحاجة والعوز

(١) راجع ترجمته فى الأغانى ١٦ /١٨٩ ونكت الهميان ١٥١ ، ومعجم الأدباء ١١ /١٣٤ ووفيات الأعيان ٥ /٣٦٥ ، وجمع شعره الدكتور يوسف حسين بكار — طبع بغداد سنة ١٩٨٠ .

وعمل حمّالاً لكسب القوت . وقدّم من شعره إلى الممدوحين ليكسب بعض المال على أنفة منه ، وعدم رغبة فى بذل ماء الوجه بالسؤال بالشعر .

وعلى أنه كان فى شخصه إنساناً حسن العشرة خفيف الروح . وجرى فى شبابه مطلق العنان ، لا يعوقه معوق فى تتبع لذاته ، وورود مطارح لهوه . مما قد يبدو أحياناً على شعره من معارضة لبعض القيم والتقاليد ، وأصول الدين ومقتضياته .

ويعترف أنه مغرمٌ بالغوانى ، شديد التعلق بهن ، إذ يقول :

أيها النـــــاس ذرونى   لستُ من أهْلِ الفلاح
أنـــا زيـــرٌ للغوانـــي   وأخــــــو لهوٍ وراح

ويعاقر الخمر مع أصفيائه وصواحبه :

قد سقتنـــى وسقتـــهُ   قينـــةٌ ذاتُ عِقَـــاصِ
فى أباريـــقِ لجيـــنٍ   لا أباريـــقِ رَصاصِ

ويصرح بالعصيان كغيره من المستهترين والزنادقة فيقول :

ولدينا أدكنُ الجـــــلدةِ كالزنجـــىّ شـــاصى
ذاك من معصية الله   وهَمِّى فى المعاصـــي

ولا نجد كما أشرنا من مديح له فى خلفاء عصره ، إلا أنه أتصل بالمهدى والرشيد فى مناسبات غير المدح . ومدح بعض رجالات العصر كالعباس بن محمد الذى اشتهر عند بعض الشعراء بالبخل فهجوه ، ومنهم الرقى .

ويبدو أنه الشاعر لم يكن من المكثرين وبخاصة فى المديح. بل كان جلّ شعره فى الغزل الذى اشتهر به ، وكان مهيأ له .

ولمّا كان معظم ما وصلنا من شعره فى الغزل فسنقصرُ الحديث عليه . وغزله فى المرأة ، وهو غزل حضرىٌّ ، وليس شعره فى المرأة شعر هوىً ووجد ، بل هو شعر تحبُّب وتظرُّف ، ومحاولة لاستمالتها وكسب ودّها والتقرب إليها بحلو الحديث ، وجمال الأوصاف .

ولم يقصر شعره على واحدة كالعباس فى فوز أو عكاشة العمىّ فى صاحبته .

بل كان يتغزل فى اكثر من امرأة ، وكانت صاحباته من الجوارى ، واشهرهنّ رخاص التى قال فيها بيته المشهور :

أنـا للـرحمن عاصى لجنـونى برخـاص

ومنهن « داح » و « عثمة » و « ليلى » . ومما نقرأ من شعره فيهن نعلم أن كلّ واحدة منهن فى بلد ، فهن شامية ، وعراقية ، ورخاصُ بغدادية كرخية لقوله :

ورخاصُ الكرخ ظبيٌ لم أنَلْ منه افتراصى

وغزل ربيعة مما وقع عند ابن المعتز موقعاً حسناً ، فوصفه بأنه يفضل فيه شعراء أهل زمانه جميعاً[1]، ويرجح على كثير ممن قبله. قال: وما أجد أطبع، ولا أصح غزلاً من ربيعة . ويعقب على قصيدته فى رخاص بقوله : « فهذا كما ترى أسلسُ من الماءِ ، وأحلى من الشهد »[2] . ويقول فى هذه القصيدة :

أنـا للـرّحمنِ عَاصِي لجُنونـي برخـاصِ
ثمَّ للنـاسِ جميعـاً مَن أدانٍ وأقـاصِي
ورخاصُ الكرخ ظبيٌ لم أنـلْ منـه افتـراصِي
ولقـد طالَ بأبـوا بِ الخريمى اقتصاصِي[3]
طمعاً فى صيدِ ظبيٍ ذى شِماسٍ ومِلاصِي[4]
صيدُه أعْسَرُ من صَيْد الضـوارِي والقـلاصِ
يا رخاصاً . يا رَخاص الكـرْخ ، يا ذاتَ العِقـاصِ
والثنايا الغُـرِّ كالبرق تلألا فى النّشـاصِ[5]

حتى يقول :

قلتُ شعراً ينزل الأعصـم من رأسِ الصـياصِي
والغوانـي مُغْـوِيـاتٌ مولعـات باقتنـاصـي

(١) طبقات ابن المعتز — طبع دار المعارف ١٥٩ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٦١ .
(٣) من اقتصاص الأثر أى اقتفاؤه .
(٤) ملاص : إفلات .
(٥) النشاص : السحاب المرتفع .

قد تواصيْنَ بحبّى حَبّذا ذاك التواصي

وحديث ربيعة هنا عن أن الغوانى « مولعات باقتناصه » حديث يذكر بعمر ابن أبى ربيعة بين الغزلين ، ويذكر ببعض ما قال العباس بن الأحنف فى إعجابه بنفسه وأن الغانيات يطلبنه . وهو حديث يتردد أحياناً عند بعض الغزلين وليس الحديث الشائع فى غزل العرب ، فالرجل دائما هو الطالب للمرأة ، يتصيدها كما ذكر ربيعة فى أول كلامه . ويتم هذا الحديث الغريب عن طلب المرأة لحبه فيقول :

قد تواصين بحبّى حبّذا ذاك التّواصي

ويقول ابن المعتز : ومما يُستحسن له قوله :

صَاح إنّى غيرُ صَاحَى أبداً من حُبّ داج
صارَ قَدْحاً حُبُّ داح فى فؤادى المستباح
جنح القَلْبُ إليها إنّ قلبى ذو جُنَاح
وعَصَى فى حبّ داح كلّ لوّامٍ ولاحي
ليتَ لى رسلاً من الجنّ إليها والرّياح
تبلغ الحاجاتِ عنّى ثم تأتى بالنجاح
داح داحُ حِبُّ نصبى آح من حُبّك آح
أنا والله قتيل لكِ من غير جراح

كلام فيه لين ، شبيه بكلام المخنثين . هو علامة من علامات ما بلغه قول الشعر من سهولة ، ورقة بعدت به عن معدنه الأول معدنى الجزالة . وهذا من آثار الحضارة الجديدة ، والبيئة التى انتقل إليها الشاعر العربى بعيداً عن موطن الشعر فى نجد والحجاز .

ومع هذه السهولة ، والليونة فى اللفظ والإيقاع ، وتراكيب العبارات ، فإن الشاعر لا يبتعد كثيراً عن محفوظه من التراث الشعرى عامة ، ومن تراث شعر الغزلين خاصة .

وغزلُ ربيعة فيه إباحة وكشف ، وحسّية قريبة من غزل الحسّيين من شعراء البصرة أمثال بشار بن برد إذ يقول :

قد تجشمتُ إليها هولَ ليلٍ ونباج
فخلونا بفتاةٍ غادةٍ غرثى الوشاج
فلبست العكن البيض من الخودِ الردّاح
ثم لمّا صاح ديكٌ قبل إبان الصّباح
قلت : صح ياديكُ ألفاً ليس ذا وقتُ البراح
أو أرى الصُبح وإن كا نَ لفى الصبح افتضاحي

يقول ابن المعتز[1] : وهذا أطبع ما يكون من الشعر ، وأسهل ما يكون من الكلام » .

هذا الكلام السهل المطبوع غير المتكلّف ، يستدعى كثيراً من معانى الشعراء القدامى من قول امرىء القيس فى لاميته :

سَمَوْتُ إليها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال

إلى رائية عمر بن أبى ربعة :

أمِنْ آل نعم أنت غادٍ فمبكر غداة غدٍ أمّ رائح فمهجّرُ

طاقت معانى الشاعرين وغيرهما فى ذهن ربيعة فاقتنصّ منها أطيافاً أعاد عرضها فى هذا المعرض السهل المطبوع .

وطافت ربيعة للمرأة النموذج عنده هى الصفات التقليدية المعروفة للمرأة عند قدامى الغزلين ، فهى قضيب على كثيب ، تمشى الهوينى ، تضىء العشىّ كمصابيح راهب ، أو شمس تطل من وراء السحاب ...

بدتْ منك الرّوادِفُ مُشرفاتٍ روَادِفُ لم تدعْ للناسِ دينَا
وقد أعطاكِ ربُّكِ فاشكريه جمالاً فوق وصف الواصفينا
فما الشمسُ المضيئة يومَ دَجنٍ بأحسَنَ منكِ يوم تبذّلينا

ويقول :

إذا رُمْتِ القيامَ نخالُ دِعصاً يُمانِعُكِ القيامَ فتقعُدينَا
إذا صَلّيتِ ثم سجدت قلنا ألا ياليتَها سَجدَتْ سِنينا !!.

(١) طبقات ابن المعتز ١٦٢ .

ألا تراه يعبث بهذه الألفاظ من القاموس الاسلامى ؟.. فيظنه بعض من يقرأ هذا رقيق الدين . ويضاف إلى هذا قوله :

فلو أنَّ الملوك رأوك يوماً لخرُّوا من جمالك ساجدينا

ويستخدم هذا التركيب القرآنى مبالغاً ، أهى غواية الشعراء ؟!.

وقد أكثر فى هذه القصيدة من مثل هذه العبارات من مثل قوله أيضا :

فلما أن رآك الناسُ قالوا تعالى الله ربُّ العالمينا !

ويفتتح ابن المعتز قصيدة أخرى له بقوله : « ومما يستملَحُ من شعره وإن كان شعره كله مليحاً عذباً ، مطبوعاً ، هنياً »[1] :

حمامةُ بلِّغى عنى سلاماً حبيباً لا أطيق له كلاما

فيدخل عنصر الحمام رفيق العشاق ، لكنه يغير دوره هنا ، فبدلاً من مدحه ومشاركته المحب الشوق إلى المحبوب المفارق يجعله الرق رسولاً إلى الحبيب .

ويشير إلى أسلافه من الغزلين فيقول :

كرامِ الناس قبلى قد أحبُّوا كرائِمهم وأحببنَ الكِرامَا
جميلٌ والكثيِّرُ قد أحبَّا وعروةُ من هوىً لاقى حمَامَا
همُ سنُّوا الهوَى والحبَّ قبلى وما أُلفِى لهُمْ فى النَّاسِ ذَاما

ويعود إلى الحمام يرجو أن يحمله الرسائل منه ومنها فيقول :

ويا ليت الحمام مسخَّراتٍ لنرسِلَ فى رسائلنا الحماما
لعلَّ حَمامةً تُهدى إلينا كتاباً منك نجعله إماما
وتبلغك المحبةَ من محبٍّ أحبَّكِ قلبُه يفعاً غلامَا

ومن أن شعر ربيعة بهذه السهولة ، إلا أنه لم يكتب له السيرورة والانتشار ويقول ابن المعتز إن شعره يرويه الخواصّ ، « لأن شعر ربيعة لم يكثر فى أيدى العوام » .

وختام القول فى ربيعة أنه شاعر حضرىٌّ مثقف ثقافة عربية إسلامية خفيف الروح حلو النفس ، استخدم ثقافته فى فنه الذى عرفنا ملامحه .

(١) طبقات ابن المعتز ١٦٣ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٦٥ .

— ٤ —

أشجع السُّلَمِى

هو أشجع بن عمرو السُّلمى ينتمى إلى سُلَيم من قيس عيلان. ولد باليمامة من نجد بين أهل أمّه ، وكان والده يسكن البصرة ، وبعد وفاته عادت الأم بابنها أشجع إلى البصرة لتقيم بها مع ابنها .

وكانت ولادة أشجع غالباً فى أخريات الدولة الأمويّة أو أول عصر العباسيين ، وتأدب بالبصرة ، وأخذ على علمائها ، وصحب بعض شعرائها .

وفد إلى بغداد وقصد البرامكة ، واتصل بالرشيد ، ولزمه وصار من جلسائه . وصحبه إلى الرّقة سنة ١٨٠ هـ .

وتروى أخباره عن الصولى[١] أنه حين أمّ الرشيد بالرّقة كان أحدث من أنشد الرشيد سناً ، لعله كان فى عقد الثلاثينات حينئذ .

وكان حين أمّ الرّقة ينزل فى جماعة من بنى سُلَيم . قال أبو الفرج « ثم خرج أشجع إلى الرَّقة والرشيد بها فنزل على بنى سُلَيم فتقبلوه ، وأكرموه » .

وكما تروى الأخبار فإنه اتصل أولاً فى بغداد أو الرّقة بجعفر ابن يحيى البرمكى الذى أوصله إلى الرشيد .

ومن ممدوحيه من العباسيين جعفر بن المنصور والد زوج الرشيد وعمُّه . وكانت زبيدة زوج الرشيد وابنة جعفر تبرّه لعلاقته بأبيها .

كما اتصل أشجع بالفضل بن الربيع وزير الرشيد ، والمقرب من زبيدة والأمين . وكان كما عرفنا يتعصب للعرب على الفرس . وقد يكون اتصاله بالفضل وتوثق صلتهما بعد نكبة البرامكة سنة ١٨٧ هـ فقد روى أنه استرضى الرشيد له لمعرفة الرشيد بما كان بين أشجع وجعفر البرمكى قائلاً : « هو أشعر أهل هذا الزمان ، وقد اقتطعه عنك البرامكة » .

وعمل أشجع على التقرب إلى الرشيد واكتساب ودّه ، فانشده قصيدة مديح بالغ فيها ، وأجاد .

وكان أشجع السلمى قد ذكر عقد الرشيد لابنيه الأمين والمأمون من بعده ولم يُعرف موقفه بعد موت الرشيد وتولى الأمين ، ولم يعرف موقفه من الأمين ، ولا من محاولته خلع أخيه .

فلم تذكر الأخبار شيئاً عنه طوال خلافة الأمين ، وتظهر أخباره مرةً أخرى فى عهد المأمون يمدح قائده طاهر بن الحسين ؛ ثم ليرثى بعد ذلك على بن موسى الرّضا الذى كان المأمون قد شرع فى توليته العهد من بعده .

وعليه فيمكن أن نعتبر وفاة أشجع السلمى كانت فيما بين ٢٠٠ و ٢٠٥ هجرية . وإذا فقد عاش فترة من الزمن فى خلافة المأمون ، إلاَّ أنا لا نجد له مديحاً فيه ، وهذا يدعونا إلى التساؤل : ماذا منع أشجع عن مديح المأمون أم أنه مدحه ولم يصلنا شعره فيه ؟!

أكان هذا الامتناع لعدم إقبال المأمون على الشعراء ، وزهده فى المديح بينما كان أكثر إقبالاً على العلماء ، وحبًّا فى مجالستهم ، ومناظرتهم ؟!.. مما زهّد أشجع فى قصده ، خاصة وأنه كان قد بلغ من السنّ مبلغا يجعله يثقل عن النهوض للمدوحين .

ويدعونا الحديث عن أشجع إلى التوقف عند عقيدته لأنها قد تكشف بعض مواقفه ، وتوجهاته فى شعره ، وتنبىء عما يختبىء أحيانا وراء كلامه من معان .

لقد ذكر أبو الفرج أشجع السُّلمى واعتبره من شعراء الشيعة ، وإن تحفظ فى عبارته . وشعر أشجع فى مجمله لا يكشف عن تشيّع صريح ، كما أنه لا يكشف عن عصبية صريحة للعباسيين ، فلم يرد فى شعره تبرير لتوليهم الخلافة كما جاء فى شعر مروان على سبيل المثال .

ولعله كان شيعيَّ الهَوى أو ميالاً للطالبيين ، ويكتم هذا الميل خشية وتقيَّة كما كان يفعل معظم الشيعة .

وتعتبر مدائحه فى الرشيد من أجود شعره . وقد أسَّسَها على أحقية بنى العباس ، ومسئولياته الجسام التى نهض بها كحرب الروم ، وتأمين الدولة من الخارجين ، والعمل على العدل بين الرعية ، واصلاح أحوالهم .

ومن أشهر قصائده فيه هذه الميمية :

قصرٌ عليه تحيةٌ وسلامُ   نثرت عليه جمالَها الأيامُ
فيه اجتلى الدنيا الخليفة والتقت   للمُلْكِ فيه سلامةٌ ودوامُ

حتى يقول :

أدنتك من ظلّ النبىّ وصيَّةٌ   وقرابةٌ ، وشجت بها الأرحامُ
برقت سماؤك فى العدوّ فأمطرت   هاماً لها ظِلُّ السيوف غمامُ
رأىُ الإمام وعزمُه وحسامه   جندٌ وراء المسلمين قيامُ

إلى آخر هذا المديح .

ونلاحظ فى هذه الأبيات ما يميل إليه المحدثون من إعادة عرض المعانى القديمة والتقليدية فى ثوب جديد من اللفظ .

ويجرى لسانه فى بعض شعره بلفظ فارسى ، بحكم نشأته بالبصرة واقامته ببغداد والرّقة ، كما فى قوله[1] :

ليس للحاجات إلا   من له وجهٌ وقاخ
ولسانٌ طِرْ مذانٌ   وغدوٌ ورواح

وقد أعجب بعضهم بهذا التشكيل اللفظىّ المحدث فى مدح الرشيد ، والذى عمّ بعد من البديع (فن التطريز) : قال فى مدح الرشيد :

وعلى عَدُوِّكَ ياابن عمّ محمدٍ   رصدان ضوءُ الصُّبْح والإظلامُ
فإذا تنبَّهَ رعته ، وإذا هدا   سلَّتْ عليه سُيُوفُكَ الأحلامُ

ومما أعاد فيه بناء المعانى التقليدية فى تشكيل جديد من اللفظ قوله :

غداً يتفرقُ أهل الهَوى   ويكثر باكٍ ومسترجعُ
وتختلِفُ الأرض بالظّاعنين   وخوصًا تشدُّ ولا تُجْمَعُ
وتَفْنَى الطلُولُ ويبقى الهوى   ويصنع ذو الشوق ما يصنَعُ
وأنت تبكىّ وهم جيرةٌ   فكيف يكونُ إذا ودَّعوا

(١) الشعر والشعراء ٢ /٧٥٩ .

— ٥ —
الحُسين بن الضَّحاك
(١٥٥ — ٢٥٠ هـ)

شاعرٌ بصريٌّ ، ينتسب إلى قبيلة باهلة العربية النجدية فى عصر ما قبل الإسلام وانتقل جماعة من بطونها إلى العراق وفارس ، وقيل هو باهليٌّ ولاءً ، لا صليبة بصريُّ المولد والمنشأ .

قال أبو الفرج[١] : « من شعراء الدولة العباسية ، وأحد ندماء الخلفاء من بنى هاشم ويقال إنه أولُ من جالس منهم محمداً الأمين . شاعرٌ أديبٌ ظريفٌ ، مطبوع حسنُ التصرف فى الشعر ، حلو المذهب . لشعرِه قَبولٌ ورونقٌ صافٍ » .

عاصر الحسين جماعة من البصريين كالحسن بن هانىء أبى نواس ، وعمّر بعده حتى قارب المائة عام ، وتوفى فى عصر المتوكّل ، ويكون بذلك قد عاصر ستاً أو أكثر من خلفاء العباسيين فى العصر الذهبيّ للدولة .

أقام شطراً من شبابه بالبصرة ، واتصل بعلمائها وشعرائها ، وجالسَ بعضَهم ممن كانوا يعرفون بالخلعاء وعصبة المجان .

وعرف الحسين بالظرف ورقة الشعر ، وذهب إلى بغداد زمن الأمين فتقدم إليه يمدحه ، فأحسن استقباله ، وقرَّبه ، واتصلت العلاقة بين الخليفة والشاعر حتى صار نديمه وجليسه ، يصاحبه أبو نواس ، وكانا متقاربين فى الشعر والطباع . حتى إنَّ بعض شعر الحسين نسبَ إلى ابن هانىء لأنه أكثر شهرة .

وظلت صحبة الشاعر للأمين حتى قامت الفتنة بينه وأخيه المأمون ، وحصار بغداد ومقتل الأمين ، فجزع عليه الحسين جزعاً شديداً حتى قيل إنه خولط فكان ينكر مقتله لمَّا بلغه ويدفعه ، ويقول إنه مستتر ، وإنه قد سيظهرُ لدعاته فى الأمصار لمراجعة أمره والوفاء ببيعته[٢] .

---

(١) الأغانى ٧/١٦٣ ، وقد جمع شعره وحققه عبد الستار فراج وطبع بدار الثقافة ببيروت سنة ١٩٦٠ م .

(٢) المصدر نفسه ص ١٦٩ .

وعاد الحسين إلى البصرة ، وبقى بها بعد حضور المأمون إلى بغداد حتى بعث إليه يستدعيه . قال أبو الفرج : « .. قال محمد بن عباد : قال لى المأمون ، وقد قدمت من البصرة : كيف ظريف شعرائكم وواحدُ مصركم ؟ . قلت : ما أعرفُه . قال : ذاك الحسين بن الضحاك أشعر شعرائكم ، وأظرف ظرفائكم ، أليس هو الذى يقول :

رأى اللُّه عبَد الله خير عبادِه فملَّكَهُ والله أعلمُ بالعَبْدِ

قال المأمون : ما قال فِيَّ أحدٌ من شعراء زماننا بيتا أبلغ من بيته هذا .

ويبدو أن الحسين أراد أن يتقرب إلى المأمون بعد انتصاره ، وهو يعلم مدى علاقته بأخيه الأمين . فنظم قصيدةً فى مدحه منها البيت المذكور لعلها تصل اسماع المأمون فيرضى عنه . وهذا ما حدث .

فكتب المأمون إلى عامله بالبصرة ليعطيه ثلاثين ألف درهم ، وهكذا عاد الحسين بن الضحاك إلى بغداد يمدح المأمون ، ويكون من جلسائه . ثم يتصل من بعده بالمعتصم ، بعد أن عاود الاقامة بالبصرة بعد فترة من الجفوة فى أخريات حياة المأمون حدثت بين الخليفة والشاعر .

وكتب المعتصم يستقدم الحسين . فقدم ومدحه بقصيدة يقول فى مطلعها :

هلا سألت تلذُّذ المشتاقِ ومَنَنْتَ قبل فراقِهِ بتلاقِ

ويقول مادحاً :

خيرُ الوفود مبشِّرٌ بخلافةٍ خَصَّتْ ببهجتها أبَا إسحاقِ

فلما أتمَّها قال له المعتصم: أدن منى، فدنا منه، فملأ فمه جوهراً من جوهر كان بين يديه. وقد عدَّ العلماء هذه القصيدة من مقدّم المديح فى عصره . وقيل إن المعتصم أضاف إلى الجوهر جائزة سنيَّة ،وأقرله لكلّ بيت بألف درهم[1] .

وجاء الواثق ، فلما بويع دخل عليه الحسين فانشدهُ مدحةً يقول فيها راثياً المعتصم ومهنئاً الواثق :

---

(١) الأغانى ٧ /١٧٣ .

ألم يرعْ الإسلامَ موتُ نصيره بَلى حُقَّ أن يرتاعَ من ماتَ ناصِرُهْ
سيسليك عمَّا فاتَ دولةُ مُفضِلٍ أوائله محمودةٌ وأواخِـرُهْ
ثنى الله عطفيه ، وألّف شخصه على البرّ مذ شدَّتْ عليه مآزِرُهْ

فلما سمع الواثق قوله قال : إن كان الحسينُ لينطِقُ عن حُسنِ طوِّية ، ويمَدحُ بخلوصِ نيةٍ ، ثم أمر بأن يعطى لكل بيت قاله من هذه القصيدة ألفَ درهم .

واعجبته الأبيات حتى أمر فصنعت فيها عدة ألحان .

وظلَّ الحسين يلازم الواثق فى مجالس علمه، وفى رحلات صيده، يستنشده فينشده وفى مجالس لهوه وطربه ، فيتغنى المغنون بنظمه . وروى أبو الفرج أنه استمع إلى إحدى قصائده فى رحلة صيد يقول فيها :

خُلِقْتَ أمينَ اللَّهِ للخلْقِ عصمةً وأمناً ، فكلٌّ فى ذراك وظلّكا
وثقتَ بمن سمَّاك بالغيب واثقا وثبَّتَ بالتأييد أركان مُلْككا
فأعطاك معطيك الخلافة شكرَها وأسعدَ بالتَّقوَى سريَرة قلبكا
وزادَك من أعمارنا غير مُنَّةٍ عليك بها أضعافَ أضعاف عمركا
ولا زالتْ الأقدارُ فى كلِّ حالةٍ عُداةً لمن عاداكَ سلمًا لَسلْمكا
إذا كنت من جَدْوَاكَ فى كلِّ نعمةٍ فلا كنتُ إن لم أُفْنِ عمرى لشكركا

فطرب الواثق فضرب الأرض بمخصرة كانت فى يَده ، وقال : للَّهِ درُّك يا حسين ما أقرب قلبك من لسانك . فقال : يا أمير المؤمنين جودُكَ يُنْطقُ المفْحَمَ بالشعر، والجاحِدَ بالشُّكر . فقال له : لنْ تنصرف إلا مسرورا ، ثم أمر له بخمسين ألف درهم .

وظل فى صحبة الواثق ومنادمته ، حتى توفى الواثق ، واتصل من بعده بالمتوكل وقد كان يتمثل بشعره، فقد روى أبو الفرج(١) عن علىّ بن الجهم أنه دخل على المتوكل وفى يده غصنُ آسٍ ، وهو يتمثل بقول الحسين :

بالشطِّ لي سَكَنٌ أُفدِّيه من سكنٍ أهدَى من الآس لى غُصنين فى غُصُنِ
فقلتُ إذ نُظِمَا إلفين والْتَبسَا سَقْياً ورعياً لفألى فيكُما حَسَنِ

(١) الأغانى ٧ /١٨٩ .

فالآسُ لا شكَّ آسٍ من تشوّقنا شافٍ وآسٍ لنا يَبقى على الزّمنِ
أبشــرتُمانِى بأسبابٍ ستجمعُنا إن شاء ربّى، ومهمــا يَقضِهِ يكُــنِ

فلما فرغ المتوكل من إنشاد الأبيات قال لابن الجهم : لمن هذا الشعر يا علىّ ؟ قال : فقلتُ للحسين بن الضحّاك يا سيدى . فقال لى : هو عندى أشعر أهل زَمانِنا . وأملحهم مذهباً ، وأظرفهم نمطاً ، فقلتُ وقد زاد غيظى : فى الغزلِ يا مَولاى !. قال : وفى غيره ، وإن رغمَ أنفُكَ ومتَّ حَسَدا .

وكان الحسين ينادم المتوكل وهو فى سنّ كبيرة ، وقد ضَعُفَ . ويحضر معه بعض الشعراء والمنادمين ، والكتاب والوزراء .

ومما أعجب الخلفاء والكبراء من الحسين أنه كان صادق التعبير عن حياة الترف ، لطيف الغزل رقيقة ، حلو الكلام فى الخمر والشراب ، من مثل قوله فى الغزل بالمذكر :

وكالوردة الحمراءِ حَيّى بأحمرٍ من الوردِ يمشى فى قراطِق كالوردِ
له عبثاتٌ عند كلّ تحيّةٍ بعينيهِ تستدعى الحليم إلى الوجْدِ
تَمنّيْتُ أن أُسْقَى. بكفّيهِ شَرْبةً تُذَكّرنى ما قد نسيتُ من العَهْدِ
سقَى الله دهراً لم أبت فيه ليلةً خلياً، ولكن من حبيبٍ على وعْدِ

وقد أعجب المتوكل بهذه الأبيات ، وأعطاه على كل بيت مائة دينار . وزادها عن كل بيت ألف دينار بشفاعة محمد بن عبد الله بن طاهر ، وكان شاعراً أديبا .

وفى خبر لأبى الفرج أن أبا نواس قال لحسين : أنت أشعر أهل زمانك فى الغزل .

وشهد له ثعلب بتفوقه فى معانيه حين أنشد :

لا وحُبّيك لا أصــافحُ بالدمــع مَدْمعَــا
من بكى شجوَهُ استرا حَ وإن كـانَ مُوجَعَا
كبدى من هواك أَسـقَـمُ من أن تقطّعَا
لم تدعْ سورةُ الضّنَى فِيَّ للسُّقْمِ موضعاً

قال ثعلب : ما بقى من يحسنُ أن يقول مثل هذا .

وكذلك شهد له على بن العباس الرُّومى . قال : حسين بن الضحَّاك أغزلُ النَّاس وأظرفهم حين يقول :

يا مستعير سوالف الخشِف اسمعْ لحلْفَةِ صادق الحلْفِ
إن لم أصخْ ليلى وياحَرَبى من وجْنتيْك وفاترِ الطرْفِ
فحمدتُ ربِّى فضل نعمتهِ وعبدتُه أبداً على حَرْفِ

وكان هو وأبو نواس يتشابهان فى الشعر ، حتى إن شعرهما اختلط ، وكان كلٌّ منهما يتعصبُ للآخر ، وقد تقاربَا فى الطباع ، واصطحبا زمناً بالبصرة وبغداد وتوفى أبو نواس قبل الحسين ، وعُمِّر الحسين بعده بزمن طويل حتى هرم . وقد رثاه الحسين(١) .

ومدَح الحسين من اتصل بهم من الخلفاء على ما ذكرنا من مدحه للأمين والمأمون والمعتصم والواثق ، كما مدح جماعة من الوزراء كالحسن بن سهل قال :

أرى الآمال غير معرِّجاتٍ على أحدٍ سوى الحسن بن سهلِ
يبارى يومُه غدَه سماحاً كلا اليومين بانَ بكلِّ فضلِ

ويجرى معظمه على هذا النمط السهل الحضرىّ الذى لا يتوعر فيه ولا يتقعَّر ولا يشوبه بلفظ أو معنى بدوىّ .

ومن رقيق شعره ، عذب اللفظ قوله متغزلاً ؛ يحكى حُلماً مع حبيب :

تألَّفتُ طيفَ غزالِ الحرَمْ فواصَلَنى بعد ما قد صَرَمْ
وما زلتُ أقنعُ من نيْلهِ بما تجتنيه بنَانُ الحُلُمْ
بنفسى خيالٌ على رِقْبةٍ ألَمَّ به الشَّوقُ فميا زَعَمْ
أتانى يجاذبُ أردافَهُ مِنَ البُهْر تحتَ كسُوفُ الظلَمْ
تمجُّ سوالِفُهُ مِسْكَةً وعنبرةً ريقُه والنَّسَمْ
تضَمَّخ من بعد تجميره فطاب من القرْنِ حتَّى القَدمْ

(١) الأغانى ٧ /٢٣٢ .

يقــولُ ونازعتُــه ثوبَــه على أن يقولَ لشيءٍ نعمْ
فغضَّ الجفونَ على خَجْلَـةٍ وأغـرضَ إعـراضَـةَ المحتشِمْ
فشبَّكْتُ كفِّىَ على كفِّهِ وأصْغيتُ أَلْثُمُ دُراً بفـمْ
فَنهْنهنـى دَفْـعَ لأمـوبِسٍ بجدٍّ ، ولأمطِمع مُغْتَـزِمْ
إذا ما هممتُ فأدنيتُـــــه تثَنَّى وقَال : لِي الويلُ لِمْ
فما زلتُ أبسطُهُ مازحـاً وأفرِط فى اللهو حتَّى ابتسمْ
وحكَّمَنِى الرِّيـم فى نفسهِ بشيءٍ ، ولكنـه مُكْتَتَـمْ
فواهاً لذلِكَ من طارقٍ على أنَّ ما كان أبقَى سَقَمْ

وكان الحسين يرتادُ كغيره من الشعراء المحدثين ، ومن عرفوا بالغزل والخمر بعض الأديرة للشراب فى أيام اللهو والمواسم . يقول فى دير مديَان قرب بغداد :

يا ديرَ مِدْيَان لا عُرِّيتَ من سكنٍ هيَّجتَ لى سقماً ، يا ديْرَ مديَانا
هل عند قسِّكَ من علم فيخْبِرَنا أم كيفَ يُسْعِفُ وجْهُ الصبرِ من بانَا
حُثَّ المُدامَ فإنَّ الكأسَ مُتْرعةٌ مما يهيج دواعى الشوق أحيانا
سقياً ورعياً لكرخايَا وساكِنها وللجُنينةِ بالرَّوحاءِ من كانا

ومن وصفه قال فى رحلة بحرية على نهر دجلة إلى ممدوحه : الواثق بسَامَرَّا :

إلى خازنِ الله فى خلْقِهِ سراجِ النهار ، وبدْرِ الظلَمْ
رَحلْنا غرابــيبَ زَفَّافــةً بدجلَةَ فى موجها الملتطِمْ
إذا ما قصدنا لِقاطُولِهـا ودُهْـمُ قراقيرِهَا تصْطَـدِمْ[1]
سكناً إلى خيرِ مسكونَـةٍ تيمَّمهـا راغِبٌ من أَمَمْ
مُبَاركَـــةٍ شادَ بنيانَـهـــا بخير المواطِنِ خيـرُ الأُمَمْ
كأنَّ لها نشرَ كافـــورةٍ لبردِ نداهَا وطيبِ النَّسَمْ
كظهرِ النَّديمِ إذا ما السَّحا بُ صابَ على متنِها وانسجَمْ
....
وللنون والضَّــبِّ فى بطنِها مراتـعُ مسكونـةٌ والنَّعَـمْ

(١) القاطول : اسم نهر مقطوع من دجلة حفره الرشيد قرب سامرّاء والقراقير : ضربٌ من السفن الطويلة .

غـدَوْنَ على الوحش مغترّةً رَواتِـعَ في نورها المنتظـمْ
ورحتُ عليها وأسرابُهـــا تحوم بأكنافهـــا تبـــتسِمْ

وله في وصف الربيع في شهر نيسان :

ألسْتَ ترى الصبحَ قد أسفَرا ومبتكِرَ الغيث قد أمطَرا
وأسفرتْ الأرضُ عن حُلّةٍ تُضَاحِكُ بالأحمرِ الأصْفَرا
ووافاك نيسَانُ في وردِهِ وحَثّكَ في الشرب كي تسكرا

ويصف مجلس غناء في أبيات مشهورة غنت فيها فريدة جارية الواثق . يقول فيها :

يا حانة الشطّ قد أكرمت مثوانا عودي بيوم سرورٍ كالذي كانا
لا تُفْقِدينَا دُعاباتِ الإمام ولا طِيب البطالةِ إسراراً وإعلانا
ولا تخالعنا في غير فاحشةٍ إذا يُطَرِّبُنَا الطنبورُ أحْيَانا
وهاج زمرُ زُنامٍ بين ذاك لنا شجواً، فأهدَى لنا روحاً وريحانا

ولسهولة الشعر وعذوبته تغنى بكثير منه المغنون والمغنيات . وقد أشار إلى ما تغنى به أبو الفرج وممن لحنه الواثق نفسه .

الباب الخامس
أصحاب البديع

ـ ١ ـ

مسلم بن الوليد (صريع الغوانى)
(١٤٠ هـ ـ ٢٠٨ هـ)

كوفى المولد ، نشأ بها وتوجه الى بغداد فى شبابه ، وكان الشعر بضاعته ، فأخذ يرتاد مجالس الكبراء وندوات الوزراء والقادة من أمثال البرامكة ويزيد بن مزيد الشيبانى .

قال المبرد : « وكانت البرامكة ويزيد بن مزيد ومحمد بن منصور بن زياد يرونه ويتعطفون عليه ، ويتفقدون أحواله » .

ولم يمدح الخليفة ، لأنه فيما يبدو لم يستطع بلوغ مقامه ، ولم يكن له حظ المثول بين يديه منشدا كغيره من الشعراء ، بل لأنه رأى من هو أقل مكانة منه يحظى بالمكانة فى بلاط الخلافة من دونه .

وقال المبرد : « إن مسلما كان يمدح من دون الخليفة ، ولا يطمع فيه ، فكان يقول : أرى نفسى تذوب حسرات من أنه يحوى جوائز الخلفاء من لا يوازينى فى أدب ولا يماثلنى فى نسب ، ولا يصلح أن يكون شعره خادما لشعرى » .

واستطاع مسلم أن يبلغ مقام الرشيد وأنشده واحدة من روائعه ومنها قوله :

وما العيش إلا أن تروح مع الصبا   صريع حميا الكأس والأعْيُن النجل

وقيل إن الخليفة لقبه بصريع الغوانى .

وكان الشاعر غزلا محبا للهو ومجالسه ، ينفق ماله فى سبيل متعه مع أصحابه

وجلسائه . يقال أنه « كان اذا كسب مالا جمع من أصحابه فلم يخرج من بيته أكلا وشربا ولعبا ولهوا حتى يبقى مما كسب قوت شهر فيظهر » .

واشتهر بهذا باللقب الذى عرف به بين الشعراء ، وربما كان ما نسبه إليه الرشيد تحصيلا لواقع ما عرف به بين الناس ، أو لما تردد كثيرا في شعره ، وروى أنه علل اللقب أيضا مؤكدا ذاك المعنى :

إن ورد الخدود والأعين النُّجْلِ   وما فى الثغور من أقحوان
واستوداد الصدغين فى أوضح   الخد وما فى الصدور من رمان
تركتنى لدى الغوانى صريعا   فلهذا أدعى صريع الغوانى

ومع اشتهارِ مسلم بهذا اللقب فلم يبلغ فى تهتكه ومجونه مبلغ غيره ممن سمعنا عنهم من معاصريه أمثال بشار بن برد وأبى نواس ويحيى بن زياد . ووالبة .. وغيرهم .

ونقل عن مسلم بن الوليد أنه لم يكن يجهر باللهو ولم يتهتك تهتك غيره ، وان شدا فى شعره بالخمر والنساء .

ولقد كان الوقار ملازما له ، والتأَدّبُ من سماته . ولعل شخصيته تلك قد انعكست على شعره ، فقد عرف بالتوقر فيه ، والتصنع ، والتكلف أحيانا .

وأعد مسلم نفسه فى الشعر إعداد طيبا ، حفظ كثيرا من شعر العرب ، وروى لفحولهم أمثال امرىء القيس وزهير والنابغة ولبيد وعمر بن أبى ربيعة .

وكان يحب شعر الغزل ويترنم به ، وخاصة فى شبابه .

وقد جمع فى شبابه بالكوفة بين شعر البادية وشعر المحدثين ، وامتزجت فى نفسه الطريقتان وتعانق النمطان .

ولما كان شعر المديح عماد الشعراء فى حياتهم للتكسب به فقد لجأ اليه مسلم وقصد به كبار الرجال وضمن قصيدة المديح طرائف صنعته ، وبديع فنه .

ويأتى بعد المديح شعر الوصف والغزل ، وخاصة وصف الخمر ومجالس الشراب .

وكان طبيعيا فى بغداد فى هذا العصر وتلك البيئة أن يبدع فى الفنين معا كما أبدع من قبل بشار وأبو نواس .

وصف مجالس الخمر كما وصفها أبو نواس ، وجعلها مجوسية الأنساب مسلمة البعل ، ربيبة الشمس قد غذتها فى كرمها ، وراح الشاعر يخطبها ويغالى فى مهرها . وتدور الخمر بيد ساق أو ساقية ، وفى أثناء الشرب تغنى القينة الحسناء ، فتعبثُ أوتارها بالعود ، أو تنفخ فى مزمار .

وفى صفته للنساء فى غزله صفة أمرىء مدله فى حبهن ، قد نالت منه الأعين النجل ، وهو إذا وقع فى هوى واحدة منهن ، يكاد يموت صبابة ، وقصص زياراته لحبيباته واضحة جميلة شيقة فى شعره ، تذكر بقصص امرىء القيس أو عمر بن أبى ربيعة .

وهكذا يجمع مسلم بين لذة الخمر وحب النساء فى شعره وهو القائل :

ما لذة الدنيا اذا ما لم تكن ... فيها فتى كأس صريع حبائب

قال يمدح يزيد بن مزيد :

أجررت حبل خليع فى الصبا غزل ... وشمرت همم العذال فى العذل
هاج البكاءَ على العين الطموح هوى ... مفرّق بين توديع ومحتمل
كيف السلو لقلب راح مختبلا ... يهذى بصاحب قلب غير مختبل
عاق العزاءَ غَداةَ البين منهملٌ ... من الدموع جرى فى إثر منهمل
لولا مداراة دمع العين لانكشفت ... منى سرائر لم تظهر ولم تُخَل
أما كفى البينَ أن أرمى بأسهمه ... حتى رمانى بلحظ الأعين النُجُلِ

إلى أن يقول :

وليلة خلست للعين من سنة ... هتكت فيها الصبا عن بيضة الحجل
قد كان دهرى وما بى اليوم من كبر ... شرب المدام وعزف القينة العطل
إذا شكوت إليها الحب خَفرّها ... شكواى فاحمر خداها من الخجل
كم قد قطعت وعين الدهر راقدة ... أيامه بالصبا فى اللهو والجذل

ويقول فى قصيدته المشهورة التى مدح بها الرشيد :

أديرا على الراح لا تشربا قبلي ... ولا تطلبا من عند قاتلتي ذحلي
فما حزني أني أموت صبابة ... ولكن على من لا يحل له قتلي
أحب التي صدت وقالت لتربها: ... دعيه. الثريا منه أقرب من وصلي
أماتت وأحيت مهجتي فهي عندها ... معلقة بين المواعيد والمطل
وما نلت منها نائلاً غير أنني ... بشجو المحبين الأولى سلفوا قبلي
بلى ربما وكلت عيني بنظرة ... إليها تزيد القلب خبلا على خبل
كتمت تباريح الصبابة عاذلي ... فلم يدر ما بي فاسترحت من العذل
ومانحة شرابها المال قهوة ... مجوسية الأنساب مسلمة البعل
ربيبة شمس لم تهجن عروقها ... بنار ولم يقطع لها سعف النخل
تصد بنفس المرء عما يغمه ... وتنطق بالمعروف ألسنة البخل
قد استودعت دنًّا لهَا فهو قائم ... بها شفقا بين الكروم على رجل
بعثنا لها منا خطيبا لبعضها ... فجاء بها يمشى العرضنة فى مهل

ويقول فى صفة الخمر :

أغارت على كف المدير بلونها ... فصاغت له منها أنامل كالذبل

* * *

ودارت علينا الكأس من كف طفلة ... مبتلة حوراء كالرشا الطفل
وحن لنا عود فباح بسرنا ... كأنَّ عليه ساق جارية عطل
تضاحكه طورا وتبكيه تارة ... خَدَلَّجةٌ هيفاء ذات شوى عبل
اذا ما اشتهينا الأقحوان تبسمت ... لنا عن ثنايا لا قصار ولا ثعل
وأسعدها المزمار يشدو كأنه ... حكى نائحات بتن يبكين من ثكل

* * *

وساقية كالريم هيفاء طفلة ... بعيدة مهوى القرط مفعمة الحجل
تنزه وجهى فى محاسن وجهها ... اذا احتثت الطاسات يغنى عن النقل
سأنقاد للذات متبع الصبا ... وأغدو صريع الراح والأعين النجل

وتحسب عمر بن أبى ربيعة قد بعث فى حكايته لهذه الزورة من زواراته الليلية :

وزائرة رعت الكرى بلقائها | وعاديت فيها كوكب الصبح والفجرا
أتتنى على خوف العيون كأنها | خذول تراعى البيت مشعرة ذعرا
اذا ما مشت خافت نميمة حليها | تدارى على المشى الخلاخيل والعطرا
فبت أسمى الدر طورا حديثها | وطورا أناجى البدر أحسبها البدرا
الى أن رأيت الليل منكشف الدجى | يودع فى ظلمائه الأنجم الزهرا

وبلغ مسلم بن الوليد فى شعره منزلة رفيعة بين علماء عصره ، وأدبائه ، لأنه كما قلت جمع بين القديم والحديث ، أو بين الطابع البدوى والحضرى .

قال فيه أبو حاتم السجستانى : « خليج صاف ينزع من بحر كدر ، كالزند يورى تارة ويصلد أخرى » . وقال أبو الفرج : « كان متفننا متصرفا فى شعره » .

وقال المبرد : كان مسلم شاعرا حسن النمط . جيد القول فى الشراب . وكثير من الرواة يقرنه بأبى نواس فى هذا المعنى ، وهو أول من عقد هذه المعانى الطريفة واستخرجها » .

وقال ابن دريد فى أماليه : « أما مسلم فانه مزج كلام البدويين بكلام الحضريين ، فضمنه المعانى اللطيفة وكساه الألفاظ الظريفة ، فله جزالة البدويين ، ورقة الحضريين » .

وقال ابن رشيق فى الموازنة بينه وأبى تمام : « ومسلم أسهل شعرا من حبيب وأقل تكلفا وهو زهير المولدين » .

وقد نعته نقاد الشعر بالصنعة المتقنة للشعر ، وحسن اختياره للفظ ، وتأنقه فى البديع ، أكد ذلك الحصرى القيروانى حين قال : « ومسلم أول من لطف البديع وكسا المعانى حلل اللفظ الرفيع » .

وقال ابن شرف : « وأما صريع الغوانى فكلامه مرصع ، ونظامه مصنع ، وغزله مستعذب » .

وقال المرزبانى : « وهو شاعر مطلق مستخرج « للطيف المعانى بحلو الألفاظ » .

وكان مذهبه فى الصنعة مخالفا لمذهب غيره من شعراء العصر فى الطبع . وهو يمثل إمام هذا الاتجاه أى اتجاه الصنعة ، وهو الذى سار فيه أبو تمام وغالى . ويقابل هذا الاتجاه اتجاه أصحاب الطبع من أمثال أبى العتاهية وأبان بن عبد الحميد اللاحقى والسيد الحميرى .

ولم يرض أحدهم عن مذهب الآخرين ، فقد قيل أن مسلما اجتمع بأبى العتاهية متدارسا قول الشعر ، فقال مسلم لأبى العتاهية فى كم يوم تصنع القصيدة ، فقال أبو العتاهية : أنها بنت ليلتها . فقال مسلم : اذا كانت من مثل قولك :

ألا يا عتبة الساعة أموت الساعة الساعة

فهذا ليس بشعر ولكنى أقول :

موف على مهج فى يوم ذى رهج كأنه أجل يسعى إلى أمل

انى أسهر فى صنعتها الليالى الطوال .

وقد وفر مسلم بن الوليد لشعره زينة اللفظ وجمال المعنى . واستخدم من البديع ما أكسبه جمالا ولم يثقله .

فقد يعمد إلى بديع اللفظ من الجناس والترصيع مثل البيت السابق . أو قد يلجأ إلى الاستعارات يأخذ بعضها برقاب بعض كقوله :

أحيى البكا لَيْلَةً حتى اذا بلغت نفسَ الدجا واستنار الصبح كالوقد
غادى الشمول تعاطته سمادرها طيفا به ألفت روحا إلى جسد
كأنها وسنان الماء يقرعها عقيقة ضحكت فى عارض برد
حتى إذا الراح نامت عنه فترتها ريع الكرى وأقامت كسرة الخلد

فهذه الاستعارات الكثيرة ، التى تعاقبت قد تبدو حجابا يستر المعنى ، لكنها فى الحقيقة أكسبته حلاوة الصور المتتابعة . وابتعدت به عن التقرير والتعبير السهل المباشر .

فهو ببساطة يريد أن يقول انه سهر الليل يعاقر الخمر حتى الصباح ، وشرب فلما أخذت الخمر بلبه تخيل حبيبته أو جاءته بطيف الحبيب ، وهو

يشبه الخمر التشبيه المألوف ويرسم لها الصور التقليدية عند أبي نواس وغيره من شعراء الخمر ، لكنه يعبر هذا التعبير الجديد عن معنى الفتور وما يصيب الرأس من صداع بعد أن ينجاب السكر ويصحو الشارب من النوم .

موقف النقاد منه :

ذكره ابن قتيبة فقال : « وهو أول من ألطف فى المعانى ، ورقق فى القول ، وعليه يعول الطائى (أبو تمام) فى ذلك وعلى أبى نواس »[1] .

ويقول التبريزى فى شرح الحماسة : « وكان متفننا ، متصرفا فى شعره ، شاعرا حسن النمط ، جيد القول فى الشراب . وكثير من الرواة يقرنه بأبى نواس فى هذا المعنى ، وهو أول من عقد هذه المعانى اللطيفة واستخرجها ، وهو أول من أفسد الشعر بهذا النوع الذى سماه الناس البديع » .

وذكره ابن رشيق فى العمدة من بين أصحاب الصنعة (صنعة البديع) .

« .. غير أنّا لا نجد المبتدىء فى طلب التصنيع ومزاولة الكلام أكثر انتفاعا منه بمطالعة شعر حبيب وشعر مسلم ابن الوليد ، لما فيهما من الفضيلة لمبتغيهما ، ولأنهما طرقا إلى الصنعة ومعرفتها طريقا سابلة وأكثرا منها فى أشعارهما تكثيرا سهّلها عند الناس وجرأهم عليها » .

على أن مسلما أسهل شعرا من حبيب وأقل تكلفا . وهو أول من تكلف البديع من المولدين . وأخذ نفسه بالصنعة وأكثر منها ، ولم يكن فى الأشعار المحدثة قبل مسلم صريع الغوانى الا النبذة اليسيرة ، وهو زهير المولدين ، كان يبطىء فى صنعته ويجيدها[2] .

ويقول : « كان مسلم بن الوليد نظير أبى نواس . وفوقه عند قوم من أهل زمانه فى أشعار ، الا أن أبا نواس قهره بالبديهة والارتجال ، مع تقبض كلام فى مسلم واظهار توقر وتصنع . وكان صاحب روية وفكرة ؛ يعمله ولا يرتجل »[3] .

---

(١) الشعر والشعراء ٢ /٨٠٨ .
(٢) العمدة ١ /١٣٠ .
(٣) العمدة ١ /١٩١ .

ونقل ابن رشيق أن البحترى حضر مجلس عبيد الله بن طاهر ، فسأله : يا أبا عبادة أمسلم أشعر أم أبو نواس ؟ فقال : بل أبو نواس ، لانه يتصرف فى كل طريقة ، وينزع فى كل مذهب . ان شاء جد ، وان شاء هزل ، ومسلم يلزم طريقا واحدا لا يتعداه ويتحقق بمذهب لا يتخطاه . فقال له عبيد الله : ان أحمد بن يحيى ثعلبا لا يوافقك على هذا . فقال : أيها الأمير ، ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه ممن يحفظ الشعر ولا يقوله ، فانما يعرف الشعر من دفع إلى مضايقة »[1] .

وسئل أبو حاتم عن مسلم بن الوليد فقال : « خليج صاف ينزع من بحر كدر كالزند يورى تارة ويصلد أخرى » .

ومن آيات شعره قصيدته اللامية فى مدح يزيد بن مزيد الشيبانى ، يقول فيها :

أجررت حبل خليع فى الهوى غزل	وشمرت همم العذال فى عذلى
هاج البكاء على العين الطموح هوى	مفرق بين توديع ومحتمل
كيف السلو لِقَلْبٍ بات مختبلا	يهذى بصاحب قلب غير مختبل

ويقول فيها :

يَفْتَرُّ عند افترار الحرب مبتسما	اذا تغير وجه الفارس البطل
مُوفٍ على مُهَجٍ فى يوم ذى رَهَجٍ	كأنه أجل يسعى إلى أمل
ينال بالرفق ما يعيى الرجال به	كالموت مستعجلا يأتى على مهل
لا يرحل الناس إلا نحو حجرته	كالبيت يفضى إليه ملتقى السبل
يقرى المنية أرواح العداة كما	يقرى الضيوف شحوم الكوم والبزل
يكسو السيوف رءوس الناكثين به	ويجعل الهام تيجان القنا الذبل
قد عود الطير عادات وثقن بها	فهن يتبعنه فى كل مرتحل

وقال فى صفة النساء :

ولما تلاقينا قضى الليل نحبه	بوجه لوجه الشمس من مائة مثل
وخال كخال البدر فى وجه مثله	لقينا المنى فيه فحاجزنا البذل

(١) العمدة ٢ /١٠٤ .

وله فى الأوصاف وخاصة فى الخمر وأدواتها أبيات مفردات كقوله :

لطف المزاج لها فزين كأسها بقلادة جعلت لها إكليلا
قتلت وعاجلها المدير ولم تغط فاذا به قد صيرته قتيلا

وقال :

ابريقنا سلب الغزالة جيدها وحكى المدير بمقلتيه غزالا
يسقيك باللحظات كأس صبابة ويعيدها من كفه جريالا

وقال :

اذا شئتما أن تسقيانى مدامة فلا تقتلاها ، كل ميت محرم
خلطنا دما من كرمة بدمائنا فأظهر فى الألوان منا الدم الدم

وقال :

ان كنت تسقينى غير الراح فاسقينى كأسا ألذ بها من فيك تشفينى
عيناك راحى وريحانى حديثك لى ولون خديك لون الورد يكفينى

وهل يمكن أن يكون وصف مسلم بن الوليد بصريع الغوانى وصفا واقعا فى محله ؟ أى هل كان مسلم بن الوليد غزلا مجيدا فى الغزل — مدلها فى الحب أم أن هذا الوصف ظاهرى لا يدل على حقيقة .

وتتبعنا لأبياته فى الغزل تقفنا على قدره فيه ، وهو قدر لا يسمو الى درجة المجودين المبدعين كالعباس بن الاحنف أو عمر بن أبى ربيعة ، وانما هو غزل جيد بقدر ما أودعه من الصنعة وجمال اللفظ ، ورشاقة الصياغة كقوله :

أحب التى صدت وقالت لتربها دعيه . الثريا منه أقرب من وصلى
أماتت وأحيت مهجتى فهى عندها معلقة بين المواعيد والمطل
وما نلت منا نائلا غير أننى بشجو المحبين الأولى سلفوا قبلى
بلى ، ربما وكلت عينى بنظرة إليها تزيد القلب خبلا على خبل

فهذا غزل مصنوع مثل بقية شعره .

* * *

— ٢ —

أبو تمـام

حبيب بن أوس الطائى (١٩٢ هـ — ٢٣١ هـ)

ولد أبو تمام بقرية جاسم بالشام عام ١٩٢ هـ فى أخريات خلافة هارون الرشيد ، وعاش بمصر زمانا وهو صبى يسقى الماء فى جامع عمرو بن العاص ، ويذكر له الكندى أبياتا قالها بين عامى ٢١١ /٢١٤ هـ — ٨٢٦ /٨٢٩ م ، ويبدو أن الإقامة بمصر لم تطب له ، فلم يطل بها وقفل راجعا إلى الشام وكانت قد ثبتت قدمه فى قول الشعر .

وحاول بالشام أن يدخل إلى المأمون عند وصوله إليها ، فلم يحظ بما أراد ، وتنقل فى بلاد الشام ، وتوجه إلى الموصل بالعراق ، فأقام عامين ، عاملا للحسن بن وهب على البريد واتجه الى أرمينيا ، واتصل بواليها خالد بن يزيد الذى عرف بقتاله للروم ، فأجزل له خالد العطاء على مدائحه فيه .

وحل ببغداد سنة ٢١٨ هـ بعد وفاة المأمون ، وتقرب من المعتصم ، فنال الحظوة لديه ولدى كبار رجال دولته كمحمد بن يوسف ، رجل السيف والقائد المشهور لهزيمته بابك الخرمى ، والقاضى أحمد بن أبى دؤاد صاحب الصولة ، والعلم ، فى دولة الواثق .

وتنقل بين العاصمة وعواصم البلاد والأقاليم الاسلامية يقصد الولاة والامراء فقصد آل طاهر ، ومنهم عبد الله بن طاهر بخراسان ، فأقام عنده زمنا . وقصد همذان فأقام عند أبى الوفاء بن سلمة فأكرمه .

ولقى الشاعر كثيرا ، وجمع مالا وفيرا .

وكان أبو تمام أسمر اللون طويل القامة ، فصيح اللهجة ، بلسانه تمتمة ، صوته أجش . وكان ينوب عنه فى القاء شعره راوية حسن الصوت .

وقد عرف بذكائه الحاد ، ومعرفته الواسعة ، واطلاعه على كثير من تراث العرب فى الشعر وجمع إلى معرفته الشعرية وثقافته العربية اهتماما بعلوم الاوائل

من فلسفة اليونان وعلوم الفرس . وتأثر شعره بهذه الثقافة فتنوعت معانيه ، وعمت أفكاره . وظهرت عليه آثار الجدل وتفتيق القول .

وعاش أبو تمام حوالى أربعين عاما ، وتوفى بالموصل عام ٢٣١ هـ .

وعرف أبو تمام باتجاهه الخاص فى الشعر ، وطريقته التى اشتهر بها بين النقاد والعلماء بالشعر وتتلخص فى ميله للبديع والاكثار من الصنعة فى اللفظ والمعنى ، وتعمد البحث وراء الطريف البعيد على حساب سلاسة العبارة ، ورونق اللفظ ، مع عدم مراعاة القيم التقليدية المتوارثة فى عمل الشعر .

وكان إغراقه فى محاولات التجديد فى المعانى والخروج عن القيم التقليدية سببا إلى غموض بعض شعره ، وسقوطه فى المعيب . وكان يميل بطبعه إلى التعقيد والالتواء بالعبارة فلغته تبدو للسامع لأول وهلة غير سهلة بناء ونحتا .

وكثيرا ما اعتمد على محفوظه الشعرى فى معانيه ، يعيد عرضها وصياغتها ، فهو يلجأ إلى ما يعرف بالاهتدام ، أى هدم البناء القديم ليعيد منه أبنية جديدة فى معارض غير مألوفة تلتبس على الناس ، لكن ذلك لم يفت العلماء ، وتنبهوا له ، فاتهموه بالسرقة من القدماء .

ويعد أبو تمام الحلقة الرابعة من سلسلة أصحاب البديع التى بدأها بشار وأبو نواس والعتابى ومسلم بن الوليد ثم أبو تمام .

ويصف أبو تمام شعره فيقول :

خذها مثقفة القوافى ربها ... لسوابغ النعماء غير كنود
جَذَّاءَ تملأ كل عين حكمة ... وبلاغة ، وتدر كل وريد
كالطعنة النجلاء من يد ثائر ... بأخيه ، أو كالضربة الأُخْدُودِ
كالدر والمرجان ألف نظمه ... بالشذر فى عنق الكعاب الرود
كشقيقة البرد المنمنم وشيه ... فى أرض مهرة أو بلاد تزيد
يعطى بها البشرى الكريم ويحتبى ... بروائها فى المحفل المشهود

وإذا كان البديع عند بشار بداية لون جديد فى الشعر المحدث ، أو شعر المولدين وفى نهجه الفنى ، وعند أبى نواس ضربا من الفن المبدع ، وأداة من أدوات الخلق الفنى الجديد فى الشعر ، وعند مسلم بن الوليد حرفة وصنعة

يدعمها الفكر ، ويرتادها العقل والصنعة المحكمة ، فالبديع عند أبى تمام قضية فنية وفكرية معا ، لم يعد صيغا فنية تكسب الشعر رونقا ظاهريا ، وحلاوة شكلية فحسب .

يقول شارحا مذهبه الشعرى :

خذها ابنة الفكر المهذب فى الدجى والليل أسود رقعة الجلباب

ويقول :

تلك القوافى قد أتينك نزعا تتجشم التهجير والتغليسا
من كل شاردة تغادر بعدها حظ الرجال من القريض خسيسا
تلهو بعاجل حسنها وتعدها علقا لاعجاز الزمان نفيسا
وجديدة المعنى إذا معنى التى تشقى بها الأسماع كان لبيسا

ويقول لأبى دلف :

إليك أرحنا عازب الشعر بعدما تمهل فى روض المعانى العجائب
غرائب لاقت فى فنائك أنسها من المجد فهى الآن غير غرائب

وتغلب على شعر أبى تمام الموضوعية ، فهو سابق فى المديح ، وصوره كلها صور ذهنية ، تتناول موضوعات عصرية ، ولذلك نفى عنه بعض العلماء الشاعرية ، فقالوا انه عالم أو خطيب أو حكيم .

وقال دعبل : لم يكن أبو تمام شاعرا ، انما كان خطيبا ، وشعره بالكلام أشبه منه بالشعر .

وروى الآمدى فى الموازنة ما قيل من أن أبا تمام حكيم وليس شاعرا وأما الشاعر فالبحترى .

ويصنع قصائده فى المديح صنعة محكمة يبدؤها أحيانا بداية تقليدية فى شكلها وإن غيَّر فى صياغتها . كقوله من قصيدة مشهورة فى أبى دلف :

على مثلها من أربع وملاعب أذيلت مصونات الدموع السواكب
أميدان لهوى من أتاح لك البلى فأصبحت ميدان الصبا والجنائب

فيذكر الربع والطلل ويسكب الدمع عليه ، ويتأسى على دروسه ، بفعل الريح والرمال على عادة العرب القدماء .

وغالبا ما يتجه بهذا المطلع التقليدى للقادة العرب أو لمن هم من أصل عربى ، كأبى دلف العجلى أو خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى ، والذى يبدأ مديحه بقوله أيضا :

لقد أخذت من دار ماوية الحقْبُ أنُحْلُ المغانى للبلى هى أم نهب

أو يقول :

طلل الجميع لقد عفوت حميدا وكفى على رزئى بذاك شهيدا

أو مالك بن طوق التغلبى . يقول له :

لو أن دهرا رد رجع جوابى أو كف من شأويه طول عتابى
لعذلته فى دمنتين تَقادَما ممحوتين لزينب ورَباب

أو أحمد بن أبى دؤاد . اذ يقول :

سقى عهد الحمى سيل العهاد وروض حاضر منه وبادى

وحين يتجه بالمديح إلى غير هؤلاء من الفرس ، أو ذوى الأصول غير العربية فهو يختصر المقدمة الطللية ، ويبدأ متغزلا ، مقصرا فيه كقوله فى عبد الله بن طاهر بخراسان :

هن عوادى يوسف وصواحبه فعزما فقدما أدرك السُّؤْلَ طالبه

أو يقول فى الحسن بن سهل :

أبدت أسى أن رأتنى مُخْلسَ القصب وآل ما كان من عجب إلى عجب

وقد يدخل إلى مديحه مباشرة دون تمهيد كما يقول فى الحسن وسليمان ابنى وهب :

سأشكر لابْنَىْ وهب الهمة التى هى الود صاناه بحسن صيانة

وقارن الآمدى بين مقدمات أبى تمام والبحترى ، ومقدمات الشعراء

القدامى فى معانى الوقوف ، وذكر بقايا الديار ، وما يحدث لها من آثار البلى ، وتعاور الرياح . ويشير الآمدى إلى ما ذكرناه آنفا فى صنعة أبى تمام عامة من الاهتدام ، ومحاولة إعادة بناء قديم المعانى بصياغات جديدة .

ويخرج من هذه المقدمة الطللية فى قصيدة المديح إلى ذكر الرحلة ومعاناتها ، وما يقاسيه الشاعر وراحلته من ضنى المسير . ولأبى تمام فى هذا المعنى محاولات جيدة لقيت استحسان معاصريه ومن بعدهم من النقاد من مثل قوله :

وقلقلِ نأىٌ من خراسان جأشها — فقلت اطمئنى أنضر الروض عازبه
وركبٍ كأطراف الأُلسنة عَرَّسُوا — على مثلها والليل داج غياهبه
لأمر عليهم أن تتم صدوره — وليس عليهم أن تتم عواقبه
على كل مَوَّارِ الملاط تهدمت — عريكته العلياء وانضم حالبه
رعته الفيافى بعد ما كان حقبة — رعاها ، وماء الروض ينهل ساكبه

ويصل الى ممدوحه فيضفى عليه صفات عامة فى معانى المديح التقليدية كالشجاعة والإقدام ، والبر ، والسخاء ، كما يضفى عليه صفات خاصة لائقة بالمقام ، إن كان الممدوح خليفة فهو العادل الأمين على الأمة الراعى لمصالحها .

وإن كان من قادة العرب نسبه إلى قبيلته ومفاخرها كقوله فى أبى دلف العجلى :

إذا افتخرت يوما تميم بقوسها — وزادت على ما وطدت من مناقب
فأنتم « بذى قار » أمالت سيوفكم — عروش الذين استرهنوا قوس حاجب

ويسجل فى شعر المديح أحداث عصره الكبرى ، ومنها ثورة البابكيين ، ومعارك الثغور مع الروم البيزنطيين ، وأهمها معركة عمورية ، وانتصار المعتصم فيها على الروم .

السيف أصدق أنباء من الكتب

ومن خلال قصائد المديح ينظم أبو تمام أبياتا فى الغزل والوصف ، تبلغ حدا من الجودة والإتقان فى الصياغة وتناسق اللفظ مع المعنى . فمن غزله الرقيق فى مطلع المديح قوله :

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد وعاد قتادا عندها كل مرقد
وأنقذها من غمرة الموت أنه صدود فراق ، لا صدود تعمد
فأجرى لها الإشفاق دمعا موردا من الدم يجرى فوق خد مورد
هى البدر يغنيها تودد وجهها إلى كل من لاقت وإن لم تودد

ويبدو جمال هذه الأبيات فى جمال الصنعة لا رقة العاطفة ، ولا صدقها ، ونلحظ اهتمامه بالمقابلات والطباق ، والتوازن والتناظر فى المعنى واللفظ والتقابل بين الأضداد . ومثل هذا ينطبق على غزله فى قصيدة أخرى مما أعجب به أنصاره . قوله :

أظن دموعها سنن الفريد وهى سلكاه من نحر وجيد
لها من لوعة البين التدام يعيد بنفسجا ورد الخدود
حمتنا الطيف من « أم الوليد » خطوب شيبت رأس الوليد

ومن أوصافه وصف صلب الافشين وتحريقه بالنار ، وحريق عمورية ، ومنه قوله يمدحُ المعتصم :

رَقَّتْ حواشى الدهر فهى تمرمر وغدا الثرى فى حليه يتكسر

ومنها فى الربيع أبياته المشهورة :

يا صاحَبيَّ تقصيا نظريكما تريا وجوه الأرض كيف تصوَّر
تريا نهارا مشمسا قد شابه زهر الربى فكأنما هو مقمر
دنيا معاش للورى حتى إذا حل الربيع فإنَّما هى منظر
أضحت تصوغ بطونها لظهورها نورا تكاد له القلوب تنور
من كل زاهرة ترقرق بالندى فكأنها عين إليك تحدر
تبدو ويحجبها الجميم كأنها عذراء تبدو تارة وتخفر

وصوره الوصفية ، لقطات جزئية ، تتراصف ، ويضع واحدة منها إزاء الأخرى لا تتصل اتصالا عضويا . ولا تنم عن خاصية بعينها فى نظرة متميزة ، وإحساس مفرد أو موقف شعورى ينبىء عن نفس واحدة لا نفس عامة هى نفس أبى تمام . وهذا لأنه يصف بعقله لا بحسه وعاطفته .

وقد لاحظ عليه ذلك بروكلمان فقال : « وقلما وجدنا فى شعر أبى تمام شيئا من الحنين والصبابة » .

وليس معنى هذا أن شعره كله خال من العاطفة . اذ قد تبدو هذه أحيانا ، مجتازة سياج عقله ، وصرامة صنعته ، ومن قصائده القليلة التى نلمس فيها حرارة العاطفة قوله فى صديقه الشاعر على بن الجهم ، وقد أراد السفر :

هىّ فرقة من صاحب لك ماجد فغدا اذابة كل دمع جامد

يقول فيها :

إن يكد مُطَّرَفُ الإخاء فإننا نغدو ونسرى فى إخاء تالد
أو يختلف ماء الوصال فماؤنا عذب تَحدَّرَ من غمام واحد

ومثل هذا نجده فى أبيات له يرثى ابنين لعبد الله بن طاهر يقول فيهما :

نجمان شاء الله أن لا يطلعا إلا ارتداد الطرف حتى يأفلا
إن الفجيعة بالرياض نواضرا لَأَجَلُّ منها بالرياض ذوابـلا

ولكنه مع ذلك لا يبلغ فى عاطفته تلك ما بلغ شعراء المراثى ،وهو لا يتخلى هنا عن صنعته التى أشرنا اليها .

ولأبى تمام مقدرة على فن من الصنعة الشعرية عرف عند المحدثين ، وتباروا فيه ، وهو التخلص ، وقد يسمى فى بعض الأحيان بالاستطراد . كقوله متنقلا من وصف الربيع والروض إلى مديح المعتصم :

صبغ الذى لولا بدائع لطفه ما عاد أصفر بعدما هو أخضر
خلُقٌ أطل من الربيع كأنه خُلُقُ الامام وَهدْيُهُ المتنشـر
فى الأرض من عدل الامام وجوده ومن النبات الغض سرج تزهر
تُنسِى الريـاضَ وما يروض فعله أبدا على مر الليالى يذكر
إن الخليفة حين يُظلِمُ حادث عيـنُ الهدى وله الخلافة محجر

وكانتقاله فى موضع من وصف الفرس إلى ذم واحد اسمه عثمان :

فلو تراه مشيحا والحصى زيم بين السنابك من مثنى ووحدان
أيقنت إن لم تثبت أن حافره من صخر تدمر أو من وجه عثمان

مواقف الشعراء والنقاد منه :

روى الصولى فى أخباره أن البحترى وعلى بن العباس الرومى كانوا إذا ذكروا أبا تمام عظموه ورفعوا من مقداره فى الشعر حتى يقدموه على أكثر الشعراء ، وكل يقر باستاذيته وأنه منه تعلم . وهما أعلم أهل زمانهم بالشعر ، وأشعر من بقى »[1] .

وقال ابن المعتز : « جاءنى محمد بن يزيد المبرد يوما فأفضنا فى ذكر أبى تمام، وسألته عنه وعن البحترى فقال : لأبى تمام استخراجات لطيفة ، ومعان طريفة ، لا يقول مثلها البحترى . وهو صحيح الخاطر ، حسن الانتزاع ، وشعر البحترى أحسن استواء ، وأبو تمام يقول النادر والبارد ... وما أشبهه إلا بالغائص يخرج الدر والمخشلبة (خرز أبيض) » .

ودافع أبو بكر الصولى عما اتهم به من مآخذ عن السابقين فقال : « ولو جاز أن يصرف عن أحد من الشعراء سرقة لوجب أن يصرف عن أبى تمام لكثرة بديعه واختراعه ، واتكائه على نفسه »[2] .

ويقول الصولى : « جيد أبى تمام لا يتعلق به أحد من أهل زمانه ، وانما يختل فى بعض قصائده لفظه لا معناه » .

وذكره ابن رشيق القيروانى فى أكثر من موضع من كتاب العمدة وقال انه يميل إلى الصنعة والتدقيق فى عمل الشعر ، ويقول انه عدل بين ألفاظه ومعانيه، فهو كالقاضى يضع الألفاظ والمعانى مواضعها المناسبة ، وأنه صناع يظهر جيد شعره من سائره .

ويقف ابن الاثير فى القرن السابع إلى جانبه مدافعا عنه ضد اتهامه بعدم إجادته فى الغزل فيقول : « ومن الناس من يزعم أنه ليس لأبى تمام غزل يحسن كما لغيره وكذلك يزعم أنه ليس للمتنبى أيضا من الغزل ما يروق ويحسن . وهذا القول لا يصدر إلا عن تعصب أو جهل . وأى غزل أحلى وأعذب وأرق وأدمث من قول أبى تمام :

---

(١) أخبار أبى تمام ص ٦٨ .

(٢) أخبار أبى تمام ، ص ١٠٠ .

أنت في حل فزدني سقما ... أفن صبري واجعل الدمع دما
وارض لي الموت بهجريك فإن ... ألفت نفسي فزدها ألما
عنة العاشق ذل في الهوى ... وإذا استودع سرا كتما
ليس منا من شكا علته ... من شكا ظلم حبيب ظلما

وهل للكثير من المتقدمين أو لابن الدمينة أرق من هذه الأبيات ؟! وكذلك ورد قوله في طيف الخيال :

استزارته فكرتي في المنام ... فأتاني في خيفة واكتتام
فالليالي أحفى بقلبي إذا ما ... جرحته النوى من الأيام
يا لها لذة تنزهت الأر ... واح فيها سرا من الأجسام
مجلس لم يكن لنا فيه عيب ... غير أنا في دعوة الأحلام

وهذه الأبيات في الطيف لم يؤت بأرق منها ولا أسلس » .

ووقف منه بعض العلماء والنقاد موقف المعارضة ، فعابوا عليه شعره ، وكان من بينهم من معاصريه الشاعر دعبل بن علي الخزاعي الذي اتهمه بالسرقة والأخذ من سابقيه وإخفاء ما يأخذ بصنعته ، كذلك أخذ عليه أبو العميثل الأعرابي ، ميله إلى التعقيد .

ويحكى عن ابن الأعرابي أنه قال وقد أنشد شعرا لأبي تمام : إن كان هذا شعرا فما قالته العرب باطل .

وروى الآمدي في الموازنة كثيرا من عيوب أبي تمام في سرقاته القبيحة ، وتعمله البديع وعويص اللفظ كقوله :

يدي لمن شاء رهن لم يذق جرعا ... من راحتيك درى ما الصاب والعسل

ومثل هذا يسمى المعاظلة أي ركوب الكلام بعضه بعضا . وتقديره : يدي رهن لمن شاء إن كان لم يذق جرعا من راحتيك ففرق بين ما تعطيه (وهو العسل) وما يعطيه غيرك وهو الصاب أي العلقم .

ومن أسباب غموض شعره لجوءه إلى المعنى البعيد يصوغه في ألفاظ تتوالى فيها أشكال البديع ، وبخاصة الطباق . ويلوي المعنى ليتم له الطباق ، فهو يؤثر

صحته على صحة المعنى وتمامه . يقول :

وضت فأظلم كل شيء دونها   وأضاء منها كل شيء مظلم

فلكى يتم له الطباق مع ما أراد من المعنى أجهد السامع أو قارىء شعره معه ، وجعله يظن بهذا الذى يبدو لغزا أول الأمر ، فيتبين له بعد لأى أنه معنى بسيط ، عقده بطلب الطباق . وهو لا يريد لسامعيه أن يبلغوا ما أراد بلفظ يسير سهل ، بل لا بد أن يركبهم الصعب ، وأبو تمام يريد أن يقول فى بساطة إن هذه الفتاة وضت فأظلم ما بينى وبينها بسبب ما نالنى من الجزع لولهها ، ثم وضح لى منها ما كان مستترا عنى من حبها إياى ، فأضاء ذلك ما التبس دونى .

ومن هذا القبيل قوله :

يتجنب الآثام ثم يخافها   فكأنما حسناته آثام

ويقع فى حيرة من أمر الطباق والمعنى فى البيت ، وكيف يستقيم إذا تجنب المرء الآثام وخافها فكيف تكون حسناته آثاما ؟! .

ولكن يتضح بعد تفكير أن الشاعر إنما يريد أن يقول انه يتجنب الآثام فيكون بذلك قد جاء بحسنة ، ثم يخاف تلك الحسنة ، فكأنما حسناته آثام !! دور عجيب أدى به إليه غرام بالطباق ، وإعمال للعقل فى الشعر ، وهو ابن العاطفة وسهولة التعبير ، وعذوبة الروح .

وولع أبى تمام بغرابة الاستعارة أوقعه فى سيئات كثيرة ، لعدم الالف بين المستعار والمستعار له ، وافتقاد المتناسب والقربى .

كقوله :

أنزلته الأيام عن ظهرها من   بعد إثبات رجله فى الركاب

وكقوله :

رقيق حواشى الحلم حتى لو أنه   بكفيك ما ماريت فى أنه برد

وقد وقع فى هذا البيت فى مخالفة للعرف فى التعبير عن ثقل الحلم ، وتحول ما أراد من مديح بالحلم إلى ذم بخفة الأحلام ، ثم لم يصبر على هذا ، بل تمادى

وأوغل فجعل الحلم بردا .. ومثله فى الايغال فى الاستعارة وعدم المناسبة :

فضربت الشتاء فى أخدعيه ضربة خلفته عَوْدًا ركوبا

وأخذ عليه الآمدى مآخذ كثيرة فى اللغة والعروض .

وأشار بعض العلماء إلى أنه كان يعد قوافيه أولا ثم يبنى عليها الشعر ، ولهذا ظهر التعسف أحيانا فى بناء بعض الأبيات . وربما كانت هذه الطريقة متبعة عند كثير من شعراء العصر ، فقد أشار إليها ابن طباطبا فى عيار الشعر .

ومهما يكن من أمر أبى تمام ، فقد كثر حوله الكلام ، كثرة لم يحظ بها شاعر إلا المتنبى من بعده ، واختلف الناس فيه ، لكنه بقى علما من أعلام الشعر العربى على مدى العصور ، وعرف بطريقته الخاصة ، فى عمل الشعر ، وقلده فيه من تبعه من الشعراء بدءا بالبحترى وتوالوا حتى القرون المتأخرة ، وقيل ان المتنبى اعتمد عليه ، وكان يصحب ديوانه ، وقد ألف بعضهم فى مآخذ المتنبى من أبى تمام[1] . وصارت بعض قصائده نماذج فنية يحتذيها الشعراء ، وبرزت من بينها بائيته فى عمورية ، ورائيته فى صلب الافشين . وسارت بعض أبياته مسرى الامثال لما فيها من الحكمة وحقائق الكلم[2] .

من مختارات شعره :

قال يمدح أبا دلف بن عيسى العجلى :

على مثلها من أربع وملاعب أذيلت مصونات الدموع السواكب

أقول لقرحان من البين لم يضف رسيس الهوى بين الحشى والترائب

ومنه قوله يمدح أبا العباس عبد الله بن طاهر :

أهن عوادى يوسف وصواحبه فعزما فقدما أدرك السؤل طالبه

وقوله فى صلب الافشين وحرقه :

الحق أبلج والسيوف عوارى فحذار من أسد العرين حذار

---

(١) ابن الدهان فى كتاب « المآخذ الكندية من المعانى الطائية » .

(٢) بروكلمان : ٢ /٧٤ ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار وطبع دار المعارف .

وقصيدته الذائعة فى فتح عمورية :

السيف أصدق أنباء من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب

هى فرقةٌ من صاحبٍ لكَ ماجِدِ   فغدًا إذابةُ كلِّ دمعٍ جامِدِ

* * *

أعليُّ يا ابن الجهْمِ إنَّك دُفْتَ لِى   سُمًّا وجمرًا فى الزُّلالِ البارِدِ
لا تَهْلكنْ أَبَدا ولا تبعُدْ فما   أَخلاقُكَ الخُضْرُ الرُّبَى بِأَباعِدِ
إن يُكْدِ مطَّرف الإخاءِ فإننا   نغدُو وَنسْرِى فى إخاءٍ تَالِدِ
أو يختلف ماءُ الوصالِ فمَاأُنا   عذْبٌ تحدَّر من غمامٍ واحِدِ

— ٣ —

ابن المعتـــز
(٢٤٩ — ٢٩٦ هـ)

عبد الله بن المعتز الخليفة العباسى بن الخليفة المعتز بالله ابن الخليفة المتوكل على الله . ولد ببغداد .

ولد ونشأ فى بغداد بقصر والده المعتز بالله . وتعلم على أيدى جماعة من نابهى العصر وفى مقدمتهم أبو العباس المبرد وأبو العباس يحيى ثعلب ، كما أجتهد فى تحصيل كثير من العلوم ، العربية ، ونبه فى الشعر والأدب عامة وكان لنشأته فى قصور الخلافة بكل نعيمها ورفاهيتها أثره فى شعره ؛ وشهد كثيرا من المآسى التى وقعت للخلفاء منذ مقتل المتوكل . وعرف بالمؤامرات التى دارت فى القصور بين الأمراء الأتراك وبعض رجال الدولة لقتل هذا الخليفة وعزل ذاك .

ولم تتح حياة القصر المضطربة لابن المعتز أن يحصل من كثير من علوم العصر ، غير العلوم العربية والإسلامية ، كما أن غلبه إتجاه أهل السنّة على الفكر بعد تولى المتوكل ، وعلى ثقافة القصر العباسى خاصة باعَدَ بيْن ابن المعتز والعلوم العقلية والفلسفية ، أو علوم اليونان والوافدة عامة .

من هنا كان ديوان ابن المعتز تغلب عليه الروح العربية الإسلامية ولا أثر به تقريبا لثقافات أجنبية .

واكثر شعره انطباعات خاصة ، أو تصوير لحياة القصور من جوارٍ وقيان ، وغناء ، وطعام وشراب ، وفراش ورياش ومجالس لهو .

ولعل أهم خاصية فى شعر ابن المعتز ميله إلى التشبيه ، وتكوين الصور البصرية وحشد كل ما وقع عليه بصره ، أو اختزنته ذاكرته مما رآه فى أطوار حياته وله ابداعات فى هذا المجال شهد بها النقاد ، وتناقلته كتب النقد والبلاغة والأدب على توالى العصور .

ويكاد شعره أن يكون ذاتياً ، غِنائياً إلا فيما قلَّ من مناسبات فرضت نفسها ، فكان فيها موضوعيًا ، كالدفاع عن حق العباسيين فى الخلافة ، والردّ

على بعض المعارضين وهجاء بعضهم ، والرثاء والمديح فى حدود أسرته والمحيطين به .

ولندع من شعر ابن المعتز حديث القصور وآنية الفضة والذهب ، وتشبيه الهلال بالزورق ، وما إلى ذلك كله من حيث القدماء عن شعر الرّجل ، فهو حديث مُعَادٌ ، ولنخض فى حديث غيره من شعره ، يكشف عن الرجل وهمومه ، فى زمن أدلهمّت غواشيه ، وكانت الخلافة فيه سفينة تعصف بها الريح والناسُ غير الناس .

هموم الرجل كثيرة موزعة بين إحساسيسه كإنسان له مطالبه الخاصة ، يلهو ويسعد ، ويبتئس ويحزن ويشقى ، يبرُّ الناس ساعة فيبرُّونه ماداموا فى حاجة إليه ، وينصرفون عنه وهو فى حاجة إليهم ، وهموم العصر والخلافة .

فى شعر ابن المعتز صورة نفسية لانسانٍ يعيش فى محنة تتكرر عند كثير من الناس فى كل عصر ، محنة صاحب السلطان والجاه ، والحظ يتهدده ، ومحنةُ المثقف المتعلم ، والرموز أمامه تتهاوى ، والقيم تتردى حجته-المسلم ، والدين فى أزمة تتصارع من حوله النحل والقوى ، كلٌّ يدّعى الحقَّ ، والحق فى غاشية .

ونقرأ هذه الأبيات السينية التى يرمُز فيها إلى هموم نفسه التى ذكرها فيقول:

ظلَلتُ بحزنٍ إن بدا البرقُ غُدوةً ... كما رفع النارَ البصيرةَ قابِسُ
إذا استعجلته الريح حلّت نطاقَهُ ... وهاجت له فى المعْصَراتِ وساوسُ(١)
ولاحَ كما نشرت بالكفّ طرّةً ... من البُـرْدِ ، أو فاءت جروحٍ قوالِسُ(٢)
وشقّقَ أعراف السَّحـابِ التماعُـه ... كما انصدعت بالمشرفىِّ القلانِسُ
فما زال حتى البنتُ يرفعُ رأسَهُ ... بهامِ الرُّبى ، والعرق وبـالأرض ناخِسُ(٣)
مضَى عجبى من كلِّ شيءٍ رأيتُه ... وبانَتْ لعينَىَّ الأمور اللوابسُ
وإنّى رأيت الدهر فى كلِّ ساعةٍ ... يسيرُ بنفس المرءِ والمرءُ عابِسُ
وتقتاده الآمال حتى تحطُّه ... إلى تُربَةٍ فيها لهنَّ فَرائِسُ
وأصدعُ شكىّ باليقين ، وإننى ... لنفسِى على بعض المساءَة حَابِسُ

ويرى مصارع الملوك من آل بيته فيقول :

ألم تر أنَّ الدهر قطعَّنى حزًّا وأصحبنى ذُلاً ، وأثكلنى عِزًّا
ألا ربَّ وجه فى الثرى كان عابساً إذا خفتُ بطشاً من يد الدهر أو غمزا
ملوكٌ وإخوانٌ ترى لسَماجِهمْ من البشر فى ديباج أوجههم طُرْزَا
فقدتهم متكرِهًا ، وكَنزتُهمْ ثَواباً وأجراً فى بُطونِ الثَّرى كنزا

هذه النفس المعذبة التى خرجت إلى الدنيا يحوطها النعيم ، وتملك من مسرات الحياة ، ما تبغى كلُّ نفس ، تحكى مأساة الإنسان على هذه الأرض ، يبحث عن السعادة فى المال فلا يغنيه ، وفى السلطان فلا يشبعه ولا يرضيه ، الفقير فيها يشكو الفقر والشقاء والحرمان ، والغنى يشكو الغنى ، وصاحب السلطان يشكو عذاب السلطان .

تقلَّبَ ابن المعتز فى ألوان النعيم ما شاء ، وما قدرت له نشأته بين القصور والجوارى والغلمان ، وكلّ ما تتيحُه الدنيا لإنسان .

طاف بألوان المتعة من نساءٍ وشرابٍ وطعام ، ولهوٍ ، وصيدٍ وسماع . يقول :

شربنا بالصَّغيـر وبالكبير ولم نحفِلْ بأحداث الدُّهور
وقد ركضتْ بنا خيل الملاهى وقد طرنا بأجنحة السرورِ

ويقول :

ألفتُ الهوَى حتَّى قلَتْ نفسىَ القِلَى وطالَ الضَّنَى حتى صبرتُ على الصَّبْر
وكرخيَّة الانسابِ ، أو بابليَّةٍ ثوتْ حقباً فى ظلمةِ القارِ لا تسرىَ
وكم ليلة للهو قصرٌ طولَها بساقية الكفَّين ، والعين للخمرِ
وإنِّى وإن كان التصابى يَحثنى لابلغُ حاجاتى ، وأجرى على قدرى
كَريمُ ذنوبٍ إن يصب بعض لذَةٍ يَدَعْ بعضها فوق الأحاديث والذكر

وأفاد ابن المعتز فى صنعةِ الشعر من ثقافته العربية والإسلامية عامة ، ومن شعر سابقيه من المحدثين خاصة . وكان يعنى بهم ويردد إشعارهم . وقد ألف فيهم طبقات المحدثين. يقول أبو الفرج[1] : « وممن صنَع من أولاد الخلفاء فأجاد وأحسن ، وبرع وتقدم جميعَ أهل عصره فضلاً وشرفاً وأدباً ، وظرفاً وتصرفاً فى سائر الآداب أبو العباس عبد الله المعتز بالله » .

(١) الأغانى ١٠ /٣٢٣ .

قال : وأمره مع قرب عهده بعصرنا هذا مشهورٌ فى فضائِله وآدابه شهيرةٌ ، تُشْرَكَ فى أكثر فضائِله الخاصّ والعام . وشعره وإن كان فيه رقَّةُ الملوكيةِ ، وغزلُ الظُّرفاءِ ، وهَلهلةُ المحدثين ، فإنّ فيه أشياءَ كثيرةً تجرى فى أسلوب المجيدين ، ولا تقصّر عن مدى السابقين ، وأشياءَ ظريفةً من أشعار الملوك فى جنسٍ ما هم بسبيله ، ليس عليه أن يتشبَّهَ فيها بفحول الجاهلية فليس يمكنُ واصفاً لصبوح فى مجلسٍ شكلٍ ظريف ، بين ندامى وقيان ، وعلى ميادين من النَّورِ والبنفسج والنرجَس ، ومنضودٍ من أمثال ذلك إلى غير ما ذكرته من جنْسِ المجالسِ وفاخرِ الفرشِ ومختارِ الآلاتِ ، ورقةِ الخدم أن يعدل بذلك ومايشبه من الكلام السَّبطِ الرقيق الذى يفهمه كلُّ من حَضَر ، إلى جَعْدِ الكلام ووحشيِّه ، وإلى وصفِ البيد والمهامِهِ والظَّبْي والظَّليم ، والناقةِ والجمل ، والديارِ والقفار ، والمنازِلِ الخاليةِ المهجورة ، ولا إذا عدَل عن ذلك وأحسن قيل له مسيء ، ولا أن يُغمطَ حقُّه كلُّه إذا أحسن فى الكثير وتوسَّط فى البعض، وقصرَّ فى اليسير ، ويُنسبَ إلى التقصير فى الجميع لنشرِ المقابح وطىّ المحَاسِن . فلو شاءَ أن يفعَل هذا كلُّ أحد ممن تقدَّم لوجد مساغاً . ولو أن قائلاً أراد الطعنَ على صُدورِ الشعراءِ لقد رأى أن يطعن على الأعشى . وهو أحد من يقدمه الأوائِل ، على سائِر الشعراء بقوله :

فأصاب حبَّةَ قلبه وطُحالها

وبقوله :

ويأمرُ لليحموم كلَّ عشيَّةٍ بقَتٍّ وتعليقٍ، فقد كادَ يَسْنَقُ

وأمثالٍ لهذا كثيرة . وإنما على الإنسان أن يحفظ من الشيء أحسنه ، ويُلغِى ما لم يستحسنه فليس مأخوذاً به . ولكنَّ أقواماً أرادوا أن يرفعوا أنفُسَهم الوضيعةَ ، ويشيدوا بذكرهم الخامل ، ويُعْلُوا أقدارهم الساقطة بالطَّعن على أهلِ الفَضْلِ ، والقدْح فيهم ، فلا يزدادون بذلك إلا ضَعَةً ، ولا يزدادُ الآخر إلاَّ ارتفاعا . ألا ترى إلى ابن المعتز قد قُتِلَ أسوأ قِتْلَه ، ودرج فلم يَبْق له خلفٌ يُقرِّظه ،ولا عقبٌ يرفع منه ، وما يزداد بأدبه وشعره وفضله وحسنِ أخباره وتصرفه فى كلِّ فنٍّ من العلوم إلاَّ رفعةً وعُلوًّا ، ولا نُظِرَ إلى أضدادِه كلَّما ازدادوا فى طعنه وتقريظ أنفسِهم وأسلافهم الذين كانوا مثلهم فى ثلبه والطعن عليه ، زادوها سقوطاً وضَعةً . وكلَّما وصفوا أشعارهم وقرَّظوا آدابهم ، زادوا بها ثقلاً ومَقْتا ، فإذا وقع

عليها المحصَّل الموافِق عدلوا عن ثلبه فى الآداب إلى التشنيع عليه بأمر الدين ، وهجاء آل أبى طالب . وهم أول من فعل ذلك وشنَّع به على آل أبى طالب عند المكتفى حتى نهاهم عنه ، فعدلوا عن عيبِ أنفسهم بذلك إلى عيبه ، وارتكبوا أكثر منه .

وأنا أذكر ذلك بعقب أخبار عبد الله مصرحاً به على شرح إن شاء الله » .

لقد كشف أبو الفرج جانبا من اتجاه بعض أدباء العصر وعلمائه وشعرائه إلى ذم ابن المعتز لاسباب لا علاقة لها بفن الشعر وصنعته ، وإنما تدخل فى العيب عليه بعض أهواء القوم واتجاهاتهم المذهبية والفكرية ، وما حملوه من صغنٍ على الرجل لرأى أو اتجاه ، وأبو الفرج يشهد لابن المعتز بمقدرته الشعرية على مذهب المحدثين ، ولا ينفى ما قد يقع فى شعره من هنات وسقط ، ولا يكون ذلك مبرراً للنيل منه ولا الحكم على شعره جملة .

ونقل ابن خلكان تفريظاً لابن المعتز عمَّن يعرف فضله فقال[1] :

« كان أديبا بليغاً ، شاعرا مطبوعاً مقتدراً على الشعر ، قريبَ المأخذ ، سهلَ اللفظ جيد القريحة ، حسن الإبداع للمعانى » .

وكان إلى جانب شاعريته مخالطاً لأهل العلم والأدب ، عالماً بكثير من علوم عصره وآدابه فكان على علم بالموسيقى والغناء . يقول أبو الفرج[2] : « وله فى ذلك وفى غيره من الآداب كتب مشهورة ومراسلاتٌ جرت بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وبين بنَى حمدون وغيرهم تدل على فضله وغزارة علمه وأدبه » .

ويقول إن له ألحاناً فى بعض شعره .

وموضوعاتُ ابن المعتز يغلب فيها حديث القيان والغناءِ ، والشراب ، وحياة الرفاهية والدَّعة .

أمكنتُ عاذِلَتى من صَمْتِ آبَاءِ	ما زادَهُ النُّهىُ شيئاً غير إغراءِ
أيْنَ التورُّعَ من قلبٍ يهمُ إلى	حاناتِ لهوٍ غدا بالعودِ والنَّاءِ

(١) وفيات الأعيان ٢ /٧٦ .
(٢) الأغانى ١٠ /٣٢٥ .

وصوتِ فتّانةِ التغريد ، ناظرةٍ ... بعين ظبي تريد النومَ حوراءِ
جرَّت ذيولَ الثياب البيضِ حينَ مشتْ ... كالشمس مُسْبِلةً أثوابَ لألاءِ

ويقول من قصيدة يصف مغنياً :

وغِرِّيد جُلاسٍ ترى فيه خذقةً ... إذا مسَّ بالكفَّين عوداً ومِضْرابَا
كأَنَّ يديه تلعبان بعُودِهِ ... إذا ما تغنَّى أنهضَ النَّفْسَ إطرابا
وقُمْرِيَّةِ الأَصْواتِ حسرٍ ثيابها ... تهينُ ثيابَ الوشي جرًّا وتسحابًا
وتلفُظُ يُمنَاها إذا ضربت به ... وتنثُر يُسْراهَا على العودِ عُنَّابا

وفى الخمر له القصائد والمحفوظات الطوال يخلصها لها أحياناً ، ويجعلها أحياناً فى سياق قصائد الغزل ، والديريات ، ووصف الطبيعة . ويتأثر فى صفات الخمر ومعانيها بأقوال من سبقوه وبرعوا فى وصفها كعصبة المجان والبة بن الحباب وأبى نواس ، والحسين بن الضحّاك ، وتقع على أبيات تحس ترداده لمعانى أولئك ، وإن غيّر فى اللفظ وتلاعب بالعرض . ألا ترى فى قوله الذى نورده روحًا نواسيَّة ؟!.

وقد يُباكرنى السّاقى فأشربُها ... راحاً تُرِيحُ منَ الأحزانِ والكُرَبِ
مازالَ يقبضُ روحَ الدنِّ مبزلُه ... حتى تغلغلَ سِلْكُ الدرّ فى الثُّقَبِ
وأمطرَ الكأسَ ماءً من أبارِقه ... فأنبتَ الدُّرَّ فى أرضٍ من الذَّهبِ
وسبَّحَ القومُ لمَّا أن رأوا عجبا ... نوراً من الماءِ فى نارٍ من العِنبِ
لم يُبْقِ فيها البَلى شيئاً سوى شبح ... يُقيمُه الظنُّ بين الصدقِ والكذبِ
سلافةً ورثتْها عادُ عن إرمٍ ... كانتْ ذخيرةَ كسرى عن أبٍ وأبِ

ويعرض فى شعره صوراً للحضارةالزاهرة، وبخاصة قصور الخلفاء فيقول فى قصر الخليفة :

سيثنى عليه من محاسنِ قصرِهِ ... مدائحُ ليست من كلام ولَا شِعْرِ
يُشِيرُ إلى رأيٍ مصيبٍ وحكمةٍ ... وجودٍ لَدَى الإنفاقِ بالبيض والصُّفرِ
جنانٌ وأشجارٌ تلاقَتْ غصونُها ... فأورقنَ بالأثمار والورقِ الخضْرِ
ترى الطير فى أغصانِهنَّ هواتفاً ... تنقَّلُ من وكْرٍ لهنَّ إلى وَكْرِ
هجرتْ سواهَا كلَّ دار عَرفْتَها ... وحُقَّ لدارٍ غيرِ دارِكَ بالهجْرِ
ونبأن قصرًا قد علت شرفاتُه ... كصفٍ نساءٍ قد تربَّعنَ فى الأُزْرِ

وأنهارُ ماء كالسَّلاسلِ فجّرتْ لِترضعَ أولادَ الرياحين والزَّهرِ
وميدانُ وَحْشٍ تركضُ الخيلُ وسطَهُ فيؤْخذُ منها ما يشاءُ على قدْرِ

ولابن المعتز شعر فى وصف رحلات الركوب والصيد والطرد . وفى وصف الفرس له أبيات كثيرة فى عرض فروسية المقاتل وإقدام الجواد . مثل قوله(١) :

وسابحٍ مسامحٍ ذى ميعةٍ كأنَّهُ حريقُ نارٍ تلتهِبْ
تراه إنْ أبصرتَهُ مستقبِلاً كأنما يعلو من الأرض حَدَبْ
عارى النَّسَا ، ينتهب التُّربَ له حوافِرٌ باذلَةٌ ما ينتهبْ
تُصالحُ التُّرابَ إذا ما ركضَتْ لكنها مع الصخور تصطخِبْ
تحسبه يُزهى على فارسِهِ وإنما يُزهى به ، إذا رُكِبْ
أسرع من لحظته ، إذا رنَا أطوعُ من عِنانِهِ إذا جُذبْ
يبلغ ما تَبلُغه الريحُ ، ولا تبلُغ ما يبلغُه إذَا طُلِبْ
ذو غُرَّة قد شدخت جبهتهُ وأُذُن مثل السِّنانِ الملتهِبْ
وناظِرٌ كأنـه ذُو روْعةٍ وكفلٍ ململم ضافِ الذَّنَبْ
ومنخرٍ كالكيرِ لم تشقَ به أنفاسهُ ولم يُخنْها فى تَعبْ

وتراه يمارس هوايته فى التصوير والتشبيه ، فيأتى بالغريب المبدع المعجب ، وقد بدأ هذه الأبيات بتصوير البرق يلمع بالليل فى أخرياته فجاء بتشبيهات متتابعة حيث يقول وقد وصف سحابة عابرة تبرق وتُرعد :

رأيتُ فيها برقَها لمَّا وَثبْ كمثل طرفِ العينِ أو قلْب يجِبْ
ثم حدثتْ بها الصَّبا كأنَّها فيها من البرقِ كأمثالِ الشُّهُبْ
باكيةٌ يضحكُ فيها برقُها موصولةٌ بالأرضِ مُرماةُ الطُّنُبْ
كأنها ورعدُها مُستعْبِرٌ لجَّ به على بكاهُ ، ذو صَخَبْ
جاءتْ بجفنٍ أكحلٍ ، وانصرفت بَرْهاءَ من إسبالِ دمعٍ مُنسكِبْ(٢)
إذا تعرَّى البرقُ فيها خِلْتَهُ بطْنَ شجاعٍ فى كثيبٍ يضطرِبْ
وتارةً تُبصرُه كأنَّـهُ أبلق مالَ جلُّه حينَ وثَبْ
وتارةً تختالُـه إذا بَدَا سلاسلاً مصقولةً من الذَّهبْ

---

(١) ديوانه ص ٤٤ .
(٢) المرهاءُ المبيضّة .

شعره السياسى :

وواجه ابن المعتز العلويّين أو الطالبين بحجج العباسيَّة فى الخلافة :

يقول من قصيدة ، يذكر تنازل المأمون بولاية عهده لعلى بن موسى الرضى :

بنى عمنا الأدنَينِ من آل طالبٍ   تعالوا إلى الأدنَى ، وعودوا إلى الحسنَى
أليس بنو العبَّاس صنوَ أبيكُم   وموضعَ نجواهُ ، وصاحبه الأدنَى
وأعطاكُم المأمون عهدَ خِلافةٍ   لنا حَقها ، لكنَّه جادَ بالدُّنيَا
ليعلمكم أنَّ التى قد حَرِصتُم   عليها ، وغودرتُمْ على إثرها صرْعَى
يَسيرٌ عليه فقدُها ، غيرُ مكثرٍ   كما ينبغي للصالحين ذوى التقوى
فمات الرّضى ، من بعدِ ما قد علمتمُ   ولاذت بِنَا من بعده مرةً أخرى
وعادت إلينا ، مثل ما عادَ عاشق   إلى وطنٍ ، فيه له كلُّ ما يهْوَى
دَعُونا ودنيانَا التى كَلِفتْ بنا   كما قد تركناكم ، ودنياكم الأولى

ويقول من قصيدة أخرى ذاكِرًا الخلاف بينهما :

نصحتُ بنى رَحِمِى لودَعُوا   نصيحةَ بَرٍّ بأنسابِها
وقد ركبوا بَغْيُهمْ ، وارتقوا   بِزَلاَّءَ تُردى بركَّابِها
وراموا فرائِسَ أسدِ الشرَى   وقد نشبت بيْنَ أنيابِها
دعُوا الأسْدَ تفرس ثم اشبعوا   بما تدعُ الأسدُ في غَابِها
قتلنا أُميَّةَ فى دارها   ونحنُ أحقُّ بأسلابِها
وكم عصبةٍ قد سقتْ منكم الـ   خلافةَ صأبا بأكوابِها
إذا مَا دَنوتُمْ تلقتكُمُ   زَبُوناً ، وقرَّت بحلاَّبِها[1]
ولمَّا أبى الله أن تملكوا   نهضنا إليها ، وقمنا بها

ويقول :

ونحنُ ورثنا ثيابَ النبىِّ   فلم تجذبونَ بأهدابِها
لكم رحمٌ يا بنى بِنْتِه   ولكن بنو العمِّ أولى بها

ويقول :

(١) الزبونُ التى تدفع حالبها برجلها .

فمهلاً بنى عمّنا إنّها	عطيّةُ ربٌّ حبَانا بِهـا
وكانتْ تزلزلُ بالعـالمين	فشدَّتْ إلينا بأطنابِهـا
وأقْسِمُ أنكـمُ تعْلَمـونَ	بأنّا لها خيرُ أرْبَابِها

هذا مثال من الشعر السياسى الذى واجه به عبد الله بن المعتز بعض الثائرين من العلوية والمطالبين بحقهم ، ولم يقرْ لهم قرارٌ منذ قيام الدولة ، وحتى عصر ابن المعتز الذى اشتدت فيه ثوراتهم .

وله فيما أصاب الدولة من خور وضعف انعكست نتائجه على الخلافة والخلفاء ، فتسلط عليهم الترك من خدم القصر ، واصبحوا يعزلون ويولون ، ويقتلون ، ويسجنون . يقول[1] :

هذا كتابُ سِيَرِ الإمامِ	مهذَّباً من جوهرِ الكلامِ
قامَ بأمرِ المُلكِ لمَّا ضاعَا	وكانَ نهباً فى الوَرى مشاعَا
مذَلَّلاً ليست له مهابَهْ	يخافُ إنْ طنَّتْ به ذُبابَهْ
وكلِّ يومٍ ملكٌ مَقْتُولُ	أو خائفٌ مُرَوَّعٌ ذليلُ
أو خالعٌ للعقْدِ كي ما يَغْنَى	وذاكَ أدْنَى للرَّدىَ وأدْنَى
وكَمْ أميرٍ كانَ رأسَ جَيْشِ	قد نغَّصُوا عليهِ كلَّ عَيْشِ
وكلِّ يومٍ شَغْبٌ وغَضْبُ	وأنفسٌ مقتولةٌ وحَرْبُ
وكَمْ فتىً قد راحَ نهباً راكباً	إما جليسَ خَلِيلِكِ أو كاتبا
فوضعُوا فى رأسِه السِّياطا	وجعلوا يُرِدُونَهُ شَطَاطَا
وكمْ فتاةٍ خرجتْ من منْزِلِ	فغصبوها نفسَهَا فى المحْفَلِ
وفضَحُوها عن من يَعْرِفُهَا	وصدقوا العشيق كيف يَعْرِفُهَا
وحصَلَ الزَّوجُ لضعفِ حيلَتِهْ	على نُواحِه ونتْفِ لحيتِهْ
وكلَّ يومٍ عسكراً فعسكَرا	بالكرخ والدور مواتاً أحمرا
ويطلبونَ كلَّ يومٍ رِزْقَا	يرونه ديناً لهمْ وحقَّا
كَذاكَ حتَّى أفقروا الخلافَهْ	وعوَّدوها الرُّعبَ والمخافَهْ

ويذكر فساد الوزراء ومصادرتهم أموال الناس ، وأخذهم الرّشاوى ، وعلى

---

(١) ديوانه ص ٤٨١ .

رأسهم إسماعيل بن بلبل الذى هجاهُ ابن الرومى هجاء مقذعا . يقول ابن المعتز فيه وفى سيئاته :

وما نسينَا مصرعَ الكفورِ الجاهِلِ المخلِّط المغرورِ
إذ قدَّر الخلاف والعصيانَا فزادَهُ ربُّ العلا هوانا
يكنَى بصقرٍ وأبوه بلبلّ هذا لعمرى باطِلّ لا يُقْبَلُ
مازال فى نخوتِه وتيهِهِ لا يأخذ الصوابَ من وجوهِهِ
يجهورُ اللفظ إذا تكلَّمَا ويزجرُ العافىَ والمسَلِّمَا

وقضى له حظه أن يعيش وسط هذا الجو المضطرب ، وأن يتجشم سوءه ، ويكون ضحية صارخةً لرمز من رموز الحكم العباسى فى أخريات القرن الثالث .

قالوا اتفق جماعة من رؤساء الجند والكتاب على خلع المقتدرِ سنة ٢٩٦ هـ ، وبايعوا عبد الله بن المعتز ، وأقاموا فى الخلافة يوماً وليلة ، ثم إنَّ أصحاب المقتدر تحزَّبوا عليه ، وحاربوا أعوان ابن المعتز وشنقوهم ، وأعادوا المقتدر إلى دسته ، واستخفى ابن المعتز فى دار من دور بغداد ، ولكنَّ أصحاب المقتدر عثروا عليه ، وسلّم إلى مُؤنس الخادم فقتله ، وقيل خنقه ، وسلمه إلى أهله ملفوفاً فى كساء ، ودُفِنَ فى خرابةٍ بإزاء داره .

تلك كانت نهاية الأمير الشاعر الأديب فى عصر مهما قيل فيه فلن نبلغ حقيقة ما انتابه من فوضى واضطراب .



الفصل السادس
شعراء محافظون
البحـــترى
(٢٠٦ هـ ـ ٢٨٥ هـ)

هو الوليد بن عبيد الله البحترى الطائى ، ونسبته البحترى إلى أحد أجداده بحتر . ولد بمنبح سنة ٢٠٦ هـ بالشام ، وتقع بين الفرات وحلب على مفترق الطرق التجارية القديمة الواصلة بين المشرق والمغرب عبر الجزيرة الفراتية وشمالى الشام .

ونسبته الطائى إلى قبيلة طىء فقد كان منها والده ، أما أمه فكانت شيبانية ، وأتيحت له نشأة عربية خالصة فى بلدته منبج ، وفى باديتها وكان أهل منبج على عهده عربا خلصا ، ويضرب فى باديتها بطون من طىء تصل ما بينها وشواطىء الفرات .

وعاش البحترى معظم صباه فى بلده ، وتنقل فى مطلع شبابه فى بعض مدن الشام والتقى بأبى تمام فى حمص فسمع منه الشعر وشجعه ، وكتب إلى بعض معارفه وممدوحيه بمعرة النعمان وغيرها يقرظه ويقدمه شاعراً .

ويبدو أن البحترى لازم أبا تمام زمنا ، وتخرج عليه فى قول الشعر ، فهو يقرُّ بأستاذيته ، واقتدائه به ، وربما اعتمد على شعره فى كثير من لفظه ومعانيه على ما بين بعض النقاد .

وظل تنقل البحترى فى البلاد حتى بلغت به قدمه بغداد عاصمة الخلافة ، وهناك التقى ببعض العلماء والشعراء ، وحظى فى مجالس السادة من القادة وكبار الكتاب والوزراء ، وتقدم بمدائحه إليهم فنال ما تمنى من القربى والمال والشهرة .

وقدمه أحد ممدوحيه الوزير الفتح بن خاقان إلى الخليفة المتوكل فلقى لديه قبولا وقربه ، وصار شاعره الاثير . يكثر حضور مجالسه ومنادمته ، وشهد فى النهاية مقتله هو ووزيره على يدى أحد جند الاتراك .

وغادر البحترى بغداد فى رحلات ينتجع بلاد المسلمين طالبا العطاء وقاصدا بشعره الأمراء والولاة . ولقى بمصر خمارويه الطولونى فمدحه . وبقى بجواره زمنا .

واتصاله بالخليفة العباسى وكبار رجال دولته مَهَّدَ له السبيل كى يكون شاعر الدولة الرسمى ، وداعية عباسيا . وقد ذكر العلماء أنه كان عباسيا فى اتجاهه الرسمى إذا تحدث عن حقهم فى الخلافة والامامة وأشاد بهم . ونافح عنهم ضد من ينكرون حقهم ذاك . وفى مدائحه المتوكل تعلو هذه النغمة ، فهو عنده الذى أحيى السنة بعد أن أصبح الناس حيرى وبعد أن ضلوا فى رأيه بغلبة الاعتزال وعلم الكلام . فقد نصر المتوكل أهل السنة على المعتزلة بعد أن غلبوا على بلاط الخلافة منذ زمن المأمون .

يقول :

أسلم أمير المؤمنين لسنة أحييتها والناس حيرى ضلل

وإذا كانت العباسية هى لونه الرسمى فإن لأقوال العلماء عن حقيقته إتجاها آخر ، ذلك أنهم رموه بالتقلب والتحول ، يكون معتزليا ثم يتخلى عن ذاك ليصبح سنيا . يروى المرزبانى أنه قيل له : ويحك ! أتقول :

ويجرفون كلامه المخلوقا

أصرت قدريا — يعنى معتزليا ؟ — فقال : كان هذا دينى أيام الواثق ، ثم نزعت عنه أيام المتوكل .

البحترى الرجل :

كان البحترى لا يحسن اختيار بزّته ، طويل اللحية ، رث الهيئة . وقد تواترت الأخبار فى ذلك ، واتخذها بعض أعدائه من الشعراء سبة له ، يهاجمونه بها . وقالوا عنه : كان من أوسخ خلق الله ثوبا وآلة ، وأبخلهم على كل شىء ، وكان له أخ وغلام معه فى داره ، فكان يقتلهما جوعا ، فإذا بلغ منهما الجوع أتياه يبكيان فيرمى إليهما بثمن أقواتهما مضيقا مقصرا .

وكان يلازمه غلام له اسمه نسيم لا يطيق فراقه ، أكثر من ذكره فى شعره ومنه قوله :

دعا عبرتى تجرى على الجود والقصد　　أظن نسيما قارف الهم من بعدى
خلا ناظرى من طيفه بعد شخصه　　فيا عجبا للدهر فقد على فقد

وكان نسيم غلاما روميا ليس بحسن الوجه ، وكان قد جعله بابا من أبواب الحيل على الناس فكان يبيعه ويعتمد أن يصيره إلى ملك بعض أهل المروءات ، ومن ينفق عنده الادب فاذا حصل فى ملكه شبب به وتشوقه ومدح مولاه . حتى يهبه له ، فلم يَزَل دأبه حتى مات نسيم فكفى الناس أمره .

وكانت هيئة البحترى عند إنشاده الشعر تدعو إلى السخرية منه . إذ كان من أقبح الناس انشادا . يتشادق ، ويتزاور فى مشيه مرة جانبا ومرة القهقرى ، ويهز رأسه مرة ، وفكيه أخرى ، ويشير بكمه ، ويقف عند كل بيت ويقول : أحسنت والله . ثم يقبل على المستمعين فيقول : ما لكم لا تقولون : أحسنت ؟! . هذا والله ولا يحسن أن يقوله أحد .

شاعريته :

وقال البحترى الشّعرَ شابا ، وكان يحب غلاما من أهل منِبج يقال له شقران لقيه وقد نبتت لحيته فقال :

نبـتت لحيــة شـقــرا　　ن شفيق البقى بعـدى
حلـقت ! كيــف أتـتــه　　قبل أن ينجـز وعـدى

ويروى أن هذا أول شعر له قاله . ومن أوائل شعره كما يروى عنه ابنه قوله يفتخر :

انما الغى أن تكون رشيدا

وقوله يصف الذئب :　　سلام عليكم لا وفاء ، ولا عهد

وقد التقى البحترى بعد أن نضج بأبى تمام فعرض عليه وكان يقدمه ويحترمه ، ويجل شعره ، وقدمه إلى ممدوحيه واعترف البحترى بأستاذين

ولما نضج فى فنه واشتهر ارتحل إلى بغداد يطلب المجد . فى مديح عليه القوم ويُمَنّى النفس ببلاط الخليفة . وقد التقى ببغداد بكثير من رجال العلم ، والأدب وكان يتردد عليه منهم المبرد . كان يقدم عليه فى مسجده الذى يجلس فيه لالقاء دروسه .

وكانت صلته ببعض أدباء عصره كعبد الله بن الحسين القطربلي وطيدة . وقد مدحه بقصائد منها :

خان عهدى معاودا خون عهدى

وقوله :

أهلا بذلكم الخيال المقبل

وقوله :

ألمت وهل إلمامها لك نافع

ويتصل بالفتح بن خاقان ، ويقترب منه وتطول ملازمته له ، فيغدق عليه من ماله الكثير ويستغنى مما يخلع عليه ، وله فيه القصائد ذوات العدد ، والتى تُعَدُّ درر شعره مع قصائده فى المتوكل .

ويشير النقاد إلى اعتذاراته لابن خاقان فيرونها من أجمل شعر الاعتذارات بعد النابغة ويقول فى الفتح :

وأنت الذى أعززتنى بعد ذلتى فلا القول مخفوض ولا الطرف خاشع
وأغنيتنى عن معشر كنت برهة أكافحهم عن نيلهم وأقارع
فَلَسْتُ أبالى جاد بالرِّفدِ باذل على راغب أو ضن بالخير مانع

مكانة البحترى الشعرية :

كان ابن المعتز يقول : « لو لم يكن للبحترى من الشعر الا قصيدته السينية فى وصف إيوان كسرى فليس للعرب سينية مثلها . وقصيدته فى وصف البركة :

ميلو إلى الدار من ليلى نحييها

واعتذاراته فى قصائده إلى الفتح بن خاقان ، ليس للعرب بعد اعتذارات النابغة الى النعمان مثلها . وقصيدته فى ابن دينار التى وصف فيها ما لم يصفه أحد قبله التى أولها :

ألم تر تغْليسُ الربيع المبكر

ووصفه حرب المراكب فى البحر . لكان أشعر الناس ، فكيف إذا أضيف هذا إلى صفاء مدحه ورقة نسيبه فى قصائده ؟! .

وكان ابن المعتز كثيرا ما ينشد له ، ويتعجب من جودته .

وكان أبو تمام يرى فيه مخايل شاعرية مبكرة حين التقى به فى بدء قوله الشعر ، وقدمه إلى أهل المعرة ، ويقال ان أول القاء بينهما كان فى حمص .

وكان البحترى كثيرا ما يذكر أبا تمام وفضله عليه كلما سئل عمن أشعر فيهما أهو أم أبوتمام . وروى أنه قيل للبحترى : الناس يزعمون أنك أشعر من أبى تمام . فقال : والله ما ينفعنى هذا القول : ولا يضر أبا تمام . والله ما أكلت الخبز إلا به ، ولوددت أن الأمر كما قالوا ، ولكنى والله تابع له ، لائذ به آخذ منه . نسيمى تركد عند هوائه ، وأرضى تخفض عند سمائه .

قال الصولى معقبا على هذا : « وهذا من فضل البحترى أن يعرف الحق ويقر به ، ويذعن له وإنى لأراه يتبع أبا تمام ومعانيه حتى يستعير مع ذلك بعض ألفاظه فلا يقع إلا دونه » .

وسئل البحترى : أيكما أشعر أنت أم أبو تمام ؟ . فقال : جيده خير من جيدى ، ورديئى خير من رديئه . قال الصولى : وقد صدق . جيد أبى تمام لا يتعلق به أحد من أهل زمانه .

ويروى أنه اجتمع فى دار عبد الله بن الحسين القطربلى وكان معهما المبرد وجماعة من الفضلاء فسأله المبرد (وكان ذلك سنة ٢٧٦ هـ) وقد أنشد شعرا : أنت فى هذا أشعر من أبى تمام . فقال كلا والله . ذاك الأستاذ الرئيس . والله ما أكلت الخبز إلا به . فقال له المبرد : تأبى إلا شرفا من جميع جوانبك .

وقيل أن من فضائله فى الشعر سبقه إلى التعزية عن النبات .

أغراضه الشعرية :

وموضوعات شعر البحترى أو أغراضه عامة هى الأغراض الغالبة على الشعر العربى وشعر التكسب أو الاحتراف إذا جاز لنا هذا التعبير فى مجال الشعر . ومعظمه فى المديح قصد به الخليفة العباسى وكبار معاونيه من الوزراء والكتاب والقادة والرؤساء .

---

(١) راجع أخبار أبى تمام للصولى بتحقيق خليل عساكر وعبده عزام ، ص ٦٧ .

مديحـــه :

وفى مديحه يعرضُ للمعانى العامة التى اعتادها شعراء العرب من إضافة صفات المثال الكامل للرجل ، وأولها بطبيعة الحال صفة الكرم ، والهيبة ، وكريم الشيم ، وتتردد فى شعره بصورها التقليدية مع تلوين فى العرضِ بما يناسب المقام .

فيقول :

ملك له فى كل يوم كريهة ... إقدام ليث واعتزام مجرب
وتراه فى ظلم الوغى فتخاله ... قمرا يشد على الرجال بكوكب

ويقول :

أعطيتنى حتى حسبت جزيل ما ... أعْطَيْتنيهِ وديعة لم توهب
فشبعت من بر لديك ونائل ... ورويت من أهل لديك ومرحب

ويمدح محمد بن بدر من ممدوحيه فيقول :

بات ابن بدرٍ لنا بدرا نهدُّ بهِ ... سَدَّ الظلام إذا امتدت غياهبه
مناكر لدنيئات الأمور تقى ... يَزْوَرُّ عن جانب الفحشاء ، جانبه

وقد يذكر البحترى عشيرة الممدوح أو قبيلة ، وهو إذا تناول الخليفة فانما يعرض لبنى العباس وشمائلهم وفضلهم على الخلافة وذودهم عنها كل معتد أو ضال وخارج . ويذكر حمايتهم للاسلام ، وإقامتهم لأعلامهم وبسطهم لغته وعدلهم بين الناس . مع ما يضفيه الله عليهم من جلالة الإمامة وبهاء الخلافة .

يقول فى المتوكل وهو فى مقدمة ممدوحيه :

يعلو بقدر فى القلوب معظم ... أبدا وعز فى النفوس جديد
فى هضبة الإسلام حيث تكاملت ... أنصاره من عدة وعديـد
أحيا الخليفة جعفر بفعاله ... أفعال أبـاء له وجـدود
تنكشف الأيام من أخلاقه ... عن هدى مهدِىٍّ ورُشْدِ رشيد
فاسلم أمير المؤمنين ولا تزل ... مستغلبا بالنصـر والتأييـد
نعتد عزكَ عز دين محمد ... ونرى بقاءك من بقاء الجود

ويقول فيه :

خلق الله جعفرا قَيِّمَ الدنـــ ـــيا سدادا وقيم الدين رشدا
وشبيه النبى خلقا وخلقا ونسيب النبى جـدا فجـدا

ويليه من ممدوحيه من رجال الدولة الكبار الفتح بن خاقان ، وكان مقربا من المتوكل. ويشير البحترى فى مديحه إلى مكانته تلك من الخليفة، وإلى أباديه فى حفظ الدولة والذب عنها .

يقول :

سللت دون بنى العباس سيف وغى يدمى وعزما اذا ضرمته وقدا
آثار بأسك فى أعداء دولتهم اضحت طرائق شتى بينهم قِدَدَا
إمَّا قتيلا يَحُوفُ السيف مهجته أو نازعا ليسَ يَنْوِى عودة أبدا
حتى تركت قناة الملك قيمة بالنصح لا عوجا تشكو ولا أودا

وهكذا تجد البحترى يكيل الصفات العامة لممدوحيه ، مثنيا بما قد يناسب المقام من صفات خاصة تتصل بشخصه ومكانته فى الدّولة أو فى قومه ، وما يتولى من الأعمال . وهو نهج وسلوك تعاورَهُ الشعراء .

ولا جديد فى هذه المعانى ، وجميل من البحترى حسن ديباجته ، وروْنق عرضه لمعانيه القديمة الجارية . ونضرب مثالا على هذا الجديد فى حسن العرض بوصفه لمهابَة الخليفة .

فى المديح (الخليفة المتوكل) :

وللبحترى صياغة سلِسةٌ تجرى مجرى الماء رقة وعذوبة ، يعبر بها عن معناه فى وضوح لا يقدر عليه غيره . فيتناول معنى من معانى المديح ، مهابة الخليفة ، فيعبر عنه تعبيرا جميلا رائقا فيقول دون كلفة :

ولما حضرنا سُدَّةَ الإذن أخرت رجال عن الباب الذى أنا داخله
فافضيت من قرب إلى ذى مهابة أقابل بدر الأُفق حين أقابله
إلى مسرف فى الجود لو أن حاتما لديه الأمسى حاتما وهو عاذله
بدا لى محمود السجية شمرت سرابيله عنه وطالت حمائله
كما انتصب الرمح الردينى ثقفت أنابيبه للطعن ، واهتز عامله

وكالبدر وافته لتم سعوده وتم سناه واستهلت منازله
فسلمت واعتاقت جَنانِىَ هيبة تُنازِعُنى القول الذى أنا قائله
فلما تأملت الطلاقة وانثنى إلىَّ ببشر آنستنى مخائله
دنوت فقبلت الندى فى يد امرىء جميل محياه سباط إنامِلُهْ
حَفَتْ مثل ما تصفو المدام خلاله ورقت كما رف النسيم شمائله

وقد أعجب النقاد هذا العرض فقالوا لم يقل أحد فى مثل ما قال .

وتتسم قصائد البحترى فى المديح بسمات هذا الموضوع فى الشعر العربى عامة ، وهو موضوع غايته التكسب أى أن يحصل الشاعر من ورائه على المال ، وتركت هذه الغاية أثرها فيما يقول ، كالتعريض بالطلب ، أو الشكر الذليل رغبة فى زيادة العطاء ، أو الشكوى من الحاجة والفقر ، واللهفة على أن يكون للشاعر بفضل الممدوح ما يكفيه ، ويروى غلته ويسد حاجته .

وللبحترى فى هذا كثير من الشعر لا يدخل مداخل الفن ، بل هو أقرب إلى السؤال والاستجداء .

يقول للحسن بن سهل :

أثنى عليك ثناء من أَلفَيْتَهُ غفلا فعاد بنعمة موسوما

ويقول للخليفة المتوكل :

أمنت به الدهر الذى كنت أتقى ونلت به القدر الذى كنت آمله

ولكن قصائد المديح بعد ذلك تكون مجالا — أحيانا — لان يكشف الشاعر عن شاعريته وفنه بعد أن يفرغ من غايته تلك .

بناء القصيدة عند البحترى :

يبدأ فى القصيدة التقليدية بمطلعه التقليدى فى النسيب أو الغزل، وفى النسيب قد يذكر الديار والنزوح . والفراق ، ويذكر الشيب والشباب المولى .

يقول مثلا :

هب الدار ردت رجع ما أنت قائله وأبدى الجواب الربع عما تسائله
أفى ذاك برء من جوى ألهب الحشا توقده وأستغزر الدمع جائله
هو الدمع موقوف على كل دمنة تعرج فيها أو خليط تزايله

وهو مفتن فى تنويع هذا المطلع ، يعرضه فى صور متعددة . كأن يقول مثلا :

عهدى بربعك مأنوسا ملاعبه ... أشباه آرامه حسنا كواعبه
يشبن للصب فى صفو الهوى كدرا ... إن وخطُ شيب أعدته ذوائبه

يقول :

لدارك يا ليلى سماء تجودها ... وأنفاس ريح كل يوم تعودها
وان خف من تلك الرسوم أنيسها ... وأخلق من بعد الانيس جديدها
منازل لا الأيام تعدى على البلى ... رباها ولا أوْبُ الخليط بعيدها
وعهدى بها من قبل أن يحكم النوى ... على عينها أن لا تدوم عهودها

وإلى جانب عرض البحترى للمعانى التقليدية فى النسيب والغزل من ذكر للديار ، والدعاء لها بالسقيا وذكر معتادها من الوحش العين والظباء ، وذكر الرحيل والفراق وآلامه ، والذكرى ، واستعذابها واستعادة الأيام الخوالى . إلى جانب هذا كله نجد البحترى يهتم بالخيال[1] أو طيف محبوبته ، فيسترجع به تلك الذكرى الماضية ، ولعل هذا الجديد الذى أدخله على هذا المطلع .

يقول :

أرجم فى ليلى الظنون وأرتجى ... أواخر حب خلفتنى أوائلهْ
وليلة هَوَّمْنَا على العيس أرسلت ... بطيف خيال يشبه الحق باطله
فلولا بياض الصبح طال تشبثى ... بعطفى غزال بت وهنا أغازله
وكم من يد لليل عندى حميدة ... وللصبح من خطب تذم غوائله

وقد يبدأ مباشرة بذكر الطيف فيقول :

قد كان طيفك مرة يغرى بى ... يعتاد ركنى طارقا وركابى
فالآن ما يزداد غير مغبة ... ومن الصدود زيادة الإغباب

ثم يبدأ بعدها بذكر الديار فيقول :

---

(١) اشتهر البحترى باكثاره البيت عن طيف الخيال على غير العادة حتى ألف بعضهم فيه .

جئنا نُحيِّى من أثيلة منزلا جددا معالمه بذى الأنصاب
أدى إلى العهد من عرفانه حتى يكاد يرد رجع جوابى

وقد يبدأ بداية تقليدية دون تجديد . كأن يقول :

أرسوم دار أم سطور كتاب درست بشاشتها مع الأحقاب

على أن للبحترى صورا عذبة الوقع رقيقة الخطوط على تقليديته يقول :

ترنو فتنقلب القلوب للحظها مرضى السلو صحائح الأوصاب
رفعت من السجف المنيف وسلمت بأنامل منهن درس خضاب
وتعجبت من لوعتى فتبسمت عن واضحات لو لثمن عذاب

وإذا خلص البحترى من هذا المطلع لم يحسن الانتقال ، وقد أخذ عليه هذا ، فقال النقاد لم يكن يحسن التخلص إلى غرضه .

ومن جديد شعره :

وصف معركة بحرية بين المسلمين والروم . يقول يصف قائدا مسلما بحريا :

ولما تولَّى البحر والجودُ صنوه غدا البحرُ من أخلاقه بين أبحُرِ
أضاف إلى التدبير فضل شجاعة ولا عزمَ إلا للشُّجاعِ المدبِّرِ
اذا شجروه بالرماح تكسرت عواملُها فى صدرِ ليثٍ غضنفر
غدون على الميمون صبحا وإنما غدا المركب الميمون تحت المظفر
أطَل بعطفيه ومر كأنما تَشَوَّفَ من هادى حصان مشهر
إذا زجر النوتى فوق عَلَاتِهِ رأيت خطيبا فى ذؤابة منبر
يغضون دون الإشْتِيامِ عيونهم وفوقَ السماطِ للعظيمِ المؤمَّرِ
إذا عصفت فيه الجنوب اعتلى له جناحا عقاب فى السماء مُهَجِّرِ
إذا ما الكَفَا فى هَبْوَةِ الماء خلته تلفع فى أثناء برد مُحَبَّرِ
وحولك رَكَّابونَ للهول عاقروا كؤوس الـردى من دارعين وحُسَّرِ
تميل المنايا حيث مالت أكفهم إذا أصلتوا حد الحديد المذكر

(١) ديوانه تحقيق الصيرفى ٢ /٨٢٩ .

(٢) العود الجمل المسنُّ ، وجرجر البعير ردَّدَ صوتا من حنجرته .

إذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم ليقلع الا عن شواء مُقَتَّرِ
صدمت بهم صهب العثانين دونهم ضراب كإيقادِ اللظى المتسعر
يسوقون أسطولا كأن سفينه سحائب صيف من جهام وممطر
كأن ضجيج البَحْرِ بَيْنَ رماحهم إذاأختلفت تَرْجيعُ عَوْدٍ مُجَرْجِر
تقارب من زُّخْفِيهُمُ فكأنما تؤلف من أعناق وحش مُنَفَّرِ
فمارمت حتى أَجْلَتْ الحرب عن طَلَّى مقطعة فيهم وهام مُطَيَّرِ
على حين لا نَقْعٌ تُطَوِّحُهُ الصبا ولا أرض تُلْفَى للصريع المقَطَّرِ
وكدت ابن كسرى قبل ذاك وبعده مليا بأن توهى صفاة ابن قيصر
جدَحْتَ له الموت الذعاف فعافه وطار على ألواح شطب مُسَمَّرِ
مضى وهو مولى الريح يشكر فضلها عليه أخزرِ، ومَنْ يول الصنيعة يشكو
إذا الموج لم يبلغه إدراك عينه ثنى فى انحدار الموج لحظة أفزر[1]
تعلق بالأرض الكبيرة بعدما تنقصة جرى الردى المتمطر

---

(١) أفزر : ضيق العين .

وصف البحترى لإيوان كِسرى

وللبحترى القصيدة المشهورة السينية التي وصف فيها إيوان كسرى . وهى من أبدع الشعر العربى . وأجمله بناءًا و شاعريةً ، وأحاسيس ومشاعر وتدفق عاطفة ، فى سلامة من اللغة ومقدرة تفوق حدّ التصور فى رسم ما وقعت عليه عيناه بالكلمة النابضة الحيّة ، حتى وكأنه يبعث فى هذا الرّسم الرُّوح فيعيده سيرته الأولى ، عامراً بصاحبه كسرى أنو شروان وحاشيّه ، وتتوافر خيالاته ، وتداعياتها تنُفضُها الكلمات مشوبةً بوجدان الشاعِر ، وموقفه من الحياة والناس فى مرحلة من مراحل الضيق وما يشبه الأزمة ، مرَّ بها ، فوقع على الإيوانِ الصرح الذاوى فى جنب الجبل مشمخراً مع النكران ، رابضاً فى عناد على الرغم من ضربات الزمن يحكى للأجيال قصة الحياة ، الهبوط بعد الصعود ، وانطفاء الشعلة بعد وقْدَتِها.

يقول :

صُنْتُ نَفْسِى عمَّا يُدَنِّسُ نفْسِى — وترفَّعْتُ عن جَدَا كلِّ جِبْسِ[1]
وتماسَكْتُ حينَ زعْزَعَنِى الدَّهْـ — ـرُ التماساً منه لتعْسِي وَنكْسِى[2]
بُلَغٌ مِنْ صُبابَةِ العَيْشِ عِنْدِى — طفَّفَتْها الأيَّامُ تطفيفَ بَخْسِ[3]
وبعيدٌ ما بيْن واردِ رِفْـهٍ — عَلَلٍ شُرْبُهُ وَوَارِدِ رِخِمْسِ[4]
وكأنَّ الزَّمانَ أصبحَ محمُولاً — هواهُ على الأخَسِّ الأخَسِّ
واشترائِى العِرَاقَ خطَّةَ غَبْنٍ — بعْدَ بيْعِى الشآمَ بَيْعةَ وكْسِ[5]
لا تُرُزِنِى مُزَاوِلاً لاختبارِى — بعد هَذِى البَلْوَى فتنكِرَ مَسِّى[6]
وقديماً عَهِدْتَنِى ذَا هَنَاتٍ — آبياتٍ على الدَّنيَّاتِ شُمْسِ
ولقَدْ رابنى نُبُوُّ ابنِ عَمِّي — بَعْدَ لِينٍ من جانبيْـه وأُنْسِ
وإذا ما جُفيتُ كنتُ جَديراً أنْ — أرَى غيرَ مُصْبِحٍ حيثُ أُمْسِى
حضَرتْ رحْلِىَ الهموم فوَجَّهْـ — ـتُ إلى أيضِ المدائِنِ عَنْسِى

---

(١) جدا : عطاء ، وجبس لئيم بخيل فاسق .

(٢) النكس الانتكاس والانقلاب .

(٣) بُلَغٌ ما يُتبلغُ به من العيش ، أو ما يعيش الإنسان به بالكاد ، والصُّبابة بقية الماء .

(٤) الرِّفهُ طيب العيش ولينُه ، والعلل الشرب الثانى ، والخمس الشرب بعد العطش .

(٥) الغبن والظلم والخداع والوكس النقصان .

(٦) لا ترزنى لا تصبنى برزء .

فى هذه المقدمة غير التقليدية للقصيدة الذاتية يشكو البحترى أزمته النفسية ، ودواعيها ، والرَّجُل قد فارَق الشبابَ ، والأحباب ، وقضى ما قضى من العمر ، ورأى ما رأى فى الحياة ، وجاور خليفة المسلمين المتوكل ، وحظى عنده بكل ما يحبُّ المرء ، وحصَّل من المال والجاه والشهرة فى العاصمة بغداد وتقلّب الزمان ، وضاعَ الشباب ، ورأى مصرع الخليفة أمام عينيه ، ومعه صديقه وصاحبه الفتح بن خاقان ، قتلهما خدم القصر غيلة ، فهوى هذا الجبل وصار جسداً مضرجاً لفّ فى بساطٍ كانت تطآه الأقدام .

تغيَّر الرؤية ، وتنبه على تفاهة الحياة وحقارة الدنيا ، وتقلب الدهر . اختفى البحترى بعد مقتل المتوكل زمناً طال أو قصر ، وعاد إلى بلده بالشام فقضى به زمناً يجترُّ ذكر العمر ، ويستعيد صور الماضى ، ترك بلده إلى بغداد عاصمة الملك ، فأمضى بها زمناً عاشه كالحلم ، انتهى بتلك المأساة .

ثم وهو فى غمرة هذه الذكريات والعمر مولّ ، والضعف منتابُه ، وبعد أن جالس الخليفة وصحبه من الوزراء وكبار الدولة ، كيف يقصد بشعره بعدهم من لا يدانيهم كرماً وسماحةً ، ورفعةً .

يجد نفسه مضطراً ، لكنه لا يخضع لضرورة الظروف ، يتمرَّدُ عليها ، يلعَنُها يهربُ بعيداً ، يبحث عن شخص أو شيء يشكو إليه همه ، يشخص إلى المدائن فيرى هذا الصرح ، فيذكّره بنفسه وحاله ، فيتخذ منه موضوعاً لبث لواعجه واستعراض الماضى ، ومقابلته بالحاضر ، ماضٍ زاهر ، وحاضرٍ أليم .. الصرح مهيبٌ ، به آثار النعمة ، لكنه صامدٌ حزينٌ ، به ضربات الأيام ، ويمتزج بالإيوان لأنه يرى فيه نفسه ، وقصة حياته ، ويَرى سيرة الحياة ، ومن خلال سبحاته ، وخطراته يرى ما قدمه الفرس أصحابه للبشر من حضارة ، وللعرب من أيادٍ ، لأهله اليمن خاصة من عون على الغزاة الأحباش .

طراز جديد من الشعر لم تألفه القصيدة العربية من قبل ، ترابطت عناصرها ودارت أبياتها حول محور النفس المأزومة ، تقترب منه وتبتعد ، تتفرق ثم تعود لتتجمع حول هذا المحور .

ويفتتح المقطع الثانى « المعادل الموضوعى » بعد أن قدم بالأزمة ، وحال الشاعر والموقف الشعورى بهذين البيتين وهما الرباط بين المقدمة والموضوع :

حضَرَتْ رحْلِيَ الهمومُ فوجَّهْتُ ... إلى أبيضِ المدائِنِ عَنْسِي
أتسلَّى عن الحظوظ ، وآسَى ... لمحلٍّ من آلِ ساسانَ دَرْسِ

ثم يمضى مع الإيوان فى عرضه الرائع ، ومعايشته ، والامتزاج به حتى يفقد إحساسَهُ باللحظة والآن ، ويُعيد فى وجدانه الحياة إلى هذا الموات ، فإذا هو حياةٌ وحركةٌ ، وإذا هو فى لحظة تنبه يشكُّ أهو فى حقيقة أم خيال ، يتلّمسُ ويقرأ بأصابعه ، فقد خانه البَصر !.

أذكرْتنيهُمُ الخطوبُ التّوالى ... ولقد تذكرُ الخطوبُ وتُنسِى
وهُمُ خافضونَ فى ظلِّ عالٍ ... مُشرِفٍ ، يَحْسِرُ العُيونَ ويُخْسِى[1]
مُغْلِقٍ بابَه على جَبَلِ القَبْـ ... ـقِ إلى دارَتَىْ خلاط ومُكْسِ[2]
حِلَلٌ لم تكنْ كأطلالِ سُعْدَى ... فى قفارٍ من البسابِسِ مُلْسِ
ومسَاعٍ لولا المحاباةُ مِنّى ... لم تُطِقْها مسعاةُ عَنْسٍ وعبْسِ
نقَلَ الدّهْرُ عهْدَهُنَّ عن الجِـ ... ـدَّةِ حتى رجعْنَ أنضاءَ لُبْسِ[3]
فكأنَّ « الجرماز » من عدمِ الإنْسِ ... وإخلالِــه بَنيَّــةُ رَمْسِ[4]
لو تراهُ عَلِمتَ أنَّ اللّيالى ... جَعَلَتْ فيه مأتماً بعد عُرْسِ
وهو ينبيك عن عجائبِ قومٍ ... لا يُشابُ البيَانُ فيهم بلَبْسِ
وإذا ما رأيت صُورَةَ أنطا ... كيَّةَ ارتعْت بينَ رُومٍ وفُرْسِ
والمنايا مواثلٌ وأنو شروان ... يُزْجِى الصُّفوفَ تَحْتَ الدِّرَفْسِ[5]
فى اخضرارٍ من اللّباسِ على أصْـ ... ـفَرَ يختالُ فى صَبيغَةِ وِرْسِ[6]
وعِرَاكُ الرجالِ بين يَدَيْهِ ... فى خفوتٍ مِنهمْ وإغماضِ جَرْسِ
من مُشيحٍ يهْوِى بعامِلِ رُمْحٍ ... ومليحٍ من السِّنانِ بتُرْسِ[7]

---

(١) يُخْسى : يحسر ، وهو الارتداد وقد نظم معنى الآية الكريمة : (ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير) .

(٢) جَبَلُ القبق هو الذى يشرف على الإيوان ، وهو جبل عظيم ، وخلاط ومكس مدينتان فى الشّمال فى أرض أرمينيا .

(٣) أنضاء : جمع نضو وهو المهزول الضعيف من الحيوان ، والبالى من الثياب .

(٤) الجرماز اسم القصر أو الإيوان بالفارسية . مُعرَّب .

(٥) الدرفس الراية العظيمة ـــ فارسية .

(٦) الورسُ نبات تتخذ منه صبغة صفراء إلى حمرة .

(٧) المشيح الذى يرفع يده ، وعامِل الرمح عصَاهُ ، وما ركب فيه سنه والمليح المحتمى برفع يده .

تَصفُ العَيْنُ أنّهمْ جِدُّ أحيا ... ءٍ لَهمْ بينَهُمْ إشارةُ خُرسِ

يَغتلِى فيهمُ ارتيابِىَ حتّى ... تتقرّاهُمُ يَدَاىَ بِلَمْسِ

قد سَقانى ولم يُصَرِّدْ أبو الغَوْ ... ثِ على العسكرينِ شَرْبةَ خُلْسِ(1)

من مُدامٍ تظنُّها وهى نجمٌ ... ضَوَّأَ اللّيلَ أو مُجَاجةَ شَمْسِ(2)

وتراها إذا أجدّت سُرورًا ... وارتياحًا للشّارِبِ المُتحسِّى

أُفرِغَتْ فى الزُّجاجِ من كلِّ قلبٍ ... فهىَ محبوبةٌ إلى كلِّ نفسِ

وتوهَّمتُ أن كِسرى أبرويـ ... ـزَ، مُعاطِىَّ والبَلَهْبَذَ أُنسى

حُلُمٌ مُطبِقٌ على الشكِّ عَيْنى ... أم أمانٍ غيَّرنَ ظنّى وحَدْسى

وكأنّ «الإيوان» من عَجَبِ الصَّنْعةِ ... جَوبٌ فى جَنْبِ أرْعَنَ جِلْسِ(3)

يُتظنّى مِنَ الكآبةِ إذ يَبْـ ... ـدُو لعينَىْ مُصَبِّحٍ أو مُمَسِّى

مُزْعَجًا بالفِراقِ عن أُنسِ إلفٍ ... عَزَّ، أو مُرْهَقًا بتطليقِ عُرْسِ

عكسَتْ حظّهُ اللّيالى، وباتَ الـ ... ـمُشتَرِى فيه وهو كوكبُ نَحْسِ(4)

فهوَ يُبدِى تجلُّدًا، وعليهِ ... كَلكَلٌ من كلاكِلِ الدّهرِ مُرْسِى

لم يَعِبْهُ أن بُزَّ من بُسُطِ الدِّيـ ... ـباجِ، واستُلّ من سُتورِ الدِّمَقْسِ

مُشْمَخِرٌّ، تعلو له شُرُفاتٌ ... رُفِعَتْ فى رُءوسِ رَضْوَى «وقُدْسِ»(5)

لابِساتٌ من البَياضِ فما تُبْـ ... ـصِرُ منها إلّا غلائِلَ بُرْسِ(6)

ليسَ يُدْرَى أصُنْعُ إنسٍ لجنٍّ ... سَكَنوهُ، أم صُنْعُ جنٍّ لإنسِ

غيرَ أنّى أراهُ يَشْهَدُ أن لَمْ ... يَكُ بانيهِ فى المُلوكِ بِنِكْسِ

وكأنّ الوُفودَ ضاحينَ حَسْرى ... من وُقوفٍ خَلْفَ الزِّحامِ وخُنْسِ(7)

وكأنّ القِيانَ وسْطَ المَقاصيـ ... ـرِ يُرَجِّعنَ بينَ حُوٍّ ولُعْسِ

وكأنّ اللّقاءَ أوّلَ من أمْـ ... ـسِ، ووشْكَ الفِراقِ أوّلَ أمْسِ

---

(1) يصرّد: يقلل، وأبو الغوث ابنه.

(2) مجاجة: ريق أو عصارة.

(3) الجوب من معانيه التُّرس، ولعله أراد أن يُصوّر الإيوان بجانب الجبل الشامخ كالترس فى يد الكمىّ المتعالى المعتز بنفسه. الأرعن، المرتفع الأنف دليل الكبرياء والعزّة، والجلس الصَّلْد القوىّ أراد الجبل.

(4) المشترى من كواكب المجموعة الشمسية ونظرة القدماء أنه كوكب سعد.

(5) رضوى وقدس اسما جبلين.

(6) غلائل جمع غلالة، أشبه بالقميص تحت الثياب رقيقة، البُرْس القطن.

(7) الضاحى المتعرض للشمس، حسرى مكشوفو الرءوس، وخُنس مطأطئون.

وكأنّ الذى يريدُ اتباعًا … طامعٌ فى لحاقِهمْ صُبْحَ خَمْسِ (١)

عُمِرَتْ للسُّرورِ دَهْرًا ، فصارَتْ … للتَّعزِّي رِبَاعُهُمْ والتأسِّى

فلَهَا أن أعينَها بدمُوعٍ … مُوقَفاتٍ علَى الصَّبابةِ حُبْسِ

ذاكَ عِنْدِى ، وليست الدّارُ دارِى … باقترابٍ ، منها ، ولا الجِنْسُ جِنْسِى

غيرَ نُعْمَى لأهْلِها عند أهْلِى … غَرسُوا من زكائِها خيْرَ غَرْسِ

أيَّدُوا مُلكَنا وشدُّوا قُواهُ … بِكُماةٍ تحتَ السَّنَوَّرِ حُمْسِ (٢)

وأعانُوا علَى كتائِبِ « أرْيا … طَ » بطعنٍ علَى النُّحُورُ ودَعْسِ (٣)

وأرَانِى من بعدُ أُكْلَفُ بالأشْـ … ـرافِ طُرًّا من كلِّ سِنْخٍ وجِنْسِ (٤)

---

(١) يريد أن الطامع فى لحاقهم لا يستطيع إلا بعد خمس ليال أى زمن مديد .

(٢) السنَّوّر السّلاح وآلة الحرب كالدرع والدرقة وما إليها البيضة والترس . (لفظ معرّب) وحمس : شجعان .

(٣) أرياط القائد الحبشى الذى غزا الحبشة ، فبعث الفرس بالأساورة يصدونه مساعدة لليمن .

(٤) السّنخُ الأصل .

الفصل السابع
شعراء مُبْدعون
ابن الرومى
(٢٢١ هـ ــ ٢٨٣ هـ)

هو الشاعر الكبير الفنان على بن العباس بن جريج أو جرجيس ، أو جرجس وكان وفق نظام المجتمع آنذاك مولى لعبد الله بن عيسى بن جعفر ، أحد بنى العباس . وينتمى فى أصوله إلى العنصر اليونانى ، فجده كما هو ظاهر من اسمه منه .

ولد سنة ٢٢١ هـ ببغداد بجوار قصر مولاه عيسى بن جعفر بن المنصور . فى بيت كان صاحبه مولى لأمير عباسى كبير . وقد اكتسب جانبا من الجاه والمال من مولاه . وكان العباس بن جريج على ما يبدو مثقفا ، حرص على تثقيف أبنائه وتربيتهم تربية لائقة .

وقد عاصر ابن الرومى فى بغداد تغيرات سياسية واجتماعية كبرى فى الدولة العباسية . شهد فى صباه سيطرة الفكر الاعتزالى ، والفلسفة ، واتجاه العلماء الى الكلام ، وتغير الخلفاء على أهل السنة والحديث . ثم رأى فى شبابه التحول الكبير فى عصر المتوكل إلى جانب أهل السنة ، وتعقب المعتزلة والمتكلمين ، وتشريدهم وتعذيبهم .

وشاهد كذلك بعض الثورات الشعبية من شطار بغداد وعامتها على القادة والجند الاتراك تارة ، وعلى بعض الخلفاء والوزراء تارة أخرى .

ونضج الشاب ابن الرومى ، فارتاد قصور السادة والامراء والوزراء من رجال الدولة الكبار وقد عاصر من هؤلاء جماعة من بينهم سليمان بن وهب ، وعبيد الله بن خاقان من وزراء المعتمد ، وأبو الصقر سليمان بن بلبل الذى نسب نفسه إلى شيبان وكانت صلة الشاعر به قوية ، بين قربى وبعد ، مدحه فيها وهجاه ، ثم تقرب إلى آل وهب وعلى الأخص عبيد الله والقاسم ونسب إليه موت ابن الرومى ، فيما قيل أنه دس عليه السم فى طعام لاقذاعه فى هجائه .

هذا وقد عاش ابن الرومى حياة بغداد فى القرن الثالث الهجرى بفرحه

وترجه ، مباهجه ومنغصاته ، فكان ترجمانا صادقا له ، لما رزقه الشاعر من حِس صادق . وملكة مصورة ومقدرة على استخدام اللفظ . مما مكنه من التقاط مشاهد الحياة وتسجيلها بالكلمة .

ومعظم ما صوره من بيئة بغداد الشعبية ، وقد عيب عليه فى بلاطات الكبراء هذه الصور الشعبية ، بالمقارنة مع صور ابن المعتز المشرقة بالنعمة والثراء . روى ابن رشيق قال : إن لا ئما لامه فقال : لم لا تشبه تشبيه ابن المعتز ، وأنت أشعر منه ؟. قال أنشدنى من قوله الذى استعجزتنى فى مثله . فأنشده فى صفة الهلال :

فانظر إليه كزورق من فضة　　قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال زدنى . فأنشده :

كـــأن آذريونـــهـــا　　والشمـــس فيه كالـيـة
مداهـــن من ذهـــب　　فيها بقـايـــا غالـيـــة

فصاح : واغوثاه !. بالله لا يكلف الله نفسا إلا وسعها . ذلك إنما يصف ما عون بيته لانه ابن الخلفاء ، وأنا أى شىء أصف ؟. ولكن أنظروا إذا وصفت ما أعرف ، أين يقع الناس كلهم منى ؟، هل قال أحد قط أملح من قولى فى قوس الغمام :

وقد نشرت أيدى السحاب مطارفـــا　　على الأرض دكنا وهى خضر على الأرض
يطرزها قوس الغمام بأصفر　　على أحمر فى أخضر وسط مبيض
كأذيال خود أقبلت فى غلائل　　مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقولى من قصيدة فى وصف الرقاقة :

ما أنس لا أنس خبازا مررت به　　يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة　　وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة　　فى لجة الماء يلقى فيه بالحجر

وتقلبت الحياة بابن الرومى بين حلو ومر ، وكانت له من شخصيته ، وقلة حظه بين الناس وتوتره ، وتخوفه ، وتشاؤمه وطيرته ما مكن لهذا الاحساس فى نفسه ، فأحس بتعاسة واقعية فى حياة مليئة بالبهجة والسرور ، ينهل الناس فيها

ويعلون ، وكانت تعاوده بين الحين والحين ساعات الطرب ، والنشوة حين تزهو له الدنيا ، وتوطىء له كنفها ولكنها كانت ساعات قليلة يتغنى فيها فتحس باللذة والمتعة فى كلماته .

ويصور ابن الرومى حياته تلك الضيقة ، التى ألحت فيها عليه ضروب المعاناة والمنغصات فيشكو متوجعا ، يحسد الهانئين قائلا :

حرمت فى سنى وفى ميعتى　　قراى من دنيا تضيفتها
كم آهة لى قد تأوهتها　　فيها ، ومن أف تأففتها
أغدو ، ولا حال تسنمتها　　فيها ، ولا حال تردفتها
أوسعتها صبرا على لؤمها　　إذا نقصتـــه تطفـــفتها

وهكذا كانت حال الشاعر فى دنياه البغدادية ، بين أمل كبير فى الشهرة وبلوغ المكانة فى الشعر وهو جدير بها ، ويأس من الحياة ، وقنوط من بلوغ ما يريد . وقد لازمته شهرة أذاعها طبع فطر عليه ، شؤمه وطيرته . ورويت فى هذا نوادر تناقلها معاصروه ، فكانت مادة للمداعبة أو المشاكسة .

قالوا إنه يتطير من قطة سوداء تعترضه إذا هم بالخروج من بيته ، فيرتد ليقبع طوال يومه لا يغادره . وقالوا إن صحبته تكسب نحسا فتحاشاه الناس وأقربهم إليه . وأثار هذا فيه غضبا ، وزاده توترا ، فلزمته سوداوية تظر من خلالها إلى العصر وأهله ، فبادرهم بهجاء لاذع مرير ، يصب فيه مرارة نفسه ، وينفس عن كربته . واتخذ الكلمة سلاحا لنقمته .

وزاد هجاؤه من وحشته وانصراف الناس من حوله ، وابتعادهم عنه للسانه ...

وكانت فى طبع ابن الرومى حدة وتطرف ، كان اذا أحب أحب بنهم ، وأقبل على من يحب أو ما يحب بكل جوارحه ، وإذا كره كره فى عنف ، وأحس فيما يكره وفيمن يكره كل خصائص الشر والقبح .

وقد أهل ابن الرومى طبع فيه لنقد حال المجتمع ، فأبرز هذا جليا على غير العهد من شعراء العصر ممن مجدوا الحكام والقادة ، وتقربوا إليهم بكيل المديح ، والصفات التى لا يملكون منها سوى القليل ، بل لعلهم يصفونهم على عكس ما يكونون تملقا وطلبا للمال .

وظهرت أمام عين ابن الرومي الناقدة عيوب مجتمعه وناسه في مرحلة اضطرت فيها الأحوال ، واختلطت القيم ، فتقدم الحقير ، وتأخر الكبير ، ومنث من لا يستحق ، وأهمل كل صاحب حق . قال ابن الرومي :

أترى دون الأولى بلغوا الآما	ل من شرطة ومن كتاب
وتجار مثل البهائم فازوا	بالمنى في النفوس والاحباب
فيهم لكنة النبيط ولكن	تحتها تجاهلية الاعراب
غير مغنين بالسيوف ولا الاقـ	ـلام في موطن ، غناء ذباب
ويظلون في المناعم واللذا	ت بين الكواعب الاتراب
لهم المسمعات ما يطرب السا	مع والطائفات بالاكواب
وجوار كأنهن جوار	يتسللن من مياه عذاب
لابسات من الشفوف لبوسا	كالهواء الرقيق أو كالسراب
لو ترى القوم بينهن لأجبرت	صراحا ، ولم تقل باكتساب
من أناس لا يرتضون عبيدا	وهم في مراتب الأرباب

وكان طبيعيا بعد أن يرى هذا الانقلاب الغريب في الأوضاع ، وسيادة قانون الغاب ، وتمكن من ينتهز الفرص ، أو يملك القدرة على القربى الزائفة من ذوى السلطان ، كان طبيعيا بعد هذا أن تزداد أحوال الناس اضطرابا ، لانشغال من يصرفون أمورهم بأحوالهم وملاذهم وبجمع الأموال ، ولا قدرة لديهم على تعرف شئون الأمة وصلاح حال المجتمع . يقول :

أصبحوا ذاهلين عن شجن النا	س،وإن كان حبلهم ذا اضطراب
في أمور ، وفي خمور ، وسمور	وفي قاقم ، وفي سنجاب
وتهاويل غير ذاك من الرقم	ومن سندس ومن زرياب
عندهم كل ما اشتهوه من الا	كال ، والأشربات والأثواب

وكانت هذه صرخة شاعر يحس بآلام مواطنيه ، ويترجم عن صيحات الغضب التي تصدر هنا وهناك وتترجم أحيانا إلى انتفاضات في شوارع بغداد . ثورات للعامة ، أو العبيد ، أو في صورة أعم كثورة الزنج في جنوب العراق أيام المعتمد والمقتدر والمعتضد . وفي هذا القرن الثالث نفسه في نصفه الثاني ، وقد عاصر هذا كله ابن الرومي ، وراقبه ، ونم شعره عنه .

وقيل إن فى ابن الرومى وشعره روحا علوية ، وتصدى بعض الباحثين لعلاقته بالعلويين فخرج بعضهم بعلويته عقيدة ، ومال آخرون إلى علوية بالهوى ، ولعل الرأى الاخير أصوب ، لأن الاتجاه العلوى فى ذلك العصر كان يحتوى كل الغاضبين والساخطين على الدولة ، ولما كان هو غاضبا ساخطا فلم يكن غريبا اتجاهه الى العلوية وانجذابه نحوهم . وقد لاقى ذلك الاتجاه ترحيبا عند بعض ممدوحه ممن كانت ميولهم شيعية أو علوية كآل نَوْبخْتِ ، وبعض البيوتات الفارسية الأصل من كبار رجال الدولة .

ويمكن أن يقال إن ابن الرومى عاش معظم حياته فى بغداد لم يغادرها إلى ما جاورها من البلاد إلا فى القليل النادر مثل خروجه إلى سامرا أو واسط فى العراق قاصدا بعض ممدوحيه وكان غالبا ما يبعث بقصائده فيهم إلى مواطن إقامتهم .

ويسلك فى طريقه إلى سامرا طريق النهر فيصعد فى دجلة ، وكان يخشى الماء وركوب البحر وقد سجل إحدى رحلاته هذه النهرية كاشفا عن مخاوفه . يقول :

وأما بلاء البحر عندى فانه	طوانى على روع من الروح واقب
فأيسر إشفاق من الماء أننى	أمر به فى الكوز مر المجانب
وأخشى الردى منه على كل شارب	فكيف بأمنيه على كُلّ راكب
أظل إذا هزته ريح ولألأت	له الشمس أمواجا طوال الغوارب
كأنى أرى فيهن فرسان بُهْمَةٍ	يُليحُونَ نحوى بالسيوف القواضب

شـــعره :

وشعر ابن الرومى يدور معظمه من حيث الشكل فى موضوعات المديح والهجاء والغزل والوصف ويستغرق المديح جزءا كبيرا ، لأنه شاعر محترف يتكسب بالشعر ، ويقصد به الرجال ليثيبوه عليه . وهو يسأل فى شعره ، ويلح كثيرا فى السؤال . فإذا أعطى رضى وواصل المديح ، وأضفى الثناء ، وإذا منع عاتب ، ثم هجا .

ويكشف شعره عن معرفة بالشعر العربى القديم ، كما يبوح بثقافته . وقد جمع أطراف الثقافات فى عصره على عمق معرفته بالعربية وآدابها .

وأشار إلى بعض صحبته فى الدرس فقال :

أيام نسرح فى مراد واحد　　للعلم تنتجع القلوب غريبه

كما ورد فى شعره بعض المعارف والاسماء المتداولة فى الشعر العربى القديم والعباسى . وفيه إشارات إلى الشعراء من أمثال امرىء القيس والنابغة ولبيد ، وربما استشهد ببيت أو بيتين لواحد منهم ، ومن شعراء المحدثين أشار إلى أبى نواس ودعبل والحسين بن الضحاك .

واطلاعه على الشعر العربى ، وأخذه بأسباب الثقافة العربية لم يحرماه من التجديد فى شكل الشعر ، وأساليبه ، وبنائه .

وربما قال الشعر فى سن مبكرة ، وراض القول فيه فى العشرين أو الحادية والعشرين أى حوالى سنة ٢٤١ هـ .

وأهم ما فى شعر ابن الرومى أنه تسجيل لحياته ، وحياة بغداد فى عصره ، فشعره صورة حية للحياتين معا . وقارئه يقف أمام صور متتابعة لا يستطيع التاريخ أن يوحى بها وانما تشفها أبيات ابن الرومى وتلقى بها فى وجدان القارىء .

ونرى ملامح هذه الشخصية ظاهرا وباطنا ، فشعره به قدر كبير من الذاتية ، والبوح بمكنونه . وقد كان الشاعر فيما يروى دقيق الجسد جميل الصورة فى شبابه الأول .

يقول :

أنا من خف واستدق فما　　يثقل أرضا ولا يسد فضاء

ويكشف عن مكنونه ونوازعه ، وتناقضات رغائبه ورهائبه فيقول بين آمال الهوى ونوازع الحياة ، وخوف السعى ، ورهبة المستقبل :

فأصبحت فى الإثراء أزهد زاهد　　وإن كنت فى الإثراء أرغب راغب
حريصا جبانا ، أشتهى ثم انتهى　　بلحظى جناب الرزق لحظ المراقب
ومن راح ذا حرص وجبن فإنَّه　　فقير أتاه الفقر من كل جانب

ويكشف عن تردده وتخوفه الذى وسم شخصه فى قوله :

فقدمت رجلا رغبة فى رغيبة   وأخرت رجلا رهبة للمعاطب

وخوفه المستقبل فى قوله :

ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى   ومن أين؟. والغايات بعد المذاهب

وفى نفسه سماحة الفنان ، يعفو ، ويقبل العذر ، ويحب ويقبل على من أحب كذلك هو فى كرهه لا يُخْفيه .

يقول :

شكرى عنيد وكذاك حقدى   للخير والشر بقاء عندى

وله فى الإخاء تلك القصيدة الجارية السائرة على الألسن كلما ذكرت الصداقة :

يا أخى أين عهد ذاك الإخاء

ونفسه نهمة ، ونوازعه النفسية كنوازعه الجسدية عارمة ، فهو فى شهوة الطعام والشراب مضرب المثل تتكشف أبياته عنها ، فاذا هو يلتهم ما يحبه بكل جوارحه ، ويتذوقه بكل أحاسيسه ألا تراه يقول فى الموز وكان مفتونه بين الفاكهة :

للموْزِ إحسان بلا ذنوب   ليس بمعدود ولا محسوب
يكاد من موقعه المحبوب   يدفعه البلع إلى القلوب .

وحين يصف لك أطايب الطعام والمآكل تشعر وكأن ريقه يتحلب فى نظمه شهوة ونهما . يقول فى قطائف :

قطائف قد حشيت باللوز   والسكر الماذى حشو الموز
تسبح فى آذى دهن الجوز   سررت لما وقعت فى جوزى
سرور عباس بقرب فوز

وهو شاعر فى نهمه وطعامه ، لا يأكل ما بين يديه أكل البهيمة لا يدرى ما يقضم ، بل يتأمل ، ويعجب ، ويقوم الجمال ، ويشبع أحاسيسه به قبل أن يملأ بطنه . يقول وهو يرسم صورة العنب ، وكأنه يخط لوحة تعجب ، قبل أن تفتح الشهية للالتهام :

وورازق مخطـــف الخُصُورِ كأنـــه مخازن البلـــــور
قد ضمنت مسكا الى السطور وفى الاعالى ماء ورد جورى
لم يبق منه وهج الحرور إلا ضياء فى ظروف نور
لو أنه يبقى على الدهور قرط آذان الحسان الحور

وابن الرومى فنان يتبع الجمال فى الحياة أنى كان ببصره وحسه وعاطفته ، يراه فى شاهد الطبيعة ، ويراه فى المرأة ، ويراه فى الصوت الجميل .

ويرسم صورة لروضة تغرد طيورها على فَنَنِها المتراقص على هبات النسيم فيقول :

حيتك عنا شمال طاف طائفها بجنة فجرت روحا وريحانا
هبت سُحَيْراً فناجى الغصن صاحبه موسوسا ، وتنادى الطير إعلانا
وُرْقٌ تغنى على خضر مُهَدَّلةٍ تسمو بها وتمس الأرض أحيانا
تخال طائرها نشوان من طرب والغُصنَ من هزه عطفيه نشوانا

أو يقول فى الربيع وقد تزينت له الدنيا بأنواع الزهر ، وتغنت طيره ، وامتلأت بالحياة فاقتتلت ، وتصاوحت :

أصبحت الدنيا تروق من نظر بمنظر فيه جلاء للبصر
أثنت على الله بآلاء المطر فالأرض فى روض كأفوافِ الحبر
نَيِّرَةَ النوار ، زَاهِـرَةَ الزَّهَـرْ تبرجت بعد حَياءٍ وخفر
تبرج الأنثى تصـــدت للذكر

صور جمال الصورة والشكل ، ونبض الحياة ، وتدفقها عبر الكائنات بين الذكورة والأنثوية وتلاقيها ليستمر الوجود ، وتتوالد الأجيال فترى موجات الخلق ، موجة بعد موجة ، واحدة تفنى لتتولد منها واحدة من جديد وهكذا ... والربيع زهرة الحياة والخلق تتبرج فيه الدنيا لتتلقى نبض الحياة ، كتبرج الانثى تتلقى نبض الحياة ... مشابهة ليست فى الشكل ولكنها فى المعنى وعمق الأحساس ، وهكذا يخط الشاعر لوحاته ، تنطق خطوطه وألوانه بعمق أحاسيسه ، وصادق شاعريته .

ويجتمع جمال الحياة بمشاهدها الطبيعية بجمال الأنثى دائما فى وجدان الشاعر وخياله ويصرح بهذا فى قصيدة نونية مشهورة يقول فيها :

أجنتْ لك الوصل أغصان وكثبان فيهن نوعان تفاح ورمان
غصون بان عليها الدهر فاكهة وما الفواكه مما يحمل البان
تجاورتْ فى غصون لسن من شجر لكن غصون لها صدٌّ وهجران

ويسجل شعر ابن الرومى وقائع حياته كذلك فى بيته وبين أبنائه وعلاقاته بالناس ، كبيرهم وصغيرهم من أحب منهم ومن كره .

وكانت علاقاته بكثير من رجالات عصره ، بين وزراء وكتاب ، وشعراء وعلماء ، وفى مقدمة من شغل شعره بهم مديحا وهجاء من الوزراء والكتاب آل صاعد بن مخلد ، واسماعيل بن بلبل الشيبانى ، وبيت نوبخت ، وآل المنجم ، وآل وهب . وابن المدبر . وقد لعب هؤلاء أدوارا فى أحداث العصر ، يشير إليها ابن الرومى فى مديحه أو هجائه .

واتصلت الأسباب بينه وجماعة من شعراء العصر المشهورين كأبى طاهر ، والبحترى . وبعض من لم يشتهر شهرة هذين الشاعرين . وقد استمرت علاقة ابن الرومى بالبحترى زمنا شابها كثيرٌ من التوتر .

وتناول شعره هجاء بعض هؤلاء مثل خالد القَحْطَبِيّ الذى هجاه بأكثر من ستين قصيدة وأبى حفص الوراق الذى سخر منه كثيرا ، وكانت أهاجيه نصف أهاجيه فى خالد .

وذكر فى شعره بعض نساء العصر ممن كن من المشهورات فى وسطه ، أو نساءا لمن التقى بهم من الرجال زوجات أو جوارى مغنيات أو عازفات .

ومن أسمائهن عجائب . وهى جارية تركية . وجلنار راقصة على الطبل والصنج وبدعة محظية القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وبستان جارية زوجة القاسم ، ودريرة ، جارية عازفة ، وشاجى جارية عبيد الله بن عبد الله ، وكانت موسيقية بارعة ، ومغنية ، وفيها ينظم قصيدة بديعةً .

ووحيد التى خلدها بالقصيدة الفريدة ، من الجوارى المغنيات .

أولئك من استهوين الشاعر بظرفهن أو غنائهن أو رقصهن وجمالهن وحسن ايقاعهن على الآلات ، وهناك من أثرن سخطه فهجاهن بلسان حديد . وأفحش فيهن . كشنطف القارئة . وكانت مغنية قبيحة الصوت ، وشاغل جارية سلامة بن صاعد ، ومحب زوجة أحمد بن صاعد .

ويسجل شعره كذلك وقائع الحياة البغدادية بين لهوها وجدها ، سرورها وشقائها . غناها وفقرها . وينتقل بك فى مشاهدها ، فى سلسلة من الصور عبر الديوان . وللاحداث مكان فى ديوانه ، ومن أشهرها أحداث الزنج وما فعلوه بالبصرة ، وقد صنع فيها قصيدة فريدة .

ولا يقف ابن الرومى مع أحد من شعراء عصره فى اتجاهه الفنى ، فهو لا يذهب مذهب أبى تمام فى اتخاذ البديع طريقة فنية للتعبير عن معانيه ، ولا يوغل إيغاله فى اقتناص المعانى وكد الذهن ورائها ، ولا تحس فى شعره مدى الجهد فى البناء والصياغة .

كذلك هو لا يذهب مذهب البحترى فى طريقة العرب ، والميل إلى الصياغة السهلة والبناء العربى الديباجة ، دون حاجة إلى إسراف فى استخدام البديع .

فشعر ابن الرومى نسيج وحده ، ويقدر ما وصلنا من شعره فى مخطوطه القاهرة وأتم تحقيقها الدكتور حسين نصار بضعف شعر البحترى ، وأكثر من ضعفى ما وصلنا من شعر أبى تمام وربما كانت هذه النسخة شاملة لكل شعره . فقد عرف عنه كثرة الشعر ، واقتداره على نظمه . يروى أحد رفاقه أنه كان قادرا على نظم القصيدة الطويلة فى الساعات القليلة دون أن يعيد النظر فيها لتنقيحها .

ويقدر « ريقون جِسْت » ما ضاع من شعره بثلاثة أرباعه، وأن ما وصلنا منه لا يتعدى الربع على ضخامته .

ويصنف ابن الرومى بين الشعراء المطبوعين ، من أمثال السيد الحميرى وأبى العتاهية وأبان بن عبد الحيد اللاحقى من شعراء المرحلة السابقةفى عصر العباسيين . وكما جاء فى أخباره أنه كان لا يجهد نفسه فى عمل القصائد الطوال . وكانت قصائده تطول فتبلغ الثلاثمائة بيت تقريبا وتبدأ قصيدة المديح بمقدمة تطول فتبلغ مائة بيت ، وقد تقصر ، ويتنوع موضوعها بين غزل يذكر فيه مفاتن المرأة على ما درج فى الشعر التقليدى ، وإن كانت روحه أقرب إلى غزل العصريين من محدثى العباسيين . وقد يمتزج الغزل بوصف الخمر أو الغناء ، أو وصف الطبيعة ومفاتنها. وقد يخرج فى هذه المقدمة عن الطابع العام

الى موضوعات أخرى كالحديث عن انقضاء الشباب ، وكبر السن ، أو تقلب الزمن ، أو وصف مهرجان الى غير ذلك من الموضوعات .

وقد يستغنى عن المقدمة تماما ، ويبدأ فى موضوعه دون تمهيد . وتنتهى قصائد المديح غالبا بشكوى الحال ، والتعريض بالسؤال .

ويلى قصائد المديح فى العدد والطول قصائد الهجاء ، وقديما قال بشار بن برد : ان الهجاء آخذ بضبع الشاعر ، وهو كذلك وسيلة للكسب ممن لا يهزهم المديح ، فيخيفهم الهجاء . ولعله آخذ كذلك بنصيحة بشار حين قال : إذا أردت أن تكرم فى زمن اللئام فعليك بالهجاء .

وينقسم هجاؤه إلى معتدل ومقذع ، والمعتدل ، يجرى فيه على نسق غيره من الهجائيين فى كيل صفات القبح ، وسلب المهجو كل فضيلة . والهجاء المقذع يتناول المثالب الشخصية ، ويعرض العيوب الجسدية فيجسمها فى سخرية مرة ، كطول اللحية ، وجحوظ العينين ، والحدب ، وقد يفحش القول فيتناول العورات ، والعمل الفاضح بصورة تخرج بالشعر إلى السباب والتجريح .

ويدور غزل ابن الرومى فى المرأة وبعضه فى الغلمان ، يعرض فيه لمحاسن المحبوب ، وأحوال حبه معه ، وآثاره فى نفسه ، وما يلقاه من الهجر ، والدل ، وقد يدور الحوار بين الحبيب والمحبوب ، أو مع بعض صحابته .

وأشهر من تغزل بهن من المغنيات وحيد وشادى .

ولابن الرومى مقدرة خاصة فى الوصف ، وهو يبنى صوره الشعرية الوصفية بناءا واحدا مسلسلا ، يخرج فيه من الإطار العام إلى الخاص ، وما يزال يمعن فى ذكر جزئيات الصورة ويتنقل من واحد الى آخر حتى يشفى منها غليله ، ويشبع فنه .

وقد عرف بمقدرته على رسم الصور بخطوط بارعة أحسن التعبير عنها لفظا وإيقاعا ومن أشهر لوحاته يصف جَوْقَةً من المغنيات الموسيقيات يحملن آلاتهن الموسيقية أو يحتضنها ، من عود وجنك ويربط :

وقيـــان كأنها أمهـــــات عاطفات على بنيها حوان
مطفلات وما حملن جنينا مرضعات ولسن ذات لبان
ملقمات أطفـــالهن ثُدِيًّـا ناهـدات كأحسن الرمـان
كل طفل يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهر وكران
أمه دهرهـا تترجـم عنه وهو بادى الغنى عن الترجمان
غير أن ليس ينطق الدهر إلا بالتزام - من أمه واحتضان
أوتى الحكم والبيان صبيا مثل عيسى بن مريم ذى الحنان

وقد تأخذ اللوحة أبياتا طوالا كلوحته لوحيد ، والتى يبدؤها بقوله :

يا خَلِيلَىَّ تيمتنى وحيــــد ففؤادى بها مُعَنًّى عميـد

أو فى البحر والسفين :

ذكرتك حين ألقت بى عصاهـا النـــ ـــوى يوما بنَهْرِ أبى خصيب
وقد أرست بنا فى ضفتيه الـ ـــجوارى المنشآت مع المغيب

وقد تكون الصورة سريعة يرسمها فى خطوط قليلة لماحة ، كخط الكاريكاتير يبرز أوضح ملامحها . وها هى صورة الأحدب :

قصرت أخادعه ، وغار قذاله فكأنه متربص أن يصفعا
وكأنما صفعت قفاه مرة وأحس ثانية لها فتجمعا

وفى وصف مغنية تجهد نفسها فى الغناء فتبرز عروق رقبتها ويكاد صوتها لا يغادر شفتيها :

تضغط الصوت الذى تشدو به غُصَّةٌ فى حلقها مُعْتَرِضَهْ
فإذا غنَّتْ بدا فى جيدها كلُّ عرق مثل بيت . الأَرَضَهْ

ويقول فى صاحب لحية كبيرة :

ولحيـــة يحملهـــا مائـــقٌ شبه الشّراعين إذا أشـرعا
لو قابل الريح بها مرة لم تنبعث من خطوه إصبعا
أو غاص فى البحر بها غوْصَةً صَادَ بها حيتانه أجمعـــا

وفضيلة ابن الرومى التعبيرية غير الخيال المحكم والمقدرة الفائقة على التقاط

الصورة وتسجيلها بألفاظ مناسبة سهلة قريبة مقدرة لغوية ، فضيلَةُ بعد هذا لغة قريبة لا وعورة فيها ولا تكلف ، يشعر القارىء بأنها طبيعية بين يديه لا تعصاه تنساب مع فكره وخيالاته ومعانيه انسيابا ، ويشقق منها ويلونها صوتا وبناء كما يريد .

وقاموسه اللغوى من جارى كلام عصره ، مع فصاحة ونقاء ، أقرب إلى لغة الكتاب ولهذا قالوا إنه يبنى قصائده بناء الرسائل . وتختلط ببعض الألفاظ الفارسية والرومية من مستعمل اللغة الذى انتقل مع ألوان الحضارتين ، والثقافتين إلى الحياة والفكر الإسلامى والعربى فى هذه المرحلة . وهى بعد لغة بغدادية نقية من شوائب الغريب البدوى الذى نلحظه فى شعر الوافدين على بغداد من الشام أو أطراف الجزيرة وأواسطها .

يقول ريفون جست :

« ولغة ابن الرومى موجزة محكمة ، وألفاظه كثيرة ، ولكن أسلوبه عامة سهل ، وعربيته كثيرة الشبه بالعربية الأدبية فى هذه الأيام ، ولذلك يستطيع المثقفون من الناطقين بالعربية الآن فهم قدر كبير من شعره دون مشقة ، كما يتضح من المقتطفات الكثيرة التى نشرها من شعره كامل كيلانى والعقاد اللذان قلّما شعرا بحاجتهما إلى إضافة كلمة لشرحها للقارىء ... وهو وإن لم تستعبده التعبيرات غير المألوفة تحتوى قصائده على قدر كبير منها تضم ألفاظا غير مذكورة فى المعاجم أسماء وأفعالا . ويستعمل قليلا من الألفاظ الفارسية التى ربما كانت قد صارت جزءا من العربية فى بغداد آنذاك »[1] .

وقد لاحظ بعض العلماء عليه أخطاء فى النحو ، لتساهله فى التعبير ، وقد تعقبه فى ذلك الأخفش النحوى ، ولهذا أثار حفيظته فهجاه .

موقف النقاد من ابن الرومى :

تفاوتت مواقف النقاد منه بين مقرظ ومعترض . ومادح وقادح . وكان قدح القادحين للسانه وكثرة هجائه ، مع بعض مآخذ فى لغته وتعبيراته .

---

(١) ابن الرومى لريفون جست ترجمة حسين نصار ، ص ٨٧ .

ولكن كثرة النقاد من الواعين يقدمونه ويرون فيه شاعرا كبيرا . وفنانا أصيلا .

يقول المرزباني[١] : « أشعر أهل زمانه بعد البحترى ، وأكثرهم شعرا ، وأحسنهم أوصافا وأبلغهم هجاء ، وأوسعهم فى سائر أجناس الشعر وضروبه وقوافيه ، يركب من ذلك ما هو صعب مُتَنَاوله على غيره ، ويلزم نفسه ما لا يلزمه . ويخلط كلامه بألفاظ منطقية يجمل لها المعانى ثم يفصلها بأحسن وصف ، وأعذب لفظ . وهو فى الهجاء مقدم ، لا يلحقه فيه أحد من أهل عصره ، غزارة قول ، وخبث منطق .

ولا أعلم أنه مدح أحدا من رئيس ومرءوس إلا وعاد عليه فهجاه ، ممن أحسن إليه أم قصر فى ثوابه ، فلذلك قلت فائدته من قول الشعر ، وتحاماه الرؤساء ، وكان سببا لوفاته . وكانت به علة سوداوية ربما تحركت عليه فغيرت منه » .

ويقول ابن رشيق[٢] : « وأما ابن الرومى فأولى الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن افتتانه . وقد غلب عليه الهجاء حتى شهر به فصار يقال : « أهجى من ابن الرومى » . ومن أكثر من شيء عرف به . وليس هجاء ابن الرومى بأجود من مدحه ، ولا أكثر ، ولكن قليل الشر كثير » .

ويقول[٣] : « وكان ابن الرومى ضنينا بالمعانى ، حريصا عليها ، يأخذ المعنى الواحد ويولده ، فلا يتركه حتى يقلبه ظهرا لبطن ، ويصرفه فى كل وجه ، وإلى كل ناحية حتى يميته ، ويعلم أن لا مطمع فيه لأحد » . ويقول : « وأنا أقول إن أكثر الشعراء اختراعا ابن الرومى »[٤] .

ويقول الصفدى إن ابن الرومى كان شاعرا فحلا بعيد الغوص على المعانى . فاذا تناول معنى استقصاه حتى لا يترك منه شيئا مما أدى به الى الإحَالةِ أحيانا .

---

(١) معجم الشعراء ص ٢٨٩ ، والموشح ص ٣٥٧ — ٣٥٨ .
(٢) العمدة ١ /١٩٤ .
(٣) العمدة ٢ /٢٨٣ .
(٤) العمدة ٢ /٢٤٤ .

وقال إن تشبيهاته غير عادية وجيدة فإذا ما راقه أحدها تتبعه وكرره فى كثير من قصائده . وذكر رأى الخالدين (توفيا سنة ٣٥٠ هـ — ٣٨٠ هـ) فى أنهما لم يريا مثله حين ينفرد بمعنى ما ، ولكنه حين يأخذ معنى شاعر آخر يسقط فيه .

ويقول بروكلمان : « وشعر ابن الرومى أقل طنطنة ودويا من شعر المتنبى ، ولكنه أبين وأذلق . وفن ابن الرومى يعتمد بالمرتبة الأولى على العيان والمشاهدة ، فهو يلمح بالنظرة الحادة النقائض والعيوب الجثمانية على الخصوص عند خصومه فيصوغها فى هجاء مرير لاذع ، بيد أنه يصور بهذه النظرة اللماحة نفسها صور البهجة والحياة السعيدة كذلك ، لا سيما أعياد رجال الدولة ولذائذ المجتمع فى القصور » .

ومما يشهد لابن الرومى أيضا بالقدرة على صياغة الاحساسيس والعواطف الصادقة رثاؤه لابنه محمد الذى يعده العقاد بحق من درر الشعر العربى .

وينسج ابن الرومى على منوال الخريمى ، فيجترىء أيضا على وصف المواقف التاريخية ، كما فى شكايته من غلبة الزنج على البصّرة .

ويسير على غرار أبى على الحمدونى شاعر العامة ، فيجاريه فى شعره الذى يصف فيه الطليسان القانى ويقتفى النماذج الفارسية ، فيروض نفسه فى نظم المناظرات الشعرية ، كما فى مناظرته بين النرجس والورد وبين السيف والقلم .

ولكن قد يبعثه أيضا على قول الشعر منظر يراه فى الطريق ، كمنظر الخباز يدحو الرقاق ، بل هو ينظم كذلك أوصافا ووصايا للطباخين ليحتذوها فى مهنتهم ، فيجعل من نفسه رائدا فى هذا اللون الادبى للمأمون البخارى (٣٨٢ هـ — ٨٧٢ م) وأبى اسحاق الشيرازى المتاخر عنه .

وابن الرومى على حق حين يأبى لنفسه أن يفضل عليه البحترى القليل التنوع ، والذى قصر شعره على فن واحد وهو المديح .

وقال جِبْت إن نُقّادَ العرب القدماء اتفقوا على تفضيل البحترى على ابن الرومى ، أما الغربيون فالمرجَّحْ أنهم يفضلون ابن الرومى . وربما كان البحترى أجمل لغة ، وأكثر صقلا لألفاظه ، ولكن ابن الرومى أكثر إخلاصا لنفسه ، وأقل ميلا للمواصفات التقليدية فى الشعر .

وفى مرثيته لابنه حرارة شعور وعمق إحساس لا يمكن التفوق عليها ، وفى هجائه قدر من الاحتقار والازدراء الحقيقيين يعوضان قدرا من اقذاعه المفحش .

ويظهر فى وصفه قوة ملاحظة بارعة ، ويعطى بعض أوصافه تأثيرات حية بواسطة لمسات سريعة .

ويقول جست : « ولا يمكن انكار أدبه ، وقد يعجب المرء من براعته فى العثور على أشياء طريفة يقولها حتى فى مدائحه التى كثيرا ما يطيلها طولا كثيرا » .

ومن خصائص شعره اللافتة للنظر اتصال الجدل فيه وتماسكه فى مقابل جدل بعض الشعراء العرب الآخرين فى عصره والذين يقدمون أشياء واضحة ، ولكنها غير متصلة بعضها ببعض الا اتصالا طفيفا .

والخاصة الأخرى التى نلاحظها جرأته فى صوغ تجاربه فى صورة موضوعات وألوان من الحوار يدخلها فى العقيدة وفى طرق التعبير التى قلما ترد فى شعر غيره من شعراء عصره .

ومن مختارات شعره :

جنة المحبين :

أجنت لك الوصل أغصان وكثبان ... فيهن نوعان تفاح ورمان
وفوق ذينك أعناب مهدلة ... سود لهن من الظلماء ألوان
وتحت هاتيك عناب تلوح به ... أطرافهن قلوب القوم قنوان
غصون بان عليها الدَّهْرَ فاكهة ... وما الفواكه مما يحمل البَانُ
ونرجس بات سارى الطَّل يضربه ... وأقحوانٌ منير النور ريان
أَلِفْنَ من كل شىء طيب حسن ... فهن فاكهة شتى وريحانُ
ثمار صدق إذا عاينت ظاهرها ... لكنها حين تبلو الطعم خِطْبانُ
بل حلوة مرة ، طورا يقال لها ... شهد وطورا يقول الناس ذِيفانُ

* * *

ياليت شعرى وليت غير مجدية إلا استراحة قلب وهو أسوان
لأىّ أمر مراد بالفتى جمعت تلك الفنون وضمتهن أفنان
تجاورت فى غصون لسن فى من شجر لكن غصون لها وصل وهجران
تلك الغصون اللواتى فى أكمَّتِها نعم وبؤس وأفراح وأحزان
يبلو بها الله قوما كى يبين له ذو الطاعة البر ممن فيه عصيان
وما ابتلاهم لا عنات ولا عبث ولا لجهل بما تطويه أبطان
لكن ليثبت فى الأعناق حجته ويحسن العفو والرحمن رحمن

* * *

ومن عجائب ما يمنى الرجال به مستضعفات لنا منهن أقران
مناضلات بنبل لا تقوم له كتائب الشرك يزجيهن خاقان
من كل قَاتِلِةٍ قتلى وأسرة أسرى وليس لها فى الأرض اثمان
يولين ما فيه اغرام وآونة يولين ما فيه للمشغوف سلوان
ولا تدمن على عهد لمعتقد أنى وهن كما شبهن بستان
يميل طورا بحمل ثم يعدمه ويكتسى ثم يلفى وهو عريان
حالا فحالا ، كذا النسوان قاطبة نواكث دينهن الدهر أديان

* * *

تغدو الفتاة لها خِلٌ وإن غدرت راحت ينافس فيها الخِلَّ خلان
ما للحسان مسيئات بنا ولنا إلى المسيئات طول الدهر تحنان
فإنَ يخُنَّ بعهد قلن معْذِرَةً إنا نسينا وفى ، النسوان نسيان
يكفي مطالبنا بالذكر ناهية أن اسمنا الغالب المشهور نسوان
لا تَلزمُ الذكر إنَّا لم نسم به ولا منحناه بل للذكر ذكران
فضل الرجال علينا أن شيمتهم جود وبأس وأحلام وأذهان
وأن فيهم وفاءً لا نقوم به وهَلْ يكون مع النقصان رُجْحانُ
صدقن ما شئن لكنا تقنَّصنَنا منهن عين تلاقينا وأدْمانُ
أنكى وأذكى حريقا فى جوانحنا خلق من الماء ، والألوانُ نيران
ماء ونار فقدْ غادرن كل فتى لالَبسْنَ وهو غزير الدمع حران
تخضل منهن عين فهى باكية ويَستَحِرُّ فؤاد وهو هيمان

* * *

يا رب حُسَّانةٍ فيهن قد فعلت   سوءا وقد تفعل الأسواء حُسَّانُ
تصمى المحب وتُلْفَى وهى شاكية   كالقوس تُصْمِى الرمايا وهى مرنان
واصلت منها فتاة فى خلائقها   غدر وفى خلقها روض وغدران
هيفاء تكسى فتبدو وهى مرهفة   خود تعرى فتبدو وهى ميدان
ترتج أردافها والمتن مندمج   والكشح مضطمر والبطن طيان
ألوف عطر تذكى وهى ذاكية   إذا أساءت جِوارَ العطر أبدان
نمامة المسك تلقى وهى نائية   فَنابُها بنسيم المسك لقيان
يَغيمُ كل نهار من مجامرها   ويشمس الليل منها وهو ضحيان
كأنها وعثار النَّدّ يشملها   شمس عليها ضبابات وأدجان
شمس أطلت بليل لا نجوم له   الا نجوم لها فى النَّحْرِ أثمان
وتلبس الحلى مجعولا لها عُوذًا   لا زينة ، بل بها عن ذاك غنيان
لله يوم أرانيها وقد لبست   فيه شبابا عليها منه ريعان
وقد تَرَدَّتْ على سربال بهجتها   فرعا غذته الغَوادِى فهو فينان
جاءت تثنى.وقد راح المراح بها   سكرى تغنى لها حسن وإحسان
كأنها غصن لدن بمروحة   فيه حَمَائِمُ هاجتهن أشجان
إذا تمايل فى ريح تلاعبه   ظلت طرابا لها سجع وإرْنَانُ

* * *

يا عَاذِلَىَّ أفيقا إنها أبدا   عندى جديد وان الخلق خُلْقانُ
لا تلحيانى وإياها على ضرعى   وزهوها ، فكلا الأمرين دَيْدانُ
إنى مُلكْتُ فلِى بالرِّقِّ مسكنة   ومُلِّكَتْ فلها بالملك طغيان
ماكَانَ أصفَى نعيمَ العيش اذ دعيت   نعم تجاورنا والدار نعمان
اذ لا المنازل أطلال نسائلها   ولا القَواطِنُ آرام وظِعْرانُ
ظلنا نقولُ وأشباه الحسان بها   « سقيا لعهدك » والاشباه أعيان
بانوا فبان جميل الصبر بعدهمو   فللدُّمُوعِ من العينين عينان
لى مذ نأَوْا وجنة رَيَّا بمشربها   من عبرتى وفم ما عشت ظمآن

الشكوى من الزمان والفقر وسوء الحظ فى الدنيا :

يقولُ من أبيات كتب بها الى القاسم بن عبيد الله : (ديوانه ١ /٣٢٢) :

ثم أشكو اليك جدبى والمر ... عى مريع ، والماء صاف شروب
ألك الأمر والسياسة ، واسْمُ المعتفيـ ... ـك الصعلوك ، والقرضوب
ثَوبي الرث ، والثياب طراء ... وطعامى برغمى المجشوب
وخوانى مُلكّكٌ وقصاعى ... وبرامى ، فكلها مشعوب
وجفانى مصدوعة ، وجرارى ... وقلالى ، فكلها مثقوب
ومحلى عارية وجدارا ... ت بيتى ، فكلها منقوب
ومقيلى فى الصيف سخن بلا خيـ ... ـش فعظمى يكاد منه يذوب
ومبيتى بلا ضَجيع لدى القصـ ... ـر ، وللوغد شادن رُعْبُوبُ
ولى الخف ذو الرقاع أو النعـ ... ـل ، وللعبد سابح يعبوب
وهمومى محدثاتى ، وبستانى ... شوك ثماره الخَرُّوبُ
عكست أمرى النحوس فعنزى ... أبدا حائل ، وتيسى حلوب

ويشكو امتهان كرامته وإنسانيته لوقوفه طويلا أمام أبواب أصحاب الجاه والسلطان ، ويسوءه أن يضطر إلى الوقوف يحجبه عن صاحبه حاجب ثقيل ، يعامله معاملة غير كريمة ، فيحقر نفسه ، ويتولى غاضبا يلعن الحياة والناس ، ويلعن الزمن الذى اضطره إلى هذا الموقف :

كم نسام الأذى كانا كلاب ... كم إلى كم يكون هذا العتاب
كلما جئت قاصدا لسلام ... رَدَّنى عن لقائك الحجَّابُ
ما كَذَا يفعل الكرام ولا ترضى ... بهذا فى مِثْلىَ الآدَابُ
انا حر ، وأنت من سادة الا ... حرازأهل الحجا المصَّاصُ اللباب
وقبيح بعد الطلاقة والبشر ... بذى المجد نبوة واحتجاب
كل ملك يفنى وتبقى على الدهـ ... ـر لأهل المكارم الأحساب

شكواه مرور العمر : (عند بلوغه الخمسين) :

فكرت فى خمسين عاما خلت ... كانت أمامى ثم خلفتها
تبينت لى إذ تذنبتها ... ولم تبين إذ تأنَّفتُها
أجهلتها إذ هى موفورة ... ثم قضت عنى فَعَرَّفْتُهَا
ففرحة الموهوب أعدمتها ... ونزهة المسلوب أردفتها
لو أن عمرى مائة هدنى ... تذكرى أنى نصفتها

فكيف والآثار قد أصبحت ... ترجف بالعمر أذ قفتها
كد حياة كان أنفقته ... على تصاريف تصرفتها
لا عذر لى فى أسفى بعدها ... على العطايا ، عفتها ، عفتها

وقال يشكو حاله : (ديوانه ص ٢١٣) :

دع اللوم إنَّ اللوم عون النوائب ... ولا تتجاوز فيه حد المعاتب
فما كل من حط الرحال بمخفق ... ولا كل من شد الرحال بكاسب
وفى السعى كيس والنفوس نفائس ... وليس بكيس بيعها بالرغائب
وما زال مأمولِ البقاء مفضلا ... على الملك والأرباح دون الحرائب
حضضت على حطبى لنارى فلا تدع ... ـلك الخيرـ تحذيرى شرور المحاطب
وأنكرتَ إشفاقى وليس بمانعى ... طلابى أن أبغى طلاب المكاسب
ومن يلق ما لاقيت فى كل مجتنى ... من الشوك يزهد فى الثمار الأطايب
اذا اقْتَنِىَ الأسفار كرَّة الغنى ... إلىَّ وأغرانى برفض المطالب
فاصبحت فى الإثراء أزهد زاهد ... وإن كنت فى الاثراء أرغب راغب
حريصا ، جبانا ، أشتهى ثم انتهى ... بلحظى جناب الرزق فعل المراقب
ومن راح ذا حرص وجبن فانه ... فقير أتاه الفقر من كل جانب
ولما دعانى للمثوبة سيد ... يرى المدح عارا قبلِ بذل المثاوب
تنازعنى رغب ورهب كلاهما ... قوى ، وأعيانى اطّلاعُ المغايب
فقدمت رجلا رغبة فى رغيبة ... وأخرت رجلا رهبة للمعَاطِبِ
أخاف على نفسى وأرجو مفازها ... وأستار غيب الله دون العواقب
ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى؟ ... ومن أين؟. والغايات بعد المذاهب
ومن نكبة لاقيتها بعد نكبة ... رهبت اعتساف الأرض ذات المناكب
وصبرى على الاقتار أيسر محملا ... على من التغرير بعد التجارب
لقيت من البر التباريح بعدما ... لقيت من البحر أبيضاض الذوائب
سقيت على رى به ألف مطرة ... شغفت لبغضيها بحب المجادب
ولم أسقها بل ساقها لمكيدتى ... تحايل دهر جد بى كالملاعب
إلى الله أشكو سخف دهرى فانه ... يعابثنى مذ كنت غير مطايب
أبى أن يغيث الأرض حتى إذا ارتمت ... برحلى أتاها بالغيوث السواكب
سقى الارض من أجلى فأضحت مزلة ... تمايل صَاحِيهَا تمايل شارب

لتعويق سيرى أو دحوضِ مطيتى ... وأخصاب مزور عن المجد ناكب
فملت إلى خان مرثٍّ بناؤه ... مميل غريق الثوب لهفان لاغبِ
فلم ألق فيه مستراحا لمتعب ... ولا نزلا . أنّى ذاك لساغب
فمازلت فى خوف وجوع ووحشة ... وفى سهر يستغرق الليل واصب
يؤرقنى سقف كأنى تحته ... من الوكف تحت المدجنات الهواضب
تراه إذا ما الطين أثقل متنه ... تصر نواحيه صرير الجنادب
وكم خان سفر خان فانقض فوقهم ... كما انقض صقر الدجن فوق الأرانب
ولم أنس ما لاقيت أيام صحوة ... من القر فيه والثلوج الأشاهب
وما زال ضاحى البر يضرب أهله ... بِسَوْطَىْ عذاب جامد بعد ذائب
فان فاته قطر وثلج فانه ... رهين بساف تارة أو بحاصب
فذاك بلاء البر عندى شاتياً ... وكم لى من صيف به ذى مثالب
ألا رب نار بالفضاء اصطليتها ... من الضح يودى لفحها بالحواجب
اذا ظَلَّتْ البيداء تطفو أكامها ... وترسب فى غمرٍ من الآل ناصب
فدع عنك ذكر البر أنى رأيته ... لمن خاف هول البحر شر المهارب
كلا نزليه ، صيفه وشتاؤه ... خلاف لما أهواه ، غير مصاقب
لُهاثٌ مميت تحت بيضاء سخنة ... ورى مقيت ، تحت أسحم صائب
يجف اذا ما أصبح الريق عاصبا ... ويغدق لى ، والريق ليس بعاصب
ويمنع منى الماء واللوح جاهد ... ويغرقنى والرى رطب المحالب
وما زال يغينى الحتوف مواريا ... يحوم على قتلى ، وغير موارب
فطورا يغادينى بلص مصلت ... وطورا يمسينى بورد الشوارب
الى أن وقانى الله محذور شره ... بعزته ، والله أغلب غالب
فأفلت من ذؤبانه وأسوده ... وحرابه أفلات أتوب تائب
وأما بلاء البحر عندى فانه ... طوانى على روع من الروح واقب
ولو ثاب عقلى لم أدع ذكر بعضه ... ولكنه من هوله غير ثائب
ولِمْ لا ولو أُلقيتُ فيه وصخرة ... لوافيتُ منه القعر أول راسب
ولم أتعلم قط من ذى سباحة ... سوى الغوص ، والمضعوف غير مغالب
فأيسرُ إشفاق من الماء أننى ... أمرُّ به فى الكوز مر المجانب
وأخشى الردى منه على كل شارب ... فكيف بأمنيةٍ على نفس راكب

أظل إذا هزته ريح ولألأت ... له الشمس أمواجا طوال الغوارب
كأنى أرى فيهن فرسان بُهمَةٍ ... يليحون نحوى بالسيوف القواضب

وابن الرومى أمام هموم دهره وصروفه مرغم على الصبر ، ولا يملك غيره :

أرى الصبر محمودا وعنه مَذَاهبُ ... فكيف إذا ما لَمْ يكن عنه مذهب؟
هناك يحق الصبر والصبر واجب ... وما كان منه كالضرورة أوجب
فشَدَّ امرؤٌ بالصبر كفا فإنَّه ... له عصمة أسبابها لا تُقَضَّبُ
هو المهرب المنجى لمن أحدقَتْ به ... مكاره دهر ليس منهن مهرب
وقد يتظنى الناس أن أساهم ... وصبرهم فيهم طباع مركب
وأنهما ليسا كشيء مصرف ... يصرفه ذو نكبة حين ينكب
فإن شاء أن يأسى أطَاعَ له الاسى ... وإن شاء صبرا جاءه الصبر يطلب
يصرفه المختار منا فتارة ... يراد فيأتى أو يذاد فيذهب
اذا احتج محتج على النفس لم تكد ... على قَدرٍ يُمْنَى بها تتعتب
وساعدها الصبر الجميل فأقبلت ... إليها له طوعا جنائب تُجْنَبُ
وإن هو مناها الاباطيل لم تزل ... تقابل بالعتب القضاء وتغلب
فتضحى جزوعا ان أصابت مصيبة ... وتمسى هلوعا إن تعذر مطلب
فلا يعذرن التارك الصبر نفسه ... بأن قيل إنَّ الصبر لا يتكسب

وربما اتخذ ابن الرومى من الشكوى مطلعا لقصائده تحل منها محل ذكر الاطلال ، أو النسيب فى القصائد التقليدية . وقد يربط بين الموضوعين رباط نفسى واحد . وقد ‌ ح المتنبى من بعده منهجه . ويمزج أحيانا بين الشكوى والنسيب . قال فى الحسن بن عبيد الله بن سليمان :

ما أنسَ لا أنسى هندا آخر الحقب ... على اختلاف صروف الدهر والعقب
يوم انتحتنى بسهميها مسالمة ... تأتى جديداتها من أوجه اللعب
وعيرتنى بشيب الرأس ضاحكة ... من ضاحك فيه أبكانى وأضحك بى
قد كنت تسقين خدى مرة وفمى ... يا هند من وشل طورا ومن ثغب
يغل ريقك أنيابى وآونة ... يستن دمعك فى خَدَّىَّ كالسرب
فالآن أهزأ بى شيبى وأوبقنى ... عيبى، وان كنت لم أوبق ولم أُعَبِ
بالجلد أنداب دهر لست أنكرها ... وما بعرضى لعمر الله من ندب

يا ظبية من ظباء كان مكنسها	فى ظل ذى ثمر منى وذى هدب
فَيْئِي إليك فقد هبت مصوحة	أضحى لها مُجْتَنِى لهو كمحتطب
سِنٌّ بَتَثْنِى ثم عادت بعد تهدمنى	حتى رزحت رزوح العود ذى الجلب
وأعدت الرأس لونى دهره فغدا	قد حال عن دهمة كانت إلى شَهَبَ
والدهر يبلى الفتى من حيث ينشئه	حتى تكر عليه ليلة القرب
فى هدنة الدهر كاف من وقائعه	والعمر أقدح مبراة من الوصب
قفيت ذلك من قولى إلى فُنُقٍ	تلهو بمكتحل طورا ومُخْتَضِبِ
حوراء فى وطف ، قنواء فى ذلف	لَفَّاءُ فى هيف ، عجزاء فى قبب
كالشمس ما سفرت ، والبدر ما انتقبت	ناهيك من مسفر حسنا ومنتقب
جاءت تَدافَعُ فى وشى لها حسن	تَدافُعَ الماء فى وشى من الحبب

شؤمه وهجاؤه :

وقد ترامى الناس اتهامه بالشؤم لعزوفه عنهم وانكبابه داخل بيته لا يخرج إلا لماما ، ويتردد فى عزمه كُلَّما فجَأَهُ أمر أو وقعت عينه على ما يثير الطيرة فى نفسه . ودافع عن نفسه الشؤم الذى أراد أعداؤه وكائدوه إلصاقه به فقال :

كذب الزاعمون أنى مشئو	م ومانوا ، والثالب المثلوب
كذب الزاعمون أنى مشئو	م كل زعم مكـذب مكذوب
بل لى اليمن لا محالة كالصبـ	ـح إذا لاح ضوؤه المشبوب

وقد أوغر هذا الاتهام صدره ، فأضاف سببا جديدا إلى أسباب كثيرة دفعته دفعا الى الهجاء وإلى أن يقذع فيه ، وهو فى نفسه ليس شريرا لكنه خير يحب الناس ، ويألفهم إنما الناس يدفعونه إلى الشر وإلى هجر القوم .

من أناس قد أوسعونى سبا	بعد عرفانهم من المسبوب
وأرانى مسـعرا لهم الحر	ب ، وحربى اذا اعتزمت حروب
ولما ذاك أننى الرجل الشر	ير منى الخنا ومنى الوثوب
بل لدى الإنصاف يشفعه الاحسـ	ـان ما قارب الألد الشغوب
عندى العدل كله لصديقى	وعلى ظالمى يثور العكوب

وهكذا عاش ابن الرومى معذبا بحساسيته ، ورهافة روحه ،وتضييق الحياة

عليه ، وعدم فهم الناس ، وهو الشاعر المبدع المصور ، يستخدم اللفظ فى يسر ، ويَسْلُسُ له القول دون تصنع ، ويرسم فيجرى فى ملامح الصورة ماء الحياة ، ويعمد إلى الإمتناع ، فيشيع فى صوره صنوفا من المتعة ، ويطيع الجمال فينجذب اليه ويتعقبه فى كل جميل الصورة أو الطعم ، وهو يستمتع بحواسه جميعا لا يعطل واحدة منها . وعجيب لهذا الشاعر المفزع من الحياة ، المحب لها الراغب فى المتعة بها أشد الرغب ، الراهب للخوف أشد الرهب .

الباب الرابع
شعراء المذاهب والوجدان والفكر

الفصل الأول : شعراء العباسية
الفصل الثاني : شعراء الشيعة
الفصل الثالث : شعراء العشق
الفصل الرابع : شعراء الزهد والحكمة والمواعظ
الفصل الخامس : شعراء علماء
الفصل السادس : شعراء الطبع والزندقة



الفصل الأول
شعراء العباسية والسُّنة

— ١ —

مروان بن أبي حفصة
(١٠٥ — ١٨٢)
شاعر العبَّاسية التقليدى ، صاحب الصنعة

وهو مروان بن سليمان ، ولد باليمامة فى قلب نجد فى عام ١٠٥ هـ أى فى أول القرن الثانى ، ولا نريد أن نخوض فى أصل أسرته ، وما إذا كان من آباء من العرب صليبة ، أم كان أحد أجداده طبيباً يهودياً ثم أسلم على يدى عثمان بن عفان أو مروان بن الحكم .

ولا ينفى كونه يهوديا أنه من العرب ، فكم كان من العرب من اليهود وكان منهم شعراء كالسموأل وغيره كعب بن الأشرف فى المدينة .

ومع هذا فإن الأخبار كذلك تقول بأنه كان من كنانة صليبة ، ونسب إلى قبيلة عكل العربية . واضطراب نسبه هنا لا يعنينا فى كثير أو قليل ، وأهم من ذلك أن نعرف أنه لم يغادر الجزيرة العربية فى طفولته منذ ولد فى اليمامة ، ويقال إنّ جده أبا حفصة افتدى مروان بن الحكم فى واقعة الدار بالمدينة والتى قتل فيها عثمان . لقد كان جده إذا مروانياً . وينسب إليه قوله :

بنو مروانَ قومٌ أعتقونى وكلُّ الناس بَعْدَهُمُ عبيد

وحفظ مروان بن الحكم هذا الجميل لأبى حفصة ، فرعاه ، وقربه وظل كذلك حتى تولى الخلافة بدمشق .

ومع افتراض أن أبا حفصة الجدّ كان مولى أو يهودياً وأسلم[١] ، فإن هذا لا يغير من حقيقة أن ابناءه تزوجوا من عربيات صليبة ، فأنجبوا أبناء تجرى فى دمائهم وأصلابهم الدماء العربية .

---

(١) راجع كتاب مروان بن أبى حفصة وشعره لقحطان رشيد التميمى ، طبع النجف الأشرف بالعراق سنة ١٩٦٦ .

وكانت نشأته فى أسرة شاعرة ، وفدوا على الخلفاء وأنشدوهم من أشعارهم على قول ابن النديم والثعالبى[1] .

ولما كان آباء مروان مروانيين أَمَوِيى الهوى ، فقد قصدوا خلفاء بنى أمية ووفد هو على الوليد بن يزيد (١٢٥—١٢٦ هـ) وامتدحه بقصيدة دالية يقول فيها[1] :

إنّ بالشّام بالموقّر عزّا	وملوكاً مباركين شهودا
سادةً من بنى يزيد كراما	سبقوا الناسَ مكرماتٍ وجودا
هَانَ يا ناقتى علىّ فسيرى	أن تموتى إذا لقيتُ الوليدا

وهذا الشعر ضعيف فى بنائه يدلّ على أنه كان فى بدايات معاناته لقول الشعر ، ويقال إن هذا الشاب الذى بلغ العشرين أو أقل ، قد اضطربَ وأُرتج عليه أمام الخليفة يزيد .

ولم يُتحْ لأمية فيما يبدو أن يقول كثيراً من الشعر فى الأمويين ، وإن احتفظ لهم فى نفسه بالولاء وراثةً . ولم يلبث الزمن طويلاً حتى فوجىء بتغير الحال ، وهزيمة مروان بن محمد آخر الخلفاء فى واقعة الزاب ، ومجىء الدولة العباسية على أسنة رماح الخراسانيين بقيادة أبى مسلم .

وتغير الحال غير الحال ، وتولى السلطة رجل من بنى هاشم الأعداء التقليديين لبنى مروان هو أبو العباس السّفاح ، ونال الأمويين على يديه من التقتيل ، والتنكيل ما نالهم .

ويمرُّ مروان بظروف قاسية ، فلم تطاوعه نفسه أول الأمر أن يقصد السفاح ، ودماء بنى أمية لم تجف . إلاّ أن ظروف الحياة غيرت من موقفه ، واضطر أن يجارى أحداث الزمن ، فيتقرب من الدولة الجديدة ، ولا مانع عنده بعدها أن يناصرها ، ويكون لسان حالها والمتكلم بحقّها فى الخلافة ، تغيَّر إلى النقيض لكن لا بأس ، مادامت المصلحة تتطلب هذا التغير ، والدولة تدفع المال لمن يمشى فى الركاب ويطرق الأبواب ، ويكون داعية بلسانه ، يمكّن لحقها فى شعره ، ويذيعُ بين الناس ليقنعهم بشرعية الخلافة .

(١) راجع الفهرست ص ١٦٠ ، ولطائف المعارف ص ٧١ .

ومضت سنوات حكم الخليفة الثانى أبو جعفر المنصور، وأمية لا يزال يقدم رجلاً ويؤخرّ أخرى . ويصور أبو جعفر دستور الخلافة فى رسالة إلى النفس الزكية يضمنها الأسس التى تقوم عليها شرعيّة ولا يتهم دون أبناء عمومتهم العلويين والطّالبيين .

ونعرض نصّ الرسالتين المتبادلتين بين إمام العلويين محمد بن عبد الله بن الحسن بن على يقرر حقه فى الخلافة ويدحض دعاوى أبى جعفر المنصور والعباسيين عليهم . يقول :

« فإنّ الحقّ حقّنا ، وإنما ادّعيتم هذا الحق بنا ، وخرجتم له بشيعتنا وحظيتم بفضلنا ، وإنّ أبانا عليّا كان الوصىّ ، وكان الإمام ، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ، ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمرَ أحدٌ له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا ، وشرفِ آبائنا ، ولسنا من أبناء اللّعناءِ ولا الطلقاء .

وليس يَمُتُّ أحدٌ من بنى هاشم بمثل الذى نمتُّ به من القرابة والفضل .. إن الله اختارنا واختار لنا ، فوالدنا من النبيين محمد ﷺ ، ومن السلف أولهم إسلاماً علىّ ، ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة ، وأول من صلى القبلة ، ومن البنات خيرهنّ فاطمة سيدة نساءِ أهل الجنة ، ومن المولدين فى الإسلام الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة .

حتى يقول : « وأنا أولى بالأمر منك ، وأوفى بالعهد » .

ويرد أبو جعفر المنصور ناقضاً ما أبدى محمد بن عبد الله من حجج ، وما اعتمد عليه من زكى النسب ، فيدعى لنفسه الأحقية فى الخلافة تأسيساً على حجج وأسانيد أخرى ارتآها تنقض ما قال به الشريف الحسنىّ .

يقول المنصور :

« .. أما بعد ــ فقد بلغنى كلامُك ، وقرأت كتابك ، فإذا جُلّ فَخْرِكَ بقرابة النساءِ لتُضِلَّ به الجفاةَ والغوغاء ، ولم يجعل الله النساءَ كالعمومة والآباء . ولا كالعصبةِ والأولياء ، لأن الله جعل العمَّ أباً ، وبدأ به كتابه على الوالدة الدنيا ؛ ولو كان اختيار الله لهنّ على قدر قرابتهنّ كانت آمنةُ أقربهنّ رحماً ، وأعظمهنّ حقاً » .

ويقول : « ولقد بعث الله محمداً عليه السلام وله عمومةٌ أربعة ، فأنزل الله عزَّ وجل : ﴿ وأنْذِرْ عشيرتك الأقربين ﴾ فأنذرهم ودعاهم ، فأجاب اثنان أحدهما أبى ، وأَبَى اثنانِ أحدهما أبوك — يعنى أبا طالب — فقطع الله ولا يتهما منه ، ولم يجعل بينه وبينهما إلاّ ، ولا ذمَّة ولا ميراثاً » .. ويقول : « أما قولك إنكم بنو رسول الله ﷺ ، فإن الله تعالى يقول فى كتابه ﴿ ما كانَ محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ﴾ ، ولكنكم بنو بنته ، وإنها لقرابةٌ قريبَة ولكنها لا تجوزُ الميراث ، ولا ترث الولاية ، ولا تجوز لها الإمامة » .

ثم يشير إلى تنازل الحسن لمعاوية عن الخلافة ورضَاهُ بالمال. يقول: «فإن كان لكم شيء فقد بعتموه ، وأخذتم ثمنه » . وعاير المنصور العلويين بتعقب الأمويينَ لهم وتقتيلِهم إياهم لولا نصرة العباسيين لهم .

وردُّ المنصور ملىء بالمغالطات ، وأدعاء الشىء ونقضه ، فهو إذ يرى أحقيتهم فى وراثة النبىّ ، والقيام بخلافته لأنهم أبناء عمه ، يعود فيقول بأن الأنبياء لا يورثون وإن دار بمعنى الآية (ما كان محمدٌ أبا أحد من رجالكم) بعيداً عن هذا القَصد .

وهكذا كانت الأفكار التى ضمنها المنصور هذه الرسالة هى سند العباسيين وشعراءهم فى ادعاء الشرعية فى الخلافة . ومنهم شاعرنا مروان .

لقد جاء مروان إلى بغداد زمن الخليفة المهدى ، ومدحه مع جماعة من الشعراء منهم سلم الخاسر .

وكان مروان قد اتصلت أسبابه بمعْن بن زائدة القائد والزعيم العربى ، وأخلص له المديح ، فلما مثل بين يدى المهدى وأنشده ، قال له الخليفة : أنتَ القائل :

أقمنا باليمامةِ بعد معنٍ	مُقاماً لا نريد به زوالا
وقلنا أين نرحل بَعْدَ معنٍ	وقد ذهب النوالُ فلا نوالا

قد ذهب النوال فيما زعمت ، فلم جئت تطلبُ نوالنا ، لا شيء لك عندى جرُّوا برجله . فجرُّوا برجله حتى أخرج .

ومعلوم أن معن بن زائدة كان من قادة بنى أمية ، وأن العباسيين لم يقرّبوه

بل كان المنصور يمقته لولا أن كان دفاع معن عن أبي جعفر ، فتغير موقفه منه على ما أشرنا من قبل .

وربما كان رضى أبي جعفر عن معن بن زائدة ، وتقريبه له مشجعاً لشاعره مروان ليقصد باب العباسيين ، وانتظر حتى جاء المهدى فدخل إليه ، فقوبل بما قوبل به إلا أنه أعاد الكرة . ومدح المهدى بقصيدة أخرى أشاد فيها بالعباسيين واحتج لهم بالأحقية فى الخلافة بشهادة القرآن .

وأنشده قصيدته اللامية المشهورة :

طرقتكَ زائرةً فحيى خيالها ... بيضاءُ تَخْلِطُ بالجمال دلالَها
قادت فؤادَكَ فاستقادَ ومثلِها ... قاد القلوب إلى الهوى فأمالها

وفيها يقول :

هل تطمسونَ من السَّماءِ نجومها ... بأكفِّكمْ ، أم تسترون هلالَها
أو تجحدونَ مقالةً عن ربِّكم ... جبريلُ بلَّغها النبيَّ فَقالَها
شهدت من الأنفال آخر آيةٍ ... بتراثهم فأردتُمُ إبطالها

ويقصد مروان أن يستشهد بقوله تعالى : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ﴾ وهى الآية التى استشهد بها أبو جعفر المنصور فى رسالته إلى النفس الزكيّة لتأكيد حق العباسيين فى الخلافة .

ويقال إن المهدى عندما سمع هذه القصيدة أعجب بها ، وانفرجت أساريره ، وجعل يزحف عند سماعها من صَدْرِ مُصلاهُ حتى صار على البساط ، وهو مأخوذ مبهور[1] .

وحظى مروان برضى المهدى وصار مقرباً منه والناطق باسم العباسيين والمشيد بفضلهم .وينتهز كل مناسبة ليقدم من شعره ما يرضى هواهم . ويوم عقد المهدى البيعة لابنه موسى الهادى أنشده قصيدته :

يا ابن الذى ورث النبيَّ محمدًا ... دون الأقارب من ذوى الأرحام
الوحىُ بَيْن بَنِى البَناتِ وبينكم ... قطع الخصامَ ، فلات حين خصام

(١) راجع الأغانى ١٠ /٨٧ .

ما للنساء مع الرجالِ فريضة نزلت بذلك سورةُ الأنعام
أنّى يكونُ ، وليس ذاك بكائنٍ لبنى البناتِ وراثَةَ الأعمامَ
ألغى سِهَامَهُم الكتابُ فحاولوا أن يشرعوا فيها بغير سهامِ
ظفرت بنو ساق الحجيج بحقهم وغررتم بتَوَهُّمِ الأحْلامِ

فسرَّ المهدى بهذا المديح المتضمن المزيد من التأييد والإحتجاج بأحقية العباسيين فأضاف إلى حقِّ الوراثة للعم دون البنت ، ومن ثم للعباس دون فاطمة ، زاد فضلاً آخر للعباس هو سقاية الحجيج بمكة . فقد تولى ذلك فى الجاهلية على ما تقول السيرة .

وكانَ أن أغدق عليه المهدى ، وفعل الرشيد مثل فعل والده ، عندما أنشده مروان قصيدته الرائية التى يقول فيها :

أمورٌ بميراث النبىِّ وليتها فأنت لها بالحزم طاوٍ وناشِرُ
أبوك ولىُّ المصطفى دون هاشم وإنْ رغمت من حاسديك المناخِرَ

ولم يكن صعباً على مروان أن يحوّل عواطفه من الأمويين إلى العباسيين ، وبخاصة بعد ما استحكم العداء بين العباسيين والعلويين ، وقد كان العلويون الأعداءَ المعاندين لبنى أمية .

ولم يسلم العلويون له بما قال ، فانبرى له شعراؤهم يعارضونه وينقضون ما بنى ومنهم الشاعر محمد بن يحيى التغلبى . الذى نقض قوله بأن قال :

لِمَ لا يكونُ وإنّ ذاك لكائنٌ لبنى البناتِ وِرَاثةَ الأعمام
للبنتِ نصف « كامل » من مالِه والعمُّ متروك بغير سهامِ
ما للطليق وللتراثِ ، وإنَّما صلَّى الطليقُ مخافة الصمصامِ

يريد بالطليق العباس بن عبد المطلب جد العباسيين ، لأنه كان من أسرى بدر ، أطلقه الرسول ﷺ .

وقد احتجَّ التغلبى بقوله تعالى : ﴿ فإنْ كُنَّ نساءً فوق اثنتين فلهنَّ ثُلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ﴾ . وعلى هذا تأخذ البنت نصف الميراث ، ويترك العم دون نصيب .

وعيَّر التغلبى العباسيين بأن أباهم كان من الطلقاء يوم بدر ، وأنه لم يسلم طواعية ولا اقتناعا وإيمانا ، بل خوفاً ورهبة .

واعتمد مروان فى مدائحه على التعريض بذلك الحق العباسىّ ليفيض عليه الخلفاء من أموالهم فاعطوه منها الكثير والجليل . لكنه كان دائم الطلب للمال يعرّض بالسؤال . ولم يكن على كثرة ما توفر له منه سخيا معطاء ، بل كان بخيلاً .

وظلّ مروان المدافع عن حق العباسيين ، والمقدم عندهم حتى زمن وفاته فى خلافة هارون الرشيد سنة ١٨٢ هـ أو بعدها بقليل وقد جاوز الثمانين من عمره .

وإذا ما عرضنا لشعره وموضوعاته غير هذه الدعوة العباسية ومديح الخلفاء والقادة العرب قبل الدولة العباسية أيام الأمويين أمثال معن ، وفى عصر العباسيين من البرامكة أمثال الفضل بن يحيى ، فإنما نجد معظمه فى معانى المديح التقليدية الموروثة . ونعلم أنه أخلص لمعن بن زائدة ، وقصده فى صنعاء عندما تولى اليمن .

ومن أمثلة مديحه فيه قوله :

ويـــــوم عَسُولِ الآلِ حامٍ كأنما ... لَظى شمسِه مشبوبُ نارٍ تَلَهّبُ
نصبنا له منّا الوجوهَ وكِنُّها ... عصائِبُ أسمالٍ بها نتعصّبُ
إلى المجتَدى مَعنٍ تخطّت ركابُنا ... تنائف فيما بينها الريح تلعبُ
كأنّ دليلَ القَوْمِ بين سُهوبها ... طَرِيدُ دمٍ من خشيةِ الموتِ يهربُ
بدأنا عليها وهى ذات عجارِفٍ ... تقاذفُ صُعْراً فى البُرى حين تُجذبُ
فما بلغت صَنْعَاءَ حتى تبدّلتْ ... حُلُوماً ، وقد كانتْ من الجهل تشغبُ
إلى بابِ مَعْنٍ ينتهى كلُّ راغبٍ ... يُرجّى النّدى ، أو خائِفٍ يترقّبُ
جَرى سابقاً معنُ بن زائدة الذى ... به يفخر الحيَّانِ بكرٌ وتغلبُ
فبرَّزَ حتّى ما يُجارَى وإنّما ... إلى عِرْقِهِ يَنْمى الجوادُ ويُنسبُ
مُحالفُ صَوْلاتٍ تُميتُ ونَابلٍ ... يَريشُ ، فما يَنْفَكُّ يُرجَى ويُرهَبُ

فهذه أبيات بدوية نجديَّة ، تعذب فى سمع معن وأمثالِهِ من العرب الذين يطربون لهذا الشعر الذى ينقلهم إلى مهدهم الأول ، وما يربطهم به من مشاعر وحنين يتوارثه الأبناء عن الآباء .

وواضح هنا أن مروان يتبع القدماء فى نهجهم الفنّى من حيث بناء قصيدة المديح حيث يقف على الأطلال والديار ، ويذكر الرحلة وأهوالها ومشاقها ليصل إلى الممدوح فيرق له ، ولما كابده ، فيجزل له العطاء .

والألفاظ والصور بدوية ممعنة فى البعد عن لغة الحضر فى بغداد ، ويتضح من شعره فى غير معنى مما قدمنا من قصائد فى المهدى والرشيد ، وما أنشده للفضل بن يحيى البرمكى أنه عدل عن هذه الطريقة ، واتخذ لنفسه نهجاً جديداً يخفف فيه عن غَلْواءِ البداوة والأعْرابيّة، ليقترب من ذوق الحضريين فى بغداد .

ونضع هذه القصيدة الأعرابية فى معن مقابلة لقصيدة أخرى قالها فى مديح الخليفة محمد الهادى ليتضح معنى ما قلنا من مزجه فى بغداد بين البداوة والحضارة . يقول :

أعادَك من ذكر الأحبّةِ عائد — أجلْ ، واستخفّتك الرسوم البَوائِدُ
تذكرت من تهوى فأبكاك ذكره — فلا الذكر منسيٌّ، ولا الدَّمع جَامِدُ
تحنُّ ويأبى أنْ يساعِدَك الهَوى — وللموتُ خيرٌ من هوى لا يُسَاعِدُ

وينتهى من هذه المقدمة التى يمزج فيها الوقوف التقليدى على الأطلال ، وحديث الحبّ الرقيق الذى يحمل روحاً حجازية أو عذرية ، ولاينى يحمله ألفاظاً أعرابية نجدية ، فبينما يقول فى نفس رقيق عذب :

ألا طالما أنهيت دمعك طائعا — وجارت عليك الآنسات النَّواهِدُ

يذكر بشعر عباس بن الأحْنَف إذا به فى البيت التالى يقول :

تذكرّنا أبصارها مقَل المها — وأعناقُها أدْمَ الظّباء العواقِدُ

ويخرج إلى الرحلة كعادته التى اكتسبها من بناء التقليديين من النجديين وأمثالهم وخاصة جرير والفرزدق فى مدائحهم للأمويين . فيقول :

إليك أمير المؤمنين تجاذَبَتْ — بنا اللّيلَ خوصٌ كالقِسِيِّ شواردُ
يمانيةٌ ينأى القريبُ محلّه — بهنّ ، ويدنو الشاحطُ المتباعِدُ
تجلّى السُّرى عنها وللعيس أعينٌ — سوامٍ ، وأعناقٌ إليك قواصِدُ
إلى ملكٍ تندى إذا يبس الثرى — بنائل كفيه الأكف الجوامِدُ

فهنا يعود مروان أعرابياً ، بمعانيه وصوره وألفاظه . ولا تخفى الصّنعةُ المحكمة فى الصياغة وتركيب الصورة فى إيجاز قدير .

ومدائح مروان فى معن بن زائدة ومراثيه فيه تختلف عن مدائحه فى خلفاء بنى العباس ، ونستطيع القول دون مغالاة ، ولا نبوّ أن شعره فى معن فيه قدر من الصدق والهوى تتدفق فيه المعانى تجاوبها الألفاظ ، أما شعره فى خلفاء العباسيين فهو شعر رسميٌّ مصنوع لا يفتقد براعة البناء ، لكنه يفتقد كثيرا من حرارة العاطفة ، وصدق التعبير الذى يكتسب به الشعر تلك الشاعرية التى لا تخفى عن خبير .

ومدائحه ومراثيه فى معن تركز على القيم العربية من النجدة ، وبعد الهمة ، والكرم ومضاء العزيمة ، وما إلى ذلك . ومدائحه فى بنى العباس تركز على الأحقية فى الخلافة والعدل ، وحسن سياسة الرعية ، والعمل بما فرضه الإسلام على الإمام ، من حماية قبة الإسلام والذود عن أرضه كأن يقول فى القصيدة التى عرضنا لنا فى موسى الهادى :

كأنّ أمير المؤمنين محمداً	لرأفته بالناس للنّاس والدُ
على أنه من خالفَ الحقَّ منهمُ	سقَتْهُ بِدً الموتِ الحتُوفَ الرّوَاصِدُ
يَزينُ بنى ساق الحجيج خليفةٌ	على وَجْهِهِ نورٌ من الحق شاهِدُ

وكذا كان مديحه فى غير الخلفاء من الرؤساء من آل برمك وغيرهم ، بل لعلّ بعض ما قال فى الفضل من الشعر ينزل درجاتٍ عن مستوى شعره فى معن . ونحيل إلى قصيدته فى الفضل[1] التى قال فيها :

حمدنا الذى أدّى ابن يحيى فأصبحتْ	بمقدمه تجرى لنا الطيرُ أسعدا

لندرك الفرق واضحاً .

ونحن قبل الفراغ من الحديث عن مروان وشعره نودُّ أن نورد هذه الأبياتَ التى يفتخر فيها ويذكر الشاعرين الكبيرين جريراً والفرزدق واللّذين يشاركانه الوطن نجد ، وفى الأموية قبل تحوله إلى العباسيّة :

(١) راجع مجموعة شعره ص ٢٢٤ جمع قحطان رشيد التميمى ، ومجموعة جمع الدكتور حسين عطوان ، ص ٣١ ، طبع دار المعارف بمصر ، سلسلة الذخائر .

يقول :

ذهب الفرزدقُ بالفَخارِ وإنَّما حُلْوُ الكلام ومرُّه لجريرِ
ولقد هَجا فأمضَّ أخطل تغلبٍ وحَوَى اللُّهَى بمديحِهِ المشهورِ
كلّ الثلاثة قد أجاد ، فمدحهم وهجاؤهم قد سار كلَّ مَسيرِ
ولقد جريتُ مع الجيادِ فَفُتُّها بعنانٍ لا شبِمٍ ، ولا مَبْهورِ[1]
ما نالتْ الشُّعَراءُ من مستخْلَفٍ ما نِلْتُ من جاهٍ وأخْذِ بُدُورِ
عزّتْ معاً عند الملوك مَقَالتِي ما قالَ حَيُّهُمُ مع المقبُورِ
ولقد حُبيت بألِفِ ألِفٍ لم تُثَبْ إلاّ بسيب خليفـةٍ وأميـرِ
مازلْتُ آنف أن أحبِّرَ مِدْحَةً إلاّ لصاحبِ منبرٍ وسريـرِ
ما ضَرَّنِي حسدُ اللئام ، ولم يَزَلْ ذو الفضْلِ يحسدُه ذوو التقصيرِ
أَرْوِي الظّماءَ بكلِّ حوضٍ مفعمٍ جُوداً ، وأنزِعُ للسِّغابِ قُدُورِي
وتظلُّ للإحسانِ ضَامِنَةَ القِرى من كلِّ تامكة السَّنامِ عقيرِ[2]
أعطى اللُّهَى مُتبرِّعاً ، عوداً على بدءٍ ، وذاكَ عليَّ غيرُ كثيرِ
وإذا هَدَرْتُ مع القروم محاضِراً فى مَوْطِنٍ فضَحَ القُرومَ هديرِى

وأشار هنا إلى اتجاهه التقليدى فى مسايرة فحول الشعراء الأمويين الذين ملأ ذكرهم الآفاق ، ولاشك حفظ من أشعارهم كثيرا ، وحاول تقليدهم ، إذ لم يخل شاعرٌ من شعراء هذه المرحلة الأولى من عصر العباسيين من لم ينظر فى شعر أولئك الفحول إلاّ أن التأثر بهم تفاوت . فها هو بشار يحاول أن يجارى جريراً ، كما حاول مروان هنا ، وكما حاول العتّابى .

وأقرَّ بأنه قد نال بشعره ما نال من الغنى والجاه من هبات الخلفاء العباسيين من كان منهم حيًّا أو من مات . وأن ثروته بلغت مليون دينار أو درهم كلها من عطاياهم .

وأنه لم يقصد بشعره مادحاً إلاّ أولئك الخلفاء ترفعاً ، ومن لحق بهم من أصحاب السلطان والجاه .

ولكنه وإن صدق فى كثير مما فاخر به إلاّ أنه قد جاوز الصدقَ فى ادعائه

---

(١) الشَّبِمُ : البارد ، والمبهور الذى انقطع نفسه .
(٢) تامكة السنام عظيمتُه ، والعقيرُ المذبوحة .

الكرم وبذل المال على خلاف ما تشهد به أخباره ، وما يرويه المعنيون بترجمته .

— ٢ —

علي بن جبلة (العكوك)

(١٦٠ — ٢١٣ هـ)

شاعر عباسي من الخراسانية ، عرف بولائه للعباسيين ، قيل إنه كان سندياً أو حبشياً لسواده . وهو من الموالي .

كان من العميان ، ربما ولد كذلك ، أو فقد بصره فى صباه أو طفولته إلاّ أنه كان حاد الذكاء فطناً ، قوى الحافظة. حفظ كثيراً من الشعر. وأصل ولادته ونشأته ببغداد فى الجانب الغربى منها ، وكانت أسرته من مؤيدى الأمين وأنصاره . وساعدوه فى حربه مع المأمون ، وكان عبد الرحمن بن جبلة من قادة الأمين الذين أبلوا فى حصار بغداد بلاءً حسنا . وعاصر على بن جبلة جماعة من شعراء العباسيين الذين عاشوا فى بغداد أو وفدوا إليها مادحين للخلفاء أمثال أبى نواس ، والحسين بن الضحاك ، وأبى العتاهية ، والعتابى ، ومنصور النمرى .

وقيل إنه قصد الرشيد ، ومدحه بقصيدة ، لم تصل إلينا ، ولم نعرف له مدحاً فى الأمين مع علاقة أسرته به ، ولم يكن المأمون من ممدوحيه ، وكان الخليفة لا يحبه ، فابعده عن مجلسه ربما لأنه عرف ولاءه وولاء أسرته للأمين واستبسالهم فى مناصرته .

إلاّ أنه قصد جماعة من كبار القادة ورجال الدولة من أصحاب الأمين والمأمون على حد سواء ، فوجد لديهم ترحيبا وقبولاً ، فأغدق عليه بعضهم الأموال حتى إن أخبار ما أغدق عليه تقرب إلى المبالغة لأنها تفوق كثيرا مما أغدقه الخلفاء على كبار الشعراء .

فقد روى أن حميداً الطوسى أعطاه على شعر فى مدحه يوم النيروز ويوم عيد أربعمائة ألف درهم ، وأن أبا دلف العجلى فعل مثله فى مقابل قصيدة له فاعطاه مائة ألف ..

وأشهرُ من مدحهم هذان القائدان حميد بن عبد الحميد الطوسى الطائى وأبو دلف القاسم بن عيسى العجلى ، وعبد الله بن طاهر الخزاعى ، والحسن بن سهل .

وعليه فإن شعر التكسب بالمديح غلب عليه ، فهو شاعر محترف ، ومن ثم فإن شعره تغلب عليه الصنعة والافتعال والتكلف للقول ولقاءَ المال .

وما جاء من شعره فى غير المديح إمّا متصل به كالغزل فى مقدمات مدائحه ، أو الرثاء لمن مدحه ، وهو شبيه بالمديح إلا أنه لميت ليس من الأحياء . وقليلاً ما نعثر على مقطوعات أو أبيات هنا وهناك تخرج عن هذه الموضوعات الثلاثة .

وعلى أن شعره يعكس بعض صور الحياة البغدادية فى نهاية القرن الثانى وأول الثالث ، كما يصور بعض أحوال الناس وعاداتهم فى المواسم والأعياد ، كحديثه عن ترك الملاهى فى رمضان والاقبال على قراءة القرآن وسَماع قرائه . يقول فى قصيدة يمدح بها حميدا الطوسى :

جَعَل الله مدخل الصَّوم فوزاً ... لحميدٍ ومتعةً فى البقاءِ
فهو شهر الربيع للقراءِ ... وفراق النَّدمانِ والصَّهباءِ
وكأنى أرى الندامى على الخَوْ ... فِ يرجونَ صُبْحهم بالمَساءِ
قد طوى بعضهم زيارة بعضٍ ... واستعاضوا مصاحفاً بالغناءِ

كما يصوّر بعض العلاقات التى كانت بين كبار رجال الدولة ، كالعلاقة بين أبى دلف ومحمد بن عبد الملك الزيات ، ويبدو أنها لم تكن على شئ من التواصل أو التقارب ، وكان بينهما خلافٌ ، وانحاز على بن جبلة بالضرورة لأبى دلف ضد محمد بن عبد الملك فقال :

فاردد جفونك حَسْرَى عن أبى دُلَفٍ ... ولا مَلامَةَ أن تَعْشَى عن القَمَرِ
لا يسخطنَّ امرؤٌ إن ذلَّ من حَسَبٍ ... فالله أنزلهُ فى محكم السُّوَرِ
أقْصِر أبا جعفرٍ عن سطوةٍ جَمَحَتْ ... إنْ لا تقصِّرْ بها مالت إلى الفقرِ

ولعلَّ لهذا الحديث علاقة بسخط المأمون على أبى دلف ، وقد قيل إن ابن الزيات كان من المحرضين عليه الساعين به .

وكذلك شعره فى الهيثم بن عدىّ يعكس جانباً من هذه الأحداث[١] .

وشعر على بن جبلة يعد من الشعر الجيد الوسط الذى لا يبلغ فيه مبلغ الفحول الكبار . ويغلب على شعره ما غلب على شعر الموالى من محدثى الدولة العباسية ، يميل إلى السهولة فى العبارة والمعنى ، وإن اعتمد فى كثير من صور الموضوعات التقليدية كالمديح والرثاء والفخر والهجاء على قاموس الشعر القديم مع إعادة للصياغة فى قوالب جديدة .

وله بعض ما يستجاد من أبيات يبلغ فيها مبلغاً جيداً فى تعبيره وخياله وايقاعاته ، تدور فيما يخلص فيه لنفسه من المعانى كالغزل والقول فى الخمر والوصف .

ومن طريف شعره وصفه للفرس هذا الوصف المبدع الذّى استغلّ فيه بعض معانى القدماء ، وأضفى عليه من خياله أفانين . يقول من قصيدة يمدح بها أبا دلف العجلىّ* :

وأذعَرَ الرَّبْرَبَ عن أطفالِه ... بأعْوجيٍّ دلفيِّ المنتَسبْ[٢]
تحْسَبُه من مَرج العزِّ به ... مستنفراً بروعةٍ ومُلْتَهَبْ
مرتهجٌ يرتجُّ فى أقْطَارِهِ ... كالماءِ جالتْ فيه ريحٌ فاضطربْ
تحْسَبُه أقعدَ فى استقبالِهِ ... حتَّى إذا استقبلْتَهُ قلتَ أكَبْ
وهو على إرْهافِهِ وَطيِّهِ ... يقصرُ عنه المحْزَمانِ واللَّببْ[٣]
تقول فيه جَنَبٌ إذا انتحىَ ... وهو كمتْنِ القِدحِ مافيه جَنبْ[٤]
يخْطو على عوجٍ تناهَبْنَ الثَّرى ... لم يتواكلْ على شنطىً ولا عَصَبْ
تحَسبُها ثابتةً إذا خطَتْ ... كأنَّها واطِئةٌ عن الرُّكَبْ

---

(١) راجع ابياته فى هجائه فى مجموع شعره ص ٥٠ .

* القصيدة بديوانه جمع د . حسين عطوان — طبع دار المعارف (سلسلة ذخائر العرب) ص ٣٣ .

(٢) أذعرُ : أهيج . والربربُ : قطيع البقر الوحشى ، وأعوجى : نسبة إلى أعوج جواد مشهور كريم النسب .

(٣) إرهافه وطيه : أى ضموره ، والمحزمان والملبب : الأحزمة والأربطة التى يثبت بها السَّرجُ على الجواد .

(٤) الجنبُ : الظلَعُ أو العَرجُ .

شتا وقاظ بُرهتيْهِ عندنا ... لم يؤت من برّ به ولا حَدَبْ

....

رُمْنَا به الصيّدَ فَرادَيْنَا بهِ ... أوَابدَ الوحشِ فأجْدى واكتسبْ[1]

مِحتدمَ الجرْى يُبارى ظلَّهُ ... ويعرقُ الأحقبَ فى سوط الخَببْ

إذا تَظَنّيْنَا به صَدَّقَنَا ... وإن تظنّى فوته العَيرُ كذَبْ

لا يبلغُ الجهد به راكِبُهُ ... ويبلُغ الربحَ به حيث طَلَبْ

ويجيد وصف الشراب فيقول :

دَعْ الدنيا فللدنيا أناسٌ ... ألذُّ العيش إبريقٌ وكَاسُ

وصافيةٌ لها فى الرأسِ لينٌ ... ولكنْ فى النّفوس لها شماسُ

كأنَّ يَدَ النديم تُدِيرُ منها ... شعاعاً لا يحيط عليه كاسُ

معتّقةٌ إذا مُزجَتْ أضاءتْ ... فأمكن قابساً منها اقتباسُ

تخَالُ بعين شاَربها نعاساً ... وليس سوى المدامِ به نعاسُ

---

(١) رادَينا به : أى تعقَّبنا ، وطارَدْنا .

ومن شعراء السُّنَّة :

— ٣ —
علي بن الجهم[1]
(١٨٨—٢٤٩ هـ)

أبو الحسن علي بن الجهم بن بدر ينتهي نسبه إلى قريش . ولد في بيت أهله بمدينة مرو بخراسان ، وانتقل الأب مع ابنه إلى بغداد ، وبها نشأ وتعلّم. وأسرته من سراة الناس وعليتهم ، فقد تولى بعضهم مناصب مرموقة في الدولة . إذ تولى أبوه الجهم بريد اليمن للمأمون ، وتولى شرطة بغداد للواثق ، كما تولّى أخوه محمد بن الجهم للمأمون عِدّة ولايات . وكان عالماً أديباً روى عنه الجاحظ في كتبه .

كما كان عمه إدريس من الرؤساء ، ورثاه الشاعر أبو تمام .

وتلقّى علومه في الكتاب ، وجالسَ العلماء والأدباء ، ونبه ، وبدت سيماء شاعريته مبكراً في صباه كأبي نواس . وغلبت على ثقافة الشاعر العربية والعلوم الإسلامية ، ولم يلتفت إلى ما عرف بعلوم الأوائل أي العلوم العقلية والطبيعية . وإجتذبه مذهب أهل الحديث والسّنة . وجالسَ الإمام أحمد ابن حنبل . واختلف إلى قبّة الشعراء في المسجد الجامع ببغداد ، حيث كان يجتمع الشعراء البغداديون وبعض الوافدين فيتناشدون الشعر ، ويعرضُ كلّ ما أبدعه أو نظمه من جديد . وكان من بين من اجتمع إليهم بها دعبل بن علي، وابن أبي الشّيص، وابن أبي فنن، وأبو تمام . يقول :

« كان الشعراء يجتمعون في كل جمعة في القبة المعروفةِ بهم بجامع بغداد ينشدون الشعر ، ويعرضَ كلّ منهم على أصحابه ما يكون قد نظمه بعد مفارقتهم في الجمعة التي قبلها . فبينا أنا في جمعةٍ من تلك الجمع ، ودعبل وابن أبي الشّيص وابن أبي فنن، والناس مجتمعون يسمعون إنشادَ بعضهم بعضاً أبصرتُ شاباً في أخرياتِ الناس جالساً في زيّ الأعراب ، فلما فرغ كلّ منهم ، وقطع إنشاده التفت الشابُّ إلينا وقال : قد سمعتُ إنشادكم منذ اليومَ فاسمعوا إنشادي . فقلنا : هات فأنشد :

فحواكَ عينٌ على نجواكَ يا مَذِلُ

---

(١) نشر خليل مردم ديوانه محققاً ، وقدم له بمقدمة عن الشاعر ، طبع بدار الآفاق الجديدة ، بيروت ، سنة ١٩٨٠ م .

ثم مرَّ فيها مُنْشِداً حتى أتى إلى قوله :

تغايَرَ الشِّعْرُ فِيه إذْ سَهِرْتُ لَهُ ... حتَّى ظننْتُ قَوَافِيهِ ستَقْتَتِلُ

فعقد ابن أبي الشيص عند هذا البيت خنصره ، ثم مرَّ فيها الشاب إلى أن أتى على آخرها ؛ ثم أنشد قصيدةً أخرى ، فقلنَا له : « أيها الشاب لمن هذا الشعر ؟. فقال : لمن أنشدكُموهُ ، فقلنا : ناشدناك الله من تكون !. فضحك وقال : أنا أبو تمام الطّائى . فرفعنا مجلسه حينئذ وعظمناهُ تعظيما كبيراً ، واشتدَّ إعجابنا به لدماثة أ خلاقه ، وفصاحة منطقِهِ ، وجودة شعره . »

ومنذ ذلك الحين جمعت بين الشاب أبي تمام وعلى بن الجهم صداقة قويت أواصرها بمرور الزمن حتى إنّ أبا تمام وصف ما بينهما من صداقة ومحبة فى قصيدة خالدة يقول فيها : (وكان يودعه فى سفر)[1] :

هيَ فرقةٌ من صاحِبٍ لك ماجِدِ ... فغداً إذابةُ كلِّ دمعٍ جامِدِ

يقول :

أعليُّ يا ابن الجهْم إنّكَ دُفْتَ لى ... سُمًّا وجمراً فى الزُّلالِ البارِدِ[2]

لا يَهْلِكَنْ أبَداً ، ولا تبعُدْ فما ... أخلاقَك الخُضرُ الرُّبى بأَنَاعِدِ

إنْ يُكْدِ مُطَرِّفُ الإخاءِ فإنَّنا ... نغْدو ونسرى فى إخاءٍ تالِدِ

أو يختلف ماءُ الوِصالِ فماؤنا ... عَذْبٌ تَحدَّرَ من غمامٍ واحِدِ

أو يفترقْ كسبٌ يؤلِّفَ بيننا ... أدبٌ أقمناهُ مقامَ الوالِدِ

وظلّتْ علاقتهما قائمة على أحسن حال حتى توفى أبو تمام ، فرثاه على بن الجهم بقوله :

غَاضَتْ بدائِعُ فِطْنَةِ الأوْهَامِ ... وعدَتْ عليها نكبةُ الأيَّامِ

وغدا القريضُ ضَئيلَ شخصٍ باكياً ... يشكو رَزِيَّتَهُ إلى الأقلامَ

وتأوهتْ غررُ القوافى بعدهُ ... ورمى الزمانُ صحيحها بسقامِ

أودَى مثقَفُها ورائِضُ صَعْبِها ... وغديرُ روْضَتِها أبو تمّامِ

---

(١) ديوانه ص ٨٦ ، طبعة محمد جمال .

(٢) دفت : دسست ، وخبأت

وظلّ عليٌّ بن الجهم يروض الشعر ، ويعرضه على شعراء عصره حتى استوى عوده فيه ، فعرف شاعراً ، مبرزاً فى خلافة المأمون أوائل القرن الثالث ، وبلغ المأمونَ أمره فاستدعى أخاهُ محمداً . روى أخوه قال : « دعانى المأمون يوماً فقال : نبغ لك أخ « يقول الشعر ، فأنشدنى له » . فأنشده من شعره .

ويروى أبو الفرج عن على بن الجهم أنه سافر إلى بعض البلاد فى الشرق والغرب إلى خراسان ومصر والشام ، وأقام بكل منها زمنا .

وتولى للمعتصم مظالمَ حُلْوان بالعراق ، وربما كان ذلك سنة ٢٢٢ هـ ، ومدح ابن الجهم المعتصم وهنأه بانتصار عمورية وقضائه على بعض أعدائه . كما مدح الواثق ببعض المقطوعات ، ولم يرتَحْ الشاعر لموقف الخليفة من أهل الحديث ، ولتعصبه للمعتزلة ضد السّنة . وأعلن عداءه للوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، وهجاه بقوله :

لعائِــنُ الله متابعـــاتِ مُصَبَّحــاتٍ ومُهجَّــراتِ
على ابن عبد الملك الزيَّاتِ عرَّض شملَ المُلْكِ للشتاتِ
وأنْفَذَ الأحكام جائراتِ على كتابِ الله زارياتِ
وعن عقولِ الناسِ خارجاتِ يَرْمِى الدواوين بتوقيعاتِ
معقّداتٍ كرقَى الحيَّاتِ سبحانَ منْ جَلّ عن الصِّفَاتِ
بعدَ ركوبِ الطَوْفِ فى الفراتِ وبعد بيع الزَّيتِ بالحبَّاتِ
صِرْتَ وزيراً شامخَ الثباتِ

وتولّى المتوكل ، فحاربَ المعتزلة وتَعقَّبهُم ، وقرب أهل السّنة ، ونكّلَ بالشيعة والعلويين . وكانت أفعاله وأهواؤه على هوى على بن الجهم ، فآملَ خيراً . يقول مادحاً إياه :

قالوا أتاك الأملُ الأكبر وفازَ بالملك الفَتى الأزْهَرُ
واكتست الدنيا جَمَالاً به فقلْتُ قد قام إذاً « جعْفَرُ »

وقدم له قصيدةً بثّ فيها كلّ ما يرجوه منه وفيه . يقول :

وقائِــلٍ أيهمــا أنْـــوَرُ الشَّمْسُ أم سيّدنا جَعْفَرُ
قلْتُ قدْ أكبرْتَ شمس الضُحى جهلاً وما أنصفت من تذكُرُ

يقول فيها معرضاً بالمعتزلة :

فأمَّر الله إمام الهُدى ... والله من يَنْصرُهُ يُنْصَرُ
وفوَّض الأمرَ إلى ربِّه ... مُسْتَنْصِراً إذ لَيْسَ مُسْتَنْصَرُ
وقالَ والألسن مقبوضة ... لِيُبلغَ الغائبَ من يحضُرُ
أني توكَّلتُ على الله لا ... أشرك بالله ولا أكفُرُ
ولا ادَّعِى القدرة من دونِه ... بالله حولى وبه أقدرُ

ووصف غلبة المعتزلة على الدولة (وهم القدرية) بالرِّدَّة ، وقرنها بالردّة أيام أبى بكر ، لأنه رأى أن المعتزلة بتعاليمهم ارتدوا عن السنة النبوية والدين الصحيح فى رأيه . يقول :

الرِّدَّةَ الأولى ثَنَى أهْلَها ... حَزْمُ أبى بكرَ ولم يكْفُروا
وهذهِ أنت تلافيتَها ... فعادَ ما قد كانَ لا يُذكَرُ
فاسلم لنا يا خيرَ مستخلفٍ ... من معشرٍ ما مِثلُهمْ مَعْشَرُ
واسمَعْ إلى غرَّاءَ سنيَّةٍ ... يَسْطَعُ منها -المِسْكُ والعنبرُ
موقعُها من كلِّ ذى بدعةٍ ... موقعُ وشم النارِ أو أكثرُ

ولازم المتوكل بعدها ، ونادمه ، ووثق فيه الخليفَة ، ولم يصبر على فراقه واجتمع معه فى مجلسه جماعة من شعراء العصر المعروفين كالحسين بن الضحاك والبحترى . ويبدو أنه حدث بينه وهذه الجماعة خلاف ، فدسوُّا له عند المتوكل . وهجاه البحترى ، فاستَوْحَشَ منه المتوكل بعد سبع سنوات من الملازمة والمنادمة ، وأمر بحبسه ، فبعث إليه من الحبس يقول :

أنا المتوكِّلىُّ هوًى ورأيا ... وما بالواثقية من خفاءِ
وما حَبْسُ الخليفةِ لى بعَارٍ ... وليس بمؤيسى منه التَّنائى

فصفا له الخليفة زمنا وهمَّ أن يُطْلِقَه إلاَّ أن شعراء القصر ومن عاونهم من رجاله تتبعوه ، وأعادوا الكرَّة على الخليفة ، ومنهم الشاعر مروان بن أبى الجنوب فأبقى عليه فى السجن .

وفى السجن صنع قصائد تعدُّ من شعر السجن أو الحبسيات المعروفة فى الأدب العربى . ومنها أبيات تتردد كثيرا فى كتب الأدب من مثل قوله :

قالوا حُبِسْتَ فقلتُ ليسَ بضائرٍ حَبْسِي ، وأيُّ مهنَّدٍ لا يُغْمد

ومع طول حبسه لم يتغير ولاؤه لأهل الحديث ، ولا للخليفة . ولم يكتَف خصومه بالحبس بل أوعزوا صدر المتوكل عليه واتّهموا ابن الجهم بهجائه فصادر أمواله ونفاه إلى خراسان .

وفى خراسان التقى بأميرهاطاهر بن عبد الله بن طاهر ، وما لبث أن جاءه كتاب الخليفة يأمره بصلبه يوماً إلى الليل ، وبحبسه وكان ذلك سنة ٢٣٨ هـ وقال فى ذلك :

لم ينصبوا بالشاذياخ صبيحة الإ ثنين مغموراً ولا مجهـــولا

وتوسل إلى طاهر وهو فى السجن مدلاً بما له من أيادٍ ، وما له من ولاء للخليفة والعباسيين .

إن كانَ لى ذنبٌ فلى حرمةٌ والحقُّ لا يدفنه الباطِلَ

وبعد لأى عطف عليه الخليفة فأمر بإطلاقه .

وظل بخراسان بعض الوقت يحضر مجلس طاهر ، ويسمر عنده ، ويتلقى عطاءه ، ويصحبه فى رحلات صيده .

وترك السجن فى نفس ابن الجهم أثراً مُرًّا ، فقد ساءت ظنونه فى الحياة والناس ، وتردد على المقابر ، وانفرد بها منعزلاً ، لعله يجد فى صحبة الموتى سلوى عن الأحياء .

روى أبو الفرج أن رجلاً من أهل خراسان لقى ابن الجهم بعد إطلاقه من حبسه جالساً فى المقابر ، فقال له : ويحك ! ما يُجْلِسُكَ ها هنا ؟. قال :

يشتاقَ كلّ غريب عند غربته ويذكر الأهل والجيران والوَطَنا
وليسَ لى وطنٌ أمَسيت أذكره إلاّ المقابرَ إذ صارتْ لهم وطنَا

ولم يلبث بعدها أن عاد إلى وطنه ومنزله ببغداد فى حدود عام ٢٤٠ هـ ورأى من الناس انصرافاً عنه بعد إقبال عليه عند اقبال دنياه ،ورضاالخليفة. وتنكر له الأصدقاء ، فازدادت نظرته السوداء إلى الحياة قتامةً ، ونظم يقول :

وأنكرَ إغفالَ العيونِ مكانَه ... وقد كنَّ من أشياعه حيث يَمَّمَا
عزاءً عن الأمر الذى فات نَيْلَهُ ... وصبْرا إذا كان التَّصبُّر أحزَما
خليليَّ كُرَّ ذِكْرَ ما قد تقدَّما ... وإن هاجت الذكرى فؤاداً مُتيَّما

يقول فيها :

إذا رفعَ السُّلطانُ قوماً تَرفَّعُوا ... وإن هدمَ السلطانُ مجداً تَهدَّما

وكانَ لما لقيه من ظلم الخليفة رغم ما قدمه له وخدمته إياه ، وانقلاب أصدقائه وأوليائه عليه أثر فى نفسه ، فصاحب أهل الفتوة فى بغداد بعد عودته من خراسان ، وأقبل على اللهو والشراب وسماع الغناء فى بيوت القيان . يقول أبو الفرج : « كان على بن الجهم يعاشر جماعة من فتيان بغداد لمَّا أُطلِقَ من حَبْسِه ورُدَّ من النَّفى ، وكانوا يتقاينون ببغداد ، ويلزمون منزل مُقيِّن بالكرخ يُقال له المفضَّل ».وقال فى وصفه وما فيه من الملاهى :

نزلنا ببابِ الكرخ أطيبَ منزلِ ... على مُحْسِناتٍ من قيانِ المفَضَّلِ
فلابن سريج والغريض ومَعْبَدٍ ... ودائعُ فى آذاننا لم تُبدَّلِ
أوانسُ ما فيهنَّ للضيفِ حِشمةٌ ... ولا رَبُّهُنَّ بالمهيبِ المبَجَّلِ
يُسَرُّ إذا ما الضَّيفُ قلَّ حَياؤهُ ... ويغْفَلُ عنه وهو غيرُ مُغَفَّلِ

وظلَّ فى هذه الحياة اللاهية غير عابىء بما قد تجرُّه عليه ، فقد قتل الأحساس فى قلبه جحود من أُخْلَصَ لهم ، ومن كانوا يقصدونه للحاجات ، فاصبحوا يعرضون عنه ويتجاهلونه لمَّا تجافاهُ السُّلطان .

سبع سنوات مضت به على تلك الحال حتى قتل المتوكل سنة ٢٤٧ هـ ، بتدبير ابنه المنتصر وبعض خدم القصر وقادة الترك ، وكان لهذا الحدث وقعه المؤلم على نفسه إذ نزل عليها صاعقاً لينبهه إلى فداحة فقدان هذا الخليفة الذى بنى عليه آماله أول ولايته ، وأحبه وأخلص له ، وظلت جذوة الحب خامدة بعد هذا الذى لقيه منه بفعل المحيطين به من الحاشية والجلساء . حتى أوقدتها الفاجعة ، وأثارتها فلم يتمالك نفسه من الجزع عليه . فبكاه متفجعاً ، وسكب من الدمع ما امتزج بصدق العاطفة .

قال :

وساريةٍ تَرتَادُ أرضاً تَجودُها … شَغَلْتُ بها عيناً قليلاً هجودُها
أتتنا بها ريحُ الصَّبا وكأنَّها … فتاةٌ تُزَجّيها عجوزٌ تقودُها
تَميسُ بها مُيْسًا ، فلاهى إنْ وَنتْ … نَهتْهَا ، ولا إنْ أسرعتْ تستَعيدُها
إذا فارقتها ساعةً ولِهتْ بها … كأمٍّ وليدٍ غابَ عَنْها وَليدُهَا
فلمَّا أضَرَّتْ بالعُيونِ بُروقُها … وكادَتْ تُصِمُّ السَّامعينَ رعودُها
وكادَتْ تميسُ الأرض إما تلهُّفاً … وإمَّا حذارًا أن يَضيع مُريدُها
فلمَّا رأتْ حُرُّ الثَّرى مُتعقِّدًا … بما زلّ منها والرُّبى تَستَزيدُهَا
وأنّ أقاليمَ العِـــراقِ فَقيرةٌ … إليْهَا أقامَتْ بالعِراقِ تجودُهَا
فمَا برِحَتْ بغدادُ حَتَّى تَفَجَّرَتْ … بأوديةٍ ما تَستَفيقُ مُدُودُهَا
وحَتَّى رَأينَا الطَّيْرَ فى جَنبَاتِها … تكادُ أكفُّ الغانِياتِ تصيدُها
وحتَّى اكتستْ من كلِّ نور كأنَّهَا … عَروسٌ زَهاهَا وَشْيُهَا وبُرودُها
دَعَتْهَاإلى حَلِّ النطاقِ فأذْعَنَتْ … إليها سمطَهَـــا وفريدُهـــا

وهى قصيدة باكية لجأ فيها إلى الرمز فى مطلعها ليوحى بما كان للمتوكل فى نفسه من المكانة ، وما كان له فى حفظ الدولة ، وبأمله منه لخير الرعيَّة ، ورعاية الملّة الإسلامية بأخذه على أيدى معارضى أهل الحديث والسنة .

وهذا النهج الذى يتخذه فى مطلع القصيدة بحيث يوظفه لمضمونها جديد فى تناول الشعراء ، جديدٌ فى تحديث المطلع ينتقل به نقلة أخرى بعد بشار وأبى نواس ، بل وبعد أبى تمام ، ويقترب فيه من صنيع ابن الرومى — وقد تعاصرا — وربما كان هو سبَّاقاً بحكم تقدمه ، وإن ظل فن ابن الرومى أكثر إحكاما .

وشعر على بن الجهم حافل بالجوانب الإنسانية يتناولها فى صدق ومعاناة ، يكشف فيها عن كثير من أخلاقيات العصر وسلوكيات أهله ، وما أكسبه الثراء والمال والجاه لبعض الأنفس المريضة من تجاوزات وإنحرافات خرجت بها عن طريق الدين القويم، وأبعدتها عن الفطرة الإنسانية النقية السمحة، التى كان يتخلق بها الناس فى حياتهم البادية قبل غلبة شهوة المال والسلطان ، والتعرض لآفة الرفاهية والنعمة .

وفى سنة ٢٤٩ هـ خرجت عليه جماعة من كلب فقتلته .

وانتهت بهذا حياة الشاعر الغريبة المأسوية بعد أن تقلبت به الأيام بين المجد والغنى والشهرة ، والإنكار ، بين السعادة والمجد والشقاء والحبس والنفى والإهمال .



الفصل الثانى
شعراءُ الشيّعة

ومن شعراء الشيعة :

— ١ —

السيّد الحميرى[١]
(ت حول سنة ١٧٠ هـ)

والسيد لقبُه، واسمه اسماعيل بن محمد بن يزيد. ويكنى أبا هاشم وكان شاعراً متقدماً مطبوعاً . ويقال إن أكثر الناس شعراً فى الجاهلية والاسلام ثلاثة : بشار ، وأبو العتاهية والسيد . فإنه لا يُعلَمُ أحدٌ قدر على تحصيل شعر أحدهم .

وله ديوان كبير[١] .

قال أبو الفرج : « وإنما مات ذكرهُ ، وهجر الناسُ شعرَه لما كان يُفرط فيه من سبِّ الصحابة ، وأزواج النبى ﷺ فى شعره ويستعمله من قذفهم والطعن عليهم[٢] . فتحومى شعره من هذا الجنس وغيره لذلك . وهجرهُ الناسُ تخوُّفاً » .

قال أبو الفرج : « وله طراز من الشعر ومذهبٌ قلّما يُلْحقُ فيه أو يقَاربُه » . ويقال إن أبويه كانا إباضيين — من الخوارج الحرورية[٢] — وكان منزلهما بالبصرة وتحوَّل هو من الإباضية ، وسبَ عليّ رضوان الله عليه إلى التشيّع لعلى وابنائه . وقيل إنه كان على رأى الكيسانية ، وهم فرقة من الشيعة الإمامية . إلاَّ أنهم يقولون بامامة محمد بن الحنفية .

وكان السيد تامٌ القامة أسمَر ، ذا وفرة ، أى كان يرسل شعره إلى ما بعد شحمة أذنه ويمثل قوله فى الأبيات التالية عقيدته إذ يقول[٣] :

---

(١) راجع الأغانى ٧ /٢٥١ ومقدمة ديوانه جمع وتحقيق وشرح شاكر هادى شاكر طبع دار مكتبة الحياة بيروت .

(٢) ويخالف صاحب مقدمة الديوان أبا الفرج فى هذا .

(٣) تنسب الأبيات لكثير عزة ، ويؤكد صاحب مقدمة الديوان نسبتها للسيد .

ألا إنَّ الأئمة من قريشٍ ولاةَ الحقِّ أربعةٌ سَواءُ
عَلِيٌّ والثلاثةُ من بَنيهِ هُمُ أسباطُهُ والأوصياءُ
فأنَّى فى وصيته إليهم يكون الشكُّ منا والمِراءُ
بهم أوصاهم ودعا إليهم جميعَ الخلقِ لو سُمِعَ الدُّعَاءُ
فسبطٌ سبطُ إيمانٍ وحلمٍ وسبطٌ غيبتْه كربلاءُ
وسِبْطٌ لا يذوقَ الموتَ حَتَّى يَقُودَ الخيلَ يَقدُمُها اللّواءُ

ويقول وقد جلى عقيدته بالإمام الرابع محمد بن الحنفية بعد على وابنيه الحسن والحسين :

سَمِيُّ بنَبِينا لم يَبْقَ منهمْ سواهُ ، فعندهُ حَصُلَ الرَّجاءُ
تغيَّبَ غيبةً من غير موتٍ ولا قتلٍ ، وسارَ به القضاءُ
وبين الوحشِ يُرعَى فى رِياضٍ من الآفاقِ مَرْتعُها الخَلاءُ
فحلَّ فما بها بَشرٌ سواهُ بعقوتهِ له عسلٌ وماءُ
إلى وقتٍ ، ومدَّةُ كلِّ وقتٍ وإن طالت عليه لها انقضاءُ

فهو يرى هنا أن الأمام — يعنى محمد بن الحنفية — تغيب من غير موت ولا قتل ، وسارَ به القضاءُ من غير هذين الطريقين إلى رياض (من الآفاق مرتعها الخلاءُ) وليس يرعى فيها معه غير الوحوش من الظباءِ . ومعه عسلٌ وماء يستعين بهما على قضاء الوقت الذى لا بد وأن ينقضى .

ويروى أنه رجع عن الكيسانية إلى الامامية الاثنا عشرية والقول بإمامةِ جعفر الصادق . ويقال أنه ذكر ذلك فى شعره :

تجعفرتُ باسم الله والله أكبرُ وأيقنت أن الله يعفُو ويغْفِرُ
ويثبت مهما شاءَ ربّى بأمرهِ ويمحو ، ويقضى فى الأمور ويقدِرُ

وقد نص ابن المعتز على قوله الشعر صبياً ، حتى برع فيه ، وصار مطبوعاً عليه ، بعدما آذنت دولة الأمويين بالأفول كان السيد قد بلغ مرحلة الشباب . وكان لا يقرُّ بخلافتهم كغيره من الشيعة ، فا بتعد عن بلاطهم ، ولم يمدح أحداً منهم ، بل كان شعره يدعو إلى الثورة ضدهم ، ويأمل بعودة إمامه المختفِى ليقود الكتائب ويزيل من سلطانهم . يقول(١) :

(١) القصيدة رقم (١) فى ديوانه .

كأنا يا ابن خولة عن قريبٍ ... وربُّ العرش يفعلُ ما يشاءُ
يهزُّ دوين عين الشمسِ سيفاً ... كلمع البرقِ أخلصه الجلاءُ

***

هنالِكَ تعلمُ الأحزابُ أنّا ... لُيوثٌ لاَ يَتَهْنهُهَا لِقَاءُ
فندرِكَ بالذُّحُولِ بنى أُميٍّ ... وفى دَرْكِ الذُّحوَل لهم فناءُ

وما أن ملك العباسيون حتى كان السيد شاعراً مرموقاً ، شهد الناس له بالتفوق . روى أبو الفرج أن الأصمعى سمع شعره فقال : « قبَّحهُ اللهُ ! ما أسلكه لطريق الفحول لولا مذهبه ، ولولا ما فى شعره ما قدمت عليه أحداً من طبقته »[١] . ذلك أن الأصمعى كان سنياً يدين بالولاء لبنى العباس .

وروى كذلك عن أبى عبيدة أنه قال : أشعر المحدثين السيد الحميرى وبشّار . فقد جعله من المحدثين ، وقرنه ببشار بن برد فى الشاعرية والتقدم.

وكان موقف السيد من العباسيين التأييد فى أول الأمر ، ولم ير فى ذلك تعارضاً مع عقيدته . ذلك أن العباسيين والعلويين كانوا فى بداية الدولة أيام السفّاح مُتناصرين حتى جاء المنصور . فلم يكن غريبا أن يمدح السيد أول خليفة عباسى بقوله[٢] :

دُونكمُوها يابنى هاشم ... فجدِّدوا من عهدها الدَّارِسا
دونكموها لا علا كعب من ... كانَ عليكم ملكها نافِسَا
دونكموها فالبسوا تاجها ... لا تغدموا منكم له لابِسَـا
لو خُيِّرَ المنبر فرسانه ... ما اختارَ إلاَّ منكمُ فارسًا
قد ساسها قبلكم ساسةٌ ... لم يتركوا رطباً ولا يابسًا
ولستُ من أن تملكوها إلى ... مَهْبِطِ عيسى فيكُمُ آيسًا

ويبدو أنه أقلع من بعد عن مديح بنى العباس ، واكتفى بمديح الهاشميين من الطاليين فقد قيل إن له فى بنى هاشم ألفين وثلاثمائة قصيدة .

وقيلَ إنه وقف على بشار وهو ينشد شعراً فأقبل عليه قائلاً[٣] :

---

(١) الأغانى ٧ /٢٥٢ .
(٢) يرى طه حسين فى حديث الأربعاء أنه أنشد القصيدة تقيَّة .
(٣) الأغانى ٧ /٢٥٦ .

أيّها المادحُ العبادَ ليُعْطَى إنَّ لله ما بأيدى العبـادِ
فا سأل الله ما طلبْتَ إليهم وأرجُ نفع المنزِّلِ العوّادِ
لا تُقُلْ فى الجواد ما ليس فيه وتسمّى البخيل باسم الجوادِ

ويروى مع ذلك أنَّ علاقته بالمنصور كانت طيبة . وكان المنصور يدرك مكانته ، فقرّبه وجامله . ومعظم مديحه فى المنصور منصبٌّ على بنى هاشم والتنديد بالأمويين ولم يتعرض لأحقية العباسيين فى الخلافة إلا بصورة عامة ، من حيث أحقية المفضول مع وجود الأفضل . وكلمة وراثة الخلافة هنا قد لا تعنى المفهوم الذى أكده أبو جعفر وردده أولياؤهم من الشعراء أمثال مروان وغيره إذ يقول :

جزعتْ أميةُ من ولاية هاشمٍ وبكتْ ومنهم قد بكى الاسلامُ
إن يجزعُوا فلقد أتتهم دولةٌ وبها تدول عليهم الأيامُ
ولهم يكونُ بكلِّ شهرٍ أشهرٌ وبكلّ عامٍ واحدٍ أعوامُ
يا رهط أحمد إن من أعطاكم مُلْكَ الورى ، وعطاؤه أقسامُ
ردَّ الوراثة والخلافة فيكمُ وبنو أمية صاغرونَ رغامُ

ومازال السيد يمدح العباسيين ، ويخفى فى نفسه ما يخفى حتى كشف ما بها حين ادعّى المهدىُّ أنه المقصود بحديث النبى ﷺ بأن يجىء يملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً فيقول معترضاً :

تظنّى أنّه المهدىُّ حَقـاً ولم تَقـعْ الأمورُ كما تُظنّى
ولا والله ما المهدىُّ إلا إمامٌ فضله أعلى وأسْنَى

وظلت وشيجة هاشم بين العلويين ، والعباسيين هى التى جعلها السيد مدار مديحه ، وكأنه يجعلها عذراً ، أو مخرجاً يرضى به نفسه أمام هذا التناقض بين ظاهر موقفه وباطن اعتقاده . حتى آن أن يكشفه الرشيد أو أن يطلب إليه التصريح بحقيقة عقيدته وموقفه منهم . أو أنه كما كانوا يسمون العلويين من الروافض ، لأنهم يرفضون غير إمامة إمامهم .

ويسمى الشيعة أهل السنة والمعترفين بامامة أبى بكر وعمر وعثمان بالناصبة وقد انشد الرشيد محتجاً على معتقده فقال :

وما يجحدُ ما قد قلت في السبطين إنسانُ
وإن أنكر ذو النصبِ فعندي فيه عرفانُ
وإن عدُّوه لي ذنباً وحالَ الوصْلِ هجرانُ
فلا كان لهذا الذنب عند القوم غفرانُ
فكمْ عُدَّت إساءاتٌ لقوم وهيَ إحسانُ
وسرِّي فيك يا دا عِيَ دينَ الله إعلانُ
فحبيٌّ لك إيمانٌ وميلي عنك كفرانُ
فعدَّ القومُ ذَا رَفضاً فلا عدُّوا ولا كانوا

وقال إذا كان ذنبي هو الاعتقاد في إمامة الأئمة من آل علي ورفض من دونهم فأنا لا أرجو لهذا الذنب غفرانا .

فلا كان لهذا الذنب عند القوم غُفْرانُ
فكمْ عدَّتْ إساءاتٌ لقوم وهي إحسانُ

وظلَّ السيد على ولائه لابناء علي رضوان الله عليهم ، وبكى شهداءهم وعلى رأسهم الحسين فقال :

امرز على حدث الحسين فقلْ لأعظمه الزكيَّهْ
آأعظماً لا زلتِ مِن وطفاءَ ساكبةٍ رويَّهْ
وإذا مررت بقبرهِ فأطلْ به وقف المَطيَّهْ
وإبكِ المطهَّر للمُطَهَّر والمطهَّرةِ التقيَّهْ
كبُكاءِ معولةٍ أتتْ يوماً لواحدها المنيَّهْ

وروى أبو الفرج أنه كان إذا استنشِدَ شعراً لم يبدأ بشيءٍ إلا بقوله :

أجدَّ بآلِ فاطِمةَ البكُورُ فدمعُ العينِ منهمرٌ غزيرُ

وعدا هذا الشعر في عقيدته وحبّه لآل البيت ورثائه للأئمة من آل علي نجد له شعراً رقيقاً في الغزل كقوله :

هل عند من أحببت تنويلُ أمْ لا فإنَّ اللَّومَ تضليلُ
أم في الحشَا فيك جوىً باطِنٌ ليسَ تُداويه الأباطيلُ
عُلقتَ يا مغرورُ خدَّاعةً بالوَعْدِ منها لك تخييلُ

وقال من شعره فى سوى المديح والرثاء لآل البيت هجاءً فى بعض من عاصره وذكر له أبو الفرج هجاءً فى قاضٍ اسمه سوّار .

وشعر السيد كما قلنا سهل تلقائى ، وهو صادر عن مطبوع لا يتكلف القول ، وحديثه عن آل أبى طالب حديث عقيدة ، وإيمان بحقهم ، يدور حول محبتهم ، وذكر مآثرهم ، ولا يخلو كلامه من إيمان ببعض ما يجرى على السنة العامة من شيعة على رضي الله عنه وابنائه ، وما ينسبون إليهم من الخوارق . ولا يعمد فى دفاعه عن مذهبه إلى الجدل صنعة الكلاميين والمناطقة ، بل يذود عنه فى حديث بسيط غير متكلف . ولغته هى اللغة السُّلمةُ القريبة المأخذ غير المتوعرة ، لا يعمد فيها إلى بديع أو صنعة . ويبدو أن ثقافته لم تكن بعمق ثقافة بشار أو أبى نواس .

وشعره من هذا النمط الذى نجده عند بعض المطبوعين من البصريين أمثال الحسين بن الضحاك ، وهو قريب من نهج أبى العتاهية الكوفى .

وقد كان السّيد يحب أهل الكوفة ويحبونه ، لأنهم أوفياء للعلوية ويبغض البصريين ويبغضونه لابتعادهم عن هوى من يحبهم من آل البيت .

ومن شعراء الشيعة :

ـ ٢ ـ
دِعْبل بن على الخزاعى[١]
(١٤٨ ـ ٢٤٦ هـ)

وهو من خزاعة القبيلة اليمنية المعروفة . ولد بالكوفة وعاش بها حتى سنّ الشباب . وكان فى شبابه حسن الخلقة طويل القامة ذا شعر مُرْسلٍ . وكان به ميلٌ إلى أصحاب الخلاعة ، وصحب العيارين والشطّار ، وربما تزيّا بزيّهم ، زمناً حتى أخذه صاحب الشرطة بالكوفة وعاقبه على فعلٍ ارتكبه .

وقيل إنه ترك الكوفة إلى بغداد فى خلافة الهادى أو أول خلافة الرشيد وحاولَ كغيره من الشعراء أن يطرق أبواب أصحاب الدولة من الكتاب والوزراء والقادة ، وأن يصل بينه والخلفاء .

ويقالُ إن الشيب تسلل إلى شعره مبكراً ، فاشتكى إسراعه إليه ، يقول :

لقد عجبتْ سلْمَى، وذاكَ عجيبُ ... رأت بِىَ شيباً عجَّلتْهُ خُطُوبُ
وما شيَّبتْنِى كبْرةٌ غير أننِى ... بدهرٍ به رأسُ الفطيم يشيبُ

وكان دعبل فصيحاً ، يحسنُ إنشاد الشعر ، ويميلُ إلى التمتع بملاذ الحياة من شراب ، وسماع ونساء . فكان يوْم بيوت القيان ، ويجتمع مع إضرابه من الشعراء . ويقول :

إنما العَـيْشُ خِـلالٌ خمسةٌ ... حبَّـذَا تلك خِـلَالاً حبَّـذا
خدمة الضيِّف ، وكَأْسٌ مُزّةٌ ... ونَديــمٌ ، وفتــاةٌ ، وغِنَــا

وكان الإسجاح ، والكرم من طباعه ، يكره الإمساك ، ويذّم البخل . يقول :

فإن تُجمَعْ الآفاتِ فالبخلُ شرُّها ... وشرٌّ من البخل المواعيدُ والمطلُ

صحب جماعة من الشعراء فى الكوفة وبغداد ، منهم أبو نواس ومسلم بن الوليد ، وإبراهيم ابن العباس الصولى ، وكان يلتقى بجامع بغداد بجماعة منهم على بن الجهم وأبو تمام .

(١) للدكتور عبد الكريم الأشتر ، دراسة ضافية عن الشاعر اصدرها فى كتاب بعنوان دعبل بن على الخزاعى شاعر آل البيت ، طبع دار الفكر بدمشق ، وراجع أخباره فى الأغانى ، والشعر والشعراء ، وطبقات ابن المعتز .

وجمع دعبل من الثقافة والمعرفة بالشعر قديمه ومحدثه ،وبالشعراءقُدامَى ومحدثين ما صار فيه حجَّة ، وعمل كتاباً فى الشعراء[1] ، ونقل عنه جماعة من العلماء ، ولا غرو فقد نشأ فى بيت شعر ، فقد كان أبوه وعمه شعراء، وكذلك نشأ أخوه شاعرا ، وكان ابن عمه ابن أبى الشيص شاعراً وورث عنه الشعر ابناهُ الحسينُ والأرقط وتزوج ، وكان له أربعة أولاد أو خمسة .

وحصَّل من المال ما أغناه ، فعاش ميسوراً ، واتخذ الجوارى والغلمان وكان منهم غلامان يُغَنِّيانِه، ويصحبهما فى رحلاته ، أحدهما اسمه (نَصف) والآخر (شَغَفْ) ، ومن جواريه دراهم ، وغزال وبرهان ، وقد أشار إليهم جميعاً فى شعره .

وتشيَّعَ الشاعرُ متَّبعا مذهب أهله ، وقبيلته خزاعه التى عرفت بولائها لآل البيت ، وعلىّ وابنائه حتى كان معاوية يقول : « بلغت خزاعة فى الولاء لعلى بن أبى طالب حدًّا لو أمكن لِنسَائِهم محاربتنا لحاربتّنا » .

وكان هذا شأن كثير من اليمنية ، وقد كانت منهم كثرةٌ بالكوفة ، وظلَّ يمنيه الكوفة على ولائهم لعلىّ بن أبى طالب وأبنائه ، وشعروا بالمرارة والخيبة لتخلى العباسيين عن أبناء عمومتهم واغتصابِ الخلافة منهم .

وتلقى ثقافة شيعية ، وحفظ بعض هاشميات الكميت الذى كان شعرهُ متداولاً بين أهل الكوفة ، وكذلك شعر السّيد الحميرى الذى كان يحب أهل الكوفة ويحبونه ويكثرون رواية شعره .

وعلى أنه تتلمذ على مسلم بن الوليد بالكوفة ، فكان يعرض عليه شعره أول الأمر وقد لزمه زمناً .

ويروى أبو الفرج عن دعبل قوله « ما زلْتُ أقول الشّعر وأعرضه على مسلم ، فيقول لى : « اكتم هذا »[1] . فلما تهيأ له إجادته قال له مسلم : « أذهب الآن فأظهر شعرك كيف شئت » .

---

(١) الأغانى ٢٠ /١١٣ .

وظلّ ملازماً لمسلم ، فغادرا الكوفة معاً إلى بغداد ، واصطحبا بها ، وعاشا معاً ، فى عُسرةٍ حتّى تيسَّر لهما من مدائحهما المال ، وأصابا الغِنى ، فافترقا .

وفى بغداد تعرَّف على أحد المغنين — يحيى بن مكى — الذى صنع ألحاناً لكل ما غُنّيَ به من شعره[1] .

وكان سماع الرشيد لصوتٍ فى شعر دعبل سبباً للتعرف عليه ، ودعوته إلى مجلسه . وخلع عليه ، وأعطاه عشرة آلاف درهم .

وأول ما اشتهر من شعره قصيدته[2] :

أينَ الشبابُ ، وأيةً سَلَكا	لاأينَ يُطْلَبُ ضَلَّ أم هَلَكا ؟
لا تَعجَبى يا سَلْمَ من رَجُلٍ	ضَحِكَ المشيب برأسه فبكى
يا سَلْمَ ما بالشَّيبِ مَنقَصةٌ	لا سُوقةٌ يُبقِى ولا مَلِكا
قَصَرَ الغوايةَ عن هَوى قمرٍ	وجَدَ السبيلَ إليهِ مشترَكا
وعدَا بأخرى عن تَطلُّبِه	صَبًّا يَطَا من دُونِها الحسَكا
يَاليتَ شعرِى كيفَ نومكَما	يا صاحِبَىَّ إذا دَمِى سُفِكَا
لا تأْخُذَا بظلامَتى أحدًا	قلبى وطرفِى فى دمِى اشتركا

ودخل الشاعرُ على الرشيد ، « فسلَّم ، وأمره الخليفة بالجلوس فجلس ، واستنشده الشعر فانشده إياه ، وأمره بملازمته ، وأجرى عليه رزقاً سنيًّا ، فكان أول من حرَّضَهُ على قول الشعر »[3] .

وكان عليه أن يقدم بين يدى الرشيد مدائحه ، ولم ير فى هذا تناقضاً ، ولا تعارضاً مع تشيعه لإيمانه بالتقية ، كما أن غيره من شعراء الشيعة سبقهم مديح الأمويين كالكميت والعباسيين كالسيد الحميرى .

وكان الرشيد يتتبع العلويين الخارجين عليه ويعنف بهم ، فيقتل من يقتل ويدسّ السمّ لمن لم يبلغه سيفه . ويحبس حتى الموت ، ويضرب جماعاتٍ .

---

(١) دعبل بن على ، ص ٥٦ .

(٢) ديوان دعبل /١١٧ ، جمع وتحقيق الدكتور محمد يوسف نجم ، طبع دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٢ .

(٣) الأغانى ٢٠ /١٧٣ .

وكان الرشيد حريصاً كغيره من العباسيين على اصطفاء الشعراء والإغداق عليهم ليكسبهم إلى جانبه ، ويكونوا لساناً للعباسية ضدّ العلويّة .

وربطت بين دعبل والبرامكة روابط الميل إلى العلوية ، وبخاصة جعفر بن يحيى ، فلما نكبهم الرشيد رثاهم ، على الرغم من نهى الرشيد عن رثائهم .

ومات الرشيد فتنفّس الشاعر الصعداء ، وصارَ يفصح عن عقيدته ، وبخاصة فى عصر المأمون كانت لديه ، ولدى بعض رجاله مُيُول نحو العلويين وعطفٌ . فأستطاع فى هذا الجوّ أن يفرج عن بعض ما كتم زماناً .

وفى هذا المجال تبادل وشاعر العباسية الكبير مروان بن أبى حفصة الإتهام ، والمعارضة المذهبية ، وكان مروان قد بلغ به السنُّ ، ودعبل لا يزال فى فتوة الرجولة . ومن أقواله فى الردّ على كلّ من تعّرض لآل البيت وعلى وابنائه :

قُلْ لابن خائنةِ البُعُولِ	وابن الجوادَةِ والبخيلِ
أنَّ المذمَّة للوصىِّ	هى المذمَّةُ للرَّسولِ
أمودَّةَ القُرْبى تحاولها	بذمّ مستحيـــــــلِ
أتـذمُّ أولادَ النبـــ	ـىِّ وأنت من ولد النغولِ

واتصل بعد موت الرشيد ببعض رجالات العلوية ، فى المدينة ، ولقى الإمام علىَّ بن موسى الرضا سنة ١٩٥ هـ . وارتحل إلى المشرق ، واتصل بالفضل ابن سهل وزير المأمون فى مرو ، وتنابذ وأستاذه مسلم بن الوليد هناك .

واتصل ببعض الولاة من خزاعة ، ومنهم المطّلب بن عبد الله الخزاعى الذى ولى مصر للمأمون سنة ١٩٨ هـ . وجاء إلى مصر وأنشد الوالى شعراً ذكر فيه رابطة القبيلة . يقول :

أبعدَ مصر ، وبعد مُطَّلِبِ	ترجُو الغِنَى؟ . إنَّ ذا مِن العَجبِ
إن كاثرُونا جئنا بأسَرتِهِ	أو واحدونا جئنا بمطَّلِبِ

لكن دعبل لم يقم بمصر طويلاً ، لأن أحد رجال الوالى حبسه ، فغضب على المطّلب وهجاهُ . ويبدو أنه لم يعلنه بدليل أنه ولّى الشاعر أسوان بالصعيد ،

وسافر اليها من الفسطاط ، وطال به المسير ، وهالة بعدُ المسافة فقال :

وإنَّ امرءًا أَمستْ مساقِطُ رَحْلِهِ ... بأُسْوَانَ لم يتْـركْ له الحِرْصُ مَعْلَمًـا
حللت محلاً يُقصرُ البرقُ دونه ... ويعجزُ عنه الطَّرْفُ أن يتجَشَّمَا

ولم تطل إقامته باسوان ، وما لبث أن عُزِل ، فعادَ من حيث جاء ، وغادر مصر ساخطاً إلى بغداد . وأطلق لسانه بالهجاء المقذع للمطَّلب حتى قيل إنه تهدده بالقتل .

وفى سنة ٢٠٠ هـ استدعى المأمون عليَّ بن موسى الرضى إلى مرو وأعلن توليته للعهد من بعده سنة ٢٠١ هـ ، ورحل دعبل صحبة إبراهيم بن العباس الصولى ، وأنشد كلٌ منهما قصيدة فى مدح المأمون وتهنئة الرضى بتلك المناسبة .

وكانت قصيدة دعبل تائيته المشهورة :

مَدارسُ آياتٍ خَلَتْ من تلاوةٍ ... ومَنْزِلُ وحيٍ مُقْفِرُ العَرصَاتِ

وقيل إن الإمام أعجب بالقصيدة فمنح الشاعر مائة دينار من الدنانير التى ضربت باسمه . وأمر له المأمون عند سماعها بخمسين ألف درهم . ووصله الفضل بن سهل ، وحمله على برذون أصفر .

ورجع إلى بغداد من مرو فوجد العباسيين قد ثاروا على المأمون لمبايعته على بن موسى الرضا على ولاية العهد ، فبايعوا إبراهيم المهدىّ عمَّ المأمون خليفة . ونظم دعبل قصيدة ساخرة فى هجاء إبراهيم ، مُعَيِّراً إياه بإحتراف الموسيقى والغناء ، وبأنه لا يصلح لهذا الأمر . يقول فيه :

نعَرَ ابنُ شكْلَةَ بالعراقِ وأهلها ... فَهَفَا إليه كلُّ أطْلَسَ مائقِ
إن كانَ إبراهيم مُضطلعا بها ... فلتَصْلُحَنْ من بعدِه لمخارقِ
ولتصلُحَنْ من بعد ذاكَ لزَلزلٍ ... ولتصلُحَنْ من بعدِه للمارقِ
أنَّى يكونُ وليسَ ذاك بكائنٍ ... يرثُ الخلافةَ فاسِقٌ عن فاسِقِ

ويعرِّض فى البيت الأخير بقول مروان بن أبى حفصه فى إثبات حق العباسيين على ما ذكرناه مستخدما بعضَ لفظه رادًّا عليه .

وأقام بُقُمْ زمناً ، وهو موطن الشيعة بفارس كما أنَّ الكوفة موطنهم بالعراق . وظلَّ

يبكى الطالبين ويرثى الإمام الرّضى ، ويتناول العباسيين ، وبلغ المأمون شعره فى هجاء العباسيين ، فغضب عليه وقيل إنه طلبه فهرب من قم إلى جرجان ، وهناك لقى صاحبه وأستاذه مسلم بن الوليد ، فلم يرحب به مسلم ، فعاد من عنده خائبا ينعى صداقته ويقول :

أبا مخلدٍ ، كنَّا حليفى مودَّةٍ ... هوَانا وقلبانَا جميعاً معًا معا
أُحُوطُكَ بالودّ الذى لا تحوطُنى ... وأرأبُ منك الشَّعَب أن يَتَصدَّعَا
فصيَّرتنى بعد اتكائِك مُتْهِماً ... لنفسىَ، عليها أرهب الخلْق أجمعا

حتى يقول وقد لوّح بالقطيعة :

فهبْكَ يمينى استأكلتْ فاحتسبتُها ... وجَشّمتُ قلبى قَطْعَها فتجشَّمَا

وغادر جرجان إلى مرو حيث حاول مع طاهر بن الحسين، ولكنه تثاقل عليه حتى بعث إليه المأمون يُؤمِّنه . وكتب المأمون إلى طاهر ليبعث بالشاعر دعبل إليه .

وكان المأمون يحاول أن يعدل بين عصبيته للعباسية ، وعطفه على العلويَّة ، ويُعْمل عقله فى السياسة بين الفريقين ، فضلاً عن أنه لم يكن يذهب فى العقيدة مذهب أهل السنة الذين يساندون العباسيين عقيدة ، بل كان يميل إلى المعتزلة ، وكان هوى كثير منهم مع العلوية .

ويقال إنه كان يدافع عن على بن أبى طالب[1] . وهكذا رضى المأمون عن الشاعر مرة أخرى . وجاء فى كتاب المأمون إلى طاهر فى شأن دعبل : « هذا لسانٌ خليقٌ أن تنطِقهُ الألفةُ بما نحبّ » .

وجالَس المأمون ، وطلب إليه الخليفة أن ينشده قصيدته الرائية وهو آمن وقد ذكر الشاعر فيها أحزانه على ما نال الطالبيين من العباسيين حتى انتهى منها فقيل إن المأمون ضرب بعمامته الأرضَ . وقال : صدقت والله يادعبل .

ويقال أيضا أنه طلبَ أن ينشده التائية التى سمعها منه فى خراسان مع على بن موسى الرضا .

---

(١) العقد الفريد ٥ /٩٢ .

واطمأنّ دعبل إلى جوار المأمون ، وحضر مجالسه ، ونظم فيه المدائح ، ولم يلبث حتى حدثت جفوة بين الخليفة والشاعر ، عرض لها دعبل بلسانٍ حادّ ، فيها تهديد ووعيد ، وسعى الساعون للافساد بينهما ، ولكن حلم المأمون غلب ثورة دعبل وعنفه .

وكان يقول لمن يحرضه عليه : أحجانى ؟. فوالله لئن كان فعل فما أباح الله دمه بهجائى . فقال له السّاعى — إبراهيم بن المهدى — يا أمير المؤمنين اقطع لسانه ، واضرب عنقه فقد أباحك الله دمه . فأعاد المأمون كلامه الأول .

ولا يغيب عن الذهن ما كان إبراهيم بن المهدى يحمل فى صدره من حقد على الشاعر لهجائه إياه ساعة نصّب نفسه للخلافة ببغداد .

وظلَّ دعبل فى أمانٍ يسعى دون خوفٍ ويحيى لا تطاردُه رهبة ، واثقاً من أن لن يمسه سوء .

ولم يسلم من لسانه كُتّابُ المأمون وجماعة من خلصائه كالقاضى يحيى بن أكثم ، وابن أبى دؤاد . وعمرو بن مسعدة .

وتوثَّقت علاقته بجماعة من رجالات العصر كأبى دُلف العجلى ، وحميد بن عبد الحميد الطوسىّ وأبنائه ، وبآل طاهر ، وفى مقدمتهم طاهر بن الحسين ، وابنه عبد الله .

وكثيراً ما كان دعبل ينقلب بالهجاءِ على من مدح ، حتّى اشتهر بذلك . وهذا التصرف مظهر من مظاهر شخصية هذا الشاعر المتمرّد سريع الإنفعال . وهذا التمرد ، يصحبه الانفعال ربما كان طبعا فى الشاعر منذ ولادته . ولكن زادهما ما لقيه فى حياته ، وما عاينَه من تَعقُّبِ لأئمته من العلويين بالقتل والتشريد ظلماً وعدوانا فى رأيه .

وبعد وفاة المأمون تولى أخوه المعتصم ، وكان دعبل قد بلغ الشيخوخة ، ولمّا تولى المتوكل كانت قواه قد وهنت ، وخمدت جذوته ولكنّ لسانه الحاد لم يفتر وقد بلغ التسعين فهجا مالك بن الطوق ، وكانت على يديه نهايته فدسّ إليه السمّ ومات سنة ٢٤٦ هـ .

شـــعره :

ينقسم شعرهُ من حيثُ الموضوعُ إلى ثلاثة عناصر أو موضوعات رئيسية هى : المديح ، والهجاء ، والتشيع أو ما قاله فى آل البيت والعلويين من ثناء وذكر حقهم فى الخلافة ، والبكاء على شهدائهم ، وهجاء أعدائهم .

وبدأ تأثره فى صنعته الشعرية ، وفى معانيه واضحاً بمن اتصل بهم فى شبابه بالكوفة من الشعراء أمثال مسلم بن الوليد أستاذه ، ووالبة بن الحباب .

ولعل صنعة البديع عند مسلم تركت على شعر دعبل آثارها فى مراحل حياته الأولى ، فاهتم بالطباق والمقابلة والجناس والاستعارة من مثل قوله :

لا تعجبى يا سَلْمَ من رَجُلٍ ضحكَ المشيبُ برأسه فبكى

ومن مثل قوله فى الأغراب فى الصورة لإغرابه فى الاستعارة ؛ يصف قوس الغمام :

إذا القوسُ وتَّرها أيِّدٌ رقى ، فأصابَ الكُلى والذُّرا[1]
وأحيَا ببلدته بلدةً عَفَتْ بعد أنْ قد عفاها الصَّرَى

واتخذ من شعر بعض مواطنيه نماذج يحتذيها ، وينظم على نسق لفظها ومعانيها فعل غيره من الشعراء عند بداية ممارستهم قول الشعر ، هكذا فعل بشار ، فعارض شعر جرير والفرزدق ، وكذا أبو نواس وغيره .

وتأثر دعبل من الكوفيين بوالبة فى قصيدة له مشهورة نسبت خطأً إلى أبى نواس يقول فيها :

يا شقيق النَّفْسِ من حكَمٍ نمتَ عن ليلى ولم أنمِ

ويقول دعبل فى وصف الخمر :

عتِّقت حتى لو اتَّصلَتْ بلسانٍ ناطقٍ وفَمِ
لاحتَبتْ فى القومِ ماثِلةً ثم قصَّتْ قصة الأَمَمِ
فى ندامى سادة نجب أخذوا اللَّذات من أَمَمِ

(١) يعنى أن قوس الغمام (قزح) ، أمطرت الأرض بها فأعْشبتْ فرعتها الإبل وسمنت كلاها واسنمتْها .

فعلَتْ فى البيت إذ مُزِجَت   مثل فعل الصُّبح فى الظُلم
فاهتدى سَارِى الظَّلام بها   كاهْتِدَاءِ السَّفرِ بالعلَمَ

ومعظم معانى الشاعر فى المديح تقليدية ، وكان تجديدة وإغرابه فى مستحدث الموضوعات ، كالقول فى الشراب ، والمجون ؛ والغزل ، على أن ابداعه ومقدرته فى التصوير ، والسخرية تجلّت فى الهجاء . ونتأمل هذه الصورة السَّاخرة لجاريته غزال :

رأيتُ غزالاً وقد أقْبلَتْ   فأبدَتْ لعينَىَّ عن مَبْصَقَهْ !
قصيِّرةُ الخلقِ دَحْدَاحــةً   تدحرجُ فى المشْيِ كالبندقَهْ[1]
كأنَّ ذراعاً على كفِّهـا   إذا حَسَرتْ ، ذَنبُ البِلعَقهْ
تخطّطُ حاجِبَهــا بالمداد   وتربط فى عَجْزِها المفهقَهْ[3]
وأنفٌ على وَجهها مُلصَقٌ   قصيـرُ المناخِر كالفُستُقَـهْ
وثَدْيَـانِ ، ثدىٌ كبلُّوطةٍ   وآخرُ كالقِربةِ المذهقَـهْ
وصدرٌ نحيفٌ كثيرُ العظامِ   تُقعْقِعُ من فوقِهِ المَخْنَقَهْ

وتأثر ابن الرومى بوضوح بفن السُّخر والصور الكاريكاتيرية المبتكرة لدعبل ، والمتتبع لشعر الشاعرين فى هذا المجال لا تخطئه الأمثلة .

ويفتنّ فيما عرف عند المحدثين بحسن التخلص ، وهو الربط بين مقدمة القصيدة وموضوعها ، وبخاصة فى المديح يقول : مادحاً ، ويبدأ بوصف الطبيعة ويتخلص إلى الممدوح :

وميثــاءَ خضراءَ زربيــةً   بها النَّوْرُ يُزهِرُ من كلِّ فَنّ
ضحوكاً إذا لاعبته الرياح   تأوَّد كالشارب المرجحِنّ
فشبّه صَحْبِــى نوّارهــا   بديباج كسرى وعَصْبِ اليَمنْ
فقلتُ : بَعُدْتُمْ ولكننى   أُشبِّهـهِ بجنــاب الحسَنْ
فتىً لا يرى المال إلاَّ العطاءَ   ولا الكنزَ إلا اعتقادَ المِنَنْ

(١) وحداحة : قصيرة .
(٢) الرفقة المخدة .
(٣) المفهقة : الممتلئة وراجع الديوان طبع الاشتر ص ١١١ /١١٢ .

وبعد فهذا دعبل الشاعر ، وهذا شعره المتميز الذى يصدُر عن شاعرية دافقةٍ لها خصائصها ، وسماتها التى لا تتكرر عند غيره من معاصريه ، فالكلمة حارة جريئة مصورة ، صادقةٌ ، لا يشوبُها النفاقُ المأجور ، ولا يُرعِشُها الخوف من حاكم ، ولا يجلوها مصانعةُ مالكٍ رق المعْتَفِى بالمال .

وتقوم شهرة دعبل فى الشعر على الهجاء ، مثله فى هذا كابن الرومى ولكنه مع ذلك كان شاعرا قديرا يعكس شعره كثيرا من جوانب شخصيته فى أحاسيسه ومشاعره ، وفكره ، وعقيدته ، كما يعكس جوانب من أحوال عصره ، وبعض صوره للطبيعة ومظاهرها المختلفة .

ومن حيث بناء القصيدة ، فقد أخذ باتجاه القدماء من تقديم للنسيب على موضوعه ، وبنائه لاجزائها على النهج الموروث ، لكنه مع ذلك لم يتبع القدماء فى الاسلوب وطريقة عرض معانيه ، بل مال الى التحرر من قيود التعبير القديم والصيغ التقليدية ، وانطلق يعبر بأسلوب متحرر خال من التكلف ، قريب من أسلوب بعض معاصريه من شعراء المحدثين .

واذا ما نظرنا الى شعره بالمقارنة الى بعض المبدعين أمثال أبى تمام والبحترى ، فقد نجده خاليا نسبيا من مظاهر الابداع ، وجمال العرض فى اللفظ ، والخيال لكنه يملك المقدرة على التعبير عن معانيه دون حاجة إلى التكلف فى اصطناع الجمال الشعرى .

وقد جمَعَ الصولى المتوفى سنة ٣٣٥ هـ ديوانه ، وأشار الى ذلك ابن النديم فى الفهرست ، وقال انه كان فى حوالى ثلاثمائة ورقة . وسبقه الى جمع شعره أحمد بن أبى طاهر (سنة ٢٨٠ هـ) فى كتابه « مختارات من الشعر والشعراء » .

ويذكر صاحب كتاب « أعيان الشيعة » أن ديوان دعبل كان موجودا حتى القرن الثانى الهجرى ولكنه الان مفقود .

وأشهر ما قال تائية فى آل البيت ، وهى التى نظمها فى مناسبة مبايعة المأمون على بن موسى الرضا . قال :

ذكرت محل الربع من عرفات ... فأجريت دمع العين بالعبرات
وفلَّتْ عُرى صَبْرِى وهاجَتْ صَبَابتى ... رسومُ ديارٍ أقفرتَ وَعِرَاتِ
مدارسُ آياتٍ خلَتْ من تِلاوةٍ ... ومنزلُ وحيٍ مُقْفِرِ العرَصَاتِ
لآل رسولِ اللّهِ بالخيف من مِنَى ... وبالرُّكنِ والتَّعريفِ والجَمَراتِ
ديارُ عليٍّ والحُسَينِ بن جعفرٍ ... وحمزةِ والسَّجادِ ذِى الثَّفِنَاتِ[1]
منازلُ كانتْ للصَّلاةِ وللتُّقَى ... وللصَّوْمِ والتَّطْهِيرِ والحَسَنَاتِ
منازلُ جبريل الأمين يزُورها ... من اللهِ بالتَّسليمِ والرَّحَمَاتِ
منازلُ وحيِ اللّهِ ، معدِنُ عِلْمِهِ ... سبيلُ رشَادٍ واَضح الطُّرقَاتِ
ديارٌ عفَاها جورُ كُلِّ مُنابِذٍ ... ولمْ تعْفُ بالأيَّامِ والسَّنَواتِ

ويذك فيها مقاتل الطالبيين فيقول :

نفوسٌ لدَى النَّهرينِ من بطْنِ كَرْبلا ... مُعَرَّسُهُم منها بشَطِّ فُراتِ
أخافُ بأنْ أزدَارَهُم ويشُوقُنى ... مُعرَّسُهم بالجزْعِ مِن نَخْلاَتِ
تقسَّمهمْ ذِئْبُ المنُونِ فمَا ترى ... لهُم عُقدةً مغشيَّةَ الجَمَراتِ

ويعبر عن ولائه لهم فيقول :

وظلَم دعبل أمران أولهما إغراقه فى الهجاء والتطاول على الناس بلسان هجَّام ، والثانى ميله للعلويين مما ذهب بجاهه عند عامة أهل السنة . فأخروه عن غيره من شيعتهم .

(١) السجاد ذو الثفنات هو لقب زين العابدين على بن الحسين .



الفصل الثالث
شعراءُ عُشَّاق

ـ ١ ـ
العباس بن الأحنف
شاعرُ الحب

أصله من عرب خراسان ومنشؤه ببغداد . ولم تزل العلماء تقدمه على كثير من المحدثين ، ولا تزال ترى له الشيء البارع جدا حتى تلحقه بالمحسنين .

وذكر أبو الفرج أنه كان شاعرا غزلا مطبوعا ، شريفا . وله مذهب حسن ، ولديباجة شعره رونق ، ولمعانيه عذوبة ولطف . لم يكن يتجاوز الغزل الى المديح أو الهجاء ، ولا يتصرف فى شيء من هذه المعانى . وقدمه أبو العباس المبرد فى كتاب الروضة على نظرائه . وقال : رأيت جماعة من الرواة للشعر يقدمونه . قال : « وكان العباس من الظرفاء ، ولم يكن من الخُلَعاء، وكان غزلا ، ولم يكن فاسقا . وكان ظاهر النعمة ملوكى المذهب . شديد التزين . وذلك يتبين فى شعره » .

وكان قصده الغزل . وشغله النسيب . وكان حلوا مقبولا ، غزلا ، غزير الفكر ، واسع الكلام كثير التصرف[1] وحده .

قال : « قال عنه الجاحظ نقلا عن يموت بن المزرع : لولا أن العباس بن الأحنف أحذق الناس وأشعرهم وأوسعهم كلاما وخاطرا ما قدر أن يكثر شعره فى مذهب واحد ولا يجاوزه لأنه لا يهجو ولا يمدح ولا يتكسب ، ولا يتصرف . وما نعلم شاعرا التزم فنا واحدا لزومه فأحسن[2] فيه وأكثر » . وكان يفتخر بأنه لا يهجو ولا يمدح . قال :

لحَانِى فى القريض فقلتُ ألْهُو   وما منّى الهجاءُ ولا المديحُ

وقال فيه الأصمعى : قيل للأصمعى : ما أحسن ما تحفظ من أشعار المحدثين ، فقال : قول العباس بن الأحنف :

---

(١) الأغانى ، ٨/١٥ .
(٢) الأغانى ، ٨/٣١ .

لو كنت عاتبة لسكن لوعتى أملى رضاك وزرت غير مراقب
لكن مللت فلَمْ تكن لى حيلة صدُّ الملول خلاف صَدِّ العاتب

وقال ابن المعتز فى طبقاته : لو قيل ما أحسن شيء تعرفه لقلت : شعر العباس بن الأحنف . ومن رقيق غزله الحضرى قوله :

قالت ظلوم سمية الظلم مالى رأيتك ناحل الجسم
يا من رمى قلبى فاقصده أنتِ العليم بموقع السهم

وقال :

سلبتنى من السرور ثيابا وكستنى من الهموم ثيابا
كلما اغلقت من الوصل بابا فتحت لى إلى المنية بابا
عذبينى بكل شيء سوى الصـ ـدفما ذقت أقسى من الصدود عذابا

وللعباس بن الأحنف من المعانى الجميلة فى الوصف قوله فى الليل :

أيها الراقدون حولى أعينو نى على الليل حِسبةً واقتدارا
حدثونى عن النهار حديثا أوْصفوه فقد نسيت النهارا

وقال :

والنجم فى أفق السماء كأنه أعمى تحير ما لديه حاير

وهو نَجْمُ مجالس الخلفاء، لأنه يتمتع بجمال الصورة، ونظافة اللباس، وأناقة الهندام والمظهر ، وظرف اللسان ، وحلاوة العشرة والحديث. ولا شكَّ أن هذه الصفات كذلك مما يحبب فيه النساء فيروج عندهن ، لهذا كان غزلاً محبباً لديهنّ .

ولِرِقَّة شعر العباس ، وأن معظمه يدور فى الغزل ، فقد كان مناسباً للغناء فقد كان إبراهيم الموصلى الموسيقى المغنى الشاعر شغوفاً به ، فتغنى بكثير منه .

وأقام العباس فى بغداد منذ اتصاله بالمهدى والرشيد وحتى أول عهد المأمون ، وكان منزله بباب الشام . وقيل إنه لم يبلغ الستين .

وشعر العباس يجمع معانى وقاموس لفظ الغزلين من الحجازيين وشعراء الغناء مازجاً تلك المعانى والتعبيرات والصور بألفاظ وتعبيرات ومعانى العذريين من أمثال مجنون بنى عامر وقيس بن ذريح وجميل بثينة، وابن الدمينة ومن إليهم، إلا أنه عرض تلك المعانى فى معظم قوله فى معارض من اللفظ أكثر ظرفاً ورشاقة، ومناسبة لعصره، عصر الحضارة، ويجفو غريب اللفظ، وحوشيّه، ولذلك كما سبق أن قلنا كان يقع من جوارى الطبقة العالية من بغداد مواقع تصبى قلوبهم، ويقع من أهل الفن من الموسيقيين والمغنين مواقع حسنة فيقدمون قوله على أقوال غيره.

ولنسمع قوله الرقيق:

أدارى الناسَ عمّانى	وأخفيه فما يَخْفَى
واشتاقُ فلا يَعْـ	ـلَمْ إلا الله ما ألقى
إلى من زيَّن الله	به فى عَيْنِىَ الدنيا
ومن أهْدَى لى العتبَ	فأهديتُ له العُتْبى
إذا ما غضِبَ العاشِـ	ـقُ، فالغاية أن يرضى
ألا من يرحمُ الظمآ	نَ، يستسقِى فلا يُسقى

ويَفْتَنُّ فى معانى العشق والمحبة، ويعرضها معارضَ تشوقُ الملتاع، وتنزل برداً على الواجد. وفى هذه المعانى ما فيها من لقاء وصفاء، وسعادة، وشقاء، وفراق ولوعة، وعتابٍ وشكوى، ودلالٍ من المحبوب وظلم للحبيب، وفرحة وبكاء، ويتمثل فى شعره الغزلى بأشعار المحبين من قبل ممن أشرنا إليهم: جميل بثينة وعروة، والمرقش. يقول مخاطبا حبيبته فى رسالة شعرية[1]:

ما إن صَبَا مثلى جميلٌ فاعلمى	حقا، ولا المقتول عروةُ إذ صَبَا
لا، ولا مثلى المرقشُ إذْ هـوَى	أسماء للحيْن المحتَّم والقَضَا

وكذا كثير عزة إذ يقول: ويقتبس من شعره:

---

(١) ديوانه ص ١٥، طبع صادر بيروت.
وعروة هو عروة بن أذينة صاحب عفراء من العذريين، والمرقش هو عمرو بن سعد صاحب أسماء. وهو المرقش الأكبر

فقلتُ لها ما قال قبلى كثيِّرٌ لعزَّةَ لما أعرضتْ وتولَّتِ
قياساً له يَاعزُّ كل مصيبةٍ إذا وُطِّنتْ يَوْماً لها النَّفْسُ ذَلَّتِ

ويعبر عن شقاء المحبين فيقول يشكو عناء الهوى :

إلى اللهِ أشكو ، إنه موضعُ الشكْوَى فقد صدَّ عنِّى بالمودَّةِ من أهوَى
لَعَمرِى لأهْلُ العِشْقِ فيما يُصيبُهم أحقُّ بأنْ يُبْكى عليهمْ من المَوْتَى
يُميتُ الهَوى قوماً ، فيَلْقوْنَ راحةً من الضُّرّ والجهْدِ المبرِّح ، والبلْوَى
ويحيى به قومٌ أصابوا هواهُمُ وقد صرتُ فيهم لا أموتُ ولا أحْيَى
وإنّى لاشْقَى الخَلْقِ إنْ دامَ ما أرى ولم يُسعِدِ الوصلُ المُوصَّلُ فى الدنيا

أو يقول :

ضَنَّ الطبيبُ على المريـ ـضِ المبْتَلى بدوائِهِ
ما يَصنَعُ الصبُّ الحَزيـ ـنُ جفاهُ أهلُ صَفائِـه
لا شيءَ إلا صَبْرُهُ حتَّى يموتَ بدائِـه
أو يشتفِى مما يُجنُّ إذا خـلا بِبُكائِـه

وفى هجران الحبيب :

أيَا مُظهرَ الهجرانِ والمضْمِرَ الحبَّا ستَزْدَادُ حُبًّا إن أتيتَهُمُ غِبًّا
ولو ذُقْتِ ما أَلْقَى وخامرِكِ الأذى لسَرَّكِ أن أهدا ، وأن لا أرى كَرْبَا
تحصَّنْتِ بالهجران حصناً من الهوى ألا كانَ ذا من قبلِ أن تُمْرِضِي القَلْبا
أذاقتْكَ طَعْمَ الحبِّ ، ثمَّ تنكرَّتْ عليكَ بوَجْهٍ لم يَكُنْ يعرفُ القطْبا

ويعرض ما يلقاه من ألم البعاد والهجر فى صورة المسهَّدِ الذى لا ينام ، فيرى النجوم على قول الغَزلين وأصحاب النسيب مع اختلاف فى درجات التعبير وصوره . يقول :

أرانى أبيتُ الليلَ صاحِبَ عبرةٍ مَشُوقًا أُرَاعِى مُنجداتِ الكواكِبِ
أُراقبُ طول الليلِ حتى إذا انقضَى رقبتُ طلوعَ الشمْسِ حتَّى المغاربَ
إذا ما مضى هذَان عنّى بلذّتى فما أنا فى الدّنيا لعيشِى بِصَاحِبَ

فلم يكتف بسهد الليل بل أضاف قلقَ النّهار حتى الغروب .

ولكنه يأتى بجديد فى هذا المعنى فيقول :

تطاول بى سهادُ الليل حتَّى رَسَتْ عيناى فى بحر السُّهادِ
وباتَتْ تمطر العبراتِ عينى وعينُ الدمع تنبُع من فؤادِى

ويتأثر معنى السهاد بقول بشار :

جفت عينى عن التغميض حتى كأنّ جفونها عنها قصارُ

فقال عباس :

كأنّ جُفُون عينى قد تواصَتْ بأن لا تلتقِى حتَّى النَّفَادِ[1]

ومع اشتهار العباس بأنه أوقف شعره على الغزل فقد روى أنه قصد الرشيد ببغداد ونادمه . ورويت له أبيات فى مدحه قال فيها :

يا أمينَ الله والسَّاعِى له خيرُ داعٍ قامَ فى خَيْرِ الأمَمْ

وله مراث فى بعض جوارى الرشيد كذلك . وله فى هجاء أبى الهذيل العلاّف أحد شيوخ المعتزلة بيتان . ذلك لأن أبا الهذيل كان يبغضه ويلعنه ويقول عنه إنه يعتقدُ الكفر والفجور فى شعره . وذلك لقوله :

إذا أردتَ سلُوًّا كان ناصركُم قلبِى ، وما أنا من قلبى بمنتَصِرِ

فهجاه العباس بقوله :

يا من يكذّب أخبار الرَّسُولِ لقد أخطأتَ فى كلّ ما تأتِى وما تَذَرُ
كذَّبتَ بالقدر الجارى عليك فقد أتاك منى بما لا تشتهى القدرُ

فهو يشير إلى اعتقاد المعتزلة بأن الإنسان مخيَّرٌ لا مجبرٌ ، وأن القدرَ لا يعنى الجبْرَ فى الفعل ، ونفى الإختيار ، وشجب الإرادة ، لهذا قال معارضوهم بأنهم ينسبون القدر إلى أنفسهم لأنهم يقدّرون ما يفعلون ، فأطلقوا عليهم اسم القدرية . كذلك يشير إلى عدم اطمئنان المعتزلة لأهل الحديث ولا الحديث ، وعدم استنادهم إليه فى علم أو معرفة .

والظاهر من حياة العّباس أنه لم يكن من المتكسبين بالشّعر كأمثاله من كبار شعراء العصر ، ولا ينفى هذا اتصاله بالخلفاء ، وبعض الرؤساء والسادة ، فقد

---

(١) النفاد يوم القيامة .

اتصل بالمهدى والرشيد اتصال منادمة ، وكان شعره الغزلىّ يقع فى نفوس جوارى القصر مواقع حسنة . وكان ذلك يعجب الرشيد ، فيحبُّ أن يكتب إليه بشعره .

إلاّ أن جلّ شعره فى الغزل أوقفه على من تسمّى فوز ، وذكر معها ظلوم ، وذلفاء ونرجس ونسرين وسحر وضياء . ويكاد يشغل غزله فى فوز ثلثى شعره جميعا .

ويبدو أن فوز اسم مستعار لسماهُ محبوبته التى كانت فيما تشير أخباره هاشمية من أسرة الخلافة يقول :

كتمتُ اسمها كِتْمانَ من صَارَ عُرضَةً وحاذَرَ أنْ يفشُو قبيحُ التّسمُّعِ
فسَمَّيْتُهَا فوزاً ، ولو بحتُ باسمهَا لسُمّيتُ باسمٍ هائلِ الذكر أشْنَعِ

وكان العباس من الظرفاء ، ولم يكن من الخُلعاءِ على حد قول المبــرد ، وكان غزلاً ، ولم يك فاسقاً ، وكان ظاهر النعمة ، ملوكىّ المذهب ، شديد التزيّف ، وذلكُ بيّنٌ فى شعره .

ووصفه ابراهيم بن العباس الصولى بقوله إنه كان ممن إذا تكلّم لم يحبَ سامعه أن يسكت . وكان فصيحاً جميلاً ، ظريف اللسانِ ، لو شئت أن تقول : كلامه كلّه شعر لفعلت .

وهذه الصفات التى وصف بها الأديبان العباسيان الشاعر إنما تمثّل النديم المقبول .

كما يصف نحول جسمه ، وقد تداول المعنى كثيرا من العشاء ، إلاّ أنه يعيد عرض المعنى فيقول :

أما تتقين الله فى قتل عاشقٍ صَريعٍ نحيلِ الجِسْمِ كالخيطِ ذائبِ

ومن معانى الحب ذكر الطيف الزائر . يقول :

سرى طيف فوزٍ آخر الليل بالطّفّ فنحّى الكرى عنّى ، وأغفت ولم أُغْـفِ

ومن معانيه الغَرقُ فى بحر الهوى ، ويشكله فى معارض من اللفظ كأن يقول :

أصبحتُ فى لجج الهوَى ذا صبوةٍ أطفو وأغرقْ

ويقول :

وبقيتُ أسبح فى بحور هَوَاهُمُ ما أحسنَ الحالات إن لم تُغرقِ

ومن معانى الحب التقليدية ذكر الرياح وحملها رائحة المحبوب . يقول :

ياليتَ أنّ الرياحَ جاريةٌ تسْعَى بحاجاتنا وتختلفُ

أو يقول :

وأكبر حَظّـى منكَ أنى إذا جَرتْ لِىَ الريحُ من تلقائِكُمْ أتنشّقُ

ومن المعانى المكررة ذكر العاذل ، والكاشح والحاسد ، وهو ثالث الثلاثة فى كل علاقة بين اثنين :

إنّ العواذِلَ قد أشَعْنَ حديثَنا فالنّاس بين مصدِّقٍ ومكذِّب

أو يقول فى الكاشحين :

تنام عيونُ الكاشحين قريرةً وعيْنى بأصنَافِ البُكَا تتدفَّقُ

ونراه كالعاشقين يذكر الحَمام ، ويناجيه ، أو يذكره نوحه بالحبيب ويهيج شَوقَه فيقول :

رأيت الحمـامَ فهيَّجْننـى وفيَّضْنَ من عبراتى غُروبَا
نواعمُ بين غصونِ الأرَا ك ،صَادَفْنَ أمناً وخفضا رَطيبَا
فلمـا بكـيتُ وأبكَيْتُهُـنَّ تمنَيتكُمْ أن تكونوا قريبَا

ويقول :

أهاجَكَ صوتُ قمرىٍّ ينوحُ نَعَمْ فالدَّمعُ مطّردٌ سَفُوحُ

والغراب عدوُّ العشاء فهو المؤذن بالفراق :

نَعِسَ الغرابُ لقد دَعا بفراقٍ هلاَّ دَعَا بتزاوُرٍ وتلاقِ ؟!

ويتساءل كالعشاق عَمَّن كان سبب الهوى القلب أم العين ؟!

إذا لمتُ عينيَّ اللّتين أضرَّتا بجسمي فيكُمْ قالتا لي: لُمِ القلْبَا
فإن لمتُ قلبي قال: عيناك هاجتَا عليك الذى تلْقَى ولي تجعَل الذّنبَا
وقالت له العَينان فاكْفُفْ عن التى من البخل ما تسقيك من ريقها عذْبَا
فقال فؤادى: عَنْكِ لو تُرِكَ القطا لنام، وما باتَ القَطا يخرقُ السُّهْبَا

وهكذا نرى عباساً الشاعر الوجدانى يطوف فى معانى الحبّ والمحبّة، ولا يكاد يترك منها شيئاً، مما قال العشاق من قبل فى شعر الغزلين الغنائيين من أمثال عمر بن أبى ربيعة أو العذريين من أمثال مجنون بنى عامر وجميل بثينة، وعروة، وقيس بن ذريح.

وهو إلى جانب هذه المعانى الوجدانية فى الهوى والعشق والمحبة، يصوّر مفاتن محبوبته صوراً تقليدية، فهى درةٌ بحريةٌ تجلت عنها صدَفتُها.

يا قَمَرٌ عُطِّلَ الظلام به يا درَّةٌ لم يكنَّها الصدفُ

وهى قمراً أحيَانًا، وشمس منيرة، وهى مصباحُ تضىء الظلام:

صادت فؤادى مكسالٌ منعَّمةٌ كالبدر حين بدا بيضاءُ معطارُ
خودٌ تشيرُ برخصٍ حفَّ معصمهُ درٌّ، وساعِدُه للوجه ستَّارُ
صادت بعينٍ وثغرٍ رفَّ لؤلؤهُ فالعين مُمْرضَةٌ، والثَّغرُ سحَّارُ
ياليتَ لى قدحاً فى راحتى أبداً قد مسَّ فاهاً فَفِيهِ منه آثارُ

فهو يَعرِضُ صفات المرأة على ما صورها الشعراء، وإن تصرّف فى عرْضه، ولم يتبع طرقهم التقليدية فى التراكيب، والتعبيرات:

وتراه يصورها حوريَّةً من حوريات الجنة، عذبة الرُّضاب.

وكانت جارةً للحور فى الفردوس أحقابا

وهى ذات خال. والخال فى الخدّ والوجه محبب عند كثير من الشعراء يكسب الوجه فتنة وجاذبية.

وانظر إليه فى هذه الصورة الرقيقة التى يصور فيها محبوبته كالبدر فى طرفه سحرٌ يجنى ثمار القلوب. معنى جميل بديع!!

مُنعَّمٌ كالبدرِ فى طرفهِ سحرٌ به يجنى ثمار القلوب

فهذا البديعُ من شعره مزجه بمعنى تقليدىّ ، فخرج هذا المخرج المعجب .

ويرى فى الخدود تفّاحاً ، وهو معنًى متداول ، لكنه يعرضه فى معرض جديد حيث يقول : مازجاً بينه وبين خمر الرضاب :

ذكرتُك بالتفّاح لمّا شممتُه ... وبالراح لمّا قابلَتْ أوجُهَ الشَّرْبِ
تذكّرت بالتفاح منك سوالفاً ... وبالرّاح طعماً من مُقَبَّلِكِ العذبِ

ومحبوبه غزالٌ كغزلان سابقيه من الغزليين :

إن بالشطّ نحو دار المعنّى ... لغزالاً إلى القلوبِ حبيبًا

وصاحبتهُ دميةٌ فى معبد أو هيكل كما اعتاد القدماء تصوير المرأة أحياناً لتعلقهم بصورة العذراء والمسيح فى كنائس الحيرة والشام ومصر . وفوز صاحبة عباس كذلك يستوحى لجمالها وبهائها وقدّسيتها فى قلبه تلك الصورة ، فيقول :

ألمّ خيالُ فوزٍ والثُّريّا ... قبيل الصبح غائرةٌ جنوحُ
بأحسن صورةٍ وأتم خلقٍ ... يُزيّنُ حُسنَها دلٌّ مليحُ
فتاةٌ قد كساها الحسن تاجاً ... يلجلج حينَ يبصرها الفصيحُ
كدُميةِ بيعةٍ بالروم أضْحَتْ ... يعظمُ عند رؤيتها المسيحُ

وهذه الفتاة التى ألهمته هذا الشعر كلّه ، والذى استغرق فيها ثلثى ديوانه إن لم يكن أكثر من ذلك ، لا تكاد تقرأ قصيدة أو مقطوعة إلا ويطالعك اسم فوز ، أو صفتها ، وربما كنّى عنها بهذا اللقب فوز أو بظلوم . وحكايته معها تبدأ فى بغداد ، وربما كان ذلك أغلب الظن فى شبابه ، وأول وفوده إليها ليلقى المهدىّ والرشيد . والتقيا، وكانت قناة غرةُ على ما يذكر هو فى شعره، من آل هاشم غالباً على قول بعض الرواة . ويؤكد هذا القول أشياء كثيرة . منها أنها كانت تسكن الرصافة، والرصافة سكن الخلفاء وعليه القوم ، وكانت تسكن قصراً على دجلة ، له شرفات تطلّ منها ، وهى منعّمة ، ذات وصيفات يحففن بها .

يقول :

لمّا بدتْ فرأيْتُها فى صُفرةٍ … كَلِفَ الفؤادُ بكلِّ شيءٍ أصفرِ
وتشرَّفتُ من قصرها فلمحْتُها … فلأسْـألَنّ عن النعيم الأكبرِ
وكأن نسوتَها الكواعب حولَها … زُهْرُ الكواكِب حولَ بدرٍ أزْهرِ
فوقَفْتُ، ثم خشيتُ نظرةَ كاشحٍ … فرجعتُ مفجوعاً بذاك المنظرِ
وسكنْتُمُ من بطنِ دجلةَ منظراً … أنِقَ المرابع طيِّبَ المُتَنَظَّرِ
وكأنَّ دجلةَ مذ حَلَلْتُم قربها … تجرى لساكنها بماءِ الكوثرِ

ويقول :

يا موقد النار بالهندىّ والغارِ … هيَّجتَ لى حزناً يا موقد النّار
بين الرصافةِ والميدان أرقبها … شبّتْ لغانيةٍ بيضاءَ معطارِ

وهى من علية القوم منعمةٌ تمشى وحولها الوصيفات والجوارى يحففنَها ومشيتها فيها ذلك التقطيف والنعومة كأنها تطأ على بيض أو قوارير !

كأنّها حين تمشى فى وصائِفها … تَخْطُو على البيضِ أو خُضْرِ القواريرِ

وهو يخشى أن يبوح باسمها الحقيقى خوفا من أهلها ومن أخيها وعمِّها . وهى حجازية مَدَنيَّةٌ ، شريفةٌ ، أهلُها وعشيرتها بالمدينة ، وهى ووالدها وبعض أهلها بقصر الرصافة ببغداد ، وقد اعتادت زيارة المدينة والبقاء هناك زمناً . كان شوقُه يزداد إليها فيتبادلان الرسائل وكانت كثيراً ما تمتنع عن الكتابة إليه خشية الرقباء .

وعندما كانت تقيم ببغداد كانا يعتادان اللقاء خفيةً ، ويتبادلان الرسائل كل يوم بالآصَالِ والبكر كما يقول معاتباً إياها وقد قلّت رسائلها :

صارت رسَائِلُكُمْ يافوز نادرةً … بعد التتابُع بالآصالِ والبُكَرِ

وكثيراً ما يذكر أول لِقاءَاتٍ لهما فى إحدى دور بغداد :

هل تذكرين بدار بكرٍ لهونَا … ولنا بذاك مخافةٌ وحذارُ
متطاعمين بريقنا فى خلوةٍ … مثلَ الفراخ تزُقُّها الأطيارُ
أم تذكرين لَدلْجَتِى متنكّراً … وعلىَّ فروا عَاتقٍ وحمارُ
فوددت أنَّ الليلَ دامَ وأنه … ذهب النّهارُ فلا يكون نهارُ

ويذكرنا البيتان الأخيران بعمر بن أبى ربيعة وزوراته الخفيّة ليلاً لحبيباته .

ومن الصور التى علقت بمخيلة الشاعر تلك التى رأى فيها فوز فى شرفة قصرها وذكرها مرة على ما أوردناها منذ قليل ، وعاد ليعرضها مرة أخرى فى أبيات غير السابقة . يقول :

بأبى وأمّى ظبيةٌ أبصرتُها ... تلك العشيّةِ فوق سطح مشرفِ
نظرت من السّطح الرفيع وحولها ... بيضُ الوَصائِف كالظّباءِ العُكّفِ
نظرتْ إليك بمقلةٍ محزونةٍ ... نظر الصحيح إلى المريضِ المدْنَفِ
ولقد رفعت لها الرّداء مودّعاً ... بعد البكاءِ وبعد طولِ الموقفِ

ويبدو أنه حدثت جفوةٌ بين عباس وفوز سببها فيما قال هو وشاية إحدى صاحباتها به ، مدعية أنه راودها عن نفسها . قال :

وقد زَعَمَتْ يمنٌ بأنى أرَدْتُها ... على نفسها تبًا لذلك من قَوْلِ
سَلُوا عنْ قميصي مثلَ شاهدِ يوسفٍ ... فإن قَميصى لم يكنْ قُدّ من قُبُلِ

ومع هذا فإن عباساً كان كما قلنا شاعراً غزلاً جميل الصورة مُحبّبًا إلى النساء وكأنّه « كازانوفا » أو « دون جوان » عصره . ويعترف بذلك فى شعره إذ يقول :

وأرى الكواعبَ يختبِئنَ وسائِلى ... لولاكِ كان لِبَعْضِهِنَّ تـودُّدى
وأنا امرؤ حلو الشمائل هِمّتِى ... فى قَطْفِ رُمّانِ الثّدِىّ النُّهَّدِ
فى الناس مثلك لو أردت وجدتهُ ... لو يُبْتَغَى مثلى لكمْ لم يوجَدِ

وكأنه هُنا يدلّ على صاحبته بحبّه لها ، ويقول لها إن مثلك كثيرات يتوددن إلى ويرجون وصالى ، وأن مثلى لا يُوجد ، وهى نغمةٌ سبق أن سمعناها من عمر ابن أبى ربيعة فى الادلال على بحبياته ، وأنهنّ يتبعنه ويطلبنه ويجرين وراءه .

وكان عبّاس يتردد على الكرخ ، وهو سوق بغداد وحيُّه الشعبى فيجالس هناك بعض إخوانه من الشعراء ، ويستمعون أحياناً إلى الغِنَاءِ فى بيت من بيوت القيان . يقول :

إنى أرانى وإخوانى قد اجتمعوا ... فى مجلسٍ بأعــالى الكــرْخِ مَحْضُورِ
بكيتُ من طربٍ عند السَّمــاعِ كما ... يبكى أخو غُصَصٍ من حَسنِ تذكيرِ
وصاحبُ العشقِ يبكى عند سكرتـهِ ... إذا تجاوبَ صوتُ اليَمّ والزّيرِ

تعامله وحواره من النصوص :

وأول ما نلمس من حواره مع ما يحفظ منْ نصوص ، حواره مع القرآن الكريم ، فهو يستحضره أحياناً في بعض سياقاته، كأن يقسم في موْضع القسم فيقول :

أمَا والّذى ناجى من الطّورِ عبْده وأنزل فرقاناً ، وأوحى إلى النّحْل

أو يوظّف بعض قصص القرآن ، عن طريق الإيحاء والإشارة فى بعض معانيه كالحديث عن قصة داود وأخباره فى القرآن ، ومنها أن الله ألان له الحديد . يقول :

ألانَ لداود الحديدَ بقدرةٍ مليكٌ على تيسير قلبك قادر

فهو يريد أن ينعت قلب صاحبته بأنه جامد قاس لا تجيش عواطفه كالحديد لا يلين ويدعو الله أن يلين بقدرته هذا القلب كما ألان لداود الحديد . من قوله تعالى : ﴿ آتينا دَاوُدَ مِنّا فضْلاً ، يا جِبَالُ أوِّبى معه ، والطّيرَ ، وألَنّا لهُ الحَدِيدَ ﴾[1] .

ويشير إلى داود أكثر من مرةٍ فى سياقاته ، فهو مرة يقول فى معرض افتتانه بمحبوبته كافتتان داود بزوج أحد رجاله وزواجه منها . يقول :

فلأنْتِ أفْتَنُ للقُلُوبِ منَ الّتي عرَضتْ لداوُدَ النّبىِّ المهتَدِى
فإذا هبطتِ إلى بلادٍ لم تزَلْ تجرى كواكبُ أهْلِها بالأسْعَدِ
و لقد كتَبْتُ مع الرسولِ ،وإننى لأراه أنجحَ من كِتَابِ الهُدْهُدِ

يوظف قصة ... فى قوله تعالى : ﴿ وهلْ أتاكَ نبأ الخَصْمِ إذْ تسوَّروا المِحْرابَ إذ دخلوا على دَاوُدَ فَفزع منهُمْ . قالُوا لا تخَفْ خَصْمانِ بغى بَعضُنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحقّ . ولا تُشْطِطْ واهدنا إلى سواء الصِّراط ، إنّ هذا أخى له تسعٌ وتِسعُونَ نعجةً ولِىَ نعجةٌ واحدةٌ ،فقالَ اكْفِلْنِيهَا وعَزّنِى فى الخِطَاب ، قال لقد ظَلَمك بُسؤالِ نعْجتِكَ إلى نعاجه ، إنّ كثيرا من الخلطاءِ لَيبْغى بعضُهم على بعضٍ إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليلٌ ما هُمْ ، وظنّ داوُدَ أنّما فتنّاهُ ، فاستغفر ربّه ، وخرّ راكعا وأناب ﴾[2] .

(١) سورة سبأ ١٠ .

(٢) سورة ص الآيات من ٢١ إلى ٢٤ ، وراجع تفسير هذه الأبيات :

ويشير مرة أخرى إلى هذه القصة فيقول :

ألم تر دَاوُدَ النبيَّ هَوَتْ به جِبَالُ الهَوى فيما سمعتُ وأسْمَعُ
وما زال للنَّاس الهَوَى ذا عداوةٍ مُضِرًّا بهم مذ عهدِ عادٍ وتُبّعِ

كذلك أشار فى الأبيات الثلاثة الأولى إلى الهدهد مع سليمان . وهو الذى حمَل الكتاب إلى ملكةِ سبأ .

ويقول : (ذاكراً النفَاثاتِ فى العُقَد) .

إنى لأحسبُ والأقدارُ غالبةٌ أنّى وإياكِ مثل الروح فى الجسدِ
حتى سعت بيننا بالفوز ساعيةٌ مشهورةٌ عُرِفَتْ بالنفثِ فى العقدِ

وتتردد كثير من ألفاظ القرآن الكريم ومصطلحه ، وتراكيبه فى شعره مثل القربان والنافلة ، وذنبٌ مغفورٌ ، ولا تُبْقِى ولا تذر والنفاثات فى العقد ، وقارون فى قوله :

ويا ربُّ عذِّبها بما بى من الهَوى ولا كالّذى عذّبْتَ قارون بالخسْفُ

فهو يحيل إلى قصة قارون فى القرآن والتفسير كما أحال إلى داود وسليمان ، ويستدعى فى ذهن السامع والقارىء معنى ما يريد أن يبلّغه ، من هذا الحوار أو التناص ، والمقابلة بين سياق معناه ، وسياق المعنى فى النص القرآنى .

ويفعل الفعل نفسه فيما يستوعبه من معانى بعض نصوص شعر الحجازيين أمثال عمر ابن أبى ربيعة ، والعذريين كجميل ، والمجنون ، وابن ذريح وغيرهم ممن أشار إليهم اكثر من مرة فى شعره ، دليلاً على أنهم كانوا يعايشونه بأشعارهم ، وأن ما قالوا كان يدور فى ذهنه . من ذلك قوله :

إذا النَّاسُ قالوا : كيفَ فوزٌ وعهدُها خَرِستُ حَيَاءً ، لا أُمِرُّ ولا أُحْلِى
فكُونِى كليْلَى الأخْيَلِيَّةِ فى الهَوَى وإلاَّ كلُبنَى ، أو كعفراءَ أو جُمْلِ

ومن ذكرهن محبوبات لشعراءَ عذريين ، فليلى الأخيلية صاحبة توبة بن الحمير ولبنى صاحبة قيس بن ذريح ، وعفراء صاحبة عروة بن حزام .

ومن أمثال ما طاف به من هواجس شعر المجنون قوله :

فإذا يُنادى باسمها ظلّتْ مدامِعه ترقرق
وإذا يمرُّ ببـــابها لَثَمَ الجَدارَ وظَلّ يُصْعَق
وإذا تذكّرها بكى حتى تكَادُ النفس تُزْهَق

وعباس قليلُ الاستخدام للتشبيه والاستعارة فى شعره ، ويبنى صوره الشعرية على سياق اللفظ بحقيقته ، ومع هذا فهو إذا لجأ إلى التشبيه ، فإنما يأتى به غريباً مُتنوعاً ، لا يميل فيه إلى الإقتداء بسابقيه ، ولا بالجارى المعروف فى قاموس الشعر كأن يقول ملماً بمعنًى سابق للمجنون رواه المبرد :

إذا القلبُ أوْفَى أن يطير صبابةً ضربتُ له صَدْرى ، وألزمتُه كفّى
يهمُّ فلولا أنّ صدرى حجابه لطار دراكاً ، أو تحامَلَ بالجذف
كأنّ جناحيْه إذا هَاجَ شوْقه يدا قينةٍ هوجاءَ تضربُ بالدُّفّ

وهو تشبيه غريب محدث ، وأما ما ألم به من قول المجنون فهو قوله :

كأنّ القلب ليلةَ قِيلَ يُغْدَى بليلى العامريّةِ أو يُراحُ
قطاةٌ عزّها شركٌ فباتَتْ تجاذِبُه وقد عَلِقَ الجناحُ

ولأن الشاعر قد استغرقه الحبُّ ، فأخلص له ، فقد استنفد كثيراً من معانيه إذا جاز لنا هذا القول ، أو بمعنى آخر فقد فتّق كثيرا من معانيه وجال وصَالَ فى ميدانه ، واحتوى كثيرا من معانى سابقيه، فضيق الباب على من جاءوا بعده ، ولم يجد هؤلاء ملاذاً إلا الإقتداء به ، أو استعارة معانيه :

فابو تمام حين يقول :

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد وعاد قتاداً عندها كلُّ مرقدِ

طالما يقول عباس :

تجافى مرفقَاىَ عن الوسادِ كأنّ به منابت من قَتَادِ

أو المتنبى حين يقول :

أمن ازديارك فى الدُّجى الرُّقباءُ إذْ حيثُ أنتِ من الظّلام ضياء

هو من قول العباس :

كلُّ أرضٍ حَلَلْتِ فيها فما يحتا جُ سُكّانُها إلى مِصْباح

وبعد هذا هو العبّاس شاعر الحبّ ، وقد نهج بين شعراء العباسيين نهجاً جديداً بأن أوقف نفسه على موضوع بعينه . أوقف شعراء سابقون كعمر بن أبي ربيعة وجميل وغيرهما أشعارهم على الحبّ إلاّ أن شعر العبّاس يتصرف في جوانب متعددة ، فهو أكثر مَعاني ، وأرقّ ألفاظاً ، مع استعانته بالضرورة كما أشرنا إلى معاني سابقيه والزيادة عليها أو عرضها في معارضَ اكثر مناسبة لعصره في بغداد ، مما أصبى قلوب العذارى ، وأهوى إليه بافئدة النسوة ، فأحَبَبْنَ سماع شعره وتدلّهن به .

ولابد لكلّ نابغة من متربصين لا يعجبهم تفوقه ، وقد ترصّد له بعض علماء عصره ممن دَرَجَتْ أذواقهم على شعر القدماء، وداروا في دائرة السّلف ، فلم يرتضوا إلاّ النهج الذي نهجوه ، فتوقفوا عند حدود القرن الثاني من شعر قاله الأمويون وبعض من قلّدوهم، ولم يعترفوا بالمحدثين. وهؤلاء من أمثال أبي عمرو بن العلاء والأصمعي ومن شابَهَهُمْ ممن أورد صاحب الموشح تعليقات لهم على شعر المحدثين عائبين ما ليس بعيب ، كأن يتسخط الأصمعي شعر العبّاس ، ويتهمه بسخف اللفظ في قوله :

اليومُ مثل الحوْلِ حتّى أرَىَ ... وجْهَكِ والساعةُ كالشّهْرِ
إنّ الذي أضْمِرُ عند الذي ... أظهِرُ كالقطرةِ في البحرِ
لو شُقَّ عَنْ قلبي يُرى وسطه ... ذكرك والتوحيد في سطرِ

ثم قال :

يامن تمادَى قَلْبُه في الهوَى ... سالَ بك السّيْلُ وما تدري
أبَعْدَ أنْ قد صرتَ أُحْدُوثَةً ... في الناس مثل الحسن البصري

قال الأصمعي : لعمري إن الحسن البصري مشهور ، ولكن ليس هذا موضع ذكره . وكلام الأصمعي في تبرير ادعائه بالسخف على شعر العباس لهذه الأبيات غير منصف وكلّ اتهامه منصبٌ على استشهاده بالحسن البصري ، وهو تمثل لا يقبَلُهُ ذوق الأصمعي كما أحسبُه تململ من قول العباس في البيت الثالث :

لو شقّ عن قلبي ترى وسطه ... ذكرك والتوحيد في سطر

ونرى علاقة قريبة بين ذكره التوحيد فى القلب ، والحسن البصرى ، وهو استدعاءٌ من باب ذكر الشيء بالشيء فالحسن رأس المعتزلة القائلين بالتوحيد ، لكن الأصمعى كان بعيداً عن هذا الخاطر ولا يهمه إلا ظاهر القول لأن هذا كان منهجه الفكرىّ ، لا يحب أن يُؤوِل ، ولا يُبْعِدُ فى التأمل وراء الخاطر .

ويوردُ المرزبانى اعتراضاً للمدائنى الأخبارى على قول العباس واتهامه هو وأبو العتاهية بأنهما يكثران الحزَّ ولا يصيبان المفصل !. وهو قول عجيب وغير مستغرب من المدائنى ولا من غيره كيونس بن حبيب من رواة الشعر القديم .

ويروى بيتاً للعباس لا يعجب أبا الهذيل العلاّف لأنه يقول بما يخالف عقيدته يقول العباس[1] :

إذا أردتُ سُلُوًّا كان ناصِرُكم قَلْبِي ، وما أنا من قَلْبِي بمنتَصِرِ
فأكثروا وأقِلّوا فى إساءتكم فكلّ ذلك محمولٌ على القدر

فالبيت الثانى ينطق بأن القدر يتحكم فى مصائر البشر ، وأبو الهذيل العلاّف يقول بالاختيار وحرّية الإرادة فى أفعال الناس ، وهو يبغض العباس ويلعنه لأنه يعارض رأيه ، وينسى أنّه حديث شعر ، وفرقٌ بين الكلام والشعر .

ومن هنا يمكن القول بأنّا لا نُسلِمُ بِكُلّ ما قال القدماء من العلماء والنقاد أو نأخذ بما أثر عنهم ، فقد كانت لهم رؤيتهم الخاصة توجّهُها ثقافة بعينها قد تخطىء أوتصيب ، وليس لزاماً أن نَتَّبعَهُم فيما أخطأوا فيه ، فَلَنَا فكر وذوق نحكمهما فيما نقرأ وفيما نعي .

— ٢ —

عكاشة العَمِّى(١)

هو : عكاشة بن عبد الصمد .

من شعراء البصرة فى القرن الثانى ، عاش فى أخرياته ، وعاصر جماعة من المشهورين ممن تعرض لهم فى هذه المرحلة ، وينسب إلى بنى العَمّ ، والمُلحقِين ببنى تميم من أهل البلاد .

وهو شاعر مذكور ، تتردد أخباره وأشعاره فى كتب الأدب ، وإن كان مقلاً ولم يرتفع ذكره كغيره من كبار معاصريه .

صحب سعيد بن حميد الكاتب البصرى ، وصادقه ، وتلازما فلم يفترقا ، وكان لا يكتم أحدهم عن صاحبه شيئاً .

وعرف عكاشة بتعلقه بجارية لأحد الهاشميين بالبصرة تدعى « نِعَمُ » وقف عليها معظم شعره . وهو فى هذا شبيه بمعاصره الآخر عبّاس بن الأحنف وصاحبته فوز . يقول عكاشة :

علامَ حبلُ الصَّفَاءِ منصرمٌ ... وفيم عنّى الصُّدودُ والصَّمَمُ
يا منْ كنينَا عن اسمه زمناً ... نتبعُ مرضَاتَهُ ونَحْتَرِمُ
قد عيلَ صَبْرِى وأنت لاهيةٌ ... عنّى ، وقلبى عليكِ يضطرِمُ
من جذّ حبل الوفَاءِ سيّدتِى ... منك ، ومن سامني له العدمُ
فكمْ أتانى من واشٍ يعيبُكُمْ ... فقلت : إخسأ لأنفك الرُّغَمُ
أنت الفدا والحمى لمن عِبْـ ... ـتَ فارجعْ صاغراً راغماً لكَ النَّدمُ
ياربّ خذلى من الوشاةِ إذا ... قاموا وقمنا إليك نختصمُ
دبُّوا إليها يوسْوِسُونَ لهَا ... بى ليصرفوا حبيبتى زَعَمُوا
هيهات من ذاك ضلَّ سعيهمُو ... ما قلبُها المستشارُ ينقسِمُ
يا حاسدينا موتوا بغيظكُمْ ... حبْلى متينٌ بقولها نِعَمُ
بالله لا تشمتِى العداةَ بنا ... كونى كقلبِى فلستُ أتَّهِمُ

---

(١) الأغانى ٣ /٢٥٧ .

كلام سهلٌ منطلقٌ ، لا تصنُّع ولا صنعة ، مطبوع فى لفظةٍ كغيره من المطبوعين أبانَ بن عبد الحميد ومطيع بن إياس . وعلاقته بهذه الجارية المغنية لآل هاشم بالبصرة علاقة شغف ، وهوًى ، ككثيرين غيره من الشعراء ممن علقوا بالقيان المغنيات . لكن نعم هذه لم تكن من بيوت القيان ، بل هى من جوارى السادة ممن يحيين لياليهم مع من يحبون من سمَّارهم ومريديهم. وتغنتَ فى مجلس من تلك المجالس التى عقدها سيدها لسمّاره ، حضره عكاشة فيمن حضر ، فقال :

سقياً لمجلسنا الذى كنَّا به ... يومَ الخميس جماعةً أتْرَابا
فى غرُفةٍ مُطرَت سماوة سَقْفها ... بحيا النعيم من الكروم شرابا
إذْ نحنُ نسقاها شمولاً قرقفًا ... تدعُ الضجيج بغَفلَةٍ مُرتَابَا
حمراءُ مثل دم الغزال ، وتارةً ... بعد المزاج تخالها زِرْيَابَا
من كفِّ جاريةٍ كأنّ بنانَها ... من فضّةٍ قد قُمّعتْ عُنَّابَا
تزدادُ حُسْناً كأسُها من كفها ... ويطيبُ منها نشرها أحقابَا

حتى يقول فى نعم وهى تغنّى بالعود :

والعودُ متّبع غناءَ فريدةٍ ... غردًا ، يَقُولُ كما تقَولُ صوابا
وكأنّ يمناها إذا نطقت بهِ ... تُلقى على يدها الشِّمَالِ حِسَابا
فهناكَ حقَّ بنا النعيم وصار من ... دون الثقيل لنا عليهِ حِجابا
آليت لا أُلحى على طلب الهوى ... متلذذاً حتى أكون ترابا

وقيل إنّ بغداديًا اشترى « نعم » هذه من سيدها ، وصحبها معه إلى بغداد ، وخلّفته بالبصرة فى حزن عليها شديد ، فظلّ ينظم الشعر فى الشوق وألم الفراق ولوعته مثل قوله :

ألا لَيْتَ شِعْرِى هلْ يَعُودَنّ ما مَضَى ... وهلْ رَاجِعٌ ما فَاتَ منْ صِلَةِ الحبْلِ
وهَلْ أجْلِسَنْ فِى مِثْلِ مَجْلِسِنَا الذّى ... نَعِمْنَا بِهِ يَوْمَ السَّعَادَةِ بالوَصْلِ
وقدْ دَارَ سَاقِينَا بكأسٍ رَوِيّةٍ ... تُزَحِّلَ أحزانَ الكئيبِ مع العقلِ
وشجَّ شمُولاً بالمَزاجِ فطيِّرتْ ... كألسِنَةِ الحَيَّاتِ خَافَتْ مِنْ القَتْلِ
فَبِتْنَا وعَيْنُ الكأسِ سُحٌّ دُمُوعُها ... لِكلِّ فتًى يَهْتَزُّ لِلْمَجْدِ كالنَّصْلِ
وقِيْنَتُنا كالظّبى تَسْمَحُ بالهَوَى ... وَبَثُّ تباريحِ الفؤادِ على رسْلِ

إذا ما حَكَتْ بالعُودِ رجْع لسانِها ... رأيْت لِسَانَ العُودِ من كَفِّهَا يُمْلِى
فلم أر كاللذّاتِ أمطرتْ الهَوَى ... ولا مثْلَ يومى ذاكَ صادِفَه مثْلِى

وفيها يشكو ضَنَى الشوق والمحبة فيخاطبها مردداً اسمها فى أبيات يستعْذِبُ النطق به فى أول كل بيت فيقول :

أنُعيْمُ حُبُّكِ سلّنى وبَلانِى ... وإلى الأمرِ من الأمورِ دَعَانى
أنُعيْمُ لا تجِدينَ وَجْدِى والذى ... ألقَى بكيتِ من الذى أبكَانِى
أنُعيْمُ سيّدتى عليكِ تَقطّعتْ ... نفسى من الحسراتِ والأحزانِ
أنُعيْمُ قد زخم الهوَى قلبى وقدْ ... بَكَتْ الثِيابُ أسًى على جُثْمانى
أنُعيْمُ وانحدَرتْ مدامِعُ مُقلَتِى ... حتى رَحِمْتُ لرحْمَتِى إخوانى
أنُعيْمُ مَثَّلك الهيامُ لمقلَتِى ... فكأنّنى ألقاكِ كَلَّ مكانِ

حتى يقول :

هذا وكم من مجلس لِىَ مُونِقٍ ... بين النعيمِ وبين عيشٍ دانِ
نازعتُه أردانَه فلبستُها ... مع طيبهِ فى عيشنا الضَيْنَانِ
تُنسِى الحليمَ من الرجال معادَهُ ... بين الغناءِ وعودها الحنّانِ
حتى يعودَ كأنّ حبَّةَ قلبِه ... مشدودةٌ بمثالثٍ ومثانِى
ظلّتْ تغنين وتعطفُ كفّها ... بالعُودِ بين الرّاحِ والرَّيحانِ
فسَمعت ما أبكى وأضحك سامعاً ... وسكرتُ من طربٍ ومن أشجانِ
ومشيتُ فى لجج الهوَى متبختراً ... ومَشَى إلىَّ اللهو فى ألوانِ

وأنت حين تقرأ هذا الشعر تحسّ بأنه لشاعرٍ لم يلقن اللغة فى مهدها ولم يصغها صياغة أهلها ، فهو عربىّ اللسانِ تلقيناً ، وتَعَلُّماً ، ليس عن طبيعةٍ ولا فطرة ، وهو كذلك لم يخالط الأعراب ، ومن ثقفوا اللغة ، ولم يذهب إلى البادية كأبى نواس وبشار من الموالى والمولدين .

هو إذا من أهل البلاد الأصليين الذين أشرنا إليهم فى حديثنا عن سكان البصرة ، التحق ببنى تميم ، وصاحَبَ أحد الكتاب ، وتعلّم لغتهم وطريقتهم فى الشعر ، ولم يصحب أحداً من الفحول .

وتجد الفرقَ بعيداً بين لغة عكاشة وبشار ، أو بين لغة أبى نواس ولغته ، ومع هذا فإن كليهما ، قد يتبسطان فى لغتهما لكنهما يحافظان على سمتها وأصولها

ويختلف موقف عكاشة فى معانيه ، فأنت تلتقى فيها بما يعجب ، لكنَّ عرضه لا يستوى مع بديع معناه .

ومن هنا تجد إشارة كثير من الأدباء والنقاد إلى العلاقة بين شرف المعنى وشرف اللفظ ، والمعرض الذى لا يتفق مع المعنى ، والذى يفتقر فيه الشاعر إلى سلامة التعبير وجماله. وما كان ذلك عند عكاشة فى ظنّى إلا لأنه لم يملك ناصية اللغة ، ولا أحكم الإمساك بزمامها ليصرّفها كيف يحلو له ، ووفق ما يتطلبه المعنى الذى يتخيله ، ويريد الكشف عنه .

وبعد فلسنا فى حاجة إلى أن ننبه إلى فرق ما بين حديث عباس فى الحب والمحبّة وهيامه بالهاشمية فوز ، وحديث عكاشة ، لأن عبّاس شاعرٌ مفطور على الشّعْرِ ، يهوى ويصدق فى التعبير بلغة امتلكها فانصاعَتْ له فى لفظ حلوٍ يكشف عن معنًى بديع من معانى العشق تناقله بعده العاشقون ، فتواصلت حلقاتُه من عمر بن أبى ربيعة ومجنون ليلى وجميل وكثير حتى عبّاس ومن بعده .

ومن الشعراء العشاق

ـ ٣ ـ

أبو بكر محمد بن داود الأصفهاني[(١)]

الفقيه العالم

(٢٩٧ هـ)

يعتبر أبو بكر بن داود الظاهري فقيه الشعراء أو شاعر الفقهاء في هذا القرن الثالث الهجري وكان من أدباء أصبهان في هذا القرن . جلس للفتوى والقضاء شابا ، وأحب المناظرة مع أترابه من العلماء . واشتهرت مناظرته مع ابن سريج القاضي . « وكانا يتناظران ويترادان في الكتب » . وكان شعره في معظمه غزلا ، ولم يشتهر شاعرا كاشتهاره أديبا كاتبا بتأليفه كتاب « الزهرة » وهو من أول ما ألف في الحب أو الألفة والألاف . وقد وضعه في شبابه وضمنه كثيرا من شعره على لسان بعض « أهل العصر » .

ومن رقيق شعره ما يمثل هذا الموقف المشحون بالضراعة أمام حبيبته . يقول :

يا منية القلب لو آماله انفسحت ... وحظ نفسي من ديني ودنيائي

قل لي تناسيت أم أنسيت ألفتنا ... أيام رأيك فينا غير ذا الرائي

كانت لقلبي أهواء مفرقة ... فاستجمعت مُذ رَأتْكَ العين أهوائي

فصار يحسدني من كنت أحسده ... وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي

حتى اذا استيْأسَ الحساد من دركي ... وقل أعداي مذ قللت أكفائي

حميت طعم الكرى عَيْنَيَّ فاهتجرا ... فصار طيب الكرى من بعض أعدائي

من خان هان، وقلبي رائد أبدا ... ميلا إليك على هجري وإقصائي

لابد لي منك فاصنع ما بدا لك بي ... فقد قدرت على قتلي وإحيائي

وقد صور ابن داود الحب العف أجمل تصوير ، وعبر عن أحاسيسه وأشجانه أدق تعبير ، يقول :

---

(١) للدكتور أحمد عبد الستار الجواري ، دراسة عن ابن داوود الاصفهاني الظاهري ولكتابه « الزهرة » ، كما كتب الدكتور نوري حمودي القيسي دراسة عنه وعن شعره في مقدمة « أوراق من ديوانه » ، طبع بغداد سنة ١٩٧٢ .

لو كنت شاهدنا والدار جامعة	والشمل ملتئم والود مقترب
مستأنسين بما تخفى ضمائرنا	على العفاف ورعى الود نصطحب
فإن محا الشوق فرط الأنس أوحشنا	أنس العواذل إن جدوا وإن تعبوا
عاينت منزلة فى الظرف عالية	وَرُتبةً قصرت عن شأوها الرتب

وقد كانت معانى الوفاء ، والصدق ، والتفانى فى الوجد ، والسمو بالعاطفة إلى مرتبة صوفية ، رائقة ، كل هذه كانت دائرة فى شعره ، فمما قاله فى معنىَ الوفاء حتى التزمت به جوارحه من بصر ولسان وخاطر وجنان :

كأنَّ رقيبا منك يرعى خواطرى	وآخر يرعى ناظرى ولسانى
فما عاينت عيناى بعدك منظرا	بسوءك إلا قلت قد رمقانى
ولا بدرت من فِىَّ بعدك فرحة	لغيرك إلا قلت قد سمعانى
اذا ما تسلى الغابرون عن الهوى	بشرب مدام أو سماع قيان
وجدت الذى يسلى سواى يشوقنى	إلى قُربكَ حتى ما أمل مكانى

ورغم تجاهل العلماء له ، وعدم ذكره بين شعراء عصره الا أن شعره فى الحب قد انتشر فى عصره ، وعرفه الناس فى العراق ، وسار فى بغداد مع الظرفاء والعشاق . فقد روى الخطيب البغدادى أن القاضى محمد بن يوسف ساير أبا بكر محمد بن داود الأصفهانى ببغداد فإذا جارية تغنى بشىء من شعره :

أشكو غليل فؤاد أنت متلفه	شكوى عليل إلى ألف يعلله
سقمى تزيد مع الأيام كثرته	وأنت فى عظم ما ألقى تقلله
والله حرم قتلى فى الهوى سفها	وأنت يا قاتلى ظلما تحلله

وقد جرت بين أبيه وجماعة من أدباء العصر ومتكلميه مناظرات ومحاورات ، كما جرت بينه وبين هؤلاء مناظرات ومحاورات أتم بها مواقف والده ، ومن أشهر من ناظَرهُ فى بغداد الناشىء الأكبر ابن شرشير ومحمد بن جرير ، وأبو عيسى الضرير . ويجلس الى بعض العلماء من معاصريه فيروى عنهم ، كما ينشد مباشرة عن بعض شعرائهم كأحمد بن أبى طاهر والبحترى . ويلتقى بابن الرومى . وقد نعته بفقيه العراق . وقد جاء ابن الرومى يوما الى مجلسه ، وقدم اليه رقعة بها بيتان هما :

يا ابن داود يا فقيه العراق — أفتنا في قواتل الأحداق
هل عليهن في الجراح قصاص — أم مباح لها دم العشاق

فكتب له في الجواب :

كيف يُفتيكُمُ قتيل صريع — بسهام الفراق والاشتياق
وقتيل التلاق أحسن حالا — عند داود من قتيل الفراق

ولابن داود الظاهرى مؤلفات أدبية أشهرها كتاب « الزُّهرة في الأدب » ، ومختار الأشعار ، ومعظم ما روى عن مؤلفاته في الفقه والمسائل الجدلية .

ولا يحدد العلماء تاريخا لمولده ، كما يختلفون في تاريخ وفاته بين سنتي ست وتسعين ومائتين (٢٩٦ هـ) وسبع وتسعين ومائتين (٢٩٧ هـ) .

الفصل الرابع

شعراء الحكمة والزهد

ويذهب بعض شعراء العصر (فى القرن الثانى) إلى الحكمة والفلسفة ، فينظمون أشعارهم فى هذا اللون ، حتى يغلب عليهم . وعلى رأس هذا الاتجاه بالبصرة صالح بن عبد القدوس وعبد الصمد بن المعذل ، وبشر بن المعتمر .

— ١ —

صالح بن عبد القدوس
(ت ١٦٧ هـ)

وكان كما يقول ياقوت فى معجمه[1] حكيما أديبا فاضلا ، شاعرا مجيدا .

وكان يجلس للوعظ فى مسجد البصرة ، ويقص على الناس .

واتهم بالزندقة الفكرية ، وكان ممن اجتمع مع بشار فى البصرة للنظر ودراسة بعض العقائد القديمة ، واتخاذ موقف منها ، وربما مال أو اتهم بالميل الى رأى الثنوية الفرس .

وقد أخذه المهدى بالزندقة ، ودمغه بقصيدة سينية يقول فيها :

والشيخ لا يترك أخلاقه	حتى يوارى فى ثرى رمسه
إذا أرعوى عاد إلى جهله	كذى الضنا عاد إلى نكسه

قال البغدادى : قال له المهدى : ألست القائل هذه الأبيات ؟ قال : بلى يا أمير المؤمنين ، قال فأنت لا تترك أخلاقك ، ونحن نحكم فيك بحكمك فى نفسك ، ثم أمر به فقتل وصلب على الجسر .

وقيل أن المهدى أبلغ عنه أبياتا يعرض فيها بالنبى ﷺ فأحضره المهدى وقال له : أنت القائل هذه الأبيات ؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين ، والله ما أشركت بالله طرفة عين ، فاتق الله ولا تسفك دمى على الشبهة . وقد قال النبى ﷺ : ادرءوا الحدود بالشبهات .

قال البغدادى : ويقال إنه كان مشهورا بالزندقة ، وله مع أبى الهذيل العلاف مناظرات ، وشعره كله أمثال وحكم وآداب .

(١) معجم الأدباء ، طبع الرفاعى ١٢ /٦ .

ومن مستحسنات شعر صالح القصيدة القافية[1] :

المرء يجمع والزمان يفرق	ويظل يرقع والخطوب تخرق
ولئن يعادى عاقلا خير له	من أن يكون له صديق أحمق
فارغب بنفسك لا تصادق أحمقا	ان الصديق على الصديق مصدق
وزن الكلام إذا نطقت فإنما	يبدى عيوب ذوى العقول المنطق
ومن الرجال اذا استوت أحلامهم	من يستشار اذا استشير فيطرق
حتى يجول بكل واد قلبه	فيرى ويعرف ما يقول فينطق
فبذاك يوثق كل أمر مطلق	وبذاك يطلق كل أمر يوثق
وإن أمرؤ لسعته أفعى مرة	تركته حين يُجرُّ حَبْلٌ يفرق

وقد عاش صالح بن عبد القدوس فى البصرة ، وهرب منها عندما طلبه المهدى الى دمشق ويذكر له كتب فى الديانات منها كتاب « الشكوك » ، وذكر أبو هلال أن ديوان صالح بن عبد القدوس اشتمل على ألف مثل من الأمثال العربية وألف مثل من الأمثال غير العربية . وجمع لويس شيخو قطعا من أشعار صالح فى مجلة المشرق أعداد ٢٢ ص ٨١٩ — ٨٢٩ ، ٩٣٦ — ٩٣٨ .

وصالح هذا بطل قصة صالح بن عبد القدوس مع راهب الصين التى نشرها لويس شيخو بمجلة المشرق فى العدد ٢٤ /٢٧٤ . ص ٢٧٨ — ٣٣٤ — ٣٣٨ .

ويروى الصلاح الصفدى[2] فى « الغيث الذى انسجم فى شرح لامية العجم » أنه حكى أنه توفى لصالح بن عبد القدوس ولد فحضر إليه أبو الهذيل العلاف ومعه إبراهيم النظام ، فوجداه يتلظى حزنا على ولده . فقالا له : لا أرى لتحرقك وجها ، إذ الناس عندك كالنبات . فقال : يا با الهذيل إنما تحرق لأنه لم يقرأ كتاب « الشكوك » فقال : وما هذا ؟ قال : كتاب وضعته من قرأه شك فيما كان حتى كأنه لم يكن وفيما لم يكن حتى كأنه كان. فقال له إبراهيم النظام : فظن أنت على أنه لم يمت وإن كان قد مات ، وعلى أنه قرأ الكتاب وإن لم يكن قد قرأه ، فلم يحر جوابا » .

(١) التحفة البهية ص ٢١٧ .
(٢) شرح اللامية ص ٤٧ .

وقتل صالح وصلب ببغداد سنة ١٦٧ هـ[١] .

مختارات من شعر صالح بن عبد القدوس :

بقية القافية :

ما الناس إلا عاملان فعامل ... قد مات من عطش وآخر يغرق
والناس فى طلب المعاش وإنما ... بالجد يرزق منهم من يرزق
لكنه فضل المليك عليهم ... هذا عليه موسع ومضيق
واذا الجنازة والعروس تلاقيا ... ألفيت من تبع العرائس ينطق
ورأيت من تبع الجنازة باكيا ... ورأيت دمع نوائح يترقرق

ويروى هذان البيتان :

واذا الجنازة والعروس تلاقيا ... ورأيت دمع نوائح يترقرق
ألقيتَ من تَبِعَ العَرائِسَ صَامِتًا ... ورأيت من تبع الجنازة ينطق
لو سار ألف مدجج فى حاجة ... لم يقضها إلا الذى يترفق
إن الترفق للمقيم موافق ... وإذا يسافر فالترفق أوفق

ويقول :

إن الغني الذى يرضى بعيشته ... لا من يظل على ما فات مكتئبا
لا تَحقِرَنَّ من الايام محتقرا ... كل امرىء سوف يُجْزَى بالذى اكتسبا
قد يحقر المرء ما يهوى فيركبه ... حتى يكون إلى توريطه سببا

ويقول ياقوت : وأشهر شعره قصيدته البائية التى مطلعها :

صرمت حبالك بعد موتك زينب ... والدهر فيه تَصَـرُّمٌ وتقلب
وكَذاكَ ذكر الغانيات فإِنَّهُ ... آل بيلقعةٍ وبرق خُلَّبُ
فدع الصبا فلقد عداك زمانه ... واجهد فعمرك مر منه الأطيب

ومنها :

واحذر معاشرة الدنى فإِنَّها ... تعدى كما يعدى الصحيح الأجرب
يلقاك يحلف أنه بك واثق ... واذا تدارى عنك فهو العقرب

(١) ذكره توماس آرنولد فى كتابه عن المعتزلة .

ومن شعره :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيبا كاسفا باله قليل الرجاء

وقوله :

اذا قلت قَولاً أن قولك عرضة نبادرة أو حجة لمخاصم
وإنّ امرءاً لم يخش قبل كلامه الجوابِ فَيَنْهَى نفسه غير حازم

وقال :

لا أخون الخليل فى السر حتى ينقل البحر فى الغرابل نقلا
أو تمور الجبال مور سحاب مثقلاتٍ وعت من الماء جملا

— ٢ —

أحمد بن المعذل[١]

عاش بالبصرة ، وكان صاحب زهد وورع وعبادة ، وانقطاع عن الناس وتقدم فى الاعتزال وكان أخوه الشاعر عبد الصمد بن المعذل على الضد منه صاحب مجون ، شديد الاقدام على الأعراض ، ردىء السيرة خبيث الهجاء .

حكى أنه كان فى مكان وتحته عبد الصمد فى جماعة من أصحابه ، وقد انهمكوا على شرابهم وعكفوا على لذتهم ، فعلت أصواتهم وجلبتهم ، بما هم فيه من صوت الملاهى والغناء ، وغير ذلك ، فشوشوا على أحمد فى تعبده ، فناداه : يا عبد الصمد ، آأمنت أن يحل بك وبهؤلاء عذاب من الله ، فرفع عبد الصمد رأسه اليه ، وقال : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » .

وله هجو ظريف فى أخيه عبد الصمد . وهو قوله :

قال لى أنت أخو الكلب وفى ... ظنه أنه قد هجانى واجتهد
أحمد الله تعـــالى أنـــه ... ما درى أنى أخو عبد الصمد

قال الصفدى : وهذا الهجو فى غاية الأذى على ما فيه من اللطافة[٢] .

ومما استحسنه ابن المعتز من شعره قوله :

ناديته وظلام الليل مفتكر ... تحت الرواق دفينا فى الرياحين
فقلت: قم. قال: رجلى لا تطاوعنى ... فقلت: خذ. قال: كفى لا تُواتِينى
إن غفلت عن الساق فصيِّرنى ... كما ترانى سليب العقل والدين

شعراء الزهد والوعظ :

وربما اتصل شعراء هذا الاتجاه بسبب بالاتجاه السابق فى الحكمة ، وقد يشاركونهم بعض معانى أشعارهم ، الا أن الطابع الدينى هنا أغلب ، والزهد هنا ربما كان متخذا من عناصر غير اسلامية الا أنه يعتمد على تفكير وتراث اسلاميين من القرآن والحديث . ونشير من أصحاب هذا الاتجاه الى شاعرين أحدهما مشهور وهو أبو العتاهية والآخر لا يعرفه غير الخاصة وهو محمود الوراق .

---

(١) راجع ترجمته فى الأغانى ١٣ /٢٢٦ ، الكامل للمبرد ١ /٢٢٤ ، وطبقات ابن المعتز ٣٦٨ .
(٢) شرح لامية العجم ١ /٢٥٥ .

— ٣ —

أبو العتاهية(١)

(ت سنة ٢١١ هـ)

إسماعيل بن القاسم مولى عنزة ، وهى إحدى القبائل النجدية . ولد سنة ١٣٠ هـ ، كان أبيض اللون أسود الشعر مسترسله ، ذا هيئة حسنة ، لطيف الثياب . ويكنى بأبى اسحاق ، من أبناء الكوفة ، وعمل فيها بصنع الجرار ، ويبدو أنها كانت صناعة أهله ورثها عنهم .

قال أبو الفرج : ولد بالكوفة ، وكان يعمل خزافاً ، أى يصنع الجرار ويبيعها فى سوق الكوفة . وكان يملك مع أخيه مصنع خزف يعمل فيه بعض العمال . وكان يسوّق بضاعته فى دكانه ، وأحيانا يطوف بها حاملاً قفصاً على رأسه أو على ظهره .

عاصر أوائل الدولة العباسية صبياً ، وشهد كثيرا من الأحداث بالكوفة بدء قيام الدولة ، وصحب فى صباه ، وشبابه جماعة من مجّان الكوفة ، ومن كانوا يتحررون فى فعالهم وأقوالهم ويطلق عليهم عصبة المجان أو الزنادقة . قال أبو الفرج : كان فى شبابه يحمل زاملة المخنثين وربما تزندق حالاً وسلوكاً . وتروى له أشعار فى الزندقة . من مثل قوله على ما رواه ابن قتيبة(٢) قال وأشار إلى السماء :

إذا ما استجزتَ الشكَّ فى بعض ما ترى ... فما لا تراه الدَّهْرَ أمضَى وأجْوزُ

وقوله :

ياربِّ لو أنسيْتَنيها وهى فى ... جنَّةِ الفردوْسِ لم أنْسَهَا

(١) راجع ترجمته فى الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢ /٦٧٥ ، وطبقات المحدثين لابن المعتز ص ٢٢٦ ، والأغانى لأبى الفرج .

(٢) الشعر والشعراء ٦٧٩ .

وقوله :

إنَّ المليكَ رآكَ أحْسَنَ خلقِهِ ورأى جَمالَكْ
فحذا بقدرة نفْسِهِ حُورَ الجنانِ على مثالِكِ

وهى سقطات شاعر أو زلّات لسان ، أوهى أبيات قالها فى شبابه ، وكانت آثار هذا التحرر الفكرى من آثار من زاملهم من المخنثين والزنادقة المجّان الذين اعتادوا مثل هذا القول العابث ، والخارج على حدود التأدّب مع الخالق .

وولادة أبى العتاهية بالكوفة وإقامته وعمله شرخاً من عمره بها مما أثر فى فكره وسلوكه ، وقد أشرنا إلى بيئة الكوفة ، وكيف أنها كانت علويّة الهوَى ، باطنية المعتقد لما توارثته من تراثها القديم ، ومن موقعها .

ويروى أنه تشيع ، وأنه كان يميل إلى رأى الزيدية ، وقيل إنه كان جبرياً ، وأنه عارض ثمامة بن أشرس المعتزلى والقائل بالاختيار فى مجلس المأمون .

والتقى أبو العتاهيةفى حياته بجماعة من الأدباء والعلماء والشعراء كبشار بن برد ، وأشجع السُّلمى ، وأبى نواس ، ومسلم بن الوليد ، ودارت بينه وبينهم أحاديث ومناجزات نجمل بعضها فيما تسوقه عنه من الأخبار .

واشتهر قبل زهده ، بالغزل والمديح ، وعرف بعلاقته ببعض الجوارى . وروى أبو الفرج أنه أحب فى حياته امرأتين أولاهما جارية اسمها سُعْدَى لعبد الله بن معَن بن زائدة وكانت تعمل الشعر وتنوح به . وكان ذلك بالكوفة قبل شخوصه إلى بغداد . ولامه مولاها عبد الله ، وحدث بين الرجلين ملاحاة ، تحولت إلى عداوة بسبب هذه الجارية ، التى كان يكثر من التشبيب بها . فاضطر مولاها عبد الله — وهو من بيت مشهور — إلى إيذائه ، وضربه بالسياط ضرباً مبرحاً كما روى أبو الفرج .

فردَّ أبو العتاهية على ضرب عبد الله بالهجاء المقذع مشبهاً إياه بامرأة .

وبعد ذهابه إلى بغداد تعلق بعتبة التى سار ذكرها معه حيث أكثر فيها قول الشعر . وكانت عتبة جارية لأحدى سيدات البيت العباسى ، وهى ريطة أو رائطة ابنة السفاح وزوج المهدى ابن أبى جعفر .

قال ابن قتيبة : وكانت عتبة هذه التى يُشبِّبُ بها جارية لريطة بنت أبى العباس السفّاح ، وكانت تحت المهدى[1] .

وقال ابن المعتز : كانت عتبة التى يشبب بها ويظهر عشقها أبو العتاهية جارية لرائطة بنت أبى العباس السفاح . وكانت رائطة تحت ابن عمها المهدى بن المنصور أمير المؤمنين . فلما رأى المهدىُّ إكثاره فى شعره من ذكرها ووصفها غضب وقال : ما يَجِدُ هذا الجرَّارُ أحداً يعبث بحُرَمِهِ غيرَنا ؟ . وأمر بحبسه وشفع له عند المهدى خاله فاطلقه .

وكان تعلقه بعتبه ، ورفضها الزواج منه أو قبول مبلغ من المال لقاء تركه الحديث عنها مثار متاعب متواصلة فى عهد المهدى والهادى والرشيد ، حتى كفّ فى عهد الرشيد عن هذا الغزل والتشبيب بعتبة لما رأى أن لا أمل له فيها .

قالوا فى صفاته إنه كان ذا لباقة وحصافة .

وقيل إن سبب تسميته بأبى العتاهية ميلُه إلى المجون أول أمره .

وقيل إنه سُمِّىَ كذلك لأن المهدىَّ قال له : إنك إنسان متحذلق مُتَعَتِّهْ .

ارتحل أبو العتاهية من الكوفة إلى بغداد فى خلافة المهدى ، فمدحه ، وظلَّ ببغداد أو تردد عليها حتى استقر بها ، ومدح الهادى بعد المهدى ثم هارون الرشيد .

ولقى لدى الرشيد حُظْوةً حتى قيل إنه كان لا يفارقه فى سفر ولا حضَر . وكان يجرى عليه فى كل سنة خمسين ألف درهم سوى الجوائز .

ومما يروى من شعره فى المهدى قوله المشهور[2] :

ألا ما لسيِّدتى مالَهـــا	أدَلاًّ فأحْمِـلَ إدْلاَلَهـــا
وإلاَّ ففيم تجنت ومَـــا	جنيتُ ، سقى الله أطلالها
ألاَ إن جاريـــةً للإمـــام	قد أسْكِنُ الحبُّ سربَالها
مَشتْ بين حور قصارِ الخُطَى	تُجاذبَ فى المشى أثقالها
وقد اتعب الله نفسى بها	وأتـعبَ باللـــوْم عذّالهَـــا

(١) الشعر والشعراء ٢ /٦٧٦ .

(٢) الأغانى ٤ /٣٧ .

يقول في مديحها :

أتتْــهُ الخلافــةُ مُنْقــادةً إليــهِ تُجــرِّرُ أذيالهَــا
ولم تَــكُ تَصلُحُ إلا له ولم يكُ يصلحُ إلاَّ لها
ولــو رَامَهــا أحدٌ غيــرَهُ لزلــزلتِ الأرضُ زلــزالها
ولو لمْ تُطعْهُ بناتُ القلوب لما قبِــلَ الله أعمَــالها
وإنَّ الخليفة من بغض لا إليــهِ ليُبْغضُ من قالهَــا

وقد طرب المهدى لها ، وأجازه جائزة سنية .

ومن مديحه فيه قوله :

سُقيتَ الغيثَ يا قصرَ السَّلامِ فنِعْمَ مَحلّةُ الملِكِ الهُمَامِ
لقد نشرَ الالهُ عليك نُوراً وحَفَّكَ بالملائكة الكرامِ
ساشكُرُ نِعْمةَ المهدىِّ حتى تدورَ عليَّ دائرةُ الحمامِ
له بيتــان بيتٌ تُبَّعــيٌّ وبيتٌ حلَّ بالبلَدِ الحرامِ

يشير في البيت الأخير إلى أخوال المهدى من اليمنية .

ونلاحظ هذا التأثر الإسلامي الواضح بمعاني القرآن الكريم وألفاظه. فكثيرا ما كان أبو العتاهية يستعين بالقرآن والحديث في أشعاره .

ومدح الهادى بقوله :

يا أميــنَ الله مــالى لستُ أدرِي اليومَ مالِي
لم أنَلْ منك الذى قدْ نالَ غيرى من نوالِ
تبــذُلُ الحقَّ وتعطــى عن يمينٍ وشمــالِ
وأنا البــائس لا تنظَــرُ فى رقــةِ حــالــي

وفى هذا استجداء وتصريح بالسؤال ، ولم يكن أبو العتاهية يتحرج من ذلك فى بدء قصده الخلفاء والأمراء . وكان ينتهز كل مناسبة ليقدم اليهم المدائح ليأخُذَ عليها من المال ما يشبع طمعه فيه. فإذا ولد للهادى ولد قصده بقوله :

أكثر موسَى غيظَ حُسَّادِهِ وزيَّــنَ الأرضَ بأولادِهِ
وجاءَنا من صلبه سيِّدٌ أصيَدُ فى تقطيع أجدادِهِ

فاكتست الأرض به بهجةً ... واستبشرَ المُلكُ بميلادِهِ
وابتسمَ المنبرُ عن فرحةٍ ... عَلَتْ بها ذرْوَةَ أعوادِهِ
كأنني بعد قليل به ... بين مواليه وقوادِهِ
فى مَحْفَلٍ تخفق راياتُه ... قد طَبَّقَ الأرض بأحفادِهِ

ولفظ مديحه كما نرى وتعبيراته ، وصوره كلها سهلة ممتنعة ، جارية سلسة على اللسان والأفهام ، تقترب من الحديث العادى ، لكنها تعذبُ فتطرب . وهذا من أسرار شاعريته. وقد طرب الهادى لأبياته اللامية ، فأعطاه عشرة آلاف درهم ، وزاد طربه بهذه الأبيات الدالية فأمر له بألف دينارٍ وطيبٍ كثير .

ولأبى العتاهية قصيدة رقيقة الإيقاع ، لا تخلو من الإبداع فى موسى الهادى بدأها بالحديث عن الشراب والمنادمة ، والغزل فى الساق ، يقول :

لهفى على الزمَنِ القَصِيرْ ... بينَ الخورْنقِ والسَّدِيرْ
إذْ نحنُ فى غرفِ الجِنا ... نِ نَعُومُ فى بحرِ السُّرورْ
فى فتيةٍ ملكوا عِنا ... نَ الدَّهْرِ أمثالَ الصُّقُورْ
ما منهمُ إلاَّ الـجَسُو ... رُ على الهَوىِ ، غيرُ الحَصُورْ
يتعاورونَ مُدامةً ... صهباءَ من حَلَبِ العَصِيرْ
عذرَاءَ ربَّاها شعَا ... عُ الشمسِ فى حرِّ الهجيرْ
لمْ تُدْنَ من نارٍ ولَمْ ... يَعْلَقْ بها وضَرُ القُدُورْ
ومقرطقٍ يَمْشى أما ... مَ القومِ كالرَّشإِ الغريرْ
بِزُجَاجةٍ تستخرج السِّـ ... ـرَّ الدَّفينَ مِنِ الضميرْ
زهراءَ مثلَ الكوكبِ الدُّ ... رِّىِّ فى كفِّ المُديرْ
تدعُ الكريمَ وليسَ يد ... رِى ما قبيلٌ من دَبِيرْ
ومخصَّراتٍ زرْنَنَا ... بعد الهُدُوِّ من الخُدُورْ
ريَّا روادِفُهنَّ يَلْـ ... ـبَسْنَ الخواتِمَ فى الخصُورْ
غُرِّ الوُجوهِ محجَّبا ... تٍ ، قاصراتِ الطرفِ حُورْ
مُتنعِّماتٍ فى النَّعـ ... ـيم ، مضمَّخاتٍ بالعَبِيرْ
يَرْفُلْنَ فى حُلَلِ المحا ... سِنِ ، والمجاسِدِ والحَرِيرْ

ما إن يَرَيْنَ الشَّمْسَ إلاَّ الفرطَ من خللِ السُّتُورْ
وإلى أمينِ اللَّـهِ مَهْرَبُنا من الدَّهـرِ العثُـورْ
وإليـه أتعبنـا المطـايا بالـرَّواح وبالبَكُـورْ
صُعْـرَ الخـدُودِ كأُنَّمـا جُنِّحْنَ أجنحةَ النُّسُـورْ
مُتَسَـربلاتٍ بالظَّـلا مِ على الشهولةِ والوُعُـورْ
حتى وصَلْنَ بنا إلَى رَبِّ المدائِن والقُصُـورْ
مازالَ قبـل فِطامِـهِ فى سِنِّ مكتهِـلٍ كبيرْ

والقصيدة على وزن ورويّ قصيدة جاهلية مشهورة ، لعلّه استدعاها عند بنائه الأبيات ، ونلاحظ كيف تتدفق معانيه جاريةً فى لفظٍ سهل موفق ، وكيف سخرت له المعانى التقليدية وذلّت فانساقت له فى لفظ حضريٍّ معجب .

وأبو العتاهية فى حقيقة الأمر شاعرٌ حضريٌّ يناجز أبا نواس ، وبشاراً فى شعرهما المحدث ، بل لعلى أقول يتفوق عليهما فى هذا المجال . وسنرى عند الحديث عن فنه وأساليبه الدليل واضحا ، ولو انه لم يخرج عن موضوعات الخمر والغزل لظلّ فيها إمام المحدثين . ولعلّ هارون الرشيد أحس بهذا الإحساس نفسه فى شعر أبى العتاهية عندما اصطفاه نديماً ، وغضب عليه أشدّ الغضب حتى أمر بحبسه لاقلاعه عن موضوعات الغزل إلى النسك ، وعن هذا الشعرِ الحريرىّ الديباجىّ إلى جفاف الوعظ والتَّنسُّكْ .

روَى أبو الفرج أن أبا العتاهية كان لا يفارق الرشيد فى سفرٍ ولا حضر إلا فى طريق الحج . وكان يُجرِى عليه فى كل سنة خمسين ألف درهم سوى الجوائز والمعاون ، فلما قدمَ الرشيد الرقة لبس أبو العتاهية الصوف وتزهد ، وترك حضور المنادمة والقولَ فى الغزل ، فأمر الرشيد بحبسه فحُبِسَ . ومما كتبه اليه من مخبسِهِ قوله :

تذكَّرْ أمينَ الله حَقِّى وحُرْمَتِي وماكُنْتَ تُولِينى لَعَلَّكَ تذْكُرُ
ليالىَ تُدْنيِ مِنكَ بالقُرْبِ مجلسيِ ووجُهُكَ من مَاءِ البَشاشَةِ يَقْطُرُ
فمنْ لىَ بالعينِ التى كنْتَ مَرَّةً إلَىَّ بها فى سَالِفِ الدَّهرِ تنظرُ

---

(١) للشاعر المنخلُ اليشكرى . يقول فيها :
ولقد دخلْتُ على الفتا ةِ الخدرَ فى اليومِ المطيرِ

واستجابَ أبو العتاهية لرغبة الرشيد وضغطه ، فقال :

يا ابنَ عمِّ النَّبيِّ سمعاً وطاعَهْ قد خَلعْنا الكساءَ والدّرّاعَهْ
ورجعنا إلى الصّناعةِ لمَّا كانَ سُخطُ الإمامِ ترك الصناعَهْ

لكن الأمر لم يدم طويلاً ، وكان العتاهيُّ اتخذ قراراً بهذا التحوّل التام فى شعره ، وكان العمر قد مضى به إلى الشيخوخة ، وانقضت أيام الرشيد وجاء الأمين والمأمون ، وكان أبو العتاهية قد استغرقه موضوع الزهد والتنسّك . ونعود لهذا الحديث بعد قليل . ونجرى القول حول علاقة أبى العتاهية بعتبه جارية العباسيين التى استولت على وجدانه واستحوذت على جلّ شعره فى الغزل ، وكان يمكن أن يصبح أبو العتاهية موحداً فى الحب كعباس بن الأحنف وأن تكون عتبه كفوز .

ويبدو أن أول لقاء بين الشاعر وصاحبته كان بسوق بغداد كما تقول الرواية أو بأحدى طرق الرُّصافة كما تقول رواية أخرى ، فلفتت نظره ، وتعرَّف على بيتها فتبعها وعرف إنها جارية لزوج الخليفة المهدى فمنّى نفسه بالحصول عليها لكن مولاتها لم تمكنه من ذلك. كذلك عتبة لم تكن راغبة فيه على ما قال فيها وأكثر من الشعر .

وشبَّبَ أبو العتاهية بعتبة أحياناً بلفظ فيه قدر من العبث كقوله :

ألا يا عتبـــة الســـاعـــة أموت الســاعـة الســاعة

وأحيانا بتعريض غير مستحبّ حتى إن المهدى يغضب عليه وينهره . قال المسعودى : وشبب أبو العتاهية بعتبة جارية زوج المهدى ، فشكَتْ إلى مولاتها ما يلحقها من الشناعة. ودخل المهدى وهى تبكى بين يدى مولاتها فسألها عن خبرها ، فأخبرته فأمر بإحضار أبى العتاهية ، فأدخل عليه ، فلما وقف بين يديه قال : أنت القائل فى عتبة :

الله بينـــى وبين مولاتى أبدتْ لى الصدَّ والملامـاتِ

ومتى وصلتك حتى تشكو صدَّها عنك ؟.

قال : يا أمير المؤمنين ما قلت ذلك بل أنا الذى أقول :

يانَاقُ حُثِّى بنا ولا تَهِني

وهى قصيدة فى مديح المهدى ، أراد بذلك أن يراوغ ، وأن لا يرد على المهدىّ رداً مباشراً .

وشعره فى عتبة كثير ، ومعظمه رقيق ، أو هو غزلٌ حضريٌّ ليس من نسيب البادية . ومنه قوله[1] :

بالله يا حُلْوةَ العَينينِ زُوريني ... قبلَ المماتِ ، وإلاَّ فاستَزِيريني
هذانِ أمرانِ فاختارى أحبَّهُما ... إليك، أولا، فداعى الموت يدعوني
إن شئت موتاً، فأنت الدَّهرَ مالكةٌ ... روحى، وإن شئتِ أن أحيَى فأحييني
يا عُتْبُ، ماأنتِ إلاَّ بِدْعةٌ خُلِقَتْ ... من غير طين، وخلق الناس من طِينِ
إنى لأعجبُ من حُبٍّ يُقرِّبُنى ... مِمَّن يباعِدُنى عنه ويُقصِينى
لو كانَ يُنصِفُني مما كلِفتُ به ... إذن رَضيتُ، وكانَ النِّصفُ يُرْضِينى
يا أهلَ ودّى إنِّى قد رضيتُ بكُمْ ... فى الحبِّ جُهدى، ولكن لا تُبالونى
الحمدُ للهِ قد كُنَّا نظُنُّكمَ ... من أرحم الناسِ طُراً بالمساكِينِ
أمَّا الكثير فلا أرجوُه منكِ ، ولَوْ ... أطمعتِنى فى قليلٍ كان يكفيني

ألا نحس فى هذا الغزل ضرباً من الحوار والجدل الذى عرف به أبو العتاهية؟ إذ يشقق المعنى ويعرضه فى سهولة ويسر ، وكأنه يجرى حديثاً عادياً ، ولا ينظم شعرا .

ومن قوله فيها :

ألاَ يا عُتبَ يا قَمرَ الرُّصَافَهْ ... ويا ذَاتَ الملاحةِ والنَّظافَهْ
رُزِقتِ مودّتي ورزقت عطفي ... ولم أُرْزَقْ ، فديتُك منك رَافَهْ
وصِرتُ من الهوَى دنفاً سقيماً ... صَرِيعًا كالصريع من السُّلافَهْ
أظَلُّ إذا رأيْتُكِ مستكيناً ... كأنك قد بُعِثتِ علىَّ آفَهْ

ويقول المسعودى[1] : ومما أخترناهُ من شعره ، واستحسنَهُ ذوو الحِجَا قولُه :

ما أغْفَلَ النَّاسَ عن بَلائي ... وعن عنائي ، وعن شَقَائي
يَلومُنى الناسُ فى حَبيبٍ ... والناس لا يَعْرِفونَ دَائي

(1) مروج الذهب ٣ /٣٨٩ .

يا لهفَ نفسِي على خليلٍ	أصْبَحَ في كَفِّهِ شقَائي
صَيَّرنــي حُبُّــه غَريبــاً	في غير أرضٍ ولا سَمَاءِ
قد بلغ الجهدُ بي مداهُ	فما اصطبارى وما عَزَائي ؟
أنتِ بلائى وأنتِ دائِي	وأنتِ تَدْريــنَ ما دَوَائِي
والله مــا تُذْكَريــنَ إلاَّ	فاضَتْ دمُوعى على رِدائي
تبــارك الله ما دعاكــمُ	يا أَهْلَ ودِّى إلى جفائي ؟
فأنتـمُ الهمُّ في صباحِي	وأنتـمُ الهمُّ في مسَائــي
إنِّي على ما لقيت منكـم	لمعجبٌ منكـم بدائــي
شتّان ما بينكــم وبينــي	في نُصْحِ حُبِّي وفي وفائي
منحتُكُمْ صبْوتــي ووُدِّى	فكـانَ ذَا منكُمْ جَزَائـي

ومن هذه النماذج التي سقناها لغزل أبي العتاهية في عتبه نلاحظ أنه على كثرة ما لهج بها لسانه إلاَّ أن حرقةً حقيقيةً لا نستطيع أن نحسَّ بها من سياق لفظه ، ولا نستطيع أن نضعه في مرتبة مع العَّباس وقوله في فوز ، فالعَّباسُ محبٌّ وهذا عزلٌ ، أو مُشبِّبٌ ، وفرق في الدَّرجة بين المحبّ العاشق والغزل المشبِّبْ . ونلاحظ كما أشرنا هذا الجدل والتشقيق العقلي في المعانى والذى حجبَ حرارةَ العاطفة ، كما يمكننا كذلك أن نلاحظ ظرفاً أو تظرفاً على طريقة النواسيّ في غزله الظريف حتى إن بعض المعانى مشتركٌ بين الشاعرين ؛ بل لعلَّ تقارباً مَا يجمع بينهما مردّه إلى أنهما يصدرانَ عن نبع مشترك ، وإن اختلفت في المصْدَر مسالكهما .

ألم يقل الرواة إنه كان يحمل زاملة المخنثين ؟! ، وأنه تزندق في شبابه وعاشر عصبة المجان ؟!.

زهــده :

لم يخفظ الزمن لنا شعره ، فلم يصلنا ديوانه كاملاً ، وما بين أيدينا من شعره هو ما قاله في الزهد والوعظ في أخريات حياته ، وفي أخريات خلافة الرشيد على الوجه الأغلب .

روى أبو الفرج عن ابن أبي العتاهية قال : « لبس أبو العتاهية الصوفَ وآلى

على نفسه ألاَّ يقول شعراً فى الغزل . وأمر الرشيد بحبسه والتضييق عليه »[1] .

ونلمس هذا الميل إلى معانى الزهد الذى غلب عليه فى مَدْح الرشيد ومنه هذه الأبيات التى يقول فيها :

ليسَ للإنسان إلاَّ ما رُزِقْ أستعينُ الله ، بالله أثِقْ
عَلِقَ الهمُّ بقلبى كُلِّهِ وإذا ما عَلِقَ الهمُّ عَلِقْ
بأبى من كانَ لي من قلبه مرَّةً ودٌّ قليلٌ فَسُرِقْ
يا بَني الإسلام فيكُمْ مَلِكٌ جامِعُ الإسْلام عنه يَفْتَرِقْ
لندى هارونَ فيكُمْ ولَهُ فيكُمْ صَوْبٌ هَطُولٌ وورِقْ
لم يَزَلْ هارونُ خيراً كلَّه قتِلَ الشرُّ به يوم خُلِق

نمط غريب من المديح متغير اللهجة وبارد التعبير ، ويتنازعه فيه هاجس الزهد ، والميل إلى الوعظ ، ونقف أمام البيت الثالث ، ونتساءل هل هو تعبير حقيقى عما رواه الرواة ، وذكرته كتب الأدب فيما أدَّاه إلى هذا الاتجاه ، أى الزهد والوعظ ، وهل كانَ بسبب يأسه من عتبه ، وإحساسه بالإحباط لأنه لم يحصل عليها رغم الإلحاح الذى كان منه ، وأنه طلبها من المهدى والرشيد فأبت ، وواجهته برفضها القاطع !. ولهذا قال :

بأبى من كان لى من قَلْبه مَرَّةً ودٌّ قليلٌ فَسُرِقْ

وكيف كان هذا الود القليل ؟ ومتى كان ، وقد وقفنا على مواجهة المهدى له ، وانكاره على لسانها أن تكون قد حملت له هذا الود . ربما كان وهماً منه ظل يعيش فيه دهراً حتى أيقن أنه كان يخادع نفسه ويمنيها الأمانى حتى وقف على هذه الحقيقة التى غيرت مسار فكره وشعره ونظام حياته وسلوكه .

وكان زمن المأمون قد أصبح شيخاً يلبس ثوباً شديد البياض وعلى رأسه لائِطةٌ أو قلنسوة صغيرة تلتصق بالرأس . وكان يخضب لحيته . وكان يحج كل سنة .

ومما روى عن تزهده قوله إن ما قاله من شعر فى الزهد ردىءٌ قال[1] :

(١) الأغانى ٤ /٧٢ .
(٢) الأغانى ٤ /٧٤ .

« إعلم أن ما قلته رديءٌ ، لأن الشعر ينبغى أن يكون مثل أشعار الفحول المتقدمين ، أو مثل شعر بشار وابن هرمة ، فإن لم يكن كذلك فالصواب لقائله أن تكون ألفاظه مما لا تخفى على جمهور الناس مثل شعرى ، ولا سيما الأشعار التى فى الزهد ، فإن الزهد ليس من مذاهب الملوك ، ولا من مذاهب رواة الشعر ، ولا طلاب الغريب . وهو مذهبٌ أشغف الناس به الزهاد ، وأصحاب الحديث والفقهاء ، وأصحاب الرياء والعامة ، وأعجب الأشياء إليهم ما فهموه » .

وشعر أبى العتاهية يجمع كثيراً من آرائه فى الحياة والموت ، وعبثية الحياة أو عدم جدواها ، واتهمه بعض العلماء بأنه يكثر الحديث عن الموت ، ولا يذكر البعث إلا قليلاً . ومن ثم فهو قليل الذكر للثواب بالجنة والعذاب بالنار ويرميه بعضهم فى معتقده .

قال أبو الفرج : « كان مذهب أبى العتاهية القول بالتوحيد ، وأن الله خلق جوهرين متضادين لا من شيء ، ثم إنه بنى العالم هذه البنية منهما ، وأن العالم حديث العين والصنعة لا محدث له إلا الله ، وكان يزعم أن الله سيرد كل شيء إلى الجوهرين المتضادين قبل أن تفنى الأعيان جميعاً . وكان يذهب إلى أن المعارف واقعة بقدر الفكر والاستدلال . والبحث طباعاً »[1] .

قال أبو الفرج « وكان يقول بالوعيد ، وبتحريم المكاسب ، ويتشيع بمذهب الزيدية البترية[2] المبتذعة ، لا يتنقص أحداً ، ولا يرى مع ذلك الخروج على السلطان . وكان مجبراً » ، أى يرى بجبرية أعمال الإنسان ، وأنه ليس مطلق الإرادة .

وكان يعارض ثمامة بن أشرس فى مجالس المأمون ، فرأى ثمامة من رأى المعتزلة وهو إطلاق الإرادة ، وأن الإنسان مختار فى أعماله ، وليس مجبراً ولا مسيَّراً ، لأن هذا مما يقتضيه القول بالعدل الإلهى .

---

(١) المصدر نفسه ص ٨ .

(٢) فرقة من فرق الشيعة يعتقدون فى إمامة زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وإلى جماعة منهم خاصة تتبع من كان يسمىّ كثير النوى الأبتر . وهم يقصرون الإمامة على أبناء فاطمة ، ويفضلون علياً على جميع الناس بعد رسول الله ﷺ .

وشعر أبي العتاهية في الزهد والوعظ والحكم يدور في محاور معتقده هذا الذى أشار إليه أبو الفرج . وإن استمد بعضه من معرفته وما قد يكون وقف عليه في بيئته بالكوفة من قول منقول أو مسموع ، مباشرٍ أو غير مباشر من العلماء الذين استقوا معارفهم من تراثٍ قديم في محيط الكوفة . والتى كثرت حولها بيع وأديرة النساطرة ، وتناقلت عبر الأجيال ما اختزنوه من ثقافات وفلسفات مزجوها بعلوم اللاهوت ، تضمُّ تراثاً بابلياً وافكاراً هلينية من آثار الثقافة اليونانية .

فمن حديثه عن الموت ، والتعلق بالدنيا والمنية ترصده :

تعلَّقتَ بآمالٍ طوالٍ أىّ آمالِ
وأقبلتَ على الدنيا مُلحاً أى إقبالِ
أيا هذا تجهَّز لـ ـفراقِ الأهل والمالِ
فلا بُدَّ من الموتِ على حالٍ من الحالِ

ويمزج حديثه بالموت ببعض معانى الحديث النبوى كما جاء في قوله :

سكنٌ يبقَى له سكنٌ ما بهذا يُؤذن الزمنُ
نحنُ في دارٍ يخبِّرُنا بِبِلاها ناطِقٌ لسِنُ
دار سوءٍ لَمْ يدُمْ فرحٌ لا مرىءٍ فيها ولا حزَنُ
في سبيلِ الله أنفسُنا كُلُّنا بالموْتِ مُرْتَهَنُ
كلُّ نفسٍ عندَ مِيتَتِها حَظُّها من مالِها الكفَنُ
إنَّ مال المرءِ ليس له منه إلا ذكرهُ الحسنُ

وينظم بعض معانى القرآن الكريم كأن يقول :

ألا إننا كُلّنا بَائِدُ وأىُّ بنى آدم خالِدُ
وبدؤهُمُ كان من ربِّهمْ وكلٌّ إلى ربِّه عائِدُ
فيا عجباً كيف يُعْصَى الإلهُ ، أم كيف يجْحَدُهُ الجاحِدُ
وفى كل شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنَّه واحِدُ

ويردد معانى الموت ، وأنه نهاية كل حى ، وأنه وحده الواعظ للإنسان كى لا يغتر بالدنيا مهما ملك من مالٍ أو جاه أو سلطان ، يردد هذه المعانى فى مراثيه كأن يقول فى موت أحد أصدقائه :

يا شريكي في الخير قرَّبك اللّـه فنِعْم الشريكُ في الخير كنتا
قد لعمري حكيتَ لي غُصَصَ المو تِ فحرَّكتني لها وسكّنتا

أو يقول :

ألاَ منْ لي بأُنسِك ياأُخيَّا ومن لي أنْ أبثَّك ما لَدَيَّا
طوتكَ خُطوبُ دهْرِكَ بعد نشرٍ كذاك خُطُوبه نشْراً وطيًّا
فلو نشرتْ قواكَ ليَ المنايا شكَوْتُ إليك ما صَنَعت إليَّا
بكيتُك يا عليُّ بدمعَ عَيني فما أغنى البكاءُ عليك شيًّا
وكانت في حياتِك لي عظاتٌ وأنت اليومَ أوعظُ مِنَك حَيَّا

ونقل أبو الفرج[1] أن هذه المعاني التي وردت في الأبيات أخذها من كلام الفلاسفة لما حضروا تابوت الإسكندر ، « وقد أُخرجَ الإسكندر ليدفن فقال بعضُهم : كان الملك أمس أهيبَ منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس . وقال آخر : سَكنَتْ حركة الملك في لذاته ، وقد حركنا اليوم في سكونه جزعاً لفقده . وهذان المعنيان هما اللذان ذكرهما أبو العتاهية فيّ هذه الأشعار » .

وله في معاني النُسك والتقوى أحاديث عن التواضع وترك التيه والتخلق بخلق عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ، كما جاء في الكتاب العزيز . يقول :

حتّى متى ذو التِّيهِ في تِيهِهِ أصلحـهُ الله وعافـاهْ
يتيهُ أهـلُ التيـه من جهْلِهـمْ وهمْ يموتُون وإن تاهوا
من طلبَ العزَّ ليبقى بِهِ فإنَّ عزَّ المرءِ تقـواهْ
لم يعتصم بالله من خَلْقِهِ من ليس يرجُوهُ ويخْشَاهْ

واتكأ على هذا المعنى وهو ترك الخيلاء والتيه ، فدعا إلى التواضع ، لأن مصير الإنسانِ إلى التراب . يقول :

أيا واهاً لِذِكْـرِ اللّـــه يا واهـاً له واهَـا
لقد طيَّبَ ذكر اللّـــهِ بالتسبيح أفواهَـا

(١) الأغاني ٤ /٤٨ .

فيا أنتنَ من حُشٍّ على حُشٍّ إذا تاهَا[1]
أرى قوماً يتيهُونَ حشوشاً رُزقوا جاهَا

روى صاحبُ الأغانى مناسبة بعض ما قال أبو العتاهية من شعر فى ذم التيه فقال عن أحدهم : « كنتُ جالساً مع أبى العتاهية ، إذ مرَّ بنا حميد الطوسي فى موكبه وبين يديه الفرسان والرجاله ، وكان بقرب أبى العتاهية سواديٌّ (عاميٌّ) على أتان ، فضربوا وجه الأتان ، ونحوه عن الطريق ، وحميد واضع طرفه على معرفة الفرس ، والناس ينظرون إليه ، يعجبون منه ، وهو لا يلتفت تيهاً . فقال أبو العتاهية :

للموتِ أبناءٌ بهِمْ ما شئت من صَلَفٍ وتيه
وكأننى بالموت قد دارتْ رحاهُ على بنيه

وكأن أبا العتاهية يستحضر صورة الفناء والموت فى مواجهة هذا التيَّاه المتكبر لأنه صاحب جاه ، وكأنه ملك الدنيا ، فنسى الموْت ، ولو ذكره لتطامَن له وطأطأ .

وربما كان هذا الموقف من أبى العتاهية مدفوعاً إليه لما شاهده ويقع تحت عينيه فى مجتمع بغداد من هذا التفاوت الشديد بين الناس . من أغنياء قد أغرقوا فى مال . ودفعهم الثراء إلى التكبر والتجبر على غيرهم من عباد الله ممن لا يملكون قوت اليوم

ويقف أبو العتاهية مع هؤلاء المظلومين المكدودين ، مطمئناً ، مقنعاً مذكرا بأن هذه النعمة مهما [illegible] فهى إلى روال ، فلعلَّ هذا الصوت نفسه يبلغ المتباهى بماله وجاهه فيهدهد من تيهه وخيلائه . يقول :

هذا زمانٌ قد تعوَّدَ أهلُه تيهَ الملوكِ وفعل من يتصدَّقُ

ويقول :

الموتُ بين الخلق مشتركٌ لا سوقَةٌ يبْقَى ولا مَلِكُ
ما ضرَّ أصحاب القليل ومَا أغْنَى عن الأملاكِ ما ملكوا

(١) الحشُّ : الكنيف ومكانُ التغوط وقضاء الحاجة ، ومن معانى الحش الأرض الفضاء والبستان . وكان من عادة العرب التغوّط فى البساتين .!! ومجتمع النخيل .

ويعود مرةً أخرى ليذكر بأن التقوى هى الزاد الباق ، وأن الرجاء فى الله هو الأمل ، وذلك كله ضابط السُّلوك ومقوّم الإنسان فى الدنيا ليحيى مع سائر الخلق سالماً مطمئناً راضىَ النفس .

ومن معانى النُّسك والتُّقى عند أبى العتاهية الإحساسُ بالذنب ورجاء المغفرة. تجىء هذه المعانى متصلة فى أبيات ابتهالات قالها وقد أحس نذير الموت :

إلاهى لا تُعذِّبنى فإنِّى ... مُقِرٌّ بالذى قد كان مِنِّى
فما لى حيلةٌ إلاَّ رَجَائى ... لعفوك إن عفوتَ وحسنُ ظنِّى
وكم مِن زلةٍ لى فى الخطايا ... وأنتَ علىَّ ذو فضلٍ ومَنِّ
إذا فكّرتُ فى ندمى عليها ... عَضَضْتُ أناملى وقرعتُ سِنِّى
أجنُّ بزهرةِ الدُّنيا جنوناً ... وأقطعُ طولَ عمرى بالتَّمنِّى
ولو أنى صدقتُ الزُّهدَ عنها ... قَلَبْتُ لأهْلِها ظَهرَ المِجَنِّ
يظنُّ الناسُ بى خَيْراً وإنِّى ... لشَرُّ الخلق إنْ لمْ تعفُ عنِّى

وكثيرٌ من هذه المعانى فى الزهد والنُّسك ونبذ الدنيا مشترك بين أبى العتاهية وغيره من زهَّاد عصره كالوَّراق .

نقده المجتمع وأحوال الناس :

وأظهر ماركز عليه أبو العتاهية فى نقده أحوال الناس فى عصره التكالب على المال ، وطلب الغنى ، ولم يخل نفسه من ذلك فقد ظل زمناً طالباً للمال حريصاً عليه بخيلاً به . يقول :

من عاش عاين ما يسوءُ ... مِنَ الأمورِ ومـا يَسُرّ
ولـربَّ حتـفٍ فوقَـهُ ... ذَهبٌ وياقـوتٌ ودُرّ
فاقنـع بعـيشكَ يا فتـى ... واملك هواكَ وأنت حرّ

وينتقد من يتخذ لنفسه الحرَس ، والأنصار ، ويسعى فى طلب الرئاسة :

اللَّـهُ يحفـظُ لا الحِـراسَهْ ... ولرُبَّما تخطِى الفَـراسَهْ
طَلَبُ الرِّئاسةِ ما عِلِـمْتَ ... تفاقـمت فيـه النَّفـاسَهْ
والنَّاسُ يخبـطُ بَعْضُهُـمْ ... بعضًا على طلبِ الرِّئاسَهْ

ويقول فى جور بعض الناس وتنافسهم فى أمور الدنيا :

اشتدَّ بَغْىُ النَّاسِ فى الأرضِ ... وعلوّ بعضهم على بَعْضِ
دعْهُمْ وما اختاروا لأنْفُسِهِمْ ... فاللَّـهُ بيـنَ عِبـادِهِ يَقضِي

ويحث على مكارم الأخلاق ، كالوفاءَ وحفظ حق الصّديق ، وعدم الطمع ،والقناعة، والرضا بما قسم الله من الرزق ، وعدم ابتذال النفس التى كرّمها الله بالسؤال ، فالرزق من عند الله فليتوجه إليه الانسان دون أحدٍ من خلقه . ويقول :

خيرُ أيام الفتى يَومَ نَفعْ ... واصطناعُ الخير أبقى ما صنَعْ
ما يُنالُ الخيـرُ بالشرِّ ولا ... يَحصُد الزارِعُ إلاَّ ما زَرَعْ
خذ من الدنيا الذى درَّتْ به ... واسْلُ عما بان منها وانقطعْ
إنما الدنيـا متـاعٌ زائـلٌ ... فا قتصدْ فيه ، وخُذْ منه ودَعْ
وارْضَ للناس بما تَرضَى به ... واتبَعْ الحقَّ ، فنِعْمَ المُتَّبَعْ
وابغ مااسْطَعْتَ عن الناسِ الغنَى ... فمَن احتاجَ إلى الناسِ ضَرَعْ
قد بلونا النَّاسَ فى أخلاقِهِمْ ... فرأيناهُـمْ لِذِى المالِ تَبَعْ
وحَبِيبُ النَّاسِ من أطعَمَهُمْ ... إنَّما النَاسُ جميعاً بالطَّمَعْ
أحمد الله على تدبيـــرهِ ... قدَّر الرِّزقَ فأعطى ومَنعْ

ويكاد أن يكون شعر أبى العتاهية فى الزهد والوعظ والحكمة منظومة قرآنية إسلامية ، استوعب فيه معانى القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف ، وأقوال أئمة المسلمين وحكمائهم فضلاً عما حصله من معارف أشرنا إليها من محيط بلده الكوفة مما توارثه عن حكم القدماء وعقائدهم .

فنه الشـعرى :

يعد أبو العتاهية من المطبوعين الذين يجرى الشعر على لسانهم وينثال انثيالاً ، لا يتكلفه ، مثله فى ذلك مثل السيد الحميرى وبشار ، وشعراء الطبع فى عصره . حكى أنه قال : ما أردتُه قط إلا مثل لى فأقول ما أريد ، وأترك ما لا أريد[1] .

---

(١) الأغانى ٤ /١٦ .

روى أبو الفرج أن أطبع الناس بشار والسيد ، وأبو العتاهية[1] . قال : وما قدر أحد على جمع شعر هؤلاء الثلاثة لكثرته . وكان غزير البحر ، لطيف المعانى سهل الألفاظ كثير الافتنان ، قليل التكلف ، إلا أنه كثير السقط المرذول مع ذلك .

روى عن الأصمعى أنه وصف شعر أبى العتاهية بقوله : شعر أبى العتاهية كُساحَةُ الملوك ، يقع فيها الجوهر والذهب ، والتراب والخزف ، والنوى .

وكان أبو العتاهية لسهولة الشعر عليه كثيراً ما يرتجله ، فلا يتكلفه ولا يثقفه .ومن هنا جاء اختلاطه ، وجمعه بين الغث والثمين كما قال الأصمعى .

ولفظة سهلٌ مما يجرى على ألسنة الناس، وبخاصة فى موضوعات الزهد والمواعظ والحكمة، لأنه يوجهه إلى العامة ويخاطبهم به ولا يخاطب الخاصة ولا الملوك. وقد أشرنا فى عبارة سابقة إلى قوله فى هذا المعنى وتعمدهَ ذلك لأنه يعجب العوام والفقهاء والمحدثين .

واعتبره جماعة من شعراء عصره أشعر طبقته . فقد سئل سلم الخاسر راوية بشار وتلميذه عن أشعر الناس فقال : إن شئتَ أخبرتك بأشعر الإنس والجن ، فقال له سائله : إنما أسألك عن الإنس ، فإن زدتنى الجن من عندك فقد أحسنت ؟. فقال : أشعرهم الذى يقول :

سَكَنٌ يبقَى له سكَنُ ما بهذا يؤذِنَ الزَّمَنُ

والشعر لأبى العتاهية .

كذلك كان العتابى يعجب به ، ويقول إنه أشعر الناس ، ويفضله على أبى نواس[2] . وكذلك كان ابن الأعرابى يقول فيه وفى شعره[3] : والله ما رأيت

(1) الأغانى ٤ /٣ .
(2) الأغانى ٤ /٤٣ .
(3) الأغانى ٤ /٩٩ .

شاعراً قط أطبع ولا أقدر على بيت منه ، وما أحسب مذهبه إلا ضرباً من السحر .

واختلفت طريقته الفنية عن طريقة مسلم بن الوليد صاحب الصنعة والبديع . فقد روى أبو الفرج أن أبا العتاهية ومسلم بن الوليد الأنصارى اجتمعا فى بعض المجالس فجرى بينهما كلام ، فقال له مسلم : والله لو كنت أرضى أن أقول مثل قولك :

الحمـــدُ والنعـــمــةُ لَكْ والملكُ لا شــــريك لَكْ
لَبـــيكَ إنَّ الملْكَ لكْ

لقلتُ فى اليوم عشرة آلاف بيت ، ولكنى أقول :

مُوفٍ على مهجٍ ، فى يوم ذى رَهـجٍ كأنَّهُ أجلٌ ، يسْعَى إلى أمَلِ
يَنـالُ بالرِّفـقِ ما يَعْيَى الرجَـالُ به كالموْتِ مستعجلاً يأتى على مَهَلِ
يكْسُو السيوفَ نفـوسَ الناكثيـنَ به ويجعَلُ الهام تيجان القَنَا الذُّبُلِ
لله من هاشم فى أرضه جَبَلٌ وانت وابنكُ ركْنا ذلك الجبلِ

فقال أبو العتاهية : قل مثل قولى :

الحمـــدُ والنعمـــةُ لَكْ

أقل مثل قولك :

كأنه أجلٌ يســعى إلى أمَلِ

وقد زاره سلم الخاسر مرةً وسمع منه أبياتاً عقَّب عليها سَلْم بقوله :

لقد جودتها لو لم تكن ألفاظها سوقيةً . فقال : والله ما يُرغبنى فيها إلا الذى زهدك فيها .

والأبياتُ المذكورة فى الزهد . وتلك طريقته فيه ، ويختلف الأمر فى غيره من الأغراض كالمديح والغزل . فقد ينحو فى المديح نحو بعض الفحول المعاصرين من أمثال بشار وأبى نواس حيث يقول :

وهارون ماءُ المزنِ يُشْفَى به الصَّدى ... إذا ما الضَّدى بالرّيق غَصَّتْ حناجِرُهْ
وأوسط بيتٍ فى قريشٍ لبيتُه ... وأوَّلُ عزٍّ فى قريشٍ وآخِرُهْ
وزَحفٍ لَهُ تحكِي البُروقَ سُيُوفُه ... وتحكى الرُّعُودَ القاصفات حوافِرُهْ
إذا حميتْ شمسُ النَّهارِ تضاحكتْ ... إلى الشمسِ فيهِ بيضُه ومغافِرُهْ
إذا نكِبَ الإسلامُ يوماً بنكبةٍ ... فهارُون من بين البَرِيَّةِ ثائِرُهْ
ومن ذا يفوتُ الموتَ والموتُ مُدْرِكٌ ... كذا لم يَفُتْ هارونَ ضِدٌّ ينافِرُهْ

فأسلوبه هنا يميل إلى الجزالة واستدعاءِ قاموس المديح التقليدى ، وصدق ابن الأعرابى حين قال[1] : وشعره فى المديح ليس كشعره فى الزهد . وهذا هو الواضح . فالفرق بين اللونين بيِّنٌ لاختلاف الخطاب ، والمخاطب . فخطاب الزُّهد موجه إلى عامة الناس لا إلى خاصتهم ، ولكل مقام مقال .

ونلاحظ أن بعض نظمه فى الزهد والوعظ والحكم يوفر له الإيقاع المناسب للإنشاد ، وأظن بعض هذا الشعر كان ينشد ، انشاداً دينياً يعطف قلوب العوام إليه وإلى معانيه .

ومما صنع فيه إبراهيم الموصلى لحناً قوله :

شكوتُ إلى الغَوَانى ما أُلاقِي ... وقلْتُ لهنَّ ما يَوْمِى بعيدُ
فقُلْنَ بكيتَ قُلْتُ لَهُنَّ كلاَّ ... وقد يبكى من الشَّوْقِ الجليدُ
ولكنِّى أصابَ سوادَ عَيْنِى ... عُوَيْدُ قذىً له طرفٌ حَدِيدُ
لقُلْنَ فما لدمْعِهَما سَوَاءٌ ... أكِلْتا مقلتيك أصابَ عودُ

والشعر رقيق دقيقٌ فى معناه مؤثرٌ يخاطب العاطفة ، ويمسُّ الشغاف ،

---

(١) الأغانى ٤ /١٨ .

ويضرب على وترٍ خفيٍّ في النفس ، يبعثه مثل هذا الشجى الذى يستخرج الشجن .

وحرصُ أبى العتاهية على أن يوفر لشعره إيقاعاتٍ تَهزُّ الحليم جعله يجرّب هذا في المديح فيطرب الممدوح . قال في المهدى :

ألا ما لسيـــــدتى ما لها أدَلاًّ فأحمل إدْلالها

حتى يقول :

أتتـه الخلافـة منقـــادةً إليـه تجـــرِّرُ أذْيالهـــا
ولم تكُ تصلحُ إلا لهُ ولم يَكُ يَصْلُح إلاَّ لها
ولو رامها أحَدٌ غـيرهُ لزلزلت الأرض زلـــزالها

وقد سمع بشار هذا الشعر في مجلس الخليفة المهدى ومعه أشجع السلمى ، فقال له بشار وقد اهتز طربا : ويحك يا أخا سليم أترى الخليفة لم يطر عن فرشه طرباً لما يأتى به هذا الكوفى ؟!(١) .

ويروى أن الجاحظ سمع منشداً لشعر أبى العتاهية الذى يقول فيه :

يا للشبابِ المرِح التَّصَابى روائِحُ الجنَّةِ في الشَّبابِ

فقال الجاحظ للمنشد : قِفْ . ثم قال : انظروا إلى قوله :

رَوَائـــــحُ الجنَّـــــةِ في الشبـــــابِ

فإن له معنى كمعنى الطَّربْ الذى لا يقدر على معرفته إلا القلوب ، وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير . وخيرالمعانى ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه(٢) .

وقد أحس الجاحظ بهذا الاحساس المطرب لأن أبا العتاهية وفق إلى الجمع

---

(١) الأغانى ٤ /٣٨ .
(٢) الأغانى ٤ /٤٠ .

بين حلاوة اللّفظِ وجمال الإيقاع فى هذا الرجز الرقيق الذى حمله ما أراد من معانى الزهد وهو مشهور له يبدؤه بقوله :

حَسْبُكَ مما تبتغيه — القوتُ ما أكثر القُوتَ لمن يَمُوتُ

وكان العتاهى ولوعاً بالتجديد فى الأوزان يلتقطها مما يطرق أذنيه من إيقاعات فى الطريق أو السوق .

روى أن الرشيد كان يعجبه غناء الملاحين فى الزلالات التى يَرْكَبُها، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم فطَلب من أبى العتاهية أن يصنع له شعراً يردده الملاحون . فصنع له ما طلب فى معانى الزهد . فلما سمعه الرشيد بكى .

وقال ابن قتيبة[1] : وكان — أبو العتاهية — لسرعته وسهولة الشعر عليه ربما قال شعراً موزوناً يخرج به عن أعاريض الشعر ، وأوزان العرب .

وقعد يوماً عند قصارٍ ، فسمع صوت المدقة فحكى ذلك فى ألفاظ شعره وهو عدة أبياتٍ منها :

للمـنـــون دائـــــرا تٌ يدرن صـيـــرْفَهــا
هــــن ينتقيـنَـنَـــا واحـــداً ، فواحــــدا

وقال أيضاً :

عتــــب ما للخيـــال خـبرِّينـــى ومَـالِــى
لا أراه أتـــــانى زائـــراً مُذْ لـيَـــالى

وروى ابن المعتز[2] أن أبا العتاهية جلسَ يوماً إلى قصار فسمع صوتَ الكُدَينْ فقال باقتداره شعراً على إيقاعه ومنه هذا البيت :

المـنــــونُ مفنـيــاتٌ واحـــداً فواحــــدا

كأنه نظر إلى أنَّ القصَّار أخذ ثوباً بعد ثوب ، فشبهه بأخذ الموت إنساناً بعد إنسان ، وأخذ الوزن من وقع الكدين .

(١) الشعر والشعراء ٢ /
(٢) طبقات الشعراء ٢٢٩ .

محمود الورّاق (١٤٥ـــ٢٢١ هـ)

هو محمود بن حسن الوراق ، لم تزد المصادر فى نسبه على ذلك وهى شحيحة فى أخباره ، كما أن ديوانه لم يصلنا ، وإن قام على جمع شعره بعض الدارسين[١] .

وعرف الوراق بالبغدادى وبالكوفى ، ولعله نشأ بالكوفة ، ويؤيد ذلك اتجاهه الشعرى ، فالكوفة كما ذكرنا بيئة تشجع على هذا اللون الذى عرف به الورّاق ، وهو الزهد ، والحكمة ، والميل إلى التأمل والإستنباط .

واشتهر محمود بالورّاق ، وذلك لأنه كان ينسخ الكتب ، ذلك العمل الذى عرف بالوراقة ، وسمّى صاحبه بالورّاق ، ونعرف جماعة من أهل الأدب ممن عملوا بالوراقة ليتكسبوا من نسخ الكتب كأبى حيان التوحيدى .

وعرف كذلك بالنخّاس ، ويطلق على من يعمل ببيع الرقيق أو النخاسة . وذكرت مصادر ترجمته عمله بالنخاسة ، وأنه كان يبيع الجوارى والغلمان[٢] .

ورويت الأخبار اسم جاريتين من جواريه هما « سكن » و « نشوى » . فأما سكن فقد جاء فى طبقات ابن المعتز[٣] أنها كانت « من أحسن خلق الله وجها ، وأكثرهم أدبا ، وأطيبهم غناءً . وكانت تقول الشعر فتأتى بالمعانى الجياد ، والألفاظ الحسان » .

وكان الورّاق يؤثرها على بقية جواريه ، ويروى أنه ألمت به ضائقة فأراد بَيْعَها ، فبكت لفراقه ، فتأثر لها وعدل عن بيعها ، وآثر أن يُبقيها ، وأن يَصبِرَ على الفقر ، مادامت قد قَنعَتْ به ورضيت ، وشاء اللّٰه أن يعلم أحد الطّاهِرِيينَ بقصتهما ، وكان هو من أراد شراءها ، فوهب لهما المال الذى بذلهَ فيها ، وعاشا به فى أغبط عيش .

---

(١) جمع شعره من زمن غير بعيد سنة ١٩٩١ الدكتور وليد قصاب ، طبع عجمان بالإمارات العربية .

(٢) انظر الخطيب فى تاريخ بغداد ١٣ /٨٧ ، وسبط ابن الجوزى فى مرآة الزمان .

(٣) طبقات الشعراء المحدثين ٣٦٧ .

ويروى أن المعتصم اشترى إحدى جواريه ، وهى نشوى على قول ابن خلكان[1] .

وكان الورّاق يعنى بجواريه ، ويعلّمهن الغناء . ويهتم بروايتهن الشعر . ويبدو أنه كان يسمح لهن بمجالسة بعض أصدقائه وزواره ، وكُنَّ يشارِكْنَ فى القصف واللهو ، وله من الشعر فى ذلك قوله :

واجعل الأيام قسْماً	بين عَتْبٍ وعتابِ
ووصالٍ واهتجـارٍ	وبعـادٍ واقتـرابِ
واجتنابٍ فى دُنُوٍّ	ودُنُوٍّ فى اجتنابِ
ورسولٍ بكتـابٍ	وانتظـارٍ لجـوَابِ
وقنوعٍ من حَبيبٍ	بالمواعيد الكـذابِ
ليس من الحبِّ ولا الصَّبْـ	ـوةِ حظٌّ للصَّوابِ

ويبدو أنه أمضى معظم شبابه حتى تعدّى الأربعين فى هذه الحياة اللاهية ببغداد ، ثم عدلّ عنها بعد أنْ أحَسَّ بالعمرِ ينقضى ، وصورة الشباب ولذاته تؤذن بالزّوال . ويعبر عن ذلك فى أبيات له فيقول :

لمَّا طوَتْكَ الأربعـ	ـون ، وآنَ للعمر انقراضُ
جادَ الشبابُ بنَفْسِهِ	وبدا بِعَارِضِكَ البياضُ
فمتى أطفت بلـذةٍ	فلِعارضٍ فيها اعتراضُ
سقياً لأيـامٍ مضتْ	وكأنَّ أوجُهها الرِّياضُ
أيام يدعونا الهَوى	وتقودنا الحدق المراضُ

كان الورّاق إذا فى شبابه صاحب لهو وقصف وغزلٍ ، واستمتاع بملاذ الحياة ومباهجها وأتاحت له مهنته أن يعبّ من الحياة ما شاءَ ، وعلى ما رأينا فقد أنفق جانباً من حياته فى شعر يصف به تلك الحياة الصاخبة بين الغناء والنساء والشراب ، ولم يكن شعره فى الزهد ، أو لم يكن تزهده غالباً إلاّ بعد أن خمدت فيه جذوة الشباب ، وفارقته لذته ، فعكف مضطراً ، يرثيه ، وينعى الدنيا ، ويستدبر اللذات ، ويحض على الزّهادة ، لأن أداته ضعفت ، أو لعل نفسه امتلأت ودلعت ، لكثرة ما عبَّ حتى بشم ، وهكذا كان بعض أمثاله من

---

(١) وفيات الأعيان لأبن خلكان ، بتحقيق إحسان عباسى .

الشعراء ، منهم من لم يغادر لذاته إلا في ضعفه ، وقد عاين أمارات النهاية كأبي نواس ، ومنهم من أعطى ظهره للدنيا ، وأنسحب مستسلماً تحت ضغط والحاح من تجربة غيرت اتجاهه كأبي العتاهية .

وهكذا فعل الورّاق بعد الأربعين واحساسه بالسنوات تمضى بالعمر فورى نفسه وقد تعدى الأربعين ، ثم إذا هو في الستين فيقول :

أمن بعد ستِّينَ تبكى الطّلولاَ ... وتندبُ رسمًا ونُؤيًا مُحيلاَ
وقد نجمَ الشّيبُ فى عارِضَيْكَ ... وجَرَّ على مَفرِقيْكَ الذّيولاَ

وفي السبعين يقول :

متى السلامُ على الدنيا وبهجتِها ... فقد نعاها إلىَّ الشيبُ والكِبَرُ
لم يبق لى لذةٌ إلاَّ التعجُّبَ مِن ... صرفِ الزمانِ ، وما يأتى به القَدَرُ
أحْدَى وسبعونَ لو مرَّت على حجرٍ ... لكانَ من حكمِهِ أنْ يُفلَقَ الحجَرُ

ويقول وهو يقترب من التسعين :

وماصاحِبُ الثّمانينَ والعَشرِ بعدَها ... بأقربَ ممَّنْ حَنكَتْهُ القوابِلُ
ولكنَّ آمالاً يؤمِّلها الفتى ... وفيهنَّ للرَّاجين حقٌّ وباطِلُ

في هذه الرحلة التي انقضى فيها الشباب منذ تجاوز الأربعين وحتى آخر عمره بعد التسعين أحس الورّاق بثقل الحياة ، وتلفت وراءه واستعاد ذكرياته ، وانتبه أمامه فأحسَّ باقبال النهاية مسرعة إليه ، والموت ، وماذا بعد الموت حياةٌ ونشورٌ ، وحسابٌ وعقاب ، فماذا بقى من الأيام ؟.. وهل ما بقى يكفى للندم ، وهل الندم ينفع في طلب العفو والشفاعة من الرحيم الغفور ؟! . إن لسانه لينطق بقوله :

إنَّ ظنِّى بحسنِ عَفْوِكَ يارَبِّ ... جميلٌ ، وأنتَ مالكُ أمرِى
صنتُ سِرِّى مِنَ القَرابةِ والأهـ ... ـلِ جميعاً ، وأنت موضع سِرِّى
ثقةً بالذى لَديْكَ مِنَ السِّـ ... ـتْرِ ، فلا تُخْزِنِى به يَوْمَ نَشْرِى
يومَ هَتْكِ السُّتُورِ عن حُجُبِ الغيـ ... ـبِ ، فلا تهتكنَّ للناس سترِى
لَقِّنِى حُجَّتِى وإن لم يكن يا ... ربِّ لى حجةٌ ، ولا وَجْهُ عُذْرِ

ومع أنّ هذا اللون من الشعر الذى يصور الزهد والحكمة لم يصدر عنه في

ظننا إلا فى النصف الثانى من عمره المديد ، إلاّ أنه غلب عليه وعرف به ، وضمّ إلى غيره ممن غلبهم على أنفسهم هذا اللون أمثال أبى العتاهية وصالح بن عبد القدوس ، وسابق البربرى . قال ابن المعتز[1] : « شعر محمود كثير ، وأكثرهُ حكمٌ وأمثال ومواعظُ وأدب » . وذكر التيفاشى فى سرور النفس فقال[2] وذكر من الشعراء من انفرد بموضوع منه كأبى نواس فى الخمر ، وابن المعتز فى التشبيه ، والصنوبرى فى صفات الربيع ، ومحمود الورّاق فى الحكم » .

ويدور معظم ما وصل إلينا من شعره فى الزهد ، وذم الدنيا ، والموعظة بعدم الإغترار بها والتسليم لها ، لأن الدنيا زائلة فانية ، والموت خاتمة المطاف والحياة العابرة تمرمرّ الطيف أو الخيال ، وليست الدنيا دار إقامة ولا خلود . يقول :

ما أَفضَحَ الموتَ للدُّنيا وزينتها ... جدًا ، وما أفضَح الدُّنيا لأهْلِيهَا
لا ترْجِعَنَّ على الدنيا بلائِمةٍ ... فعذرُها لكَ بادٍ فى مَسَاويها
لم تُبقِ فى غيبها شيئاً لصَاحِبها ... إلاّ وقد بيَّنتهُ فى معَانيها
تُفنِى البنين ، وتفنِى الكُلّ دائبةً ... ونستنيم إليها لا نعاديها

ويلم كثيرا ببعض ألفاظ القرآن والأثر التى تصور هذه الحال ، والحياة الدنيا،كقوله بأن الدنيا أنفاسٌ تعدُّ على صاحبها :

حياتُك أنفاسٌ تعدُّ وكلّما ... مَضَى نفسٌ منها انتقصتْ به جزءَا

وأن الدنيا ليست بدار قرار ، وما الأولاد والأهلون والأموال إلا ودائع وعوار :

فمَا هذى الحياةُ لنا بأهلٍ ... ولا دارُ الحياة لنا بدَارِ
ومـا أولادُنا والأهـلُ فيها ... ولا أموالنـــا إلاّ عوارِ
وأنفسنا إلى أجـل قريب ... سيأخذها المعيرِ من المعَارِ

ومادام الأمر كذلك فإنّه يعظُ الناس بعدم الإلتفاتِ إليها ولا التكالب على زينتها ولذاتها :

مُكرمُ الدنيا مهانٌ ... مستذلٌ فى القيامَهْ
والذى هانت عليه ... فلـه ثمّ كرامَـهْ

وتدور حكمه ، أو تُستنْبطُ من هذه الدائرةِ من المعانى الإنصرافية .

(١) طبقات المحدثين ص

(٢) سرور النفس ص

فيقول :

هيَ الدنيا فلا يَغْرُرْكَ منها ... مَخَايِلُ تستفِزُّ ذوى العقولِ
أقلُّ قليلها يكفيك منها ... ولكنْ لستَ تَقْنَعُ بالقَلِيلِ
تشيدُ وتَبتَنِى فى كلِّ يومٍ ... وأنتَ علَى التَّجهُّزِ للرَّحِيلِ
ومَنْ هذا على الأيام يُبقَى ... مضارِبُه بمدرجَةِ السُّيُولِ

ويرى الفضائل المعنوية هى الأبقى ، وما عداها من الماديَّات زَائِلٌ ، وأول فضائل الإنسان العقل ، والدنيا من طبيعتها لا تكرم أصحاب العقول ، فلا يلقى هؤلاء منها نصيباً كالذى يلقاه غيرهم :

ولم أرَ من عُدْمٍ أضرَّ علَى الفَتى ... إذا عاشَ بين النَّاسِ من عدمِ العَقْلِ

ومن الفضائل المعنوية الصدق :

الصِّدقُ حلوٌ وهو المرُّ ... والصِّدقُ لا يتركه الحرُّ
جوهرةُ الصدقِ لها جوهرٌ ... يحسُدُها الياقوتُ والدُّرُّ

ومن الفضائل الحلم ، والصَّبرُ على الإساءة والظلم والعَفْوُ والمغفرة :

إنِّى شكوتُ لظالمى ظلمِى ... وغفرتُ ذاكَ لهُ على عِلْمِ
ورأيتُهُ أسدَى إلىَّ يداً ... لمَّا أبانَ بجهله حِلْمِى
ماذاك يظلمنى وأرحمه ... حتى بكيتُ له من الظُّلمِ

أو قوله :

سألزمُ نفسى الصَّفحَ عن كلِّ مذنبٍ ... وإن كثُرتْ منه علىَّ الجرائمُ

وهو هنا يُترجمُ عن المعانى الرفيعة فى الإسلام التى أشاد بها الكتاب الكريم وقرر أنها من صفات المؤمنين والمختارين من عباد الله القانتين : « وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » .

لقد تمثل الورَّاق معانى الإسلام فى جوهره ، ونظمها فى شعره على صورة تزهُّد ومواعظ ، وحكم ، فى أسلوب قريب سهلٍ ممتنع ، لا تعقيد فيه ، ولا معاظلة فى التراكيب ولا الألفاظ ، ولا المعانى . ولعله قصد بهذا أن تسير بين الناس وأن يفهموها ، ويعملوا بها .

ويشاركه فى هذه الظاهرة الفنية من وافقوا مذهبه كأبى العتاهية وسابق البربرى .

الفصل الخامس
شعر الفكر والعلم
ومن الشعراء العلماء

— ١ —

العتابي
كلثوم بن عمرو
الشاعر العالم الخطيب المتكلم

شاعر من شعراء الدولة العباسية الكبار وعالم كاتب خطيب من أدبائها المرموقين ، كانت حياته حافلة ، وله آثار باقية فى كثير من الكتب بين أخبار وآراء حكيمة عليمة ، ونوادر تدل على خبرة بالحياة والناس ، وفكر متفتح غنى ، ونشاط متعدد تردد بين العراق والشام متنقلا فى البلاد وبين الأمصار الكبرى قنسرين والرى والبصرة وبغداد وغيرها .

والعتابى شاعر عربى خالص العروبة ينتسب إلى عمرو بن كلثوم جده الأعلى وهو تغلبى من أبناء الجزيرة الفراتية ، وكانت لتغلب كثير من البطون تسكنها . ويبدو أن حياته الأولى كانت بدوية الطابع ولذلك تركت آثارها على حياته ، وبعض تصرفاته مما كان مدعاة الى السخرية والتفكه أحيانا .

روى أنه ولد بقنسرين بالشام ، وسكن الرقة من ديار مصر[1] .

ومهما يكن من أمر فى حياته ، فثقافته الأولى ومعرفتنا بها قليلة ، بل نادرة ، لقلة اهتمام المصادر بها ، فاننا نعلم أنه كان طلعة منذ شبابه الأول وأنه رحل عن بلده قاصدا بغداد أو البصرة ليلقى أدباءها وشعراءها الكبار . ويبدو أنه أعجب ببشار وشعره ، وكانت شهرته قد طبقت الآفاق كما قال عن نفسه : فدفعه هذا الإعجاب الى أن يشد الرحال الى البصرة . ويذكر أبو الفرج أن العتابى جاء وهو حدث الى بشار فأنشده :

أيصدُفُ عن أمامة أم يقيم ... وعهدك بالصبا عهد قديمُ
أقول لمستقاد القلب عفى ... على عزماته السير العديم
أما يكفيك أن دموع عينى ... شآبيبٌ تُفِيضُ بها الهموم
أشيم فلا أرد الطرف إلا ... على ارجائه ماء سَجُومُ

(١) مروج الذهب ٤ /١٧ .

قال فمد بشار يده اليه ثم قال له : أنتِ بصير ؟ قال : نعم . قال : عجب لبصير ابن زانية أن يقول هذا الشعر . فخجل العتابى وقام عنه ، وما زال يروض الشعر ، حتى اشتد عوده فيه ، وطرق به أبواب الأعيان وكبار الرجال فأجازوه ، وتقدم إلى بلاط الخلفاء ، فصار شاعرا يتردد على مجالس هارون الرشيد ويمدحه بالشعر الجيد ، كما طرق باب المأمون وكان رجلا كهلا . وأجازه المأمون وأكرمه .

وقيل إنه اتهم فى عهد الرشيد بالزندقة والرفض فطلبه الرشيد فهرب إلى اليمن . ولكنه حظى عند المأمون .

ويبدو أن العتابى كان قصير القامة من قوله فى بعض شعره :

نهى ظِرافَ الغوانى عن مواصلتى ... مايفجأ العين من شيبى ومن قصرى

وقضى حياته زاهدا يلبس خشن الثياب حتى عيب عليه ذاك ، وسخر منه أصدقاؤه ورفقاؤه لتعمده الخشونة فى الملبس ، وعدم رعاية الهندام فى المظهر . روى الحصرى أن يحيى بن خالد البرمكي عابه على لباسه ، وكان لا يبالى أى ثوبيه ابتذل ،فقال: أبعد الله رجلا مهمه أن يكون جماله فى لباسه وعطره ، إنما ذلك حظ النساء وأهل الأهواء حتى يرفعه أكبراه : همته ولبه ، ويعلو به معظماه لسانه وقلبه .

ويروى أبو الفرج أن صديقه وتلميذه منصورا النمرى اتخذ من ابتذاله فى لباسه مادة يمزح معه وليغرى الرشيد به .

ولم يتزوج فقيل له : لو تزوجت ؟ فقال : إنى وجدت مكابدة العفة خيرا من الاحتيال لمصلحة العيال .

ويبدو أنه كان قليل الإقبال على المدح واتخاذه وسيلة للتكسب اللهم الا اذا اضطره العيش كى يقصد الأعيان وكبار الرجال . ومما يرويه الحصرى فى زهر الآداب أنه قيل له : أمدحت أحدا ؟ قال : لا ، وليس لى على ذلك قدرة فقيل له : فقد مدحت الربيع ،فقال: ذلك ليوم يستحق فيه المدح فقلت :

ومعضلة قام الربيع ازاءها ... ليعمد ركن الدين لما تهدما
بمكة والمنصور رهن كما اتى ... اخا الوحى داعى ربه فتقدما
غداة عداة الدين شاحذة المدى ... اليه وغول الحرب فاغرة فما

وله مع ذلك شعر يسأل فيه العطاء ، ولكنه يعزو ذلك الى الفقر ، و
يهدم المكارم والآلاء :

انى امرؤ هدم الاقتار مأثرتى	واجتاح ما بنت الأيام من خطرى
انا ابن عمرو بن كلثوم يسوده	حيا ربيعة والاحياء من مضر
أرومة عطلتنى من مهارمها	كالقوس عطلها الرامى من الوتر

وتذكر من ممدوحيه المشهورين ، عبد الله بن هشام بن عمرو التغلبى من أمراء قبيلته ، وقد ذكره كثيرا فى شعره ورسائله كما يقول أبو الفرج ، وكان ابن هشام هذا جوادا سمحا وولى السند[1] .

واتصل بالربيع كما فى الخبر السابق ، وبالبرامكة ، وكان له معهم شأن منقطعا إليهم ، وقد وصفوه للرشيد ووصلوه به . ذكر ابن المعتز انه كان ممن يختص به بجعفر بن يحيى البرمكى ويقربه ويباشره[2] .

وذكر ابن هفان ان الرشيد لقيه بعد قتل جعفر بن يحيى وزوال نعمته فقال ما أحدثت ياعتابى ؟ فأنشده ارتجالا :

تلوم على ترك الغنى باهلية	طوى الدهر عنها كل طرف وتالد
رأت حولها النسوان يرفلن فى الكسا	منظمة أجيادُها بالقلائد
أسرك انى نلت ما نال جعفر	من الملك أو ما نال يحيى بن خالد
وأن أمير المؤمنين أغصَّنى	بغصِّهما بالمرهفات البوارد
ذرينى تجئنى ميتتى مطمئنة	ولم اتجشم هول تلك الموارد

وكان لجعفر عليه أياد بيضاء ، فقد ذكر أبو الفرج أنه كان بلغ الرشيد عنه ما أهدر به دمه فخلصه جعفر فقال فيه :

ما زلت فى غمرات الموت مُطَّرحًا	يضيق عنى فسيح الرأى من جيلى
فلم تزل دائبا تسعى بلطفك لى	حتى اختلست حياتى من يدى أجَلى

كذلك روى أنه جاء يحيى بن خالد فكلمه فى حاجة له كلمات قليلة فقال له يحيى : لقد ندر كلامك اليوم وقل ، فقال له : وكيف لا يقل ، وقد

(١) الأغانى طبع دار الكتب ١١ /١٨٨ .
(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٤٣ .

تكنفنى ذل المسألة وحيرة الطلب وخوف الرد . فقال له يحب : لئن قل كلامك لقد كثرت فوائده .

ولكن صاحب زهر الآداب[1] ذكر أن صلته بهم قد اعترتها فترة ، وأورد الحصرى بيتين يدلان على ذلك وهما قوله :

إنّ البَرامِكَ لا تَنْفَكُّ أَنْجِيَةٌ   بصفحةِ الدِّين من نجواهُم نُدبُ
تصرَّمتْ حِجَجٌ منهم ومُنصلُهُمْ   مُضرَّجٌ بدمِ الإسلامِ مُختضبُ

ولا تدرى مدى صحة نسبة هذين البيتين إليه ، وإن كانت الأخبار تفيد بوفائه لهم بعد نكبتهم حتى إن الرشيد أراد أن يختبره فى الخبر السابق فوجده على عهده .

واتصل بهارون الرشيد ، ومهد البرامكة لهذه الصلة ، فبلغ عنده كل مبلغ وقد حدثت بينه وبين الرشيد أحداث . حتى قيل أنه أهدر دمه ، فاستنجد بيحيى بن خالد فعفا عنه الرشيد . وقال ابن المعتز أنه تمكن من الرشيد بعلمه وغزارة أدبه فأنه كان بحرا لا ينزف .

وله فيه كثير من قصائد المديح ، ولعل أشهرها الرائية التى يختار ابن المعتز منها أبياتا ، وهى التى يقول فيها :

يا ليلةً لِى فى حَوْرَان ساهرةً   حتى تكلّم فى الصُّبحِ العصَافيرُ

وفيها يقول : -

ماذا عسَى قائلٌ يثنى عليكَ وقد   ناداكَ فى الوحْيِ تقديسٌ وتطهيرُ
فُتَّ المدائحَ إلا أنّ ألسُنَنا   مستنطَقاتٌ بما تُخفى الضمائرُ

ويقول فيه[2] :

إمامٌ له كفٌّ يضمُّ بنانُها   عصًا الدِّين ممنوعٌ من البرْيِ عودُها
وعينٌ محيطٌ بالبريَّة طرفُها   سواءٌ عليه قربُها وبعيدُها
وارجع يقظانٌ يبيتُ مناجيا   له فى الحشا مستودعاتٌ يكيدُها
وسمعٌ إذا ناداه من قَعْرِ كُرْبةٍ   منادٍ كفته دعوةٌ لا يُعيدُها

(١) زهر الآداب ٦٢١ .
(٢) زهر الآداب : ص ٦٤٩ ، ومروج الذهب للمسعودى ٣ /٤٣٤ .

وقال فيه :

رعَى أمةَ الإسلامِ فهوَ إمامُها ... وأدّى إليها الحقَّ فهوَ أمينُهَا
مُقيمٌ بمُستنٍّ الفلا حيث تلتقى ... طوارقُ أبكارِ الخُطوبِ وعونُها

وقد كان منصور النمرى فيما يبدو سببا فيما حدث بينه وبين الرشيد من جفوة. ويروى أبو أبو الفرج قصة دخوله على الرشيد واستهزائه به ، كما يروى الحصرى قصة أخرى جرت بينه وبين منصور النمرى عرض فيها بالرشيد ، وربما كانت هى السبب فى تعقبه إياه واهدار دمه .

فيروى أن النمرى مر بالعتابى وكان مغموما فقال له العتابى : مالك أعزك الله ؟ فقال امرأتى بطلق منذ ثلاث ونحن على يأس منها . فقال له العتابى : وإن دواءها منك أقرب من وجهها ، قل هارون الرشيد فإن الولَد يخرُج !!، فقال : شكوت اليك ما بى فأجبتنى بهذا ؟ فقال : ما أخذت هذا إلا من قولك :

أن أخلَفَ الغيثُ لم تُخْلِفْ أنامِلُهُ ... أو ضاقَ أمرٌ ذكرْناهُ فيتّسِعُ

ويذكر الحصرى غضبة الرشيد عليه فيقول : « وكان منصور النمرى سعى به الى الرشيد فخافه ، فهرب الى بلد الروم ، وله قصائد فيها جيدة مختارة ، وهو يشبه فى حسن الاعتذار بالنابغة الذبيانى ، ومن جيد اعتذاره :

جعلتُ رجاءَ العفوِ عُذْرًا وشبته ... بهيبةِ أمّا غافرٍ أو مُعَاقِبِ
وكنت إذا ما خفتُ حادثَ نَبْوةٍ ... جعلتك حِصْنًا من حذارِ النوائِبِ
فانزلَ فى هِجرانُك اليأسَ بعدمَا ... حَللْتُ بوادٍ منك رَحْبِ المشارِبِ
أظلَّ ومرعاىَ الجديبُ مكانه ... وأوى إلى حافاتِ أكدرَ ناضِبِ
ولم يثن عن نفسى الردى غير أنها ... تنوء بباق من رَجائِكَ ثائِبِ
النفس محبوسٌ عليك رجَاؤهـا ... مقيدةَ الآمالِ دون المطالبِ
وتحت ثِيابِ الصبر من أن لوعة ... يَظَلّ بُمسِىِ مُستَلِينَ الجوانبِ
فتى ظفرت منه الليالى بزلةٍ ... فاقلعن عنه داميِاقِهِ المخالِبِ
حنانك إنِّى لم أكن بعت عِزّةً ... بذل واحرزتُ المنىَ بالمواهِبِ
فقد سمتنى الهِجْرانَ حتى اذقتنى ... عقوبةَ زَلّاتِى وسوءَ مَنَاقِبِى

---

(١) زهر الآداب ٦٤٩ .

فما أنا مقْصِيٌّ عَنْ رضاكَ وقابضٌ على حدِّ مصقُولِ الذّبابيْنِ قَاضِبِ
ومِنتَزِعٌ عما كرِهتُ وجَاعِلٌ هواكَ مِثالاً بين عَيْنِي وحاجِبِي

وفيها ما نرى من الندم على ما قدّم ، أو بدر منه من خطأ فى حقه أو مساس من بعيد أو قريب بمقامه ، وأظهار لمدى ما مسه لهذا الخطأ من الهجران والبعد عن جنابه ، وقد كان يجد فيه كل اطمئنان وهناء . فهو اليوم من خوف البطش والهلكة فى أنحائها . يَشعُر وكأن الليالى تطارده فى صورة وحش كاسر تعود الفتك بالفرائس .

ويعود فى آخر القول للتوبة معاهدا النفس على أن ينزع عن كل ما يكره ويجعل ذلك نصب عينيه . ويظل العتابى فى تودده واعتذاره. ولعله لم يجد من الرشيد استجابة أول الأمر ، ولما ضاقت به الحيل رأى أن يقدم على أن يقف بين يدى الرشيد بنفسه ويتوسل للعفو عنه ، وعلى ما فى هذا من الإقدام والمخاطرة إلا أنه آثر أن يفعله . وتحايل للدخول على الرشيد ، فيقال أنه دخل عليه سرا مع المتظلمين بغير إذن ، فمثل بين يدى الرشيد وقال له : يا أمير المؤمنين قد أذلنى الناس لك ولنفسى فيك ، وردنى ابتلاؤهم الى شكرك ، وما مع تذكرك قناعة بغيرك ، ولنعم الصائن لنفسى كنت ، لو أعاننى عليك الصبر . وفى ذلك أقول :

أَخْضِي المقامَ الغمرَ إن كان غرنى سَنا خُلّبٍ أو زلّتْ القدَمانِ
أتتركُنِي جدبَ المعِيشةِ مُقْتِرًا وكفّاكَ من النّدى تلِفانِ
وتجعلُنِي سهمَ المطَامِعِ مُعدَمًا بَلِلتُ يَمِينِي بالنّدى ولِسَانِي

فأعجب الرشيد قوله ، وخَلَعَ عليه الخلع ، وقد أمر له بجائزة ، قال الراوى : « فما رأيت العتابى قط أبسط منه يومئذ »[1] .

واتصل حبل ما انقطع ، وعاود التردد على مجالسه ، وعاود الرشيد سماع علمه ومأثور حكمه وأقواله عما خبر وجرب من أمور الحياة ، وما قرأ ومارس من ضروب المعرفة .

وذكر الحصرى أنه دخل على الرشيد فقال له : تكلم ياعتابى ، فقال :

(١) الاغانى ١٢ /١٢٣ .

الايناس قبل الابساس ، لا يمدح المرء بأول صوابه ، ولا يذم بأول خطئه ، لأنه بين كلام زوره ، أوعى حصره .

وبعد موت الرشيد اتصل حبله بالمأمون ، ولم يذكر فى أخباره اتصاله بالأمين ولا يعرف موقفه من النزاع بين الاثنين أثناءه . لكنه فيما يبدو قد ساءه قتل المأمون لاخيه ، وإن كان قد التقى به أثناء خلافة أخيه ، ووجوده بخراسان .

وذكر الحصرى أنه عاتب المأمون بعد أن لها عنه ولم يأذن له ، وكان قد سأله زيارته إن صار له من الأمر شيء بهذه الابيات التى يعرض فيها بقتل أخيه وغدره به أو نكثه لما عقد الرشيد . قال :

ما على ذلك افترقنا بسندا	نَ ولا هكذا عهدنا الإخاءَ
لم أكن أحسبُ الخلافةَ يزدا	دُ بها ذو الصفاء إلا صفاءَ
تضربُ النّاس بالمثقّفةِ السُّـ	ـمرِ على غدرهم وتنسى الوفاءَ

فلما قرأ المأمون هذه الأبيات أمر أن يدخل عليه ، فلمّا سلم قال : ياعتابى بلغنى وفادتك فسرتنى ، وقد كانت بلغنى وفاتك فساءتنى ، وإنى لحرى بالغم لبعدك والسرور بقربك ، فقال : يا أمير المؤمنين : لو قسم هذا الكلام على أهل الأرض لوسعهم عدلا وأعجزهم شكرا ، وإن لرضاك غاية المنى ، لأنه لا دين إلا بك ولا دنيا إلا معك ..

وقال : « وقفت مرة بباب المأمون انتظر من يستأذن لى عليه فاذا أنا بيحى بن أكثم ، فقلت استأذن لى على أمير المؤمنين . قال لست بحاجب . قلت : صدقت ولكنك ذو فضل ، وذو الفضل معوان . قال : سلكت بى غير سبيلى . قلت : ان الله قد أتحفك بجاه وهو عليك مقبل بالزيادة إن شكرت ، وبالتقصير إن كفرت . وأنا لنفسك خير منك لها . أدعوك الى زيادة النعمة وبقائها عليك فتأباها .

فدخل على المأمون وحكى له ما جرى بينى وبينه فاستحسنه وأذن لى » .

وقيل إنه بلغ به من التقديم والاكرام أعلا محل .

واتصلت أسبابه بالمأمون وكانت تدور بينهما مساجلات كلامية ، يدلى فيها

كل بقدرته البيانية وخبرته ومدى علمه ، وكان العتابى قد اكتهل ، واتصل برجال دولته الكبار أمثال طاهر بن الحسين ، وعبد الله بن طاهر .

وقد علا قدره ، واعتزل الحياة فى بغداد فيما يبدو بعد أن هرم ، وقعدت به السن عن السعى ، فالتزم منزله بالرقة .

قال الحصرى واجتاز عبد الله بن طاهر بالرقة بمنزل العتابى فقال : « أليس هذا منزل كلثوم بن عمرو قيل : نعم ، فثنى رحله ، ودخل عليه ، فألفاهُ جالسا فى بيت كتبه ، فحادثه ، وذاكره ثم انصرف . فتحدث الناس فى ذلك وقالوا : إن الأمير لم يقصِدْهُ ، وإنما أجتاز به فأضطر إلى تلك الزيارة . فكتب إليه :

يا من أفادَتْنِى زيارتُه	بعد الخُمولِ نباهَةَ الذِّكْرِ
قالُوا الزِّيارةُ خطرة خَطَرتْ	ومجَازُ خطرك ليسَ بالخَطَرِ
فادْفعْ مقالَتهُمْ بثالثــةٍ	تستنفدُ المجهودَ من شُكْرِى
لا تجعلَنَّ الوِتْـرَ واحـدةً	إنّ الثّلاثَ تتمةُ الوِتْـرِ

فبعثه الأبياتُ إلى أنْ زارَهُ ثلاثا

صلاته بشعراء عصره :

وكان للعتابى صلاته المتعددة بكبار شعراء عصره ، ومنهم بشار بن برد الذى تأثر به فى اتجاهه الفنى ، وأبو نواس ، ومنصور النمرى ، والعباس بن الأحنف .

وتروى كتب الأدب بعض ما دار بينه وبينهم من مطارحات شعرية أو مناظرات ومحاورات . ومما يروى من ذلك قولهم أنه لقى أبا نواس مرة فقال له : أما تستحى من الله بقولك :

وأخفت أهل الشرك حتى أنه	لتخافك النطف التى لم تخلق

فقال له أبو نواس : وأنت أيضا أما استحيت من الله بقولك :

مازلت فى غمرات الموت مُطَّرَحًا	يضيق عنى وسيع الرأى من حِيَلِى
فلم تزل دائبا تسعى بلطفك لى	حتى اختلست حياتى من يدى أجلى

فقال العتابى : قد علم الله وعلمت أن هذا ليس مثل قولك ، ولكنك أعددت لكل سؤال جوابا[1] .

وكان الرشيد أمر بحبس أبى نواس حتى يدع الخمر فقال فى الحبس :

قل للخليفـــة إنَّنِـي حتى أراك بكل رأسِكْ
من ذا يكون أبا نوا سك إنْ حبست أبا نواسك
إن أنـــت لم ترفع به رأسا هديت فنصف رأسك

فقال العتابى : ما أحسن نصف رأس الخليفة يرفع ! فقال له : « جعلنى الله فداءك يا أبا عمرو لا تنبههم لهذا فتهلكنى »[2] .

ومر العتابى بأبى نواس وهو ينشد :

ذكر الكَرْخَ نازحُ الأوطانِ فبكى صبوةً ولاتَ أوَانِ

فلما رآه قام اليه ، وسأله الجلوس ، فأبى وقال : أين أنا منك ، وأنت القائل وقد أنصفك الزمان :

قدعلقنـامن الخصيب حبـالا وأمِنَّا طوارق الحدثان

وأنا القائل وقد جار على وأساء إلىّ :

لفظتنى البلاد وانطوت الأخْـا ءُ دونى وملنى جيرانى
والتفت حلقة على من الدهـ ـر فجاءَتْ بكلكلٍ وجِران
نازعتنى أحداثها مُنْية النفـ ـس وهدَّت أحداثها أركانى
خاشِعٌ للهمومِ مفترِقُ القلْـ ـبِ كئيبٌ لنائباتِ الزَّمانِ

وقد توفى أبو نواس قبله ، وعاش بعده العتابى حتى هَرِمَ .

وكان ممن عاشره من الشعراء منصور النمرى ، وهو شاعر مشهور من شعراء العباسيين ، من الجزيرة الفراتية ، التقى بالعتابى فلازمه وتتلمذ عليه وكان راويته . وذكر أبو الفرج أنه أخذ عليه وبمذهبه تشبه فى الشعر .

---

(١) خزائن الأدب ، ص ٢٣٠ .
(٢) الموشح ٢٧٨ .

وقد فسدت الحال بينهما وتباعدت لأمور لا تعرف تفصيلها ولكن نقف على آثارها بعضها من نقد شعره. من ذلك ما يرويه الزجاجي في مجالس العلماء قال : قال أحمد بن الحارث الخزاز : أنشد العتابي كلثوم بن عمرو :

يا ليلةً لي في حوْرانَ سافِرةً　　　حتى تكلّم في الصُّبحِ العَصافيرُ

فقال له منصور النمري : العصافير تتكلم ؟ فقال العتابي : نعم تتكلم وتنطق ، ويقال ذلك لما أعرب عن نفسه بحال تُرى فيه فيقال : أخبرت الدار بكذا ، وتكلمت بكذا فكيف ما له نطق ، أما سمعت قول كثير :

سوى ذكرةٍ منها إذا الرَّكْبُ عرَّسُوا　　　وهبَّتْ عصافيرُ الصَّريمِ النَّواطِقُ

وقول الكميت :

كالناطقـــات الصادقـــا　　　ت الواسقات من الذّخائِرْ

قال فسكت منصورُ منقطعا[1] .

وسعى منصور النمري بالعتابي الى الرشيد ، فغضب عليه وأحل دمه ، وطلبه فستره جعفر بن يحيى . ومازال يتحايل للرشيد حتى استل ما في نفسه وأمنه وعاد اليه[2] .

وروى أبو الفرج أن منصورا النمري شكا العتابي الى طاهر بن الحسين فوجه طاهر الى العتابي فأحضره ، وأبقى منصورا في بيت قريب منهما ، وسأل طاهر العتابي أن يصالحه ، فشكا سوء فعله به ، فسأله أن يصفح عنه فقال لا يستحق ذلك . فأمر المنصور بالخروج فخرج وقال للعتابي لم لا أستحق هذا منك . فأنشأ العتابي يقول :

أصحبتُكَ الفضلَ إذْ لا أنتَ تعرفه　　　حقًا ، ولَا لَكَ في استِصْحَابه أرَبُ
لم ترتبطْكَ على وصلي محافَظةٌ　　　ولا أعاذك مما اغتالكَ الأدبُ
ما من جميلٍ ولا عرفٍ نطقتَ بهِ　　　إلا إليَّ وإن انكرتَ ينتسِبُ

قال فأصلح بينهما طاهر[3] :

---

(1) مجالس العلماء للزجاجي ٢٣ .
(2) الأغاني ١٣ /١١٩ .
(3) الأغاني ١٣ /١١٨ .

بلاغته وأدبه :

واجتمع للعتابى الثقافة والإطلاع فى الكتب ، ويبدو مما وصلنا من أخباره أنه كان طُلَعَةً محبا للكتب والدفاتر ، فقد مر عليه بعض جيرانه ذات يوم وهو ينظر فى كتاب فقال : ايش ينفع العلم والادب من لا مال له ؟ فأنشد العتابى يقول :

يا قاتل الله أقواما اذا ثقفوا	ذا اللب ينظر فى الآداب والحكم
قالوا وليس بهم إلا نفاسته	انافع ذا من الأقتار والعدم
وليس يدرون أن الحظ ما حرموا	لحاهم الله من علم ومن فهم[1]

كذلك يروى أنه كان له بمنزلهِ بالرَّقة « بيت كتب » أجتاز به مرة عبد الله بن طاهر فوجده جالسا فيه[2] .

وكان كاتبا عالما بطُرقِ الكتابة والاقلام وما اليها حتى أن الأصمعى سأله مرة فقال له : أى الأنابيب أصلح للكتابة ؟ وعليها أصبر فقال . ما تشفى بالهجير ماؤهُ ، وستره عن تلويحة غشاؤه ، من البرية القشور الدرية الظهور . القَصيبَّة الكسور . قال : فأى نوع من البرى أكتبُ وأصوب ؟ . قال له : البرية المستوية القط .. الخ[3] .

وتروى فى بلاغته وقوة بديهته ، وقدرته على الترسل والنظم أخبار كثيرة متعددة . فالجاحظ يقول : « ومن الخطباء الشعراء من كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمرو العتابى ، وكنيتُه أبو عمرو ، وعلى ألفاظه وحُروفِه ومثاله فى البديع يقول جميع من يتكلم مثل ذلك من شعراء المولدين كنحو منصور النمرى ومسلم بن الوليد الأنصارى وأشباههما[4] .

وقال الجاحظ : « وكان العتابى يحتذى حذو بشار فى البديع ، ولم يكن فى المولدين أصوب بديعا من بشار وابن هَرمة والعتابى » .

---

(١) الأغانى ١٣ /١١٨ .
(٢) زهر الآداب ٦٢١ .
(٣) زهر الآداب ٦١٩ .
(٤) البيان والتبين طبع هارون ١ /٥٠ .

وقال الجاحظ : « والبديع مقصور على العرب ، ومن أجلهم فاقت لغتهم كل لغة وأربت على كل لسان . والراعى كثير البديع فى شعره ، وبشار حسن البديع ، والعتابى يذهب شعره فى البديع »[1] .

كذلك ذكره ابن المعتز فى طبقاته وقال : « وكان العتابى مطبوعاً على الشعر ، عذب الكلام كاتبا جيد الرسائل حاذقا . وقلما يجتمع هذا لأحد[2] .

وقال ابن المعتز : « ما سمعت كلاما قط لاحد من المتكلمين أحسن من كلام العتابى وما رأيت كاتبا يُعانِى الشعر مع الكتابة إلا وجدته ضعيف الشعر غيره ، فإنه كان فحل الشعر . جيد الكلام »[3] .

وقال فيه أبو الفرج : « شاعر مترسل بليغ مطبوع ، منصرف فى فنون الشعر ومقدم من شعراء الدولة العباسية »[4] .

وقال عنه الحصرى فى زهر الآداب : « وكان صاحب بديهة فى المنظوم والمنثور ، حسن العقل والتميز ، والعرب تقول : من تمنى رجلا حسن العقل ، حسن البيان ، حسن العلم تمنى شيئا عسيرا . وقد أُتيحَ ذلك كله للعتابى »[5] .

ومما يروى من كلامه المنثور ، مقتطفات متفرقة يدور معظمها حول تجارب الدهر والحياة ، مسوقة فى قالب حكمة ، فى أسلوب موجز ، فيه كثير من القدرة البلاغية والإلمام بمواطن الكلام حتى انه قد يعمق أو يَغْمضُ أحيانا على السامعين .

فمن ذلك قوله : « حظ الطالبين من الدرك يُوجِبُ ما استصحبُوا من الصبر » .

وكتب يقول : « أما بعد فانه ليس بمستخلص غضارة عيش إلا من خلال مَكْروهِه، ومن انتظر بمعالجة الدرك مؤاجلة الاستقصاء سلبته الأيام فرصته» .

---

(1) البيان والتبيين طبع هارون ٤ /٥٥ .
(2) طبقات الشعراء المحدثين ٢٦٢ .
(3) طبقات ابن المعتز ٢٦٢ .
(4) الأغانى ١٣ /١٠٩ .
(5) زهر الآداب ٦٢٠ .

وكتب إلى بعض إخوانه[1] : « لو اعتصم شوق اليك بمثل سُلُوِّك عنى لم أبذل وجه الرغبة إليك ، ولم إتجشم مرارة تماديك ، ولكن استَخَصّتنا حبابتنا فاحتملنا قسوتك لِعَظيمِ قَدْر مودتك ، وأنت أحق من اقتص لصلتنا من جفائه ، ولشوقنا من ابطائه » .

وله : « كتبت إليك ونفسى رهينة بشرك ، ولسانى عالِقٌ بالثناء عليك والغالب على ضميرى لائمة لنفسى ، واستقلال لجهدى فى مكافأتك وأنت أصلحك الله فى عز الغنى غنىٌّ ، وأنا تحت ذل الفاقة إلى عفوك وليس من اخلاقك أن تولى جانب النبوة منك من هو عانٍ فى الضراعة اليك » .

وقال : أما بعد . فانه ما بين مستخلص غضارة عيش إلا من خلال مكروه ومن انتظر بمعالجة الدرك مؤاجلة الاستقصاء سلبته الأيام فرصتها » .

وكتب الى آخر : « من اجتمع فيه من خِلال الفضل ما اجتمع فيك ، والمجاز الى مؤاخيك لم يخش المطنب فى الثناء عليك أن يكون مفرطا لما لا يأمن من أن يكون مُفرِّطا، فالاعتراف بالعجز عن بلوغ إستحقاقك من التفريط، أولى من الأطناب الذى غايته التقصير ومآله الى الحشو »[2] .

وقال يصف رجلا بليغا : « كان يظهر ما غمض من الحجة ، ويصور الباطل فى صورة الحق ، ويفهمك الحاجة من غير إعادة ولا استعانة . قيل له : وما الاستعانة ؟ قال : يقول عند مقاطعة كلامه : يا هناه ، واسمع ، وفهمت وما أشبه ذلك، وهذا من أمارات العجز ، ودلائل الحصر ، فأنما ينقطع كلامه فيحاول وصله بهذا فيكون أشد لانقطاعه »[3] .

وقال فى البلاغة : البلاغة هو الكلام بمبانيه اذا قصر ، وحسن التأليف اذ طال[4] .

وذكر له الجاحظ أقوالا فى البلاغة قال : « حدثنى صديق لى قال : قلت للعتابى : ما البلاغة قال كل من أفهمك ما فيه من غير إعادة ولا حبسه ولا

---

(١) زهر الآداب ص ٩٨٦ .
(٢) معجم الأدباء ص ٢١٥ ، جـ ٦ .
(٣) زهر الآداب ١ /١٠٦ .
(٤) زهر الآداب ١ /١٢٧ .

استعانة فهو بليغ ، فان أردت اللسان الذى يروق الألسنة ، ويفوق كل خطيب ، فاظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل صورة الحق »[1] .

وقال فى البلاغة : « رسائل المرء فى كتبه أدَلّ على مقدار عقله ، وأصدق شاهدا على غيبة لك ، ومعناه فيك ، من أضعَاف ذلك على المشافهة والمواجهة »[2] .

وقال يخطب : « أما بعد فانه لا يخبر عن فضل المرء أصدق من تركه تزكية نفسه ولا يعبر عنه فى تزكية أصحابه أصدق من اعتماده برعيته ، وانتمائه إياهم على حرمانه »[3] .

وقال العتابى : « الشيب تاريخ الكتاب » لأن تاريخ الكتاب يكون فى آخره .

ولهذه البلاغة والحكمة، كانت تعتبرأقواله من المأثورات التى تحفظ ويرويها العلماء والأدباء . وقد روى أن يحيى بن خالد قال لولده : « إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم بن عمرو العتابى فضلا عن رسائله وشعره فلن تَرَدُوا أبدا مثله »[4] .

شـــعره :

وأما شعر العتابى فقد اختلف الناس فيه ، فمن قائل إن فيه كزازة وروى المرزبانى ذلك فقال : ذكروا العتابى فقال رجل : هو كز لا رقة له ويروى أبو الفرج مثل ذلك ، وقد مدح ابن المعتز شعره فقال : « وأشعار العتابى كلها عيون ليس فيها بيت ساقط[5] ، وروى له بعض مختار شعره ومنه قصيدته :

رمى القلب بأس من سليمى فاقصدا ... وكان بها هيامة القلب مُهْتَدا

وقال من شعره :

(١) البيان والتبيين ١ /١١٣ .
(٢) البيان والتبيين ١ /٢٢١ .
(٣) البيان ٢ /١٤١ .
(٤) الأغانى ١٣ / .
(٥) طبقات الشعراء لابن المعتز ، ص ٢٦٤ .

ردت اليك ندامتى أملى	وثنى اليك عِنَانَهُ شكرى
وجعلت عتبك عتب موعظة	ورجاء عفوك منتهى عذرى

واستحسن له أيضا :

تجنب دار العامرية أنها	تكلفه عهد الصبا والكواعب
منازل لم تنظر بها العين نظرة	فتقلع الا عن دموع سواكب
ولا وصل الا أنْ تُعَاجُ مطية	على دارس الاعلام عافى الملاعب

وقال دعبل : ما حسدت أحدا قط على شعر كما حسدت العتابى على قوله(١) :

هيبة الاخوان قاطعة	لاخى الحاجات عن طلبه
فاذا ما هبت ذا أمل	مات ما أملت من سببه

وذكر أبو الفرج أن جماعة تناشدوا شعر العتابى فقال بعضهم : فيه تكلفة ، ونصره بعضهم فقال شيخ حَاضِرٌ : ويحكم أيُقَالُ إن فى شعره تكلفا وهو القائل :

رسل الضمير اليك تترى	بالشوق ظالعة وحسرى
ما جف للعينين بعـ	ـدك يا قرير العين مجرى
فأسلم سلمت مبرءا	من صبوتى أبدا معرى
ان الصبابة لم تدع	منى سوى عظم مبرى
ومدامــع عبرى على	كبد عليك الدهر حرى

أو يقال أنه متكلف وهو الذى يقول :

فلو كان للشكر شخص يبين	اذا ما تأملــه الناظــر
لَمثَّلْتُهُ لك حتى تراه	لتعلم أنى امرؤ شاكرْ

ووازنوا بينه وبين بعض شعراء عصره فروى المرزبانى والحصرى مناظرة أبى أحمد على بن يحيى بن المنجم رجلا يعرف بالمثقفة الموصلى فى العباس بن الاحنف والعَتَّابى . فعمل على فى ذلك رسالة أنفَذَها إليه .

(١) الاغانى ١٣ /١١٦ .

وبعد فهذا ما أمكن تحصيله عن العتابى من مصادر تخبر عن شخصه وعلمه وأدبه . وبقى أن نحاول من خلال ما تجمع لدينا أن نضم ما تناثر من أخباره ، وأدبه وشعره وفكره لنكون صورة جامعة للرجل تكشف عن دوره فى تشكيل فكر العصر وأدبه .

وأول ما نلحظه من أخباره أنه عربىٌّ عريق النسب من قبيلة كبيرة مشهورة ، كان لها دور فى أحداث ما قبل الإسلام وفى العصر الإسلامى ونعنى قبيلة تغلب ، ويتسنَّمُ بيت العتابى من القبيلة مكان الذروة ، فقد كان جده عمرو بن كلثوم الشاعر الكبير وزعيم القبيلة ، وصاحب الموقف المشهور من عمرو بن هند الحيرى الذى أراد أن ينال من كرامة عمرو فما كان منه إلاّ أن ثار ، ولم يجد غير السيف يذود به عن شرفه فقتل الملك الحيرى .

ورث الشاعر من جده الكبير الذى تسمى باسمه بعض طباعه ، كما ورث موهبته الشعرية .

وعلى أن الرجل كان لا يملأ العين فى مظهره وجسمه ، وجمال وجهه إلاّ أنه كان ملء إهابه علماً وحكمة وإباءً ، ورياسة ، لم يقصد بشعره أحداً من الخلفاء ولا الرؤساء مادحاً ، ليحصل على جائزة ، فلم يكن فيما يبدو على قدر من الثراء يوفر له الحياة الكريمة .

نشأ فى قنسرين قرب حلب ، وانتقل إلى ديار مضر بجزيرة الفرات ليسكن مدينة الرقّة ، ويجعلها موطناً يعتزل فيه . ويستدعيه الخلفاء هارون الرشيد والمأمون . ويزوره الرؤساء عبد الله بن طاهر وغيره .

ويتصل بالبرامكة يحيى وجعفر ، فيقدران فيه علمه ، وعقله وحكمته ويعاملانه لا معاملة المجتبين ، بل معاملة العلماءِ المتمكنين ،ويجلّانه ، ويحترمانه ويأمُرَانِ ولدهم بالأخذ عنه وَالتعلم منه .

وكان العتابى جريئاً ، صريحاً لا يملك نفسه دون الاعتراض ، أو الانتقاد لما لا يرتضيه . ووجد بعض حاقديه ثغرة فى هذه الجرأة ، وحدّة الانتقاد حتى لمقام الخليفة الرشيد . فجرَّ على نفسه بلسانه غضبه .

وكان يرى ما يقتنع به لا يُجارى سلطة ، فهو يرى رأى المعتزلة والمتكلمين

ولا يستريح إلى كلام أهل السُّنة ، وهو يرى للعلويّة الحقّ ، فيتحدث بحقهم ، ولا يجرى هذا الحديث على هوى العباسيين وإمامهم الرشيد .

ويصحب المأمون أيام كان بخراسان أميراً ، ويلزمه ، وتتوثق الصلة بينهما ، ويقصده فى بغداد خليفة ، فيشعر بتثاقل المأمون فى لقائه فلا يجد مناصاً من عتابه :

ما علَى ذَلِكَ افترقْنا بسنْدا نَ ، ولا هكذا عَهِدْنا الإخاءَ

ويحسُّ بتفوقه على غيره ، وبأن كثيراً من الناس مَسُوقونَ بجهلهم فلا يتردد فى وصفهم بالبقر ، أو فى السخرية منهم .

روى أبو الفرج[1] عن عثمان الوراق قال : رأيت العتّابىّ يأكل خبزاً على الطريق بباب الشام (بغداد) فقلت له : ويحك ! أما تستحِى !. فقال : أرأيت لو كنّا فى دار فيها بقرٌ كُنتَ تستحى وتحتشِمُ أن تأكل وهي تراك ؟ فقال : لا . قال : فاصبر حتى أُعْلِمكَ أنهم بَقَر ، فقَامَ فوعظ ، وقَصَّ ودَعَا حتى كثر الزّحام عليه . ثم قال لهم : روى لنا غير واحد أنهَ من بلغ لسانِه أرنبة أنفه لم يدخل النار . فما بقى واحدٌ إلاّ وأخرج لسانه يومىء به نحو أرنبة أنفه ، ويقدّره حتى يبلغها أم لا ؟!

فلما تفرَّقوا قال العتّابى : ألم أخبرك أنهم بقر .

أرأيت كيف سخر العتّابى من أهل الحديث ، وأصحاب النقل والسّماع ، وهم من ليستدرجونَ العوام بأحاديثهم الموضوعة ، وقصصهم المخيَّل ثم أرأيت كيف دلل بهذا الفعل على أن السّواد من هؤلاء هم الذين يوجههم أولئك ويقودونهم بما يزيفون من القول الذى يروج عندهم فيصدقونه ويتبعونهم دون تفكير ، لأنهم لا يملكون عقولاً يفكرون بها وينظرون ، فهم بقر على حد قوله ؟!

كان العتابى يملك مقدرة على الجدل والحوار ، وتفتيق الأفكار ، والمناظرة ويروى مجلس دار فيه حوار بينه وإسحاق بن إبراهيم الموصلى يرويه أبو الفرج ، قال :

(١) الأغانى ١٣ /١١٤ .

« لما قدم العتّابيُّ مدينة السلام على المأمون أذن له فدخل عليه وعنده إسحاق بن إبراهيم الموصلى ، وكان العتّابى شيخاً جليلاً نبيلاً ، فسلّم ، فردَّ عليه وأدناه ، وقربه حتى قرب منه فقبَّل يده ، ثم أمره بالجلوس فجلس .

وأقبل عليه يسأله عن حاله ، وهو يجيبه بلسانٍ ذلقٍ . فاستظرف المأمون ذلك وأقبل عليه بالمداعبة والمزاح ، فظنَّ الشيخ أنه استخفَّ به فقال :

— يا أميرَ المؤمنين الإينساس قبل الإبساس .

فاشتبه على المأمون قوله ، فنظر إلى إسحاق مستفهما ، فأومأ إليه ، وغمزه على معناه حتى فهم ، فقال :

— يا غلام ، ألفَ دينار .

فأتى بذلك ، فوضعه بين يدى العتّابى . وأخذوا فى الحديث . وغمز المأمونَ إسحاق بن ابراهيم عليه ، فجعل العتّابُى لا يأخذ فى شيءٍ إلا عارضه فيه إسحاق ، فبقى العتّابى متعجبا ، ثم قال :

— يا أمير المؤمنين ، أتأذن لى فى سؤال هذا الشيخ ؟
— قال : نعم . سلْ .
فقال لاسحاق : يا شيخ من أنت ؟، وما اسمك ؟.
— قال : أنا من الناس ! واسمى كُلْ بَصَلْ !!.

فتبسم العتّابُى وقال : أما أنت فمعروف ، وأمّا الاسم فمنكر .
فقال اسحاق : ما أقل إنصافك ، أتنكر أن يكون اسمى كل بَصَل ، واسمك كُلْ ثُومْ ، وكلثوم منَ الأسماء ، أليس البَصَلُ أطيب من الثُوم ؟.

فقال له العتّابى : لله درُّك فما أصَحَّك !. أتأذن لى يا أمير المؤمنين أن أصله بما وصلتنى به ؟. فقال له المأمون : بل ذلك موفر عليك . ونأمر له بمثله .

ثم تعرَّف العتّابى عليه ، وخرجا متضامَّين ، ونزل العتابى ببيت إسحاق وأقام عنده » .

وهذه القصة فإنما تدلّ على ما طبع عليه العتّابى فى مجالسه من الجدَل والردود الحاسمة المقنعة ، وأراد المأمون أن يداعب العتابى على طريقته فى الحوار والجدل وتشقيق الكلام ، فأغرى به اسحاقاً .

وعرفنا فى العتابى عصبيته لعروبته ، ولقبيلته تغلب .

وفيما وصلنا من شعره ملامح من ذلك ، فقد مدح أحد رؤساء تغلب وهو عبد الله بن هشام بن بسطام التغلبى ، وذكره كثيراً فى شعره ورسائله . وكان عبد الله قد ولى السند[1] .

وانتصر لقبيلته تغلب عندما أصاب فيهم والى الجزيرة عبد الملك بن صالح الهاشمى بالقتل فقال فى قصيدته الرائية :

ماذا شَجَاكَ بحوَّارِينَ من طَلَلٍ ودمنةٍ كشفتْ عنها الأعاصيرُ

ويخاطب عبد الملك هذا مناشداً إخاءه فى مضر ونزار الذى يجمع ربيعة ومضر التى منها قريش فيقول :

هذى يمينُك فى قرباكَ صائِلةٌ	وصارمٌ من سيوفِ الهند مشهُورُ
إن كانَ منّا ذوو إفكٍ مسارِقةٌ	وعصبةٌ دينُها العدوانُ والزورُ
فإن منّا الذى لا يستحلُّ إذا	حَثَّ الجيادُ وضَمَّتْهَا المضاميرُ
مستنبطِ عَزَماتِ القلبِ من فكرٍ	ما بينهنَّ بدين الله معمورُ

يعنى عبد الله بن هشام بن بسطام التغلبى أحد قواد العباسيين .

وبلغت القصيدة عبد الملك ، فأمر بالكشف عن تغلب .

ومن علامات تعصبه للعرب حفاظه على روح البداوة ، وعدم اهتمامه بالمظهر على ما كان يفعله شعراء عصره ممن أخذوا بأسباب الحضارة ، وعايشوا أهل المدن وخالطوهم ، فلبسوا الثياب الفاخرة ، وتنعموا بضروب من النعم ، وتمتعوا بزينة الحياة التى أتاحها الله لعباده .

رُوى أن الرشيد فى إحدى زياراته للرقّة أمر بإشخاصه إليه ، فجاء العتابى بصورته التى كان عليها لم يتجّمل . وافى الرشيد وعليه قميصٌ غليظٌ ، وفروةٌ وخفٌ ، وعلى كتفه مِلْحَفَةٌ جافية ، وبغير سراويل . وكان إذا قدمَ له الطعام أخذ منه رقاقة وملحاً ، وخلط الملح بالتراب وأكله ! فإذا كان وقت النوم نام على الأرض .

(١) الأغانى ، طبع دار الكتب ١ /٢٨٨ ، ومعجم الأدباء ٥ /٤٠٦ .

وانعكس هذا الطابع الأعرابى الجافى على شعره ، فلم يكن له فى عرفنا رونق شعر أبى نواس ولا بشار بن برد ، وأظن الجاحظ كان مبالغاً حين قرنه ببشار فى الأخذ بأسباب البديع فى قوله : « وكان العتابىّ يحتذى حذو بشار فى البديع »[1] .

وإذا كان العتّابى قد جاء بالبديع فى شعره ، فهو بديع من نوع آخر ، هو بديع المعانى الجديدة ، والفكرة ، ولم يكن بديع اللفظ ، ورشاقة التعبير ، وجمال الجرس . كيف يتأتى له ذلك ، وهو كما قلنا أعرابى القلب والحياة ؟!. ولنردد النظر فى بعض لفظه كأن يقول :

فى ناظِرىَّ انقباضٌ عن جفونهما   وفى الجفونِ عن الآماق تقصير

وهذا المعنى الذى جاء به من قبل بشار فى صياغة رقيقة حضرية ، أعاده العتّابى فى هذا اللفظ الأعرابى . يقول بشار :

جفت عينى عن التغميض حتى   كأن جفونها عنها قِصَارُ

وقد اعترف هو نفسه بأن أراد تقليد بشار فلم يتهيأ له أن يلحق به[2] .

وأما أبو نواس فقد اتهمه العتّابى نفسه بأنه أسرف فى طلب البديع ، أى كل ما خرج على التقاليد الفنية للشعر العربى القديم . روى صاحب الموشح[3] : « ذكر العتّابى أبا نواس فقال : هو والله شاعر ظريف مليح الألفاظ إلا أنه أفرط فى طلب البديع حتى قال :

لمَّا بدا ثعلبُ الصدود لنا   أرسلت كلب الوصالِ فى طلبِه

ويجتمع فى شعر العتابىّ وأقواله حكمة الفطرة البدوية إلى نظرة العالم المدقق والعاقل المتبصّر . ولا تنسى أنه كان يأخذ برأى المعتزلة ، ويجرى على نهجهم فى الفكر والكلام ، والدفاع عن العقيدة بالمنطق والعقل . وأنه يجعل شرعه شرعهم فى التوحيد والعدل .

روى صاحب الموشح أن أحد العلماء قال : « ما أهَّل العتّابى نفسه قطّ

(1) البيان والتبيين ١ /٥١ .
(2) الموشح ٢٤٩ .
(3) المصدر نفسه ص ٢٧١ .

لتقديمها على العباس بن الأحنف فى الشعر ، ولو خاطبه بذلك مخاطبٌ لدفعه وأنكره، لأنه كان عالماً لا يؤتى من معرفة بالشعر، ولم أجد أحداً من العلماء بالشعر قط مَائل بين العتابى والعبّاس فضلا عن تقديم العتابى عليه لتباينهما فى المذهب وذلك أن العتابىّ متكلف ، والعبّاس يتدفق طبعا ، وكلام هذا — أى العباس سهلٌ عذبٌ ،وكلامُ ذا — أى العتابى — متعقّدٌ كزٌّ . ولشعر هذا ماء ورونق ورقَة وحلاوة ، وفى شعر ذا غلظ وجَسَاوَة . ولم يخل شعر هذا فى شيء منه عمَّا وصفناه . وإنَّ من أشعر شعر العتابى للقصيدة التى يمدح فيها الرشيد ، وأولها :

ياليلةً لى بحوَّارِينَ ساهرةً	حتى تكلَّم فى الصُّبح العصافيرُ

قال فيها :

وفى المَآقِى انقباضٌ عن جفونهما	وفى الجفونِ عن الآماق تقصيرُ

ثم قال فى هذه القصيدة :

ماذا عسَى مادِحٌ يُثنى عليكَ وقَدْ	نادَاكَ فى الوَحْيِ تقديسٌ وتطهيرُ
فُتَّ المادِحَ إلاَّ أنَّ ألسُنَنا	مُستَنطَقَاتٌ بما تخفِى الضَمَائِرُ

فقال : الممادح ، والمدائح أحسن منها وأخفّ على السّمع ، وأشبه بألفاظ الحُذَّاقِ والمطبوعين ، وقال : مستنطقات ، ونواطق أحسن ، وأطبعُ ، ثم قال الضمائر ، فختَمَ البيتَ فيها بأثقل لفظةٍ لو وقعت فى بحرٍ لكدّرته . وهى صحيحةٌ ولكنها غير مألوفةٍ ولا مستعذبة ، وما شىءٌ أملكُ بالشعر بعد صحة المعنى من حسنِ اللفظ . وهذا عملُ التكلّف وسوء الطبع »[1] .

وقد أصاب هذا الناقد ، وعبّر عن رأى غالبية العلماء بالشعر فى شعر العتابى أو معظمه ، وبخاصة الذى قاله فى مراحل حياته المتأخرة ، التى غلب فيها عقله على طبعه .

ومعروف أن العتابىّ كان لا يفتأ يتكلم ، ويجمع الكتب ، ويحرص على الجلوس فى صحبتها وكانت له مكتبته الخاصة فى بيته بالرقة .

(١) الموشح ٢٩٣ .

على أن ما يروى مما خلص من شعره من التكلف من مثل قوله :

رسلُ الضمير اليك تترى ... بالشوقِ ظالعةً وحَسْرَى
ما جفّ للعينين بعـ ... ـدك يا قرير العين مَجْرَى
فاسلم ، سلمت تَبَرُّأً ... من صَبْوتى أبداً مُعرَّى
إنّ الصبابة لم تدع ... مِنّى سِوَى عظمٍ مُبرَّى
ومدامـــع عبرى على ... كبِدٍ عليك الدّهر حَرَّى

وقد ذكر أبو الفرج[1] والمرزبانى أن أحد العلماء سمع من يعيبه بالتكلف فقال : ويحكم !. أيقال إن فى شعره تكلفاً وهو القائل هذه الأبيات ؟!. أو يقال إنه متكلف وهو الذى يقول :

فلو كان للشُّكرِ شخصٌ يبِينُ ... إذا ما تأمّلَهُ النّاظِرُ
لمثّلتُه لك حتّى تراهُ ... لتعلم أنى أمرؤ شـاكِرُ

ومع أنّ الأبيات الخمسة الأولى من شِعْرِ صباه وشبابه غالباً ، وهو ما أشرنا إلى أنه خلص من ثقل العقل ، أو تخفف من غلبة العقل على الشاعرية ، إلاّ أنها مع ذلك لم تفلت من تكلف القافية ، وبرود اللفظ .

وكان للعتابىّ أنصارٌ من العلماء والنقاد ، ذكرنا منهم الجاحظ ، وقد ناصره لأنه على مذهبه ، وناصره الحصرى القيروانى فى زهر الآداب ، فقال إن بعض ناقدى العتابى ظلموه حقه ، من قوة أسر الكلام ، وجودة رصف النظام[1] .

ومن شواهد بدويّة العتابىّ فى شعره تلك الألفاظ التى يأبى إلاّ أن يأتى بها غريبة أعرابية ، كالأمثلة السابقة ، وتلك الصور البدوية فى مثل قوله :

لو رأتنِى بِذِى المجازةِ فرداً ... وذِرَاعُ ابنةِ الفِلاةِ ذِرَاعِى
أطفى لَظَى الحزنَ بالدموع إذا ما ... حُمَّة الشّوْقِ أثرتْ فى فؤادى
خاشِعَ الطّرْفِ قد توشَّحَنِى الضُّـ ... ـرُّ ، فلانتْ له قناةُ قيادِى
رُبَّ بؤسٍ أخاهوم كأنّ الحُـ ... ـزنَ والبُؤْسَ وافيا ميلادِى
وكأنى استشعرت مَا لفظ النّا ... سُ من التائراتِ والأحقادِ

(١) زهر الآداب ٩٤٥ .

ومن الشعراء العلماء :

أبو العباس الناشيء الأكبر
(ت ٢٩٣ هـ)

كان أبو العباس الناشيء شاعرا مجيدا ، وعالما فاضلا ، لا نستطيع أن نحكم على ذوقه في النقد ، ولا أن نقدر جهده الا إذا عرضنا لبعض جوانب تكوينه الإنسانى وبنائه الفكرى والفنى من خلال التعرف على شخصه وحياته ، وبعض شعره وعلمه .

والناشيء الأكبر هو أبو العباس عبد الله بن محمد الأنبارى المعروف بابن شرشير . ولقبه الناشيء يطلق على رجلين من شعراء العصر العباسى ، أحدهما هو هذا أبو العباس وقد أطلق عليه الناشيء الاكبر ، والآخر أطلق عليه الناشيء الأصغر ، وقد جاء بعده .

وكانت عادة العرب وعلماؤهم من قديم اذا اشترك اثنان فى لقب فيميز السابق منهم باللقب متبوعا بكلمة الأكبر ، واللاحق متبوّعا بكلمة الأصغر ، وكذلك كان الأمر بالنسبة الى الاخفشين الاكبر والاصغر ، وهما من علماء النحو المرموقين .

ذلك بالنسبة الى لقبه الناشيء ، أما شرشير الذى لقب به أبوه ، ولاف به هو أحيانا فاسم لطائر معروف بالديار المصرية يعيش فى شمال الدلتا ، يغشى المصارف والترع وموارد المياه ، ويفد الى مصر شتاء ، هو أكبر من الحمام ، وهو صيد طيب .

ولا نعلم مما ورد من أخباره شيئا عن سبب هذا اللقب الذى ألحق بأبيه أو به ، وكثيرا ما تلحق الكنى والألقاب بالناس دون سبب ظاهر ، وكم عرف جماعة من جِلّةِ العلماء والشعراء بألقاب من أسماء الحيوان والطير والجماد ، فثعلب وأبو ذؤيب وابن عصفور وابن حجر ..

قيل إن أصل أبى العباس من الأنبار وينسب اليها كثير من علماء الدولة العباسية وكبار أدبائها ، وقدم بغداد فأقام بها زمنا ، نضج علمه وأدبه ، والتقى بكثير من علماء دار السلام وأدبائها وشعرائها فى القرن الثالث ، وعقدت بينه وبين بعضهم أواصر الود والصداقة ، أو وشائج العلم والمناظرة .

وأولى اهتمامه دراسة الفلسفة والمنطق والجدل والخلاف ، وأعجب بعلم الكلام ، فانضم إلى زمرة المتكلمين وقد كانت للكلام مكانة فى بغداد فى القرن الثالث أيده بعض الخلفاء ممن ناصر المتكلمين وقربهم . أمثال الخليفة المأمون ، والخليفة المعتصم ، وقد عاش فى كنفهما جماعة من كبار المتكلمين وفلاسفة المسلمين .

وأولع أبو العباس بالفلسفة والجدل ، وغشى حلقات المتكلمين وغيرهم من علماء بغداد آنذاك وأحب المناظرة ، ومقارعة العلماء ، وكثيرا ما أتهم بمشاغبتهم ، ومعارضة المشهورين منهم حتى رمى بالهوس . وقال المرزبانى : « وكان أبو العباس الناشىء متهوسا شديد الهوس » .

وتألب عليه علماء بغداد لهذا ، فضيقوا عليه المقام بدار السلام ، فلم يلق ما كان يصبو اليه من مكانة مرموقة ، فغادرها الى مصـر ، وربما زاد فى ضيقه بالمقام ببغداد آنذاك أنها نكأت على المتكلمين ، وقلبت لهم ظهر المجن بعد محنة خلق القرآن المشهورة ، وثورة الحنابلة على المعتزلة والمتكلمين عامة ، وانتصار المتوكل لمذهب أهل السنة وعدائه للمتكلمين والمعتزلة[1] .

قال المرزبانى إنه أخذ نفسه بالخلاف على أهل المنطق والشعراء والعروضيين وغيرهم ، ورغب فى أن يحدث لنفسه أقوالا ينقض بها ما هم عليه فسقط ببغداد فلجأ الى مصر وأقام بها بقية عمره .

ونقل أنه كان موجودا بمصر عام ثمانين ومائتين من الهجرة حيث أنشد أبياتا بدأها بقوله :

ليس شىء أحر فى مهجة العا	شق من هذه العيون المِراضِ
والخدود المضرجات اللواتى	شيب جِرْيَالُها بحسن البيـاضِ

وظل أبو العباس يقول الشعر ويؤلف فى فروع العلم بمصر حتى توفى عام ثلاثة وتسعين ومائتين (٢٩٣ هـ) .

وألف الناشىء كثيرا من الكتب فيما أتقن من علوم العربية وعلوم الأوائل ، وكان متقنا للنحو وعلوم الدين والمنطق . قال ابن خلكان : « من العلماء بالأدب والدين والمنطق » . وقال أيضا : « وله تصانيف جميلة » .

(١) راجع فى ذلك ما ذكرناه .

ونظم الشعر التعليمي . قال ابن خلكان : « له قصيدة على روى واحد وقافية واحدة فى أربعة آلاف بيت فى فنون من العلم » .

ووقف منه العلماء والمؤرخون مواقف مختلفة بين مزر به متحامل عليه ، ومعترف بفضله مقدر لجهده وعلمه ، مثن على كتبه وشعره .

فممن تحامل عليه المرزبانى من علماء القرن الرابع وصاحب كتابى : « معجم الشعراء » و « الموشح » فقد نعته بالتهوس كما رأينا ، وقال : « أخذ نفسه على أهل المنطق والشعراء والعروضيين وغيرهم ، ورام أن يحدث لنفسه أقوالا ينقض ما هم عليه » .

ومن عرف فضله ابن خلكان فقد قال فيه : « وكان بقوة علم الكلام قد نقض علل النحاة وأدخل على قواعد العروض شبها ، ومثلها بغير أمثلة الخليل ، وكان ذلك بحذقه وقوة فطنته »(٦) .

وكلام كل من المرزبانى وابن خلكان يدور حول موضوع واحد جعله الأول مأخذا والثانى محمدة . ويبدو أن الرجل ارتأى رأيا فى علم النحو أو بعض قواعده ، وصل اليه واستنبطه من دراسته المتعمقة فى علم المنطق وعلوم الفلسفة ، وحاول فيه أن يخرج على إجماع علماء النحو فى عصره ، فرفضوه ، وقاوموه ، وكذلك فعل فى عروض الخليل ، الذى ارتأى فيه كذلك رأيا مخالفا للعلماء ، وبدت له فى أصول الخليل كما يقول ابن خلكان شبه أو مآخذ ، ومثل لبعض ما وفق إليه فى علم العروض بأمثلة غير ما درج عليها الناس ، فرأوا فيها مروقا على علم الخليل فاتهموه بالهوس .

ولسنا على علم بهذه الأشياء جميعا حتى نحكم عليه أو له فنكون مع المرزبانى أو نكون مع ابن خلكان .. ومع ذلك فإن موقف المرزبانى من الناشىء قد تعترضه بعض الشبه ، ومنها أنه كان قريب العصر من أبى العباس وأنه كان بغداديا ، ولابد أن أصداء الخلاف بين الناشىء وعلماء بغداد كانت لا تزال تدور فى أوساط العلماء أيام المرزبانى ، وهو بغدادى على كل حال ، ومعاصر ، وهذا وحده كفيل بأن يلقى ظلالا من الهوى على حكمه .

أما ابن خلكان فبعيد عن معاصرة الناشىء لأنه من رجال القرن السابع أى بعده بأربعة قرون كانت كفيلة بترجيح الرأى السديد وتصفية المعركة والحكم

له أو عليه بروح الانصاف دون هوى . فضلا عن أن ابن خلكان لم يكن وحده الذى قرّظ وأثنى عليه ، بل سبقه إلى ذلك أحد أدباء القرن الرابع الفضلاء ممن لا ينكر رأيه ، ويؤخذ قوله فى الأدب مأخذ الجد والاعتبار ، وأعنى أبا حيان التوحيدى الذى نعت بالجاحظ الثانى .

وفى كتبه يقول المرزبانى : « وقد رأيت بعض كتبه فدلتنى على هوسه واختلاطه » . وفيها يقول ابن خلكان : وله عدة تصانيف جميلة .

ويقول ابن تغرى بردى : كان فاضلا بارعا ، وله تصانيف رد فيها على الشعراء .

شـــعره :

ذلك مبلغ أمره فى العلم ، وأما أمره فى الشعر فلم يكن أقل من أمره فى العلم اذا اختلف العلماء حول اختلافهم حول علمه . فالمرزبانى يراه شاعرا مكثرا وهو مع كثرة شعره قليل الفائدة ، ويقول أبو حيان عن شاعريته : « وله مذهب حلو وشعر بديع ، واحتفال عجيب » . ويقول ابن الجوزى : « وله شعر حسن »[8] .

وقال ابن خلكان : « وله أشعار كثيرة فى جوارح الصيد وآلاته ، والصيود وما يتعلق بها ، كأنه كان صاحب صيد . وقد استشهد كشاجم فى كتاب « المصايد والمطارد فى مواضع » ، منها قصائد ، ومنها طرديات على أسلوب أبى نواس ، ومنها مقاطيع ، وقد أجاد فى كل » .

وقال فى موضع آخر : « شاعر مجيد يعد فى طبقة ابن الرومى والبحترى »[9] .

ولم يبلغنا ديوان كامل للناشىء الاكبر حتى نحكم عليه أو نقومه ، وكل ما جاءنا منه مقطوعات وقصائد مفرقات فى أسفار الأدب ومجموعاته ، ومن بين تلك الأسفار مما جمع له كثيرا من الشعر كتاب « البصائر والذخائر » لأبى حيان التوحيدى ، و « زهر الآداب » للحصرى القيروانى ومحاضرات الراغب .

ومع تلك الأشعار المفرقة ، وما أشار اليه ابن خلكان فى نصه السابق ، وفى

مواضع أخرى نجد أن شعره يضم موضوعات الشعر التقليدية كالغزل والفخر والمديح والهجاء والوصف . كما تروى عنه قصيدة مطولة فى الشعر التعليمى فى فنون العلم على روى واحد تبلغ أربعة آلاف بيت . وله شعر كثير بين قصائد ومقطعات فى الطرد والصيد وآلاته على ما ذكر ابن خلكان فيما نقلنا عنه .

وقد وصف الناشىء شعره فى أبيات جيدة تقول :

يتحير الشعراء إن سمعوا به	فى حسن صنعته وفى تأليفه
فكأنه فى قربه من فهمهم	ونكولهم فى العجز عن ترصيفه
شجر بدا للعين حُسْنُ نباته	ونأى عن الأيدى جَنى قطوفه
فإذا قرنت أبيّةً بمطيعة	وقرنته بغريبه وطريفه
ألفيت معناه يطابق لفظه	والنظم منه جليه بلطيفه
وأتاه متسقا على إحسانه	قد نيط منه رزينه بخفيفه
هذبته فجعلته لك باقيا	ومنعت صرف الدهر من تصريفه

يصف شعره بالسهل الممتنع المحكم الرصف الطيع الأبى الذى يجمع بين الغرابة والطرافة فى تآلفٍ من المعنى واللفظ والنظم ، دون خلل فى أيهما أو فى تآلفهما جميعا معا فى نسق واحد مهذب لا شذوذ فيه ولا شرود ، فعاد شعرا خالدا على الزمن ، باقيا على صرف الدهر لا يغير منه كر الزمان .

عاصر الناشىء جماعة من كبار شعراء العباسيين أمثال البحترى وابن الرومى ، ولم يشتهر شهرتهما ، وإن كان ابن خلكان قد وضعه فى طبقتهما . وقصد بشعره كبار رجال الدولة من وزراء وكتاب وقادة ، فمدحهم وكان من بينهم من قصده ابن الرومى كأبى الصقر ابن بلبل الوزير العباسى صاحب القصة المشهورة مع ابن الرومى ، والذى كانت له معه مواقف سجلها فى قصائد طويلة ذوات عدد . وقال فيه أبو العباس الناشىء :

تيلَّجْ بروح البِرِّ أو روحةِ الغنى	أو الصدق لى فى الوعد أو طلب العذر
فمالى تقى يحيى ، ولا حلم يوسف	ولا صبر أيوب ولا مدد الخضر

ويجمع شعره سمات العالم والشاعر ، ففيه الصياغة الرصينة ، والكلمة الواقعة موقعها ، والمعنى البعيد ، والفكرة ، إلى جانب حلاوة النفس ، وعذوبة الجرس ، وجمال الصورة ، وأعجب أبا حيان التوحيدى قوله متغزلا :

لها جيد ظبي واهتزاز يَراعةٍ ... وعينا مهاة ، واعتدال قضيب
ولفظة مناع ، ولحظة باذل ... وعتب برىء واغتياب مريب
وإيماض ذى جد، واعراض هازل ... وسورة ذى طيش وعطف حبيب

وعلق عليه بقوله : فهذا فن لطيف المقام ، حلو جدا[11] .

وما جاءنا من شعره فى الغزل رقيق فيه تلك الحلاوة التى أشاد بها التوحيدى . ومنه هذان البيتان فى وصف الدمع فوق خد الحبيب ساعة الفراق :

بكت للفراق وقد راعنى ... بكاء الحبيب لبعد الديار
كان الدموع على خدها ... بقية طل على جلنار

وحلاوة البيتين مستمدة من جمال التشبيه فى البيت الثانى . ومن جميل معانيه فى الشكوى قوله :

يا ليت شعرى فقلبانا لم اختلفا ... لفظى ولفظك بالشكوى قد ائتلفا

ومن نسيبه حلو النفس قوله[11] :

ولما رأينا البين زُمَّتْ ركابه ... وأيقن منا بانقطاع المطالب
طلبن على الركب المجدين علة ... فمجن علينا من صدور الركائب
فلما تلاقينا كتبن بأعين ... لنا كتبا أُعْجَمْنَهَا بالحواجب
فلما قَرَأْنَاهُنَّ سرا طوينها ... حذار الأعادى بازورار المناكب

جمعت بين رقة النسيب ، ودقة المعانى ، ومبتكر التعبير . ونلاحظ ذلك كله فى البيتين الثالث والرابع بخاصة .

ويرسم بالكلمات صورة شعرية جميلة لعازفة على العود فيقول[13] :

وإذا بَصُرْتَ بكفها اليسرى حكت ... يد حاسب تلقى إليك صنوفا
وكأنما المضراب فى أوتاره ... قَلَمٌ يمجمج فى الكتاب حروفا
ويجيبه إبهامها فكأنها ... فى النقر تنفى بهرجا وزيوفا

ويفخر بنفسه وقومه فيقول :

لم تبن فى الدنيا سماء مكارم ... إلا ونحن بدورها ونجومها
وإذا سمت يوما للمس أديمها ... نجوى أباليسها فنحن رجومها
وإذا سمعت بنعمة محرومة ... من كل حادثة فنحن حريمها
وإذا ألبحت للأنام بوارق ... بندى فمنا تُستَهَلُّ غيومها

ويشكو هجر الصديق وتغيره :

إنى ليهجرنى الصديق تجنبا ... فأريه أن لهجره أسبابا
وأخاف إن عاتبته أغريته ... فأرى له ترك العتاب عتابا

وشعره يجرى على هذا النمط من الشاعرية الممتزجة بالفكر والتأمل ، لا يطرق المعنى السهل القريب ، ولكنه يجرى وراء المعنى البديع ، فيأتى به ليضعه أمامك فى لفظ سهل لا تشعر به بأثر الجهد فيه ، فهو غير متكلف اللفظ ، ولا مُتَعَنِّت العبارة كبعض الشعراء من أصحاب المعانى ، وهو مع ذلك لا يرقى إلى رتبة البحترى فى طلاوة الشعر ولا إلى درجة أبى نواس ، رشاقة التعبير .

ومع ذلك فهو لا ينحط عن درجة هؤلاء وأولئك كثيراً ، بل يعتبر شعره من جيد الوسط .

كتاب الشعر :

واذا ما تركنا شعره إلى نقده ، والحديث عن كتابه فى الشعر وآرائه فيه فيتبقى أن نهتدى أولا بحديث أبى حيان فى البصائر . يقول : « وما أصبت أحدا تكلم فى نقد الشعر وترصيفه أحسن مما أتى به الناشىء المتكلم ، وإنّ كلامه ليزيد على كلام قدامة وغيره » .

وهذه العبارة تحتاج إلى وقفة تأمل ، لأن أبا حيان حكم على علو قدره فى النقد وقال إنه لم يصب أحدً من النقاد إلى عصره — أى أخريات القرن الرابع — تكلم فى نقد الشعر وترصيفه أحسن مما أتى به الناشىء . وهو لاشك قد قرأ كتب النقد السابقة أو عرفها ويشير بصفة خاصة الى كتاب قدامة بن جعفر « نقد الشعر » ويقدمه عليه وعلى غيره ممن عرض لهذا الموضوع .

وهو لا يعنى من النقاد بالضرورة من تعرض للشعراء وطبقاتهم ، بل يعنى بصفة خاصة من تعرض منهم لصنعة الشعر ، وقد سبقه إلى القول فى صنعة

الشعر جماعة كابن المعتز صاحب البديع ، وابن طباطبا فى عيار الشعر .
وكتاب ابن المعتز قليل الخطر ، وإن كانت له أسبقية الحديث عن البديع وتبويبه ، وأخطر منه عيار الشعر لابن طباطبا ، وإن لم يحظ بالشهرة التى حظى به البديع لابن المعتز ونقد الشعر لقدامة . ولا ندرى لم أهمل أبو حيان عيار الشعر عند حديثه عن كتاب الناشىء ، والكتابان فيما يبدو مما بقى من أجزاء كتاب الناشىء قريبان من بعضهما فى الموضوع ، لأنهما يعرضان لصفة الشعر . ومؤلفا « الشعر » و « عيار الشعر » شاعِرانِ ، وليس أدرى بأسراره كمن دفع إلى مضايقة كما يقول البحترى .وكلامُ قدامة فى صنعة الشعر كلام عالم مقنن لا شاعر مجرب ، وفرق بعيد بين الكلامين .

ومهما يكن من أمر فإن كتاب « الشعر » للناشىء كتاب يتحدث فى صنعة الشعر وفنه ، ويشهد على ذلك ما وصلنا من مقتطفات من الكتاب فى بعض كتب الأدب ، وفى كتابى « البصائر والذخائر » لأبى حيان التوحيدى ، و « زهر الآداب » للحصرى القيروانى بخاصة .

ونورد هذه المقتطفات محاولين ترتيبها من عموم إلى خصوص .

ونبدأ بتعريفه للشعر وحديثه عنه . يقول(١٥) :

« والشعر قيد الكلام ، وعقال الآداب ، وسور البلاغة ، ومعدن البراعة(١٦) ، ومجال الجنان ، ومسرح التبيان ، وذريعة المتوسل ، ووسيلة المتوصل ، وذمام الغريب ، وحرمة الأديب ، وعصمة الهارب ، وعدة الراهب(١٧) ، ورحلة الدانى ، ودوحة المتمثل ، وروضة المتحمل ، وحاكم الأعراب ، وشاهد الصواب » .

وهو فى هذه الفقرة لم يعرف الشعر التعريف المألوف ، بل عرفه التعريف الجامع لخصائصه ، وطبيعته وغاياته ، وفوائده ، وكل من عباراته الموجزة تحتاج فى الشرح الى صفات تبسط مجملها ، وتنشر مطويها .

وأولها قوله إنْ « الشعر قيد الكلام » يعنى أنه يقيد المعانى والأفكار بأحكامه وموسيقاه ونظمه ، بتفاعيله ، وقوافيه ، ويعنى أنه حافظة العلم ، وخزانة الأدب ، وهو أيسر وسيلة لسهولة علوقه بالذهن . وهو « عقال الآداب » أى قيدها ، ومجتمعها . فيه الحكمة ، والمعرفة . وهو أسمى فنون الأدب ، وأشرف

أنماط القول ، وكان العرب يتواصون بحفظه ، ويوصون مؤدبي أبنائهم بتعليمهم إياه . وهو « سور البلاغة ومحل البراعة ، ومجال الجنان ، ومسرح البيان » ، ويعني سمو منزلته في اللغة والبيان ، فهو في المقدمة من فنون القول جميعا ، لا يسبقه منها أحد ، ويكاد يقتصر علم الأدب عند العرب على الشعر ، فقد غلب على ما عداه ، والبليغ الحق هو الشاعر الفحل ، والمقول الفذ . وفي الشعر تبدو البراعة ، وتتكشف المقدرة ، إذ تحكمه الأوزان والقوافي واللغة الخاصة ، اللغة الشعرية ، والشاعر الفذ هو الذي يستطيع أن يؤلف بين معانيه وألفاظه وأوزانه وقوافيه ، فلا يضطره الوزن إلى اصطناع الضرورة في بناء العبارة ، أو التكلف في القافية فتبدو ملحقة بالقول أو خارجة أو فضلة زائدة ينتهي الكلام قبلها ، لهذا أعجبوا بالشعر الذي تلتصق قوافيه ببقية ألفاظه ، أو تؤدي أوائله إلى قوافيه دون تكلف أو عناء . ونسمع كثيرا من العبارات في كتب النقد تصف تلاؤم القوافي مع الوزن ، أو تلاؤمها مع المعاني ، أو تلاؤمها مع بقية لفظ البيت .

وتلك العبارات التي سلفت كلها متصلة بصنعة الشعر ، وما جاء بعدها في الفقرة من عبارات يتصل بغايات الشعر وفوائده ، فهو : « ذريعة المتوسل » و « وسيلة المتوصل » ، ورغم المزاوجة الظاهرة بين العبارتين فهما تعبّران عن موضوعين مختلفين .

فذريعة المتوسل يعني أنه يتخذ ذريعة الى أمر فيتوسل به ، أو يتشفع فيه . وهنا يمكن أن يدخل العتاب ، والاعتذار ، والتحبب ، والقربى الى المحبين وفيه معنى كون الشعر سببا في العفو عن جرم ، أو الصفح عن إثم .. وتحدث عن هذا الدور للشعر تفصيلا ابن رشيق في كتاب العمدة .

وفي الفقرات التالية « وذمام الغريب ، وحرمة الأديب ، وعصمة الهارب وعذر الراهب » يواصل المنشيء ذكر فوائد الشعر وبيان فضائله .

ثم يختم بفقرات تتصل باستخدامات الشعر في الأدب واللغة ، ودوره في ايضاح المعاني ، وضبط القواعد والأعراب ، وضبط ألفاظ اللغة في استخدام أبيات الشعر وشواهد على هذا كله .

فهو بحق كما قال : « دوحة المتمثل ، وروضة المتحمل ، وحاكم الأعراب ، وشاهد الصواب » .

وقد أشرنا الى أن العلماء بالشعر فصلوا ما أجمله الناشيء ، ونخص منهم عبد الكريم النهشلي وابن رشيق القيرواني(١٩) .

خصائص الشعر الجيد :

ويعرض فى فقرة أخرى ــ نقلها الحصرى فى زهر الآداب ــ لأسلوب الشعر ، وموضوعاته فيقول : « الشعر ما كان سهل المطالع ، فصل المقاطع ، فحل المديح ، جزل الافتخار ، شجي النسيب ، فكه الغزل ، سائر المثل ، سليم الزلل ، عديم الخلل ، رائع الهجاء ، موجب العذرة ، حسن المعتبة ، مطمع السالك ، فائت المدارك ، قريب البيان ، بعيد المعانى ، نائى الأغوار ، ضاحى القرار ، نقي المستشف ، قد هريق فيه ماء الفصاحة ، وأضاء له نور الزجاجة ، فأنهل فى صادى الفهم ، وأبهل فى بهم الرأى ، لمتأمله تشوق ، ولمستشفه تألق ، يروق المتوسم ، ويسر المتبرم .

قد أبدت صدوره متونه ، وزهت فى وجهه عيونه ، وانقادت كواهله لهواديه ، وتطالعت آثاره لمستوضحه . وأشبه الروض فى وشى ألوانه ، وتعمم أفنانه ، واشراق أنواره ، وابتهاج أنجاده وأغواره . وأشبه الوشى فى اتفاق رقومه ، واتساق رسومه ، وتسطير كفوفه ، وتحبير حروفه ، وحكى العقد فى التئام فصوله ، وانتظام وصوله ، وازديان ياقوته بدره ، وفريده بشزره .

قد كشف الإيجاز موارده ، وجلت مداوس الدربة مناصله ، وشحذت مدارس الأدب فواصله ، فجاء سليما من المعايب ، مهذبا من الأدناس ، تتحاشاه الأبن ، وتتحاماه الهجن ، مهديا الى الأسماع بهجة ، والى العقول حكمة » .

ومرة أخرى أوجز الناشيء فى هذا الفصل ما فصله غيره من العلماء من خصائص الشعر الجيد ، لفظا ومعنى ، فجمع خصائص اللفظ الشعرى ، والمعانى الشعرية ومناسبة الأسلوب واللفظ والمعنى لموضوع الشعر وأغراضه .

ويهتم بسهولة المطالع ، وبوضوح مقاطعه وفصوله ، وهو بذلك يستوحى أصول الشعر الجاهلى وتقاليده ، فقد كان الشعراء يتحرون سهولة المطالع ، لاجتذاب السمع ، وقبول الذهن لما يرد عليه . وفى النقد العربى مواقف كثيرة للنقاد مع هذه الخاصية ، ولعل أشهرها موقف ابن الأعرابى من غموض مطلع أبى تمام :

هن عوادى يوسف وصواحبه فعزماً فقِدْمًا أدْركَ السُّؤْلَ صاحِبُهْ

وقوله للشاعر : لم لا تقول ما يفهم ؟

وموقف نقاد المتنبى من غموض مطلع المتنبى وتعقيده فى قوله :

أحاد ، أم سُداسٌ فى أحاد لُيَيْلَتُنَا المنوطة بالتنادى

وينتقل الى مناسبة الكلام للموضوع من حيث القوة والضعف ، والجزالة والرقة ، فيرى ضرورة الفحولة والقوة عند المديح ، وهذا أمر طبيعى لأن المديح يقتضى من الشاعر وصف الممدوح بصفات الرجولة والشجاعة والإقدام ، وهذه المعانى لا يناسبها سوى قوى اللفظ ورصينه . وقد أورد النقاد أمثلة كثيرة لمناسبة معانى المديح لألفاظه ، وهى غالبة على الشعر الجيد ، ولكن مخالفة ذلك تبدو فى شواهد قليلة يتناقلها النقاد . مثل ما نقله ابن طباطبا فى عيار الشعر من عدم مناسبة قول كثير لمديح الخليفة الأموى فى قوله[٢١] :

وما زالت رقاك تسل ضغنى وتخرج من مكامنها ضبابى
ويرقينى لك الراقون حتى أجابت حية تحت الثياب

فهذا كلام أليق بأن تخاطب به امرأة ، لا أن يخاطب به خليفة المسلمين وأمير المؤمنين .

وحال الفخر كحال المديح ، فلابد أن تكون ألفاظه ، جزلة كذلك .

وقد فرق الناقد وهو فى القرن الثالث بين موضعى النسيب والغزل . وكثير من النقاد لم يعتادوا هذه التفرقة ، بل جمعوا بينهما ، وقليل منهم من التزم هذه التفرقة بين الفنين وإن كانا جميعا متعلقين بالعلاقة بين الرجل والمرأة والأحوال التى تجرى بينهما من العشق والمحبة ، وأحوال الهوى وتصرفه معهما ، من لقاء وفراق ، وبُعد وقرب ، ووصل وهجران ، وسهر ، وأحوال العذال .. وما إلى ذلك ، وبوصف جمال المرأة ومحاسنها الجسدية أو القولية ، والسلوكية .

ومن قول الناشىء ندرك أنه يرى النسيب هو الذى يصف أحوال الهوى والمحبة وتصرفهما بين المحبين ، بينما الغزل هو ما يتصل بمحاسن المرأة وجمالها جسدا ولفظا وسلوكا .

فهو يتطلب فى النسيب الشجى ، أى المطرب ، وأن يطرب لسماعه الناس ، وما يطربون إلا لأنه يقع فى قلوبهم موقعها ، وقد علل ابن قتيبة تمسك الشعراء بمقدمات النسيب فى بناء القصيدة التقليدية بقوله بعد ذكر الأطلال والوقوف عليها وما يتصل بذلك .. « ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الشوق وألم الوجد والفراق ، وفرط الصبابة ليميل نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه ويستدعى الأسماع إليه ، لأن النسيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ، لما قد جعل الله فى تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء »[٢٢] .

ووصف الغزل بالفكه ، ولا يعنى هذا النعت ما اتصل باللفظ فى لغتنا المعاصرة من معانى الإضحاك ، بل لعله أقرب فى مدلوله المقصود الى معنى المسرة وهو الشعور الذى يحدثُهُ وصف الجمال فى صوره المختلفة ، فجمال المرأة باعث على المتعة والمسرة ، وهذا ما يقصده الناشىء من ضرورة أن يكون الشاعر الجيد فكه الغزل . وقد خلط صاحب جوهر الكنز بين مدلولى النسيب والغزل ، ومع أنه جاء متأخرا فى القرن السابع ، وكان حقه أن يفرق بينهما بوضوح بعد أن سبقه إلى التفريق بينهما علماء أفاضل لعل أقربهم اليه صاحب العمدة .

ويتصل بموضوعات الشعر ما جاء منه فى المثل والحكمة ، وإن لم يفرد الشعراء قصائدهم للمثل والحكمة ، اللهم إلا القليل منهم من أمثال صالح بن عبد القدوس وأبى العتاهية فى قصيدته المعروفة بذات الأمثال . وقد يختم بعض الشعراء بأبيات من المثل والحكمة كما فعل زهير بن أبى سلمى فى معلقته ، ولكن معظم الشعراء ينثرون أبيات المثل والحكمة فى أثناء القصيدة فتسير دون غيرها ويستشهد بها الناس ، ويحب الناشىء كما هو واضح من قوله أن تنطوى القصيدة على « سائر المثل » . وقديما سمى الشعر الخالى من المثل السائر أو عيون الشعر بـ « المسيح » .

ويعرض للهجاء فيرى أن يكون رائعا ، أى يروع الناس ، لا أن يكون باهتا عاديا فالهجاء الرائع هو الهجاء الحار اللاذع يروع بلفظه أو معانيه الساخرة ، أو صوره الفكهة التى تصم وتدمغ المهجو .

وقد اتفق النقاد على مثل قول الناشىء أو قريب منه .

وقوله أن يكون الشعر سليم الزلل . عديم الخلل فهما صفتان عامتان فالزلل والخلل فى الشعر يعرض له من جوانب كثيرة ، وينسحب هذا الكلام على ما تحدثنا عنه من قبل فيما يتصل بأسلوب الشعر وألفاظه ومعانيه وموضوعاته ، وقريب من هذا ما ساقه من نُعُوتٍ بعد ذلك ينبه فيها على حقائق الفن الشعرى ، والخصائص التى تكشفها الممارسة والمتعلقة بمواطن الحسن ، فقد نبه إلى ضرورة أن يجمع أسلوب الشعر الجيد بين جمال التعبير وعذوبة اللفظ ، وسداد القصد والغاية وسلامة المعنى وصحة الفكرة .

ويفصل بعض الخصائص التركيبية فى أسلوب القصيدة ، وبنائها الفنى مما يفى بشرطى الحسن والسلامة أو الصحة . الأمر الذى يثير فى المتلقى أو السامع الإحساس بالمتعة والمسرة ، والفهم السليم من مثل قوله : « ثم أبدت صدوره متونه ، وزهت فى وجوهه عيونه ، وانقادت كواهله لهواديه ، وتطالعت آثاره لمستوضحه » . وفى هذه العبارات يؤكد خاصة كثر حديث النقاد فيها ، وخصها علماء البلاغة بأنواع من البديع ، كقولهم فى التوشيح ودلالة الصدور على الإعجاز ، وما إلى ذلك .

ويجرى الناشىء مع القائلين بأن الشعر صنعة كغيره من الصناعات ، ينبغى لمن يتصدى لعمله أن يتقن أسرار صنعته . وهو يرى كذلك فى الصنعة ضروبا من التحسين والتجميل ، وهو كالصناعات الجميلة ، كالنقش فى الثياب ، أو صياغة الحلى الذهبية ، أو العقود وما شابهها مما أكثر القدماء تشبيه الشعر به من تلك الفنون والصناعات .

فقوله :

« وما أشبه الروض فى وشى ألوانه ، وتعميم أفنانه ، وأشراق أنواره ، وابتهاج أنجاده وأغواره ، وأشبه الوشى فى اتفاق رقومه ، واتساق رسومه وتسطير كفوفه ، وتحبير حروفه ، وحكى العقد فى التئام فصوله ، وانتظام وصوله ، وازدهان ياقوته بدره ، وفريده بشذره » .

وينهى هذه الكلمة بحديث عن طبيعة الأسلوب والصياغة ، مهتما بضرورة الإيجاز ، وهو ما يتمشى مع طبيعة الشعر ، وطبيعة تركيبه ، فهو من فنون

القول أولى بالإيجاز ، تحكمه موازين عروضه وقوافيه وينبّهُ إلى ضرورة تثقيفه وتهذيبه ، ويعين على ذلك طول الدربة والممارسة وطول المراجعة والمدارسة حتى ينفى عنه خبثه ، ويخلو مما يشينه من عيب اللفظ ، أو هجنة التركيب .

ويرى أن ما كانت تلك صفته من الشعر الصقيل المهذب يهدى إلى الأسماع بهجة ، والى العقول حكمة ، ونلاحظ أنه يؤكد هذين الجانبين كلما عنت له فرصة ، أو واتته مناسبة . وكأنه كما قلنا يرى ضرورة توفر المتعة واللذة ، والفكرة أو المعرفة فى الشعر . وهما عنصران يتمان جماله ، ويتقاسمان جودته .

وقد وقف النقاد من هذين العنصرين فى الشعر مواقف تتفق وتختلف عن موقف الناشىء ، فالبحترى مثلا ، يؤكد ضرورة توفر عنصر الجمال والمتعة فى الشعر ، وتأتى الفكرة لاحقة لهذا العنصر ، واتجه الآمدى هذا الإتجاه الذى ذهب إليه البحترى ، فحاول الفصل بين الشعر والحكمة . ورأى الشعر فى جمال التعبير وطلاوة اللفظ وقرب المعانى وبدو الرونق ، فغلب الصنعة على الفكرة ، وذهب أنصار أبى تمام والمتنبى مذهبا مخالفا ، ورأوا الشعر فى عميق المعنى ، والحكمة المفيدة عقلا وأدبا .

ويورد أبو حيان فصلا من كتاب الشعر يتناول موضوعات القصيدة الشعرية وما يشتمل عليه كل موضوع من المعانى ، مبتدئا بالنسيب :

يقول :

« أول الشعر إنما يكون بكاء على دمن ، أو تأسفا على زمن ، أو نزوعا لفراق أو تلوعا لاشتياق ، أو تطلعا لتلاق ، أو اعتذارا الى سفيه ، أو تغمدا لهفوة ، أو تنصلا من زلة ، أو تحضيضا على أخذ بثأر ، أو تحريضاً على طلب أوتار ، أو تعديدا للمكارم ، أو تعظيما لشريف مقام ، أو عتابا على طوية قلب ، أو عتابا من مقارفة ذنب ، أو تعهدا لمعاهد أحباب ، أو تحسرا على مشاهد أطراب ، أو ضربا لأمثال سائرة ، أو قرعا لقوارع غائرة ، أو نظما لحكم بالغة ، أو تزهيدا فى حقير عاجل ، أو ترغيبا فى جليل آجل ، أو حفظا لقديم نسب ، أو تدوينا لبارع أدب » .

وينقل التوحيدى فصلا آخر يتصل من موضوعات الشعر بالغزل والنسيب بخاصة فيقول :

« ومخاطبات النساء تحلو في الشعر ، وتعذب في القريض ، لاسيما لغانية قد أطرّ الفتاء شاربها ، وزوى الاباء حاجبها ، وأشط الجمال قوامها ، وأفرد الحسن تمامها ، وانجل الهوى عينيها ، وأمرض الزهو جفنيها ، وأذابت الصبابة ألحاظَها، وفتر الرنو ألحانها ، وأرهف الظرف أعطافها ، وألانتْ النعمة أطرافها ، ولَذّ للراشف مبسمها ، وأطرد ماء النعيم بين رياض وجناتها ، وترقرق جريان الشباب على سحناتها ، وجُدِلَ للضم قدها ، ومالت للجذب ضفائرها ، ودالت للغاصب غدائرها ، وشخصت للوثوب مآكمها ، وظمئت فضولها ، وسهلت للعيون حجولها ، وطاب للمتنسم ملاغمها ، وأرخت للمتنعم فواغمها ، فكيف اذا هي برزت من حجابها ، وسفرت من نقابها ، وتهادت بين أترابها ، وقد هز الريح أردافها ، وأسعر المراح أكفافها ، بل كيف هي اذا أملّها سائلها ، أو أكَلّها مُقاولها ، وأعرضت عنه صُدُوفًا ، وتأوهت منه عزوفا ، وقد قطب التيه جبينها ، واستنهض الأنف عرنينها ، واستخفها الطرب ، واستهواها العجب فافترّتْ مبتسمة عن شنب أنيابها ومعسول رضابها . وكيف تقر نفس عاشقها اذا هي لسنته بعتابها ، ولحنته بسبابها ، وقد لاثت ذوابل أثوابها ،وَحَسَرَتْفواضل أسلابها ، وطفقت تمَدّ ذنوبه بمحاجرها ، وتأبى معاذيره بمكاسرها .

وهل تطوح لها أمنية اذا أعتبته بعد صدها ، وبذلت له مصون ودها ، ثم أسعفته بزورة وسنت لها عين راقبها ، وغيلت لها نفس عاقبها ، وقد التفعت له ملاء ليل ، أو وطئت اليه عقبات قيل ، فقد خذل الاين أباطلها ، وبل البحر غلائلها ، وحصدت له أعاليها وأسافلها ، وأوجل الوجل فرائصها ، وأوجأ العجل أخامصها ، ثم طفقت تستعتب نفسها وتستكفها ، حتى اذا أسمحت بها قريحتها ، وأسجحت لها سجيتها ، وسكن الى الايناس قلقها ، وأسرع الى الابساس غَلَقُها ، قاسمته من حديثها بما هو أقر لعينه ، وأشهى الى نفسه من طول بقائها ، ودوام نعمائها . ولنا في هذا الباب ما لم يخرج من مذهب القوم منه :

فديتك لو أنهم يعقلون	لردوا النواظر عن ناظريك
ألم يقرأوا ، ويحهم ما يرون	من وحي قلبك في مقلتيك
وقد جعلوك رقيبا علينا	فمن ذا يكون رقيبا عليك

ونقل الحصرى فى زهر الآداب : « قال الناشىء : وقد قلت فى الشعر قولا جعلته مثلا لقائليه ، وأسلوبا لسالكيه ، وهو :

الشعـــر ماقومت زيـــغ صدوره ... وشددت بالتهذيب أسر متونـــــه
ولاءمت بالاطناب شعب صدوعه ... وفتحت بالايجاز غور عيونه
جمعت بين قريبه وبعيده ... ووصلت بين نُضُوبِه ومعينه
وعهدت منه لكل أمـــر يقـــتضىَ ... شبها به فقرنتـــه بقرينـــه
فاذا بكيت به الديار وأهلها ... اجـــريت للمخزون ماء شؤونـــه
ووكلته بهمومه وغمومه ... دهـــرا ولم يسر الكـــرى بجفونـــه
واذا مدحت به جوادا ماجــــــدا ... وقضيته بالشكر حق ديونه
حفيتـــه بصفيـــه ورضيـــهِ ... ومنحتـــه بخطيره وثمينـــه
فيكون جزلا باتفاق صنوفه ... ويكـــون سهـــلا فى اتساق فنونـــه
واذا أردت كناية عن ريبة ... باينت بين ظهوره وبطونه
فجعلت سامعـــه تسوء شكوكـــه ... ببيانـــه وظنونـــه بيقينـــه
واذا عتبت على أخ فى زلة ... أدمجت شدته له فى لينه
فتركته مستأنسا لريـــاضة ... متسنما لرعونـــه وحزونـــه
واذا كتبت الى التى علقتها ... ان صار منك بغاشيـــات شؤونـــه
نمقتها بلطيفـــة ودقيقـــة ... وشغـــفتها بخبيئها و خَبيئهِ
واذا اعتذرت إلى أخ فى زلة ... وأشكت بين محيله وسنينه
فيحـــور ذنـــبك عنـــد من أعتبتـــه ... عَتْبـا عليك مطالعا بيمينه
والقـــول يحسن منـــه فى منثـــوره ... ماليس يحسن منـــه فى موزونـــه

ونقل الراغب الأصبهانى قوله كذلك فى الشعر(٢٧) :

إنما الشعر ما تحصل من قبل ... ظهور الأقوال والأشعار
فأتى لفظه يطابق معنا ... ه بحسن الايراد والاصدار
مطمع مويس قريب إلى الفهم ... بعيد الاغوار ، صافى القرار

قد يكون هذان النصان من قصيدته المطولة التى نظمها فى أربعة آلاف بيت ، وجعلها فى العلوم ، أى جعلها متنا فى أصول العلوم ، ومن بينها علم الشعر . وإذا صح قول ابن خلكان أنها على روى واحد فأنا نفترض أنها على الأقل قطعة منها ، ولعلها الأولى النونية .

الفصل السادس
شعر الطبع والزندقة

ويمكن أن نصنّف فى هذا الإتجاه المطبوع بالكوفة أمثال مطيع بن اياس ووالبة بن الحباب ويحيى بن زياد ، وقد كان معهم أحيانا أبو العتاهية ، وانضم اليهم أبو نواس وتخرج على يدى والبة . كذلك ربما اتصل بهم حماد عجرد . وأبان بن عبد الحميد .

وتمثل هذه المدرسة الكوفية من المطبوعين اتجاها بعينه قد يبدو منه الاستخفاف بالحياة وبكل ما هو من مقدساتها ، والاستخفاف بالقيم الدينية والاجتماعية ، والمضى فى ذلك إلى حد التطرف .

ونشير إلى واحد من هذه المدرسة وهو مطيع ابن اياس . ولد ونشأ بالكوفة ، ويرى أبو الفرج أن نسبه فى بنى كنانة بن اياس[1] (توفى سنة ١٦٩ هـ) . والمعلومات عن حياته قليلة وغامضة ، ويبدو أنه مات ولم يعقب ذكورا ، وكانت له بنت واحدة .

وقد اشتهر فى أخريات الدولة الأموية بعد اتصاله بالوليد ابن يزيد الخليفة الأموى . وظل ملازما له إلى أن قتل فعاد الشاعر إلى الكوفة . ونعرف أن الوليد كان عابثا مستهترا رقيق الاعتقاد والدين ، أو قل هكذا صوره التاريخ ، وقد ذكر من أخلاقه وشعره ما يقارب أخلاق مطيع وشعره وقد بعث الوليد اليه يحضره من الكوفة ليقيم معه فى قصره بالرصافة فى البادية وظل ملازما له حتى قتل .

وصف أبو الفرج ابن اياس فقال : أنه ظريف خليع ماجن ، وأطرى حسن عشرته . واعتبره من جماعة الزنادقة .

وليس من شك فى أن مطيعا لم يكن مهتما بالشعائر الإسلامية ، وهو لم يثبت اعتقاده كذلك فى دين من أديان الفرس أو غيرهم كالمانوية والديصانية والمرقيونية ، لا نستطيع أن نعزو اليه مذهبا خاصا سوى بعض الميل الى التشيع ،

(١) طبقات شعرا المحدثين لابن المعتز ٢٤١ ، تاريخ آداب اللغة العربية لـ بروكلمان ، جـ ٣ ، ص ١٠٤ ، طبع دار المعارف .

وكان هذا الميل غالبا على بيئة الكوفة ، كما كثر معتنقوه بالبصرة ، بل وكان اتجاها شعبيا غالبا فى عصر العباسيين .

كان مطيع اذا معروفا بالظرف والزندقة ، والظرف ملازم للزندقة بمفهومها الاجتماعى . والزندقة بهذا المعنى تعنى الجمع بين ضروب من العبث والمجون كشرب الخمر والتهالك على اللذات والعبث بالنساء والغلمان .

ونسوق مثالا من شعره يصور طابعه العام ، بل طابع شعراء الكوفة أيضا ، وهو طابع البساطة وعدم التكلف ، والتعبير عن وقائع الحياة بسهولة دون عناء . يقول :

إن قلبى قد تصابى	بعد ما كان أنابا
ورماه الحب منه	بسهام فأصابا
قد دهاه شادن يلبـ	ـس فى الجيد سخابا
فهو بدر فى نقاب	فإذا ألقى النقابا
قلت شمس يوم دجن	حسرت عنها السحابا

واتصل مطيع بجماعة من رجال عصره ومشاهيره ، ولعل أشهرهم الوليد بن يزيد الخليفة الأموى العابث ، كما أشرنا ، واتصل كذلك بعبد الله بن جعفر بن أبى طالب والى الرى سنة ١٢٧ هـ ، وقد لازمه الى أن غلبه جنود مروان عند خروجه عليهم ، ثم قتله بعد أبو مسلم الخراسانى سنة ١٢٩ هـ .

ولم تصلنا أخباره بعد مقتل الطالبى وقيام الدولة العباسية أيام السفاح ، لكننا نسمع عنه يرتاد مجالس محمد بن خالد بن عبد الله العشرى أمير الكوفة سنة ١٣٢ هـ . ذهب إلى البصرة فيما يبدو بعد أن نفاه المنصور ومنعه من منادمة ابنه جعفر ، ويبدو أن المهدى عطف عليه ، ولم يحجر عليه ، على ما عرفه فيه من الزندقة ، مع تشدده فى تعقب الزنادقة ، لاعتقاده بأنه يتزندق زندقة اجتماعية سلوكية لا زندقة فكر وعقيدة ، وربما اعتبرت هذه الزندقة ضربا من الحرية الاجتماعية والفردية التى لم يكن المهدى يهتم بالحجر عليها . بل أن خلفاء بنى العباس أطلقوا بعض القيود ، وتركوا للناس كثيرا من الحريات مادامت لا تمس كيان الدولة ، والعقيدة الإسلامية من قريب . وبعد موت المهدى اتصل بالهادى ومات فى أوائل خلافته سنة ١٦٩ هـ .

ويتصل اسم مطيع وأخباره بعصبة المجان بالكوفة ، وهي جماعة من الشعراء ذكرنا أسماءهم يذهبون إلى الزندقة الاجتماعية والحرية أو التحرر في القول والعمل ، وربما كان منشأ هذه العصبة ببلاط الوليد بن يزيد ، بل لعلها نشأت أصلا بالكوفة ثم آوى الوليد جماعة منهم وشجعهم واتخذ موقفهم ، وعمل عملهم وقال كالشعر الذي قالوه روحاً وأسلوباً .

وكان مطيع يعي رأي الناس فيه وفي جماعته ، ويقابل تلك الآراء بعدم الاكتراث ، وقد أطلق عليهم الناس اسم الخلعاء ، أي الذين خلعهم المجتمع . والعجيب أنهم كانوا يتباهون بهذا اللقب فكل منهم يسمى نفسه الخليع . ويخاطب أصحابه به تباهيا لا تنابذا أو ازدراء .

وكان طبيعيا أن يرتبط مطيع بجماعة الخلعاء من عصبة المجان ، أو الزنادقة ، وتكثر صلاته واجتماعاته بهم ، كما أنه كان من الطبيعي أن يحدث بعض الخلاف ويتبادلون الهجاء ، والعبث والتنابذ ، وقد يفحشون في عبثهم ، وممن ربطت الاخبار بينه وبينهم حماد عجرد ، ويحيى بن زياد الحارثي .

وكان كثير المماحكة لهذا الأخير ، وكان كثير الحب له وملازمته حتى آخر حياته .

ولم تكن صلاته قاصرة على هذه العصبة ، بل اتصل بجماعة من العلماء والكتاب في عصره .

وكان مطيع مثالا للخلعاء الزنادقة في حلاوة الحديث وظرف اللسان ، وجاذبية الشخصية فقد كانت تلك سمات عامة لكل زنديق ، وأبو نواس يقول :

« تيه مغن وظرف زنديق »

وكان كثير الاتصال بالقينات والجواري في بيوت القيان ، يعابثهن ويعابثنه ويروى شعره كل ذلك ، كما علق بالغلمان ولم يوله بهم وله غيره أمثال والبة وأبي نواس .

وكان حديثه في شعره عن تلك الصلات حديثا صريحا مكشوفا لا مواربة فيه ولا حياء ، مثله في ذلك مثل بشار في شعره الفاضح .

وربما عثرنا في بعض شعره من ذلك العبث والمجون ، وشعر الجنس . على

شذرات من شعر العاطفة ، وخاصة فى تلك الفتاة التى تدعى « جوهر » ، يذكر بشعر بشار فى عبدة . وهو أظهر ما تهجره وتفارقه .

وجوهر جارية من كثيرات تعشقهن ، أو غازلهن ، أو علق بهن زمنا ، ونسمع منه عن مكنونة ، وريم ، وبربر .

ونفهم من حديثه عن جوهر أن لها صاحبة كانت تسمى بربر ، ويبدو أنها كانت تدير بيتا للقينات .

ومن غزله :

لما خرجن من الرصا	فة كالتماثيل الحسان
يخففن أحور كالغزا	ل يميسُ فى جدل العنان
يقطعن قلبى حسرة	وتقسما بين الأمانى
ويلى على تلك الشما	ئل واللطيف من المعانى
يا طول حر صبابتى	بين الغوانى والقيان

ويقول وقد خرج الى الحج كما فعل بشار مع صاحبه ، فعرجا على دير بالحيرة :

خرجنا نبتغى مكة	حجاجا وزوارا
فلما قدم الحيرة	حادى جملى حارا
وقد كاد يغور النجـ	ـم للاصباح أوغارا
فقلت أحطط بها رحلى	ولا تحفل بمن سارا
فجددنا عهودا سلفت	منا وآثارا
وقضينا لبانات	لنا كانت وأوطارا
وصاحبنا بها ديرا	وقسيسا وخمارا
وظبى عاقدا بين[1]	النقا والخصر زنَّارا

ويصف دعوة اجتمع فيها مع صحبته[1] :

نعم لنا نبيذ	وعندنا حماد
وخبزنا كثير	والخير مستزاد

(١) الأغانى جـ ٢ ، الديارات ، وشعراء عباسيون ٤٤ .

وكلنا من طرب يطير أو يكاد
فلهونا لذيذ لم يلهه العباد
ان تشتهى فسادا فعندنا الفساد
أو تشتهى غلاما فعندنا زياد

ويقول معبرا عن اتجاهه وأصحابه :

إخلع غدارك فى الهوى واشرب معتقة الدنان
وصل القبيح مجاهرا فالعيش فى وصل القيان
لا يلهينك غير ما تهوى فإن العمر فان

ويصنع سوى هذا الشعر فى اللذات ، والمجون ، شعراً آخر فيه الطابع الإنسانى ، فيه الحنين والحنان ، وفيه الأسى من فوت الزمان وضياع الشباب ، وفيه اللوعة بالفراق . ومنه تلك الأبيات التى قالها فى وداع ابنته(١) :

ولقد قلت لابنتى وهى تبكى بانسكاب الدموع قلبا كئيبا
اسكتى قد حَزَزْتِ بالدمع قلبى طالما حز دمعكن القلوبا
ودعى أن تقطعى الآن قلبى وتريني فى رحلتى التعذيبا
فعسى الله أن يدافع عنى ريب ما تحذرين حتى أؤوبا
ليس شيء يشاؤه ذو المعالى بعزيز عليه فادعى إلمجيبا
أنا فى قبضة الإله إذا كنـ ـت بعيدا أو كنت منك قريبا

ويقول فى نخلتين قامتا فى بلاد فارس النائية حيث لا ينبت النخل فى بلد اسمه حلوان هناك ذكرتاه ببلاده العربية حيث النخيل فيحن ويتذكر ويقول فى نغمة يمزج فيها الأسى والحنين :

أسعدانى يا نخلتى حلوان وأبكيا لى من ريب هذا الزمان
واعلما أن ريبه لم يزل يفـر ق بين الألاف والجيران
ولعمرى لو ذقتما ألم الفرقـ ـة أبكاكما الذى أبكانى
أسعدانى وأيقنا أن نحسا سوف يلقاكما فتفترقان
كم رمتنى صروف هذى الليالى بفراق الأحباب والخلان

(١) شعراء عباسيون ، ص ٣٣ ، الأغانى جـ ١٢ .

غير أني لم تلق نفس كمالا ... قيت من فرقة ابنه الدهقان
جرة لى بالرى تذهب همى ... ويسلى دنوها أحزانى
فجعتنى الأيام أغبط ما كنـ ... ـت بصدع للبين غير مدان
وبرغمى أصبحت لا تراها العيـ ... ـين منى وأصبحت لا ترانى
أن يكن قد تركتنى قد تركت بى ... لهبا فى الضمير ليس بوان
كحريق الضرام فى قصب الغا ... ب رمته رياح تختلفان
فعليك السلام منى ما صاغ ... سلاما عقلى وفاض لسانى

ومثل هذه النغمة الحزينة التى بدأت تظهر فى شعره المتأخر نجدها فى الأبيات التى يشكو فيها فراق الشباب . يقول(١) :

إنى لباك على الشباب وما ... أعرف من شوق ومن طرب
ومن تصابىَّ أن صبوت ومن ... نارى اذا ما استعرت فى لهبى
أبكى خليلا ولى ببهجته ... بان بأثواب جدة قشب
على الأفحم الأثيث مهتدلا ... على جبينى تهدل العنب
كان صفيى دون الصفى وذا الألـ ... ـفة منى فى الود والحدب
كان خليلى على الزمان فان ... رأب ريب أنى فلم يرب
كان اذا نمت قال قم فاذا ... قمت سما بى لأعظم الرتب
وكان أنسى إذا فرغت له ... وكان حصنى فى شدة الكرب
وابأبى أنت من أخى ثقة ... لو كان تغنى مقالتى بأبى
كل خليل مضى ففارقنى ... كان شعرى لونوى فلم يغب
فلزعه عنى يا زمان فقد ... صرت له فى الأذى وفى التعب
ويحك يا دهر كيف جئت بما ... أكره جهرا على من كثب
شوهتنى بعد منظر حسن ... كان فيه سبائك الذهب
قلبت لونى إلى السواد وقد ... بيضت رأسى فصار كالعصب
ما زلت ترمى نحى فترهقه ... وتنتحى بالفتور فى عصبى
حتى كأنى ولم أقم لَغِبٌ ... وكنت أعلو الذرى بلا لَغَبِ

ولمطيع بن اياس ديون جمع بعد وفاته وذكره ابن النديم فى الفهرست ، لكنه لم يصل الينا ، وكان يقع فى ١١٠ ورقات .

(١) شعراء عباسيون ، ص ٣٣ .

ويرى العلماء أن مطيعا لم يكن من الفحول ، وأنه لم يكن متقدما كذلك فى طبقته ، ويقدم عليه الجاحظ أبان بن عبد الحميد .

وقد تناقلت شعره كتب الأدب ، وغنى فيه المغنون فى بلاط الخلفاء لرقته وسهولته ، وتناقلته عامة الناس بالكوفة والبصرة وبغداد أكثر من خاصتهم .

أبان بن عبد الحميد اللاحقى

(ت ٢٠٠ هـ) وكان كما يقول ابن المعتز : أديبا عالما ظريفا مِنْطِيقاً مطبوعا فى الشعر مقتدرا عليه ، يقتضب الخطب ويرسل الرسائل الجياد .

وهو صاحب البرامكة وشاعرهم ، وصاحب جوائزهم للشعراء . يقول مقدما نفسه لجعفر بن يحيى البرمكى مشيدا بمواهبه :

أَنَا من حاجَةِ الأميرِ وكنزٌ ... من كُنوزِ الأميرِ ذو أرباحِ
كاتبٌ حاسبٌ أديبٌ أريبٌ ... ناصحٌ راجحٌ على النُّصَّاحِ
شاعرٌ مُفلقٌ أخفُّ من الرِّيشـ ... ـةِ مما يكونُ تحتَ الجَناحِ
لو رآنى الأميرُ عاينَ منِّى ... شمَّرِيًّا كالبُلْبُلِ الصَّيَّاحِ
لحيةٌ سبطةٌ وأنفٌ طويلٌ ... واتّقادٌ كشُعلةِ المصباحِ
لستُ بالمفْرِطِ الطَّوِيلِ ولا ... بالمستكِنِّ المجحْدَرِ الدِّحْدَاحِ
أيمنُ الناسِ طائراً يوم صيْدٍ ... لغُدُوٍّ دُعيتُ أو لرَوَاحِ
أبصرُ النَّاسِ بالجوارِحِ والأكلْـ ... ـبِ والخُرَّدِ الصِّبَاحِ المِلاحِ

وهى صفات تليق بالسمير والصاحب ، وقد نجح فى الدور الذى شغله عند البرامكة نديما وشاعرا وسميرا ، فيه خفة الظل واللباقة والمعرفة بكل ما يحتاج إليه السيد أو الرئيس ، وفيه فضل من الفكاهة وسرعة البديهة والعلم ، زيادة على يمن الطالع لمن يصطفيه .

وهكذا ظل أبان نديما للبرامكة ولهارون الرشيد ، ونورد بقية القصيدة فى رواية أخرى[1] :

لِىَ فى النَّحوِ فِطْنَةٌ واتِّقادٌ ... أنا فيهِ قلادةٌ بوشاحِ
لو رمَى بى الأميرُ أصلحهُ اللهُ ... رماحا حطمتُ سمرَ الرِّماحِ

(١) راجع مطالع البدور للغزولى ١ /١٨١ ، والأوراق للصولى ، جمع ج. هيوارث دن .

وكثيرُ الحديثِ من مُلح النّا ... س بصيرٌ بحالياتِ ملاحِ
كم وكم قد خبأتَ عِندى حديثاً ... هو عند الأمير كالتُفاحِ
فبمثلى تَخْلو الملوكُ وتلْهو ... وتُناجِى فى المُشكِلِ الفدّاحِ
كلُّ هذا جمعْتُ والحمْدُ لله ... على أنّنى ظريفُ المُزاحِ
لستُ بالنّاسِك المشمِّر كُمّيْـ ... ـهِ ولا الفاتِكِ الخليعِ الوقّاحِ

وعما نقله من صور الحياة بلفظ سهل متداول جار على الألسنة قوله يصف عُرْساً[1] :

لما رأيتُ البزَّ والشّارَةْ ... والفرشَ قد ضاقَتْ به الحَارَةْ
واللّوزَ والسُّكّرَ يُرْمى بِهِ ... من فَوْقِ ذِى الدّارِ وذِى الدّارَةْ
من كلِّ صنف أتَوْا بعضَهُ ... من صاحب طَبْل وزُمّارَةْ
قلتُ لماذا قيلَ اعجُوبَةٌ ... مُحمَّدٌ قَد زُوِّجَ عمّارَةْ

وكانت عمارة ، أمرأة نَزِيَّة تسكن بجواره ، وكان محمد رجلاً يعاديه .

وقال يعاتب صاحب جوار وقيان بالبصرة اسمه أبو النضير ، وكانت جواريه يخرجن إلى حلة أهل البصرة فكان أبان يهجوه بذلك ، فيصفهن بالبرود[2] :

قيانُ أبى النَّضِيرِ مُثَلَّجاتٌ ... غناء مثل شعر أبى النضير
فأن رمت الغناء لديه فاجهد ... إذا ما جئته للزمهرير

ولقدرته على صياغة الشعر السهل نقل كليلة ودمنة شعرا بتلك الألفاظ الحسنة العجيبة كما يقول ابن المعتز[3] قال : وهى هذه المزدوجة التى فى أيدى الناس . وقد نظمه فى أربعة أشهر وهى قريبة من خمسة آلاف بيت . ولم يقدر أحد أن يتعلق عليه بخطأ فى نقله ولا أن يقول ترك من لفظ الكتاب أو معناه . ثم حمله إلى يحيى بن خالد فسر به سرورا عظيما وأعطاه على ذلك ألف درهم .

وله عدة منظومات أخرى مثل كتاب مزدك ، وكتاب السندباد ، وسيرة أردشير ، وسيرة أنو شروان .

---

(1) الأوراق ص ٢٤ .
(2) شرح الأمالى ١ /٢٧٧ .
(3) طبقات المحدثين ٢٠٣ .

وله قصيدة كونية فى أحوال الدنيا تسمى ذات الحلل ، كما نظم فى فرائض الصوم . وصنف كتبا فى حكم الهند ، والصيام والاعتكاف . وكتب بعض الرسائل . قال ابن المعتز : يقتضب الخطب ويرسل الرسائل الجياد . واتصل الهجاء بينه وبين أبى نواس فقد رد عليه قصيدته المذكورة وكان ينفى عليه مكانته عند البرامكة ، يقول أبو نواس :

انت أولى بخسة الحظ منى ... للمسمى يا لبلبل الصياح
قبلوا منه حين غنى لديهم ... اخرس الصوت غير ذى إفصاح
ثـــم بالريـــش شبهه ... مما يكون تحت الجناح
لم يكن فيك غير شيئين مما ... قلت من بعد خلقك الدحداح
لحية سبطة وأنف طويل ... وهباء سواهما فى الرياح
فيك ما يحمل الملوك على الخرق ... ويزرى بالسيد الجحجاح
فيك قبح وفيك عجب شديد ... وطماح يفوق كل طماح
بارد الطرف مظلم الكذب تيا ... ه معيد الحديث غث المزاح

وقد رماه فى قصيدة أخرى بالزندقة ، وأشرنا إلى هذا الحديث من قبل ، وتوفى أبان بن عبد الحميد سنة ٢٠٠ هـ[1] .

---

(١) راجع فيه : الأغانى طبع بولاق ، جـ ٢٠ /٧٣ وما بعدها ، تاريخ بغداد الخطيب البغدادى ٧ /٤٤ . الأوراق للصولى ١ /٥٣ وما بعدها ، الفهرست لابن النديم ١١٩ــ١٦٣ ، الوزراء الجهشيارى ، ص ٢٥٩ ، حديث الأربعاء لطه حسين ٢ /٢٦٢ــ٢٧٨ ، عصر المأمون لأحمد فريد الرفاعى ١ /٤٢٩ــ٤٣٤ .



مصادر ومراجع

١ ـ **أبو الفرج الأصفهاني** : الأغاني ، طبع دار الكتب المصرية ، والأغاني طبع دار الكتب العلمية ، بيروت .

أشجع السلمي : مجموعة شعره جمع وتحقيق د. خليل الحسون ، بيروت سنة ١٩٧٧ .

٢ ـ **أحمد أمين (دكتور)** : فجر الإسلام ، طبع لجنة التأليف بمصر .

٣ ـ ضحى الإسلام ، طبع لجنة التأليف بمصر .

٤ . ظهر الإسلام ، طبع لجنة التأليف بمصر .

٥ ـ **الآمدى** : الموازنة بين أبي تمام والبحترى ، طبع دار المعارف بمصر .

٦ ـ **أحمد حسين القرنى** : بشار بن برد ، طبع القاهرة سنة ١٩٢٥ م .

٧ ـ **أحمد فريد الرفاعى** : عصر المأمون .

٨ ـ **إبراهيم عبد القادر المازنى** : بشار بن برد ، مجموعة أعلام الإسلام .

٩ ـ **ابن الأثير** : جوهر الكنز ، تحقيق محمد زغلول سلام ، طبع منشأة المعارف باسكندرية .

١٠ـ **الأشناندانى** : معانى الشعر ، ط. دمشق ١٩٢٢ م .

١١ـ **ابراهيم سلامة** : بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ، طبع مصر سنة ١٩٥١ م .

١٢ـ **ابراهيم أنيس** : من أسرار اللغة ، طبع مصر ، ١٩٥٤ م .

١٣ـ **ألبير نصرى** : فلسفة المعتزلة ، طبع مصر سنة ١٩٥٠ م .

١٤ـ **ابن الأنبارى** : نزهة الألباء .

١٥ـ **ابن الأثير ـ عز الدين** : الكامل فى التاريخ ، طبع الاستقامة بمصر .

١٦ـ **أبو نواس ـ الحسن بن هانىء** : ديوانه بتحقيق حسين الميرصفى ، طبع دار المعارف .

١٧ـ **إيليا حاوى** : ابن الرومى ، فنه ونفسيته من خلال شعره ، طبع الكتاب اللبنانى ، بيروت سنة ١٩٨٠ م .

١٨ــ أبو العتاهية : ديوانه ، طبع بيروت .

١٩ ــ **أبو دُلامة الأسدى** : ديوانه ، جمع وإعداد الدكتور رشدى على ، طبع مؤسسة الرسالة ، بيروت سنة ١٩٨٥ م .

٢٠ــ **الأشعرى** : مقالات الإسلاميين بتحقيق محيى الدين عبد الحميد ، طبع مصر سنة ١٩٥٠ م .

٢١ــ **الأبشيهى** : المستطرف من كل فن مستطرف .

٢٢ــ **بشار بن برد** : ديوانه بتحقيق محمد الطاهر بن عاشور ، ٣ أجزاء من ١٩٥٠ــ١٩٥٧ م .

٢٣ــ **بروكلمان** : تاريخ آداب اللغة العربية ، ترجمة جماعة من الأساتذة ، طبع دار المعارف بمصر .

٢٤ــ **البغدادى (الخطيب)** : تاريخ بغداد ، طبع السعادة بمصر سنة ١٩٣١ م .

٢٥ــ **البطليوسى** : شرح أدب الكتاب لابن قتيبة (الاقتضاب) ، طبع بيروت سنة ١٩٠١ م .

٢٦ــ **البغدادى** : الفرق بين الفرق .

٢٧ــ **البغدادى** : خزانة الأدب ، بتحقيق عبد السلام هارون .

٢٨ــ **الباقلانى** : إعجاز القرآن ، طبع السعادة ١٣٤٩ هـ .

٢٩ــ **الباقلانى** : التمهيد ، تحقيق أبو ريدة ، طبع السعادة سنة ١٣٤٩ هـ .

٣٠ــ **البهيتى** : محمد نجيب ، أبو تمام ، طبع مصر سنة ١٩٤٥ م .

٣١ــ **بلاشير** : تاريخ آداب اللغة العربية ، ترجمة سيد كيلانى ، طبع دمشق .

٣٢ــ **بللا (شارل)** : الجاحظ (الوسط البصرى وتكوين الجاحظ) ، ترجمة سيد كيلانى ، طبع دمشق .

٣٣ــ مجموعة رسائل للجاحظ .

٣٤ــ البحترى : ديوانه ، طبع دار المعارف بمصر .
٣٥ــ البيهقى : المحاسن والمساوىء ، طبع دار صادر بيروت ، ١٩٦٠ م .
٣٦ــ أبو تمام (حبيب بن أوس) : ديوانه ، طبع دار المعارف .
٣٧ــ ديوانه طبع محمد حجال .
٣٨ــ التوحيدى (أبو حيان) : البصائر والذخائر .
٣٩ــ الهوامل والشوامل .
٤٠ــ الامتاع والمؤانسة .
٤١ــ المقابســـات .
٤٢ــ ابن تيمية : تفسير سورة الإخلاص ، طبع المنيرية بالقاهرة ، سنة ١٣٥٢ هـ .
٤٣ــ ثعلب (أحمد بن يحيى) : قواعد الشعر بتحقيق خفاجى ، طبع مصر سنة ١٩٤٨ م .
٤٤ــ مجالس ثعلب ، بتحقيق عبد السلام هارون ، طبع مصر .
٤٥ــ الثعالبى : يتيمة الدهر ، طبع دار الكتب العلمية ، بيروت .
٤٦ــ لطائف المعارف ، تحقيق الأبيارى والصيرفى ، طبع الحلبى بمصر .
٤٧ــ تحسين القبيح ، تحقيق شاكر العاشور ، بغداد سنة ١٩٨١ م .
٤٨ــ التوفيق للتلفيق ، تحقيق جلال ناجى وزهير زاهد ، بغداد سنة ١٩٨٥ م .
٤٩ــ ابن الجوزى : المنتظم فى التاريخ .
٥٠ــ الجاحظ ــ عمرو بن بحر : الحيوان ، بتحقيق عبد السلام هارون ، طبع التجارية بالقاهرة .
٥١ــ البيان والتبيين ، بتحقيق عبد السلام هارون ، طبع التجارية بالقاهرة .

٥٢ــ **الجاحظ** : مجموعة رسائل ، بتحقيق عبد السلام هارون ، طبع التجارية بالقاهرة .

٥٣ــ **الجوارى (أحمد عبد الستار** : الشعر فى بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجرى ، بيروت سنة ١٩٥٠ م .

٥٤ــ **جرونباوم ــ جوستاف . ف.** : شعراء عباسيين ، ترجمة دكتور محمد يوسف نجم ، و د. إحسان عباس ، طبع مكتبة الحياة ، بيروت سنة ١٩٥٩ م .

٥٥ــ **جرونباوم** : دراسات فى الأدب العربى ، ترجمة إحسان عباس وآخرين ، طبع دار الحياة ، بيروت سنة ١٩٥٩ م .

٥٦ــ **الجهشيارى (محمد بن عبدوس)** : الوزراء والكتاب ، نصوص ضائعة ، جمع ميخائيل عواد ، طبع دار الكتاب اللبنانى سنة ١٩٦٤ م .

٥٧ــ **الجرجانى (القاضى عبد العزيز)** : الوساطة بين المتنبى وخصومه ، تحقيق أبو الفضل ابراهيم ، طبع الحلبى .

٥٨ــ **ابن أبى الحديد (محيى الدين عبد الحميد)** : شرح نهج البلاغة ، طبع دار احياء الكتب العربية ، سنة ١٩٦٤ .

٥٩ــ **حسن إبراهيم حسن** . تاريخ الإسلام السياسى ، النهضة بمصر سنة ١٩٥٩ م .

٦٠ــ **الحسين بن الضحاك (الخليع)** : أشعاره ، جمع وتحقيق عبد الستار فراج ، دار الثقافة .

٦١ــ **الحسين بن مطير الأسدى** : مجموعة شعره ، بيروت سنة ١٩٦٠ م .

٦٢ــ **حسين محمد سليمان (دكتور)** : الدولة الإسلامية فى العصر العباسى ، الرياض سنة ١٩٨٤ م .

٦٣ــ **حسين منصور** : بشار بن بردين ، الجد والمجون ، طبع التجارية بالقاهرة سنة ١٩٣٠ م .

٦٤ــ **أبو حيان التوحيدى** : البصائر والذخائر .

٦٥ـ أبو حيـــان الامتـاع والمؤانسة .
٦٦ـ ،، الهوامل والشوامل .
٦٧ـ ،، المقابســـات .
٦٨ـ ،، الصداقة والصديق .

٦٩ـ **الحاجرى ـ محمد طه** : الجاحظ ، طبع دار المعارف بمصر .

٧٠ـ ،، ،، : بشار بن برد ، نوابغ الفكر ، طبع دار المعارف بمصر .

٧١ـ **الحاجـــرى** : البخلاء ، دطبع دار المعارف .

٧٢ـ **الحصرى القيروانى** : زهر الآداب ، تحقيق زكى مبارك .

٧٣ـ **ابن خلكان (القاضى)** : وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، طبع بيروت .

٧٤ـ **ابن خلدون** : تاريخه ، طبع دار الكتاب اللبنانى ، سنة ١٩٥٧ م .

٧٥ـ **خفاجى ـ محمد عبد المنعم** : ابن المعتز وتراثه آلعلمى والأدبى ، طبع مصر .

٧٦ـ **الخزيمى ـ أبو يعقوب اسحاق بن حسان** : ديوانه ، جمع وتحقيق على جواد الطاهر ، بيروت سنة ١٩٧١ م .

٧٧ـ **الدميرى** : حياة الحيوان الكبرى .

٧٨ـ **ديبور** : تاريخ الفلسفة الإسلامية ، ترجمة أبو ريده .

٧٩ـ **الذهبى** : تذكرة الحفاظ .

٨٠ـ **ديك الجن** : ديوانه ، تحقيق د. أحمد مطلوب ، و د. عبد الله الجبورى ، طبع دار الثقافة ، بيروت .

٨١ـ **دعبل بن على الخزاعى** : ديوانه ، تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم ، طبع دار الثقافة ، بيروت سنة ١٩٦٢ م .

٨٢ـ **الرقيق القيروانى** : قطب السرور ، تحقيق أحمد الجندى ، طبع دمشق سنة ١٩٦٩ م .

٨٣- **الراغب الأصبهانى** : محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء .

٨٤- **ابن رشيق القيروانى** : العمدة .

٨٥- **ابن الرومى** : ديوانه ، تحقيق د. حسين نصار ، طبع دار الكتب بمصر .

٨٦- **ريفون جست** : ابن الرومى ، ترجمة د. حسين نصار ، طبع دار الثقافة ، بيروت .

٨٧- **الزجاجى** : الأمالى ، طبع السعادة بمصر سنة ١٣٢٣ هـ .

٨٨- **أبو زيد القرشى** : النوادر ، طبع بيروت سنة ١٨٩٤ م .

٨٩- **زكى مبارك** : النثر الفنى فى القرن الرابع ، ط دار الكتب المصرية ، سنة ١٩٣٤ م .

٩٠- **زهدى جار الله** : المعتزلة ، طبع مصر ، سنة ١٩٤٧ م .

٩١- **السمعانى** : الأنساب ، طبع أوروبا .

٩٢- **السيوطى** : بغية الوعاة ، ط الخانجى ، سنة ١٣٢٦ هـ .

٩٣- **السيراف** : أخبار النحويين البصريين .

٩٤- **السيد الحميرى** : ديوانه ، تحقيق شاكر هادى شاكر ، طبع مطبعة الحياة ، بيروت .

٩٥- **سهل بن هارون** : كتاب النمر والثعلب ، تحقيق عبد القادر المهيرى ، تونس ١٩٧٣ .

٩٦- **شوقى ضيف** : العصر العباسى ، طبع دار المعارف .

٩٧- **ابن شاكر الكبتى** : عيون التواريخ .

٩٨- " " : فوات الوفيات ، طبع بيروت ، بتحقيق د. احسان عباس .

٩٩- **الشهرستانى** : الملل والنحل ، ط. ليبزج ، سنة ١٩٢٨ م .

١٠٠ـ **شفيق جبري** : الجاحظ معلم العقل ، ط. دار المعارف بمصر ، سنة ١٩٤٨ م .

١٠١ـ **الشمشاطي** : الأنوار ومحاسن الأشعار ، تحقيق صالح مهدى العزاوى ، بغداد سنة ١٩٧٦ م .

١٠٢ـ **الشابشتي** : الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، طبع بغداد سنة ١٩٦٦ م .

١٠٣ـ **الصفدى (صلاح الدين)** : نكت الهميان .

١٠٤ـ **الصفدى** : شرح لامية العجم المسمى بالغيث ، طبع بيروت .

١٠٥ـ **الصفدى** : الوافى بالوفيات . تحقيق جماعة من الأساتذة . طبع المعهد الألمانى .

١٠٦ـ **الصولى (أبو بكر محمد بن يحيى)** : أخبار أبى تمام .

١٠٧ـ " " : أخبار البحترى .

١٠٨ـ " " : أخبار الشعراء من كتاب الأوراق .

١٠٩ـ **صريع الغوانى (مسلم بن الوليد)** : شرح ديوانه ، تحقيق د. سامى الدهان ، طبع دار المعارف بمصر ، مسلسل ذخائر العرب .

١١٠ـ **طه حسين** : حديث الأربعاء ، طبع دار المعارف بمصر .

١١١ـ **الطبرى (محمد بن جرير)** : تاريخه .

١١٢ـ **الطقطقى** : الفخرى فى الأداب السلطانية .

١١٣ـ **على بن جبلة** : ديوانه (مجموع شعره) ، جمع وتحقيق د. حسين عطوان ، دار المعارف بمصر .

١١٤ـ **على بن الجهم** : ديوانه .

١١٥ـ **على شلق (دكتور)** : ابن الرومى فى الصورة والوجود ، دار النشر للجامعيين ، ١٩٦٠ م .

١١٦- **العيدى (محمد بن عبد الرحمن)** : التذكرة السعدية ، تحقيق عبد الله الجبورى ، طبع بغداد سنة ١٩٧٢ م .

١١٧- **عباس العقاد** : مراجعات فى الأداب والفنون .

١١٨- ،، ،، : ابن الرومى .

١١٩- ،، ،، : أبو نواس .

١٢٠- **ابن العماد** : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب .

١٢١- **العباس (عبد الرحيم)** : معاهد التنصيص فى شواهد التلخيص ، طبع عالم الكتب ، بيروت .

١٢٢- **عبد الكريم الأشتر** : دعبل بن على الخزاعى ، شاعر آل البيت ، طبع دار الفكر بدمشق .

١٢٣- **عمارة بن عقيل** : ديوانه ، طبع البصرة سنة ١٩٧٣ م .

١٢٤- **العسكرى** : أبو هلال : كتاب الصناعتين .

١٢٥- ،، : الحسن بن عبد الله ، المصون فى الأداب ، طبع الخانجى بمصر سنة ١٩٨٢ م .

١٢٦- ،، : أبو هلال : ديوان المعانى ، طبع عالم الكتب .

١٢٧- **فايز القيسى** : محمد بن عبد الملك الزيات ، طبع العالمية ، بيروت سنة ١٩٨٣ م .

١٢٨- **ابن قتيبة** : الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، طبع دار المعارف بمصر .

١٢٩- ابن قتيبة الإمامة والسياسة ، طبع مصر سنة ١٩٣٧ .

١٣٠- الأشـــربة .

١٣١- ،، تأويل مختلف الحديث .

١٣٢- ،، عيون الأخبار .

١٣٣- ،، أدب الكاتب .

١٣٤- ،، الرد على الجهمية والمشبهة .

١٣٥- ،، المعـــارف .

١٣٦ــ **ابن قتيبة** بيان مشكل القرآن بتحقيق سيد صقر .
١٣٧ــ **قدامة بن جعفر** : نقد الشعر .
١٣٨ــ ،، ،، : الخراج ، تحقيق الدكتور محمد حسين الزبيدى ، دار الرشيد .
١٣٩ــ **قحطان رشيد التميمي** : مروان بن أبي حفصه وشعره ، بغداد- سنة ١٩٨١ م .
١٤٠ــ **القفطي (علي بن يوسف)** : إنباه الرواة ، طبع دار الكتب بمصر سنة ١٩٥٠ م .
١٤١ــ **القالي (أبو علي)** : الأمالي .
١٤٢ــ **القلقشندى** : صبح الأعشى ، طبع دار الكتب بمصر .
١٤٣ــ ،، : مآثر الإنافة في معالم الخلافة ، بتحقيق عبد الستار فراج ، طبع عالم الكتب ، بيروت .
١٤٤ــ **ابن كثير** : البداية والنهاية .
١٤٥ــ **لويس شيخو** : مجاني الأدب .
١٤٦ــ **المبرد** : الكامل في اللغة والأدب .
١٤٧ــ **محمود الوراق** : شعره ، جمع الدكتور وليد قصّاب .
١٤٨ــ **مروان بن أبي حفصة** : شعره مجموع ، تحقيق قحطان التميمي ، النجف بالعراق ، سنة ١٩٧٢ م .
١٤٩ــ **منسز (آدم)**: الحضارة في القرن الرابع ، ترجمة أبو ريده .
١٥٠ــ **ابن المعتز** : البديع .
١٥١ــ ،، : طبقات شعراء المحدثين ، طبع دار المعارف بمصر .
١٥٢ــ **المرزباني** : معجم الشعراء .
١٥٣ــ ،، : الموشح .
١٥٤ــ **النواجي** : حلية الكميت .
١٥٥ــ **النويهي ــ محمد**: شخصية بشار ، طبع القاهرة .
١٥٦ــ **النعمان القاضي** : جدل أبي تمام في الشعر ، مُستلّة من مجلة كلية آداب القاهرة ، سنة ١٩٥٥ م .

١٥٧ـ النويرى : نهاية الأدب ، طبع دار الكتب ، القاهرة .
١٥٨ـ ياقوت : معجم الأدباء .
١٥٩ـ يوهان فك : العربية ، مترجم ، طبع مصر .
١٦٠ـ وديعة النجم (دكتورة) : الجاحظ والحاضرة العباسية ، مطبعة الارشاد ، بغداد سنة ١٩٦٥ م .

مراجع أجنبية

Huart-CL.: Histoire Des Arabes

Nicholson- R.A.: A Literary History of the Arabs.

Zolondek, Leon: The Life and Writings of Dibil B. Ali.

Grunebaum, G.V. Von: Medieval Islam a Vital Study of Islam at Zenith.
Grunebaum, (Editor).

Unity and Variety in Muslim Civilization, The University of Chicago Press 1955.

Wensinck, A.J.: The Muslim Creed. Frank Cass & Co. LTD 1965.

Kritzeck, James and R. Bayly Winder Editors.

The World Of Islam, Studies in honour of Philip K. Hitti.

Arnold, Thomas and Alfred Guillaume: The Legacy of Islam. Oxford University Press, 1965.

Arberry, A.J.: Aspects of Islamic Civilization as Depicted in original Texts.

Manfred Halpern: The Politics of Social Change in the Middle East and North Africa.

Gaudefroy-Demombynes, Maurice: Muslim Institutions. George Allen & Unwin LTD. London 1961.

Rosenthal, E.I.J.: Political Thought in Medieval Islam. Cambridge University Press 1962.

John Joseph: The Nestorians and Their Muslim Neighbors. Prinston University Press 1961.

Levy, Reuben: The Social Structure of Islam, Cambridge University Press 1965.

Saunders, J:J.: A History of Medieval Islam Routhedge and Kegan Paul London, 1965.